
سورة المنافقون



سورة المنافقون[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾

فالمنافقون جاءوا إلى رسول الله ليشهدوا بصدق رسالته ، والله سبحانه يعلم أن هذه الشهادة حقٌّ وصدقٌ ، لأنه جلَّ جلاله يعلم أن رسوله ﷺ صادقُ الرسالة ، ولكنه فى الوقت نفسه يشهد بأنّ المنافقين كاذبون ، كيف ؟

كيف يتفق كلام الله مع ما قاله المنافقون ، ثم يكونون كاذبين ؟

نقول : لأن المنافقين قالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فهم شهدوا بألسنتهم فقط أن محمداً ﷺ رسولُ الله ، ولكنّ قلوبهم مُنكِرةٌ لذلك ، مكذِّبة به.

ولذلك فإن ما قاله المنافقون رغم أنه حقيقةٌ إلا أنهم يكذبون ويقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، لأن الصدق هو أن يوافق الكلامُ حقيقةَ ما فى

---

(١) سورة المنافقون هى السورة رقم (٦٣) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ١١ آية . قال القرطبى فى تفسيره : مدنية فى قول الجميع . نزلت فى خصوص غزوة بنى المصطلق سنة ست هجرية بسبب ما قاله عبد الله بن أبى بن سلول . وقد نزلت سورة المنافقون بعد سورة الحج وقبل سورة المجادلة . [ذكره السيوطى فى الإتقان فى علوم القرآن ١/ ٧٨] .

القلب ، وهؤلاء كذبوا لأنهم فى شهادتهم لرسول الله لم يكونوا يُعبِّرون عن واقع قلوبهم ، بل قلوبهم تُكذِّب ما يقولون .

وكثيراً ما يخطيء الناس فى فَهْم الواقع ، فيجدون تناقضاً فى بعض الأساليب ، مثال ذلك حينما تعرَّض بعض المستشرقين لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ .. (١) ﴾ [المنافقون]

تلك نسبة كلامية صدرتْ منهم ، فهل هى مطابقةٌ للواقع أم هى مخالفة له ؟ إنها مطابقة للواقع ، ويؤكد الحق سبحانه ذلك بقوله : ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١) ﴾ [المنافقون] بعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون] ففيمَ كذب المنافقون ؟ هل كذبوا فى قولهم ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ .. (١) ﴾ [المنافقون]

لا .. إن الحق سبحانه لم يُكذِّبهم فى قولهم ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ .. (١) ﴾ [المنافقون] لأن الله قد أيَّد هذه الحقيقة بقوله ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١) ﴾ [المنافقون]

ولكن كذّبهم الله فيما سَهَا عنه المستشرق الناقد عندما قالوا : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ .. (١) ﴾ [المنافقون]

لقد كذّبهم الله فى شهادتهم ، لا فى المشهود به ، وهو أنَّ محمداً ﷺ رسولٌ من الله ، إن الله يعلم أن محمداً رسوله المبعوث منه رحمة للعالمين ، لكن الكذب كان فى شهادتهم هم .

فالحق سبحانه لا يُكذِّبهم فى أن محمداً رسول الله فهذه قضية صادقة ، ولكنه سبحانه قد كذَّبهم فى قضية قالوها وهى (نشهد) لأن قولهم (نشهد) تعنى أن يوافق الكلام المنطوق ما يعتقدون فى قلوبهم .

وقولهـم (نشهـد) هو قوْلٌ لا يتفق مع ما فى قلوبهم ، ولذلك صاروا كذابين ، فلسانُ كلٍّ منهم لا يوافق ما فى قلبه .

وقـد قـال الحق سبحانه فـى آية أخرى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [آل عمران] أى : أنهـم يقولـون كلامـاً ليس لـه نسبة خارجية تطابقه ، وهم يعلمون أنه كذب حتى لا نقول إنهم نطقوا بذلك غفلة .

لقـد تعمـدوا الكذب وهم يعرفـون أنهم يقولون الكذب ، والدقـة تقتضى أننا يجب أنْ نفرِّق بين صِدْق الخبر وصِـدق المخبر ، صدق المخبر هـو أنْ يطابق الواقع لكن أحياناً يكون المخبرُ صادقاً ، والخبر فى ذاته كذبٌ .

كأنْ يقول واحد (إن فلاناً يستذكر طول الليل) لأنه شاهد حجرةَ فلان مضاءة وأنه يفتح كتاباً ، بينما يكون هذا الفلانُ غارقاً فى قراءة رواية ما ، إنَّ المخبر صادقٌ فى هذه الحالة ، لكن الخبر كاذب .

إذن : فهنـاك فَـرْق بـين صدق الخبر وصـدق المخبر عن الخبر ، فـإذا التقى الاعتقـاد بالواقع ، صَدَق الخبرُ وصَدَق المخـبرُ ، وإذا كان الخبرُ موافقاً للواقع ومخالفاً للاعتقاد فالخبر صادق ؛ ولكن المخبر كاذب .

فالمنـافقون شهدوا لفظاً أن رسولَ الله مرسلٌ من عند الله ، هذه قضية صدْق، لكـن الله العليـم بما فى القلوب يكشف أمرهم إلى الرسول فيقول : ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

لقد وافقتْ شهادتُهم بألسنتهم ما علمه الله ، لكن القول منهم يخالف ما فى قلوبهـم ، فشهـد الحقُّ إنهم لكاذبون ، ويعلم سبحـانه كذبهم فى شهادتهم ، لأن المنافـق منهـم لم يشهد صحيـح الشهادة ، لأن الشهادة الحقَّـة هى أنْ يواطيء اللسانُ القلبَ .

وبعض الأغبياء الذين يحاولون الاستدراك على القرآن قد عميتْ بصيرتهم عن الإحساس باللغة والفهم لأسرارها ، لذلك يتخبَّطون فى الفهم ، فهم لا يعرفون صفاء التلقِّى عن **الله** .

وقالوا : إن بالقرآن تضارباً ، وهم يعرفون أن كذب المنافقين لم يكُنْ فى مقولة : إن محمداً رسولُ **الله** ، ولكن فى شهادتهم بذلك وكذّبهم **الله** فى قولهم (نشهد) فقط ، فقد أعلنوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

إن الحق سبحانه أراد أنْ يفضحهم ، فهم قد شهدوا بألسنتهم فقط ولكن قلوبهم منكرةٌ ، وفضح **الله** ما فى قلوبهم ، وأوضح أنَّ ألسنتهم تكذب لأنها لا تنقل صِدْق ما فى قلوبهم .

فالمنافقون : ﴿ **يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** .. (١٦٧) ﴾ [آل عمران] فالقلب عملُه النية الإيمانية ، واللسان قد يقول ولا يفعل ما يقول . ولذلك قلنا : إن المنافق مُوزَّع النفس مُوزَّع الملَكات ، يقول بلسانه كلاماً وقلبه فيه إنكار ، ولذلك سيكونون فى الدرْك الأسفل من النار ، لأنهم غشاشون ونفوسهم مُوزَّعة .

والقول ضرورى بالفم ، لأن القول يُطلق ويُراد به البيان عما فى النفس ، فتوضيح الإنسان لما فى نفسه كتابة يعتبر قولاً – لغةً ، ولذلك فالذى يستحى من واحد أنْ يقول له كلاماً فهو يكتبه له فى ورقة ، فساعة يكتب يكون قد قال.

وهؤلاء المنافقون يقولون كلماتهم لا بوساطة كتاب بل بوساطة أفواههم، وهذا تبجُّح فى النفاق ، فلو كانوا يستحون لَهمَسُوا به ، والأنكَى من هذا أنهم قالوا (نشهد) والشهادة آكد القول وأشدُّه وأقواه .

وقد كان رجل يأتى إلى النبى ﷺ فيقول : أى رسول **الله** أشهد أنك جئتَ

بالحق والصدق من عند الله ، قال : حتى يعجب النبى ﷺ بقوله . ثم يقول الرجل : أما والله يا رسولَ الله ، إن الله ليعلم ما فى قلبى مثل ما نطق به لسانى. فذلك قوله ﴿ وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة]

قال : هؤلاء المنافقون[١] وقرأ قوْل الله تبارك وتعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

فالحق سبحانه يُحذِّرنا ممنْ قال فيهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] أى : الذين يُظهرون من خير خلاف ما يُبطنون من شر.

وليس ممنوعاً أنْ يُعجبك القول ، ولكن فليعجبك فى غير الحياة الدنيا ، فالقول الذى يعجب هو ما يتعلّق بأمر الحياة الآخرة الباقية ليضمنَ لنا الخير عند مَنْ يملك كلَّ الخير.

إن الله سبحانه ينبهنا إلى ضرورة أنْ يكون المسلمُ يقظاً وفطناً ، ولذلك عندما أرسل خليفة المسلمين للإمام جعفر الصادق[٢] يقول له : لماذا لا تغشانا. أى لا تزورنا - كما يغشانا الناس ؟

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٣٩٩٣) قال قال ابن زيد : كان رجل يأتى إلى النبى ﷺ فيقول : أى رسول الله أشهد أنك جئت بالحق والصدق من عند الله . قال : حتى يُعجب النبى ﷺ بقوله . ثم يقول : أما والله يا رسول الله إن الله ليعلم ما فى قلبى مثل ما نطق به لسانى . فذلك قوله : ﴿ وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] قال : هؤلاء المنافقون .

(٢) جعفر الصادق : هو جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين الهاشمى القرشى أبو عبد الله الملقب بالصادق ، ولد بالمدينة المنورة عام ٨٠ هـ ، سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية ، كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة فى العلم ، أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك . ولقب بالصادق لأنه لم يُعرف عنه الكذب قط ، كان جريئاً فى الحق . توفى بالمدينة عام ١٤٨ هـ . عن ٦٨ عاماً . [الأعلام للزركلى ٢/١٢٦] .

فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة يقول : أما بعد ، فليس عندى من الدنيا ما أخاف عليه ، وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له[(١)] .

وكأنه يريد أنْ يقول له : اتركنا وحالنا ، فأنت محتاج لمن يجلس معك ويمدحك ، وأنت لا تعلم أنَّ أولَ أناس لهم رأى سيء فيك هم مَنْ يمدحونك .

وقد نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] فى الأخنس بن شريق الثقفى[(٢)] واسمه أُبيّ ، ولُقِّب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر فلم يقاتل المسلمين مع قريش ، واعتذر لهم بأن العير قد نجتْ من المسلمين وعادت إليه .

وكان ساعة يقابل رسول الله ﷺ يُظهر إسلامه ويُلين القول للرسول ويدَّعى أنه يحبه ، ولكنه بعد أنْ خرج من عند رسول الله مرَّ بزرع وحُمر لقوم من المسلمين ، فأحرق الزرع وقتل الحُمر[(٣)] . والآية وإنْ نزلت فى الأخنس بن شريق فهى تشمل كلَّ منافق .

﴿ وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ[(٤)] الْخِصَامِ .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] لا تقولوا

---

(١) حدث هذا مع الخليفة المنصور العباسى كتب لجعفر الصادق : لم لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟ فأجابه : ليس لنا ما نخافك من أجله ، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له ، ولا أنت فى نعمة فنهنئك ، ولا تراها نقمة فنعزيك بها ، فما نصنع عندك ؟ فكتب إليه المنصور : تصحبنا لتنصحنا فأجابه : من أراد الدنيا لا ينصحك ، ومن أراد الآخرة لا يصحبك . [التذكرة الحمدونية لابن حمدون ١/ ٢٤] .

(٢) الأخنس بن شريق ثقفى حليف بنى زهرة . واسمه أُبى بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبى سلمة . وقد كان من المؤلفة قلوبهم وشهد حنيناً ومات فى أول خلافة عمر بن الخطاب . [الإصابة لابن حجر ١/ ٢٥] . خنس يوم بدر بثلثمائة رجل من حلفائه عن قتال رسول الله ، وكان رجلاً حلو القول والمنظر .

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٤٧٦) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن السدى .

(٤) الألد : أى الأشد خصومة وجدلاً . لُدّ : جمع ألدّ أو جمع لدود . ومنها قوله : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) ﴾ [مريم] أشداء الخصومة . [القاموس القويم ٢/ ١٩١] .

«الله يشهد» ، وإنما هاتوا شهداءكم ليشهدوا على صدق قولكم لأن معنى «يُشهد الله» هو إخبارٌ منه بأنَّ الله يشهد له ، وهو كاذبٌ في هذه ويريد أن يُضفي المصداقية على كذبه بإقحام الله فى المسألة .

وساعة تسمع واحداً يقول لك : أُشهد الله على أنِّى كذا فقُلْ له : هذا إخبارٌ منك بأن الله يشهد ، وأنت قد تكذب فى هذا الخبر ، أنا أفضّل أنْ يشهد اثنان من البشر ولا نقحم الله فى هذه الشهادة .

والمنافقون من أشدِّ الناس عداوةً للمؤمنين وأكثرهم خطراً ، لأنهم يصنعون الفتنة وينشرون الأكاذيب بين المسلمين وهم يدَّعُون أنهم منهم ، ويُخذّلون المجاهدين فى سبيل الله عن الجهاد ، ويُمنُّون المتقاعسين بالنجاة من الموت ويعِدونهم برَغَد العيش .

بل إنهم يطعنون فى ثوابت المجتمع من الفضيلة والأخلاق ، ويدعُون إلى كلِّ ما يهدم الشريعة ويريدون تصدُّع كيان المجتمع المسلم والأسرة المسلمة.

فقد مارس المنافقون هذا فى عهد رسول الله ، لذلك حذَّر منهم الحق سبحانه فى القرآن الكريم فى آياتٍ كثيرة وخاصة سورة البقرة وآل عمران ، وخصَّص لهم سورةً باسمهم وهى سورة (المنافقون) .

وفيها وفى غيرها يفضحهم الله عز وجل ، ويفضح نظرات عيونهم وخبيئات قلوبهم، ويكشف خلجات جوارحهم والمواضيع التى يثيرون فيها الفتن بين المسلمين.

والناسُ فى الحياة الدنيا على ثلاثة أحوال : إما مؤمن ، وإما كافر وإما منافق . والله سبحانه وتعالى فى بداية القرآن الكريم فى سورة البقرة أراد أنْ يعطينا وصف البشر جميعاً بالنسبة لمنهج الله وأنهم ثلاث فئات :

الفئة الأولى : هم المؤمنون ، عرّفنا اللهُ سبحانه صفاتهم فى ثلاث آيات

فقال : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾ [البقرة]

أما الفئة الثانية فهم الكفار ، وعرَّفنا الله سبحانه صفاتهم فى آيتين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾ [البقرة]

وجاء بذكْر المنافقين فعرّف صفاتهم فى ثلاث عشرة آية متتابعة لماذا ؟ لخطورتهم على الدين ، فالذى يهدم الدين هو المنافق ، أما الكافر فنحن نتقيه ونحذره لأنه يُعلن كفره .

أما المنافق فيتظاهر أمامك بالإيمان ولكنه يبطن الشر والكفر ، وقد تحسبه مؤمناً فتُطلعه على أسرارك فيتخذها سلاحاً لطَعْن الدين ، وقد خلق الله فى الإنسان ملكاتٍ متعددة ، ولكى يعيش الإنسان فى سلام مع نفسه ، فلا بدّ أنْ تكون ملكاتُه منسجمةً وغير متناقضة .

فالمؤمن ملكاته منسجمة لأنه اعتقد بقلبه فى الإيمان ، ونطق لسانه بما يعتقد ، فلا تناقض بين ملكاته أبداً ، والكافر قد يُقال إنه يعيش فى سلام مع نفسه ، فقد رفض الإيمان وأنكره بقلبه ولسانه وينطق بذلك .

ولكن الذى فقد السلام مع ملكاته هو المنافق ، إنه فقد السلام مع مجتمعه، وفقد السلام مع نفسه فهو يقول بلسانه ما لا يعتقد قلبه ، يُظهر غير ما يُبطن ويقول غير ما يعتقد ، ويخشى أنْ يكشفه الناسُ فيعيش فى خوف عميق وهو يعتقد أن ذلك شيءٌ مؤقتٌ سينتهى .

ولكـن هـذا التناقض يبقى معه إلى آخر يوم له فى الدنيا ، ثم ينتقل معه إلى الآخرة فينقضّ عليه ليقوده إلى النار ، واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

إذن كلّ ملَكاتهـم انقضَّـتْ عليهـم فـى الآخـرة ، فالسلام الذى كانـوا يتمنونه ويظنونـه لم يُحققـوه ، لا فى حياتهم ولا فى آخرتهم ، فلسان المنافق يشهد عليه، ويداه تشهدان عليه ، ورِجْلاه تشهدان عليه ، والجلود تشهد عليه ، فماذا بقى له ؟

بينـه وبـين ربه تناقض ، وبينه وبين نفسـه تناقض ، وبينه وبين مجتمعه تناقضـ ، وبينه وبين آخرتـه تناقض ، وبينه وبين الكافريـن تناقض ، يقول لسانُه ما ليس فى قلبه .

وقـد وصف الحقُّ سبحانه المنافقين ، فقال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [البقرة]

هـذه أول صفات المنافقين فى القرآن ، يُعلنون الإيمان وفى قلوبهم الكفر ، ولذلك فإنَّ إيمانهم كلّه تظاهر ، إذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم لأنهم يتظاهرون بها ولا يُؤدُّونها عن إيمان .

وإذا أدَّوْا الزكاة فإنها تكون عليهم حسرةً لأنهم ينفقونها وهم لها كارهون، لأنها فى زعمهم نقصٌ من مالهم ، لا يأخذون عليها ثواباً فى الآخرة ، وإذا قُتِلَ واحدٌ منهم فى غزوة انتابهم الحزن والأسى لأنهم أهدروا حياتهم ولم يُقدِّموها فى سبيل الله ، وهكذا يكون كلّ ما يفعلونه شقاءً بالنسبة لهم .

أمـا المؤمن فحين يُصلِّى أو يؤدى الزكاة أو يستشهد فى سبيل الله فهو يرجو

الجنـة ، وأمـا المنـافقون فإنهـم يفعلون كلّ هذا وهم لا يرجـون شيئاً ، فكأنهم بنفاقهـم قد حكـم عليهم الله سبحانه بالشقـاء فى الدنيـا والآخرة ، فلا هُم فى الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل فى سبيل الله ، ولا هم فى الآخرة لهم ثوابُ المؤمن فيما يرجو من الله .

أما الصفة الثانية من صفات المنـافقين فهى صفةٌ تدلُّ على غفلتهم وحُمْق تفكيرهـم ، فإنهم يحسبون أنهم بنفاقهم يخدعـون الله سبحانه وتعالى ، وهل يستطيع بشر أنْ يخدع ربّ العالمين ؟

إن الله عليمٌ بكلِّ شيء ، عليمٌ بما نُخفى وما نُعلن ، عليم بالسِّرِّ وما هو أخفى من السرِّ ، وهل يوجد ما هو أخفى من السرّ ؟

نقـول : نعـم السرّ هو ما أسـررتَ به لغيرك فكأنـه يعلمه اثنـان ، أنت ومَنْ أسررْتَ إليه .

ولكن ما هو أخفى من السرِّ ما تُخفيه فى نفسك ولا تخبر به أحداً ، إنه يظلُّ فـى قلبك لا تُسـرُّ به لإنسان ، والله سبحانه وتعالى يقـول : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فـلا يوجد مخلـوقٌ يستطيع أنْ يخدع خالقه ، ولكنهـم من غفلتهم يحسبون أنهـم يستطيعون خداعَ اللهِ جَلَّ جلالُه ، وفى تصرُّفهم هذا لا يكون هناك سلامٌ بينهم وبين الله ، بل يكون هناك مقْتٌ وغضب .

وهـم فى خداعهـم يحسبون أيضاً أنهم يخدعون الذين آمنوا ، بأنهم يقولون أمامهـم غـير ما يُبطنون ، ولكن هذا الخداع شقاء لهم لأنهم يعيشون فى خوف مستمـر من أنْ يكشفهم المؤمنون أو يستمعوا إليهم فى مجالسهم الخاصة وهم يتحدَّثون بالكفر ويسخرون من المؤمنين .

ولذلك إذا تحدّثوا لابدّ أنْ يتأكدوا أولاً من أنَّ أحداً من المؤمنين لا يسمعهم ويتأكدوا ثانياً من أنَّ أحداً من المؤمنين لن يدخل عليهم وهم يتحدَّثون ، فالخوف يملأ قلوبهم حتى وهم مع المؤمنين ، فكلٌّ واحد منهم يخشى أنْ تفلت منه كلمة تفضح نفاقه وكفره .

وهكذا فلا سلامَ بينهم وبين المؤمنين ، والحقيقة أنهم لا يخدعون إلا أنفسهم، فالله سبحانه وتعالى يعلم نفاقهم ، والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق ، فإنْ لم يعلموه فإنَّ الله يُخبرهم به .

واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ[1] وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ[2] وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ .. (٣٠) ﴾ [محمد]

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

فالله يفضح المنافقين ويُنبيء رسوله ﷺ بما يُضمرونه فى قلوبهم، فخداعهم للمؤمنين رغم أنه خداعُ بشر لبشر إلا أنه أحياناً تفلتُ ألسنتهم فتعرف حقيقتهم .

وإذا لم يُفلت اللسان جاء البيانُ من الله سبحانه وتعالى ليفضحهم وتكون حصيلة هذا كلِّه أنهم لا يخدعون أحداً فالله يعلم سرَّهم وجهرهم ، فمرَّةً يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرّة تُفلت ألسنة المنافقين فيكشفون أنفسهم.

---

(١) بسيماهم : بعلامتهم . السيما والسيماء : العلامة . ويقول تعالى : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ (٢٩) ﴾ [الفتح]. [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

(٢) لحن القول : خطؤه وتحريفه . فقوله : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠) ﴾ [محمد] أى إنك ستعرف المنافقين فى أسلوبهم فى القول بإخفائه وتحريفه . أى : ستعرفهم فى خطأ القول وزلات اللسان . [القاموس القويم ٢/١٩١] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢ ﴾

والأَيْمـان جمـع يمين وهـو الحَلِـف ، فالحلف والأَيْمـان وسيلة مـن وسائل المنافقـين للخـداع التى يُجيدونهـا ويستترون خلفهـا فيتخذونهـا (جُنَّة) أى وقـاية يختبئون وراءها ويحتمون بها حتى لا ينكشف أمرهم .

ومـادة (جنَّ) تعنـى : السَّتر والإخفاء ، ومنهـا (جن الليـل) أى أظلم . والدرع الذى يحمى صدر الجندى اسمه المجنّ .

فـالمنـافقـون يتخذون أيمانهم وحلِفهم وقَسمهم الكاذب جُنَّة تقيهم وتسترهم، وتُخفى ما يُبطنونه من الكفر ليعيشوا بين المسلمين دون أنْ يكتشف أحدُ أمرهم.

لذلـك يقول تعـالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) ﴾ [النساء]

فهم يروْنَ النفاق يُحقّق نفعاً لهم ، فبه يستفيدون من إجراء أحكام الإسلام عليهم ، لذلك فعندما تحدث لهم مصيبة تفضحهم أمام الناس وتكشفهم تجدهم يلجئـون إلى الحلف بـالله كذباً لأنهم يريدون استدامـة نفاقهم ، ويحاولون أنْ يـبرروا ذهـابهم إلى الطاغوت بـأنهم مـا أرادوا إلا الإحسان والمصلحة للتوفيق بينهم وبين خصومهم .

حتى أن الحق سبحـانه قال : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [التوبة] فهـدف الحلف كذباً هنا هـو إرضاء

المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشرَّ .

وهذا دليل غبائهم فالذى يستحقّ الإرضاء هو الله سبحانه ورسوله ، فالإنسان قد يخدع البشر مثله ، ولكن لا يستطيع خداعَ الله سبحانه ، فلا يغيب عن علم الله ولا يفلت من عدالة الله .

والمنافق دائرٌ دائماً فى دائرة الحلف بأغلظ الأيمان لأنه يريد مُداراة كفره، وألاَّ يطلع أحدٌ على خبيئة نفسه المريضة ، أما الكافر الصريح الواضح فى كفره فلا يحتاج إلى ما يستر به كفره .

فالمنافق يُبطن الكفر ويُظهر الإسلام ، يقول الحق : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾ [البقرة]

فهم مع هؤلاء بوجه ، ومع الآخرين بوجه آخر ، لذلك يحتاجون إلى الحلف لأن لا أحدَ يُصدِّقهم ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ .. (٧٤) ﴾ [التوبة]

فعندما دعا رسول الله ﷺ للجهاد فى سبيل الله والذهاب إلى قتال الروم فى غزوة تبوك تلمَّس المنافقون الأعذار الكاذبة حتى لا يذهبوا إلى الجهاد ، فظلَّ القرآن ينزل فى هؤلاء الذين تخلَّفوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين .

فقال رجل اسمه الجلاس بن سويد[1] : والله إن كان ما يقوله محمد عن الذين تخلفوا عن القتال صدقاً فنحن شَرٌّ من الحمير ، وهنا قال عامر بن قيس الأنصارى : لقد صدق رسول الله وأنتم شر من الحمير ، وأنت يا جلاس شر من

---

(١) الجلاس بن سويد أحد ستة وثلاثين منافقاً ، وهو أحد الذين تخلفوا يوم تبوك . ذكره محمد بن حبيب البغدادى فى [المحبّر ١/ ٤٦٧] .

الحمار[١] .

وذهب عامر بن قيس إلى رسول **الله** وأخبره بما حدث ، فاستدعى رسول **الله** الجلاس بن سويد ، وسأله عن الخبر فحلف الجلاس **بالله** أن كل ما قاله عامر ابن قيس لم يحدث ، وأنه لم يقلْ شيئاً يُغضب رسولَ **الله** .

تركه رسول **الله** بعد أنْ حلف **بالله** ، وهنا رفع عامر بن قيس يده إلى السماء وقال : اللهم إنِّي أسألك أنْ تُنزل على عبدك ونبيك محمد تصديقَ الصادق وتكذيبَ الكاذب .

فقال رسول **الله** ﷺ : آمين ، ولم ينتهوا من الدعاء حتى نزل الوحي بقول الحق جلَّ جلاله[٢] : ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ** .. (٧٤) ﴾ [التوبة]

هؤلاء الذين تخلَّفوا عن رسول **الله** واختلقوا الأعذار الكاذبة حتى لا يخرجوا معه ﷺ ، وقالوا لبعضهم البعض ﴿ **وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ** .. (٨١) ﴾ [التوبة]

هؤلاء ﴿ **سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ** .. (٩٥) ﴾ [التوبة] وكلمة (سيحلفون) تدلُّ بصيغتها على المستقبل ، أى أنهم لم يحلفوا بعد ، ورغم هذا جاءوا وحلفوا وأقسموا **بالله** مُبدين الأعذارَ الفارغة ، ولكنْ لماذا سيحلف المنافقون **بالله** للمؤمنين ؟

---

(١) أخرج أبو نعيم الأصفهانى فى معرفة الصحابة (١٥/ ٨٨) (٤٧١٦) عن محمد بن إسحاق قال : تخلف الجلاس بن سويد عن تبوك عن رسول **الله** ﷺ ، فقال : لئن كان هذا الرجل صادقاً فلنحن شر من الحمير ، فرفع ذلك من قوله إلى رسول **الله** ﷺ عمير بن سعد ، وكان فى حجر الجلاس خلف على أمه بعد أبيه ، فمشى إلى رسول **الله** ﷺ فذكر ذلك له ، فكذبه الجلاس وحلف أنه لم يقل ، فأنزل **الله** ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا** .. (٧٤) ﴾ [التوبة] .

(٢) أورده الفخر الرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب) فى تفسير الآية ٧٤ من التوبة ، وكذا الزمخشرى فى تفسير الكشاف (٢/ ٢٩١) والنسفى فى تفسيره (١/ ٤٥٥) والألوسى فى روح المعانى (٥/ ٣٢٨) .

يقول الحق سبحانه : ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ .. (٩٥) ﴾ [التوبة]

أى : لتعرضوا عن توبيخهم ولَوْمهم وتعنيفهم لأنهم لم يجاهدوا معكم . ويرسم لنا الحقُّ سبحانه طريقةَ التعامل مع مثل هؤلاء ، فيقول : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ .. (٩٥) ﴾ [التوبة]

هم قد طلبوا منكم أنْ تُعرضوا عنهم أى إعراض صَفْح ومغفرة ، ومن هذا قَوْلُ عزيز مصر ليوسف عليه السلام بعد أن انكشفتْ حيلةُ امرأته ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا .. (٢٩) ﴾ [يوسف] أى : اصفح عمَّا حدث واغفر لنا ما أسأنا به إليك .

لا تُعرضوا عنهم إعراضَ الصفح والمغفرة ، بل اعرضوا عنهم إعراضَ الاحتقار والإهانة ، فلا تلوموهم ولا تُوبخوهم ولا تُؤَثِّموهم ، فإنَّ لَوْمهم دليلُ أنكم تعتقدون أن فيهم أملاً فى العودة للصواب ، والحقيقة غير هذا .

فهؤلاء المنافقون لا ينفع معهم التوبيخُ أو الإيلام النفسى ، فلا أملَ فيهم ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) ﴾ [التوبة]

وهم لا يُراقبون الله فى أفعالهم ولا يعتقدون أن الله ينظر إليهم ويعلم ما فى قلوبهم وليس فى بالهم الله ، بل فى بالهم مَا يُحقّقونه من البشر من نَفْع أو مصلحة ، فهناك خللٌ فى اعتقادهم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ .. (٩٦) ﴾ [التوبة] إنهم يطلبون رضاكم أنتم ، إنهم نَسُوا أن الرضا الحق هو رضا الله .

وقد ينالون بحلفهم وقسمهم رضاكم عنهم ، ولكن يقول الله : ﴿ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾ [التوبة]

فـإنْ لم يرض الله عنهم فرضاكم لـن ينفعهم ، فرضاكم لن يقدم ولن يؤخر إلا إنْ كان من باطن رضا الله ورضا رسوله .

وهـم باتخاذهـم أَيْمانهم جُنَّة يصـدُّون عن سبيل الله ، فهـم يُغرون غيرهم بانتهـاج الخديعـة والمكر وسيلـة للاختفاء والاختباء ، فـلا يقعوا تحت طائلة الأحكام ، وهذا يُغرى النـاسَ بـالالتفاف على منهج الله .

وعندنـا المثـل الدارج «قـالوا للحرامـى احلف قال جالك الفـرج» وهذا شأن المنحرفين الذين يصدُّون عن سبيل الله بسلوكهم المعوج .

والـذى يصـدُّ عن سبيل الله هـو مَن امتنع عن سبيل الله وصـدَّ غيره أى ضَلَّ فـى ذاتـه ثم أَضلَّ غيره ، وهؤلاء هم الذين يطلبـون منهج الله مُعْوَجاً ويذمّونه ولا يؤمنـون به فيعترضون على إقامة الحدود والقصاص ويُنفِّرونَ النـاسَ من منهج الله ويُبغِّضونه إليهم لينصرف النـاسُ عن الدين .

فـالنـاسُ حين يرون الكفار المعاندين لمنهج الله ورسوله ﷺ وقد صارتْ لـهم اليدُ العليـا وهم يرقصون ويغنُّون لانتصارهم بـالحيلة والخداع والحلف الكـاذب والنفـاق ، فسوف يُغرى ذلك النـاسَ بـاتبـاع منهج المعـاندين لمنهج الله.

والسبـب فـى صدِّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحـال مُعْوجاً ومـائلاً ، وأنْ يُنفِّـروا النـاسَ من الإيمـان ليضمنوا لأنفسهـم السلطة الزمنيـة ويُفسدون فى الأرض ، لأن مجـيء الإصلاح بـالإيمـان أمرٌ يُزعجهم تمامـاً ويسلب منهم ما ينتفعون به بـالفسـاد .

وكيـف يكون الصـدّ عن سبيـل الله ؟ بمحـاولة أهل الضـلال أنْ يمنعوا آيات الـهدى من أنْ تصل إلى آذان النـاس لأنـهم يعرفون أن حلاوة الدعوة ستجعل مَنْ يستمع إلى دعوة الرسول يؤمن بهـا .

ومما فعلوه للصدِّ عن سبيل الله هو بناء المنافقين لمسجد سُمى بـ «مسجد الضرار»[1] . قال الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ .. (١٠٧) ﴾ [التوبة]

فهؤلاء القوم أرادوا أن ينفسوا عن نفاقهم بمظهر من مظاهر الطاعة فقالوا: نقيم مسجداً وبذلك نفرق جماعة المسلمين ، فجماعة يصلون هنا وجماعة يصلون هناك .

وإنْ قعدنا نحن نصلى فيه نكون أحراراً ونتكلم مثلما نريد ، أما حين نذهب للصلاة فى المسجد الآخر فنحن نجلس هناك مكبوتين وغير قادرين على الكلام .

كان هدفهم التفريق بين المؤمنين ، وأيضاً ﴿ إِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ .. (١٠٧) ﴾ [التوبة] فالذين أقاموا هذا المسجد أرصدوه مترقبين ومنتظرين إنساناً له سابقةٌ فى عداء رسول الله ، وهو الذى طلب منهم إقامة هذا المسجد ، وهو أبو عامر الراهب وقد سمَّاه رسول الله (الفاسق) .

لقد بنوا ذلك المسجد ضراراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً وترقباً لذلك الراهب الذى سيذهب إلى الشام ويأتى بجنود لمحاربة الله ورسوله ، ورغم أنهم قد فعلوا ذلك فقد امتلكوا جراءة الحلف بالله كذباً ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠٧) ﴾ [التوبة]

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا .. (١٠٨) ﴾ [التوبة] ، عن ابن عباس قال : هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى ﷺ فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة فأنزل الله ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا .. (١٠٨) ﴾ [التوبة] ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥٢٢/٧) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل .

فهم أقسموا وقالوا : ما أردْنا باتخاذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين وليُيسِّر على المعذورين والمرضى والعاجزين عن السير إلى المسجد الآخر ، وإنْ كانت ليلة مطيرة أو ليلة شاتية فيستطيع الناس أنْ يجدوا مسجداً ثانياً ليصلُّوا فيه .

إنهم أرادوا أنْ يصدُّوا عن سبيل الله ، لذلك نزل القرآن حاسماً في قَطْع دابر هذا الأمر ، فقال الحق سبحانه : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾ [التوبة]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ[1] أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) ﴾ [المائدة]

فالمقسَم به هو الله ، والمقسِم هم المنافقون والمخالفون لرسول الله ، ولقد بالغوا في القسَم مبالغة تُجهدهم ليُبيِّنوا لمَنْ يُقسمون لهم أنهم حريصون على أنْ يبرُّوا بالقسم ، فأفرغوا جهدهم ومشقتهم في القسَم .

ومن الجائز أنهم حينما أقسموا بالله جَهْد أيمانهم كانوا قد اقتربوا في هذا الوقت من الإيمان ، ولكن قلوبهم لا تثبت على عقيدة ، بل تتقلَّب دائماً ، وما دامتْ قلوبُهم لا تثبت فأنَّى لنا بتصديقهم لحظة أنْ أقسموا بالله جَهْد أيمانهم.

ومما فعلوه للصدِّ عن سبيل الله أنهم يشقُّون صَفَّ المسلمين الخارجين لملاقاة العدو ، يقول الحق سبحانه : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا[2] وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ

---

(١) حبط عمله يحبط : بطل ثوابه وأحبطه الله . [لسان العرب - مادة : حبط] . قال ابن الأثير : وهو من قولهم حبطت الدابة حبطاً بالتحريك إذا أصابت مرعىً طيباً فأفرطت في الأكل حتى تنتفخ فتموت .

(٢) خفافاً : الخفة ضد الثقل والرجوح يكون في الجسم والعقل والعمل . والخفوف : سرعة السير من المنزل . وقد يكون خفيف المتاع . أما الثقال فهو ضده .

وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [التوبة].

هـذا أمْـر الله بـإعلان النفير العـام ، ولكن المنـافقين يريـدون أنْ يتفلَّتوا من هـذا الأمـر ، فبدأوا يختلقون الأعذار ، يقول تعـالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا[1] لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ .. (٤٢) ﴾ [التوبة]

إنهـم لا يتحـركـون عند المهمات إلا إذا كـان الأمرُ سهلاً مُيسَّراً ، أمـا إذا كـانت فيـه مشقـة فـإنهم ﴿ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا .. (٦٣) ﴾ [النور] وآخر يقول ﴿ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا .. (٤٩) ﴾ [التوبة]

وقـد كـان رسـول الله ﷺ قلَّمـا كـان يخرج فى وجه مـن مغـازيه إلا أظهر أنه يريـد غـيره ، غير أنه فى غزوة تبوك قـال : أيهـا النـاس إنى أريد الروم فـأعلمهم، وذلـك فى زمـان البـأس وشدة الحـر وجدب البلاد وحين طابـت ثمار المدينة ، والنـاس يحبون المقام فى ثمـارهم وظلالـهم ويكرهـون الشخوص عنهـا .

فبينمـا رسـول الله ﷺ ذات يوم فى جهازه إذ قـال للجد بن قيس : يا جَدُّ هل لـك فـى جِلَاد بنى الأصفر ؟ قـال : يا رسول الله لقد علم قومى أنه ليس أحدٌ أشدّ عجبـاً بـالنساء منى ، وإنى أخـاف إنْ رأيـت نساء بنى الأصفر أنْ يفتننى فـأذن لى يا رسول الله .

فـأعرض عنه رسـول الله ﷺ وقـال : قد أذنت[2] . فـأنزل الله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ

---

(١) السفر القـاصد : السهل الواضح المعروف هدفه وقصده . والسفر الذى كـان مطلوبـاً منهم هو السفر إلى تبوك لغزو الروم ، وقد كـان السفر إليها فى شدة الحر عسيراً فى وقت عسرة من النفقة والتجهيز فكـان سفراً شاقـاً وكـان غير معروف الهدف ، لهذا تخلف المنافقون .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/٢١٤) عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى بكر بن حزم. وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/٣٩٦) وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل . وقد أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٦/١٨٠٩) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا .. (٤٩) ﴾ [التوبة]

الغريب أن القرآن ينزل قبل رفضهم الخروج وينزل قبل أنْ يُقسموا بأغلظ الأيمان ، فيقول تعالى : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾ [التوبة]

واستخدام حرف السين هنا يعنى أنهم لم يكونوا قد قالوها بعد ، ولكنهم سيقولونها فى المستقبل ، ولو أنهم تنبَّهوا إلى ذلك لامتنعوا عن الحلف ولقالوا: إن القرآن قال سنحلف ولكننا لن نحلف .

ولكن الله أعماهم فحلفوا ، وهكذا يأتى خصومُ الإسلام ليشهدوا رغم أنوفهم للإسلام .

إنهم بحلفهم وقَسَمهم قد شقُّوا صَفَّ المسلمين الخارجين لصدِّ العدو لأنهم بهذا الحلف تقاعسوا عن الخروج فشجعوا غيرهم على التخاذل فأوقعوا الفتنة فى الصفوف ، وهذا دأب المنافقين دائماً .

صحيح أنّ عدمَ خروجهم كان خيراً للمسلمين ، قال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا[1] وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [التوبة]

فهم لن يكونوا إلا مصدراً لبلبلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم ، فكأنهم عَيْنٌ عليكم وضدّكم وليسوا معكم ، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التى لم يُرِدْها الله لكم .

---

(١) الخبال : النقصان والخسارة والهلاك . [القاموس القويم للقرآن الكريم ١/١٨٦] . وقال ابن الأعرابى : أى لا يُقصرون فى فسادكم . [لسان العرب – مادة : خبل] . أى : لا يقصرون فى فساد أمركم فى الحرب بالشائعات ووضع الفتنة والتحريش بينكم .

لـو خرجوا فيكـم كـانوا سيُحدثـون فُرْقة بين صفوف المؤمنـين ويُفرِّقونـهم وسيتغلغلون بينهم للإفساد ، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد وآخر يُفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشُون خلال المؤمنين ليُفرِّقوا بينهم .

ولاحظ أنَّ الحق سبحانه قال : ﴿ خَرَجُوا فِيكُمْ .. (٤٧) ﴾ [التوبة]

ولم يقُلْ : خرجـوا معكـم . وفَـرْق كبـير بـين الأسلوبـين وبـين استخـدام (فيكم) و (معكم) ، فكلمة (معكم) تعنى خروجاً يتسم بالطاعة منهم قولاً وعملاً، قلباً وقالباً .

أمـا يخرجـون فيكم ففيها دخـولٌ فى شيء وهـو مواضع الخلـل والضعف يدخلون فيها فيُحدثون فيها مشاكلَ وجدالاً وفُرْقة كتلك التى تُحدثه المكيروبات والجراثيم فيما حولها فى نقاط ضعف جسم الإنسان .

وذلك بالهمس فى آذان المؤمنين بتزيين الباطل للطعن فى أيِّ قرار يُصدره القائد الذى يتولّى الأمر ، فهم يبغون الفتنة ويبغُون هزيمة المسلمين ليرجعوا إلى المدينة مهزومين ، فتعلو أسهمهم هم فى مجتمع المدينة .

حتى أنَّ كبيرهم[1] قال : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

ثـم يصفُ الحق سبحانـه عملهم هذا بحلفهم بالله كذبـاً واتخاذهم أَيْمانهم جُنَّة للصدِّ عن سبيل الله ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ﴾ [المنافقون]

وسـاء أى قَبُـح . وليس قُبْحاً وقتياً الآن فقط ، بل هـو قُبْح حاليّ ومستقبليّ أيضـاً لأن آثاره مستمرة ، وقُبْح مـا يعملون لقولهم وفِعْلهم ، حلفهم بألسنتهم وتعمُّدهـم الكذب بقلوبهم ، ثم وَضْع الفتنة بين صفوف المسلمين وصدّهم عن سبيل الله .

---

(١) كبيرهم : المقصود به عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فى المدينة .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ﴾ [المنافقون] فأعمالهم السيئة القبيحة ليست عملاً واحداً ، ولكنها أعمال متعددة فهم يصدُّون الناسَ بالكلام ويمنعونهم باستخدام القوة فى بعض الأحيان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قوْل الحق سبحانه هذا يأتى بعد قوله ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .. (٢) ﴾ [المنافقون] فقوله ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ﴾ [المنافقون] فسوءُ عملهم يتعلق بالأمرين معاً ، اتخاذهم أيمانهم جُنة للصدِّ عن سبيل الله ، وكذلك إيمانهم ثم كفرهم .

وقد حدَّثنا القرآن عمَّنْ آمنوا ثم كفروا فى عدة مواضع ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) ﴾ [النساء]

وهؤلاء هم المنافقون الذين أعلنوا الإيمانَ وأبطنوا الكفر ، فهم حوَّلوا الإيمان من عقيدة يعتقدها القلب ويُصدِّقها العمل ، حوَّلوه إلى مجرد كلمة تُقال .

وكانوا فى غاية الحرص على تأدية مطلوبات الإسلام بالأعمال الظاهرية حتى يدفعوا عن إسلامهم الريبة ، أما قلوبهم فهى مع الكفر ، لذلك أرادوا أنْ يلبسوا فى المنطق ويُدلسوا فيه .

ويذكر الحق سبحانه عن الأعراب أنهم قالوا : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا

وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

فالحق سبحانه يكشف دواخل نفوسهم عندما يعرفون أنهم مجرد مسلمين باللسان ولكن قلوبهم لم تؤمن ويُخبرهم الرسول بذلك ويقول لهم بلاغاً عن الله ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

لقد كانوا أسبقَ الناس إلى صفوف الصلاة ، ولكن عندما كشف القرآنُ ما فى داخل نفوسهم عرفوا أن القرآن وَحْيٌ من الله ، عرف به محمد ﷺ خبايا قلوبهم .

ولو قالوا إنَّ محمداً هو الذى عَرَف خبايا نفوسهم لما اقتصر اعترافُهم به كرسُول ، بل ربما تمادَوْا فى الغَيِّ وأرادوا أنْ يجعلوه إلهاً ، ولكن رسولَ الله يحسم الأمرَ ويُبيِّن لهم أن الله هو الذى أبلغنى بدليل أنه أُمِر أنْ يقول لهم ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا .. (١٣٧) ﴾ [النساء] أى ماتوا على الكفر. هؤلاء ﴿ لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) ﴾ [النساء] لأنهم دخلوا فى الإيمان مرة ثم خرجوا من الإيمان .

وهم فى هذا يحققون ما جاء فى الآية قبلها : ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢) ﴾ [المنافقون] فهم بسلوكهم هذا يقصدون الفتنة ، لأن الآخرين سيشاهدونهم وقد آمنوا ، وسيشاهدونهم وهم يكفرون .

وسيُعلِّلون ذلك بأنهم عندما تعمَّقوا فى المسائل العقدية كفروا ، وهم يفعلون ذلك ليُهوِّنوا من شأن الإسلام ، فهم يقصدون الفتنة بإظهار الإيمان ثم إعلانهم الكفر ، وفى ذلك تشكيكٌ للمسلمين .

ويكون مصير مَنْ تردد بين الإيمان والكفر، وكان عاقبة أمرهم أنهم ازدادوا كفراً يكون مصيرهم ما جاء في قوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا (١٣٧) ﴾ [النساء] فهم قد دخلوا في الخيانة العظمى الإيمانية .

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن طائفة من أهل الكتاب آمنوا ثم كفروا، فقال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) ﴾ [آل عمران]

فلقد أراد بعضٌ من أهل الكتاب أنْ يُشككوا المسلمين في أمر المنهج، لذلك اصطنعوا تلك الحيلة، فالمؤمنون من العرب وقريش في ذلك الزمن كانوا أُمِّيين وكانوا يعرفون أن أهل الكتاب على علم بمناهج السماء، فإذا ما آمن بعضهم برسالة رسول الله وجه النهار وكفروا به آخر النهار، فهذا خَلْط للحق بالباطل، وفي هذا خداعٌ للمؤمنين وفتنةٌ لهم .

و ﴿ وَجْهَ النَّهَارِ .. (٧٢) ﴾ [آل عمران] أي أوله . ومقصود به ساعات الصبح والظهر ثم يكفرون آخر النهار، وهدفهم إشاعة الشك وزرع البلبلة في نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين، وأيضاً صدّ مَنْ أراد الإيمان، فيجعله هذا السلوكُ يتردد ثم يُحجم عن الإيمان، وهذا لوقف انتشار هذا الدين.

والحق سبحانه يكشف ذلك المكر والخداع للذين حاولوا أنْ يكتموا خداعهم ولعبتهم الماكرة، فطالبوا بعضهم البعض أنْ يظلَّ الأمرُ سراً حتّى لا يفقد المكرُ هدفه .

لذلك قال هؤلاء المتآمرون بعضهم لبعض ﴿ وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ .. (٧٣) ﴾ [آل عمران] أي : لا تكشفوا سرَّ هذه الخدعة إلا لمنْ هو على شاكلتكم .

لكن الحق سبحانه يكشف الأمر كلَّه بنزول هذه الآية على رسول الله ﷺ

وبلاغـه إياها للمؤمنين ، وبذلـك فسد أمر تلك البلبلة وارتـدتْ الحرب النفسية إلى صدور مَنْ أشعلوها .

وهـؤلاء لا يهديهـم الله سبيلاً ، فيقول تعالى : ﴿ كَيْـفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْـدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُـمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) ﴾ [آل عمران]

فهؤلاء آمنوا برسالة رسول الله ثم كفروا به ، كما حدث من بعضهم فى عهد الرسـول ، مثـال ذلك طعمة بـن أبيرق وابن الأسْلت والحارث بـن سويد ، هؤلاء أعلنـوا الإيمـان واتجهوا إلى مكة ومكثوا فيها ، تـاب منهم واحد وأخذ له أخوه ضمانـاً عند رسول الله ، والباقون لم يتوبوا .

وقـوْل الحق سبحـانـه : ﴿ ثُـمَّ كَفَرُوا .. (٣) ﴾ [المنافقون] أى : ستروا الإيمان بالله ورسوله ، والكفر أيضاً هو محاولة سَتْر وجود الله واجب الوجود ، ومحاولة ستر هذا الوجـود هو إعلانٌ بـأنَّ الله تعالى موجود ، فأنت لا تحـاول أنْ تستر شيئاً إلا إذا كان له وجود أولاً .

إنَّ الشيء الذى لا وجودَ له لا يحتاج إلى سَتْر ، لأنه ليس موجوداً فى عقولنا ، فالذيـن كفروا يحاولـون ستر وجود الله ، وسَتْر وجود الله هـو إثباتٌ لوجوده ، لأنك لا تستر شيئاً غير موجود ، وهكذا يكون الكفرُ مُثبتاً للإيمـان .

والكفـر هو سَتْر الوجود الأعلى ، والذى كفـر ستر وجود الله وحَرَم نفسه من المنهج الذى يأتى به الله ، إنه بذلك قد ضَلَّ ضلالاً بعيداً .

فـالإيمـان أصْلٌ فى وجود الخَلْق ، والخَلْق قد وُجدوا على الإيمان ثم جاء أنـاسٌ ستروا هذا الإيمـان ، فكلمة الكفر التى معناهـا السَّتْر دليلٌ من أدلة الإيمـان ، وإلا لو لم يكُنْ الله موجوداً فكيف يسترون ما ليس له وجود ؟

فإذا قال لك أحدٌ : إنه كفر – والعياذ بالله – تقول : الكفر هو الستر ، فماذا سترتَ ؟ لابد أنك سترتَ ما هو موجود .

فمَنْ كفر بآيات الله الكونية فلم يؤمن بها فهو قد ستر وجودها وغطَّاه ، رغم الآيات الظاهرة التى تملأ الكون ، وكفروا بآيات الرسل فكذَّبوا رسلهم رغم أنهم جاءوهم بمعجزات تخرق قوانين الحياة ، ولم يُصدِّقوا آيات الكتاب التى أُنزِلَتْ من السماء لتبين لهم منهج الله تعالى .

وكانت نتيجة إيمانهم ثم كُفرهم بعد إيمانهم ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ .. (٣) ﴾ [المنافقون]

أى : أن الله طَبَع على قلوبهم وخَتَم عليها حتى لا ينفُذَ إليها شعاعٌ من الهداية ، ولا يخرج منها شعاع من الكفر ، والله لم يطبع على قلوبهم بداية فقد كفروا أولاً ، وبعد ذلك تركهم الله فى غيهم وضلالهم وطبع على القلوب ، فما فيها من كفر لا يخرج ، والخارج عنها لا يدخل إليها .

وقد كان بعضُ الكافرين يسمعون القرآن ثم يخرجون دون إيمانٍ ، يقول تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا[1] أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد]

فالذين لا يؤمنون بالقرآن آذانهم تصمّ عن الفهم وأعماقهم بلا بصيرة ، فلذلك لا يفهمون عن الله ، وهذا ما نسميه الرَّان أو الرَّيْن ، يقول تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [المطففين]

أى : صارتْ قلوبهم مُغلقةً ومُغطَّاة بعد أنْ طبعَ اللهُ وختم عليها فلا تقبل الخير ، ولا تميل إليه فلا يؤمنون .

والطّبْع هو الخَتْم لأن قلوبهم ممتلئة بالضلال لذلك يعلنون التكذيب للرسول،

---

(١) الآنف : الماضى القريب . فقوله عنهم أنهم قالوا ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] أى سابقاً فى الوقت القريب . [القاموس القويم ١/ ٣٨] .

وقد طبع اللهُ على قلوبهم لا قَهْراً منه ، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه في قلوبهم ونفاقهم .

فهم الذين تسبَّبوا بهذا الطبْع لأنفسهم ، بعد أنْ بدأوا بالكفر . فطبع الحقُّ سبحانه على قلوبهم بما فيها من مرض ، ولو لم يبدءوا بالكفر لما طبع اللهُ على قلوبهم .

وساعة يُنسب الطبع إلى الله يكون أقوى طَبْع على القلوب ، ويأتي الطبْع من الله سبحانه كحكم نهائي من أنَّ الله قضى عليهم به ، فلا يخرج من قلوبهم ولو كان قَدْراً ضئيلاً من النفاق ، ولا تغادر قلوبهم ذرةٌ من كفر .

والحق سبحانه يلفتنا إلى أن المنافقين هم الذين جلبوا لأنفسهم هذا الطبْع على القلوب ، لأنهم وضعوا في قلوبهم الكفر ثم أخذوا يتحدَّثون بألسنتهم عن الإيمان ، ويحاولون خداع المؤمنين ويُخادعون الله .

فأراد الله سبحانه أنْ يُوضِّح لهم : ما دُمْتم قد اخترتم النفاق والكفر في قلوبكم فسنطبع على هذه القلوب ونختم عليها حتى لا يخرجَ الكفرُ منها ، ولا يدخل إليها الإيمان .

وهم قد عبَّروا عن هذا الطبْع بقولهم : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ[1] وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) ﴾ [فصلت]

والأكِنَّة : أغطية جمع كِنْ ، فجعل اللهُ على قلوبهم أغطيةً فلا يدخلها الإيمانُ ولا يخرج منها الكفر ، وليس هذا اضطهاداً منه تعالى لعباده تعالى، تعالى اللهُ عن ذلك ، بل استجابة لما طلبوا وتلبية لما أحبُّوا ، فلما أحبُّوا الكفر وانشرحتْ به صدورهم زادهم منه لأنه رَبٌّ يعطي عبده ما يريد .

---

(١) الوقْر : ثقل في الأذن . وقيل : هو أن يذهب السمع كله ، والثقل أخف من ذلك (أي أخف من الوقر) [لسان العرب – مادة : وقر] .

كمـا قال عنهـم فى آية أخـرى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُـمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيـمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) ﴾ [البقـرة] فـأجابهم الله إلى مـا أرادوا وختم على قلوبهم ليزدادوا كفراً ، وطالمـا أنهم يحبونـه فلنزدهم منـه .

ويقـول سبحانـه : ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُـونَ (٣) ﴾ [المنافقـون] ، والفِقْه هو الفَهْم ، ويصير الفهمُ قضيةً مُرجِّحة انتهى إليها الاقتنـاع من المرائى والمحسَّات ، لكن هـؤلاء الكافرين لا يروْنَ بـأعينهم إلا هـواهم .

وكذلـك لا تسمـع آذانهـم إلا مـا يـروق لهم ، فـلا يستمعـون إلى الهدى ، ولا يلتفتون إلى الآيات التى يستدلون بها على الخـالق ، فتعيش قلوبهم بلا فقـه .

فحين يقـال ﴿ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ﴾ [المنافقون] أى : لا يفـهمون بذواتهم ، والفَهْم هـو أول مرحلة مـن مراحل الذات الإنسانيـة ، وهنـاك فَرْق بـين الفَهْم والعلم ، والفَهْم يعنى أنك تملك القدرةَ على تفهُّم ذاتية الأشياء بمَلَكَةٍ فيك .

لكنَّ العلم يعنى أنك قد لا تفهم أنت بذاتك ، وإنمـا يفهم غيرك ويُعلِّمك ، ولكنْ قد يقول قـائل : مـا داموا لا يفقهون فمـا ذنبهم ؟

ونقـول : الـذى لا يفهـم عليـه أنْ يتقبَّل التعليـم ، لكن هـؤلاء لم يفهموا ولم يتعلموا وأصرُّوا على عدم قبول العلم فـاستحقُّوا الخَتْم والطَّبْع على قلوبهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾

الحق سبحانه يصف هؤلاء المنافقين بصفات متعددة ، منها ما يتعلق بمظهرهم البدنى ، فهم : ﴿ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون] ومنها منطقهم وقولهم ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون]

وهم كالخُشُب المسنَّدة ، ثم إنهم لنفاقهم وخَوْفهم من انكشاف أمرهم : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون]

وقد كان نفاقهم دليلاً على قوة الإسلام وقوة المسلمين فى المدينة ، فكانوا يأتون بأقوال وبأفعال تُعجب من يُنافَق ، ولذلك لم ينشأ النفاقُ فى مكة وإنما نشأ فى المدينة .

فالإسلامُ كان ضعيفاً فى مكة ، والضعيفُ لا ينافقه أحد ، والإسلام فى المدينة أصبح قوياً ، والقوى هو الذى ينافقه الناس .

فوجود النفاق فى المدينة كان ظاهرةً صحية تدلُّ على أن الإيمان أصبح قوياً بحيث يدعيه مَنْ ليس عنده إسلام .

وهؤلاء كانوا يقولون قَوْلاً حَسَناً جميلاً ، وقد يفعلون أمام مَنْ ينافقونه فِعْلاً يُعجب مَنْ يراهم أو يسمعهم ، ولكنهم لا يثبتُون على الحق ، فإذا ما تولوْا أى اختفوْا عن أنظار مَنْ ينافقونه رجعوا إلى أصلهم الكُفْرى .

فكأنّ المظهر الذى يقول أو يفعل به ينافى التقوى لأنه قَوْلٌ معجب لا ينسجم مع باطن غير معجب ، صحيح أنه يصلى فى الصف الأول ويتحمَّس لقضايا الدين ، ويقول القول الجميل الذى يُعجب المؤمنين لكنه سلوك وقَوْل صادرٌ عن نِيَّة فاسدة .

والمؤمن لابدَّ وأنْ تكونَ عنده فِطْنة وذكاء وألمعية ويرى تصرفات المقابل

فلا يأخذ بظاهر الأمر ولا بمعسول القول ولا بالفعل ، إنه لم يصادف فيه انسجام فِعْل مع انسجام قَوْل .

والحق سبحانه يكشف لنا واقعَ المنافقين بتجارب عملية حتى لا يقول واحد منهم : لستُ منافقاً . وعندما يظهر الله المنافق ويكشفه بحادثة مُدويَّة فعلية ومُخجلة تُبيِّن أنه منافق ، فيكون قد وُصِم بالنفاق .

فكثيرٌ من الناس الذين يظلُّون طوال عمرهم يُنافقون اعتماداً على أنهم مسلمون فى الظاهر لا يتركهم الله ، بل لابدّ أنْ يأتى الله لهم بخاطر من الخواطر ويقعوا فى فخّ اكتشاف المؤمنين لهم حتى يعرفهم المؤمنون ويُقيّموهم على حقيقتهم .

فالمؤمن حين يجلس مع جماعة من المنافقين ويأتى وقت صلاة الظهر ويدعو الأذان إلى الصلاة تجد المؤمن يقول : فَلنقُمْ إلى الصلاة ، وهنا يسخر المنافق ويقول للمؤمن : لتأخذنى على جناحك للجنة يوم القيامة .

أو عندما يدخل مؤمن على جماعة من الناس فيهم منافق ، فيستقبل المنافقُ المؤمنَ بلهجة من السُّخرية فى التحية : كيف حالك يا شيخ فلان ؟ معنى ذلك أنه غير مستريح لوجود المؤمن فيسخر منه .

والمنافقون لا يألُون فى مؤمن إلاًّ[1] ولا ذمة ، وهذا يتضح معنا فى تلك القصة التى أوردها المفسرون فى صحبة زيد بن ثابت رضى الله عنه لأحد هؤلاء الذين يُبطنون النفاق والعداوة ، ويُظهرون الالتزام بالإسلام وهم يُضمرون الشرَّ فأراد قَتْل زيد .

(١) الإلّ : بكسر الهمزة وتشديد اللام : العهد . والإلّ : القرابة . ويقول تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً (١٠) ﴾ [التوبة] أى : لا يراعون فى مؤمن عهداً ، أو لا يُراعون قرابة ولا أماناً ولا كفالة ولا حرمة [القاموس القويم ١/ ٢٥] .

فقد خرج زيد بن ثابت مع منافق من مكة إلى الطائف فبلغا خَرِبة فقال المنافق : ندخل هاهنا ونستريح ، فدخلا ونام زيد فأوثق المنافقُ زيداً وأراد قَتْله ، فقال زيدٌ : لمَ تقتلنى ؟ قال : لأن محمداً يُحبك وأنا أبغضه .

فقال زيد : يا رحمن أغثنى . فسمع المنافقُ صوتاً يقول : ويحك لا تقتله . فخرج من الخربة ونظر فلم يَرَ أحداً . فرجع وأراد قتله فسمع صائحاً أقربَ من الأول يقول : لا تقتله فنظر فلم يجد أحداً .

فرجع الثالثة وأراد قَتْله فسمع صوتاً قريباً يقول : لا تقتله .

فخرج فرأى فارساً معه رُمْحٌ ، فضربه الفارس ضَرْبةً فقتله ، ودخل الخربة وحَلَّ وثاق زيد . وقال له : أما تعرفنى ؟ أنا جبريل حين دعوتَ كنتُ فى السماء السابعة ، فقال الله عز وجل : أدرك عبدى .

وفى الثانية كنتُ فى السماء الدنيا . وفى الثالثة بلغتُ إلى المنافق(١) .

ولذلك قال تعالى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون] فلا يأمن مؤمن لمنافق لا على حياته ، ولا على ماله ، ولا على عِرْضه ، ولا حتى على أفكاره وعقيدته ومبادئه .

فالمنافق استباح الكذبَ على الخالق ويظنُّ أنه غير مُطّلع عليه ، فما بالك بالكذب على العباد والتدليس عليهم ؟

ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠) ﴾ [محمد] فلو لاحظتَ كلامهم لعرفتَهم وللاحظتَ فى كلامهم لقطةً من نفاق .

---

(١) أورده فخر الدين الرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب) (١/١٥٤) وقد أورده بصيغة التمريض رُوى . وقد أورده عبد الرحمن الصفورى فى كتابه : « نزهة المجالس ومنتخب النفائس » (١/٨١) ونسبه للرازى فى تفسيره .

فلو شئنا أنْ نقول لك مَنْ هم لقُلْنا لك ودَللْناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم ، ولكنَّ الله ستر عليهم إبقاءً عليهم لعلهم يتوبون ، ولتعرفنَّهم من فَحْوى كلامهم وأسلوبهم .

وفى هذا القول دعوةٌ لفحْص ما يقوله أهل النفاق ، حتى وإنْ بدا القول على ألسنتهم جميلاً .

ويُنبِّهنا الحقُّ سبحانه إلى ضرورة الاحتياط ، وأنْ يمتلك المؤمنون الفطْنة والفراسة وصِدْق النظر إلى الأشياء ، فكشف لنا سبحانه كُلَّ أوجه النفاق ، فكشف منافقى المدينة حيث يوجد منافقون وغير منافقين ، ومنافقى الأعراب الذين يُوجد بينهم منافقون وغير منافقين .

وعلّم الحقُّ سبحانه المؤمنين كيف يتعرَّفون على المنافقين بالمظاهر التى تكشف ما يدور فى صدورهم .

ومعنى ﴿ لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠) ﴾ [محمد] أنْ يميلوا به عن غير معناه ، ومن ذلك قولهم فى السلام على رسول الله : السَّام عليكم . والسَّام هو الموت ، وكما لووا ألسنتهم بكلمة (رَاعِنَا) فقالوا : رَاعُونا يقصدون الرُّعونة .

لذلك فاحذروهم ، وسأفضح لكم أمرهم لتكونوا على بيِّنة من كلِّ تصرُّفاتهم وخائنات أعينهم وخائنات ألسنتهم .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) ﴾ [البقرة]

و ﴿ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] هل الممنوع أنْ يُعجبك القول ؟ لا يعجبنى القول ولكن فى غير الحياة الدنيا ، فالقول الذى يُعجب هو ما يتعلّق

بأمر الحياة الآخرة الباقية ليضمَن لنا الخير عند مَنْ يملك الخير .

وكفى بالذى يسمع من مادح له مدحاً ، والمادح نفسه يُضمر فى قلبه كُرْهاً له ، وكفى بذلك شهادة تغفيل للممدوح ، بأنه يقول بينه وبين نفسه : «إن الممدوح غبى لأنى أمدحه وأنا له كاره وهو مصدق مدحى له» .

إن الله سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى ضرورة أنْ يكون المسلمُ يقظاً وفَطِناً ، ومَنْ يقول لنا كلاماً يُعجبنا فى الحياة الدنيا نتهمه بأنَّ كلامه ليس حسناً ، لأن خَيْرَ الكلام هو ما يكون فى الأمر الباقى .

ولذلك عندما أرسل خليفة المسلمين للإمام جعفر الصادق يقول له : لماذا لا تغشانا - أى لا تزورنا - كما يغشانا الناس ؟ فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة يقول : أما بعد فليس عندى من الدنيا ما أخافك عليه ، وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له .

وكأنه يريد أنْ يقولَ له : اتركْنَا وحالنا ، أنت محتاج لمَنْ يجلس معك ويمدحك وأنت لا تعلم أنَّ أول أُنَاس لهم رأى سيء فيك هم مَنْ يمدحونك .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] وهذه الآية نزلتْ فى الأخنس بن شريق الثقفى واسمه أُبَيّ ولُقِّب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر ، فلم يقاتل المسلمين مع قريش واعتذر لهم بأنَّ العير قد نجتْ من المسلمين وجاءت إليهم .

وكان الأخنس ساعة يقابل رسول الله ﷺ يُظهر إسلامه ويُلين القَوْلَ للرسول ويدَّعى أنه يحبه ، والآية وإنْ نزلت فى الأخنس فهى تشمل كُلَّ منافق .

كأنَّ الحق تبارك وتعالى يُعلِّمنا أنَّ الكلام النظرى شيء ، والعمل الواقعى

شـيءٌ آخـر ، فقد تسمع من أحدهم الجميل من القول الذى يُعجبك ، فإذا ما جاء وقـت العمـل والتنفيـذ لا تجد شيئـاً ، لأن الكلام قد يُقال فـى أول الأمر بعبارة الأريحيـة ، كمَـنْ يقول لك : أنا رَهْنُ أمرك ورقبتى لـك ، فإذا ما أحوجك الواقعُ إليه كنتَ كالقابض على الماء لا تجد منه شيئاً .

لذلك وصفهم الحق سبحانه فقال : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ .. (٤) ﴾ [المنافقون] فهم خُشب ، والخُشُب جمع خشبة ، فوصفهم الله بحُسن الصورة وكلامهم الجميل المعسول ولكنهم تركوا فَهْم مـا يسمعون وعزفوا عـن التحرك مع مـا يقتضيه الإيمـان والفَهْـم ، لذلك كانوا بمنزلة الخشب ، كمـا تقول لأحدهم : «ما لك مخشِّب كده ليه ؟» .

فهـو لا يريـد أنْ يستجيب لما أمرتَه أو نصحتَه بـه ولا يريد أنْ يطيع فتجده كالخشبـة جامـدةً لا تتحرك ولا تستجيب ، ثم إنها خُشُب مُسنَّدة ، فهى مسنودة أو مُمالة إلى حائط فهم حائط مائل ، ليس فيهم رجاءٌ ولا أملٌ .

وهـم أشباهُ نـاسٍ بلا أرواح ، وأجسام بلا عقول ، ولذلك قال بعضهم : خُشب جمع خشباء ، وهى الخشبة المجوَّفة المفرّغة من لُبِّها لا منفعة فيها .

كذلك المنافقون أجسام ضخمـة تُعجب الرائى الناظر إليها وألسنَة فصيحة تنطق بما يريده السامع ، ولكن القلوبَ فارغةٌ من حقيقة الإيمان والطاعة .

ويقـول تعـالى : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ .. (٤) ﴾ [المنافقـون] وهم يتصرَّفون هكذا ، لأن الريبة تملأ أعماقهم ، وكلما رأى واحدٌ منهم مؤمناً يسير إلى ناحيته يظن أنه جاء ليؤدِّبه ضَرْباً أو قَتْلاً .

ونعلـم أنَّ المريـبَ يكاد أنْ يقول : خُذونى . إنه بسلوكه إنما يدلُّ على نفسه ، لقد قذف اللهُ فى قلوبهم الرعب أى الخوف وهو جندى من جنود الله ، هذا الرعب

الـذى ألقاه الله فى قلوبهم يملأ عليهم كيانهم كله ، فتجدهم مذعورين يملؤهم الرعب من انكشاف أمرهم .

والمقصود بالصيحة هنا ليستْ صيحةَ العذاب الذى كان يُنزل الله مثله على أقـوام سابقـين ، كما قال تعالى عن قوم لوط : ﴿ لَعَمْرُكَ[1] إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ[2] يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) ﴾ [الحجر]

ولكـن المقصـود صيحة التنـادى بمواجهتهـم ، والصيحة تُحدِث رعباً فى الخصـم ، ونحن نرى هذه الأيـام بعضاً من الألعاب كلعبـة «الكاراتيه» تصدر صيحةٌ من اللاعب فى مواجهة خَصْمه ليزيد من رُعْبه .

كمـا نرى فى تدريبـات الصاعقة العسكرية نوعاً مـن الصرخات هدفها أنْ يُدخلَ المقاتلُ الرعبَ فى قلب عدوِّه ، وكلّ ما يتطلب إرعابَ الخصم يبدأ بصيحة تُفقده توازنه الفكرى .

ويصـف الحقُّ سبحانه سلوكَ المنـافقين ، فيقـول : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

فهـؤلاء تـدور أعينهم هنـا وهنـاك لا تـهدأ ، إما من خوف ، أو من قلق ، أو من اضطـراب ، فـالهوْل والرعـب ساعة يستولى على الأعين ، فمـرة تشخصُ العين علـى مـا ترى لا تتعدَّاه إلى غيره من شدة الهول ، ومرة تدور هنـا وهنـاك تبحث عن مفرٍّ أو مخرج مما هـى فيه ، فهذه حالات يتعرَّض لها الخائفُ المفزَّع .

---

(١) لعمرك : أى لحياتك قسمى . أى أقسم بحياتك . والعَمرُ بالفتح : مدة الحياة . [القاموس القويم ٢ / ٣٥] .

(٢) سكرتهم : السكرة غلبة اللذة على الشباب . ويقال : ذهب بين الصحوة والسكرة إنما هو بين أن يعقل ولا يعقل . [لسان العرب – مادة : سكر] وقال فى القاموس القويم ١ / ٣٢٠ : قوله : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾ [الحجر] أى : فى غشية شهواتهم على عقولهم وغفلتهم واغترارهم بالدنيا اغتراراً يُضلهم فيعمون عن الحق .

لا تستقر أبصارهم ولا تسكن إلى شيء ، زاغتْ أبصارهم ﴿ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] هذا حالهم عند الخوف والفزع : ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ[1] بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] ومعنى : ﴿ سَلَقُوكُمْ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أي : آلموكم وآذوكم بألسنتهم بالتطاول بالقول والإيذاء والتأنيب .

ويقول تعالى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ .. (٤) ﴾ [المنافقون] فارصدوا حركاتهم حتى تأمنوا مكرهم وارصدوا كلامهم ، وارصدوا أفعالهم، ولا تجعلوهم يخرجون عن رقابتكم ، وافعلوا ما بوُسْعكم لتكونوا في مأمن من شرورهم .

فإياكم أنْ يخدعوكم بمعسول الكلام وزَيْف الأساليب كي ترضوا عنهم ، فإنْ تحقَّق هذا الرضا منكم عنهم فهو رضا بعيد عن رضا الله ورسوله ، وليس من باطن رضا رسول الله .

وكلمة (عدو) في ظاهرها أنها مفرد ، ولكنها تُطلق على الواحد ، وتُطلق على الاثنين ، وتُطلق على الجماعة . فتقول : هذا عدوٌّ لي ، وهذه عدوٌّ لي ، ولا تَقُلْ (عدوة) وتقول : هذانِ عدوٌّ لي ، وهاتان عدوٌّ لي ، لأن كلمة (عدو) تُطلق على الذكَر والأُنْثى وتُقال للمفرد وللمثنى وللجمع .

والحق سبحانه هنا يستخدم الضمير المنفصل (هم) ثم (الـ) التعريف في كلمة (العدو) ، وكأنَّ الحقَّ سبحانه يحصر الأعداء جميعاً في عدوٍّ واحد هم هؤلاء المنافقون ، لأنهم في الحقيقة هم الأعداء الحقيقيون للمؤمنين .

---

(١) سلقوكم : سلقه بلسانه يسلقه سَلْقاً : بسط لسانه فيه بما يؤذيه [القاموس القويم ١/٣٢٣] سلقه بلسانه : أسمعه ما يكره فأكثره . ﴿ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أي : بالغوا فيكم بالكلام وخاصموكم في الغنيمة أشد مخاصمة وأبلغها . [لسان العرب – مادة : سلق] .

فهؤلاء المنافقون يفتنون الناسَ فى دينهم ويُوقعون الفتنة بين المسلمين ويميل لهم ضعافُ العقيدة والقلوب ، ويشقُّون صَفَّ المؤمنين ، ويُشِيعون الأفكار الضالَّة بينهم .

والعدو هو الخَصْم الذى يريد إلحاقَ الأذى والضرر بك ، وإذا كان العدوُّ الظاهر شَرُّه واضح ، فالعدو الخفيّ شَرٌّ من العدو الظاهر ، لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر ، لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفيِّ ، وهو يعرف ما فى نفسى ويعرف كُلَّ تحركاتى ويستطيع أنْ يغدرَ بى فى أىِّ وقت دون أنْ يكون مُنتبهاً لهذا الغدر .

والعداوة تُؤدِّى بنا إلى نشاط وتنبُّه ، فالمستشرقون مثلاً يُعادون الإسلام ، ولكن معاداتهم هذه تُعطينا نشاطاً لكى نبحثَ ونطّلع حتى نردَّ عليهم ، وجنود الشيطان من الإنس يُعادُون المؤمنين ، وعداوتهم هذه تُعطينا مناعةَ ألاَّ نُخطيء، ولا نغفل ، فأنت ما دام لك عدوٌّ فحاول أنْ تتفوق عليه بكلِّ السُّبل .

لذلك تجد رُوحَ الإيمان تقْوَى حين يُهاجَم الإسلام من أىِّ عدوٍّ من أعدائه ، وتجد الإسلامَ قد استيقظ فى نفوس الناس ، فلو لم يُوجد فى الكون آثارٌ ضارَّةٌ للشرِّ لما اتجه الناسُ إلى الخير .

وكلمة (عدو) تعنى وجود صراع ، فالمؤمن سيدخل مع المنافقين فى صراع، وهو صراع بين الحق والباطل فى المبادىء والقيم ،وهو صراعٌ لا يهدأ أبداً ، لأنه صراعُ أهواءٍ تتحكَّم فى البشر ،ولذلك يختلفون اختلافات عميقة .

وتستعر العداوة وتزكو نارُها ويحتدم بينهما صراعٌ ، والحق سبحانه يقول:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال]

وهـذه لَفْتةٌ من الحق سبحانه وتعـالى إلى أنَّ أعداء المسلمين ليسوا هم فقط الذين ظهروا أثناء الرسالة من كفار قريش واليهود والمنافقين وغيرهم ، ولكنَّ هنـاك خَلْقاً كثيراً سيأتُون بعد ذلك أو مع ذلك لا تعلمونهم ، ولكن **الله** سبحانه وتعالى يعلمهم .

كمـا يلفتنـا سبحانـه إلى أنَّ أعداء المسلمـين ليسوا هم الذيـن يظهرون فى ميـدان القتال فقط ليحاربوا المسلمـين ، ولكن هناك كثيراً ممَّنْ لا يظهرون فى ميدان القتال يحاربون دين **الله** ويحاربون المسلمين .

فكُـنْ صالحـاً فى أىِّ وقت أمـام أىِّ عـدو ستجد **الله** وهو يتـولاَّك بالنصر ، واعلـم أنَّ المنافق شَرٌّ من الكافر ، لأن الكافرَ يعلن عداءه للدين فهو عدوٌّ ظاهرٌ لـك فتأخـذ حذْرك منـه ، أما المنافق فهـو يتظاهر بالإيمـان فتأمن له ويكون إيذاؤُه لك أكبَر وقدرتُه على الغَدْر أشدَّ .

لذلك قال تعالى هنا : ﴿ **هُمُ الْعَدُوُّ** .. (٤) ﴾ [المنافقون] فإذا كنتم تظنون أنَّ الكافريـن هم أعداؤكم فلا تغفلوا عن أنَّ المنافقين هم العدو الحقيقى وتجمعتْ عداواتهم كلُّها فأصبحتْ عداوةً واحدةً ، وأصبح العدوُّ واحداً مُتمثِّلاً فيهم .

ثـم يقول تعـالى : ﴿ **فَاحْذَرْهُمْ** .. (٤) ﴾ [المنافقـون] وأخْذ الحذر من الأعداء مفروغٌ منه ، ولكن الحق سبحانه ينصُّ عليه هنا فى حَقِّ المنافقين .

والمنافقـون يشعـرون فى داخـل صدورهـم أنَّ كُلَّ مسلم فى قلبـه شَكٌّ من ناحية تصرُّفاتهم ، والمؤمنون قد متّعهم **الله** بمناعة إيمانية فى صدورهم فلا يُصدِّقـون ما يقوله المنافقون حتى يأخذوا حذرهم ويكونوا بمنجاة مما يُدبِّره هؤلاء المنافقون من أذى .

ولذلك حذر سبحانه وتعالى المؤمنين من تصديقِ كلام المنافقين حتى ولو حلفوا .

﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ .. (٤) ﴾ [المنافقون] أي : لعنهم الله وطردهم ، وأنت إذا رأيت فعْلاً قبيحاً من فرد تقول : قاتله الله لأنَّ حياته تزيد المنكرات .

﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾ [المنافقون] وكلمة (أنَّى) تردُ بمعنيين ، فمرة تعني : من أين ؟ ومرة أخرى تعني : كيف ؟ ومثال المعنى الأول قوله سبحانه على لسان سيدنا زكريا عليه السلام لما دخل على مريم البتُول ﴿ أَنَّى لَكِ هَٰذَا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران] أي : من أين لكِ هذا ؟

أما هنا فبمعنى كيف ، ومثلْها قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ[1] قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [التوبة]

أي : كيف يعدلون عن الحقِّ ، فما كان يصحُّ أنْ تغيبَ عنهم الحقيقة التي تُوجبها الفطرة الإيمانية ، وكيف يضلُّون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل .

ومَنْ يقدر على مقاتلة الله له ، ومثال هذا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ .. (٢٧٩) ﴾ [البقرة]

وحَرْب الله لا نقول منها إلا قَوْل الله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يحتاط لها ، وأمّا حرب رسول الله ﷺ وحرب المؤمنين للمنافقين ، فهذا هو الأمر الظاهر .

كأن الله سبحانه يُجرِّد على المنافقين تجريدةً هائلة من جنوده التي لا

---

(١) يضاهئون : يحاكون ويشابهون ويقولون مثله . [القاموس القويم ٣٩٦/١] قال الليث : المضاهاة مشاكلة الشيء بالشيء . وقال أبو إسحاق : معنى يُضاهون قول الذين كفروا أي يشابهون في قولهم هذا قول من تقدَّم من كفرتهم ، أي إنما قالوه اتباعاً لهم [لسان العرب – مادة : ضها] .

يعلمها إلا هو كما جرَّد على المرابين .

ويقول سبحانه : ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾ [المنافقون] أي : كيف ينصرفون عن الله وينصرفون عن الحق ، والإفْك صَرْف الشيء عن وجهه لذلك سُمّى الكذبُ إفكاً ، لأن الكاذب يخبر بقضية تخالف الواقع فيأتى بها على غير وجهها ، أو يُوجدها وهى غير موجودة أو يُنكر وجودها ، والمنافق كاذب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) ﴾ [النجم] وهى القرى التى قلبها الله فجعل عاليها سافلها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) ﴾

لقد كان أهلُ يثرب يستعدون لتنصيب عبد الله بن أُبىّ بن سلول ملكاً على يثرب حينما جاءها رسول الله ﷺ مهاجراً من مكة إلى المدينة[1] .

فلما جاء رسولُ الله المدينةَ انفضَّ الناسُ عن ابن أُبىّ ، وتوجهتْ الأنظارُ إليه ﷺ ، فغضب ابنُ أُبىٍّ وازداد كرهه لرسول الله وسعى لمحاربته ومناوأته ، وحسده على ما نال من حُبِّ الناس والتفافهم حوله .

ففى اليوم الذى دخل فيه رسول الله كانوا يصنعون لعبد الله بن أبيّ تاجاً ليُنصِّبوه ملكاً على المدينة ، فلما فُوجيء برسول الله واجتماع الناس عليه وانفضاضهم من حوله بقيتْ هذه فى نفسه .

---

(١) أورد ابن جرير فى تفسيره (٣٤٤٩٤) عن محمد بن إسحاق خبراً طويلاً فيه أن أسيد بن حضير قال لرسول الله : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً . ومثله فى أسباب النزول للواحدى النيسابورى وكذلك البيهقى فى (دلائل النبوة) (٤/٥٣).

وحدث أن اجتمع الكافرون عند جبل أُحد لمحاربة رسول الله فى ثلاثة آلاف مقاتل ، واستشار النبى ﷺ فى هذه المسألة أصحابه ، وأرسل إلى عبد الله بن أبيّ بن سلول ، وما استدعاه إلا فى هذه المعركة .

فقال عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول وأكثرُ الأنصار : يا رسولَ الله نحن لم نخرج إلى عدوٍّ خارج المدينة إلا نَالَ منَّا ، ولم يدخل علينا عدو إلا نِلْنَا منه .

فإنّا نرى ألاَّ تخرج إليهم فإنْ أقاموا أقاموا بشَرِّ محبسٍ ، وإنْ دخلوها قاتلهم الرجالُ فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإنْ رجعوا رجعوا خائبين .

وأشار آخرون من الصحابة بالخروج إليهم وقالوا : يا رسول الله ، اخرجْ بنا إلى أعدائنا لا يرون أنّا جبُنَّا عنهم وضعُفْنا .

ولم يترك أصحابُ هذا الرأى رسولَ الله حتى وافقهم على ما أرادوا ، فدخل رسولُ الله ﷺ بيته ، فلبس دِرْعه وأخذ سلاحه ، وظنَّ الذين ألحُّوا على رسول الله بالخروج أنهم قد استكرهوه على ما لا يريد فندموا على ما كان منهم .

ولما خرج عليهم قالوا : «استكرهناك يا رسول الله ولم يكُنْ لنا ذلك ، فإنْ شئتَ فاقْعُدْ ، فقال رسول الله ﷺ : ما ينبغى لنبيٍّ لبس لأمته[١] أنْ يضعها حتى يقاتل»[٢] وخرجوا إلى الحرب .

وعندما نتابع هذا المنطق فى القصة فى ذاتها نجد أن ابنَ أُبيٍّ كان من رأيه

---

(١) اللأمة هى الدرع . ولأمة الحرب : أداتها . وقال بعضهم : اللأمة الدرع الحصينة ، سميت لأمة لإحكامها وجودة حلقها . وقيل : سميت لأمة لأنها تلائم الجسم وتلازمه . [لسان العرب – مادة : لأم] .

(٢) أورده أبو عمر بن عبد البر فى كتابه (الدرر فى اختصار المغازى والسير ١/١٤٥) فى كلامه عن غزوة أُحد ، وفيه أن المسلمين قالوا : يا رسول الله إن شئت فارجع فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » . وكذا فى الرحيق المختوم للمباركفورى (١/٢١٥) والسهيلى فى الروض الأنف (٣/٢٤٣) .

أَنْ يظـلَّ رسولُ الله فى المدينة ، لمــاذا ؟ لأنـه قد ثبت بـالتجربة أنه إذا جاء قومٌ ليُغـيروا على المدينة ودخلوهـا فـأهْلُ المدينة ينتصرون عليهم ، وإذا خرج لـهم أهل المدينة فهم ينهزمون .

إذن فـالقضية واضحةٌ فى ذِهْن ابن أُبيٍّ ،فـهو لم يَرْضَ أنْ يخرج لأن التجـاربَ أثبتـتْ لـه أنهـم إذا خرجوا عن المدينة ليحاربوا العـدو فعدُّوهم ينتصر عليهم، وإذا ظلُّوا انتصروا ، إذن فـهو واثق من نتيجة الخروج .

ولكـن مـا دامـتْ المسألة قد صدرتْ مـن رأس النفـاق عبد الله بـن أُبيٍّ فـأنت لا تستطيـع أنْ تحكـمَ أين الحق ، فمـن الجائز أنَّ آثار يـوم الهجرة من مكة إلى المدينة ، كـانت بـاقية فى نفس ابن أُبيٍّ .

ففــى ذلك اليوم الذى جاء فيه الرسـولُ إلى المدينة كان هو اليوم الذى كان سيُتوَّج فيه المنـافق (ابن أُبيٍّ) ليكون مَلِكاً على المدينـة ، فلما جاء الرسولُ بهذا الحـدث الكبير تغيّر الوضـع وصـار التـاجُ من غيــر رأسٍ تلبسه ، فـهذه قد حملـها فى نفسه .

وقـد قــال الحق سبحـانــه : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِيـنَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَـوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُـوا قَالُوا لَـوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْـرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) ﴾ [آل عمران]

فعندمـا أراد ابن أُبيٍّ أنْ يـخذلَ الجيش وافقـه بـعض المنـافقين ولم يوافقه البعضُ، هؤلاء الذين خرجوا للقتـال والجهـاد ولم يُوافقوهم ثم قتلوا فرحوا فيهم ، وقـالوا : لو كـانوا أطاعونـا ومكثُوا فى المدينـة ولم يخرجوا لَمَا انهزموا ولَمَا قتلوا .

وكأنَّ الحق سبحانه يُوضِّح لنا أسلوبهم ، لذلك سنأخذهم من منطقهم .. هم قعدوا وقالوا عن إخوانهم الذين قُتلوا فى المعركة والذين هم من جماعتهم ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا .. (١٦٨) ﴾ [آل عمران]

كأنَّ قولاً صدر منهم : أنِ اقعدوا . ولكن القوم الآخرين الذين هم أقلُّ نفاقاً لم يُطاوعوهم وخرجوا ، فحدث لهم ما حدث .

فكيف يردُّ الله على هذه ؟ انظروا إلى الردِّ الجميل : أنتم تقولون : ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا .. (١٦٨) ﴾ [آل عمران] فكأنَّ طاعتكم كانت وسيلة لسلامتهم من القتل . إذن : فأنتم تعرفون طريق السلامة من القتل .

والذى يعرف طريق السلامة من القتل هل يعرف طريق السلامة من الموت؟ ولذلك يقول الحق سُخرية بهم : ﴿ فَادْرَءُوا[1] عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) ﴾ [آل عمران] ففى ذلك رَدٌّ عليهم من كلامهم ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا .. (١٦٨) ﴾ [آل عمران]

فقلبُ عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول امتلأ حقداً فكانت ظلمة ، وملأت الحسرةُ قلبه فكانت ظلمة ، وملأتْ الكراهيةُ والبغضاء قلبه فكانت ظلمة ، فهى ظلماتٌ متعددة .

وقد كان ابن أُبيّ رأسَ النفاق فى المدينة ، ومن مواقف نفاقه ما ذكره حديث أنه لما قدم رسولُ الله المدينة - يعنى مرجعه من أُحُد ، وكان عبد الله ابن أُبيّ بن سلول له مقام يقومه كلَّ جمعة لا ينكر شرفاً له من نفسه ومن قومه وكان فيهم شريفاً .

---

(١) ادرءوا : الدرء الدفع . وفى الحديث « ادرءوا الحدود ما استطعتم » . وتدارأتم أى اختلفتم وتدافعتم . أدروه درءاً : دفعته . وتدارأ القوم : تدافعوا فى الخصومة . [لسان العرب - مادة : درأ] .

كان ابن أبيّ إذا جلس النبيُّ ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناسَ قام ، فقال: أيُّها الناسُ ، هذا رسولُ الله بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزَّكم به فانصروه وعزِّروه واسمعوا له وأطيعوا .. ثم يجلس .

حتى إذا صنع يوم أُحُد ما صنع ، يعنى مرجعه بثلث الجيش ورجع الناس، قام بفِعْل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه ، وقالوا: اجلس أىْ عدوَّ الله لسْتَ لذلك بأهْلٍ وقد صنعتَ ما صنعتَ ، فخرج يتخطّى رقابَ الناس وهو يقول : والله لَكأنَّما قلتَ بُجراً[1] أن قمتُ أشْدُدْ أمره .

فلقيه رجالٌ من الأنصار بباب المسجد ، فقالوا : ويلك مالك ؟ قال : قُمْتُ أشدُد أمره فوثب عليّ رجالٌ من أصحابه يجذبوننى ويُعنِّفوننى لكأنما قلتُ بجراً أنْ قمت أشدد أمره .

قالوا : ويلك ارجع يستغفر لك رسولُ الله . قال : والله ما أبتغى أنْ يستغفر لي[2].

لقد أراد أنْ يقوم بعدما رجع رسولُ الله من غزوة أُحُد ليقول نفس الكلام ونفس المقالة رغم أنه ارتكبَ كبيرةً من الكبائر وهو الفرارُ من الزحف والانسحاب بثُلث الجيش الذى خرج ليواجه الكافرين فى غزوة أحد .

فالتولِّى يوم الزحْف إحدى الموبقات التى أمر الرسولُ ﷺ باجتنابها حيث قال : «اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله وما هُنَّ ؟ وذكر منهن : التولِّى يوم الزحف»[3] .

---

(١) بُجراً : البجارى أى الدواهى . والبُجر : الشر والعجب والأمر العظيم . [المعجم الوسيط] .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٣١٨) من حديث محمد بن شهاب الزهرى مرسلاً .

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله وما هنّ ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٦٦) ومسلم فى صحيحه (٢٧٢) .

قال تعالى فى شأن هذا ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) ﴾ [الأنفال]

فالمنسحب الفارّ الذى يصحبه فى انسحابه غضبٌ من الله ، والفارّ من مواجهة العدو فى معارك الإسلام لن يجد مأوىً إلا النار ، وحين تكون النارُ هى المأوى ، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟

كأن الراجع من الزحف والفَارّ من مواجهة الأعداء ومخافة أنْ يُقتل سيذهب إلى شيء شَرٍّ من القتل .

لقد صدق فى ابن أُبيٍّ بن سلول قَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون] فقال عن رسول الله كلاماً جميلاً معسولاً ، وظن أنَّ هذا سيقبله المسلمون وسيمرُّ عليهم .

«حتى إذا صنع يوم أُحد ما صنع يعنى مرجعه بثلث الجيش ورجع الناس، قام بفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا :

اجلس عدوَّ الله لسْتَ لذلك بأهْل وقد صنعتَ ما صنعتَ فخرج يتخطّىَ رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنّما قلت بُجراً أنّ قمتُ أَشْدُد أمره .

والبُجرَ جمع بُجرة ، وهى نتوء السُّرة يُعبَّر بها عن العيوب ، أى : كأننى قلتُ كلاماً معيوباً أنْ قُمْتُ أشْدُدْ به أمره .

وهو قال ما قال نفاقاً ومُداراةً لما ارتكبه من التولّى يوم أُحد وانسحابه بثُلث الجيش بعد أنْ خرج لملاقاة أهل قريش مع رسول الله وأصحابه ، وما دام يريد أنْ يشدُد أمر رسول الله ، فلماذا لم يشدد أمره فى ساحة القتال وعلى أرض الواقع ، لماذا انسحب وكشف المسلمين ؟

ألم يـدرك أنَّ أهـلَ قريش لو انتصروا سيكون هذا وبالاً على كلِّ أهل المدينة، فــإذا انتصــروا سيدخلون المدينة ويَسْبُون مَنْ فيهــا ويأخذون أسرى ويقتلون ويفعلون كلَّ منكر .

ولذلــك قــال عبد الله بن عمــرو بن حرام الأنصــاري[1] للمنافقــين : اخرجوا وقـاتلـوا معنــا ، وإنْ لم تخرجوا لتقـاتلوا معنـا اخرجوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن أموالكـم وعن نسائكم لأنهـم إذا انتصروا على المسلمـين فسيدخلون ويفعلون كذا وكذا[2] .

إنــه دعاهم إلى القتال على طريق إثــارة الحميّة والأَنَفة فيهم ، وذلك بعد أنّ يئسَ من أنهم لــن يقاتلوا فى سبيل الله ، ولما رأى إصرارهم على عدم الخروج قال لهم عبد الله : اذهبوا أعداءَ الله فسيغنى اللهُ رسوله عنكم .

وقـد قــال تعــالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) ﴾ [آل عمران]

إن الحقَّ سبحـانه يفضحهم ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ .. (١٦٧) ﴾

---

(١) هو عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة ، أبو جابر الأنصارى الخزرجى السلمى صحابى من أجلائهم ، كان أحد النقباء الاثنى عشر ، وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار وبدراً وقتل يوم أحد سنة ٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/ ١١١] .

(٢) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٦٤) فى خروج رسول الله لأُحد وكان عبد الله بن أبى بن سلول يعارض الخروج من المدينة للحرب ، ولكن رسول الله نزل على رأى الشباب « حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس وقال : أطاعهم وعصانى، ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا ، أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بنى سلمة يقول : يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم ، فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال. قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم . قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم نبيه» وأخرجه الطبرى فى تفسيره (٨٢٣٦) .

[آل عمران] فقبل ذلك كانوا فى نفاق مستور ، وما دام النفاقُ مستوراً فاللسان يقول ، والقلب ينكر ويجحد ، فهم مُذبذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، هذه المسألة جعلتْه قريباً من الكفر الظاهر .

فلقيه - أى ابن أبيٍّ - رجالٌ من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك مالك؟ قال : قمتُ أَشْدُد أمره فوثبَ عليَّ رجالٌ من أصحابه يجذبوننى ويُعنِّفوننى لكأنما قلتُ بُجراً أنْ قمتُ أشدد أمره .

قالوا : ويلك ارجع يستغفر لك رسولُ الله . قال : والله ما أبتغى أنْ يستغفر لى .

فذلك قوله تعالى هنا : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) ﴾ [المنافقون]

فالقرآن الكريم يُعطينا صورة للإعراض عن الحقِّ والجدل ، فيقول : ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ .. (٥) ﴾ [المنافقون] ، والإعراض عن الحق دائماً يبدأ بليِّ الرأس ثم الجانب ثم يعطيك دُبره وعَرْض أكتافه ، هذه كلُّها ملاحظ للفرار من الجدل حين لا يَقْوى على الإقناع .

وذلك مثْلُ قوله ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ[1] لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ﴾ [الحج]

فـ (ثانى) ثنى الشيء يعنى لواه . وعِطْفه يعنى جنبه . فالذى يجادل فى الله عن غير علم ولا هُدىً ولا كتاب مُنير يثنى عنك جانبه ويلوى رأسه ، لأن الكلام لا يعجبه ليس لأن كلامك باطل إنما لا يعجبه لأنه أفلسَ ، وليستْ لديه الحجة

---

(١) العطف : الجانب : عطفا الإنسان : جانباه . [القاموس القويم ٢ / ٢٥] قال قتادة : ثانى عطفه : هو المعرض من العظمة إنما ينظر فى جانب واحد . وقال ابن زيد : لاوى رأسه معرضاً مولياً لا يريد أن يسمع ما قيل له .

التى يُواجهك بها ، فلا يملك إلا هذه الحركة .

وهم إنما دعوْهُ ليرتفع لما هو أعلى ممَّا هو فيه ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا .. (٥) ﴾ [المنافقون] ومعناها : ارتفعوا من موقعكم الهابط ، فالمنهج جاء ليعصمنا من السقوط .

ومثلها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ .. (١٠٤) ﴾ [المائدة] أى : ارتفعوا من حضيض ما عندكم إلى الإيمان بمنهج السماء ، وارتفعوا إلى مستوى التلقِّى من الله ولا تتبعوا أهواءكم وآراء بعضكم أو تشريع بعضكم .

وابنُ أُبيٍّ قالوا له : تعالَ يستغفر لكم رسولُ الله ، واستغفار رسول الله رحمةٌ لمَنْ يستغفر له وذهاب بذنوبه .

والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) ﴾ [النساء]

فالأمر يحتاج ممَّنْ ظلم نفسه بالمعصية والاجتراء على أوامر الله والإضرار بالمسلمين أنْ يتوبوا أولاً عما اقترفوه ، وبعد ذلك يستغفرون الله ، وتطيب نفسُ رسول الله فيستغفر لهم ، واستغفارُ رسول الله هو دعاءٌ لله عزَّ وجلَّ أنْ يغفر لهم.

ولكنهم أركسوا ونكسوا فى الأرض وانقلبتْ الأمور عندهم ، فكان ردّ فعلهم على دعوتهم للمجيء لرسول الله ليستغفر لهم أنْ : ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ .. (٥) ﴾ [المنافقون]

﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) ﴾ [المنافقون] ، ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ

صُدُودًا (٦١) ﴾ [النساء]

أى : يُعرضـون عنـك . وهنـا الصَّدُّ هـو الإعراض والتولِّى عـن اتبـاع الحق ، أمـا الصَّدُّ عن سبيل الله فهو صَدُّ الغـير ومنعه من أنْ يتبع سبيلَ الله ومنهجه ، والصَّادُّ عن سبيل الله أكبر وأعظم جُرْماً لأنه صَدَّ وأعرض فى نفسه ولم يكتفِ بهذا بل صَدَّ غيره .

والصَّـادّ الـذى يصدّ عن الحق يفعله وهـو مُستكبر ، فهـو يستكبر عن اتبـاع الحق ويرى نفسه أعلى وأكبر ممَّنْ يدعوه إليه ، وابنُ أبيّ وبعضُ زعماء النفاق كانوا يروْنَ أنفسهم أعلى وأحقّ من رسول الله .

لذلـك رفضوا أنْ يجيئوا لرسول الله ليستغفر لهـم ، بل لووا رؤوسهم وصَدُّوا واستكبروا .

واستكـبر أى نصَّب من نفسه كبـيراً دون أنْ يملك مقوِّمات الكبير ، وصفـات وكمـالات الكـبر ليسـتْ ذاتية فـى أيٍّ منَّا ، وقـد تُسلب ممَّنْ فـاء اللهُ عليه بها ، ولذلك يصبح من اللائق أنْ يتواضعَ كُلٌّ منَّا ، وأنْ يستحضر ربَّه ، وأنْ يتضاءلَ أمام خالقه .

فهـذا عند تذكـيره بآيات الله ورسوله ﴿ وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) ﴾ [لقمان]

ومعنـى (ولَّى) أى أعرض وأعطانا عرض أكتافه ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِرًا.. (٧) ﴾ [لقمان] أى : تكبَّر على ما يُدعى إليه . واستكباره فى غير محلِّه ، والمستكبر دائماً إنسانٌ فى غفلةٍ عن الله لأنه نظر إلى نفسه بالنسبة للناس وغفلَ عن الله .

ولـو استحضر جلالَ ربِّه وكبرياءه سبحانه لاستحـى أنْ يتكبَّر ، فالكبرياء

صفةُ العظمة وصفةُ الجلال التى لا تنبغى إلا لله تعالى ، فكبرياؤه سبحانه شرفٌ لنا وحماية تمنعنا أنْ نكونَ عبيداً لغيره سبحانه .

وهذا المستكبر استكبر عن سماع الآيات ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا .. (٧) ﴾ [لقمان] أى : ثِقَلٌ وصَمَم .

قالوا : ويلك ارجع يستغفر لك رسولُ الله . قال : والله ما أبتغى أنْ يستغفر لى .

إنه الحسد والحقد الذى ملأ قلبه بظلمات النفاق والكِبْر والدَّسِّ على المسلمين ﴿ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ .. (١٠٩) ﴾ [البقرة] . ويقول تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ .. (٥٤) ﴾ [النساء]

والحسد هنا لرسول الله ﷺ ، لأن ربَّنا قد اصطفاه واختاره للرسالة ، والحسد لا يتأتَّى إلا عن قلب حاقد ، قلْبٍ متمرد على قسمة الله فى خَلْقه .

والحسد هو تمنّى إنسانٍ زوالَ نعمة غيره ، وهو رَدٌّ لقدر الله فى خَلْق الله ، وقلبُه يحترق حِقْداً ، وابنُ أبيٍّ كان مثالاً واضحاً على هذا .

وهؤلاء لن يغفر الله لهم ، يقول الحق سبحانه :

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾

أى : مهما استغفرتَ لهم فلن يغفر الله لهم ، ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ [التوبة]

والأمر هنا له شقّان : الشق الأول أنْ يغفر الله لهم . والشقّ الثانى : هو مجاملة رسول الله ﷺ لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ الابن المؤمن لأب منافق ، فهو ﷺ يعلم أن الله لن يغفر للمنافقين .

وهناك استغفارٌ تنشأ عنه المغفرة ، واستغفار ينشأ عنه إرضاء عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ .

ثم إن الذى يريد أنْ يتوب ويستغفر لا يستغفر له رسول الله ﷺ إلا إذا استغفر مرتكبُ الذنب أولاً ، فلا بُدَّ أنْ يستغفروا الله من الذنوب أولاً ثم يستغفر لهم الرسول ، ولا يستغفر لهم الرسولُ بينما هم لا يستغفرون .

ورأْسُ النفاق ابن أُبىٍّ لم يفطن إلى كيفية الاستغفار ذلك لأنه لا يريده ، فقد كان عليه أنْ يأتى لرسول الله صاغراً ليستغفر الله أمامه ، لا أنْ يبحث عَمَّنْ يطلب له الاستغفار .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى مُوضِّحاً سبب عدم غفرانه لهم ، سواء استغفر لهم الرسول أم لم يستغفر لهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ [التوبة] وهنا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) ﴾ [المنافقون]

والحق سبحانه منع هداية معونته وتوفيقه عن ثلاثة أنواع من الناس .

منعها عن الكافرين ، فقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ [التوبة] ومنعها عن الظالمين فقال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾ [التوبة] ومنعها عن الفاسقين فقال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة]

ولكن هل هو سبحانه منع معونة الهداية أولاً ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقُّون هداية الله ؟ إنسان واجه الله بالكفر .. كفر بالله .. رفض أنْ يستمع لآيات الله ورسله .

وهـم سبقوا بـالكفر فلم يهدهم الله . وهم سبقوا بـالظلم فلم يهدهم الله ، وهم سبقوا بـالفسق فلم يهدهم الله .

وبعض النـاس يقولون : إنَّ الـهدى من الله ، ولـو أن الله هدانى مـا قتلتُ ومـا سرقتُ ومـا ارتشيْتُ . ونقول : هذا فَهْم خـاطيء ولنرجع إلى القرآن الكريم .

فـالحقُّ تبـارك وتعـالى يقول : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي .. (٨٠) ﴾ [التوبة] أى : نفى مـا يستوجب الـهداية عمَّنْ ظلم أو فسق أو كفر ، لأن الحق سبحـانه لا يهدى مَنْ قدَّم الكفر ، أو قدَّم الظلم ، أو قدَّم الفسق ، فكأن الكافر أو الظالم أو الفاسق هو الذى يمنع الـهداية عن نفسه .

ولـو قدَّم الإنسانُ الإيمانَ لدخلَ فى هداية الله تعـالى ، فكأنَّ خروجَ الإنسان عـن مشيئـة هداية الله هـى مسألة من عمل الإنسـان وبـاختيـاره ، فقد يختار الإنسانُ طريقَ الغِواية ويترك طريقَ الـهداية .

لذلـك لا يهديـه الله لأنه سبحـانه لا يهدى إلا المؤمن به ، وإن اختـار الإنسانُ طريـقَ الـهداية ، فـالحق يعطيه المزيد من الـهـدى ، لأنه آمن بـالله فـاختـار طريقَ الـهداية واستقبل منهجَ الله بـالرضى .

فـالحق سبحـانه يهدى مَن استمعَ إلى القرآن برُوح الإيمان واستقر فى يقينه أنَّ له رباً ، واعتقد أنَّ له إلـهاً .

وقد أوضح الحقُّ سبحـانه أنه لا يهدى الكـافرين . إذن : فـهو يـهدى المؤمنين، وأوضـح أنــه لا يهدى الظـالمين . إذن : فـهو يـهـدى العـادلين ، وأوضح جَلَّ وعَلا أنـه لا يهدى الفـاسقين . إذن : فـهو يهدى الطـائعين .

فـالحق سبحـانه يهدى مَنْ قدّم أسبـاب الـهداية وأسلم مقـاليد زمامه للإيمان،

والله سبحانه يقول : ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى (٧٦) ﴾ [مريم] ويقول أيضاً : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

فالله أخبرنا مُسْبقاً بمَنْ يستحقُّ هدايته ومَنْ لا يدخل فيها وأنت باختيارك طريقك . إما أنْ تؤمن فتدخل فى الهداية ، وإما أنْ تختار طريقَ الكفر والظلم والعياذ بالله فتمتنع عنك الهداية .

من كُلِّ ذلك نفهم أن العمل السابق منهم هو الذى يجعله سبحانه لا يهديهم ، فمَنْ آثر الكفر وصَمَّم ألاّ يُؤمن فهو وشأنه ، بل ويزيده الله من الكفر ويختم على قلبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾ [الأنعام]

فهم امتنعوا عن هداية الدلالة فامتنعتْ عنهم هداية المعونة ، فالله سبحانه هدى الجميعَ هدايةَ الدلالة والإرشاد ، فلم يأخذْ بها هؤلاء فحُرِموا هداية الإيمان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ (٧) ﴾

محاربةُ المنافقين للرسول ﷺ والإسلام لم تقفْ عند حَدٍّ ، وهم أخطر الأعداء لأنهم يُظهرون إسلامهم ويُبطنون كفرهم وحقدهم وحسدهم لرسول الله وللمؤمنين به .

ومـن محاربتهم لرسول الله أنهم أرادوا صَرْف النـاس عنه بشتى الوسائل ، لأن زعيمهم يريد أنْ يكونَ مَلِكاً على أهل المدينة ، فظنُّوا أنَّ مَنْ حَوْل رسول الله سينفضُّون عنه إذا قطعوا عن فقرائهم ما يرفدونهم[١] به .

لقـد غفلوا عن إيمان هؤلاء المهاجريـن الوافدين عليهم وأنهم آمنوا لا لدُنيا ولا لمـال ولا رغبـة فى تقرُّب ممَّـنْ معهم المال ، بل آمنوا رغبـةً فى رِضاء الله ورسوله .

لقـد أخطئـوا الظنَّ بمَـنْ آمنوا برسـول الله ، ظنُّـوا أنهم إن لم ينفقـوا عليهم فسيرتـدُّون عـن إيمانهـم ، ونسُـوا أن المؤمنـين المهاجرين قد تركـوا أموالهم وتركـوا بلادهـم ، فمَنْ ترك أمواله للهجرة فى سبيل الله أيكفر به عندما لا يجد شيئـاً ؟

لا ، لأنه ترك كلَّ شيءٍ فى سبيل الله .

وهـا هو ذا سيدنـا مصعب بن عمير[٢] الفتى المدلَّل فـى قريش ، وكانت أمه تُغـدق عليه النعمـة وهو صاحب العطور ، وبعد ذلك يذهـب إلى المدينة فيلبس جلـدَ شـاةٍ يستر بـه نفسه ، فينظر لـه النبى ﷺ يقول لأصحابـه : انظروا كيف

---

(١) الرفد : العطاء والصلة . رفده يرفده : أعطاه . ورفده : أعانه . وترافدوا : أعان بعضهم بعضاً . والرفادة: شيء كانت قريش تترافد به فى الجاهلية فيخرج كل إنسان مالاً بقدر طاقته فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً أيام الموسم ، فيشترون به للحاج الجُزر (الجمال) والطعام والزبيب للنبيذ ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضى أيام موسم الحج . [لسان العرب – مادة : رفد] .

(٢) مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف قرشي من بنى عبد الدار صحابى من السابقين إلى الإسلام وأسلم فى مكة وكتم إسلامه ، أسلم على يده أسيد بن حضير وسعد بن معاذ وشهد بدراً وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد عام ٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢٤٨/٧] .

صنع الإيمان بصاحبكم ؟[١] .

فعندما يقول المنافقون كعبد الله بن أبيّ للأنصار : لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضُّوا ، يظنُّونَ أنَّ المؤمنين يمكن أنْ يبيعوا إيمانهم بلُقْمة ، وكأنهم نسُوا أن الذى يبيع إيمانه باللقمة هو مَنْ يُحمل على مبدأ باطل .

لكن مَنْ يعتنق ويعتقد مبدأ حَقٍّ يجد حلاوته فى النفس ، وأجره مُدَّخر عند ربِّه ، إنه لا يتحوَّل عنه .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : «فجئتُ المسجد فطلع علينا مصعب ابن عمير فى بُرْدة له مرقوعة بفروة ، وكان أنعمَ غلام بمكة وأرْفَه ، فلما رآه رسول الله ذكر ما كان فيه من النعيم ، ورأى حاله التى هو عليها فذرفَتْ عيناه عليه . ثم قال : أنتم اليوم خَيْر أم إذا غُدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم ؟ فقلنا : نحن يومئذ خَيْرٌ نُكْفَى المؤنة ونتفرغ للعبادة . فقال : بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ»[٢] .

فيجب أنْ تذكروا جيداً أنَّ من حلاوة اليقين وحلاوة الإيمان أنَّ المؤمن يُضحِّى بكُلِّ شيء فى سبيل رِفْعة الإيمان ، لكن أصحابَ المبادىء الباطلة لا يُدخلون غيرهم فيها إلا إنْ دفعوا الثمن مُقدَّماً ، أى : أنهم يشترونهم .

---

(١) قال السهيلى فى الروض الأنف (٢/ ٢٥١) : كان مصعب بن عمير قبل إسلامه من أنعم قريش عيشاً وأعطرهم وكانت أمه شديدة الكلف به وكان يبيت وقعب الحيس عند رأسه يستيقظ فيأكل ، فلما أسلم أصابه من الشدة ما غيّر لونه وأذهب لحمه ونهكت جسمه حتى كان رسول الله ﷺ ينظر إليه وعليه فروة قد رفعها فيبكى لما كان يعرف من نعمته » .

(٢) أخرجه أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٥٠٢) وفيه أن رسول الله ﷺ قال : «أنتم اليوم خير أم إذا غدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم وريح عليه بأخرى وغدا فى حلة وراح فى أخرى وسترتم بيوتكم كما تُستر الكعبة ؟ قلنا : نحن يومئذ خير نتفرغ للعبادة . قال : بل أنتم اليوم خير . قال حسين سليم: إسناده ضعيف . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٣١) : روى الترمذى بعضه . رواه أبو يعلى وفيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات .

فإذا رأيتَ مبدأ من المبادىء يشترى البشر فاعرف أنه مبدأ باطل ، ولو كان مبدأً حَقٍّ لدفع الإنسان من أجل أنْ يدخل فيه نفيسَ ماله ، بل ويُضحِّى فى سبيله بنفسه أيضاً .

ومن عجائب مبادىء الإسلام أن رسول الله ﷺ حينما أخذ العهد لنفسه فى بيعة العقبة قال له الأنصار : فإنْ نحن وفَّينا بهذا فماذا يكون لنا ؟ كأنهم يقولون : أنت أخذتَ ما لك فماذا يبقى لنا ؟

انظروا إلى سُمو الإيمان ويقين المصطفى بأن الإيمان نفسه جائزة ، فهل بشَّرهم بأنه سيعطيهم الأرض ؟ هل وعدهم بأنَّ هؤلاء المستضعفين هم الذين سيُمكَّنون فيها ؟ لا بل قال لهم : لكم الجنة[1] . فلو قال لهم : لكم سيادة الدنيا لكان فى ذلك نظر .

صحيح أنَّ الدنيا دانَتْ وخضعتْ لهم ، لكن منهم مَنْ مات قبل أنْ تدنُوَ له الدنيا وتذلّ ، فأين صِدْق النبوءة ؟

إذن : فقد قال لهم عن الشيء المضمون ، الشيء الذى يجد المؤمن فيه نفسه فَوْرَ أنْ يموت ، قال لهم : لكم الجنة . فقد قال لهم رسول الله ﷺ - وحوله عصابةٌ من أصحابه - : تعالوا بايعونى على ألاَّ تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولاتزنوا ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصُونى فى معروف ، فمَنْ وفَّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من

(١) عن محمود بن لبيد أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قام العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى ثم أحد بنى سالم بن عوف ، فقال : يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم. قال : إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ، وإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلى أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّينا ؟ قال : الجنة . قالوا : ابسط يدك فبسط يده فبايعوه . أخرجه أبو نعيم الأصفهانى فى (معرفة الصحابة) . والسهيلى فى (الروض الأنف) (٢/ ٢٧١) .

ذلك شيئاً فعُوقب به فى الدنيا فهو كفارةٌ له ، ومَنْ أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله ، إنّ شاء عاقبه ، وإنْ شاء عفا عنه[١] .

لم يُغرهم أنهم سيكونون أصحاب سلطان ، ولم يقُلْ لهم : أنتم ستجلسون على البُسط والدنيا ستدين لكم ، إنما قال لهم فى أول البيعة : لكم الجنة . فإياكمَ أنْ يطمع أحدٌ منكم فى شيء إلاَّ فى الجنة .

ولذلك فالأنصار محبوبون لرسول الله ﷺ ، ولما كانت غزوة حُنين وأعطى المهاجرين بعضاً من الغنائم ولم يكن للأنصار منها شيء وجد الأنصار فى نفوسهم ، فلفتهم رسول الله لفتة إيمانية وقال لهم :

«ألاَ ترضونَ يا معشرَ الأنصار أنْ يذهبَ الناسُ بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رِحَالكم ، فو الذى نفسُ محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار ، ولو سلكَ الناسُ شِعْباً ، وسلكتْ الأنصارُ شِعْباً آخر لَسلكتُ شِعْبَ الأنصار ، اللهم ارحمْ الأنصارَ ، وأبناءَ الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار»[٢] .

فبكى القوم حتى أخضلوا[٣] لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قَسَماً وحظّاً .

أيّ سُمو إيمانى هذا ؟ لكن المنافقين قالوا للأنصار : لا تنفقوا أموالكم على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضُّوا ، لكن المؤمنين لم ينفضُّوا .

إنهم قد تركوا النعيم والأموال فى مكة وجاءوا مهاجرين ، فهم لم يأتوا ليأخذوا

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٨ ، ٣٨٩٢ ، ٦٨٠١ ، ٧٢١٣ ، ٧٤٦٨) وأحمد فى مسنده (٢٢٧٨٥) والنسائى فى سننه (٤١٦١ ، ٤١٧٨) والدارقطنى فى سننه (٣٥٠٦ ، ٣٥٠٧) من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١١٧٤٨) وأورده السهيلى فى الروض الأُنف (٤/ ٢٧٤) وابن جرير الطبرى فى (تاريخ الأمم والملوك) (٢/١٧٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٣) أخضلوا لحاهم أى بلُّوها بالدموع . واخضل الثوب : ابتلّ . وأخضلتنا السماء : بلّتنا بلاً شديداً . [لسان العرب – مادة : خضل] .

نعيماً مظنُوناً محدوداً قليلاً ، وحَسْبهم ما وُعدوا به من نعيم متيقَّن عريض بَاقٍ .

لقد عرفوا بالإيمان أنَّ نعيم الدنيا إما أنْ تفوته بالموت ، وإما أنْ يفوتك بالتقلُّب ، لكن نعيم الآخرة ليس له حَدٌّ ينتهى عنده ، ولا يفوتك ولا تفوته .

قال المنافقون للأنصار وهم أثرياء المدينة : ﴿ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا .. (٧) ﴾ [المنافقون]

لقد كانوا يريدون أنْ يضربوا المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وقد قالوا: ﴿ رَسُولِ اللهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] تهكماً ، وهم يُحرِّضون أثرياء المدينة على تجويع المهاجرين .

أى : لا تُنفقوا عليهم حتى يجوعوا فينفضُّوا من حوله ، وهم يقولون عنه : ﴿ رَسُولِ اللهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] فهل آمنوا بذلك ؟ أم أن هذا من غَلَبة الحقِّ ؟

ورسولُ الله لم يسْلَم من سُخريتهم واستهزائهم ،والقرآن يحكى عنهم قولهم لرسول الله ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ﴾ [الحجر] فقولهم: ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ .. (٦) ﴾ [الحجر] أى : القرآن وهم لا يؤمنون به سُخريةً واستهزاءً .

فقولهم : ﴿ رَسُولِ اللهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] ليس إيماناً به ، ولكن إما غفلة منهم عن الكذب الذى يُمارسونه ، وإما سُخريةً واستهزاء ، كما لو كنتَ فى مجلس ورأيتَ أحدهم يدَّعى العلم ويتظاهر به فيقول : اسألوا هذا العالم .

وفى آية أخرى يقول سبحانه عن استهزائهم برسول الله : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) ﴾ [القلم]

والعجيب أنه يعترف أن محمداً رسول الله ، ويقولها علانية ومع ذلك يُنكرها بأعماله وتصرُّفاته ويُحدِث تشويشاً فى الفكر وفى أداء العبارة .

فهم يعرفون أنه رسولُ الله ، ومع ذلك يمنعون النـاسَ من الإنفاق على الفقراء الذين عنده ، إنه غباء حتى فى المواجهة .

فهم معترفون بـالقرآن مقتنعون بـه ، لكن مـا يقف فى حلوقهم أنْ ينزلَ القرآنُ على محمد من بين النـاس جميعاً ، ثم نراهم يُناقضون أنفسهم فى هذه أيضاً ، ويعترفون من حيث لا يشعرون بـأن محمداً رسولُ الله حينما قـالوا :

﴿ لَا تُنْفِقُـوا عَلَـى مَنْ عِنْدَ رَسُـولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّـوا .. (٧) ﴾ [المنافقون] فمـا دمتم تعرفون أنه رسولُ الله ، فلمـاذا تُعادونه ؟ إذن : فـالبديهة الفطرية تكذبهم فينطق الحقُّ على ألسنتهم على حِين غفلةٍ منهم .

وهـم بقولهـم ﴿ لَا تُنْفِقُوا .. (٧) ﴾ [المنافقـون] لا يبخلون فقط بل هم أيضاً يأمـرون النـاس بـالبخـل ، ويصدُق فيهم قَوْل الحق سبحـانـه : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُـرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَـا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَـا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) ﴾ [النساء]

والبخيـل تكـون عنده مشقةٌ فـى الإعطـاء ، فعندمـا يقتطـع شيئاً من خـاصة مـالـه ليعطيها لغـيره يجد فى ذلك مشقةً ولا يُقبل عليهـا ، لدرجة أنه قد يصل إلى درجة أنه يبخل حتى على نفسه .

والشـاعـر[1] يصـور بخيـلاً اسمــه (عيسى) ويريـد أنْ يذمه لأنــه بخيل جداً ، ويظهـر صـورة البخل بـأنه ليس على النـاس فقط ، بل على نفسه أيضاً ، فيمـا لا يضرّ بذلُه ، ولا ينفعه منعه .

ومـا دام يُقتِّر على نفسه فسيكون تقتيره على غيره أمراً متوقعاً :

---

(١) الشاعر هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج أبو الحسن ، ولد ببغداد ٢٢١ هـ ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى . قال المرزبانى : لا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس أو مرؤوس إلا وعاد إليه فهجاه، له ديوان شعر فى ثلاثة أجزاء . توفى ببغداد مسموماً عام ٢٨٣ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٢٩٧/٤].

يُقتِّرُ عِيسَى عَلَى نَفْسِهِ ... وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلاَ خَالِدِ

فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ ... تنفَّسَ مِنْ مَنخَرٍ وَاحِدِ[1]

إنـه بخيل لدرجة أنه يفكر لو استطاع أنْ يتنفس من فتحة أنف واحدة لفعلَ حتى لا يتنفَّس بفتحتى أنفه .

ويقـول الحق سبحانه عن البخلاء : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾ [آل عمران]

وقد شاهدوا رسول الله ﷺ فى أول الهجرة وقد آخى بين المهاجرين والأنصار وكانت تمرُّ على المسلمين الليالى دون طعام فيراهم اليهود والمنافقون ، فيتندرون على تلك الحال ويقول اليهود : إن يد الله مغلولة عن محمد وآله .

وقد كانوا يلمزون الذين يتطوَّعون بالصدقات ، يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ[2] الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [التوبة]

وهذه لها واقعة ، فقد هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة وترك أمواله وكلَّ ما يملك فى مكة ، وآخى رسولُ الله بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكلِّ

---

(١) أورده البغدادى فى تاريخ بغداد (١٢/٣٥) . قال على بن العباس : كان البحترى معى جالساً فسلم علينا ابن عيسى بن المنصور فقال له : من هذا ؟ فقلت : هذا عيسى بن المنصور الذى يقول ابن الرومى فى أبيه (وذكر البيتين) فقال لى : أف هذا من خاطر الجن لا من خاطر الإنس ووثب ومضى . وذكره أبو هلال العسكرى فى (الصناعتين) (١/٣٤) وكذا ابن حمدون فى التذكرة الحمدونية (١/٢٢٨) وعزاه لابن الرومى من بحر المتقارب .

(٢) لمزه : عابه وطعن عرضه . قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ .. (٥٨) ﴾ [التوبة] يطعن فى عدالتك فى توزيع الصدقات . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ .. (٧٩) ﴾ [التوبة] يعيبونهم ويحقرون صدقات فقراء المؤمنين . [القاموس القويم ٢/٢٠٢] .

رجلٍ من الأنصار رجلاً من المهاجرين يشاركه في ماله .

ولما جاء عبد الرحمن بن عوف قال له أخوه من الأنصار : أقاسمك مالي . قال : بارك الله لك في مالك ، دُلَّني على السوق وذهب إلى السوق ، وبارك الله له في تجارته فكان يقسم ربحه نصفين نصفاً للصدقة ونصفاً لأهله[1] .

وقد جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله اكتسبتُ ثمانية آلاف درهم أُقرِض اللهَ أربعة ، وأُبقى لأهلي أربعة .

فقال له رسول الله : بارك اللهُ لك فيما أقرضتَ وفيما أبقيتَ[2] .

فلما بلغ المنافقين ما تصدق به عبد الرحمن بن عوف قالوا : ما تصدق عبد الرحمن إلا رياءً وسمعة ، وهل الرياء يطَّلع عليه الناسُ أم يعرفه الله وحده ؟

وجاء عاصم بن عدي[3] وكان صاحبَ بستان أعطى ثمراً كثيراً ، فجاء بمائة حِمْل من التمر وتصدَّق بها ، فقال المنافقون : والله ما فعل عاصم هذا إلا رياءً .

وجاء رجل يُدعى أبا عقيل الأنصارى إلى رسول الله ﷺ : يا رسول الله : لقد بتُّ ليلتي أعمل وأخذتُ أجرى صاعين من التمر ، احتفظتُ لأهلي بصاعٍ

---

(١) عن أنس بن مالك قال : قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك دلني على السوق فربح شيئاً من أقط وسمن فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة . [أخرجه البخاري في صحيحه (٣٩٣٧) والبزار في مسنده (٦٥٤١ ، ٦٥٤٨) وأبو يعلى في مسنده (٣٨٣٦)] .

(٢) أورده ابن عادل في تفسير اللباب (١٠/١٥٧) والألوسي في روح المعاني (٢/٣٣) والزحيلي في التفسير الوسيط (١/١٥٤) والخازن في (لباب التأويل) (٢/٣٨٩) أن رسول الله قال لابن عوف : بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت . فبارك الله في ماله الشيء الكثير .

(٣) هو عاصم بن عدى بن الجد البلوى العجلاني ، حليف الأنصار ، كان سيد بني عجلان ، استخلفه رسول الله ﷺ على العالية من المدينة ، وعاش عمراً طويلاً قيل ١٢٠ عاماً . توفى عام ٤٥ هجرية . [الأعلام للزركلي ٣/٢٤٨] . وذلك أن عاصم بن عدى قال : يا رسول الله عندى سبعون وسقاً جذاذ العام فتكاثر المنافقون ما جاء به وقالوا : ما جاء بها إلا رياء وسمعة . الدر المنثور (٧/٤٦٧)] .

وجئتُك بصاعٍ لأتصدَّق به . قال المنافقون : تصدَّق بصاع من التمر ، **الله** ورسوله غنيٌّ عن صاعك يا أبا عقيل[١] .

هم إذن قد عابوا على عبد الرحمن بن عوف الذى تصدَّق بالكثير وقالوا : هذا رياء ، وعندما جاء عاصم بن عدى قالوا : يُرائى بالتصدُّق بنصف ثمار حديقته ، وعندما جاء مَنْ لا يملك إلا صاعَ تمر يتصدَّق به قالوا : **الله** ورسوله غنيٌّ عن تمرك .

لقد سخروا مِمَّنْ أعطى الكثير وسخروا مِمَّنْ أعطى القليل ، وكان يجب أنْ يُمدح المتصدِّقون ولا يسخر منهم ، لأن كلاً منهم تصدَّق على قَدْر طاقته ، وهم أعطوا منه فضل ما أعطاهم **الله** ، قلّ أو كَثُر .

ومِمَّنْ كان (عند رسول **الله**) فقراء مُعدَمُون ، هم أهل الصُّفَّة[٢] الذين قال **الله** عنهم: ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ..** (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

وعدم استطاعتهم ناشيء من أمر خارج عن إرادتهم ، أو من أمر كان فى نيتهم وهو أنْ يُرابطوا فى سبيل **الله** .

وكان الأنصارُ يأتون بالتمر ويتركونه فى سبائطه ويُعلِّقونه فى حبال مشدودة إلى صوارى المسجد ليأكل منها هؤلاء الفقراء ، ومنهم جماعة من أهل **الله** انقطعوا للعبادة فتناولتهم ألسنةُ الناس واعترضوا عليهم .

---

(١) ذكره مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٢/٦٢) سورة الأنفال ، قال : جاء أبو عقيل بن قبيس الأنصارى من بنى عمرو بصاع فنثره فى الصدقة فقال : يا نبى **الله** بت ليلتى أعمل فى النخل أجر بالجرين على صاعين ، فصاع أقرضته ربى وصاع تركته لأهلى فأحببت أن يكون لى نصيب فى الصدقة . وأورده ابن جرير الطبرى فى تفسيره (١٤/٣٨٧) أن المنافقين قالوا : إن **الله** لغنيٌّ عن صاع أبى عقيل .

(٢) أهل الصُّفة هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن لهم منهم منزل يسكنه فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه . والصُّفَّة موضع مظلل من المسجد كان يأوى إليه المساكين . [لسان العرب – مادة : صفف] .

لمـاذا لا يعملون ؟ ولماذا لا يشتغلـون كباقى النـاس ؟ بل وذهبوا إلى رسول الله ﷺ يقولـون : نريـد أنْ تلتفتَ إلينـا ، وأنْ تترك هـؤلاء المجاذيب ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾ [الكهف]

هـؤلاء أمر الله نبيَّه ﷺ برعايتهم فقال له : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الكهف] أى : اجعل عينيك فيهم ولا تصرفها عنهم إلى غيرهم من أهل الدنيا ، لأن مدد النظرة من رسول الله زاد للمؤمن .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٨) ﴾ [الكهف]

لأنـه لا يأمرك بالانصراف عن هـؤلاء والالتفات إلى أهل الدنيا إلا مَن غفل عـن ذكر الله ، أما مَـنْ اطمأنَّ قلبه إلى ذكرنا وذاقَ حلاوة الإيمان فإنه لا يأمر بمثل هذا الأمر .

ثـم يقول تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] وهو رَدٌّ على المنافقين الذين يظنُّونَ أنهم الذين يملكون مَنْح مَنْ عند رسول الله الرزقَ أو منعه عنه .

والحـق سبحانـه غنيٌّ عن العالمين ، ولذلك فهـو لايطمع فيما فى أيدينا من خير لأنه من عنده ، ولا يطمع فيما معنا من مال لأن عنده خزائنَ السماوات والأرض .

وكلمة (خزائن) هذه مفردها «خزانة» وهى الشيء الذى يُكنز فيه كلُّ نفيس ليخـرجَ منه وقت الحاجـة ، ولا تقلْ : خزانة إلا لشيء جعلتَهُ ظرفاً لشيء نفيس تخاف عليه من أنْ تُخرجه فى غير أوانِ وزمانِ إخراجه .

وخزائـنُ الأرض كلُّها يملكها الله ، فهو سبحانه وتعالى القائل : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا

مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر]

والأشياء فى خزائن الله إما أنْ تكونَ مطمورة ، وإما أن تكون محكمة إحكاماً رقمياً يُظهره الله على يدى أحد فى وقت الحاجة إليه .

ومعنى أنَّ الحقَّ سبحانه يخاطب المنافقين ، فيقول : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] أى : إن كنتم تنظرون الآن إلى مَنْ عند رسول الله وحوله على أنهم فقراءُ مُعدمون فإنَّ الله له خزائنُ السماوات والأرض ، قادرٌ على إغنائهم وإعطائهم ، وأنْ يملكوا البلاد والأرض .

وهذا ما حدث وهذه نبوءة وبشارة لرسول الله أن الدنيا ستُفتح عليهم ، ومن هذا ما كان من أمر سُراقة بن مالك[1] الذى خرج خلف رسول الله فى رحلة الهجرة يريد طلبه والفوز بجائزة قريش .

وبعد أنْ تاب سراقة وعاد إلى الجادة كان الصحابة يعجبون لدقَّة ساعديه ويصفونهما بما يدعو إلى الضحك ، فكان ﷺ يقول عن ساعدى سراقة : كيف بهما فى سوارى كسري[2] ؟

ويملك المسلمون بعد ذلك مُلْك كسرى ، ويكون سِوَارا كسرى من نصيب سراقة فيلبسهما ويراهما الناسُ فى يديه .

﴿ وَلَـٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) ﴾ [المنافقون] أى : لا يفهمون ذلك لأنهم

---

(١) هو : سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى الكنانى ، أبو سفيان صحابى له شعر كان ينزل قديداً ، له فى كتب الحديث ١٩ حديثاً ، وكان فى الجاهلية قائفاً أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله حين خرج إلى الغار مع أبى بكر ، أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هجرية . توفى عام ٢٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٣/ ٨٠] .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (١٣٤١٤) وذكره ابن الأثير فى (أُسْد الغابة) (١/ ٤٢٢) . والصفدى فى الوافى بالوفيات (٥/ ٣٧) والذهبى فى (تاريخ الإسلام) (١/ ٣٧٧) .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٧) ﴾ [الروم] فهم يعلمون أموراً ظاهرة مُزْخرفة، لكن ليس لها عُمْق أو عُمر أو نفاسة .

فهم لا يعلمون حقائق الأمور وبواطنها وعواقبها وتغيُّر أحوال الدنيا ، ولكنهم يعلمون العلوم السطحية الظاهرة منها ، لذلك يقعون في عدم الفَهْم .

مثلهم مثل قوم قارون ، قال تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾ [القصص]

فهم بُهِروا بعظمة زينته لأنهم ينظرون دائماً للأمور من زاوية الارتفاع في نصيب الحياة الدنيا كهؤلاء المنافقين الذين ينظرون لأقدار الناس بمدى غِنَاهم أو جاههم أو سَطْوتهم .

فهؤلاء لا يعنيهم إلا أمرُ الدنيا ومُتعها وزُخْرفها ، أما أهل العلم والمعرفة فلهم رأىٌ مخالفٌ ونظرةٌ أبعد للأمور .

هؤلاء قالوا : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾ [القصص]

إنهم غفلوا عن حقيقة الأمر أن الزينة مظهرٌ دنيويٌّ لا يعبر عن عاقبة ما سيحدث لمَنْ يتجبَّر ويبطر ويفرح بزينته وما في يده من مال .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص] والخسف كان به وبداره التي فيها كنوزه وخزائنه وما يملك .

والمنافقون لا يفهمون أن مَنْ عند رسول الله لا ينفضُّون عنه لمجرد أنهم لن ينفقوا عليهم وسيمنعون عنهم النفقة ، فهم لم يتحلَّقوا حول رسول الله ﷺ لدُنيا يصيبونها ، إنما طاعة واتباعاً لرسول الله .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

لم يَكُفَّ المنافقون وعلى رأسهم رأس النفاق ابن أبيٍّ بن سلول عن الإساءة لرسول الله ﷺ ، وها هم يقولون : ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون] كانوا يقصدون أنهم هم الأعزُّ ، أما الأذلّ فهم المؤمنون .

ووافقهم الحق سبحانه على ما قالوا : نعم سيُخرج منها الأعزّ الأذلّ، ولكنه سبحانه أراد أنْ يُبيِّنَ لهم مَنْ هو العزيز ومَنْ هو الذليل ، فقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

فكأنَّ الحق سبحانه يؤكد لهم أنَّ الأعزَّ سيُخرج الأذل ، ولكنهم يحسبون أنفسهم هم الأعزاء ، فيقول لهم : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

وهذا ما يسمُّونه القول بالموجب . أى : أنْ تتفق مع مَنْ يقول ويقصد أن يُوجِّه كلامه وجهةَ الشرِّ ، فتقلب المقصود من الكلام وتوجهه وجهة الخير .

وهذا مقصودٌ به هنا أنْ تزيد من ذلَّة المخاطب ، فأنت تجعله يعتقد أنك توافقه، فتنفرج أساريره ويشعر بالسعادة ، ثم بعد ذلك تنقض ما قاله فيُصاب بالذلِّ .

تماماً كما يأتى الحارس لسجين يشعر بظمأ شديد ويُلح فى طلب كوب ماء ، فيقول له الحارس : سأحضر لك كوبَ الماء ، وفعلاً يُحضر الكوب مليئاً بالماء المثلج ويفرح السجين ويظن أنه سينال منه ما يريده ولكن ما إنْ يُقرِّب الحارسُ الكوبَ من فم السجين حتى يُفرغه على الأرض ، فيكون تعذيبُه أكبرَ مما لو رفض منذ البداية إحضار كوب الماء .

ومن هذا قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾ [التوبة]

وهذا يقصدون به سَبَّ رسول الله وإيذاءه، فهم أرادوا أنْ يتهموا رسولَ الله أنه لا يُمحص القول الذي يُنقل إليه ويُصدِّق كُلَّ ما يُقال له، كما نقول نحن في العامية «فلان ودَنى» أى: يعطى أذنه لكلٍّ ما يُقال له.

فوافقهم على أن رسولَ الله ﷺ «أُذن»، ثم جاء بنقيض ما كانوا يقصدونه، فيردّ عليهم الحقُّ سبحانه، نعم هو أُذن ولكن: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ .. (٦١) ﴾ [التوبة]

فهو أذن خَيْر لأنه الأُذن التى استمعتْ إلى آخر إرسال ينزل من السماء لهداية الأرض، وهو خير يعودُ على البشرية كلِّها، ولكن ليس بالمعنى الذى تعيبونه عليه، فهو قد يسمع إساءاتكم ثم يسمع اعتذاركم فلا يؤذيكم ويعفو عنكم.

وكان ابن أُبيٍّ يعنى بـ «الأعزّ» المنافقين فى المدينة، وبـ «الأذل» المسلمين من المهاجرين والأنصار. وردَّ الله سبحانه بأنْ صدَّق على قوله أنَّ الأعزَّ سيُخرج الأذلَّ، فقال الحقُّ سبحانه وتعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [المنافقون]

فسيخرج المنافقون من المدينة، وسيبقى فيها المؤمنون وتكون لهم العزة ولكن لماذا قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون] ولم تأتِ بأسلوب القصر؟ نقول: لا. فالعزة لله لا تتعداه، ولكنه سبحانه شاء أنْ تكون عزةُ رسوله ﷺ وعزةُ المؤمنين من باطن عزَّة الله تعالى.

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر: ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. (٦٥) ﴾ [يونس]

أى: فى كلِّ ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ، إنْ كانت عزةَ حكمة فهو الحكيم، وإنْ كانت عزةَ القبض على الأمور فهو العزيز ، وإنْ كانت عزةَ الحلم فهو الحليم، وإنْ كانت عزَّةَ الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبار ، وكلُّ ألوان العزَّة لله تعالى .

وما دام الأمر كذلك فأنتم الأذلَّة وأنتم الخارجون وقد كان .

وسبب نزول الآية رواه لنا جابر بن عبد الله رضى الله عنه فقال : كنَّا مع النبى ﷺ فى غزاة بنى المصطلق[1] فكسع[2] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فسمع ذلك النبى فقال : دعوها فإنها منتنة .

فسمع ذلك عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول فقال : أو قد فعلوها والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل .

فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال عمر : يا رسول الله دَعْنى أضرب عُنق هذا المنافق. فقال النبى ﷺ : دَعْه لا يتحدَّث الناسُ أنَّ محمداً يقتل أصحابه[3] .

فقال له ابنه عبد الله : والله لا تنقلب حتى تُقِرّ أنكَ الذليلُ ورسولُ الله ﷺ العزيز ، ففعل[4] .

---

(١) غزوة بنى المصطلق هى الغزوة التاسعة من غزوات الرسول التسعة عشر كما ذكره البخارى وكانت قبل الحديبية ، وقد كان بنو المصطلق حلفاء قريش من الأحابيش . وهم قوم من خزاعة كانت الوقعة بهم فى المريسيع من نحو قديد سنة ست من الهجرة . واسم المصطلق : جذيمة بن سعد .

(٢) كسع : الكسْع أن تضرب بيدك أو برجلك بصدر قدمك على دبر إنسان أو شيء . وكسعهم بالسيف : اتبع أدبارهم فضربهم بالسيف . والكسع أيضاً : تكلم فرماه على إثر قوله بكلمة يسوءه بها . وقيل : كسعه إذا همزه من ورائه بكلام قبيح . [لسان العرب – مادة : كسع] .

(٣) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٩٠٥) عن جابر بن عبد الله قال : كنا فى غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الأنصارى: يا للأنصار وقال المهاجرى : يا للمهاجرين . فسمع ذاك رسول الله ﷺ فقال : ما بال دعوى جاهلية ، قالوا : يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال : دعوها فإنها منتنة . فسمع بذلك عبد الله بن أبى فقال : فعلوها أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ النبى ﷺ فقام عمر فقال : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه .

(٤) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥٠٣/١٤) وعزاه لسعيد بن منصور والبخارى ومسلم والترمذى وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله . قال السيوطى : زاد الترمذى: فقال له ابن عبد الله : والله لا تنقلب حتى تقر أنك الذليل ورسول الله العزيز ففعل . وقد أخرجه الترمذى فى سننه (٣٦٣١) وقال : حديث حسن صحيح .

فهذه الواقعة تُبيِّن لنا دوْرَ المنافقين السَّلْبى فى المجتمع وانتهازهم أىَّ فرصةٍ للإيقاع بين المسلمين وإثارة نعرات التعصُّب الجاهلى وإيقاع الفُرْقة بينهم.

فالحادثة التى وقعتْ بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار حادثة قد تحدث فى أيِّ وقت وفي أيِّ مكان، ولكنْ أَبَى عبد الله بن أبيّ بن سلول إلا أنْ ينتهزها فرصة ليشفى الحقد الذى فى قلبه من ناحية رسول الله والإسلام والمسلمين.

وقد كان هذا دأبَ اليهود أيضاً، فعندما جاء الإسلامُ إلى المدينة وحَّد رسولُ الله ﷺ بين الأوْس والخزرج وآخى بينهم.

فبهذه المؤاخاة ضاعتْ مكانة اليهود العلمية لأن الإسلامَ جاء بدين وكتاب مهيمن على الكتب السابقة له كلّها، وكذلك ضاعتْ منهم المنزلة الحربية.

فقد رأوا قلَّة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة نَكْراء فى بدر، وهكذا ضاع كلُّ سلطانٍ لليهود فى المدينة، لذلك أرادوا أنْ يُعيدوا الأمر إلى ما كان عليه قبل أنْ يجيء الإسلام.

فقالوا: فَلْنُؤجج ونُشعل ما بين الأوس والخزرج من العداوات ونُهيِّجها، وقال شخص اسمه «شأس بن قيس»[1] وقد رأى نور الإيمان يعلو وجوه الأوس والخزرج ويشملهم الانسجام الإيمانى، وتوجد بينهم المودة وابتسامات الصفاء.

هيَّج ذلك شأس بن قيس وقال: «والله لابدَّ أنْ نُعيدها جَذَعة[2] ونُرجعهم

---

(١) شأس بن قيس هو من يهود بنى قينقاع. كان شديد الكفر والعداوة للمسلمين، وقد كان أحد الذين قالوا (يد الله مغلولة). وقد كان أعمى.

(٢) جَذَعة: بدايته من جديد. يقال: أعدت الأمر جذعاً أى جديداً كما بدأ. وإذا طفئت حرب بين قوم فقال بعضهم: إن شئتم أعدناها جَذْعة أى أوّل ما يُبتدأ فيها. [لسان العرب – مادة: جذع].

إلى ما كانوا عليه من أحقاد وعداوات : فلا استقرار لنا ما داموا قد اجتمعوا»[١] .

فأرسل فتيً من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديثُ منه إلى يوم يُسمَّى يوم «بُعاث» ، وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، وكان بين الأوس والخزرج ، وكان النصر فيه للأوس على الخزرج .

جلس الفتى يذكر ويأتى بالشعر الذى قيل فى هذا اليوم ، فهيَّج حميَّة الأوس والخزرج ، وحدث النزاع وحصل التفاخر واستيقظ التباغض ، وقالوا : السلاح.. السلاح .

وهكذا نجحت المكيدة ونمى الخبر إلى سيدنا رسول الله ، فقام ﷺ ومعه صحابته حتى انتهوا إلى اجتماع الأوس والخزرج ، فوجدوا الحال على أشدِّ درجات الهياج ، نزاع وتباغض وسلاح محمول ، فقال الرسول ﷺ : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم[٢] .

أى : كان من الواجب أنْ تخجلوا من أنفسكم ، لأن رسول الله ﷺ بينكم ،

---

(١) عن زيد بن أسلم (مرسلاً) قال : مرَّ شاس بن قيس وكان شيخاً قد عسا فى الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد لا ، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شاباً من اليهود وكان معه فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم وذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار .. الحديث بطوله فى تفسير الطبرى (٧٥٦٣) وكذا الشوكانى فى فتح القدير (٢/٥) .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/٦٩٩) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ الأصبهانى عن زيد بن أسلم ، وفيه أن رسول الله قال لهم : يا معشر المسلمين الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً . فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوه لهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً. وهو تفسير الطبرى (٥ / ٦٢٨) .

وأضـاف رسول الله : لقد أكرمكم الله بـالإسـلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألَّف بين قلوبكم ، فماذا كانت مواقع كلمات الرسول فى نفوس القوم ؟

لقـد دفعتْهـم كلماتُه ﷺ إلى إلقـاء السلاح وبكَوْا ، وعانـقَ بعضُهم بعضاً، وانصرفـوا مـع رسـول الله ، فمـا كان يـومٌ أقبـح أولاً ، وأحسن آخـراً من ذلك اليوم.

نفس هذا الدور القبيح الذى مارسه اليهود فى المدينة بين الأوس والخزرج فعلـه ابـن أُبَىٍّ بن سلـول للإيقاع وزيـادة الفُرْقة والخلافات بـين المهاجرين والأنصار.

يقـول جابـر بن عبد الله رضى الله عنه : كنَّا مع النبى ﷺ فى غزاة ، يقصد غزاة بنى المصطلق ، فحدث أنْ كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار .

والكسـع هـو أنْ تضرب دُبر إنسان بيـدك أو بصدر قدمك . وكسـعَ فلانٌ فلانـاً طرده ، ويُقال أيضاً : كسع فلانٌ فلاناً بما ساءه إذا همزه من ورائه بكلام قبيح.

فسمـع بذلك النبـى ﷺ فقال : دَعُوها فإنها مُنْتِنـة . أى : تجاوزوا عن هذا لأنهـا ستُؤدى إلى شَرٍّ عظيم ووقيعة .

فـالفئـة المؤمنـة لا تخضـع لعصبيـة الجاهليـة ، ولا تنفعل لهـا ولا لحمية النفـس، وهنا كَسَع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصارى : يا للأنصـار. وقال المهاجرى : يا للمهاجرين .

فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال : ما بال دعوى الجاهلية ؟

فدعـوى الجاهلية دعوى تفريق بين الأنصـار والمهاجرين ، أو أى طائفتين مختلفتين ، واستنهاض كلِّ فريق للتحزُّب والشِّقاق والاشتجار ، هذا يؤدى إلى أفعال كلّها من أفعال الجاهلية .

فقال ﷺ : « دعوها فإنها مُنتنة . أى : قبيحة ودنيئة لأنها تثير التعصُّب على غير الحق والتقاتل على الباطل ، ثم إنها تجرُّ إلى النار .

كما قال ﷺ : «مَنْ دعا بدعوى الجاهلية فليس منَّا ، وليتبوَّأ مقعده من النار»(١) .

ودعوى الجاهلية هى الاستغاثة عند إرادة الحرب ، فكانوا يقولون : يا آل فلان. فيجتمعون فينصرون القائل ولو كان ظالماً ، فجاء الإسلامُ بالنهى عن ذلك .

وقد كانت الجاهلية تتعاضد بالعصبية للقبائل فى أمور الدنيا ومتعلقاتها، وكانت الجاهلية تأخذ حقوقها بالعصبات والقبائل ، فجاء الإسلام بإبطال ذلك ، وفصّل القضايا بالأحكام الشرعية ، فإذا اعتدى إنسانٌ على آخر حكمَ القاضى بينهما وألزمه مقتضى عدوانه ، كما تقرَّر من قواعد الإسلام ، لا بمقتضى العصبية لقبيلة من القبائل .

ومع دعوى الجاهلية والاستنصار بالقبائل والعصبية يظهر المنافقون الذين يريدون اشتعالَ النار وتأجُّجها لأنهم مستفيدون من هذا .

وهنا ظهر عبد الله بن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين وقد كان خارجَ المدينة ، فسمع ما حدث من اقتتال غلامين أحدهما مهاجرى والآخر أنصارى ، فضرب المهاجرىُّ الأنصاريَّ وعَلاَ عليه .

فقال ابن أُبيٍّ : أو قد فعلوها ؟ كأنه كان ينتظر هذا الحادث فهو يبغى الفتنة ، يقول تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [التوبة]

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (١٢٩٤ ، ١٢٩٨ ، ٣٥٢٠) وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٨) من حديث عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو دعا بدعوى الجاهلية » . وعن الحارث الأشعرى عن رسول الله ﷺ قال : « من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم . قال رجل : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال : نعم فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله . أخرجه الطيالسى وأحمد والترمذى وصححه وغيرهم .

فإنهم يُحدِثون فُرْقة بين صفوف المؤمنين ويُفرِّقونهم ويتغلغلون بينهم للإفساد ، فالخِلال الفُرْجة بين الشيئين أو الشخصين ، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد وآخر يفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشُون خلال المؤمنين ليُفرِّقوا بينهم .

فقال ابن أُبَيٍّ : أو قد فعلوها . أى أو قد تجرَّأ المهاجرون على الأنصار ، وقد كان الأنصار فى أوَّل الأمر أكثر من المهاجرين ، ثم كَثُر المهاجرون فيما بعد.

ثم قال ابن سلول : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ .

ونحن نعرف أنَّ رأسَ المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول كان سيُتوَّج مَلِكاً على المدينة ، وأثناء الإعداد لمهرجان التتويج فُوجئوا بوصول رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة .

وكان هذا من أسباب حقد عبد الله بن أبيّ على رسول الله ، فقد ضاع منه الملْك ، وكان لعبد الله بن أبيّ ولدٌ أسلم وحسُن إسلامه، اسمه عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ .

وكان من حُسْن إسلام هذا الابن أنه ذهب إلى رسول الله ﷺ حين علم أنَّ رسولَ الله سيأمر بقتل أبيه، لأنه قال : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

فذهب الابنُ إلى رسول الله وقال : يا رسولَ الله ، إنْ كنتَ ولا بدَّ آمراً بقَتْل أبى فأمرنى أنا بقتله ، لأنى أخاف أنْ يقتله أخٌ مؤمن فأكرهه وأنا لا أحب أن أكره مؤمناً[١] .

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٣ / ٤٠٧) عن عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبىّ أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبرّ بوالده منى، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : « بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » . وكذا ابن الأثير فى (الكامل فى التاريخ) (١/ ٣٠٩) .

وهكذا نرى قوة وصدق الإيمان ، وأراد رسولُ الله ﷺ أنْ يكرم ذلك المنافق مـن أجـل ابنه فلم يأمـر بقتله ، ومن بعد ذلك قال الابن : يـا رسولَ الله استغفر لأبى . أى : اطلب له من الله المغفرة .

ولأنـه ﷺ يعلـم أنه قد أُرسِلَ رحمةً للعالمـين ، لذلك طلب المغفرة لعبد الله ابن أُبيٍّ ، وحينئذ نزلتْ الآية الكريمة : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ [التوبة]

لقد أراد الابن الصالح أنْ يقتلَ أباه بنفسه حتى لا يكون له ثأر عند أحدٍ من المسلمين ، ومن أخبار عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه عندما مرَّ أمامه قاتلُ أخيه زيد بن الخطاب، فقال له عمر : ازْوِ نفسك عنِّى فإنِّى لا أحبك .

فـردَّ الرجـل بكُلِّ جـرأة إيمانية : أو عدم حُبِّك لى يمنعنـى حقاً من حقوقى ؟ قال عمر : لا . قال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء .

ولقد استدعى رسولُ الله عبدَ الله بن أُبيّ بن سلول ليسأله فأنكر وحلَف بالله أنـه مـا قال ، فنزل قوله تعـالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَـدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ .. (٧٤) ﴾ [التوبة]

فجعـل ابـنُ سلول يحلف بالله مـا قاله ، وقد قال زيد بـن أرقم : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فأصاب الناسَ شدةٌ ، فقال عبدُ الله بن أُبىٍّ لأصحابه: لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : لئن رجعنا إلى المدينـة ليُخرجـن الأعز منها الأذل فأتيتُ النبـى ﷺ فأخبرتُه بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبىّ فسأله فاجتهد يمينه ما فعل .

فقالوا : كذبَ زيدٌ رسولَ الله . فوقع في نفسي مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقي في : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ .. (١) ﴾ [المنافقون] فدعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم[1] .

ومن حُسْن إسلام الابن عبد الله أنَّ أباه لما عاد إلى المدينة أخذ ابنُه السيفَ، ثم قال لوالده : أنت تزعم لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، واللهِ لا تدخلها حتَّى يأذنَ رسولُ الله .

ومن كلامه أيضاً : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول : رسول الله ﷺ الأعزّ وأنا الأذلّ . والله عليَّ أنْ لا أغمده - أي السيف - حتى تقول : محمد الأعز وأنا الأذل . فأقرَّ له بها[2] .

وقد كان ابنُ سلولٍ مُؤذياً على الدوام لرسول الله ﷺ حتى أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار ، وكانت جهينة حلفاء الأنصار، فظهر الغفاري على الجهنيّ ، فنادى عبد الله بن أبيّ : يا بني أوس انصروا أخاكم . وقال : والله ما مَثَلُنا ومَثَلُ محمد إلا كما قال القائل : سمِّنْ كلبك

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٤/ ٥٠٤) وعزاه للطبراني عن أسامة بن زيد : لما رجع رسول الله ﷺ من بني المصطلق قام عبد الله بن عبد الله بن أبي فسلَّ على أبيه السيف وقال : والله عليَّ أن لا أغمده حتى تقول : محمد الأعز وأنا الأذل . فقال : ويلك محمد الأعز وأنا الأذل ، فبلغت رسول الله فأعجبته وشكرها له . قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٧٥٩) : « فيه محمد بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف » .

(٢) عن زيد بن أرقم قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال زيد : فأتيت النبي فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله فاجتهد يمينه ما فعل فقال : كذب زيدٌ رسولَ الله . قال زيد : فوقع في نفسي مما قالوه شدة حتى أنزل الله تصديقي ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ .. (١) ﴾ [المنافقون] . قال : ثم دعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم . قال: فلووا رؤوسهم.

يأكلك.[1] .

وهـو نفسه ابن أُبيٍّ الـذى آذى رسول الله ﷺ فى أهله زوجه عائشة رضى الله عنهـا وفى غزوة بنى المصطلـق أيضاً ، فخاض وتولَّى كبر الإساءة لرسول الله ، ورمى زوجه عائشة بالفاحشة .

لذلـك قـال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ .. (١١) ﴾ [النور] ثم قال : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ .. (١١) ﴾ [النور]

فالـذى تولّى كِـبر الأمر منهم هو عبد الله بن أُبيّ بن سلـول ، فهو الذى ابتدأ هـذا الـكلام وقال : امـرأة نبيكم باتتْ مـع رجل حتى أصبحـت ، ثم جاء يقود بها[2] .

لقـد غفل المنافقون أن العزة لله ولرسولـه وللمؤمنين وأن الذلـةَ لهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

فـالله هو العزيز الذى يغلب ولا يغلبه أحدٌ ، والرسول عزيز له كرامةٌ وعِرْض لا يُمسّ ، والمؤمنون باتباعهم لكتاب الله تنالهم عزة لا تُدانيها عزَّة .

والعـزة مأخوذة من معنىً مـاديٍّ وهو الصَّلابة والشدة ، فالأرض العَزاز .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٠٤٠٣) عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار فظهر الغفارى على الجهنى فنادى عبد الله بن أبى: يا بنى أوس انصروا أخاكم وقال : والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمِّن كلبك يأكلك . وقد عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٤٤٥) لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره جامع البيان (٢٦٠٥٠) وعزاه لابن زيد المفسر قال : أما الذى تولى كبره منهم ، فعبد الله بن أبى بن سلول الخبيث هو الذى ابتدأ هذا الكلام وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها .

وقد روى ابن أبى مليكة عن عروة عن عائشة في حديث الإفك قالت : ثم ركبت وأخذ صفوان بالزمام فمررنا بملأ من المنافقين وكانت عادتهم أن ينزلوا منتبذين من الناس ، فقال عبد الله بن أبي رئيسهم: من هذه ؟ قالوا : عائشة . قال : والله ما نجت منه وما نجا منها . وقال : امرأة نبيكم مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها . ذكره البغوى في تفسيره (٦/ ٢٣) .

أى: الصلبة التى لا ينال منها المعْول ، ثم نقلت إلى كلِّ شديد ، فكلُّ شيءٍ شديدٌ فيه عِزَّة .

فـإذا قيـل : الله عزيز أى أنه سبحانه وتعالى غالبٌ على أمره ، شديد لا يمكن أنْ يقدر على مِحَاله أو مَكْره أو قوته أو عقابه أحدٌ .

وإذا قيـل : هـذا الشـيء عزيز أى نـادر ، ومـا دام الشيءُ نـادراً فهـو نفيس ، والمعادن النفيسة كلها أخذتْ حظَّها من نُدْرتها وقلَّتها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَـٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

وليس هذا نفياً لعلمهم ووصول المعلومة إليهم ، بـل هو نفيٌ لاستفادتهم للعلم الذى وصل إليهم .

فالعلـم الـذى لا يخضع حركة الإنسان له فكأنه لم يعلـم شيئاً ، فكأنَّ العلم لم يثبـت لـه لأنه لم ينتفع بـه ، فهم لا يعلمون العلم المفيـد ولا يعلمون بواطن الأمور ولا عواقبها .

وهـم لا يعلمـون ، لأنهم لا يُوازنـون الأمور بدقَّة تُـؤدى إلى النفع الحقيقى، وهـم لا يعلمـون قـدْرَ الإيمان الحـقّ ، والإنسانُ قد لا يفهم شيئـاً أى لا يفقهه ، ولكن قد يفهمه غيره ويعلمه هو عنه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

نظـام الحياة يجعلنا ننسى المسبِّب للنِّعم سبحانه ، فالشمس تطلع كل يوم، كم منا يتذكر أنها لا تطلع إلا بإذن الله فيشكره ، والمطر ينزل كل فترة ، مَنْ منَّا يتذكَّر أن المطر يُنزله الله فيشكره .

فالذكر يكون باللسان وبالقلب ، والله سبحانه وتعالى غَيْب مستور عنّا ، وعظمته أنه مستور ، ولكن نِعَم الله سبحانه تدلّنا عليه ، فالذكْر يكون فى بالنا دائماً ، وبنعمه يكون ذِكْره وشُكْره دائماً .

ذِكْر الله سبحانه يعطينا حركة الحياة فى كل شيء ، ذِكْر الله يُوجِد فى القلوب الخشوع ويُقلل المعاصى وينتفع الناسُ كلُّ الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة .

والحق سبحانه هنا يقول : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون]

فالله يخاطب الذين آمنوا ليحفظ عليهم إيمانهم صافياً لا تشوبه شائبة ولا يجرحه شيء ، وهذه الآية لا بدّ أن نأخذها فى سياق ما قلناه فى تفسيرنا لسورة الجمعة .

فقد قال تعالى هناك : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

فهؤلاء مؤمنون أُمِروا بالسعى إلى ذكر الله إذا نُودى للصلاة من يوم الجمعة وعليهم أن يتركوا البيع ، حتى إذا انتهت الصلاة انتشرتم في الأرض ، وابتغوا من فضل الله، وأنتم فى خلال هذا كله ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

ونعَى الله علـى مَـنْ انفضُّوا عن رسول الله ﷺ وهو يخطب خطبة الجمعة وألهتْهم التجارة التى وفدتْ على المدينة فى ذلك اليوم ، وهم مؤمنون .

لذلك يخاطب الله هنا الذين آمنوا ، وهم المخاطبون بالتكليف يأمرهم وينهاهم ، أما الذين لم يؤمنوا فغير مخاطبين لا بأمر ولا بنهى .

فالمؤمن يلزم نفسه بالتكليف وبمنهج الله فيدخل فى عقد إيمانى مع الله تبارك وتعالى ، لذلك نجد أن الله جلَّ جلاله لا يخاطب الناسَ جميعاً فى التكليف، وإنما يخاطب الذين آمنوا فقط .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [البقرة] ويقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [البقرة]

أى : أن الله جلَّ جلاله لا يكلف إلا المؤمن الذى يدخل فى عقد إيمانى ، فما دام العبد قد آمن فقد أصبحتْ مسئوليةُ حركته فى الحياة عند ربه ، ولذلك يُوحى إليه بمنهج الحياة ، أما الكافر فلا يُكلفه الله بشيء .

فالإيمان التزام ، وما دُمتَ قد التزمتَ بأنه إله حكيم فخُذْ منه أحكام دينك ، وعَدْلُ الله اقتضى ألا نُكلّف إلا مَن يؤمن ، وهذا على خلاف مألوف البشر ، لأن تكليفات القادة من البشر للبشر تكون لمَنْ يرضى بقيادتهم ومَنْ لم يرضَ .

وإذا كان للقائد من البشر قوة فإنه يستخدمها لإرغام مَنْ يُوجدون تحت ولايته على تنفيذ ما يقول .

ولذلك يجيء الحق سبحانه دائماً قبل آيات التكليف بقوله سبحانه : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٩) ﴾ [المنافقون] فهو لم يكلف مطلق الناس ، وإنما كلَّف مَنْ آمن به .

فهو سبحانه لم يقتحم على الناس تصرُّفاتهم الاختيارية لمنهجه ، بل يلزم ويأمر مَنْ آمن به ويُوجب عليه ، والحق سبحانه لم يكلف الكافر لأنه ليس بينه وبينه عهد ، إنما يكلف مَنْ آمن ، فتجد كل آية من آيات الأحكام تبدأ بهذا النداء الإيماني ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٩) ﴾ [المنافقون]

فحيثية تلقِّي الأحكام وطلب الله أنْ نلتزم بها هي إيماننا بالله الذي يُكلف بافعل ولا تفعل ، فالإنسان الذي ارتضى دخول الإيمان بالله جلَّ جلاله قد دخل في عقد الإيماني مع الله تبارك وتعالى .

وما دام قد دخل في العقد الإيماني فإنه يتلقَّى عن الله منهجه افعل ولا تفعل ، وهذا المنهج عليه أنْ يُطبِّقه دون أنْ يتساءل عن الحكمة في كل شيء .

فحكمة أيِّ تكليف إيماني هي أنه صادر من الله سبحانه وتعالى ، وما دام صادراً من الله فهو لم يصدر من مُساوٍ لك كي تناقشه ، ولكنه صادر من إله وجبتْ عليك له الطاعة لأنه إلهٌ وأنت له عابد .

فيكفي أنَّ الله سبحانه وتعالى قال : افعل حتى نفعل ، ويكفي أنه قال : لا تفعل حتى لا نفعل .

إذن : فكلُّ تكاليف من الله نفعلها لأن الله شرعها ولا نفعلها لأيِّ شيء آخر ، وكلُّ ما يأتينا من الله قرآنٌ نستقبله على أنه كلام الله ولا نستقبله بأيِّ صيغة أخرى ، ذلك هو الإيمان الذي يريد الله منَّا أنْ نتمسَّك به ، وأنْ يكون هو سلوك حياتنا .

وإذا كان الحق سبحانه قد نادى مَنْ آمن بقوله : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٩) ﴾

[المنافقون] فأمرهم بالسعي إلى ذكر الله : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ .. (٩) ﴾ [الجمعة] فهذا أمرٌ بافعل .

فإن الحق سبحانه نهى الذين آمنوا ، فقال هنا : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٩) ﴾ [المنافقون]

واللهو هو قتْل الوقت فى عمل قد يشغل الإنسان عن الواجب ، والحياة الدنيا إذا كانت مجردة من منهج الله الذى خلقها وخلق الإنسان فيها فهى لهو ولعب .

فاللهو هو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة ، فالدنيا تمرُّ عليهم فى لهو ولعب ومشاغل ، ولم يأخذ الحياة بالجد اللائق بها ، فكلُّ ما يُلهيك عمَّا يضعه لك إلهك هو لهو ، لأنه شغلك عما هو أهمّ .

وكلمة اللهو أى الشيء الذى لا مصلحةَ فيه ويشغلك عن مطلوب منك ، وهنا فرْق بين اللهو واللعب ، وكلاهما لا مصلحة فيه ويشغلك عن مطلوب منك .

وقد ذكر القرآن اللهو واللعب فى عدة آيات ، فتقدم اللعب على اللهو فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٣٢) ﴾ [الأنعام]

وفى قوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] وتقدم اللهو فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ .. (٦٤) ﴾

[العنكبوت]

فقدَّمت الآياتُ اللعب فى آيتين ، لأن اللعب أنْ تصنع حركة غير مقصودة لمصلحة كما يلعب الأطفال ، يعنى حركة لا هدفَ لها ونقول عنها (لعب عيال) ، وسُميتْ لعباً لأن الطفل يلعب قبل أن يُكلَّف بشيء ، فلم يشغل باللعب عن غيره من المهمات .

لكن إذا انتقل إلى مرحلة التكليف فإن اللعب يشغله عن شيء طُلِب منه، ويُسمَّى في هذه الحالة لهواً.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا.. (١١) ﴾ [الجمعة] إذن: فاللهو هو الشيء الذي لا مصلحةَ فيه ويشغلك عن مطلوب منك.

فآية سورة العنكبوت التي قدَّمتْ اللهو على اللعب تعني أن أمور الاشتغال بغير الدين قد بلغت مبلغاً، وأن الفساد قد طمَّ واستشرى الانشغال بغير المطلوب عن المطلوب.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.. (٦) ﴾ [لقمان]

ومعنى (لهو الحديث) قال العلماء[1]: هو كل ما يُلهي عن مطلوب الله، وعليه فالعمل الذي يُلهي صاحبه يُعد لهواً إنْ شغله مثلاً عن الصلاة، أو عن أداء واجب لله تعالى.

ومنتهى اللهو واللعب أنْ يلعبوا عند سماع القرآن فلم يستمعوا له، حتى على أنه لهو له غاية، إنما على أنه لعب لا غاية له ولا فائدة منه، لأن غايته ضارة.

واللعب وإنْ كان مُباحاً في فترة ما قبل البلوغ، إنما القلوب يجب أنْ تُربَّى على أنْ تلتفت إلى الله عزَّ وجلَّ الخالق الرازق في هذه الفترة المبكرة من حياة

---

(١) قال ابن عباس: لهو الحديث أي باطل الحديث. وهو الغناء ونحوه، وقال ابن مسعود: هو رجل يشتري جارية تغنيه ليلاً أو نهاراً. ذكرهما السيوطي في الدر المنثور. قال الشوكاني في تفسيره فتح القدير (٤٨٣/٥): هو كل ما يلهي عن الخير من الغناء والملاهي والأحاديث المكذوبة وكل ما هو منكر. وقال البقاعي في (نظم الدرر) (٦/٦): أي ما يلهي من الأشياء المتجددة التي تُستلذ فيقطع بها الزمان من الغناء والمضحكات وكل شيء لا اعتبار فيه.

الإنسـان . وهـذه مهمة الأب فإنْ أتى لولـده بطعام أو شراب يقـول أمام الولد الصغير : ربنا رزقنا به .

وهكذا فى كل أمور الحياة يسند الأمر إلى الله ، وينبه الولد الصغير : قُلْ بسم الله . قُلْ : الحمد لله .

وهكـذا تُربِّى فى الولـد مواجيده[1] على اليقين بـالله القـوى ، وإنْ كان الولد لا يـراه فإنـه يرى آثاره ونعمه ، ويرى أباه الذى يتعهده ويأتى له بكل شيء لا يتصيَّد المجد لنفسه ، إنما ينسب كلّ شيء إلى الله .

فأبـوه - وهـو المثـل الأعلى له - يُزحـزح هذه المسائل عنـه وينسبها لله ، فيتربّـى وجـدان الولد على الإيمان ، فـإذا لم يُربَّ الولد هـذه التربية تسلَّل إلى نفسه اللهو واللعب .

والدنيـا إذا مـا بعدت عن منهج الله فهى دار لهو ولعب لا فـائدةَ منها ، ولكنَّ الله خصَّ هنـا من الدنيا أمرين : الأموال ، والأولاد ، فقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ .. (٩) ﴾ [المنافقون]

فالحـق سبحانه ينهى الذيـن آمنوا أنْ تشغلهم أموالهـم أو أولادهم عن ذكر الله، وهـذان جمع الله بينهمـا فى آية آل عمران ، يقول تعـالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾[2] [الكهف]

وهذان العنصران أساسيان فى فتنة النـاس فى الدنيا : المال والبنون ، لكن

(١) المواجيد : هى ما يجده الإنسان فى نفسه من مشاعر الإيمان وحلاوة الطاعة وسرور المحبة . وهنـاك مواجيد ومشاعر معصية . وهنـاك مواجيد أهل التقوى وما يجدونه من العزة والشرف فى الدنيا .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (الكهف ٤٦) : إنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن فى المال جمالاً ونفعاً . وفى البنين قوة ودفعاً ، فصارا زينة الحياة الدنيا . وقـال البيضاوى فى تفسيره (٣/ ٥٠٠): يتزين بها الإنسان فى دنياه وتفنى عنه عما قريب . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (٤/ ٢٢٨) : هذا رد على المشركين الذين كانوا يفتخرون بالأموال والأولاد فأخبر الله تعالى أن ذلك مما يُتزين به فى الدنيا .

لماذا قدَّم المال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟

نقول : قدَّم الحق سبحانه المال على البنين، والأموال على الأولاد ليس لأنه أعزّ أو أغلى ، إنما لأن المال عام فى المخاطب على خلاف البنين ، فكلُّ إنسان لديه المال وإنْ قلَّ ، أما البنون فهذه خصوصية ، ومن الناس مَنْ حُرم منها .

كما أن الأولاد والبنين لا يأتُون إلا بالمال ، لأنه يحتاج إلى الزواج والنفقة لكى يتناسل وينجب . إذن : كلٌّ واحد له مال ، وليس لكل واحد بنون .

ومعنى أن : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف] أنهما ليسا من ضروريات الحياة ، فهما مجرد شكل وزخرف ، لأن المؤمن الراضى بما قُسِم له يعيش حياته سعيداً بدون مال وبدون أولاد .

فالإنسان قد يشقى بماله أو يشقى بولده لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أنْ يُرزق هذا المال أو هذا الولد ، وقد ترى الرجل كدراً مهموماً لأنه يريد الولد ليكون له عِزْوة وعزة ، وربما يُرزق الولد ويرى الذلَّ على يديه .

وليس المقصود بالأموال هنا الذهب والفضة ، إنما الأموال كلمة عامة تعم الذهب والفضة والنقود ، وتعمُّ الخيل والزرع والماشية وكلّ ما يُتموّل به إلا أننا نصرفه إلى شيء يمكن أنْ يأتى بكلِّ ما يتمول ، وأسميناه النقد ، وأصبحت له الغلبة لأننا نشترى بالنقد كلَّ شيء .

والمال ينقسم قسمين : مال يمكن أنْ تنتفع به مباشرة ، فهناك مَنْ يملك الطعام ، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملكُ أثواباً ، وهذا نوع من المال يُنتفع به مباشرة ، وهناك نوع آخر من المال وهو النقد ولا يُنتفع به مباشرة ، بل يُنتفع به بإيجاد ما يُنتفع به مباشرة .

فلا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله لأنها لن تُغنى عن أحد يوم

القيامـة ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. (١١٦) ﴾ [آل عمران]

فالأمـوال والأولاد هم من مظـانّ الفتنة ومصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [الأنفال]

والمنـافقـون والكافـرون لا ينجحون فـى فتنة الأمـوال والأولاد ، بل سوف يأتى يومٌ لا يملكون فيه هذا المال ولا أولئك الأولاد ، وحتى إنْ ملكوا المال فلن يشتروا به فى الآخرة شيئاً ، وسيكون كلُّ واحد من أولادهم مشغولاً بنفسه .

وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [1] (٣٣) ﴾ [لقمان]

وإذا كانـت الأموال والأولاد من زخرف وزينة الحياة الدنيا ، فلماذا نجعلها تُلهينا عن ذكر الله وتشغلنا عن واجبات وفرائض فرضها الله علينا وننصرف عمَّا هو أهمّ إلى ما هو زينة وزخرف ؟

وقـد سُئِـلَ رسول الله ﷺ عـن قوله تعـالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ .. (٩) ﴾ [المنافقـون] فقـال ﷺ : « هم عباد مـن أمتـى الصالحون منهم ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وعن الصلاة المفروضة الخمس » [2] .

---

(١) الغَرور : الشيطان . وهو الباطل . قاله قتادة . أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٢٤٣٤) . والغرور : الشيطان يغر الناس بالأمانى الباطلة والمواعيد الكاذبة . [فتح القدير للشوكانى ٢/٦٢] .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور [المنافقون ٩] من حديث ابن عباس رضى الله عنهما وعزاه لابن مردويه . وذكره الشوكانى فى فتح القدير (٥/٢٢٨) بلفظ آخر عن ابن عباس ومعزواً لابن مردويه أيضاً قال : كانوا رجالاً يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون ، فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما فى أيديهم وقاموا إلى المسجد فصلوا .

فهؤلاء عبادٌ من أمة محمد ﷺ ، ولكن رسول الله يُخصِّص منهم صنفاً معينين ، فيقول « الصالحون منهم » ، أولئك الذين يَصلون أنفسهم بالله عز وجل بذكره سبحانه ، ويعطيهم المعونة ليكونوا أهلاً لقيادة حركة الحياة فى الأرض ، فيُوطدوا فيها الأمن والسلام والرحمة والعدل ، وهذا هو ما يجب أنْ يكون مجالاً للفخر .

والسبيل إلى ذكر الله هو تجديد الصلة به سبحانه والوقوف بين يديه مقيمين للصلاة ، حتى فى أثناء القتال والخوف لا ننسى ذكر الله .

والذكْر مطلقاً هو ذِكْر الله بآلائه وعظمته وقدرته وصفات الكمال له ، وذِكْر الله أمر متصلٌ واجب فى الصلاة وفى غيرها ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ .. (١٠٣) ﴾ [النساء]

والذكر أيضاً الاعتبار والتذكُّر ، وأنْ تعيش كمسلم فى منهج الله ، ومرة يُراد بالذكر التسبيح والتحميد ، يقول تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ[1] (٣٦) رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ .. (٣٧) ﴾ [النور]

وهو ذِكْر لأن هناك مَنْ يُسبح له فيها بالغدو والآصال ، وهم رجال موصوفون بأنهم لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد يُطلق الذكر ويُراد منه خير الله على عباده ، ويُراد به كذلك ذكر عبادتهم له بالطاعة ، فسبحانه يذكرهم بالخير ، وهم يذكرونه بالطاعة .

وإياكم أنْ تُلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذكر الله ، قال تعالى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة] هذا فى سورة

(١) الغدو صلاة الصبح . والآصال : صلاة الظهر والعصر والعشاءان . ومعنى بالغدو والآصال : بالغداة والعشى . [فتح القدير للشوكانى ٥/٢٢٤] .

الجمعة ، أما هنا فإياكم أنْ تلهيكم أموالكم وأولادكم عن ذكر الله .

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .. (٩) ﴾ [المنافقون]

وإياكم أنْ تعتقدوا أنْ ذِكْر الله في المسجد أو وقت الصلاة فقط ، بل داوموا على ذِكْر الله في كلِّ أحداث الحياة ، فإنْ فعلتم ذلك وذكرتم الله كثيراً فستكونون من المفلحين .

وذِكْر الله كثيراً معناه أنك تشعر في كل لحظة أن الله سبحانه وتعالى معك فتخشاه وتحمده وتستعين به ، وهكذا تكون الصلةُ دائمةً بينك وبين الله عزَّ وجلَّ في كلِّ وقت .

فمَنْ أخذه هواه وألهاه عن ذكر الله ، فما دام قد انشغل بشيء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله ، إنه مشغولٌ بمطلوب نفسه . فاستحضر ذكر الله واجعله على بالك دائماً .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] أي : أكبر من أيِّ عبادة ، لأن العبادات كما ذكرنا تحتاج إلى استعداد وإلى وقت وإلى مشقة وإلى تفرُّغ وعدم مشغولية .

أما ذِكْر الله فهو يجري على لسانك في أيِّ وقت وبدون استعداد أو مشقة ويلهج به لسانك في أيِّ وقت ، وعلى أيِّ حال أنت فيه .

وما دام أن الذكْر هو أنْ تجعل الله على بالك ، فلا يمنعك من ذلك سَعْيٌ ولا عمل ، لأن الذكر أخفُّ العبادات وأيسرُها على النفس وأثقلُها في الميزان .

والذكر هو العبادة الوحيدة التي لا تُكلفك شيئاً ولا تعطل جارحة من جوارحك ولا يحتاج منك إلى وقت ولا إلى مجهود ، وليس له وقت مخصوص .

فمَنْ ذكر الله قائماً ، وذكر الله قاعداً ، وذكر الله على جَنْبه عُدَّ من الذاكرين[١] - هذا بالنسبة لوضعك - ومَنْ ذكر الله بُكْرة ، وذكر الله أصيلاً أو غدواً وعشياً أصبح من الذاكرين ، هذا بالنسبة للزمان .

ومن قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، ولا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثلاثين مرة فى اليوم كُتب من الذاكرين[٢] ، ومَن استيقظ ليلاً فأيقظ أهله وصلَّى ركعتين فهو من الذاكرين[٣] .

إذن : فذكْر الله مسألة سهلة تستطيع أنْ تذكر الله وأنت تعمل بالفأس أو تكتب بالقلم ، تذكر الله وأنت تأكل أو تشرب ، فذِكْر الله وإنْ كان أكبر إلا أنه علَى المؤمن سهلٌ هيِّن .

وقد يسأل سائل : وإذا كان ذِكْر الله سهلاً هيِّناً ويُعتبر أخفَّ العبادات ، فهل هذا يصعب على أحد أنْ يقوله ، ولماذا يقول تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون]

وهذا يُعطينا ملمحاً أن ذكر الله المقصود هنا هو أمر مطلق أكبر من الذِّكْر والتسبيح والتهليل ، وهو الالتزام بمنهج الله تعالى ، لذلك فمَنْ لا يلتزم بمنهج الله هم الخاسرون .

---

(١) أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ..(١٩١) ﴾ [آل عمران] قال : هذه حالاتك كلها يا ابن آدم ، اذكر الله وأنت قائم ، فإن لم تستطع فاذكره جالساً ، فإن لم تستطع فاذكره وأنت على جنبك . يُسر من الله وتخفيف . وأخرج ابن أبى حاتم في تفسيره (٤٦٥٧) عن مجاهد قال : لا يكون العبد من الذاكرين كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً .

(٢) أورده السمعانى فى تفسيره (٤/٢٨٤) قال : روى الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: « من قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله كُتب من الذاكرين الله كثيراً وتحات عنه خطاياه كما يتحات الورق عن الشجر ونظر الله إليه ومن نظر الله إليه لم يعذبه » .

(٣) أخرج البيهقى فى سننه الصغرى (٦٠٩) عن أبى سعيد وأبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « من استيقظ من الليل فأيقظ أهله فصليا ركعتين جميعاً كتب ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

والخسـران أنَّ الـذى وصلوا إليه هو من عملهم ، لأنهـم تركوا المنهج وبدأوا يُشرِّعون لأنفسهم بهوى النفس .

﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِيـنَ اشْـتَرَوُا الضَّـلالَةَ بِالْهُـدَىٰ فَمَـا رَبِحَـتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَـا كَانُوا مُهْتَدِينَ .. (١٦) ﴾ [البقرة]

فهـم خسـروا كلَّ شيء لأنهم لم يربحوا ، فكأنهـم لم يحققوا شيئاً له فائدة ، وخسـروا الهدى أى خسروا الربح ورأس المال ، وخسروا دنيـاهم وآخـرتهم ، وخسروا أنفسهم .

وقولـه تعـالى : ﴿ هُمُ الْخَاسِـرُونَ .. (٩) ﴾ [المنافقون] يـدلُّ على أن الصفقة انتهت وضاع كلُّ شيء ، لأن نتيجتها كانت الخسران ، وليس الخسران موقوتاً، ولا هـو خسران يمكـن أنْ يُعوّض فى الصفقة القادمة ، بـل هو خسرانٌ أبديٌّ والندم عليها سيكون شديداً .

أمـا الذيـن يذكرون **الله** فيتمسَّكون بمنهجه سبحانـه وبذكْره الذى أنزله **الله** علـى رسولـه ﷺ فـ : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُـمُ الْمُفْلِحُونَ .. (٥) ﴾ [البقـرة] والمعنى العام للفلاح هو الفوز ، والمفلح هو الفائز .

والفَـلاَح مأخوذ من شقِّ الأرض للبذر ، ومنــه سُمِّى الفلاَّح الذى صِفته شَقُّ الأرض ورَمْى البذور فيها .

فـإذا كانت الأرضُ صماء فحينما نشقُّها ونبذرهـا تعطى محصولاً عظيماً وافـراً ، ومـن هنا جاءت كلمة (المفلحون) ليعطينا الحق جلَّ جلاله من الأمور الماديـة المشهودة ما يُعـين عقولنا المحدودة على فَهْم الغيب ، فيشبِّه التكليف وجزاءه فى الآخرة بالبذور والفلاحة .

فكلمـة (المفلحـون) هـى كلمة معها دليلهـا ، فالمفلح هو الذى أخذ الصفقة الرابحة ، لذلك كان مقابلها (الخاسرون) .

فكيـف تُلهيك الأمـوال والأولاد عن ذِكْر الله ومنهجه ، ومَـنْ يغتر بالمال أو الأولاد فـى الحياة يأتى يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرةً عليه ؟ لماذا؟ لأنـه كلَّمـا تذكر أنَّ المال والأولاد أبعداه وألهياه عمَّـا يُؤَهِّله لهذا الموقف فهو يُعانى من الأسى ويقع فى الحسرة .

ولذلـك أشار إليهـم الحق سبحانـه بقوله : ﴿ وَمَـنْ يَفْعَلْ ذَٰلِـكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠) ﴾

أنا لا أطلب منكم أن تنفقوا عليّ، ولكن أنفقوا من رزقكى عليكم ، فالرزق يأتى مـن حركة الإنسان ، وحركـة الإنسان تحتاج طاقةً تتحرك فـى شيء أو مادة، وهذه الحركة تأتى على ترتيب فكر ، وهذا الفكر رتَّبه من خلقه ، والجوارح التى تنفعل ، واليد التى تتحرك ، والرِّجْل التى تمشى خلقها الله ، والمادة التى تفعل بها مخلوقة لله .

وسنأخـذ الزارع نموذجاً فنجد أن الأرضَ التـى فيها العناصر مخلوقة لله . إذن : فالإنسان يُعمل العقل الذى خلقه الله ، ويُخطِّط بالجوارح التى خلقها الله

لتأتى له بالطاقة التى يعمل بها فى المادة التى خلقها الله لتعطى للإنسان خيرها ، فأىُّ شيء للإنسان إذن ؟

فحين يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم .. (١٠) ﴾ [المنافقون] فأنتم لا تتبرعون لذات الله ، بل تنفقون مما رزقكم الله ، ومن فضل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم ونسبه لكم حتى أنه إن احتاج أخوك ، فإن الحق يستقرض منك .

فهو سبحانه يقول : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

والحق سبحانه يُنبهنا أنْ ننفق من رزقه لنا من قبل أنْ يأتى اليوم الآخر الذى لا بيعٌ فيه ، يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ[1] وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

فاليوم الآخر ليس فيه بيع ولا شراء ولا فيه خلة ولا شفاعة ، وهذه هى المنافذ التى يمكن للإنسان أنْ يستند عليها ، فأنت لا تملك ثمناً تشترى به ، ولا يملك غيرُك سلعة فى الآخرة ، إذن : فهذا الباب قد سُدَّ .

وكذلك لا توجد خُلَّة أو شفاعة ، فأنتم إذا أنفقتم اتقيتم ذلك اليوم ، فانتهزوا الفرصة من قبل أنْ يأتى يوم لا بيع فيه ولا خُلَّة ولا شفاعة .

وقوله تعالى : ﴿ مِن مَّا رَزَقْنَاكُم .. (١٠) ﴾ [المنافقون] فالرزق رزق الله ، ولكن الله جعله من كسب الإنسان ونسبه إليه ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ .. (٢٦٧) ﴾ [البقرة]

ولكن لا تظن أن الكسبَ هو الأصل فى الرزق ، لا إنَّ الكسب هو حركة موهوبة لك من الله ، وهذا فى حَدِّ ذاته رزقُ الله لك ، إنك أيها العبد إنما تتحرك بطاقة

(١) خلة : الخلة خالص المودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين . [فتح القدير للشوكانى ١/٣٦٥] والخلة : الصداقة كأنها تتخلل الأعضاء .

موهوبة لك من الله وبفكر ممنوح لك من الله ، وفى أرض سخَّرها الله لك .

والإنفاق خاصة المتوازن يُثرى حركة الحياة ويُسهم فى إنمائها ورُقيِّها على خلاف القبْض والإمساك ، فإنه يُعرقل حركة الحياة وينتج عنه عطالة وبطالة وركود فى الأسواق وكساد يفسد الحياة ويعُوق حركتها .

إذن لابدَّ من الإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحياة ، والإنفاق يقتضى إخراج المال عن ملكية الإنسان ببيع أو هِبَة أو صِلَة .

وأصل كلمة الإنفاق مأخوذة من نفقتْ السوق أى راجتْ لأن السوق تقوم على البضاعة ، وحين تأتى إلى السوق ولا تجد سلعاً فذلك يعنى أن السوق رائجة ، ولكن عندما تجد البضائع مُكدَّسة بالسوق فذلك يعنى أن السوق لا زالتْ قائمة .

إذن : فمعنى « نفقتْ السوق » أى : ذهبت كلُّ البضائع كما تذهب الحياة من الدابة .

ولفظة ﴿ وَأَنْفِقُوا .. (١٠) ﴾ [المنافقون] هنا لا تعنى الصدقة فقط أو إخراج الزكوات ، إنما تعنى مطلق الإنفاق وعدم كنز المال ، يقول الحق سبحانه :
﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. (٣٤) ﴾ [التوبة]

والكنْز مأخوذ من الامتلاء والتجمُّع ، ولذلك يُقال « الشاة مكتنزة » أى مليئة باللحم وتجمَّع فيها لحم كثير . إذن : فيكنزون أى يجمعون .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ .. (٣٤) ﴾ [التوبة] وهذان المعدنان هما أساس الاقتصاد الدنيوى ، فقد بدأ التعامل الاقتصادى بالتبادل أى سلعة مقابل سلعة ، وهى ما تُسمَّى عمليات المقايضة ، وعندما ارتقى التعامل الاقتصادى اخترعت العملة التى صارت أساساً للتعامل بين الناس والدول .

فالحقُّ سبحانه أراد أنْ يلفتنا إلى أن الذهب والفضة هما أساس التعامل فى تسيير حركة الحياة الاقتصادية ، وأن هذا التعامل يقتضى الحركة الدائمة للمال ، لأن وظيفة المال هى الانتفاع به فى عمارة الأرض .

ولو أنك لم تُحرك مالك وكنتَ مؤمناً فإنه ينقص كلَّ عام بنسبة ٢,٥٪ وهى قيمة الزكاة ، ولذلك يفنى هذا المال فى أربعين سنة ، فإنْ أراد المؤمن أنْ يُبقى على ماله فيجب أنْ يُديره فى حركة الحياة ليستثمره وينميه ولا يكنزه حتى لا تأكله الزكاة ، وهى نسبة قليلة تُدفع من المال .

ولكن إذا أدار صاحب المال ما يملكه فى حركة الحياة فسينتفع به الناس وإنْ لم يقصد أنْ ينفعهم به ، لأن الذى يستثمر أمواله مثلاً فى بناء عمارة ليس فى باله إلا ما سيُحقِّقه من ربح لذاته .

ولكن الناس ينتفعون بهذا المال ولو لم يقصد هو نفعهم ، فمَنْ وضع الأساس يأخذ أجراً ، ومَنْ جاء بالطوب يأخذ قدْر ثمنه ، ومَنْ أحضر أسمنتاً أخذ ، ومَنْ جاء بالحديد أخذ ، والمعامل التى صنعت مواد البناء أخذتْ ، وأخذ العمالُ أجورهم فى مصانع الأدوات الصحية وأسلاك الكهرباء وغيرها .

والذين قاموا بتركيب هذه الأشياء أخذوا . إذن : فقد انتفع عدد كبير فى المجتمع من صاحب العمارة ، وإنْ لم يقصد هو أن ينفعهم ، ولذلك فإن الذى يبنى عمارة يُقدِّم للمجتمع خدمة اقتصادية ينتفع بها عددٌ من الناس ، وكذلك كل مَنْ يقيم مشروعاً استثمارياً .

إذن : سبحانه وتعالى لا يريد من المال أنْ يكون راكداً ، ولكنه يريده مُتحركاً ولو كان فى أيدى الكافرين ، لأنه إذا تحرّك وأنفق أفاد الناسَ جميعاً ، فيحدث بيع وشراء وإنتاج للسلع وإنشاء للمصانع وتشغيلٌ للأيدى العاملة إلى غير ذلك .

ولكن إنْ كنز كلُّ واحد مِنَّا ماله فلم يُنفقه ولم يستثمره فى حركة الحياة

فالسلع لن تُستهلك ، والمصانع ستتوقف ويتعطّل الناسُ عن العمل .

إذن : فالحقُّ سبحانه وتعالى يريد للمال أنْ يتحرك ولا يكنز ، ولكن الكنز فى هذه الآية لا يأتى فقط بمعنى الجمع ، ولكنه أيضاً بمعنى أنهم لا يؤدون حَقَّ الله فيها .

ولذلك فإنَّ المال الذى أخرجتَ زكاته لا يُعَدُّ كنْزاً ، لأنه يتناقص بالزكاة عاماً بعد آخر .

وأنت إنْ أنفقتَ ولم تكنز المال حدثَ رواجٌ فى السوق ، والرواج معناه إيجادُ العمل ووسائل الرزق ، وإيجاد الحافز الذى يؤدى إلى ارتقاء البشرية ، وأنت حين تشترى لبيتك غسالة أو ثلاجة أو بنيتَ بيتاً صغيراً فإنك تُوجِد رواجاً اقتصادياً فى المجتمع .

وفى نفس الوقت ارتقيتَ بوسائل استخداماتك ، والرواج يدفع إلى اكتشاف الأحسن الذى يفيد البشرية ، ولكن إذا كنزتَ كلَّ مالك ساد الكساد الاقتصادى.

وليس معنى ذلك أنْ ينفق صاحبُ المال كلَّ ماله وزيادة ، لأن الحق سبحانه يريد الوسط فى كل شيء ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ[1] قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

والحق سبحانه فى هذه الآية يحذر من سفاهة الإنفاق وعدم الإبقاء على جزء من المال لمواجهة أىِّ أزمة مفاجئة ، لكنك إنِ قترتَ حدث كسادٌ فى السوق

(١) ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان ٦٧] أى : عدلاً . يعنى بين الإسراف والإقتار مقتصداً . قال ابن زيد : القوام بين ذلك أن تنفقوا فى طاعة الله وتمسكوا عن محارم الله . [تفسير ابن أبى حاتم ١٥٣٩٥].

وتوقُّف الإنتاج وتعطّل العمال ، والإسلام يريد نفقة معتدلة تُوجد الرواج السلعي وادخاراً تستخدمه في الارتقاء بحياتك ومواجهة الأزمات .

والإنفاق أنواع : إنفاقٌ في المساوى لإبقاء الحركة الدائمة بين المنتج والمستهلك ، وإنفاق في غير المساوى بإعطاء الزكاة للفقير والمحتاج والمعدم، والزكاة تُنقِّى المجتمع من مفاسد كثيرة ، فهي تمنع الحقد بين الناس .

فالفقير إذا وجد مَنْ يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء ، فلا يسخط الفقير على الغنى ، والغنى والفقير متساويان في الانتفاع .

فالفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقير ، ولكنه يُحِسُّ بالعطاء حوله ، والغنيُّ حين يُعطى يُحسُّ أنَّ هذا أمانٌ له ، لأنه إنْ ذهبتْ عنه النعمة فسوف يجد مَنْ يُعطيه .

وهكذا يحدث توازن في المجتمع بين الناس ، فلا يوجد مَنْ لا يستطيع الحصول على ضروريات الحياة ، ولا يوجد مَنْ لديه فائضٌ يحبسه عن الناس.

ومعنى قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] أي : انتهزوا الفرصة وبادروا مهلة الحياة ، فمن حكمته سبحانه أنه أخفى ساعة موته ، أخفاها للفرد وأخفاها للجميع ، وربما لو عرف الإنسان ساعته لقال : أفعل ما أريد ثم أتوب قبل الموت .

ولا يشك أحدٌ في أنه سيموت ، فالموت مُقدَّر على الناس جميعاً ، الذى تخمد فيه بشريتنا ، وتتوقف حياتنا بالموت وينقطع عملنا .

وقد قال رسول الله ﷺ : « إذا ماتَ الإنسانُ انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة

جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[(١)] .

فمَنْ مات انقطع عمله وطُويَتْ صحيفته ، ولا يمكنه تدارك ما فاته من الإيمان أو العمل الصالح ، فكأنَّ قيامته قامتْ بموته ، وإياك أنْ تستطيلَ عمر الدنيا ، لأن عمر الدنيا لك ولغيرك فلا تحسب الأمر بالنسبة إليك على أساس عمر غيرك الذى قد يطول عن عمرك .

إذن : مدة الحياة محدودة ، وما دام الموتُ قد جاء فعلى المؤمن أنْ يتذكَّر قولَ رسول الله ﷺ : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »[(٢)] .

ومن حكمة الله أنْ أبهم الموت ، أبهمه وقتاً ، وأبهمه سبباً وأبهمه مكاناً ، فكان إبهام الموت هو عَيْن البيان للموت ، لأن إبهامه يجعل الإنسانَ على استعداد للقائه فى أىِّ وقت ، وبأيِّ سبب ، وفى أىِّ مكان ، فالموت يأتى غفلة لأنه لا يتوقف على وقت أو سبب أو مكان .

فالطفل يموت وهو فى بطن أمه ، ويموت بعد يوم أو أيام من ولادته ، ويموت بعد مائة عام ، ويموت بسبب وبدون سبب ، وقد نتعجَّب من موت أحدنا فجأة دون سبب ظاهر ، فلم تصدمه سيارة ، ولم يقع عليه جدار أو حجر ، ولم يداهمه مرض ، فما السبب ؟

السبب هو الموت ، إنه سيموت ، أى : أنه مات لأنه يموت ، كما يقال : والموت من دون أسباب هو السبب .

وهذا الموت له لحظة محددة وساعة محددة لا يعلمها إلا الله ، وإذا جاءتْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٣١٠) وأبو داود فى سننه (٢٨٨٢) والترمذى فى سننه (١٣٧٦) وقال : حديث حسن صحيح . وأحمد فى مسنده (٨٨٣١) وإسناده صحيح . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٣١٠) وأحمد فى مسنده (٨٨٣١) وأبو داود فى سننه (٢٨٨٢) والترمذى فى سننه (١٣٧٦) وقال : حسن صحيح . وكذا النسائى فى سننه (٣٦٥١) وصححه الألبانى .

ساعةُ موتِ إنسانٍ لا يستأخر ولا يستقدم لحظة ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .. (٦١) ﴾ [النحل]

فـإذا جـاء الأجل لا أحدَ يستطيـع تـأخيره لأن التوقيتَ فى يـد قيُّوم الكون . وهـم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل ، فالأجل إذا جاء فهو لا يتأخر عن ميعاده ولا يتقدَّم عن ميعاده .

والبعضـ ممَّـنْ قصَّروا فى حياتهم وفى مدة عمرهـم فلم يُنفقوا مما رزقهم الله أو لم يُزكُّوا أو لم يُصلُّوا ويفاجئهم الموت ، يقول تعالى : ﴿ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) ﴾ [المنافقون]

﴿ لَـوْلَا أَخَّرْتَنِى .. (١٠) ﴾ [المنافقون] أى : هلاّ أمهلتنى ومددْتَ فى عمرى : ﴿ إِلَى أَجَـلٍ قَرِيـبٍ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] ولو لمدة يسيرة صغيرة ، فهو يريد أنْ يأخذ من الحياة فرصة أكبر .

والسبـب فى هذا هو طُول الأمل الـذى غرّه ، كهذا الذى عاجله الموت قبل أنْ يحـجّ مثـلاً ، فإنْ أمهله العمر حتـى يحج فقد سقط عنه هـذا الفرض ، لكن مَنْ يضمن له البقاء إلى أنْ يؤدى هذه الفريضة .

لذلـك ورد فى الحديـث : « حُجُّوا قبل أنْ لا تحجُّـوا »[1] كذلك الحال فى وقت الصـلاة فهـو ممتد ، لكن مَنْ يضمن لـك امتداده ، لذلك تـارك الصلاة يأثم فى آخـر لحظـة من حياته ، فإنْ ظـلَّ إلى أنْ يصلى فلا شيءَ عليه ، ثم إنَّ هذا العمر القصـير مظنـون غير متيقـن ، فربما داهمك المـوتُ فى أيِّ لحظـة ، ومَنْ مات قامتْ قيامته .

---

(١) أخرج الدارقطنى فى سننه (٢٧٩٥) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « حجوا قبل أن لا تحجوا. قيل : ما شأن الحج ؟ قال : تقعد أعرابها على أذناب أوديتها فلا يصل إلى الحج أحد . وكذا أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٨٩٦٣) والفاكهى فى أخبار مكة (٨٠٩) .

﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] فهم يطلبون الرجعة ليُصلحوا أعمالهم ، ومعلوم أنهم لا يُجابون إلى ذلك .

والمعلوم من طَبْع الناس عند حضور الموت الإنابة والتوبة والندم على ما سلف من العمل السيء أو التقصير في فعل العمل الصالح .

فهو يطلب المهلة حتى يُزكِّى ويحجّ ويتصدَّق ويُكثر من النوافل والأعمال الصالحة ، ويتقرَّب إلى الله بما يحب من أنواع القربات والطاعات ، ولكن لا ينفعه التمنى ولا الطلب والدعاء .

فالمؤمن يسأل ربه سؤالاً حثيثاً أنْ يحقق تأخير موته إلى أجل يستدرك فيه ما اشتغل عنه من إنفاق وعمل صالح .

وقد يسأل سائل : لماذا قال : ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] ولم يطلب أجلاً مُتسعاً بعيداً ؟

فنقول : إنَّ المتعارف عليه بين الناس أنَّ الأمر اليسير القريب أرْجَى لأنْ يستجيب له المسؤول فيغلب ذلك على شعورهم حين يسألون الله ، فتنساق بذلك نفوسهم إلى ما عرفوا .

﴿ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] نقول في حياتنا : فلانٌ رجل صالح ومقابله رجل طالح[1] ، والرجل الصالح يرى الأمر الصالح في ذاته فيترك هذا الشيء على ما هو عليه أو يزيده صلاحاً ، أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتي إلى الشيء الصالح فيفسده ولا يفعل صلاحاً .

فكلمة (رجل صالح) تعنى أنه صالح لأنْ يكون خليفةً عن الله في الأرض

---

(١) طلح فلان : فسد وهو طالح بيِّن الطلاح . [أساس البلاغة للزمخشرى] قال ابن سيده فى المخصص (١/٢٨٥) : الطلاح ضد الصلاح . قال الأزهرى فى تهذيب اللغة (٤/٢٢٣) : رجل طالح أى فاسد الدين لا خير فيه .

يفعل الصلاح من كلِّ عمل ، ونلاحظ أن القرآن يربط بين التصدُّق والإنفاق فى سبيل الله وبين الصلاح وأنْ يكون الإنسانُ من الصالحين .

ففى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾ [التوبة]

فهذا ثعلبة[١] قد طلب من رسول الله ﷺ أنْ يدعو له بالغنى ، فلما دعا له ، ورزقه اللهُ الرزقَ الوفير بخل عن الزكاة ، وحاول أنْ يتهرَّب من دفعها .

وعندما نزلتْ هذه الآيات جاء ثعلبة ليدفع الزكاة لرسول الله فلم يقبلها منه، وعندما تُوفى رسول الله جاء ثعلبة إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبل منه الزكاة ، وبعد أبى بكر جاء إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يقبلها منه ، ومات ثعلبة فى عهد عثمان ، هذا هو عدم القبول[٢] .

المهم هنا هو أن الصدقة والإنفاق فى سبيل الله وإيتاء الزكاة هو مظهرُ

---

(١) هو : ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد الأوسي الأنصارى شهد بدراً ، قاله محمد بن إسحاق . وهو الذى سأل النبى ﷺ أن يدعو الله أن يرزقه مالاً ، ثم منع الزكاة ، وهو الذى نزل فيه قوله سبحانه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾ [التوبة]

(٢) عن أبى أمامة الباهلى قال : جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً قال : ويحك يا ثعلبة ، قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه . قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً قال : ويحك يا ثعلبة أما تحب أن تكون مثلى فلو شئت أن يُسيِّر ربى هذه الجبال معى ذهباً لسارت . قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً فو الذى بعثك بالحق إن آتانى الله عز وجل مالاً لأعطين كل ذى حق حقه . قال : ويحك يا ثعلبة قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه. قال : يا رسول الله ادع الله . فقال رسول الله : اللهم ارزقه مالاً . قال : فاتخذ أو اشترى غنماً فبورك له فيها ونمتْ كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ولا يشهدها بالليل ، ثم نمت كما ينمو الدود فتنحى بها ، وكان لا يشهد الصلاة بالليل ، ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله ، ثم نمت كما ينمو الدود فضاق به مكانه فتنحى به فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار وفقده رسول الله فسأل عنه فأخبروه أنه اشترى غنماً وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره فقال رسول الله : ويح ثعلبة بن حاطب ويح ثعلبة بن حاطب .

صلاح الإنسان ، فالصدقة تنشر الخير فى المجتمع ، وتحمى الفقراء من السقوط فى هاوية المعاصى والانحراف .

فالتكافل الاجتماعى لابد أنْ يكون موجوداً فى المجتمع ، حتى يتكافل المجتمع كله ، فأنت إنْ كنتَ فقيراً أو مسكيناً ويأتيك من رجل غنى ما يُعينك على حياتك ، فإنك ستتمنى له الخير لأن هذا الخير يُصيبك ، ولكن إذا كان هذا الغنى لا يعطيك شيئاً فهو يزداد غنىً وأنت تزداد فقراً ، تكون النتيجة أنَّ حقدك يزداد عليه .

والحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُشيعَ فى المجتمع روح التكافل الاجتماعى، لذلك كان بعض فقهاء الأندلس[1] إذا منع الرجل زكاة تقرب من النصاب أُمِر بقطع يده كأنه سرقه ، لأن الله تعالى أسماه (حقاً) ، فمَنْ منع صاحب الحق من حقه فكأنه سرقه منه .

وقد سلك فقهاء الأندلس هذا المسلك لأنهم فى بلد ترف وغنى ، فتشددوا فى هذه المسألة لأنه لا عذرَ لأحد فيها .

والفرد حين يعمل الصالحات تكون حصيلته من صلاح غيره أكثر من حصيلته من عمله هو لأنه فرد واحد ويستفيد بصلاح المجتمع كله .

ومن هنا لا ينبغى أنْ تستثقل أوامر الشارع وتكليفاته لأنه يأخذ منك

---

(١) ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات وأنزل الله عز وجل ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا .. (١٠٣) ﴾ [التوبة] فبعث رسول الله رجلين رجلاً من جهينة ورجلاً من بنى سلمة يأخذان الصدقة وكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها على وجوهها وأمرهما أن يمرا على ثعلبة بن حاطب ورجل من سليم فخرجا فمرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال : أريانى كتابكما فنظر فيه فقال : ما هذا إلا جزية انطلقا حتى تفرغا ثم مُرَّا بى .
فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ .. (٧٥) ﴾ [التوبة] فقدم ثعلبة على رسول الله فقال : يا رسول الله هذه صدقة مالى فقال رسول الله : إن الله قد منعنى أن أقبل منك. قال : فجعل يبكى ويحثى التراب على رأسه ، فقال رسول الله : هذا عملك بنفسك ، أمرتك فلم تطعنى فلم يقبل منه رسول الله حتى مضى ، ثم أتى أبا بكر فلم يقبلها منه ، وكذا عمر . أخرجه البيهقى فى (دلائل النبوة ٥/ ٢٩٠) .

ليعطيك وليؤمّن حياتك وقت الحاجة والعوز، وحينما يتوفر لك هذا التكافل الاجتماعى تستقبل الحياة بنفس راضية حال اليُسْر مطمئنة حالَ العُسْر.

والمؤمن يسأل الرَّجْعة ويسأل الله إمهاله لعله يعمل صالحاً، وحديث رسول الله يدل على هذا « مَنْ كان له مالٌ يبلغه حجّ بيت ربِّه أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل، فيسأل الرجعة عند الموت »[1].

وعندما روى ابن عباس هذا الحديث قال له رجل: يا ابن عباس اتقِّ الله فإنما يسأل الرجعةَ الكفارُ. وذلك قوله سبحانه: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

ولكن ترجمان القرآن ابن عباس أوضح لهم ما خفى عنهم، فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآناً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) ﴾ [المنافقون]

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾

المطلوب من المؤمنين فى الحياة الدنيا أنْ يتسابقوا إلى الخيرات قبل أنْ

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (المنافقون ٩) وعزاه لعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس، وقد أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٨٩٠١) والترمذى فى سننه (٣٣١٦) وحميد بن زنجويه فى كتاب (الأموال) (١٣٥٢).

يأتيهم الأجل ، ولا يحسب واحدٌ منهم أنه سيفلت من الله ، والحق سبحانه يقول:
﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلا .. (١٤٥) ﴾ [آل عمران]

والكتاب المؤجَّل يُطلق مرة على زمن العمر كله ، ومرة يُطلق على النهاية النهائية منه ، والنهاية النهائية هى الموت الحقيقى ، فالقاتل حين ينقض بِنْية القتيل إنما يوافق الأجل المكتوب الذى أراده الله ، لكن لماذا نعاقب القاتل إذن ؟ نحن نعاقبه لأنه نقض بِنْية إنسان آخر .

فالعلماء الذين يُدقِّقون فى الألفاظ يقولون : هذا المقتول لو لم يُقتل ، أكان يموت ؟ نقول : نعم لأن المقتول ميت بأجله ، لكن الذى قتله هل كان يعرف ميعاد الأجل ؟ لا . إذن فهو يُعاقب على ارتكابه جريمة إزهاقِ الروح .

أما المقتول فقد كتب اللهُ عليه أنْ يفارق الحياة بهذا العمل ، فالموت هو سَلْب الحياة بدون نَقْض بِنْية ، وهذا لا يُجريه إلا الله ، إنما القتْل بهدم البنية ، فأىُّ إنسان يستطيع أنْ يفعله فتخرج الروح بإذن الله .

وليس معنى ذلك أن أحداً عجّل بأجل القتيل ، لا ولكنه تدخَّل فى بُنيان أقامه اللهُ فهدمه ، ولو لم يتدخّل أحد فى بنيان الله ليهدمه لكان أجلُه قد جاء.

ولا أحدَ فينا يعلم أجله مهما عرض نفسه على الأطباء ، ويقول تعالى :
﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) ﴾

[الأنعام]

فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلا .. (٢) ﴾ [الأنعام] أى : قضى أجلاً لكلِّ واحد، ثم جعل أجلاً مُسمى لكلِّ شيء ، والآجال فى الآحاد تتوارد إلى أنْ يأتى أجلُ الكل ، وهو يوم القيامة .

وتأجيل موت الإنسان لأجل معلوم لله سبحانه جاء لحكمة ، فالأجل لو

عُـرف فقد يعصـى مَنْ يعلمه مدة طويلة ، ثم يقـوم بـالعمل الصـالح قبل ميعاد الأجل ، ولكن الله أراد من إبهام زمان الموت أنْ يشيع زمانه فى كلِّ وقت .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف]

فإذا جاء الأجل فلا أحدَ يستطيع تأخيره ، لأن التوقيت فى يد قيُّوم الكون ، وهم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل ، وأنت لا تعرف متى يجيء الأجل ، وإبهام الأجل من الله لنا إشاعةٌ للأجل ، والإبهام هو أوضح أنواع البيان ، فحين يريد ربنا أنْ يُوضِّح أمراً توضيحياً كاملاً فهو يُبهمه .

ومثال ذلك : لو جعل الله للموت سِناً لَصارَ الأمرُ محدداً بلا أمل ، لكنه سبحانه لم يجعل للموت سِناً أو سبباً ، وأشاعه فى كلِّ الزمن ، والإنسان عُرْضة لأَنْ يستقبل الموتِ فى أيِّ لحظة ، ونزول الموت لا يتوقف على سبب ، فقد يأتى بسبب وقد يأتى بغير سبب .

وما دام الإنسانُ يستقبل الموت فى أيِّ وقت ، فعلى العاصى ألاَّ يستقبل الموت وهو على عصيان لله ، وهناك العديد من الأسباب للموت ، واعلم أن الموتَ بدون أسباب هو السبب ، فالإنسان الذى نفقده بالموت مات لأنَّ أجله قد انتهى .

هناك غاية تنتظركم ، غايات فردية هى آجال الناس بذواتهم ، وآجال جماعية تتمثل فى يوم القيامة ، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن ميعاده ، ولا يتقدم عن ميعاده .

ولنعلم أن كلَّ أجل - وإنْ طال - فهو معدود - وكلّ معدود قليلٌ مهما بدا كثيراً ، لذلك فلنقُلْ أن كلَّ معدود قليل ما دمنا قادرين على إحصائه .

وهل يضمن أحدٌ أنْ يُمهلك الأجل إلى أنْ تتوب ، والموت يأتى بغتة ، والنفس

محكوم عليها بأنها لا تستأخر ، لأن الاستئخار بعد بلوغ الأجل مستحيل .

وواقع الحياة يؤكد أنه لا وحدةَ في عمر ، ولا وحدةَ في سبب ، وقد جعل الله النفس البشرية تترقبه في كل لحظة ، فكلُّ لحظة تمرّ عليك يمكن أنْ يأتيك فيها الموت .

وهكذا أشاع الموت في كلِّ الزمن ، وما دام الأمرُ كذلك فلابد أنْ ينتبه الإنسانُ ويخشى أنْ يموت وهو على معصية ، فالإبهام هو كما قلنا عيْن البيان .

ومعنى قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ .. (١١) ﴾ [المنافقون] هو قَطْع لأمل العصاة والمجرمين والمنافقين الذين يظنون أنه من الممكن أنْ يُؤخر الله نفساً استوفتْ أجلها ، فيمهلها حتى تفعل ما لم تفعله حال الصحة والسّعة والمهلة في الحياة الدنيا .

واستخدم الحقُّ سبحانه (لن) التي تعني التأبيد ، فكلمة (لن) جاءتْ بنفي المستقبل فلم يقُلْ مثلاً : لم يؤخر . بل قال : (لن يؤخر) . فالنفي هنا للتأبيد، فلا تُمنُّوا أنفسكم بأوهام لا أساسَ لها ، ويقول تعالى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ .. (١٢٣) ﴾ [النساء]

ما هي الأمنية ؟ الأمنية هي الشيء الذي يحب الإنسان أنْ يحدث ولكن حدوثه مستحيل ، إذن لن يحدث ولن يكون له وجود ، فالأماني أنْ تعلَق نفسُك بأمنية وليس لهذه الأمنية سند من الواقع يُوصِّلك إلى تحقيق هذه الأمنية ، فالأماني هي مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق .

والحق سبحانه هنا اختار لفظة (نفساً) لأنها مُعبِّرة عن مجموع مادة الإنسان وروحه ، فباجتماعهما تُوجد النفس ، والنفس هي التي لها اختيار أنْ تطيع أو تعصى .

ويتضح هذا أكثر فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ[١] فِيهَا .. (٧٢) ﴾ [البقرة] ففِعْل القتل وقع على المادة وهو الجسم بنقض البنية ووقع على الروح بإزهاقها ، فالنفس تجمع الاثنين معاً ، فهما يُشكلان معاً الإنسان .

وقد استخدمها الحق سبحانه هنا وفى آيات كثيرة نكرة مقابل (نفساً) ، والمتأمل لآيات القرآن يجد أن كلمة نفس إذا استُخدمت مُعرَّفةً بـ (ال) فنجدها تعنى الروح والمادة أيضاً .

قال الحق سبحانه : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ .. (٤٥) ﴾ [المائدة] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فالنفس هنا مُعرَّفة بـ (ال) مقصود بها مادة الإنسان وروحه معاً .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. (٥٣) ﴾ [يوسف] وقوله : ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ﴾ [الفجر] فالنفس فيهما مقصودٌ بها روح الإنسان .

ومن روعة الأسلوب القرآنى أنه يعبر باللفظ الموجز عن معانٍ كثيرة جداً، كقول الحق سبحانه هنا : ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا .. (١١) ﴾ [المنافقون] فلم يَقُلْ القرآن : إذا جاء الأجل ، بل قال أجلها . فنسب الأجل إلى النفس التى أوردها هنا نكرة .

وهذا معناه أن لكلِّ نفس أجلاً خاصاً بها لا يتحد مع الآخرين ، فهناك مَنْ يموت فى بطن أمه ، وهناك مَنْ يعيش ساعةً أو ساعات ثم يموت ، وهناك مَنْ يعيش إلى أرذل العمر .

---

(١) فادارأتم : اختلفتم . قاله ابن عباس ومجاهد . وقال الزجاج : أى تدافعتم . وألقى بعضكم على بعض . [زاد المسير لابن الجوزى ١/٨٤] . وقال الربيع بن أنس : تدافعتم أى يحيل بعضكم على بعض من الدرء وهو الدفع ، فكان كل واحد يدفع عن نفسه . [تفسير البغوى ١/١٠٨] .

حتى الجنين الذى يموت فى بطن أمه نجده يختلف من جنين لآخر فهذا حَمْل يسقط من بعد ساعة، وذاك حَمْل يسقط من بعد شهر أو شهور.

والموت يدرك كلَّ حيٍّ، يقول تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ .. (٧٨) ﴾ [النساء] وكلمة يدرككم الموت دليل على أن الإنسان عندما تدبّ فيه الروح ينطلق الموت مع الروح إلى أنْ يُدركها فى الزمن الذى قدرَّه الله.

ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق: « الموت سهمٌ أُرسل إليك، وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك »[1] وهكذا نعرف أن قوله الحق: ﴿ يُدْرِككُّمْ .. (٧٨) ﴾ [النساء] يدل على أن الموت يلاحق حياة الإنسان ويجرى وراء روحه حتى يدركها.

ويقول الحق سبحانه عن لحظة الموت: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ [الأنعام]

فهم لا يُهملون ولا يُقصرون ولا يتجاوزون الحدَّ، إنهم يأتونه فى اللحظة المحددة سلفاً من الله عز وجل لا قبل ولا بعد، لذلك قال تعالى: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١) ﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

ومعنى: ﴿ مُتَوَفِّيكَ .. (٥٥) ﴾ [آل عمران] قد يكون هو أَخْذك الشيء تاماً، واللغة العربية توضح ذلك، فأنت تقول - على سبيل المثال - لمن أقرضتَه مبلغاً من المال ويطلب منك أنْ تتنازل عن بعضه لا، لابد أنْ أستوفى مالى، وعندما يعطيك كلَّ مالك تقول له: استوفيت مالى تماماً، فتوفيته أى: أنك أخذتَه بتمامه.

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا

---

(١) قاله عبد الله بن المعتز من فصوله القصار: « الموت سهم مرسل إليك عمرك بقدر سفره إليك ». [الإعجاز للثعالبى ١/ ٩٠] وأبو إسحاق القيروانى فى زهر الآداب وثمر الألباب [٢/ ٢٥١].

رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾ [إبراهيم]

فهناك خشية أنْ يشابه قولكم ما يقوله الكافرون ويظنونه ، وأن الحق سبحانه سيُؤخِّر حسابهم ، وأنه سيعيدهم إلى الدنيا لعلَّهم يعملون عملاً صالحاً ويجيبون دعوة الرسل .

مع أنهم من قبل كانوا يقسمون أنه لا بعث بعد الموت ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾ [إبراهيم]

وهل يستطيع أحد أنْ يتمرد على الموت إذا نزل بساحته ؟ فهو مقهور على خروج روحه : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً[1] حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ [الأنعام]

والحق سبحانه يُطلقها قضية مفروغاً منها ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. (٢٨) ﴾ [الأنعام] فسواء رُدُّوا إلى الحياة مرة أخرى ، أو أُخِّر أجلهم وساعة موتهم لعادوا إلى الأعمال السيئة ، ولعادوا إلى ما نُهوا عنه .

فلا هم صادقون فى طلب الرجعة ، ولا هم صادقون فى طلب تأجيل وتأخير الأجل ، فمَنْ كان يريد فعل الصلاح لفعله فى زمن المهلة والصحة والقوة على الفعل فليفعله .

لذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا .. (١١) ﴾ [المنافقون] حضّ على المبادرة ومسابقة الأجل بالعمل الصالح ، فسارعوا فى الخيرات واستعدوا لما هو آتٍ .

---

(١) الحفظة: جمع حافظ ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً .. (٦١) ﴾ [الأنعام] أى : ملائكة رقباء . [القاموس القويم ١/١٦٣] قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة حفظ) : « الحفظة الذين يحصون الأعمال ويكتبونها على بنى آدم من الملائكة وهم الحافظون » .

فلن يمهل الله أحداً أياً كان إذا انتهى أجله ولن يزيد فى عمره ، وفيه تحريض على المبادرة بأعمال الطاعات ، حذراً أنْ يجيء الأجل وقد فرط ولم يستعد للقاء ربِّه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون]

قضية أن الله سبحانه خبير بما نعمل تجعل القلبَ يرتجف خوفاً ورعباً ، فقد يُدلِّس الإنسانُ على البشر ، فتجد مَنْ يتهرب من الضرائب ويصنع تزويراً دفترين للضرائب ، واحداً للكسب الصحيح وآخر للخسارة الخاطئة ، ويكون هذا المتهرب من الضرائب يملك المال ثم ينكر ذلك .

هذا الإنسان عليه أنْ يعرف أن الله خبيرٌ بكلِّ ما يعمل ، ولذلك نجد الحق سبحانه يصف ذاته فى مواقع كثيرة من القرآن بأنه لطيف خبير ، لطيفٌ بعلم ما يدخل ويتغلغل فى الأشياء ، وخبيرٌ بكل شيء وقدير على كلِّ شيء .

ونحن فى حياتنا نسمع كلمة « خبير » فعندما نقابل أىَّ مشكلة من المشكلات نجد مَنْ يقول : نريد أنْ نسمع رأى الخبير فيها ، وفى القضاء نجد القاضى يستدعى خبيراً ليكتب تقريراً فى أمر يحتاج إلى مَنْ هو متخصِّص فيه وعليم به .

إذن : فالخبير فى مجال ما هو الذى يعرف تفاصيل الأمر ، فما بالنا بالخبير الأعلى الذى لا يستعصى عليه شيءٌ فى مُلكه ، ولا تخفى عليه خافيةٌ، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إنْ أخفيتُم شيئاً عن عيون الخلق قد يخفى على الله أبداً ، فلن يخفى شيءٌ عن الخالق سبحانه ، لأنكم إنْ عمّيتم على قضاء الأرض فلن تُعمُّوا على قضاء السماء .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) ﴾ [هود]

فالله سبحانه خبير بما يفعل العباد ، وهو سبحانه يعلم أفعال العبد قبل أنْ تقع ، ولكنها حين تقع لا يمكن أنْ تنسى أو تذهب أدراج الرياح ،لأن مَنْ يعلمها هو الخبير صاحب العلم الدقيق .

والخبير يختلف عن العالم الذى قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرّب على التخصص ، ولذلك غالباً ما تأتى كلمتا (اللطيف والخبير) معاً ، لأن الخبير هو مَنْ يعلم مواقع الأشياء .

واللطيف هو مَنْ يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء .

ومثال هذا : أنك قد تعرف مكانَ اختباء رجل فى جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذا العلم لا يكفيان للوصول والنفاذ إلى مكانه ، بل إن هذا يحتاج إلى ما هو أكثر وهو الخبرة ، والأكثر من هذا الدقة واللطف .

ولا شيءَ يعوق الله تعالى أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كلِّ شيء ، فهو يجمع بين اللطْف والخبرة ، فلُطْفه لا يقف أمامه شيءٌ ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شيءٌ .

وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعلمه سبحانه مطلق ، وهو حكيم يُجرى كلَّ حدث بمراد دقيق ، ولا يضيف إليه أحدٌ أىَّ شيء ، فهو صاحب الكمال المطلق .

وقد جمع الحق سبحانه بين صفتى اللطيف والخبير ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ[1] فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَاوَاتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان]

وقوله تعالى : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ .. (١٦) ﴾ [لقمان] أى : وزن حبة

(١) الخردل : نبات له حب صغير جداً وإذا جفت حبة الخردل كانت نهاية فى الصغر وهو نبات عشبى تستعمل بذوره فى الطب وهو حرِّيف . [القاموس القويم ١/ ١٩٠] .

الخـردل ، وكـانت أصغـرَ شيء وقتهـا ، فجعلوهـا وحدة قيـاس للقلّة ، وليس لك الآن أنْ تقول : وهل حبة الخردل أصغر شيء فى الوجود ؟

فـالقـرآن ذكرهـا مثـالاً للصِّغر على قدر معرفـة النـاس بـالأشياء عند نزوله ، أمـا من حيث التحقيق فقد ذكر القرآن الذرَّة والأقل منهـا .

والحـق سبحـانه لطيـف ، فمهمـا صَغُرت الأشياء ودقَّتْ يصل إليهـا ، فهو إذن عليم خبير بكلِّ شيء مهمـا صَغُر ، قـادر على الإتيـان بهـا مـهمـا دقَّ ، لأنه لطيف لا يمنعه مـانع ، فصفة اللطف هذه للتغلغل فى الأشيـاء .

فقولـه تعـالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان] يعنـى : لا يُعوزه علم بـالمكـان ، ولا سهولة ويُسْر فى الوصول إلى الأشيـاء .

وقولـه تعـالى : ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] ومـا دام سبحـانه خبـيراً بمـا تعملون فهو الذى يُهيء لكـم صلاحَ العمل بخبرته وحكمته وقدرته وقيوميته .

والخـبرة تـدلُّ على منتهـى العلم وعلى العلـم الواسع الـذى لا تفوته جزئية مهمـا صَغُرتْ .

والله خبـير بمـا فى النفوس ، وهو سبحـانه أعلم بمـا فى نفس الإنسان ونيته مـن العمـل الصـالح ، وهَبْ أنه فعل أيَّ فعل علـى غير مرأى من أحد ، فلا تعتقد أن المجتمـع وإنْ لم يشهـد منك ذلك أن المسألة انتهتْ ، لا إن اللهَ عليمٌ بمـا تفعل وإنْ لم يطلع عليك أحدٌ من النـاس .

وقـد يسـأل سائل : لمـاذا أنهـى الحقُّ سبحـانـه سورة المنـافقـين بهذه الآية ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] ؟

نقول : الأمر واضح ، فـأصل النفـاق هو إضمـار شيء فى النفس غير مـا يظهر

من الإنسان على لسانه أو فى جوارحه ، لذلك فالله يخبرهم أن الله خبيرٌ بحقيقة ما يفعلونه ويعملونه ويقولونه ، يعلم سِرَّهم ونجواهم وما تُخفيه صدورهم .

وقد تكلمتْ سورة المنافقين عن الصدقة والنفقة ، فقال تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) ﴾ [المنافقون]

والله خبيرٌ بالنية وراء صدقتك سواء أعلنتها أو أخفيْتَها ، والله يُجازى على قدْر نية العبد فى الإبداء أو فى الإخفاء ، وإبداء الصدقات لا مانع منه إنْ كان مَنْ يفعل ذلك يريد أنْ يكون ذلك أسْوة .

المهم أنْ يخرج الرياءُ من القلب لحظة إعطاء الصدقة ، فالحق يوضح : إياك أنْ تنفق وفيك رياء ، أما مَنْ يُخرج الصدقة وفى قلبه رياء فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء مُعْط ، لأنه سبحانه يؤكد : خذوا منه وهو الخاسر ، لأنه لن يأخذ ثواباً ، لكن المجتمع ينتفع .

فخاتمة سورة المنافقين مناسبة لموضوع السورة ، فقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] هو تذكير للمنافقين وتنبيه لهم ، وتحذير أنه لا تَخْفى منهم خافية .

والحق سبحانه لم يقُلْ : خبير بما تفعلون . ولم يقُلْ : بما تقولون . بل قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] وتعملون تشمل الأمرين الفعل والقول .

فالله سبحانه خبير بكلِّ فعل وإحساس ، وذلك يحتاج إلى خبير لطيف ، والعمل ينقسم إلى ثلاثة أقسام : قول باللسان ، وفعل بجوارح غير اللسان ، ونيات قلوب وهوى .

وإياكم أنْ تعملوا أعمالاً ظاهرها عدلٌ وباطنها رياء ، لأننا نعلم أن لكلٍّ جارحة من الجوارح مجالاً تؤدى فيه وظيفتها ، فاللسان أداؤه ووظيفته القول، والأذن فعلها أنْ تسمع ، والأنف أداؤه أنْ يشمّ ، ويجمع الجميع العمل ، فالعمل إما أنْ يكون قولاً ، وإما أن يكون فعلاً .

فالقول محلُّه اللسان ، والفعل محله بقية الجوارح ، والاثنان يجمعهما العمل.

وسورة المنافقين تعرضتْ لما قاله المنافقون ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١) ﴾ [المنافقون] ولأن الله خبير قال : ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

وقال فيهم : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا .. (٧) ﴾ [المنافقون]

وهم الذين قالوا : ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

هذا عن القول ، أما عن الفعل فإن المنافقين تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، لذلك وجَّه الحق سبحانه المؤمنين ألاَّ يشابهوا المنافقين فى فعلهم ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ .. (٩) ﴾ [المنافقون]

ولأن هذا فعلٌ قال تعالى بعدها : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون]

ثم إن المنافقين لا يتصدَّقون ويمنعون غيرهم عن التصدُّق ، وهذا فعل . فكلمة : ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] استوعبتْ ما قالوه وما لم يفعلوه ، فالعمل هو فعل وقول .


سورة التغابن



سورة التغابن[1]



﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① ﴾

يُقرر الحق سبحانه أمراً يغفل عنه الإنسان ، فالأرض التى تحته يسير عليها ويطؤها بقدميه وسخَّرها الله له تُسبِّح الله ، والسماء التى تعلوه وتُظله ويُمسكها الله أنْ تسقط على الأرض هى الأخرى تُسبح الله .

فلماذا يخرج الإنسان عن هذا فلا يُسبّح الله ويُنزِّهه عن النقائص كالجمادات التى يظنها الإنسان جماداتٍ لا تُحسّ ، ولكن حقيقة الأمر غير هذا .

وتسبيحهم لله ليس عارضاً ، إنما هو مستمر دائم ، لذلك عبّر الحق سبحانه بالفعل المضارع (يُسبح) الذى يعنى أن حدثَ تسبيحهم لله بدأ فى الماضى ،

---

(١) عدد آياتها ١٨ آية ، وهى مختلف فيها هل مكية أو مدنية . قال السمعانى فى تفسيره (٥/٤٤٨) : هى مدنية فى قول الأكثرين . وقال الضحاك : مكية . وقال الكلبى : مكية ومدنية . ومعناه أن بعضها آيات مكية وبعضها مدنية . نزلت بعد سورة التحريم . وهى السورة ٦٤ فى ترتيب المصحف الشريف. وهى آخر السور المفتتحة بالتسبيح .

وهو مستمر الآن ، ولا دليلَ على انقطاعه فى المستقبل .

والسماوات والأرض هما القدْر المُشَاهد للإنسان الذى يستطيع إدراكَ بعض حقائقه ويغفل عن الكثير منها ، ولكن الكون واسع مُمتد ، والسماوات والأرض فى قبضة الله سبحانه وملكه ، وهو قدير عليها تستجيب لأمره سبحانه .

وحتى لو لم يفهم الإنسانُ كُنْه تسبيح السماوات والأرض وكيفيته فليفهمه على أنَّ إمطار السماء بالماء هو تسبيح لله لأنها استجابتْ لأمر الله لتنزل غيْثاً على عباده ، وأن الأرضَ تسبيحها أنها تنبت نباتاً شتى ، وهو تسبيح عمليٌّ .

فماذا تفعل أنت أيها الإنسان ؟ أنت تتمرد على الله وتعصى أوامره ، فلا أنت مع ما فى السماوات فى تسبيحهم لله ، ولا أنت مع ما فى الأرض فى الخضوع لله وإعطاء الخير للناس .

والحق سبحانه يقول عن طاعة السماء والأرض : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾ [فصلت]

فيا مَنْ آمنت بالله إلهاً سبِّح كما سبّح كلّ الكون ، وإياك أنْ تظن أنك خارج عن مُلْكه ، لذلك قال تعالى بعدها ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [التغابن] فأنت وكل ما تملك مِلْك لله ، وهو عليك قدير .

ثم يقول سبحانه ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [التغابن] فسبحانه له الملْك وحده ، وقد جعل سبحانه الملْك فى الدنيا لأسباب الناس أيضاً ، أما فى الآخرة فلا مِلْكَ لأحد ولا مُلْكَ لأحد ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .. (١٦) ﴾ [غافر]

وسبحانه القائل : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران] فليس هناك مَنْ له المُلْك بذاته إلا الله سبحانه ، لذلك نقول لكل مَلِك : إن هذا الملك الذى تتمتع به ليس بذاتك ، لأنه لو كان بذاتك لما سُلبك أحدٌ هذا المُلْكَ ولما زالَ عنك أبداً .

والحـق سبحـانـه هو الذى يعطى الملْك لمَنْ يشـاء ، وهو الذى يعطى السيادة والنفـوذ والسلطـان ، فلا أحدَ يملك قهراً عن الله ، وحتى الظالم لا يملك قهراً عن الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى من القرآن : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

ولابدّ أنْ نعرف أن هنـاك فرْقـاً بين (المِلْك) و (المُلْك) ، وكل إنسـان له شيء يملكه مثل ملابسه أو قلمه أو أثـاث بيتـه . ومثل هذا من الأشياء ، وهـذا مـا يُسمَّى (المِلْك) ، أمـا المُلْك فـهو أنْ تملك مَنْ يملك .

وقـد ملَّك اللهُ بعضـاً من خَلْقه لخَلْقه ، ملّكهم أولاً مـا فى حوزتهم ، وملّكهم غيرهـم ، وسبحـانـه ينزع الملْك من واحـد ويهبه لآخر ، كـى لا تصبح المسألةُ رتـابةَ ذاتٍ .

فـالحق سبحـانه له الملْك الحق ويهَبُ من مُلكه لمَنْ يشـاء ، لكنْ يظلّ الملك ومـا ملكه فى قبضة الله لأنه سبحـانه قيُّوم على خَلْقه لا يخرج أحدٌ عن قيوميته .

وهــو سبحـانه له الملْـك الدائم فى الدنيا وفى الآخرة ، فهنـاك ملك فى الدنيا يُملِّكه لخَلْقه كما قـال سبحـانه : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وقـال سبحـانه : ﴿ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : فـالملْك مُلْك الله ، وهـو سبحـانه الذى يُملِّك خَلْقه فى الدنيـا دنيـا الأسبـاب ، لكن فى الآخرة تُنزع الملكية من أىِّ أحد إلا الله وحده ، حتى إرادة الإنسان على جوارحه تُسلب منه ، فتشهد عليه بما كـان منه فى الدنيـا .

وكـوْن المُلْـك لله سبحـانه هو تطمـينٌ لنـا أنَّ مقومـات حيـاتـك على الأرض ،

دائمـة ؛ فلـن ينقطع عنك الهواء فـي يوم من الأيام ، ولن تتأبَّـى عليك الشمس أو القمر أو الأرض لأنها مِلْك لله ، لا يُشاركه سبحانه فى ملكيتها أحدٌ يمنعها عنك، فاطمئن إلى أنها مضمونة فلا تشغل نفسك بها .

ولأن الملْـك لله وحده سبحانه بسماواته وأرضه وما عليهما وما فيهما وما بينهما ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي[١] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ[٢] يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ[٣] فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا[٤] بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) ﴾ [النور]

وعندما يقول الحق سبحانه : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) ﴾ [آل عمران]

فهذا الوعيد سيتحقق لأن أحداً لا يفلت منه ، فلأنه سبحانه له مُلْك السماوات والأرض ، فالله حين يُوعد فهو سبحانه قادر على إنفاذ ما أوعد به ، ولن يُفلت أحدٌ منه أبداً .

ونحن بين قوسين ، سماء تُظِلّ وأرض تُقِلّ ، فكلٌّ منَّا محصور بين مملوكين لله ، وما دام كلٌّ منَّا محصوراً بين مملوكين لله ، فأين تذهبون ؟!

وقدرة الحق سبحانه تتجلى أمامنا فى مسألة الإنجاب ، فهو القائل سبحانه:

---

(١) زجا الشيء يزجو وأزجاه : ساقه برفق . قال تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ .. (٦٦) ﴾ [الإسراء] أى يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١ / ٢٨٤] .

(٢) الودق : المطر . ودقت السحابة تدق ودقاً : أمطرت . أى أن المطر يخرج من خلال السحاب المتراكم فى السماء . [القاموس القويم ٢ / ٣٢٧] والودق : المطر كله شديده وهيِّنه .

(٣) البرد : حبات صغار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً . والبرد أيضاً : سحاب كالجمد سُمى بذلك لشدة برده . [لسان العرب مادة : برد] .

(٤) يطلق السنا على الضوء : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) ﴾ [النور] أى : ضوء برقه . [القاموس القويم ١ / ٣٣٢] .

﴿ لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠) ﴾ [الشورى]

فربنا سبحانه له طلاقةُ القدرة فى أنْ يخلق ما يشاء ، وقد أراد خَلْقه على القسمة العقلية المنطقية الأربعة : إما أنْ يكون من أب وأم مثلنا جميعاً ، وإما أنْ يكون بعدمهما مثل آدم ، وإما أنْ يكون بالذكر دون الأنثى كحواء ، وإما أن يكون بالأنثى دون الذكر كعيسى عليه السلام .

والسماء والأرض هما ظرفان للوجود وللكائنات كلها من أبراج وشمس وكواكب وقمر ونجوم وهواء وغمام وماء وحيوان وإنسان ، فالأرض وهى المُلْك الأسفل الذى نراه وما فيه من أقوات وحيوان وإنسان .

والسماء وما تحوى وتضمُّ من الملكوت الأعلى هما جميعاً لله مِلْكاً ومُلْكاً ، فهو سبحانه الذى يملك كلَّ شيء ويملك كذلك المالك للشيء .

وليس لشيء من خَلْق الله أنْ يخرج عن مرادات الله ، أما فى الدنيا فقد جعل اللهُ أسبابها فى أيدى الناس ، رزْق إنسان فى يد إنسان آخر ، وملّك بعضنا أمر بعض ، فهناك مالك الطعام ومالك الثوب .

ولكن ليس كلُّ مالك ملكاً ، لأن الملك هو الذى يملك المالك وهذه سنن الكون، وفى الآخرة هناك مالك واحد هو مَلِك يوم الدين ، فسبحانه يملك الكون كله ، والكون مُكوَّن من أجناس متعددة .

وأول جنس فى الكون هو الخادم الذى لا يُخدم وهو الجماد ، والجماد قد يكون ماءً أو جبالاً أو حديداً أو شمساً أو قمراً أو نجوماً ، كل هذه جمادات ، أى ليس لها حِسّ ، وهذه الجمادات تخدم أول ما تخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان .

هكذا يكون الجمادُ خادماً لكلٍ ما يعلوه من نبات وحيوان وإنسان ، والنبات أيضاً ما يعلوه ؛ فيخدمُ الحيوان والإنسان ، والحيوان يخدم ما يعلوه ، وهو الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [التغابن] ساعة تسمع كلمة الحمد ، فعليك أنْ تفهم أنها كلمة المدح والثناء والشكر ، فالحمد أمر فطريٌّ موجود ونُوجِّهه لله ، فهو سبحانه الذى أمدّ كلّ إنسان بشيء من أسبابه ، وهو سبحانه واهب النعم .

ومن رحمة الله سبحانه أنه جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله ، فأنت حين تريد أنْ تشكر بشراً على جميل فِعْله قد تظل ساعات وساعات تُعدّ كلمات الشكر والثناء وتحذف وتضيف وتأخذ رأى الناس حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب مليء بالثناء والشكر .

ومن رحمة الله سبحانه أنه علَّمنا صيغة الحمد ، فلو أنه تركها دون أنْ يُحدِّدها بكلمتين لكانَ من الصعب على البشر أنْ يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا اللهَ على هذا الكمال الإلهى .

فمهما أُوتى الناسُ من بلاغة وقدرة على التعبير فهم عاجزون عن أنْ يصلوا إلى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم ، فكيف نحمد الله والعقل عاجز عن أنْ يدرك قدرته سبحانه أو يُحصى نِعَمه أو يحيط برحمته ؟

ورسول الله ﷺ أعطانا صورة العجز البشرى عن حَمْد كمال الألوهية لله تعالى ، فقال : « لا أُحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك »[1] .

وكلمتا « الحمد لله » ساوى الله بهما بين البشر جميعاً ، يُعبر بهما الأميّ

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (١١١٨) وأبو داود فى سننه (٨٧٩) والترمذى فى سننه (٣٤٩٣) .

الذى لا يقرأ ولا يكتب ، ويُعبر بها العالم ، ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله أنْ يُسوِّى بين عباده جميعاً فى صيغة الحمد لله .

فأول كلمات الله فى القرآن : ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

والحق سبحانه قبل أنْ يخلقنا خلق لنا مُوجبات الحمد من النِّعم ، فخلق لنا السماوات والأرض وأوجد لنا الماء والهواء ، ووضع فى الأرض أقواتها إلى يوم القيامة .

وهذه نعمة يستحق الحمد عليها لأنه جعل النعمة تسبق الوجود الإنسانى ، فعندما خلق الإنسان كانت النعمة موجودة تستقبله ، بل إن الله جلَّ جلاله قبل أنْ يخلق آدم أبا البشر جميعاً سبقتْه الجنة التى عاش فيها لا يتعب ولا يَشْقى .

فالحق سبحانه له الحمد لأن مُوجبات الحمد وهى النعمة موجودة فى الكون قبل الوجود الإنسانى ، والله سبحانه وتعالى خلق لنا فى هذا الكون أشياء تعطى الإنسان بغير قدرة منه ودون خضوع له ، والإنسان عاجزٌ عن أنْ يُقدِّم لنفسه هذه النعم التى يُقدِّمها الحق تبارك وتعالى له بلا جهد .

فالشمس تعطى الدفء والحياة للأرض بلا مقابل وبلا فعل من البشر والمطر ينزل من السماء دون أنْ يكون لك جَهْد فيه أو قدرة على إنزاله ، والهواء موجود حولك فى كلِّ مكان تتنفس منه دون جهد منك ولا قدرة .

والأرض تعطيك الثمر بمجرد أنْ تبذر فيها الحَبَّ وتسقيه ، فالزرع ينبت بقدرة الله ، والليل والنهار يتعاقبان حتى تستطيع أنْ تنام لترتاح وأنْ تسعى لحياتك .

لا أنتَ أتيتَ بضوء النهار ، ولا أنتَ الذى صنعتَ ظلمة الليل ، ولكنك تأخذ

الراحة فى الليل والعمل فى النهار بقدرة الله دون أنْ تفعل شيئاً ، وهذا يقتضى وجوب الحمد .

عندما تقول (الحمد لله) كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه .

والحمد لله ليس ألفاظاً تُردّد باللسان فحسب ، بل هو يمر أولاً على العقل ليعي معنى النِّعم ، ثم تستقر فى القلب فينفعل بها ، وتنتقل إلى الجوارح فأقوم وأصلى لله شاكراً ويهتزّ جسدى كله وتفيض الدمعة من عينى .

إننا بمجرد استيقاظنا من النوم وأن الله سبحانه ردَّ علينا أرواحنا وهذا الردّ يستوجب الحمد ، فإذا قُمْنا فالله سبحانه هو الذى يعطينا القدرة على الحركة ، ولولا عطاؤه ما استطعنا أنْ نقوم ، وهذا يستوجب منا الحمد[1] .

إن كلَّ حركة حياة فى الدنيا من الإنسان تستوجب منا الحمد ، ولهذا لابدَّ أنْ يكونَ الإنسانُ حامداً دائماً ، بل إن الإنسان يجب أنْ يحمد الله على أىِّ مكروه أصابه ، لأنه قد يكون الشيء الذى يعتبره شراً هو عينه الخير .

فأنت تحمد الله على كلِّ حال لأن قضاءه خير ، سواء أحببتَ القضاء أو كرهته فإنه خيرٌ لك ، لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم .

ومن أسمائه الحسنى : ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود] فهو سبحانه يستحق الحمد لذاته ، وكلّ ما يصدر عنه يستوجب الحمد له من عباده فلا حَدَّ لخيره وإحسانه .

وكلمة : ﴿ حَمِيدٌ.. (٧٣) ﴾ [هود] تأتى بمعنيين (حامد) و (محمود) ،

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال إذا اضطجع فليقل : باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، فإن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ، فإذا استيقظ فليقل : الحمد لله الذى عافانى فى جسدى وردّ عليَّ روحى وأذن لى بذكره . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٤٠١) والنسائى فى سننه الكبرى (١٠٦٣٦) .

فالحق سبحانه حميد لأنه حامد لمَنْ يطيعه طاعة نابعة من الإيمان ، والله سبحانه محمود ممن أنعم عليهم نعمه السَّابغة .

ومما نحمد الله عليه أنَّ قضاء السماء وعلم الله بالغيب مسألة يجب أنْ نحمده عليها ، لأنه هو الذى سيحمى كلَّ واحد منَّا من غيره ، وعندما ستر الله غيبنا عن الآخرين فتلك نعمةٌ يجب أنْ نشكره عليها لأن النفوسَ مُتقلِّبة .

فلو علمتَ ما فى نفسى عليك فى لحظة فقد لا يسرُّك ، وقد لا تنساه أبداً ويظلّ رأيك فيَّ سيئاً ، لكن الظنون والآراء تمرُّ عندى وعندك وتنتهى .

ولو اطلع كلٌّ منَّا على غَيْب الآخر لكانت الحياةُ مرهقةً ، والقول المأثور يذكر ذلك : « لو تكاشفتم ما تدافنتم »[1] . إذن : فمن رحمة الله ومن أكبر نعمه على خَلْقه التى تستوجب الحمد له سبحانه أنْ ستر غَيْب خَلْقه عن خَلْقه .

والحمد لله أيضاً : ﴿ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾ [الإسراء]

فقد تنزَّه سبحانه عن اتخاذ الولد وجعل الخَلْق جميعاً عياله وكلهم عنده سواء ، وأحبُّهم إليه تعالى أتقاهم له ، وهكذا يحظى الخَلْق جميعاً بكلِّ حنان ربهم وبكلِّ رحمة ربهم .

وإذا كانت آية سورة التغابن قالت ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [التغابن] فإنه سبحانه يقول فى سورة الإسراء : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ .. (١١١) ﴾ [الإسراء]

وهذا أيضاً من النِّعم التى تستوجب الحمد ، ولك أنْ تتصوَّر لو أن لله تعالى شريكاً فى الملك ، كم تكون حَيْرة العباد فأيُّهما تطيع ؟ وأيهما تُرضى ؟

---

(١) ذكره أبو بكر الدينورى فى كتابه (المجالسة وجواهر العلم) (٣/ ٢١) (٦١٦) عن الحسن البصرى: إنى أسمع حسيساً ولا أرى أنيساً ، ذهب الناس وبقى النسناس ، لو تكاشفتم لما تدافنتم ، تهاديتم الأطباق ولم تهادوا النصائح . وقال المبرد : لو علم بعضكم سريرة بعض لاستثقل تشييعه ودفنه . [غريب الحديث لابن الجوزى ٢/ ٢٩١] .

لقد أوضح لنا الحقُّ سبحانه هذه المسألة فى هذا المثل الذى ضربه لنا : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا[1] لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩) ﴾ [الزمر]

فكوْنه سبحانه واحداً لا شريكَ له فى مُلكه يجعلك تطمئنّ إلى أمره ونَهيه فتطيعه وأنت مطمئنٌ ، فأوامره سبحانه نافذة لا مُعقِّبَ لها ولا مُعترضَ عليه ، فليس هناك إلهٌ آخر يأمرك بأمر مخالف ، أليستْ هذه نعمة تستوجب الحمد ؟

والحق سبحانه ليس له ولى يلجأ إليه ليعزه ، لأنه سبحانه العزيز المعزّ القائم بذاته سبحانه ، ولا حاجةَ له إلى أحد : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ .. (١١١) ﴾ [الإسراء]

ونِعَم الله التى تستوجب أنْ نحمده عليها نعم لا تُعد ولا تُحصَى ، لكن هذه الثلاث هى قمة النِّعم التى تستوجب الحمد ، فالحمد لله الذى لم يتخذ ولداً فهو سبحانه واحد أحد ، والحمد لله الذى لم يتخذ شريكاً لأنه واحد ، والحمد لله الذى لم يكُنْ له وليٌّ من الذُّل لأنه القاهر العزيز المعز .

و (الحمد) بالألف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكلِّ شيْء ، لذلك قال : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ .. (١) ﴾ [التغابن] فحصر الحمد المطلق لله سبحانه ، بتقديم له ثم تعريف الحمد .

والحمد المطلق لله هو حَمْد على حَمْد على حَمْد ، فيظل اللهُ محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

ومن الحمد أننا نحمده على أنه مُسبَّح من الخلائق كلها : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ .. (١) ﴾ [التغابن] فهو سبحانه مُتنزِّه عن مشابهة

---

(١) رجل سلماً لرجل : أى ملْكاً خالصاً له لا ينازعه فيه أحد . [القاموس القويم ١/ ٣٢٤] . قال القرطبى فى تفسيره (سورة الزمر آية ٢٩) أى خالصاً لسيد واحد وهو مثل من يعبد الله وحده . وقال البغوى (١١٨/٧) : أى « خالصاً له لا شريك ولا منازع له فيه » .

الأحـداث كلها ، وهى نعمة يجب أنْ نشكـر الله ونحمده عليها ، نحمده على أنه ليس كمثله شيء .

فهـو القـوى الذى لا يضعـف أبداً ، وهو العليم الذى لا يخفـى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فـى السمـاء ، وهو الكريم الـذى لا يبخل أبداً ، وهـو القدير الذى لا يعجز أبداً .

وهـذه نعمة كبيرة تستحقّ وتستوجب الحمد ، فلو كان ضعيفاً فكيف ينصر مَنْ آمن به ، ولو كان لا يعلم فكيف يعلم بالمضطرين من عباده ؟ وكيف يجيب سُؤْلهم ؟ وكيف يبخل إله على مَنْ خلقهم ؟

لذلـك كان سبحانه له الحمـد أنْ كان مُنزّهـاً عن النقص ، لذلك يقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [التغابن] ، فكلُّ شيء داخل فى إرادة الله وقدرته سبحانه ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٤٠) ﴾ [المائدة] ، فكلُّ شيء فى الوجود هو مُلك لله ، وهو يتصرّف بقدرته فيما يملك .

ولذلـك عندما هـاجـر رسول الله ﷺ إلى المدينـة ، كان اليهود يملكون المال ولهم معرفة ببعض العلم الدنيوى ، لذلك سادوا المدينة ، وبدأوا يمكرون برسول الله ﷺ .

والله تبارك وتعالى طمأنَ رسوله بأن طلاقةَ القدرة فى الكون هى لله وحده، وأنـه إذا كان لهـم ملك فإنه لا يدوم لأن الله ينزع الملك ممَّنْ يشاء ويُعطيه لمَنْ يشاء .

وما دام الله هو المالك وحده فإنه يستطيع أنْ ينزع من اليهود وغيرهم ومن الدنيا كلها ما يملكونه ، فالحق سبحانه وتعالى لا يُعجزه شيء ، ولا يخرج عن طاعته شيء ، إنه سبحانه على كلِّ شيء قدير .

لذلك فأنت حين تلجأ، تلجأ إلى الخالق الأعلى الذى بيده مقاليد كلِّ شيء، الذى لا يوجد مَنْ يغلبه على أمره، وهو سبحانه القدير أبداً على أنْ يمنحك ويمسَّك بالخير، وقدرتُه لا حدودَ لها.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ ﴾

خبر الخلق إنما نأخذه عن الله سبحانه لأنه الخالق، لذلك نحن نُصدِّق الذى خلقنا فى أمر خَلْقنا، وهو سبحانه يقول: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

ولم يدّعِ الخَلْقَ أحدٌ، وهذه بدهية من بدهيات هذا الكون، فالله تبارك وتعالى خلق الكون وخلق كلَّ ما فيه، وقال سبحانه إنه خلق، ولم يأتِ ولن يأتى مَنْ يدَّعى الخلق، فالدَّعوى خالصة لله تبارك وتعالى.

ولو كان فى هذا الكون آلهة متعددة لادَّعى كلُّ واحد منهم الخَلْق، ولكن لم يَقُمْ معارض يقول: أنا الذى خلقتُ، فإذْ لم يأتِ مَنْ يقول هذا فقد ثبتتْ الدعوى لصاحبها.

ولا يستطيع أحدٌ ادّعاء أنه خلق نفسه أو خلق غيره، والخَلْق قضية محسومة لله سبحانه.

والله سبحانه ذكر لنا غَيْب الخَلْق فى القرآن الكريم، فقال جَلَّ جلاله أنه

---

(١) العضد: المُعين والنصير. أى: ما كنت يا محمد متخذ المضلين أنصاراً. والاعتضاد: التقوِّى والاستعانة. وفلان يعضد فلاناً أى يعينه، واعتضدت بفلان: استعنت. [لسان العرب مادة: عضد].

خلق الإنسان من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون[1] ثم نفخ فيه من روحه .

واقرأ قوْل الحق سبحانه : ﴿ إنْ كُنتُمْ في رَيْبٍ منَ الْبَعْث فَإنَّا خَلَقْنَاكُم من تُرَاب (٥) ﴾ [الحج] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ من سُلالَة من طين (١٢) ﴾ [المؤمنون] ، وقوله : ﴿ إنَّا خَلَقْنَاهُم من طين[2] لازب (١١) ﴾ [الصافات] ، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ من صَلْصَال مّنْ حَمَإٍ مَّسْنُون (٢٦) ﴾ [الحجر] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه من رُّوحي فَقَعُوا لَهُ سَاجدينَ .. (٧٢) ﴾ [ص]

الذى خلق قال : أنا خلقتك من تراب .. من طين .. من حمأ مسنون .. من صلصال كالفخار .. فالماء وُضع على تراب فأصبح طيناً .. والطين تركناه فتغيَّر لونه ورائحته وأصبح حمأ مسنوناً .. فإذا جف وتصلب فهو صلصال كالفخار ، بعد أن سوَّاه فى صورة إنسان . ثم نفخ الحق سبحانه فيه الروح فأصبح بشراً .

هذه المراحل لم يَرَهَا الإنسانُ ولم يشهدها أحد ، ولكن الله جعل عليها دليلاً بما نراه عند الموت ، فأوّلُ شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه ، ثم بعد ذلك يتصلَّب الجسد ويصبح صلصالاً كالفخار ثم يتعفَّن ، فيصبح كالحمأ المسنون ، ثم يتبخر الماء الذى فيه فيعود تراباً .

فمما نراه عند موت الإنسان ومراحل تحلُّله ندرك مراحل خَلْقه من التراب ، وهذا الخَلْق من التراب حدث مرة واحدة مع آدم عليه السلام فقط ، ثم خلق حواء من لحم آدم ، ثم جعله تناسلاً من ماء الرجل وماء المرأة .

يقول تعالى : ﴿ فَلْيَنظُر الإنسَانُ مِمَّ خُلقَ (٥) خُلقَ من مَّاءٍ دَافقٍ (٦) يَخْرُجُ منْ بَيْن

---

(١) الحمأ : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصوَّر بصورة إنسانية أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/ ٣٣١] .

(٢) لزب الطين يلزب : قلَّ ماؤه وتماسكت أجزاؤه فهو لازب : لاصق متماسك [القاموس القويم ٢/ ١٩٢]. طين لازب أى لازق لاصق . [لسان العرب – مادة : لزب] .

الصُّلب[1] وَالتَّرَائب (٧) ﴾ [الطارق] وهو ماءٌ له خصوصية وهو المنيّ الذى قال الله فيه ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) ﴾ [القيامة]

والله يخلق من الشيء ذكراً أو أنثى ، ويعطيهما القدرة على التناسل فها هو ذا قَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

وقد جاء فى حديث رسول الله : « إنَّ أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقةً مثل ذلك ، ثم يكون مُضْغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله مَلَكاً فيُؤمر بأربع كلمات ، ويُقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقيّ أو سعيد ، ثم يُنفخ فيه الروح»[2] .

فأول مرحلة هى النطفة ، نطفة الرجل التى تخرج دافقةً من الرجل لتصل إلى رحم المرأة ، وهى ما نُسميه الحيوان المنوى ، وهو الذى يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث .

وليس للمرأة شأنٌ بهذا التحديد ، وكأنَّ فى ذلك إشارة إلى مهمة المرأة كسكن، لأن البويضة تتلقَّى الحيوان المنوى وتحتضنه ، ليكتمل النمو إلى أنْ يصير كائناً بشرياً .

والنطفة تختلط بماء المرأة وتُكوِّن ما يُسمَّى العلقة حيث تتعلق بجدار الرحم، وذلك بعد أربعين يوماً ، والعلماء يُسمونها (الزيجوت) وهى عبارة عن بويضة

---

(١) الترائب : عظام الصدر والنحر . قال ابن عباس : هى موضع القلادة من الصدر وروى الوالبى عنه : بين ثديى المرأة . [تفسير البغوى ٨/ ٣٩٤] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٠٨ ، ٣٣٣٢ ، ٦٥٩٤) ومسلم فى صحيحه (٦٨٩٣) وأحمد فى مسنده (٣٦٢٤ ، ٤٠٩١) والبيهقى فى سننه الكبرى (١٥٨١٩ ، ٢١٨١٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

مُخصَّبة وتبدأ فى أَخْذ غذائها منه .

﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً .. (١٤) ﴾ [المؤمنون] والمضغة هى الشىء الممضوغ وهى قطعة لحم صغيرة قدْر ما يُمضغ من الطعام ، وهو خليط من عدة أشياء ، كما لو أكلتَ مثلاً قطعةَ لحم مع ملعقة خضار مع ملعقة أرز ، وبالمضغ يتحوَّل هذا إلى خليط .

والمضغة منها مُخلَّقة وغير مُخلّقة ، والمضغة المخلّقة هى التى تتكوَّن منها جوارحُ الإنسان وأعضاؤه ، وغير المخلقة لصيانة ما يتلف من الجسم، كما يحدث مثلاً فى الجروح وما شابه ذلك من عطب يصيب الإنسان ، فتقوم غير المخلَّقة بدورها الاحتياطى .

فالمخلَّقة هى التى تكوّن الأعضاء ، وغير المخلَّقة هى الرصيد المختزن فى الجسم ، وبه يعوض أىّ خلل فى الأعضاء المخلّقة فهى التى تمدّه بما يُصلحه.

وهى تبقى مُضغةً أربعين يوماً ثالثة ، ويحدث التصوير فى الأرحام ، وهو إيجاد المادة التى سيوجد منها الإنسان على هيئة خاصة ، هذه الهيئة تختلف نوعيتها : ذكورةً وأنوثةً ، والذكورة والأنوثة تختلفان أشكالاً ، بيضاء وسمراء وقمحية وخمرية وقصيرة وطويلة .

هذه الأشكال التى يوجد عليها الخَلْق ، ثم بعد التصوير « يبعث **الله** ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ويُقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله ، وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » .

والشقاء ثابتٌ لمن نُعت بالشقى ، وعَلِم **اللهُ** بعلمه الأزلى أنه سيكون شقياً، والسعادة ثابتةٌ لمن نُعت بالسعيد ، وعلم **الله** بعلمه الأزلى أنه سيكون من السعداء .

وهـذا مـا لم يستطع العلم الحديث الوصولَ إليه ، فقـد استطاعوا معرفة نوع الجنين ذكراً أو أنثى ، ولكن لا يعرفون أهو طويل أم قصير ؟ ذكى أم غبى ؟ شقيٌّ أو سعيـد ؟ وأيضـاً أجله زمانـاً ومكانـاً ، وهذا ما أعجـزَ الأطباءَ والباحثين إلى اليوم وما بعد اليوم .

والحـق سبحانـه عبَّر باسـم الإشارة (الـذى) بعد الضمـير المنفصل (هـو) فقـال: ﴿ هُوَ الَّـذى خَلَقَكُمْ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، وذلـك لحصر الخَلْق فى الله عز وجلّ ، ولتأكيد أنْ لا أحدَ فى الكون خلق الإنسان غير الله عز وجل .

وقد جاء هذا كثيراً فى القرآن الكريم فى ثمانية وعشرين موضعاً نحو قوله تعـالى : ﴿ هُوَ الَّـذى خَلَقَ لَكُمْ مَا فى الأَرْضِ جَميعًـا .. (٢٩) ﴾ [البقرة] ، وقـال : ﴿ هُوَ الَّذى يُصَـوِّرُكُمْ فى الأَرْحَام كَيْفَ يَشَـاءُ .. (٦) ﴾ [آل عمران] ، وقـال : ﴿ هُوَ الَّذى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكتَابَ .. (٧) ﴾ [آل عمران]

وقـال : ﴿ هُوَ الَّذى جَعَلَ الشَّمْسَ ضيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥) ﴾ [يونس] ، وقـال: ﴿ هُوَ الَّذى أَنْزَلَ منَ السَّمَاء مَاءً لَكُمْ منْهُ شَرَابٌ وَمنْهُ شَجَرٌ فيه تُسيمُونَ[1] (١٠) ﴾ [النحل] ، وقـال : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذى أَنْشَـأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالأَبْصَـارَ وَالأَفْئدَةَ قَليلاً مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) ﴾ [الملك]

وقد يسأل سائل : وإذا كـان الخَلْق هـو لله عز وجل حَصْراً ، فلمـاذا يقول الحق سبحـانـه فـى القرآن ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَـنُ الْخَالقينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] فـهل هنـاك خـالقون والله أحسن الخـالقين ؟

نقول : الحق سبحـانـه لم يمنـع خَلْقه أنْ يخلقوا أشياء ، ولكن خَلْق الله أحسن، لمـاذا ؟ لأنــه يخلق من عدم ، أمـا البشر فيخلقون من موجـود ، الحق سبحـانـه

---

(١) تسيمون : ترعون فيه أنعامكم . قاله ابن عباس . معزواً لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . يقال: سامت السائمة تسوم رعت فهى سائمة . وقال النسفى فى تفسيره (١٥٣/٢) : « وهى من السومة وهى العلامة لأنها تؤثر بالرعى علامات فى الأرض » .

يخلـق ويُوجـد فى مخلوقاتـه حياة وتكاثـراً ، أما البشر فيخلقـون بلا نمو ولا حياة .

فـكأنَّ الحـق سبحانه جعـل من خَلْقه خالقـين ، لكن الخالقين مـن خَلْقه لم يخلقوا من عدم محض ، وإنما كوّنوا مُركّباً من موجود فى مواده ، فأخذوا من موادّ خلقها **الله** فركّبوا وأوجدوا .

فأنتم أيها البشر إنما تخلقون من مخلوقات خلقها **الله** ، ولم تخلقوا من غير مخلوق **لله** ، وإننا نرى دائماً أن خَلْق الإنسان لشيء إنما يظل معقوداً على حاله فلا ينسل ولا ينمو ولا يُحس ، والخالق العظيم يخلق من عدم .

وهكـذا شـاء الحق سبحانـه أنْ يفيض على عباده بـأنْ يعطيهـم صفة أنهم يخلقـون ولكنهـم لا يخلقـون كخَلْقـه ، فهو قد خلـق آدم ثم أوجدهم مـن نسله ، والبشر قد يخلقون بعضاً مـن مُعدّات وأدوات حياتهم لكنهـم لا يخلقون كخَلْق **الله**، فهم لا يخلقون من معدوم بل من موجود ، وما يخلقونه جامد على حاله .

لذلـك الذين اعتقدوا فى ألوهية عيسـى عليه السلام ظنوا أن خَلْقه للطير من الطين هو دليلُ ألوهيته ، وهم بذلك أخطئوا خطأً كبيراً وضلُّوا ضلالاً بعيداً .

فالحـق سبحانه قال علـى لسان عيسى عليه السلام : ﴿ **أَنِّـى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ** .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فالمسيـح عليـه السلام لم يخلق الطير من العـدم ، إنما خلقه من طين مُكوَّن مـن تـراب ومـاء ، وكلاهما **الله** هـو الذى خلقهمـا لا أحدَ غيره ، فهـو شكَّل من الطين شكلاً على هيئة الطير من مخلوق خلقه **الله** أصلاً .

فعمـل المسيح هنا يتلخَّص فى التشكيل أو قُل النحت ، ثم قـال : ﴿ **فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُـونُ طَـيْرًا بِإِذْنِ اللهِ** .. (٤٩) ﴾ [آل عمـران] فنفْخ الروح فى الطير المشكّل ليس

لذاتية فى عيسى عليه السلام إنما هى ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فلـو لم يأذن الله بـأنْ تكون هذه النفخة هى باعثة الـروح فى التمثال على هيئة طير ما صار طيراً ، ولو استمر النفخ فيه إلى يوم القيامة .

فخصائص عيسى ابن مريم عليه السلام لا تكـون إلا بـإذن من الله ، فقدرة عيسى عليه السـلام أنْ يصنع من الطين ما هو على هيئة الطير ، وإذا نفخ فيه بـإذن الله لأصبح طيراً ، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، إن ذلك كله بإذن ممنْ ؟ بإذن من الله .

إذن : فعيسى عليه السلام لا يخلق الطـير ولكن يصنع من الطين مثل هيئة الطير ، فالحق وحده هو الذى يخلق ، فلأنه سبحانه الإله فهو الذى يخلق خَلْقاً عامـاً ، أما البشر فبإمكانهم أنْ يخلقـوا أشياء ويُشكِّلوهـا كمثل المخلوقات ، لكنها ليست مخلوقات على الحقيقة .

ونحـن نرى ذلك فى التماثيل التى ينحتها المثَّال من الصخر أو يُشكِّلها من الطين كهيئة الجمل أو العصفور ، لكنه لا يملك أنْ ينفخ فيه الروح ، وقد يخترع الإنسانُ أشياء مثل الكوب من الرمل المصهور المنقَّى ، لكننا لم نسمع عن خَلْق كوب ذكر وكوب أنثى ليتوالد من الاثنين نسلٌ من الأكواب .

وقـد سمّـى اللهُ الإنسـان خالقـاً فأنصفـه واحترم إيجـاده للمعـدوم ، لكنه سبحانـه أحسن الخالقين ، ووجـه الحُسْن أن الله تعالى خلق من لا شيء ، وأنت خلقـتَ من موجـود ، الله خلق خلقاً فيه حياة ونمو وتكاثـر ، وأنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالته الأولى .

ففـى قولـه تعالى : ﴿ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَـةِ الطَّيْرِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران] معلوم أنه فى مقدور كلِّ إنسان أنْ يُصوِّر من الطين طيراً ؟ ويُصممه على شكله،

لكن أيُقال له : إنه خلق بهذا التصوير طيراً ؟

وهل العظمة فى تصويره على هيئة الطير ؟ العظمة فى أنْ تبعث فيه الحياة ، وهذه لا تكون إلا من عند الله ، لذلك قال عيسى عليه السلام : ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن]

وقد تكلم العلماء على قوله تعالى : ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] بعد قوله (خلقكم) ، هل معنى هذا أن الله خلق المؤمن مؤمناً والكافر كافراً ، فهل الإنسان مقهور ومجبور على كفره . إذاً فلماذا يُعذِّبه الله ويُدخله النار بل ويُخلده فيها ؟

البعض فهم الآية على أن الله خلق المؤمن يوم خلقه فى بطن أمه خلقه مؤمناً ، وخلق الكافر يوم خلقه فى بطن أمه خلقه كافراً .

واستدلُّوا على هذا بحديث رسول الله ﷺ : « خلق الله فرعون فى بطن أمه كافراً ، وخلق يحيى بن زكريا فى بطن أمه مؤمناً »[1] .

ويستدلون أيضاً بقوله ﷺ : « إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ أو باعٌ[2] فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لم يبْقَ بينه وبينها إلا ذراعٌ

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/٥٢٩) عن ابن مسعود مرفوعاً وعزاه لابن عدى والدارقطنى فى الأفراد والبيهقى وابن عساكر . وأخرجه البيهقى فى القضاء والقدر (٦٩) (١/٨٠) وابن عدى فى (الكامل فى ضعفاء الرجال) (٨/٢٧٧) .

(٢) الذراع من الإنسان من المرفق إلى أطراف الأصابع ومقياس للأطوال بمقدار ٧٥ سنتيمتراً أو ٥٨ سنتيمتراً . والباع قدر مدّ اليدين من أطراف أصابع اليد إلى أطراف الأصابع الأخرى . فالباع هو المسافة بين طرف اليد اليمنى واليد اليسرى إذا مدهما الرجل [تأسيس الأحكام ٤/١٠٦] .

أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[١] .

وهذه الآية وهذه الأحاديث لا تُعطى الفهم والمدلول الذى فهمه البعض من أنَّ العبد مجبور على عمله لا اختيارَ له كالورقة فى مَهبِّ الريح .

فليس معنى أن الله خلق فرعون فى بطن أمه كافراً أنه أجبره على الكفر وحكم عليه دون ذنب من فرعون ، إنما الأمر أنَّ الله خلقه كافراً بمقتضى علمه سبحانه الأزلى من أن فرعون لن يؤمن وسيموت كافراً .

ولو كان الحق سبحانه قد أجبر فرعون على الكفر لما أرسل إليه موسى رسولاً وأعطاه الفرصة للإيمان بالله ، ولكن سبق فيه علم الله سبحانه من أنه سيكفر وأنه سيدَّعى الألوهية .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « فيسبق عليه الكتاب » أى : بما كتبه اللهُ فى اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى يوم القيامة ، لا بما فرضه الله على عباده وعبيده ، بل بما علمه أنهم يفعلونه بمحض إرادتهم .

والبعض وقف فى القراءة عند كلمة (خلقكم) ثم استأنف ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن]

أى أن الله خلقكم يوم خلقكم على الفطرة ، كما يقول رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُمجِّسانه أو يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه »[٢] .

فالكفر والإيمان يأتى من كلٍّ من الكافر والمؤمن فيما بعد ، وهى إرادة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٣٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٨٩٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال النبى ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها من جدعاء ؟ » أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٨٥) وأبو داود فى سننه (٤٧١٦) والترمذى فى سننه (٢١٣٨) وأحمد فى مسنده (٧١٨١، ٧٦٩٨) .

العبد فى أنْ يكفر أو يؤمن ، ونضرب لذلك مثلاً من قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ .. (٤٥) ﴾ [النور] ثم ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ .. (٤٥) ﴾ [النور]

فالله خلق كلَّ الدواب من الماء ، ثم يأتى الفعلُ منهم بعد الخَلْق ، فيختلف الفعل بين دابة وأخرى ، فمن الدوابِّ مَنْ يمشى على بطنه كالزواحف والثعابين، ومنهم مَنْ يمشى على رِجْلَيْن كالإنسان وكالطيور مثلاً ، ومنهم مَنْ يمشى على أربع كالبهائم البقر والماعز والأغنام .

فالله خلقهم ولكن جعل المشى من فعلهم ، فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي .. (٤٥) ﴾ [النور] ، والقائلون بهذا غفلوا عن أنَّ مَشْى بعضهم على بطنه ، وبعضهم على رجلَيْن ، وبعضهم على أربع هو من تمام خِلْقتهم التى خلقهم الله عليها .

بمعنى أن الله سبحانه هو الذى أراد وخلق الثعبان والزواحف ماشية على بطنها فكان ، وهو سبحانه الذى أراد وشاء أنْ يمشى الإنسانُ على رجلين فكان ، وهو سبحانه الذى شاء أنْ تمشى البهائم والسِّباع على أربع فكان ، لا أن هذا محضُ إرادة منها وفعل مستقل بذاتها منها .

ولكن يبقى أنْ قوْلَ أهل السنة هو وَسَط بين طرفين ، بين مَنْ قالوا بالإرادة المطلقة لله ، وأن الله خالقُ العباد وخالق أفعالهم ، وليس للعبد أىُّ إرادة أو أىُّ فِعل ، وهؤلاء هم الجبرية[1] .

وكذلك بين مَنْ قالوا بإرادة الإنسان المطلقة ، وأن الله خلق الكون وخلق الناس وتركهم ، وليس لله إرادة مع إرادة البشر .

---

(١) الجبرية هم الذين يعتقدون أن العبد مجبور على أفعاله قسراً ولا فعل له أصلاً بل إثبات الفعل للعبد هو عين الشرك عندهم بل هو كالهاوى من أعلى إلى أسفل وكالسعفة تحركها الريح لم يعمل باختياره طاعة ولا معصية ولم يكلفه الله وسعه بل حمَّله ما لا طاقة له به ، ولم يخلق فيه اختياراً لأفعاله ولا قدرة له عليها ، فرفعوا اللوم عن كل كافر وفاسق وعاصٍ . [معارج القبول ١/٣٧٢] .

وكلا القولين خطأ ، والصواب هو الوسط بين القولين ، وقد ناقش الناسُ مسألة « خَلْق أفعال العباد » ، ولكن ما الفعل ؟ الفعل توجيه طاقة لإحداث حدث ، ففى اليد مثلاً طاقة تصلح لأنْ تفعل الخير وتفعل الشر .

فطاقة اليد أنها تعمل أىّ عمل تريده منها ، قد تضرب بها إنساناً ، أو تحمل بها إنساناً ساقطاً على الأرض ، أو تُربِّت بها على رأس يتيم .

فجوارحك واستعدادها للفعل سواء كان خيراً أو شراً الخالقُ لها اللهُ ، أما توجيه الجارحة إلى فعل ما هو محلّ التكليف ، وهو فعل العبد الذى يُثاب عليه أو يُجازى .

إذن : فأنت تُحاسب لأنك فعلتَ ، لا لأنك خلقتَ ، لأن خالق الأفعال هو الله سبحانه وتعالى، وأنت تفعل بمجرد الإرادة والاختيار ، مثل اللسان فيه طاقة مخلوقة لبيان ما فى النفس ، إنّ أردتَ أنْ تقول بها « لا إله إلا الله » صَلُحتْ، وصلُحَتْ كذلك عند الملحد أنْ يقول - والعياذ بالله - لا يوجد إله . واللسان نفسه الذى خلقه الله فى الإنسان لم يعصِ الله فى هذه ولا فى تلك .

ولذلك فجوارح الإنسان هى مجرد شهود على الإنسان فتشهد عليه يوم القيامة، يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

ومَنْ يتأمل قوله تعالى : ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] يجد أن الله قدّم ذِكْر الكافر على المؤمن ، لماذا ؟

المقام مقامُ توبيخ للإنسان الذى خلقه الله ووهبه الحياة والنِّعم التى لا تُعدُّ ولا تُحصَى ، ومع ذلك يكفر منه فريقٌ من الناس ، وهو الفريق الأغلب عدداً .

ولـذا يقـول الله فـى يوم الموقف : يـا آدم أخرج بعث النــار . قال : ومـا بعث النـار ؟ (أى عدده) قـال الله : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين[1] .

ويقول الحق سبحـانـه : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ [سبأ]

ويقول تعـالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [الرعد]

ونلاحـظ أن الآيــة القرآنيــة لم تذكـر إلا صنفين مـن الناس ، وهمــا الكافر والمؤمـن ، فقالـت ﴿ فَمِنْكُـمْ كَافِـرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِـنٌ .. (٢) ﴾ [التغابـن] فلم تذكر المنـافق أو الفاسق أو الظالم .

وذلك لأن المقـام هنـا هو مقـام الحديث عن خَلْق الإنسان ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ (٢) ﴾ [التغابن] وسيأتى قوله تعـالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ .. (٣) ﴾ [التغابن] والنـاس ينقسمون بـهذا الاعتبـار إلى مؤمنين أو كـافرين ، إمـا مؤمنين بـأن الله هـو الخـالق ، وإمـا أنـهم كـافرون بـهذا ، لِهذا لم يذكر اللهُ إلا صنفين .

والبعضـ أخذ من هذا أنَّ الآية رَدٌّ على القائلين بـالمنزلة بين المنزلتين ، أى منزلــة بين الإيمـان والكفر ، ورغم قولنــا أن هذا المبدأ خـاطــيء إلا أن الآية لا علاقةَ لـها هنـا بموضـوع المنزلة بين المنزلتين .

إنمــا الآية تتحدث عن مَنْ ينكرون وجـود الله عز وجل ويُنكرون خـالقية الله للوجود بسمـاواته وأرضـه وبشره وجنِّه وملائكته .

وإذا كـانـت السورة السـابقة سورة المنـافقــين حدَّثتنـا عن صنف المنـافقين ، وكشفتـهم وفضحتهم ، فـإن المنـافقين العليمى النفـاق يندرجون تحت الكـافرين ،

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : يقول الله تعالى : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك والخير فى يديك . فيقول : أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٤٨) ومسلم فى صحيحه (٥٥٤) .

لأنهم على الحقيقة كافرون ، وإنْ أظهروا غير ذلك .

بل إنَّ المنافقين أشدُّ خطراً من الكافرين الصريحى الكفر ، وقد قال تعالى :
﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ .. (١٤٥) ﴾ [النساء]

ولكن الكلام هنا فى المؤمنين بخالقية الله سبحانه وأنه الخالق البارى ، فمنكم كافر بخلقه وأنه خلقه ، ومنكم مؤمن مُصدِّق أنه خالقه أو بارئه ، وهذا ليس فيه منزلة بين المنزلتين .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾ [التغابن] فقوله (بما تعملون) يشمل أفعالهم وأقوالهم ، فالعمل يشمل الفعل والقول .

وهذه الآية ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾ [التغابن] تُعطينا دلالَة أن الآية تدلُّ على الأعمال التى يعملها كلُّ مخلوق ، إما أنْ تكون أعمالاً تدلُّ على إيمانه فيكون مؤمناً ، وإما أعمالاً تدلُّ على كفره فيكون كافراً .

فالكلام فى الأعمال ، والله لا يُجبر أحداً على عمل الإيمان أو عمل الكفر أو الفسق أو الظلم .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾ [التغابن] أى : يعرف ما يعملونه فلا تعتقد أن هناك شيئاً يَخْفى على الله ، أو أنَّ أحداً يستطيع أنْ يخدع الله ، فالله سبحانه وتعالى بصير بكلِّ شيء ، ليس بالظاهر منك فقط ، ولكن بما تُخفيه فى نفسك ولا تُطلع عليه أحداً من خَلْق الله .

وقد قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .. (١٥) ﴾ [آل عمران] فلم يقل الله : إنه عليم بالعباد ، لأن « عليم » تكون للأمور العقدية ، لقد قال الحق سبحانه فى وصف ذاته هنا : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾ [التغابن] والبصر لا يأتى إلا ليدرك حركةً وسلوكاً .

فمـاذا يـرى اللهُ من العباد ؟ إنه سبحانه يـرى العباد المتحركين فى الكون، وهـل حركـة العبد منهـم تطابـق الإسـلام أو لا ؟ ومتابعة الحركـة تحتـاج إلى البصر، ولا تحتـاج إلى العلم .

واختيـار (بصـير) يدلُّ على أنهم قد بلغوا من الغبـاء أنهم لم يستتروا حتى فى المعصية ، ولكنهم جعلوهـا حركة تُرى ، وهذا القول هنـا أقوى من (عليم) ، لأن (عليم) تؤدى إلى أنْ نفهم أنهم يملكون بعضاً من حياء ويسترون الأشياء، ولكن حركتهم صـارتْ واضحة بحيث تُبصر .

ومـن عجائـب القرآن أنه عنـد الكلام علـى المنافقين قـال : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُـونَ (١١) ﴾ [المنافقـون] فـأعمـالهـم الظاهـرة متوافقـة مـع قواعـد الدين وأحكامـه من صلاة وصيام مما يفعلـه كلُّ المسلمين بل حرص على الصفوف الأولى فـى المساجد ، ولكنّ أعمـالهم هـذه تحتـاج إلى خبرة الخبير سبحـانه بما فى نياتهم ، وصِدْق ما تطويه نفوسهم .

أمـا المؤمنون والكافرون فـأعمـالهم ظاهرةٌ واضحةٌ للعيان ، سواء كانت أعمالَ خير أو أعمالَ سُوء ، لذلك نـاسب هنـا أنْ يقول تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِـيرٌ (٢) ﴾ [التغابـن] فهـو سبحـانـه يعلم حركـة العبـادة ، لأن حركة العبـادة مرئية ، وهو سبحانـه بصير بذنوب عباده ، وقـد جمع اللهُ بين الخبير والبصير بـأعمال العباد فى قوله تعـالى : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) ﴾ [الإسراء]

والبصر هو من مُوجبات أنْ يكونَ الإلهُ إلهاً ، لذلك كـان إبراهيم عليه السلام يقول لأبيه : ﴿ يَـٰأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا (٢٤) ﴾ [مريم]

فكيـف تعبـد إلهـاً مزعومـاً لا يسمـع ، فهـو أصم لا يسمـع دعـاء الداعين من عبـاده ، ولا يسمـع تـأوّهـاتـهـم وآلامـهـم ، ولا يبصـر فهو أعمى لا يـرى ، فهذه الصفات لا تكون فى المعبود .

وليس معنى أن الله بصير بعباده أن له عيناً كأعيننا ، إنما هذا يجب أنْ نأخذه فى إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] فأنت تسمع والله يسمع ، وأنت تبصر والله يبصر ؛ ولكن ليس السمع كالسمع ، وليس البصر كالبصر ، تعالى الله عن مشابهة الخلائق ، علواً كبيراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ③ ﴾

تستمر الآيات فى الحديث عن الخَلْق ، فذكرتْ أولاً خلقنا ، فقال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، ثم تُحدِّثنا الآياتُ عما هو أكبر وأعظم من خَلْق الإنسان ، وهو خَلْق السماوات والأرض .

قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

فالناسُ إنما خُلقوا من الأرض ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنُو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض وبين ذلك ، والسهل والحَزَن[١] والخبيث والطيب »[٢] .

ومسألة خَلْق السموات والأرض يجب أنْ يبدأ منها التعجب ، وأنت أيها

---

(١) الحزن هو الوعر . السهل يُوطأ ويُمتهن . والحزونة شدة . فالتربة الطيبة نفوسها سهلة كريمة وليست فيها كزازة ولا يبوسة ولا شعوثة ، فالآخرون كانت الحزونة فى تربتهم فجاءت الكزازة والشعوثة والصعوبة . [نوادر الأصول فى أحاديث الرسول ١/٣٣٢] .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٦٩٥) والترمذى فى سننه (٢٩٥٥) وأحمد فى مسنده (١٩٥٩٧ ، ١٩٦٥٩) والبزار فى مسنده (٣٠٢٦) والبيهقى فى سننه الكبرى (١٨١٦٣) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

الإنسان يجب أنْ تفطن إلى ما خُلق لك لتستدلّ على خالقك ولتُؤمن وتشهد أنه إله واحد .

فلو أنَّ الإنسانَ نظر فى خَلْق السماوات والأرض لاهتدى بفطرته إلى أنَ لهذا الوجود المتقن المحكم صانعاً قد صنعه ، ولو فكرتَ أيها الإنسان فى خَلْق السماوات والأرض لوجدته أكبر من خَلْق الناس ، إنه الكونُ بسماواته وأرضه .

ولقد أوجد سبحانه السماوات والأرض من عدم ، وليس لأحد أنْ يجتريء ليقول لله: كيف خلقتَ السماوات والأرض ؟ لأنه سبحانه يقول : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

فعلينا أنْ نأخذ خبر الخَلْق من خالقهما وهو الله ، وقد أتى بعضُ الناس وقالوا : إن الأرضَ انفصلتْ عن الشمس ثم بردتْ ، وهذه مجرد ظنون لا تثبت ، لأن أحداً منهم لم يرَ خَلْق السماوات والأرض .

وهؤلاء هم أهل الظنون الذين يدخلون فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وحين تتأمل السماء والأرض تجد دقة الخَلْق ، وخَلْق السماوات والأرض هو الظرف الوجودى للإنسان الخليفة ، وطرأ الإنسان على هذا الكون بكلِّ ما فيه من قوى ونواميس ، فكأنَّ الله أعدَّ الكون للخليفة قبل أنْ يخلق الخليفة، ليجد كوْناً مسخَّراً له ، ولا يستطيع أيّ كائن فيه أنْ يخرج عن مراد الله فى شيء .

وقد شاء الحقُّ سبحانه أنْ يخلق الأرض والسماوات فى ستة أيام من أيام الدنيا ، وكان من الممكن أنْ يخلقها فى أقلّ من طَرْفة عين بكلمة (كُنْ) ، وهناك فرْق بين إيجاد الشيء وطرْح مُكوِّنات إيجاد الشيء .

وأنت حين تفكر فى خَلْق السماوات والأرض ستجده مسألة فى غاية الضخامة ، ويكفيك أنْ تتحيَّر فى مسألة خَلْقك وتكوينك ، وأنت مجرد فرد محدود بحيِّز ، ولك عمرٌ محدود ببداية ونهاية ، فما بالك بخَلْق السماوات والأرض التى وُجدت من قبلك ، وستستمر من بعدك إلى أنْ تنشقَّ بأمر الله وتتكسَّر لحظتها النجوم .

وقد حجز الحق سبحانه عن العقول المتطفلة أمرين ، فلا داعى أنْ تُرهق نفسك فيهما :

الأمر الأول : هو كيفية خَلْق الإنسان ، وهل كان فرداً فى البداية ثم تطوَّر ؟ تلك مسألة لا تخصُّك فلا تتدخل فيها بافتراضات تؤدى بك إلى الضلال .

والأمر الثانى : هو مسألة خَلْق السماوات والأرض فتقول : إن الأرض كانت جزءاً من الشمس ثم انفصل وبرد سطحه وتجمَّد ، ومثل هذا الكلام لا يستند إلى دليل أو واقع أو شواهد .

ولا أحدَ قادرٌ على أنْ يخلقَ مثل السماوات والأرض ، وهى مخلوقة على غير مثال سابق ، لذلك قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١١٧) ﴾ [البقرة]

أى : أنه سبحانه خلق السماوات والأرض وكلّ ما فيهما من خَلْق على غير مثال سابق ، أى لم يكُن هناك سماء أو أرض أو ملائكة أو جنّ أو إنسان ، ثم جاء الله سبحانه وتعالى وأوجد مُشابهاً لهم فى شكل أو حجم أو قدرة ، فهو سبحانه لم يلجأ إلى ما نُسمِّيه نحن بالقالب .

إن الذى يصنع كوبَ الماء يصنع أولاً قالباً يصبُّ فيه خام الزجاج المنصهر، فتخرج فى النهاية أكوابٌ متشابهة ، وكلُّ صناعة لغير الله تتمّ على أساس صُنْع القالب أولاً ، ثم بعد ذلك يأتى الإنتاج .

ولذلك فإن التكلفة الحقيقية هى فى إعداد القالب الجيد الذى يعطينا صورةً لما نريد ، فالذى يخبز رغيفاً مثلاً قد لا يستخدم قالباً ، ولكنه يقلد شيئاً سبق، فشكل الرغيف وخامته سبق أنْ تمَّ وهو يقوم بتقليدها فى كلِّ مرة ، ولكنه لا يستطيع أنْ يُعطى التماثل فى الميزان أو الشكل أو الاستدارة ، بل هناك اختلافٌ فى التقليد ولا يوجد كمالٌ فى الصَّنْعة .

وحين خلق الله جلَّ جلاله الخَلْق من آدم إلى أنْ تقوم الساعة جعل الخَلْق متشابهين فى كلِّ شيء ، فى تكوين الجسم وفى شكله فى الرأس والقدمين واليدين والعينين وغير ذلك من أعضاء الجسم تماثلاً دقيقاً فى الشكل وفى الوظائف ، بحيث يؤدى كُلُّ عضو مهمته فى الحياة .

ولكن هذا التماثل لم يتم على قالب ، وإنما تمَّ بكلمة (كُنْ) وعلى غير مثال سابق ، فهو سبحانه الخالق البديع ، ومهمة آيات الله الكونية أنْ تلفتَ نظر المخلوق إلى بديع صُنْع الخالق وضرورة الإيمان به .

فمنها نعلم أنْ وراء الكون البديع خالقاً وقوة تُمدّه وتُديره ، فمَنْ يمد هذه الشمس بهذه القوة الهائلة ؟ ومَنْ خلقها من عدم وأمدَّها بالطاقة من عدم ؟

ولو نظرتَ إلى الشمس وسألتَ نفسك : كم من الأجيال قد استمتعوا بدفئها واستفادوا منها ، فمن المؤكد أنك لن تعرف عدد الأجيال ، لأن الشمس مخلوقة من قبْل خَلْق البشر ، وكلُّ إنسان يستمتع بالشمس ويستفيد منها عدد سنوات حياته ثم يذهب إلى الموت .

وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ [الأنبياء]

وهـذا لم يصل مَـنْ سبقونـا إلى فَهْمه الفَهْم العميق ، لكـن إنسان هذا العصر الذى نعيشه فهمها بعد أنْ توصَّل العلماء إلى أن السماوات والأرض كانتا كتلةً واحدة وفصلهما الحق بإرادته ، وجعل من الماء حياة لكلِّ كائن حَيٍّ .

والرتق : الشيء الملتحم الملتصق ، ومعنى : ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] أى : فصلناهما وأزحْنا هذا الالتحام .

ومن العلماء[1] مَنْ رأى أن المعنى خاص بكلٍّ من الأرض والسماء ، كلّ على حدة ، وأنهما لم تكونا ملتحمتين ، واعتمدوا على بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) ﴾ [عبس]

وفى موضع آخر قال : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) ﴾ [القمر]

فالمراد إذن أن الأرض وحدها كانت رتْقاً فتفجرتْ بالنبات ، وأن السماء كانت رتْقاً فتفجرتْ بالمطر ، فشقّ الله السماء بالمطر ، وشقَّ الأرض بالنبات الذى يصدعها .

نفهم من هذا الرأى أن الفتْق ليس فتْق السماء عن الأرض ، إنما فَتْق كلٍّ منهما على حدة .

والحق سبحانه إنما خلق السماوات والأرض بالحق ، فالكون مبنيٌّ على الحق : ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾ [الدخان] ،

---

(١) عن ابن عباس قال : فتقت السماء بالغيث ، وفتقت الأرض بالنبات . أخرجه الفريابى وعبد بن حميد والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات . وعن ابن عمر أن رجلاً أتاه فسأله عن (السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) قال : « اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فأخبرنى ما قال ، فذهب إلى ابن عباس فسأله قال : نعم كانت السماء رتقاء لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاء لا تنبت ، فلما خلق الله الأرض فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات .

والحق هو الشيء الثابت ، وما دام ثابتاً فهو لا يتغير ، وقضية الحق فيه تكون مُطردة ، فالله حَقٌّ ، خلق السماوات والأرض وكلّ الكون بالحق ، ونشأ الكون منه بقانون حق ، واستمرتْ سُنن الله فى الكون بالحق .

وقد جعل سبحانه من دعاء المؤمنين : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ [آل عمران]

فسبحانك حَقٌّ وخلقتَ السماوات والأرض بالحق ، ووضعتَ لها نواميسها وقوانينها بالحق ، فيجب أنْ نستقبل النعمة التى خلقتَها لنا بالحق ، فإن استقبلها بعضُ الناس بغير الحقِّ ، فإنها تكونُ وبالاً عليهم .

والله سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذى خلق كلَّ شيء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجرى بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكلّ شيء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ومعنى الخَلْق بالحق أنَّ مَنْ خلق السماوات والأرض إنما فعل ذلك بموازين دقيقة مُحكمة وضعها على نظام ثابت له قضية تحكمه من الحق والحكمة .

فالشمس مثلاً لم تتخلَّف يوماً ، فتقول مثلاً : لن أطلع اليوم على هؤلاء الناس لأنهم ظالمون ، لأن لها قانوناً تسير به ، وهى مخلوقة بحق ثابت لا يتغيَّر ، وما دامت هذه الكونيات خُلقتْ بالحق وبشيء ثابت ، فلك أنْ تُرتِّب عليها حساباتك وتضبط بها وقتك ، وأنت لا تضبط وقتك على ساعة إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : مخلوقة بحساب ، ولأنه سبحانه خلقها بحساب جعلها آلةً للحساب .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) ﴾ [الدخان] فالله لم يخلق السماوات والأرض لعبة ، بل خلقهما بالحق ، وهناك فارقٌ بين اللعبة والحق ، فاللعبة قد يتوصَّل إليها مَنْ يعبث بشيء ، فتخرج له صدفة ، يستخدمها هو أو غيره كلعبة .

ولأن الخَلْق كله كان بالحق فالله لن يترك الناسَ سُدى ولم يخلقهم هَملاً ، بل كلُّ عمل يفعله الإنسان مُحصىً عليه وسيُسأل عنه يوم القيامة .

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى .. (٣٩) ﴾ [القيامة]

فنحن لم نُخلق عبثاً ولن نُترك سُدى ، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون] ولو تركنا الله تعالى بلا حساب لكانَ المنحرف الذى أعطى لنفسه شهواتها فى الدنيا أوفرَ حظاً من المستقيم ، وما كان الله تعالى ليغُشّ عبده الذى آمن به وسار على منهجه ، أو يُسلمه للظلمة والمنحرفين .

فالله إنما خلق السماوات والأرض ، وخلق الشمس والقمر وجعلهما آيتين دالتين على كمال قدرته سبحانه وعظيم سلطانه ، ولم يخلقهما عبثاً ، بل لحكمة عظيمة : ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. (٥) ﴾ [يونس] فلا شيءَ يُخلق عبثاً بل بالحق .

والله سبحانه لا يمتنُّ بخَلق السماء والأرض وما بينهما لأنهما أعجب شيء، ولكن لأنهما مخلوقتان للناس ومُسخَّرتان لخدمتهم ، الكل مخلوق لك أيها الإنسان ، وكان يجب عليك أنْ تبحثَ بعقلك فيمن سخّر لك هذا كله ، كان عليك أنْ تهتدى إلى الخالق سبحانه للسماء والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه ما

خلقهما عبثاً ولا خلقهما للعب ، إنما خلقهما من أجلك أنت .

ثم قال تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٣) ﴾ [التغابن] والحق سبحانه يقصد هنا التصوير فى الأرحام ، وليس التصوير الأول عند خَلْق آدم الخَلْق الأول من الطين ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ.. (٣) ﴾ [التغابن] فجمع (صوركم) .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٦) ﴾ [آل عمران]

والتصوير فى الأرحام هو إيجاد المادة التى سيُوجد منها الإنسان على هيئة خاصة ، هذه الهيئة تختلف نوعيتها : ذكورةً وأنوثةً ، الذكورة والأنوثة تختلف أشكالاً : بيضاء وسمراء وقمحية وخمرية وقصيرة وطويلة .

وقوله ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٦) ﴾ [آل عمران] معناه أن تصوير أشكالنا هو محْضُ اختيار الله سبحانه لنا ، وكلّ تصوير له حكمة ، وما دام كلُّ تصوير له حكمة فكلُّ خَلْق الله جميل .

وعليك ألاّ تأخذ الخَلْق مفصولاً عن حكمة خالقه ، بل خذ كُل خَلْق مع حكمته، فالذى يجعلك تقول : هذا قبيح أنك تفصل المخلوق عن حكمته .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِى أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) ﴾ [الانفطار]

فالحق سبحانه يُعدِّد شيئاً من مواد إكرامه للإنسان وخَلْقه فى أحسن صورة، من حيث الخَلْق والتسوية والتعديل ، وهذا أمر لا يشكّ فيه إنسان حين يجد فكره ، وحين يجد شكله ، وحين يجد تسويته واعتداله عن سائر ما خلق الله عز وجل .

فلـم يخلقــه الله مـاشياً على بطنــه ، ولم يخلقه يمشى علــى أربـع ، ولم يجعل قـامته مُلتوية إلى أسفل ، بل جعله مرتفع القـامة ، هذا بخلاف التسوية والتعديل فى أجهزته الدقيقة التى لا يزال علماءُ كلِّ جهاز من هذه الأجهزة يقفون دائماً عندها عجباً ويكتشفون سِراً .

ويمـتنُّ الحقُّ سبحـانه علــى الإنسان ، فيقول : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَـانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) ﴾ [البلد]

ومـا دام المُلْـك لله سبحـانه وكذلك الخَلْق له وحـده ، فكذلك تصوير الإنسان فى الأرحـام له وحده : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَـوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَـاءُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. (٦) ﴾ [آل عمران]

ومعنــى (لا إلــه إلا هــو) أى سيُصـور وهو عـالم أنَّ مـا يُصـوِّره سيكون على هذه الصورة ، لأنـه لا يوجد إلهٌ آخر يقول لـه : هذه الصـورة لا تعجبنى وسأصوِّر صـورة أخرى .

لا ، لأن الـذى يفعـل ذلك عزيـز أى لا يُغلب على أمـر ، وكل مـا يريده يحدث، وكل أمـر عنـده لحكمــة ، لأنــه عندما يقـول ﴿ يُصَـوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَـامِ .. (٦) ﴾ [آل عمران] قد يقول أحد النـاس : إن هنـاك صُوراً شاذة وصوراً غير طبيعية .

وهــو سبحـانــه يقول لك : أنـا حكيـم وأفعلهـا لحكمة ، فـلا تفصل الحدث عن حكمتــه ، خُذ الحدث بحكمته ، وإذا أردتَ الحـدث بحكمتـه تجده الجمـال بعينه ، وهو سبحـانه المصوِّر فى الرحم كيف يشـاء .

وقد علَّمـنـا رسول الله ﷺ الإقرار بهذا في سجودنـا ، فكـان ﷺ إذا سجد قـال: « اللهم لك سجدتُ ، وبك آمنتُ ، ولك أسلمتُ ، سجد وجهى للذى خلقه وصوّره ،

وشقّ سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين »[1] .

وقد كان رسول الله ﷺ إذا نظر فى المرآة قال : « الحمد لله الذى حسَّن خَلْقى وخُلقى ، وزانَ منى ما شانَ من غيرى »[2] .

وقد قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾ [التين] أى : سوَّاه البارى سبحانه على هيئة مستقيمة وعلى أحسن تقويمٍ ، فالإنسان خَلْقه وصنعته ، خلقه الله وصوَّره وشكّله فى أحسن تقويم وعلى أحسن هيئة .

هذا من حيث المادة ، ويريد الله أنْ يظلَّ هكذا سويَّ التكوين فى كل شيء ، فإذا ما خرج هذا الخليفة المخلوق لله على قانون صيانته فإنه ولا شكَّ لابدّ أنْ يُغضب الله لأن الله يريد أنْ تظل صنعته جميلة كما أبدعها سبحانه .

وإذا كان الحق سبحانه هنا حدَّثنا عن تصوير الإنسان فى أحسن صورة بعد الكلام عن خَلْق السماوات والأرض ، فإنه سبحانه فى آية أخرى قال : ﴿ اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٦٤) ﴾ [غافر]

فهناك خَلْق للسماوات و الأرض ، وهنا جعْل هذه الأرض المخلوقة قراراً أى مكاناً مُستقراً صالحاً لعيش الإنسان عليها ، وجعل السماء المخلوقة بناءً متماسكاً يُمسكها الحق سبحانه أنْ تسقط على الأرض .

واقترانُ خَلْق الإنسان وتصويره على هذه الصورة والهيئة ، اقتران هذا بخَلْق السماوات والأرض التى لم يدّعِ أحدٌ خَلْقها ، هذا دليل قاطع على أن

---

(١) عن على بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا سجد قال : « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوَّره وشقَّ سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٤٨) وأبو داود فى سننه (٧٦٠) والترمذى فى سننه (٣٤٢١) قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٢٦١١) ، والطبرانى فى الدعاء (٤٠٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما .

الله سبحانه هو المصوِّر للإنسان على غير مثال سابق، كما أنه أبدع الوجود كله.

وهذا يقطع الطريق على القائلين بنظرية تطور الإنسان عن القرد، وكيف نُصدِّق ترقى القرد إلى الإنسان؟ ولماذا ترقى قرد داروين ولم تترقَّ باقى القرود؟ ولماذا لم تؤثر فى بقية القرود ليكونوا أناساً وينعدم جنس القرد؟

والذى يهدم نظرية داروين من أولها هو هذا الفهم لطبيعة التطور: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات] أى: أن كلَّ الكائنات مخلوقة ابتداءً من الله، ولا يوجد جنسٌ قد نشأ من جنس آخر.

وتصوير الإنسان على هذه الصورة البديعة هو تكريم للإنسان، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ .. (٧٠) ﴾ [الإسراء]

وأوجه التكريم فى الإنسان كثيرة، فهو كُرِّم بالعقل، وكرِّم بالتمييز، وكُرِّم بالاختيار، وكُرِّم أيضاً بأنه يسير مرفوع القامة لا على أربع منحنياً إلى الأرض كالبهائم، وكُرِّم بشكل الأصابع وتناسقها فى شكل بديع يسمح لها بالحركة السلسة فى تناول الأشياء ومزاولة أعمال دقيقة.

وكُرِّم أيضاً بأنه يأكل بيده لا بفمه كالحيوان، ولا بمنقاره كالطائر، ولا بخرطومه كالفيل، وكل هذا مُلاحظ فى تكريم الإنسان.

والحق سبحانه من أسمائه الحسنى (المصوِّر)، اسم فاعل للموصوف بالتصوير، وهو جَعْل الشيء على صورة لا يتماثل فيها جنسان أو نوعان، بل لا يتساوى فردان، فلكلٍّ صورته وسيرته وما يخصُّه ويتميز به عن غيره.

فالمصوِّر فى أسماء الله الحسنى هو مُبدع صُور المخلوقات ومُزيِّنها بحكمته ومعطى كلّ مخلوق صورته على ما اقتضتْ حكمته الأزلية، وكذلك صورَ اللهُ

الناسَ فى الأرحام أطواراً وشكّلهم أشكالاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ [التغابن] أى : إلى الله المرجع والمآب فلن يستطيعوا أنْ يُفلتوا ، فمصير جميع العباد ومرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله تعالى .

فمصير الجميع الرجوع والانقلاب إلى الله ، يقول تعالى : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) ﴾ [الشعراء] . وكوْن المصير إلى الله سبحانه هو اطمئنان لمن آمن ، وما دمنا إليه نرجع ومنه بدأنا ، فالحياة بدايتها من الله ونهايتها إلى الله فلنجعلها هى نفسها إلى الله .

وإذا كان الحقُّ سبحانه خلق السماوات والأرض بالحق فإنه سبحانه لم يخلق الناسَ عبثاً أو لعباً أو لهواً . إنما خلقهم أيضاً بالحق ، فقال تعالى :
﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

وكوْننا نؤمن أنَّ إلى الله المصير هو من صلب الإيمان ، لأن هذا إيمانٌ باليوم الآخر وبالبعث بعد الموت ، وإذا كان إلى الله المصير فلماذا نعصيه ونخرج عن منهجه سبحانه ؟

وإذا كنتَ قد عصيتَ الله بما منحناه لك فى الدنيا من خيارات الطاعة أو المعصية ، فإنك بعد الموت ليس لك أىّ خيار إلا الرجوع إلى الله إما طائعاً مختاراً مُحباً للقاء الله ، وإما كارهاً مضطراً رغماً عنك ودون إرادتك .

ولا تظن أن هناك مفراً ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾ [القيامة]

ويقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ (٤٨) ﴾ [المائدة]

فلتتسابقوا فى الوصول إلى الخيرات وفِعْلها ، فإن الكلَّ يرجع إلى الله سواء الملتزم أو المنحرف ، فنُرد إلى مصيرنا المحتوم وهو الوقوف أمام الله فيُنبئنا بما كنا فيه نختلف .

وإذا كانت بدايتكم من صُنْع الله تعالى ﴿ هُوَ الَّذى خَلَقَكُمْ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، وإذا كان الله هو الذى ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٣) ﴾ [التغابن] ، بل إنه سبحانه هو الذى شكَّل صُوركم هذه التى أنتم عليها ، فلماذا يستبعد البعض منكم أنه سبحانه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ [التغابن]

وقد قدَّم الحق سبحانه الظرف الجار والمجرور (إليه) ليلفت أنظارنا أن المصير مفروغٌ منه ، وأن الإنسان لابدّ له من مرجع يعود إليه ، ولكن ليعلم أن هذا المصير هو (إليه) إلى الله سبحانه ، لا إلى إله آخر من آلهة البشر المزعومة.

فالمصير إنما هو إلى خالقكم وخالق السماوات والأرض ومُصوِّركم فى الأرحام كيف يشاء . ولا بد أنْ يكون المصير إلى الله ، وإلا لنجا الذى ملأ الدنيا شروراً دون أنْ يُجازَى على ما فعل ، ولكانَ الذى التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من متع دنيوية كثيرة إرضاءً لله قد شقى فى الحياة الدنيا عبثاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾

الحق سبحانه له مُلْك السماوات والأرض ، وهو سبحانه خالقهما وخالق البشر ، خلق كلَّ شيء بالحق ، وهو سبحانه الذى صوَّرنا فأحسن صورنا وهيئاتنا .

وما دام الحق سبحانه هو مالك الملْك ، وهو خالق كلِّ شيء فإنه سبحانه يعلم كلّ شيء فيما خلق ، فكأنّ هذه الآية التى معنا هى نتيجة ومحصلة للآيات السابقة عليها من سورة التغابن .

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ [التغابن]

فعندما يُقال لنا : إن الله يعلم كلَّ شيء فيك ، لا يدخل معك فى متاهة ، هو سبحانه يقول لك : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

فالذى صنع الكرسى - ولله المثل الأعلى - ألاَ يعرف أن الكرسى مصنوع من الخشب ، ونوع الخشب (زان) أو (أرو) أو (مُجنة) ، وأن المسمار الذى يربط الجزء بالجزء ، إما مسمار صلب وإما من معدن آخر ، وكذلك يعلم صانع الكرسى أىّ صنف من الغراء استُعمل فى لصق أجزاء الكرسى ، وكذلك مواد الدهان التى دهن الكرسى بها .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] لا يحتاج إلى دليل ، ولذلك نجد النجار الذى يرغب أنْ تكون صنعتهُ مكشوفة واضحة يقول للمشترى : سوف أصنع الكرسى من خشب الزان ، وعليك أنْ تمرَّ يومياً لترى مراحل فِعْله .

وخَلْق الحق سبحانه ظاهرٌ للعيان واضح ، يقول تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ[١] بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) ﴾ [لقمان]

ثم قال تعالى فى وضوح : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ .. (١١) ﴾ [لقمان]

فخَلْق السماوات والأرض والشمس والقمر إعجازٌ للدنيا كلها ، وهو من الوضوح بحيث لا يستطيع أحدٌ إنكاره ، لذلك عندما يقول لهم الحق سبحانه : ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] لا تجد عندهم إجابة لهذا السؤال ، حيث لا واقع له يستدلون به ولا حتى بالمكابرة .

فالحق أبلج والباطل لجلج[٢] ، لذلك لم نسمع لهم صوتاً ولم يجرؤ واحد منهم مثلاً على أنْ يقول : آلهتنا خلقت الجبال مثلاً أو الشمس أو القمر ، فلم يستطيعوا الردّ رغم كفرهم وعنادهم .

ومعنى ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] أى مخلوقاته . وأنت أيها الإنسان لن نطلب منك خَلْقاً كخلق السماء والأرض والجبال ولا إنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات ، بل سنطلبْ منكم ما هو أهون من هذا بكثير وأدنى .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] فأولئك الذين تدعونهم وتعبدونهم وتتجهون إليهم من دون الله

---

(١) أن تميد : أى لئلا تميد . وقال الزجاج : كراهة أن تميد . وقال ابن قتيبة : الميد الحركة والميل . ومادت الأغصان : تمايلت . ماد الشيء يميد : تحرك . قال الزبيدى فى تاج العروس (مادة ميد) : « أى تضطرب بكم وتدور بكم وتحرككم حركة شديدة » .

(٢) الحق أبلج : أبيض واضح . وكل واضح أبلج . واللجلجة والتلجلج : التردد فى الكلام . واللجلاج : من كان ثقيل اللسان يتردد فى كلامه (المعجم الوسيط) وأبلج الحق : ظهر . وكل متضح أبلج من صبح وحق وأمر ووجه . وقال الزبيدى : أى لا تخفى معالمه . [تاج العروس] .

﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣) ﴾ [الحج] وهو أصغر المخلوقات ﴿ وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

يعنى : ولو تضافرت جهودهم واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً ، فالحق سبحانه لم يتحدهم بخلْق السماوات ، ولا بخلق الأرض ، ولا بخلق الإنسان ، بل إنه سبحانه تحداهم بخلق ذباب ، وحسم الأمر فقال : ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣) ﴾ [الحج]

فالآية جاءت بنفى المستقبل ، فهى لم تنْفِ الماضى إنما نَفتْ المستقبل ، فالنفى هنا للتأبيد ، فهم ما استطاعوا فى الماضى ولن يستطيعوا أيضاً فيما بعد حتى لا يظنّ أحدٌ أنهم ربما تمكَّنوا من ذلك فى مستقبل الأيام .

وإذا كان أمر الخَلْق محسوماً لله عز وجل فإن أمر اتصاف الخالق بالعلم محسومٌ أيضاً ، فمَنْ خلق شيئاً يعلم كل شيء عما خلقه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

وما دام سبحانه هو خالق كل شيء ، فليس غريباً أنه سبحانه يعلم كل شيء عما خلق ، وكل صانع فى مجاله يعلم أسرار صنعته ، فما بالنا بالخالق الأعظم سبحانه ، إنه خبير عليم بكلِّ شيء .

وقد روى لنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قصة ثقفيين وقرشى كثيرةٌ شحوم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، اجتمعوا عند البيت الحرام ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ قال الآخر : يسمع إنْ جهرنا ، ولا يسمع إنْ أخفينا .

وقال الآخر : إنْ كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨١٧ ، ٧٥٢١) وكذا مسلم فى صحيحه (٧٢٠٥) وأحمد فى مسنده (٣٨٧٥) وابن حبان فى صحيحه (٣٩١) ، وكذا البزار فى مسنده (١٧٩٨) والطيالسى فى مسنده (٣٦١)، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، وقد صححه الألبانى فى صحيح وضعيف الترمذى (٣٢٤٨).

فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) ﴾ [فصلت]

فهـؤلاء الثلاثة كانوا يظنـون لضحالة فكرهم واهتمامهـم بعظَم أجسامهم وإنْ صغُـرتْ عقولهـم ، كانـوا يظنـون أن الله لا يعلـم كثيراً ممـا يقولون ومما يعملـون ، فظنوا أن الله لا يعلـم مـا أسرُّوه لبعضهم البعض ولم يعلنوه ، وأنه لا يعلم مـا يُخفونه فى داخل صدورهم .

ولكن أحدهم كان أكثر فهماً وإنْ كانوا جميعاً مشتركين فى قِلَّة فقه قلوبهم فقال : إنْ كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا .

والحـق سبحانه بيـده الخَلْق مـن بدايته ، وبيـده سبحانه الوفـاة والمرجع ﴿ وَإِلَيْـهِ الْمَصِيرُ .. (٣) ﴾ [التغابـن] ، وهـذا يتطلب علماً ، فلا بـدَّ من علم ، لأن الذى يصنع صنعةً لابد أنْ يعرف مـا يُصلحها ومـا يفسدهـا ، وذلك يتطلب قدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفى .

لذلـك قـال تعـالى : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيـرٌ .. (٧٠) ﴾ [النحل] ، وقـال : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيـمُ الْقَدِيـرُ .. (٥٤) ﴾ [الروم] ، فالخَلْق نـاشـيء عن علم ، لكن العلم وحده لا يكفى ، فقد تكون عالماً لكنك غيرُ قادر على تنفيذ ما تعلم .

وذلك كمهندس الكهربـاء تجد عنده علمـاً واسعـاً عن الكهربـاء ، لكنه لا يستطيع تنفيـذ شبكـة أو معمل كهربـاء ، فيذهب إلى أحد المموليـن ليعينه على التنفيذ ، لذلك وصف الحق سبحـانه نفسه بـالعلم والقدرة .

والحق سبحـانه يقول هنـا ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٤) ﴾ [التغابن] فهـو سبحـانه الأعلـم والأحكم ، فعلْمه مطلق وحكمتـه مطلقة ، فلا تخفى عليه خـافيةٌ فى الأرض ولا فى السمـاء .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

فعند الله علْم جميع الغيب ويحيط علمه بكلِّ شيء ولا تخفى عليه خافية، فيعلم ما فى السماوات بكلِّ ما فيها من فضاءات وأجرام وشموس ونجوم، يعلم ما يجرى من السحاب الثقال بما يحمله من خير للناس وللأرض وما عليها من دواب.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا .. (٢٧) ﴾ [فاطر]، فهو سبحانه الذى أنزل من السماء ماء، وليس لأحد من خلقه أى دخل فى هذا، لأن الماء إنما يتبخر دون أنْ يدرى الإنسان وعرفنا كيف يتكوَّن السحاب من المطر، ثم ينزل المطر من بعد ذلك.

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. (٥٩) ﴾ [الأنعام] ففى البر من مخلوقات الله ما لا يُعد ولا يُحصى ولا يعلمه إلا الله، وكذلك ما فى البحر، ففيه من أنواع المخلوقات ما لا يحيط به علم إنسان.

والبَرُّ مُحسٌّ لكلِّ إنسان بما فيه من جمادات ونباتات وأشجار وحيوانات وأُناس وبلاد وطرق، وهناك من البلاد ما لا تُطل على بحار أبداً، ولذلك جاء الحق بالبَرِّ أولاً، ثم جاء بالبحر الذى يمكن أنْ يُشاهد.

وعِلْم الله بما فى السماوات والأرض ليس علماً إجمالياً، بل هو علمَ تفصيلى بكل ما يحدث فى السماوات والأرض وما بينهما، فالحق سبحانه يقول:
﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا .. (٥٩) ﴾ [الأنعام]

فالحق سبحانه يعلم كلَّ ما يتعلق بورقة شجرة بعد أنْ تؤدى مهمتها من

التمثيل (الكلورفيلى) وتغذية الشجرة وإنضاج الثمار ثم سقوطها على الأرض .

فالحق سبحانه يعلم أوقات حركة كلِّ ورقة من أية شجرة ، وهذا يدل على كمال الإحاطة والعلم .

﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام] فالله جلَّتْ قدرته يعلم أمر كل كائن فى هذه الحياة ، لأن كلّ كائن فى هذه الدنيا إما رطب وإما يابس .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَـبُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَاوَاتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان]

فلقمان عليه السلام يدلُّ ولده على صفة من صفات الحق سبحانه ، هى صفة العلم المطلق الذى لا تخفى عليه خافية ، فكأنه يقول له : إياك أنْ تظن أنَّ ما يخفى على الناس يخفى على الله تعالى .

وكما أن الله تعالى لا يخفى عليه مثقال حبة من خردل حتى إن كانت فى باطن صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض ، كذلك لا تخفى عليه حسنة ولا سيئة مهما دقَّتْ ، ومهما حاول صاحبها إخفاءها .

فعلْم الحق جلَّ جلاله لا يغيب عنه شيء ، والخردل مثال للصِّغر للدلالة على استقصاء كل شيء .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى مجال علم آخر له سبحانه ، وهو علم ما يُسره الإنسان أو يُعلنه ، فيقول تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ .. (٤) ﴾ [التغابن]

ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) ﴾ [النحل]

والسرّ كما نعلم هو ما حبسْته فى نفسك ، أو ما أسررتَ به لغيرك ، وطلبتَ منه ألا يُعلمه لأحد ، والحق سبحانه يعلم السر بل يعلم ما هو أخفى ، فهو القائل : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

أى أنه سبحانه يعلم ما نُسرُّه فى أنفسنا ، ويعلم أيضاً ما يمكن أن يكون سراً قبل أن نُسره فى أنفسنا ، وهو سبحانه لا يعلم السر فقط بل ما هو أخفى من السر .

فلا يستطيع بشر أنْ يخدع ربَّ العالمين ، فالله عليم بكلِّ شيء ، عليم بما نُخفى وما نُعلن ، عليم بالسر وما هو أخفى من السر ، وهل يوجد ما هو أخفى من السر ؟

نقول : نعم ، السرّ هو ما أسررتَ به لغيرك فكأنه يعلمه اثنان ، أنت ومن أسررتَ إليه ، ولكن ما هو أخفى من السر ما تُبقيه فى نفسك ولا تخبر به أحداً، إنه يظل فى قلبك لا تُسر به لإنسان ، والله سبحانه يقول : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى .. (٧) ﴾ [طه]

وينتقد الحق سبحانه أولئك المنافقين الذين يظنون أن بمقدورهم خداع الله تعالى، فيقول عنهم : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) ﴾ [البقرة]

لذلك قال تعالى فى الآية بعدها : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) ﴾ [البقرة]

ما هو السر وما هو العلن ؟ الأمر المعلن هو الذى يخرج منك إلى مَنْ عنده آلةٌ للسماع ليسمعك ، والأمر المعلن يخرج منك إلى مَنْ عنده آلةٌ للرؤية ليراك، فإنْ كان حركةً بلا صوت فهذا عُدته العين ، وإنْ كان بصوت فعُدته الأذن ،

هذه وسائل الإدراك الأصلية .

أمـا السـر فهو مـا لم تـهمـس بـه إلى غيرك ، لأن همسك للغـير بـالشيء لم يعد سـراً ، ولكـن السر هو مـا تُسـره في نفسك ولا تـهمس بـه لأحد مـن النـاس ، وإذا كـان السر هو مـا تُسره في نفسك فـالعلن هـو مـا تجاهر بـه ، ويكون علنـاً مـا دام قد علمه اثنـان .

والعلن عند النـاس واضح ، والسرّ عندهم أخفى ، والله سبحـانـه يعلم السر والعلن، بل إنـه سبحـانـه يعلم مـا هو أخفى من السر ، ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فـإذا كـان السـر هو مـا تُخفيه في نفسك ولـه واقعٌ داخلك (مـا هـو أخفى) هـو أن الله يعلـم أنك ستفعله قبل أنْ تفعلـه ، ويعلم أنـه سيحدث منك قبل أنْ يحدث منك .

وقـد يجعـل الله عز وجـل الإخفـاء مقـابلاً للإعـلان ، فيقول تعـالى : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل]

وهذه الآية تُرجعنـا مرة أخرى إلى ارتبـاط علم الله مـا في السمـاوات والأرض بعلم مـا يُخفى الإنسـان أو يُعلنه ، فـالمراد بـالخبء في السمـاوات المطر ، والخبء فـى الأرض النبـات ، ومنهمـا تـأتى مقوِّمـات الحيـاة ، فمن مـاء المطر وخصوبة الأرض يـأتى النبـات ، وعلى النبـات يتغذَّى الحيوان ويتغذَّى الإنسـان .

بـل إن : ﴿ اللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) ﴾ [التغابن] فكلمـة « ذات الصدور» معنـاهـا صـاحبـة الصـدور ، وفى الصـدر يحرص الإنسـان على إخفـاء الأمر

(١) الخبء : كل مـا غـاب . كل مـا خبأته فـهو خبء . فمعنى ﴿ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٢٥) ﴾ [النمل] قال ابن قتيبة : أي المستقر فيهما . خبء السماوات : المطر وخبء الأرض : النبات. (زاد المسير لابن الجوزى – سورة النمل آية ٢٥) .

الذى يجب أنْ يحتفظ به لنفسه بحرص كحرص الصاحب على صاحبه ، كأن الصدر حريصٌ على ألاَّ يسلم ما فيه ، ولكن الله سبحانه يفضحهم أمام الناس ويفضحهم أمام نفوسهم ، فقد يجوز أنْ يكونوا مغشوشين فى نفوسهم .

فيقصد بـ (ذات الصدور) أى المعانى التى لا تفارق الصدور ، فهى صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء كانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية ، سواء أكانت نية حسنة أو نية سيئة .

والحق سبحانه يعطينا صورة لهؤلاء الذين يظنون أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم ، أو أنه لا يعلم ما تكنُّه صدورهم ، أو أنهم يخفوْنَ على الله فيقول تعالى : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ[1] ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) ﴾ [هود]

فحين يثنى الإنسان صدره فهو يثنيه إلى الأمام ناحية بطنه ويدارى بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء الملامح ، لأن انفعال مواجيد النفس البشرية تنضح على الوجوه .

وهم قد استغشوا ثيابهم ليغطوا وجوههم مداراةً للانفعالات التى تحملها هذه الوجوه .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) ﴾ [آل عمران]

فإخفاء ما فى الصدور هو الذى يعلمه الله ، أما إبداء ما فى الصدر فإنه

---

(١) يستغشون : يأوون إلى فراشهم ويتدثرون بثيابهم ، وذلك أن بعض الكفار كان إذا مرّ به رسول الله ﷺ ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول الله . [فتح القدير للشوكانى ٣/٤٢٥].

قـد علمه أحدٌ غير الله ، لذلك كان مـا يُخفيه الإنسان فى صدره هو محضُ علم الله سبحانـه لا يطلع على ما فى صدر الإنسـان إنسانٌ آخر ، أما الله الذى خلق الإنسان فهو يعلم ما فى الصدور .

ولاحـظ أن الله بعـد كلامه عن علـم الله لما تُخفيه فى صـدرك أو تُبديه لفت نظرنا إلى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (٢٩) ﴾ [آل عمران]

والحـق سبحانه هو العليم الذى يعلم كلَّ شيء خافياً كان أو ظاهراً ، والعلم كله منه سبحانه ، وهو سبحانه العليم بنيتنا ومدى إخلاصنا ، وهو العليم بما يُدبِّره الكافرون والمنافقون ، بل يعلم ما فى صدورهم قبل أنْ ينطقوا به .

وبـاستحضـار الإنسـان لصفة الله واسمه العليم ينضبـط سلوكه فى الحياة؛ لأنـه يعلـم جيداً ويُوقـن أن الله عليم بما يعلنـه وبما يُسره ، وبمـا يستكنُّ فى صدورهم.

ويعطينـا الحـق سبحانه مثالاً لهذا ، فيقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) ﴾ [البقرة]

فـالحـق سبحانه يفترض وهـو الأعلم بنفوس عباده أنَّ الموصى قد لا يكون علـى حق ، والوارث قد يكون على حق ، لذلك احتاط التشريع لهذه الحالة ، لأن الموصَى له حين يأخذ حظَّه من الوصية سينقص من نصيب الوارث .

ولذلـك يريد الحق سبحانه أنْ يعصم الأطـراف كلها ، إنه يحمى الذى وصَّى والموصـى له والوارث ، ومن هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) ﴾ [البقرة]

فالموصِـى قد برئتْ ذمته ، أما ذمـة الموصَى له والوارث فهى التى تستحق

أنْ تنتبه إلى أنَّ الله يعلم خفايا الصدور، وهو السميع العليم.

وفى مجال آخر يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه سميع باليمين الذى حلفته، والله عليم بنيتك إنْ كانت خيراً أو شراً، فلا تتخذ اليمين حُجة لأن تمنع البر والتقوى والإصلاح.

وعلم الله ذاتى، أما علمُ الإنسان فقد يكون أثراً من ضغط الأحداث عليه فيفكر الإنسان فى تقنين شيء يُخرجه مما يكون فيه من شرّ، ولكنّ علم العليم الأعلى سابقٌ على ذلك لأنه علم ذاتيّ.

وما دام علمُ الله ذاتياً، وما دام سبحانه هو الحق العليم بما تُخفى الصدور فهو قادر ليس فقط على الجزاء بما يفعلونه من عمل نزوعى، ولكنه قادرٌ على أنْ يُجازيهم أيضاً بأنْ يفضح الأعمال غير النزوعية الكامنة فى صدورهم.

وأكثر ما يكون العلم يكون لما لا يبدو من أمر الناس، سواء كان مسموعاً أو مرئياً، لذلك قرن الحق سبحانه السمع بالعلم، فقال: ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) ﴾ [المائدة] فالسميع تدلّ على قوْلٍ قيل فسُمع، أما كلمة (العليم) فتدلّ على شيء يدور فى الخواطر.

فإنْ كان قد حصل كلامٌ فهو قد سمعه، وإنْ كانت قد دارتْ خواطر فى النفس فهو يعلمها، لأن العاقل قبل أنْ يتكلم لابد أنْ يدير الكلام فى النفس، وكل كلام يُقال لابدّ له من نزوع، هذا النزوع يعلمه الله، وهو سبحانه العليم أزلاً وأبداً.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾ [الإسراء] فالسميع

لمـا يُسمـع والبصير لما يُرى ، أما العليم فهو لمـا لا يُسمع ولا لما يُرى ، بل هو لمكنونـات النفس ، فسبحانـه يسمع قوْل مَنْ لا يستطيـع ولا يملك القدرة على سلوك ما ، وسبحانه بصير يرى صاحب كلِّ سلوك .

أمـا النيـة فهذه تحتـاج إلى علم العليم وخبرة الخبـير سبحانه ، يقولَ ﷺ : « إنمـا الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امريء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[١] .

وكذلك كل فعل نيتك فيه يعلمها الله سبحانه ، فالذى يمسح على رأس اليتيم مثـلاً يكون صاحب حـظ عظيم فى الثواب[٢] ، ومَنْ يكفـل اليتيم فهو مع النبى ﷺ[٣] .

لكـن الـذى يُقـدِّر ذلك هـو الله سبحانـه العليم بخفايـا الإنسـان حسب نية الشخص الـذى يقوم بهـذا العمل، فقد يتقـرب واحد من يتيـم ويتكلف العطف والحنان بينما هو يقصد التقرب إلى أم اليتيم[٤] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١) كتاب بدء الوحى ، وكذا أبو داود فى سننه (٢٢٠٣) وابن ماجه فى سننه (٤٢٢٧) والبيهقى فى سننه (١٨٤ ، ١٥٣٩١) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٧٥٦٦ ، ٩٠٠٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له : « إن أردت تليين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم » وكذا أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى (٧٣٤٥) .

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة » وأشار مالك بالسبابة والوسطى . أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٦٦٠) وأحمد فى مسنده (٨٨٦٨) .

(٤) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٧٦٣) أن عروة كان يحدِّث أنه سأل عائشة رضى الله عنها ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ .. (٤)﴾ [النساء] قالت : هى اليتيمة فى حجر وليها فيرغب فى جمالها ومالها ويريد أن يتزوجها بأدنى من سنة نسائها فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن من النساء . قالت عائشة : ثم استفتى الناس رسول الله بعد ، فأنزل الله ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ.. (١٢٧)﴾ [النساء] .

لذلك فمناط الجزاء ومناط الثواب هو فى النية الدافعة والباعثة على العمل، لذلك خذوا بالكم واجعلوا مسح رأس اليتيم لله ، ليس للتقرب من أمه الجميلة مثلاً .

والنية لا تكون لله ولا تكون صالحة إلا إذا اقترن هذا بتقوى الله ، يقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) ﴾ [المائدة]

فالتقوى لا تنشأ من الأفعال المحسَّة المدركة فقط ، بل تنشأ أيضاً فى الأحوال الدخيلة المضمرة ، ومثال ذلك نية سيئة ونية حسنة ، فالحقد والحسد والتبييت والمكر ، كلّ ذلك صفات سيئة وهى خبيئة النفس ودخيلته وذات صدْر الإنسان يعلمها الله من نفوسنا .

وتقوى الله تجعلُك تُطهِّر نفسك من هذه الصفات السيئة ، ليكون سلوكُك مبنياً على تقوى الله وعلى اليقين أنَّ الله يعلم ما فى نفسك حتى قبل أنْ تنطق به أو تمارسه فعلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾

ساعة يقول: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ .. (٥) ﴾ [التغابن] فهنا همزة الاستفهام ، ولم للنفى ، والهمزة تنفى هذا النفى ، أى : أتاكم نبأ هؤلاء ، وحين يُنفَى النفى لأمر فالمراد إثباتُ الأمر .

وأنت لا تستفهم الاستفهام الإنكارى إلا وأنت واثق من أنَّ الجواب عند مَنْ تسأله هو : نعم . فحين تقول لإنسان : أنت تخليتَ عنِّى فى محنتى . فيقول : ألم أَزُرْكَ فى يوم كذا ؟ ألم أُعطك كذا ؟ ألم أصنع مع ابنك كذا ؟

فهو واثق أنك لا تستطيع إنكارَ شيء من هذا لأنه ثابتٌ ثبوتاً حقيقياً .

ونلحظ أن الحق سبحانه جاء هنا بالخطاب للمخاطب ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ .. (٥) ﴾ [التغابن] ، وذلك مثل قوله سبحانه مخاطباً الجن والإنس : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى .. (١٣٠) ﴾ [الأنعام]

ومثل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

والخطاب من بداية سورة التغابن هو للمخاطب : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، ثم قال : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٣) ﴾ [التغابن]

فصيغة المخاطبة مستمرة ، فخاطب أولاً الكافرين ثم تحدَّث عمّن آمن، لذلك عندما قال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ .. (٢) ﴾ [التغابن] وأراد أنْ يخاطب خَلْقه قال : ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن]

وما دام الحق سبحانه يخاطب الكافرين ، فيقول : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ .. (٥) ﴾ [التغابن] فيكون الاستفهام هنا للتقريع والتبكيت لمن كذّب وكفر .

وقوله سبحانه ﴿ نبأ ﴾ يدل على أهمية ما يريد أنْ يلفتهم إليه ، فكلمة (نبأ) لا تأتى إلا فى الخبر العظيم ، والنبأ هو الخبر المهم ، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر ، ولكن نطلقه على الخبر اللافت للنظر .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) ﴾ [النبأ] إذن: فكلمة نبأ هى الخبر المهم الشديد الذى له وَقْع وأثر عظيم .

فليس كلُّ خبر نبأ ، ذلك أن هناك الكثير من الأخبار التافهة التى يتساوى فيها العلم الذى لا ينفع بالجهل الذى لا يضر . فالنبأ إذن هو الخبر العظيم المدهش ، الذى له جدوى اعتبارية ، ويمكن أن ننتفع به وليس مطلق خبر .

والنبأ أصله من نبا ينبو نبْوة ، والنبوة الأمر الواضح الظاهر وليس مطموساً، ولذلك فكل شيء هام ظاهر قد حدث يُقال عنه : نبأ .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر] فالإنباء هنا بأمر خطير له خطورته ، ولا يقال (نبىء) فى خبر بسيط لا قيمة له .

ومن الأنباء العظيمة قوله ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ﴾ [ص] فنبأ الآخرة نبأ عظيم ، لا يجب أنْ نغفل عنه ، بل نجعله نُصْب أعيننا ونستعد له ، لا أنْ نُعرض عنه ونتجاهله بسلوكنا فى مسالك تُوردنا المهالك .

فالنبأ يجب أنْ يُنصت له ، وأنْ تُؤخذ منه العبرة والعظة ، لأنه خبر هائل يهز الدنيا كلها ويملأ الأسماع .

والحق سبحانه إنما قال : ﴿ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٥) ﴾ [التغابن] ولم يقل : أنباء الذين كفروا . فأفرد النبأ رغم أن الذين كفروا جمع وأقوام كثيرة ، حتى عندما ذكر الحق سبحانه الأقوام الذين كفروا قال :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ[١] وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ

---

(١) مدين : مدينة كانت موجودة فى شمال غرب الجزيرة العربية منطقة البدع حاليا تابعة لمنطقة تبوك شمال غرب المملكة العربية السعودية وكان أهلها يعملون بالتجارة ، وقد كانوا ينقصون المكيال والميزان ، فأرسل الله إليهم شعيباً نبياً ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ .. (٨٤) ﴾ [هود] .

يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾ [التوبة]

فأفرد (نبأ) وهذا إشارة إلى أن فعل الكفر منهم برسله هو فعل واحد وإنْ تعددت الرسل ، وكما نقول (ملة الكفر واحدة) .

أما عندما ذكر الرسل قال ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود] فقال (أنباء) بالجمع ، لأن الكلام هنا يتعلق بتجربة كل رسول مع قومه ، فما قاساه نوحٌ مع قومه غير ما قاساه صالح أو هود أو موسى أو عيسى أو إبراهيم .

كلٌّ له قصة مختلفة ، لذلك كان قصصهم (أنباء) ، ثم إن أخبار الرسل عليهم السلام تتناثر لقطات مختلفة عبْر سور القرآن الكريم ، مُوضِّحة ما جاء به كلّ رسول معالجاً الداء الذى عانى منه قومه ، وكذلك ما عاناه كلُّ رسول من عَنَت القوم المبعوث لهم .

وجاء ذِكْر تلك الأنباء فى القرآن لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، لأن الرسول سيصادف فى الدعوة المتاعب والمصاعب .

ولكن كيف سيأتيهم نبأ الذين كفروا ؟ نقول : أهل قريش كانوا أهلَ تجارة وكانت لهم رحلتان فى العام ، إحداهما فى الصيف إلى الشام ، والأخرى فى الشتاء إلى اليمن .

قال تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]، وقد أعطى الله لقريش السيادة ، لذلك كانت قوافلهم تذهب بالتجارة لليمن والشام ولا يجرؤ أحدٌ من القبائل أنْ يتعرَّض لها .

فعزّ قريش فى بيت الله الحرام وأمنهم وسيادتهم فى أنهم جالسون فى راحة، وتتنقل قوافلهم إلى الشام وإلى اليمن ، ثم تعود مُحمَّلة بالخير والربح وهم آمنون مطمئنون .

وهـم فى تجارتهم هذه كانـوا يسمعون بقصص الأمم السابقة ، وما حدث للأقـوام من قبل ، وكان سير قريش بقوافلهـا إلى الشام واليمن يجعلها قادرة علـى أن تـرى آثار المكذِّبين سـواء من أهل ثمود أو قوم عـاد أو غيرهم ، وكان عليهم أنْ يأخذوا العبرة فى أثناء سعيهم لتجارتهم .

يقـول الحـق سبحـانه : ﴿ قُـلْ سِيرُوا فِـى الْأَرْضِ ثُـمَّ انْظُرُوا كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِـينَ (١١) ﴾ [الأنعـام] فـالغرض من السير الاعتبـار والاتعاظ ، ولابد إذن منِ وجود بقايا وأطلال تدلّ على هؤلاء السابقين المكذبين أصحاب الحضارات التى أصبحتْ أثراً بعد عين .

فهـؤلاء الذيـن سبقوكم بقيتْ لهم مساكن ، فمَنْ شـاء أنْ يذهب إليها ليتأكد فليذهـب ، ولا تـزال مدائن صالح ، ولا تزال هناك آثار عاد ، وكلّ مكان فيه أثر من الآثار .

ولذلك يوضح الحق سبحانه : فإنْ كنتم تريدون التأكد من ذلك فأنا قد أخبرت، ومَـنْ آمـن بى فليُصـدق خبرى ، ولغـير المؤمن ولمـن يريد اطمئنـان قلبه، يقول سبحـانه : ﴿ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ [النحل]

وقـد قال تعالى عنهـم : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِـينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُـونَ (١٣٨) ﴾ [الصافـات] فقـد كنتـم تمرون على آثارهم فـى سدوم صباح مسـاء، فـى رحلاتكـم وأسفاركم وفـى تجارتكم فى رحلـة الشتـاء والصيف ، وتشاهدون آثارهم وما تبقَّى من ديارهم .

فأنتـم تمرون على تلـك الأماكن التـى أقامها بعضٌ ممـن سبقوكم وظلموا أنفسهم بالكفر ، وأنزل الحق سبحانه عليهم العقاب .

وقـد قال تعالى عـن مساكن سدوم ، وهى مساكن قوم لـوط الذين نزل بهم

العذاب : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) ﴾ [الحجر] أى : أنها على طريق ثابت تمرُّون عليه إنْ ذهبتم ناحيةَ هذا المكان .

فهذه المدينة إذن فى طريق ثابت ، لن تضيعه عوامل التعرية أو الأغيار ، ولن تضيعه تلك العوامل إلا إذا شاء الحق سبحانه ذلك ، فأنتم أهل سَيْر وترحال، وأهل نظر فى مصير من قبلكم ، فكيف يقبل منكم الانصراف عن آيات الله ؟ وكيف لا تعقلون آيات الله ؟ وكيف لا تحرك قلوبكم ؟!

حتى أن الله قال عنهم : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) ﴾ [الفرقان] والقرية التى أمطرت مطر السوء هم سدوم[1] قرية قوم لوط ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا .. (٤٠) ﴾ [الفرقان] أى : أفلم يشاهدوها فى أسفارهم ؟

وهى مشاهد ليست مجرد تاريخ يحكيه القرآن ، بل هى مشاهد ومَرَاء رآها كفار مكة فى رحلة الصيف يمرُّون على هذه الديار فيجدونها خاوية : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا .. (٥٢) ﴾ [النمل]

وقد روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : مررنا مع رسول الله ﷺ على الحِجْر[2] ، فقال لنا رسول الله : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ، حذراً أنْ يصيبكم مثل ما أصابهم . ثم زجر[3] فأسرع حتى

---

(١) مدينتا سدوم وعمورية مدينتان تقعان فى وادى سديم ، فتقع مدينة سدوم جنوب شرق البحر الميت فى غور الأردن .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) ﴾ [الحجر] فأصحاب الحجر هم ثمود . قال ابن عباس : كانت منازلهم بالحجر بين المدينة والشام . وقال ابن جرير : هى أرض بين الحجاز والشام . وقال الشيخ الشعراوى : كانت المنطقة التى يقيمون فيها كلها من الحجارة ولا يزال مقامهم معروفاً فى المسافة بين خيبر وتبوك.

(٣) زجر الراعى النَّعَم : صاح بها . وزجر البعير : حثّه على السرعة .

خلّفها »[١] .

فالمسلم الحق تجده ذاكراً الله عز وجل ، فى حِلّه وترحاله ، دارساً لتاريخ الأمم من قبله ، عارفاً ما حلَّ بهم ، مُتقياً أنْ يقع فيما وقعوا فيه فاستحقوا عذاب الله .

حتى إذا مرَّ على آثار ومواقع ومساكن مَنْ نزل بهم العذاب عليه أنْ لا يدخلها إلا إذا كان مُستحضراً ما نزل بهم ، باكياً داعياً الله أنْ لا يصيبه وقومه ما أصاب هؤلاء .

وقد كان رسول الله الحريص على أمته حريصاً على هذا ، وحدث أنْ كان رسول الله ومعه الصحابة فى غزوة تبوك ، وهى شمال المدينة المنورة على بُعْد كبير منها على طريق الشام .

يقول ابن عمر : « مررنا مع رسول الله على الحِجْر » وقد قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠)﴾ [الحجر]

وأصحاب الحجر هم قوم صالح . وكانت المنطقة التى يقيمون فيها كلها من الحجارة ولا يزال مقامهم معروفاً بين خيبر وتبوك ، وقال فيهم الحق سبحانه : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)﴾ [الشعراء]

وقوم صالح هم ثمود الذين قال الله فيهم ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩)﴾ [الفجر] وكانت إمكانات ثمود أكبر من إمكانات قريش ، فقريش لا سيادةَ لها إلا بسبب وجود الكعبة ، ولو كان الحق سبحانه ترك أبرهة يهدم الكعبة لما مكّن لهم فى الأرض.

لقد كان قوم صالح مساكنهم فى الصخر ، وهم قوم كانوا نابغين فى نحت

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٦٥٦) وأورده ابن الخراط الإشبيلى فى كتابه (الأحكام الشرعية (٣/٣٥٤) وعزاه لمسلم ، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (٦١٩٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

بيوتهم فى الجبال ، ومَنْ يزُر المنطقة الواقعة بين الشام والمدينة يمكنه أنْ يشاهد مدائن صالح وهى منحوتة فى الجبال .

قال الحق سبحانه فيهم : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) ﴾ [الشعراء]
وقد كفروا بصالح عليه السلام رغم أنهم طلبوا منه أنْ يأتيهم بآية وحددوا الآية ناقة عُشَراء تخرج من صخرة معينة حددوها[1] .

ولكنهم عقروا الناقة ، وعَقْرهم الناقة كان علامة نزول العقاب والعذاب بهم ، قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ[2] ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود]

فتلك مساكن الذين ظلموا كانت دليلاً وما زالت على دعوة الحق التى رفضها قوم ثمود وقوم عاد وقوم لوط ، وكان من الواجب على المارِّ بها الاعتبار بها، وألاَّ يمرّ عليها مرورَ اللاهى الغافل .

وهم إنما ظلموا أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

ومعنى قول رسول الله ﷺ : « إلاّ أنْ تكونوا باكين » أى : لا تدخلوها ولا تمرُّوا بها إلا وأنتم مُتعظون بما ترونَه من رسومٍ دارسة وآثار قد تركها مَنْ سكنوها ، أو أميتوا داخلها وفيها .

وذلك حذراً وخوفاً من أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فاحذروا أنْ يصيبكم ما أصابهم ، فلستُم أشدَّ منهم قوة ولا مَنَعة ولا بطشاً ولا جبروتاً .

(١) ناقة عشراء : مضى لحملها عشرة أشهر .

(٢) أخرج سنيد وابن جرير والحاكم عن عمرو بن خارجة عن رسول الله ﷺ قال : كانت ثمود قوم صالح أعمرهم الله فى الدنيا .. وفيه : فقال صالح لقومه : لكل رغوة أجل فتمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، ألا إن آية العذاب أن اليوم الأول تصبح وجوهكم مصفرة ، واليوم الثانى محمرة واليوم الثالث مسودة . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٥٨) .

وقد زجر رسول الله ناقته عند المرور بمساكن ثمود ، فنخس ناقته لتسرع السير لتخرج من هذه البقعة التى نزل عليها عذاب الله ، فأسرعت الناقةُ حتى خلَّفها أى حتى تجاوز مساكن قوم ثمود المنحوتة فى الجبال .

وقد طالب الله قريشاً بالإيمان بمحمد وبالقرآن الذى أنزله الله عليه ، ولكن الكثيرين منهم كفروا وحاربوه ، ولذلك ذكَّرهم الحق سبحانه بما يرونه صيفاً وشتاءً ، صباح مساء من ديار الأقوام السابقين .

وهم أتاهم نبأ الذين كفروا من قبل من عدة طرق ، فهم لم يكونوا فقط يمرُّون على ديار المعذّبين من الأقوام السابقة ، بل سكنوا فى مساكنهم ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) ﴾ [إبراهيم]

فأنتم لم تتعظوا بالسوابق التى ما كان يجب أنْ تغيب عنكم ، فأنتم تمرون فى رحلات الصيف والشتاء على مدائن صالح . وترون آثار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك ، وتمرون على الأحقاف ، وترون ماذا حاق بقوم عاد .

وكلُّ أولئك نالوا العقاب من الله ، سواء بالريح الصرصر[1] العاتية ، أو أرسل على بعضهم حاصباً من السماء ، أو أنزل عليهم الصيحة ، أو أغرقهم كآل فرعون وأخذ كلّ قوم من هؤلاء بذنبه .

فالحق سبحانه يوضح أنَّ مشيئته فى إنزال العقاب قد وضحتْ أمام الذين عاصروا رسالة محمد ﷺ فى مساكن الأقوام التى سبقتْهم وكفروا برسالات الرسل .

والنبأ الذى أتاهم هنا ليس أيّ نبأ فى العموم ، إنما هو: ﴿ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) صرصر لصوت الريح الشديدة . وقال الأزهرى فى (الصحاح فى اللغة) : ريح صرصر أى باردة . ريح صرصر : مبالغة فى الشدة . صرصر : ريح شديدة البرد جداً . والصر : البرد الذى يضرب كل شيء ويحسُّه .

مِنْ قَبْلُ.. (٥)﴾ [التغابن]

فـ: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٥)﴾ [التغابن] أى: ستروا الإيمان بالله ورسوله، هؤلاء يختم الله بكفرهم على آلات الإدراك كلها، القلب والسمع والبصر، فالكفر هو محاولة ستر وجود الله واجب الوجود، ومحاولة الستر هذه هى إعلان بأن الله تعالى موجودٌ، فأنت لا تحاول أنْ تستر شيئاً إلا إذا كان له وجود أولاً .

وسنة الله فى أرضه أنَّ الذين كفروا برسالات الله فى الأرض يتلقون بعض العذاب فى الدنيا، لأن الله لا يدخر كلَّ العقاب للآخرة وإلاَّ لشقى الناس بالكافرين وبالعاصين، ولذلك فإن الله يُعجل بشيء من العقاب للكافرين والعاصين فى هذه الدنيا .

﴿ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا (٦٢)﴾ [الأحزاب]

والسنة هى الناموس الحاكم لحركة الحياة، فنبأ الذين كفروا من قبل عرفنا منه ما حدث للذين أطاعوا رسلهم، وما حدث للذين كذَّبوا رسلهم .

قال الحق سبحانه فى شأنهم : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

وهذه عقوبات نزلتْ بمَنْ كفر ممنْ سبقوهم، وحدثتْ لهم أحداث يعلمونها، فهل هم ينتظرون أياماً مثل هذه، يقول تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢)﴾ [يونس]

فما كان يصح لهم أنْ يستمرئوا الكفر حتى لا تتكرر معهم مآسٍ كالتى حدثتْ لمن سبقهم إلى الكفر .

ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه قد جمع العقوبات التى نزلتْ بالكافرين ممن

سبق رغم اختلاف أزمانهم وسبب نزول العقاب بكلٍّ منهم ، فجمعهم سبحانه فى آية واحدة ، وذلك لأنهم طائفة واحدة .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] ليس ظلماً ولا جبروتاً ولا جُزافاً، إنما جزاءً بذنوبهم وعدلاً ، لذلك قال تعالى فى تذييل الآية : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] والحاصب هو الحصى الصغار تُرمى لا لتجرح ، ولكن يُحمى عليها لتكون حامية وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً ، لأن النارَ ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع أمله ، لكنّ رميهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم .

﴿ وَمِنْهُم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] وهو الصوت الشديد الذى تتزلزل منه الأرض ، وهم ثمود : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] أى قارون . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] وهم قوم نوح وفرعون .

وهذه وسائل أربعة لإهلاك المكذبين : النار فى الحصباء ، والهواء فى الصيحة ، والتراب فى الخسف ، ثم الماء فى الإغراق .

وهم بدل أنْ يتعظوا بمَنْ سبقوهم تجد رجلاً منهم اسمه عمرو بن لحي[1] سافر إلى بلاد الشام ، فوجد أوثاناً وأصناماً فنقل منها صنماً يُقال له (هبل) نقله إلى مكة ، وكان هو مَنْ أدخل الأصنام إلى مكة ، فالأصنام التى عبدوها جاءتهم من الروم ونصبوها حول الكعبة بيت الله .

---

(١) عمرو بن لحى كان من خزاعة وكان سيد مكة ، يعد أول من غيَّر دين إبراهيم (الحنيفية) ، حيث إنه أدخل الأصنام لتُعبد من دون الله بالجزيرة العربية ، من بلاد الشام ، وابتدع كل شيء خارج عن حنيفية إبراهيم ، فسيَّب السائبة وبحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحام . [ويكيبيديا] .

وقول الحق سبحانه: ﴿ مِنْ قَبْلُ .. (٥) ﴾ [التغابن] هو طمأنة لرسول الله ﷺ ، فإنهم ليسوا أوّلَ من كذّب رسولهم ، فالأقوام من قبلهم كذّبتْ رسلها .

يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾ [الحج] ، فأنت لستَ فى ذلك بدعاً من الرسل ، فقد كُذِّب كثيرٌ من الرسل قبلك .

ولا يجب أنْ ننظر إلى مسألة التكذيب منفصلة عن عاقبته ، نعم كذَّب القوم لكن كيف كانت العاقبة ؟ أتركناهم أم أخذناهم أخْذ عزيز مقتدر ؟

فلا تحزن فسوف يحلُّ بهم ما حَلَّ بسابقيهم من المكذِّبين والمعاندين مثل : ﴿ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾ [الحج]

فأمليتُ لهم وأمهلتُهم حتى ظنّوه إهمالاً ، أعطاهم الفرصة والوقت كاملاً ليؤمنوا ويهتدوا ، ولكن كيف يؤمنون وهم مجرمون لا يكتفون بأنهم ضلُّوا ، بل يريدون إضلالَ مَنْ آمن ؛ فنزل بهم عقاب الله .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ .. (٥) ﴾ [التغابن] والوبال : هو الثقل والعاقبة الوخيمة . ولكى تعرف معنى إذاقة الوبال اقرأ قوْل الحق سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً [1] كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

ونعلم أن الذى يُذاق هو الطعم ، والطعم يكون باللسان وحده ، أما اللباس فيعم كلّ الجسم ، والحق سبحانه هنا يعطى الإذاقة ولا يكون الذائق هو الفم

---

(١) القرية :مكة . قاله ابن جرير الطبرى [تفسير سورة النحل ١١٢] ذكره عن مجاهد بن جبر وقتادة. ولكن الطبرى ذكر أقوالاً أخرى منها المدينة مدينة رسول الله . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (١٣٢/٤) أن هذا على سبيل التمثيل لا على وجه التفسير . ولكن ذكر قولاً آخر وعزاه للحسن البصرى قال : إنها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز ، فبعث الله عليهم الجوع حتى كانوا يأكلون ما يقعدون .

فقط بل كل الجسم ، فالفم إنما يتناول لصالح بقية الجسم ، وعندما لا تصل مادة الحياة إلى بقية الجسم ، فكلّ الجسم يذوق الجوع أيضاً .

والحق سبحانه جعل كلّ جارحة فيهم تذوق الوبال فتذوق العذاب ، ويجعل لكلٍّ عضو فى الجسم حساسية الذَّوْق كالتى فى اللسان ، وهذه هى الإذاقة كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإذاقة أشدّ الإدراكات تأثيراً ، واللباس أشمل للجسد .

فكأنَّ الإذاقة تتعدى إلى كلِّ البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق .

ودقة الأسلوب القرآنى جاء بقوله : ﴿ فَذَاقُوا .. (٥) ﴾ [التغابن] والذوق غير البلْع والشِّبع ، والعذاب الذى رآه الكفار على أيدى المؤمنين فى غزوة بدر كان مجرد ذوْقٍ هيّن جداً بالنسبة لما سوف يروْنه فى الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم ، وسيأتى الشِّبع من العذاب فى الآخرة .

قال تعالى مخاطباً مشركى قريش بعد هزيمتهم فى غزوة بدر : ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) ﴾ [الأنفال]

فـ : ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الأنفال] هنا إشارة لما حدث فى بدر من ضرب المؤمنين للكافرين فوق الأعناق ، وضرْب كل بنان[1] كافر : ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ﴾ [الأنفال]

والكافرون فى كل زمن ذاقوا وبالَ أمرهم ، أى شأنهم الذى هم فيه من الكفر والجحود والتكذيب والخروج عن منهج الله ورفَضْ طاعة مَنْ أُرسل إليهم من الرسل .

---

(١) البنان الأصابع أو أطراف الأصابع . قيل : سميت بذلك لأن بها إصلاح الأحوال التى تمكّن الإنسان أن يبنّ فيما يريد . وقال الزجاج : الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء . وقال الليث : البنان فى كتاب الله تعالى ، هو الشّوى وهى الأيدى والأرجل . [تاج العروس للزبيدى – مادة : بنن] .

هذه الإذاقة يذوقونها فى الدنيا ولكن فى الآخرة : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ﴾ [التغابن] ، فليت الأمر يقتصر عند حَدٍّ عذاب الدنيا ، ولكن ينتظرهم فى الآخرة عذابٌ أليم غير العذاب الذى عانوه .

ومعنى ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ﴾ [التغابن] أى مؤلم ، كأنّ هناك عذاباً فقط ، ثم يأتى عذابٌ أليم مُوجع مؤلم شديد بل هو الأشد ، ونحن فى أمثالنا نقول (ضربه فين يوجعه) .

فكأن (أليم) يُقصد بها إيقاع العذاب فى المواطن التى تسبب للإنسان أشدَّ الألم ، ولابد أنْ نأخذ قوة الحدث بفاعل الحدث .

وفى حياتنا العادية عندما يُقال : صفع الطفلُ فلاناً الرجل ، نفهم بطبيعة الحال أن صفعة الطفل تختلف فى قوتها عن صفعة الشاب ، وكذلك صفعة الشاب تختلف عن صفعة بطل فى الملاكمة .

إذن : فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوةً وضعفاً على المفعول به الذى هو مناط الحدث ، فإذا كان فاعل العذاب هو الله فلابدّ أنْ يكون عذاباً أليماً ولا حدودَ لألمه ، أنجانا الله وإياكم منه .

والعذاب له جهات متعددة ، فقد يوجد عذاب أليم مؤلم ، ولكن المعذَّب يتجلَّد أمام مَنْ يُعذِّبه ويظهر أنه ما زال يملك بقيةً من جَلَد ، إنه يتألم لكنه يستكبر على الألم .

ولذلك قال الشاعر(١) :

وَتجلُّدِى لِلْشَّامِتينَ أُرِيهُمُو ... أَنِّى لريْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتضَعْضَعُ(٢)

---

(١) الشاعر هو أبو ذؤيب الهذلى ، شاعر مخضرم ، وكان له سبعة أولاد فماتوا كلهم إلا طفلاً . أسلم على عهد النبى ﷺ إلا أنه لم يره . وهو خويلد بن خالد بن محرث ، سكن المدينة واشترك فى الغزو والفتوح ، عاش إلى أيام عثمان وشهد فتح إفريقية (تونس) . مات ٢٧ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢/٣٢٥] .

(٢) هو من قصيدة من مشهورات المراثى من بحر الكامل .

فالتجلُّد هو نوع من الكبرياء على الواقع، لذلك يأتيه عذابٌ من نوع آخر، وهو العذاب العظيم أى العظيم فى كميته وقدره، وأليم فى وقعه ومهين فى إذلال ودَكّ النفس البشرية وغرورها.

فيُقال للمُعذَّب ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] وهذا هو العذاب المهين لغرور مَنْ كفر واستكبر واستعلى على الله سبحانه ورسله، فلو كان الكافرُ عزيزاً كريماً عند نفسه لما كفر ولمَا استقرَّ فى الجحيم.

﴿ ذُقْ .. (٤٩) ﴾ [الدخان] أى ذُقْ طَعْم الإهانة والمذلَّة، لا مما يُطعم أو مما يُشرب، ولكن بالإحساس، وهو أشدّ وأقسى وأعظمُ إيلاماً، وقانا الله شرَّ النار وعذابها وطُول القيام للعرض والحساب.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾

لابد أنْ نعرف أنَّ (ذلك) ليست كلمة واحدة، وإنما هى ثلاث كلمات. (ذا) اسم إشارة. و (اللام) تدل على البُعد. و(ك) لمخاطبة الناس.

وكلمة (ذلك) هنا إشارة إلى سبب العذاب الذى وقع بهم، فهى إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ .. (٥) ﴾ [التغابن]، فما وقع بهم لم يكُنْ ظلماً لهم، بل كان بسبب فعلهم وصُنْعهم هم.

وهذا مثل قوله سبحانه: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) ﴾ [المائدة]

فلعنُهم وإخراجهم من رحمة الله كان بسبب عصيانهم وتجاوزهم لأوامر الله واعتدائهم ، وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ[1] وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ .. (٦١) ﴾ [البقرة] ثم قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ثم قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

ويخاطبهم الحق سبحانه فيقول : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا[2] إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران]

ثم يقول : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾ [آل عمران] فـ (ذلك) إشارة إلى عذاب الحريق ، والحق سبحانه لم يظلمهم ،

---

(١) الذِّلة : الصَّغار وهي ضد العزة . أما المسكنة فهي الفقر والحاجة مشتقة من السكون لأن الفقر يقلل حركة صاحبه . [التحرير والتنوير] وقال ابن عطية في تفسيره [المحرر الوجيز ١/٨٨] : الذلة : فعلة من الذل كأنها الهيئة والحال . والمسكنة من المسكين . قال الزجاج : « هي مأخوذة من السكون وهي هنا زي الفقر وخضوعه ، وإن وجد يهودي غني فلا يخلو من زي الفقر ومهانته ».

(٢) عن ابن عباس قال : (دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص وكان من علمائهم وأحبارهم فقال أبو بكر : ويلك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنّا عنه لأغنياء ولو كان غنياً عنا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد انظر ما صنع صاحبك بي فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : يا رسول الله قال قولاً عظيماً : يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه، فجحد فنحاص (أي أنكر) فقال: ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص تصديقاً لأبي بكر ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ (١٨٢) ﴾ [آل عمران] الآية ، ونزل في أبي بكر وما بلغه في ذلك من الغضب ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا.. (١٨٦) ﴾ [آل عمران] ذكره السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس .

لكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم .

والقضية العامة فى الإسلام أن الله ليس بظلام للعبيد ، ويقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] وهذا دليلٌ على أنَّ الحق سبحانه وتعالى يحاسبهم على قدر استيعابهم للمعجزة .

فالمعنى أنه لا ينبغى لله تعالى أنْ يظلمهم ، فساعة تسمع ما كان لك أنْ تفعل كذا ، فالمعنى أنك تقدر على هذا ، لكن لا يصح منك ، فالحق سبحانه ينفى الظلم عن نفسه ، لا لأنه لا يقدر عليه ، إنما لا ينبغى له أنْ يظلم ، لأن الظلم يعنى أنْ تأخذ حق الغير ، والله سبحانه مالك كل شيء، فلماذا يظلم إذن؟

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) ﴾ [النحل] فالحق سبحانه لم يظلمهم حين قدَّر أنْ يُجازيهم بكذا وكذا .

ونحن لم نعاقبهم دون إنذار ودون أنْ نُجرّم هذا الفعل ، لأنك لا تعاقب شخصاً على ذنب إلا إذا كنتَ قد نبّهته إليه ، وعرَّفته بعقوبته ، فإنْ عاقبته دون علمه بأنَّ هذا ذنب وهذه جريمة فقد ظلمته ، لذلك فأهلُ القانون يقولون: لا عقوبةَ إلا بتجريم ولا تجريمَ إلا بنصٍّ .

وقد جاءكم النصّ الذى يُبيِّن لكم ويُجرّم هذا الفعل ، وقد أبلغتكم الرسل وسبق إليكم الإنذار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا .. (١٥) ﴾ [الإسراء]

وهذه السببية تؤكد ما سبق أنْ قلناه فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، فالله لم يجبرك على إيمان أو على كفر ، بل الأمر اختيارٌ منك تُصدِّقه أعمالك وأقوالك .

فالحق سبحانه خلقنا ولنا اختيارٌ فى أنْ نأتيه أو لا نأتيه ، فى أنْ نطيعه

أو نعصيه ، فى أنْ نؤمن به أو لا نؤمن به ، فالحق سبحانه أعطى الناسَ ذاتيةَ الاختيار فى الدنيا ، ولم يختاروا قهراً عن الله (حاشاه) سبحانه ، بل اختاروا عدم الإيمان بمشيئة الاختيار التى أعطاها الله لهم .

فالحقُّ سبحانه لو كان قهرهم على اختيارهم هذا ، فلِمَ يُعذِّبهم فهم محقِّقون لإرادته سبحانه فيهم .

والحق سبحانه خلقنا مختارين ولم يخلقْنا مقهورين ، وجعل لنا طاقة تستطيع أنْ تعصى وأنْ تطيع ، وما دام هناك اختيارٌ فالإنسانُ يختار هذه أو تلك .

فليس للبشر على الله حجة ، خلقهم مختارين وأرسل إليهم الرسل ليبشرهم إنْ هم أطاعوا . ولينذرهم عذاب الله إنْ عصوا ، بعث إليهم الرسل هُداةً لهم يهدونهم طريق الحق .

وقبل أنْ نتحدث عن إتيان الرسل إليهم وبأيِّ شيء أتوهم ، من الضرورى أن نقول إن هذه الآية قاطعةٌ لحجة الذين كفروا يوم القيامة الذى أسماه الله عز وجل هنا (يوم التغابن) .

ويوم التغابن هو يوم التظالم ، وسُمى يوم القيامة يوم التغابن لأنه غبن فيه أهلُ الجنة أهلَ النار ، أى : أن أهل الجنة أخذوا الجنة وأخذ أهل النار النارَ على طريق المبادلة .

فوقع الغبْن لأَجل مبادلتهم الخير بالشر ، والجيد بالردىء ، والنعيم بالعذاب ، وهذا مثل أننا نقول لك : لقد غبنتَ فلاناً إذا بايعته أو شاريته ، فكان النقصُ عليه والغلبة لك .

ولا شكّ أن منْ غُبن سيكون ألمه شديداً وحُزنه عظيماً ، فما بالك بمَنْ يشعر

بهذا يوم القيامة ، ففى الدنيا قد يقول أحدٌ لنفسه : يومٌ لك ويوم عليك ، أما فى الآخرة فهو التغابن الذى لا جبرانَ لنهايته .

ولكن على الكافر الذى خلق الله له مكاناً فى الجنة وخسره بكفره وذهب إلى مؤمن آمن بالله أنْ يُدرك أنّ هذا كان بسببه هو ، لا بسبب أحد آخر ، فهو الذى كفر وتنكّب الطريق ورفض الإيمان وعاند فطرته التى خلقه اللهُ عليها .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قال : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون]

فساعةَ تقرأ هذه الآية الكريمة تعرفُ أنَّ الله سبحانه سيجعلك فى الجنة تأخذ ما كان لغيرك لو كان قد آمن ، فالميراث يأتيك من غيرك .

وقد سبق علمُ الله سبحانه خلْقَ الناسِ جميعاً ، وقبل أنْ يخلق أعدّ لكلِّ خَلْقه مقعداً فى النار ومقعداً فى الجنة ، فالذين سيدخلون النار خالدين فيها مقاعدهم فى الجنة ستكون خالية ، فيأتى الله سبحانه يعطيها للمؤمنين ليرثوها فوق مقاعدهم ومنازلهم فى الجنة .

وقد قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزلٌ فى الجنة، ومنزلٌ فى النار ، وإنْ مات ودخل النارَ ورث أهلُ الجنة منزله »[1] .

والكافر فقد مكانه فى الجنة بسبب منه وبظلم منه هو لنفسه ، لم يظلمه أحد ، وإنْ كان قد وقع عليه غبن فهو الذى أوقعه بنفسه ، فقوله سبحانه هنا (ذلك) تسبيبٌ لوقوع العذاب بالكافرين فى الدنيا ويوم القيامة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ﴾ [التغابن]

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٣٤١) والبيهقى فى كتابه (البعث والنشور) (١/١٥١) قال الألبانى فى السلسلة الضعيفة أنه مخرج فى الصحيحة (٢٢٧٩) .

ثم يُفصِّل الحق سبحانه الأمر فيقول: ﴿ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم .. (٦) ﴾[التغابن]

وإذا كان الحقُّ سبحانه هنا قد أجمل الأقوام الذين أتتهم رسلهم بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ .. (٥) ﴾ [التغابن] فإنه سبحانه يذكرهم بالتفصيل فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ[1] أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾ [التوبة]

فقوم نوح وقوم إبراهيم وغيرهم أتتهم رسالات السماء ولم تأتهم الرسالةُ كمنهج فقط، بل جاءتْهم معجزات تثبت صدق بلاغ الرسل عن ربهم، فكأنه لا حجةَ لهم أنْ ينصرفوا عن منهج السماء أو أنْ يُكذِّبوا به، لأن كلَّ منهج مُؤيّد بمعجزة تثبت صدق الرسول فى رسالته.

وقد تتابع هؤلاء الرسل على البشر ليهدوهم إلى منهج السماء، ويُبيِّنوا لهم طريق الحق.

وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ﴾ [إبراهيم]

فالرسل حملوا لأقوامهم منهج الله، فجاءوا أقوامهم برسالات ربهم، ولكن ردَّ فعل أقوامهم أنْ ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ.. (٩) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) المؤتفكات: جمع مؤتفكة وهى قرى لوط، ائتفكت بهم الأرض أى انقلبت [تفسير زاد المسير لابن الجوزى ٣/٢٠٢]. وقال أبو بكر الجزائرى فى [أيسر التفاسير ٢/٨٩] أى المنقلبات حيث صار عاليها سافلها وهى ثلاث مدن. ولفظ مؤتفكات يعبر تماماً عما حدث لهذه القرى وهو من إعجاز القرآن، فقد أثبتت الأبحاث الآثارية والجيولوجية المستمرة أن طبقات الأرض للمنطقة حول مدينة سدوم مرتبة بشكل معين معاكس للطبقات التى تحويها المنطقة المحيطة بقرية سدوم وتسلسل معاكس تماماً.

فالكافـرون وضعوا أيديهم على أفواههم كأنهم يقولون للرسل : اصمتوا ولا تتكلموا بما جئتم به من بلاغ ، أو أن بعضهم قال للرسل : لا فائدة من كلامكم في هؤلاء .

وهم هنا يعلنون كفرهم صراحةً : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. (٩) ﴾ [إبراهيم] فيعلنون إنكارهم ، ولكنهم أرادوا أنْ يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، وكأن هناك استعداداً عندهم للإيمان ولكنهم في شكٍّ وارتياب مما أتتْهم رسلهم ، وكأنهم مستعدون لإزالة هذا الشك .

فقالوا : ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ﴾ [إبراهيم] ، أما الآية التى معنا هنا في سورة التغابن فيقولون ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. (٦) ﴾ [التغابن]

فهم يُعلِّقون كفرهم على سبب آخر غير الشك في المنهج ، وهو مجرد (تماحيك) ومبررات لا أساسَ لها فيقولون : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. (٦) ﴾ [التغابن] فهم مثلنا وليسوا أفضلَ منا ، فكيف يهدوننا ؟ وهل الرسول يهديكم ببشريته أم بشيء جاءه من أعلى ؟ هل المنهج الذى أتى به جاء من عنده ؟

فأيّ رسول هو مبلّغ عن الله ، وأرسل اللهُ عز وجل بشراً رجالاً ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم .. (١٠٩) ﴾ [يوسف] فالله اختارهم بشراً .

وقد كانت هذه حجةً يحتجُّ بها الكافرون على عدم إيمانهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) ﴾ [الإسراء] ، فهم كانوا يطلبون رسلاً من غير البشر .

ولماذا يرسل اللهُ ملائكةً إلى البشر ، فلو كان سكانُ الأرض ملائكةً لأرسل إليهم رسلاً ملائكة مثلاً ، ولكنّ البشر هم مَنْ يسكنون الأرضَ فكان المناسب

لهم أنْ يرسل لهم بشراً منهم ومن أوسطهم .

لذلك قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) ﴾ [الإسراء]

حتى أن جبريل عليه السلام لما جاء لرسول الله يسأله : ما الإسلام ؟ ما الإيمان ؟ ما الإحسان ؟ لم يأتِ كملَك بل جاء في صورة رجل ، وبعد أنْ أدَّى مهمته انصرف دون أنْ يشعر به أحد ، فلما سألوا عنه قال لهم رسول الله ﷺ : « إنه جبريل أتاكم ليعلمكم أمور دينكم »[1] .

وأحد مَنْ حضروا هذه الواقعة هو عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب ، شديدُ سوادِ الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفَّيه على فخذيه » .

ونلاحظ في حديث رسول الله أن عمر رضي الله عنه قال : طلع علينا رجل شديد بياض الثياب . أي أن ثيابه لم تتسخ ولم يُعفرها تراب الصحراء ، وأكد الفاروق عمر هذا فقال : « لا يُرى عليه أثر السفر » .

والمهم أنه « لا يعرفه منّا أحد » . إذن : فهو ليس بشراً بل مَلَك ظهر فجأة بينهم في صورة بشرية على هيئة رجل .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] إنهم طلبوا أنْ ينزل الله عليهم ملكاً ، ولو استجاب الله لهم

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠ ، ٤٧٧٧) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٠٦ ، ١٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان ؟ ما الإسلام ؟ ما الإحسان ؟ ورسول الله يجيبه ، ثم أدبر جبريل فقال ﷺ : ردوه فلم يروا شيئاً فقال : « هذا جبريل جاء ليعلِّم الناس دينهم » .

وأرسل رسوله ملكاً لتجسد الملك في صورة بشرية ، وهم من بعد ذلك قد يستمرون على الكفر ويعاندون ولا يؤمنون .

إذن : فلو أراد الله أنْ يبعث رسولاً من الملائكة لجعله على هيئة البشر لعدم استطاعتهم معاينة الملَك على صورته الأصلية وقد يهلكون عند رؤيته .

حتى أن إبراهيم عليه السلام فزع من الملائكة الذين جاءوه في صورة بشر ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ[1] حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ[2] مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾ [هود]

وكذلك الصبية مريم ابنة عمران فزعت من جبريل روح القدس حينما جاءها على هيئة بشر وهي في المحراب تتعبد ، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ[3] مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) ﴾ [مريم]

ورغم أنه تمثَّل لها في صورة بشرية لتأنس به ولا تفزع إنْ رأته على صورته الملائكية في صورة سوية أي سوى الخلْقة والتكوين ، وسيماً قد

---

(١) في الحنيذ ستة أقوال :

أحدها : أنه النضيج . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

والثاني : أنه الذي يقطر ماؤه ودسمه وقد شوى . قاله شمر بن عطية .

و الثالث : أنه ما حفرت الأرض ثم غممته وهو من فعل أهل البادية . قاله الفراء .

والرابع : أنه المشوى . قاله أبو عبيدة . والخامس : المشوى بالحجارة المحماة .

والسادس : السميط ذكره الزجاج . [ابن الجوزي في زاد المسير ٣/٣٥٨] .

(٢) أوجس منهم خيفة . أي : أضمر في نفسه خوفاً . وكانت سنة في زمانهم إذا ورد عليهم القوم فأتوهم بالطعام فلم يمسوه ظنوا أنهم عدو أو لصوص . قاله الفراء .

(٣) انتبذت : انفردت من أهلها . ذكره ابن جرير الطبري . وقال القرطبي : تنحت وتباعدت . وقال ابن قتيبة: اعتزلت . والمعاني متقاربة . [فتح القدير للشوكاني ٤/٤٤٧] .

انسجمتْ أعضاؤه وتناسقتْ على أجمل ما يكون البشر ، فلا يعيبه كِبَر جبهته أو أنفه أو فمه .

رغم هذا فإنها فزعتْ وارتعبت فقالت : ﴿ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) ﴾ [مريم] أى : ألجأ وأعتصم بالله منك لأنني أخاف أنْ تفتك بى أو تعتدى عليَّ وأنا ضعيفة فأستعيذ به منك .

لذلك أرسل الله بشراً كرسل للبشر لا ملائكة ، وأرسلهم بآيات ومعجزات تؤيد إرسال الله لهم ، فقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. (٦) ﴾ [التغابن]

أى : جاءوا بالآيات الواضحة الدلالة على المراد ، والآيات قد تكون لفتاً للآيات الكونية ، وقد تكون المعجزات الدالة على صدقهم ، وجاء كلُّ رسول إلى قومه بالبينات ، أى بالآيات الواضحات الدالة على صِدْق بلاغهم عن الله تعالى .

فالبينات إمَّا أنْ تكون المعجزات الدالة على صدقهم ، أو هى الآيات المشتملة على الأحكام الواضحة التى تنظم حركة حياتهم لتسعدهم .

وأصل البينات أنها هى الأمر البيِّن الواضح الذى لا يشكّ فيه أحد ، ومع ذلك لم يؤمنوا وكذَّبوا .

وكلُّ الرسل جاءوا أقوامهم بالبينات ، قال تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ[1] وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾ [آل عمران]

فموسى جاء قومه بالبينات ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ

---

(١) الزبر : جمع زبور وهو الكتاب . وكل كتاب فهو زبور . [الطبرى ٧/ ٤٥١] وقال البغوى : أى الكتب المزبورة . يعنى المكتوبة . واحدها زبور مثل : رسول ورسْل . قال رشيد رضا فى تفسير المنار (٤/ ٢٢٠) : « أصل معنى الزبْر القطع . ومنه زبر الحديد قطعه ، ويوشك أن تكون الزبر هنا المواعظ» أو الزبر صحف الأنبياء والكتاب المنير الإنجيل . وقال ابن الجوزى فى (زاد المسير ١/ ٤٦٧) : « الزبور : كل كتاب ذى حكمة » .

اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ[١] بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) ﴾ [الإسراء]

وهى الآيات التى أُرسل بها موسى إلى فرعون وقومه وهى : العصا التى انقلبت حية ، واليد التى أخرجها من جيبه بيضاء منورة ، وأخْذ آل فرعون بالسنين ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، ثم لما كذّبوا أنزل الله عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم .

وآيات أخرى كانت خاصة ببنى إسرائيل كضرب الحجر بالعصا فانفجرتْ من الحجر اثنتا عشرة عيناً[٢] ، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وإنزل المنّ والسلوى عليهم .

ولكنهم كفروا وتولوا ، قال تعالى : ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا .. (٦) ﴾ [التغابن] وهذا حدث من قوم هود وقوم نوح وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط وغيرهم ، والتولّى هو الإعراض مع تعمد الإعراض وعدم الإيمان بما جاءهم به رسولهم بالبينات . فأعرضوا وصدوا .

وعلى أمة محمد ﷺ أن لا تتشبه بهؤلاء المتولِّين المعرضين ، لذلك قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) ﴾ [الأنفال]

فإنْ تولَّوا عنك فأبلغهم أنك تخاف عليهم من عذاب اليوم الآخر ، وأنني

---

(١) الآيات التسع هى : بياض يده كلما أدخلها فى جيبه وأخرجها . وانقلاب العصا حية ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . والرجز وهو الدمل ، والقحط وهو السنون ونقص الثمرات .

(٢) قال ابن عطية : لا خلاف أنه كان حجراً مربعاً يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى سالت العيون وإذا استغنت عن الماء جفت . [فتح القدير للشوكانى ١/١٠٩] . وعيون موسى الاثنى عشر تقع على بُعد ٦٠ كم جنوبى نفق الشهيد أحمد حمدى (أسفل قناة السويس) ولها فوائد صحية عديدة حيث تعالج بعض الأمراض الجلدية والروماتيزم وتفيد أيضاً الجهاز الهضمى .

﴿ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ .. (٥٧) ﴾ [هود]

وإنْ (تولَّوا) فقد أبلغتُكم المنهج الذى أُرسلتُ به إليكم ، ولا عُذْرَ لكم عندى ، لأن الحق سبحانه لا يعذب قوماً وهم غافلون .

وقد أخذ التولِّى والإعراض عند الأقوام السابقين صوراً كثيرة ، منها ما حدث مع نوح عليه السلام : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ (1) فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾ [نوح]

إنهم جعلوا أنامل أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا أيَّ دعوة ، بل إنهم غطُّوا رؤوسهم وآذانهم بثيابهم كراهية لمنهج الله وكراهية لدعوة التوحيد التى جاءهم بها نوح عليه السلام ، فصمُّوا آذانهم .

ومنهم اليهود الذين قالوا ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ .. (٨٨) ﴾ [البقرة] أى : أن قلوبهم مغلَّفة مغطاة أى جُعل عليها غلاف ، بحيث لا يخرج منها ما فيها ، ولا يدخل فيها ما هو خارجٌ عنها .

ومن هؤلاء أيضاً قومُ شعيب الذين قالوا : ﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ .. (٩١) ﴾ [هود] وهذا فى حقيقة الأمر إعراض عن الفهم رغم أنهم يفقهون ويفهمون ما يقول شعيب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ .. (٦) ﴾ [التغابن] فالله لن يزيده إيمانُ أحد شيئاً ، ولن ينقصه كفرُ العالمين شيئاً مما له سبحانه من كمالات الصفات وألوهيته وربوبيته سبحانه .

---

(١) جعلوا أصابعهم فى آذانهم : من البداهة أن الأصبع لا تدخل كلها إلى الأذن . إنما الأنملة تسد فقط فتحة السمع . فهو مجاز مرسل إذ المراد رؤوس أصابعهم من إطلاق الكل وإرادة الجزء . [التفسير المنير للزحيلى] ؛ وإنما جاء التعبير بالأصابع إظهاراً لشدة إدخال الأنامل إمعاناً فى الغلق .

فالله سبحانه غنيٌّ عن العالمين ، فإنْ أعرض بعضُ خَلْقه عن الإيمان واستغنوا واختاروا الكفر ، فإنَّ الله يساعده على هذا الاستغناء ولا يعينه على أنْ يكون مؤمناً .

فالخالق جَلَّ جلاله أغنى الشركاء عن الشرك ، ومَنْ أشرك به فهو غنيٌّ عنه ، لذلك عاتب اللهُ رسوله فقال : ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) ﴾ [عبس]

فهذا قد استغنى عن الإيمان بالله وبمحمد ﷺ وعن منهجه الربانى بمنهج الجاهلية الشهوانى المتمثل فى الجاه والسيطرة والنفوذ والقوة .

فأنت تتصدى وتحرص على من استغنى عن الإيمان ، فلماذا تحرص على مَنْ استغنى ، فمَنِ استغنى استغنى اللهُ عنه .

وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعظ أصحابه، فإذا ثلاثةُ نفر يمرُّون ، فجاء أحدهم فجلس إلى النبى ، ومضى الثانى قليلاً ثم جلس ، ومضى الثالث على وجهه .

فقال رسول الله : « ألاَ أُنبئكم بهؤلاء الثلاثة ؟ أما الذى جاء فجلس إلينا فإنه تاب فتاب الله عليه .

وأما الذى مضى قليلاً ثم جلس فإنه استحيا، فاستحيا الله منه .

وأما الذى مضى على وجهه فإنه استغنى فاستغنى الله عنه »[1] .

---

(١) أخرجه البزار فى مسنده (٧٢٤٣) عن أنس بن مالك ، وأصله فى صحيح البخارى (٦٦ ، ٤٧٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٨١٠) من حديث أبى واقد الليثى أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس فى المسجد والناس معه إذ أقبل نفر ثلاثة فأقبل اثنان إلى رسول الله وذهب واحد . فوقفا على رسول الله فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ، أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه » .

﴿ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) ﴾ [التغابن] فهو سبحانه الغنى الحميد أى المحمود فى غِنَاه عن خَلْقه ، فغناه لا يعود عليه سبحانه بمنفعة ، بل المنفعة عائدة إلى العبد ؛ ولا يكون الغنيُّ محموداً إلا إذا كان غيرُ الغنى مستفيداً من غِنَاه .

فمنفعة الإيمان إنما تعود على مَنْ آمن ، يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) ﴾ [لقمان]

فسبحانه هو الغنيُّ عن العباد : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

ويقول سبحانه : ﴿ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد] فإنْ أعرض أناسٌ عن منهج الله ، فالله يستبدل بهم غيرهم .

فالمنهج الذى نزل على الخَلْق أنزله الحقُّ سبحانه لصلاح العباد ، وهو سبحانه خلق أولاً بكلِّ صفات الكمال فيه ، ولن يزيده العباد وصفاً من الأوصاف ، ولن يسلبه أحدٌ وصفاً من الأوصاف .

وهو سبحانه الحميد فى ذاته ، فسواء حمدته أم لم تحمده فهو الحميد ، فالحميد الذى يستحق الحمد ، وإنْ لم يوجد له حامد ، فصفاته سبحانه أزلية ، وحميد فعيل بمعنى محمود .

فالله غنى عن جميع خَلْقه ، محمود عند جميعهم بجميل أياديه عندهم ، وكريم فعاله فيهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧ ﴾

تكبَّر الذين كفروا من الأقوام السابقة عن أنْ يتبعوا أو يعترفوا بالرسل الذين أرسلهم الله تعالى، واستبعدوا أنْ يرسل الله إليهم بشراً يهدونهم طريقَ الهداية.

وهذا استعلاء واستكبار منهم وحسد من نفوسهم لمن أرسلهم الله، قال تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا .. (٨) ﴾ [ص]

فبعد أنْ كانوا يعترضون على بشرية الرسول ويطلبون أنْ يكون الرسولُ ملكاً، الآن يتنازلون عن هذا المبدأ ويتحولون إلى الذات فقالوا: ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا .. (٨) ﴾ [ص]

ويقولون في موضعٍ آخر: ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ[1] (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) ﴾ [القمر]

فكلّها مزاعم يزعمونها، والحقيقة سيعلمونها غداً عندما يجمعهم اللهُ ليعاقبهم ويُجازيهم على كفرِهم بالله.

ومشكلة هؤلاء الكافرين وكل كافرين في أيّ زمن أنهم ينكرون البعث والحساب، وأن هناك يوماً يُرجعون فيه إلى الله، لأنهم يريدون أنْ يستمروا في شرورهم وتسلطهم على العباد؛ فيفعلوا ما يشاؤون من مُوبقات دون رادع من رسول أو كتاب أو مباديء أو أخلاق.

يقول الحق سبحانه عنهم ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] والزعم هو القول المخالف للواقع ويقولون: الزعم مطية الكذب.

ويخاطبهم الحق سبحانه فيقول: ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) ﴾

---

(١) الأشر، فيها قولان ذكرهما ابن الجوزي في تفسيره (زاد المسير ٥/ ٤٥٤) الأول: أنه المرِح المتكبر. قاله ابن قتيبة. الثاني: البَطِر. قاله الزجاج. وقال السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن ٨٢٦/١): أي كثير الكذب والشر.

[الكهف] والخطاب هنا مُوجّه للكفار الذين أنكروا البعث والحساب .

و ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] أي : كذبوا في ادعائهم أنه لا بعثَ ، وأنهم لا يُبعثون ولا يُحاسبون ، والزعم ناتج عن ظنونهم وأوهامهم التى ليس لها نصيبٌ من الواقع والحقيقة .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ .. (٢٤) ﴾ [الجاثية]

وأمنية الكافر والمسرف على نفسه ألاّ يكون هناك بعثٌ أو حساب ، والمسرف على نفسه إنما ينكر البعث لأنه لا يقدر على ضبْط نفسه ويظن أنه بإنكار البعث لن يلقى المصير الأسود الذى سيلقاه فى الآخرة .

لذلك تجدهم يُشكِّكون فى البعث ، وهم لا ينتبهون أنهم سواء شككوا فى البعث أم لم يُشكِّكوا فإنهم مبعوثون لا محالة ، فالذى خلقهم من العدم قادرٌ على إعادتهم وهو أهون عليه .

والذى خلقهم هو الذى أرسل لهم الرسل يُحذرهم يوم القيامة، وهو الذى أرسل إليهم الرسل بالكتب ، وهو الذى له مُلْك السماوات والأرض .

ولكن ماذا زعم الذين كفروا ، زعموا : ﴿ أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] وقد حاول الكفار والملحدون وأصحاب الفلسفات المادية أنْ ينكروا قضية البعث، وهم فى هذا لم يأتوا بجديد ، بل جاءوا بالكلام نفسه الذى قاله أصحاب الجاهلية الأولى .

وكان مما قاله أصحابُ الجاهلية الأولى أنهم قالوا : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا [1]

---

(١) ضللنا فى الأرض : أى صارت عظامنا ولحومنا تراباً كالأرض . [زاد المسير لابن الجوزى ٥/ ١١٥]
قال ابن كثير فى تفسيره (٦/ ٣٦٠) : « أى تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض وذهبت» .

فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾ [السجدة]

والضلال يأتى على معَانٍ متعددة ، منها ما جاء هنا : ﴿ ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ .. (١٠)﴾ [السجدة] بمعنى الذهاب والفناء فى الشيء ، لقد تساءل الكافرون: أبعد أنْ نذوب فى الأرض ونتحلل إلى عناصرنا الأولية نعود ثانية ونُبعث من جديد ؟

فهم كمنكرين للبعث يتساءلون باندهاش : أئذا غابوا فى الأرض واختلطوا بعناصرها ، أيمكن أنْ يبعثهم ربُّهم من جديد ؟ فهم لا يُصدِّقون أن الذى أنشأهم أول مرة قادر على أنْ يعيدهم مرة أخرى .

وقد قال الكافرون ما ذكره القرآن ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾ [ق] . لذلك ردَّ الله عليهم فقال : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)﴾ [يونس]

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء أُبيّ بن خلف الجمحى إلى رسول الله ﷺ بعظم نَخِر ، فقال : أتعدنا يا محمد إذا بليتْ عظامنا فكانت رميماً أن الله باعثنا خَلْقاً جديداً ، ثم جعل يفتّ العظم ويذرُّه فى الريح ، فيقول : يا محمد مَنْ يُحى هذا ؟

فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، يُميتك الله ، ثم يُحييك ويجعلك فى جهنم »[1] .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس . وأخرج عبد الرزاق فى مصنفه (١٠٠١) عن معمر عن الزهرى فى قوله ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. (١٧)﴾ [الأنفال] . قال : جاء أبى بن خلف الجمحى بعظم حائل فقال : الله يحى هذا يا محمد وهو رميم ؟ وهو يفت العظم فقال النبى ﷺ : يحييك ثم يبعثك ثم يدخلك النار ، فلما كان يوم أحد قال : لئن رأيت محمداً لأقتلنه فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : بل أنا قاتله إن شاء الله .

ونزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس]

وأُبيّ بن خلف كان عدواً لدوداً خَصْماً شديداً للإسلام، ومن هذا موقفه هنا أنه يأتى لرسول الله بعظم نَخرٍ بالٍ ويُفتته ويفركه بيديه أمام رسول الله ، ويقول: أتعدنا يا محمد إذا بليتْ عظامنا فكانت رميماً أن الله باعثنا خَلْقاً جديداً ، ثم جعل يفتُّ العظم ويذرُّه فى الريح ويقول : يا محمد مَنْ يحيى هذا ؟

ولشدته وجبروته وقوته أجابه رسول الله ﷺ بردٍّ قويٍّ شديد حاسم : « نعم يميتك الله ثم يحييك ويجعلك فى جهنم » .

هذا الجبار قال لرسول الله ﷺ يوماً ما وكانت عنده رمكة[1] فقال لرسول الله : هذه الرمكة أنا أعلفها كل يوم فِرْقاً[2] من ذرة لأقتلك عليها ، فيقول له رسول الله قوْلةَ الواثق من أن ربه لن يخذله : « بل أنا أقتلك إنْ شاء الله »[3] .

هذا الرجل الذى يتوعد رسول الله لم يلتقِ مع رسول الله وهو فى قوته لينفذ وعيده ، ولكنه جاء لرسول الله وهو فى هذا الموقف الذى أثخنتْه فيه الجراح وكُسرت رباعيته[4] ودخلتْ حَلْقتا المغفر فى وجنتيه وسال دمه ، وبعد ذلك

(١) الرمكة : الفرس والبرذونة تُتخذ للنسل . [المغرب فى ترتيب المعرب – مادة : رمك] والفرس هى أنثى الحصان .

(٢) الفرق : الفلق من الشيء إذا انفلق . والفرق : القطيع من الغنم . هذا فى أصله اللغوى . وقال ابن فارس فى مقاييس اللغة : مما شذ عن هذا الباب الفَرَق : مكيال من المكاييل . ويقال إنه ستة عشر رطلاً أى حوالى ٦ كجم . [مقاييس اللغة ٤/ ٣٩٣] .

(٣) أورده البغوى فى تفسيره (٢/ ١١٤) وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٢١١) .

(٤) رباعيته : هى الأسنان فى مقدم الفم . بين الثنايا والأنياب . والجمع رباعيات ، وهن أربع رباعيات بعد الثنايا من فوق وأسفل .

يأتـى إليـه هذا الرجل أُبى بن خلف الجمحى وهو يقـول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إنْ نجا .

فأخـذ رسولُ الله الحرْبة وهو مُنهك القوى ، وضرب أُبىّ بن خلف بها فنالتْ منـه ، فسقط من علـى فرسه يخور كما يخور الثور ، فقال له أصحابه : لا بأسَ عليك يا أُبيّ .. ما أجزعك إنما هو خدش .

هـذا الجبـار قال لأصحابه : لا والله لقد علمتُ أنه يقتلنى لأنه قال لى بمكة : أنـا قاتلـك إنْ شاء الله ، فو الله لو بصق عليَّ لقتلنى ، فمات وهم قافلون به إلى مكة[1] .

الـذى خلقنا من عـدم كتب علينا المـوت وأخبرنا بالغيب أننـا سنُبعث يوم القيامـة ، وسيُعـاد هذا الخَلْق مرة أخرى ، فالذيـن لم يملكوا إنكار الخَلْق أنكروا البعث ، فقالوا كما حكى القرآن :

﴿ ق وَالْقُـرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُـمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [ق]

فاستبعـدوا البعـث بعد المـوت وتحلُّل الأجساد فى التراب ، ولكـن الله يحسم الأمر ، فيقول : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الحق سبحانه هو القائل : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا .. (٤) ﴾ [يونس]

فلا بد أنه الوعد الحقُّ لأنه سبحانه يملك ما يعد به ، وسبحانه مُنزَّه عن الكذب وعن الخديعة ، لأنه القائل : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) ﴾ [النساء]

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٧/ ٣٨٥) والسمرقندى فى بحر العلوم (١/ ٣١٨) ومحمد الطاهر التونسى فى (التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٠) .

والحق سبحانه هنا كأنه يقول : إياكم أنْ تظنُّوا أنكم أخذتم الحياة وأفلتم بها وتمتعتم ثم ينتهى الأمر ، لا إن هناك بعثاً وحساباً ، ولماذا تستبعدون هذا، فهو سبحانه القائل : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (٤) ﴾ [يونس] فالذى قدر على أنْ يخلق من عدم أيعجز أنْ يعيد من موجود ؟

وهو سبحانه القائل : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم] فإذا شاء سبحانه أنْ يعيدكم فلا تتساءلوا كيف ؟ لأن ذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ [ق]

وهكذا يستدل الحق سبحانه بالخَلْق الأول على إمكان الخَلْق الثانى ، فإنْ كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أنْ أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم فانظروا إلى الخلق الأول ، فقد خلقكم من لا شيء ، أفيعجز أنْ يُعيدكم من شيء؟

وهم قد استهزءوا بالبعث والحساب وما ينتظرهم من العذاب ، فقالوا كما حكى القرآن: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات]

ثم بلغ بهم الاستهزاء أنْ تعجّلوا العذاب فقالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف] ، وقالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. (٩٢) ﴾ [الإسراء]

وهل يطلب أحدٌ من عدوه أنْ يُنزل به العذاب إلا إذا كان مُستهزئاً ؟ إنهم يسخرون من فكرة أنهم بعد أنْ يضلُّوا فى الأرض فتأكل الأرضُ ذراتهم وتُغيِّبهم فى بطنها أن ذراتهم تعود مرة أخرى .

وتكذيبهم للبعث ليس للبعث فى حَدِّ ذاته ، إنما هو تكذيبٌ للقاء الله وللحساب، لكنهم ينكرون البعث لأنه يؤدى إلى لقاء الله ، وهم يكرهون لقاء الله فينكرون المسألة من بدايتها .

فهم عندما قالوا ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة] لم يكونوا صادقين فى تكذيبهم للبعث والحشر ، لذلك قال تعالى :

﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

و (بل) تفيد الإضراب عن كلامهم السابق وتقرير حقيقة أخرى ، وهى أنهم لا ينكرون البعث والحشر إلا خوفاً وفَرَقاً ورعباً من لقاء ربهم.

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء]

والرفات هو الفُتات ومسحوق الشيء وهو التراب أو الحطام ، فالرفات هو الفتات وزناً ومعنى ، وهو الشيء الجاف المتكسِّر .

لذلك جاءت بالترتيب هكذا : عظاماً ورُفاتاً ، لأن جسم الإنسان يتحلّل وتمتصّ الأرض عناصر تكوينه ، ولا يبقى منه إلا العظام ، وبمرور الزمن تتكسَّر هذه العظام ، وتتفتّت وتصير رُفاتاً ، وهم يستبعدون البعث بعدما صاروا عظاماً ورفاتاً .

وقولهم ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .. (٤٩) ﴾ [الإسراء] الهمزة هنا استفهام يفيد الإنكار، فلماذا ينكر هؤلاء مسألة البعث بعد الموت ؟

نقول : الكافر عنده لدد فى ذات إيمانه ، ومن مصلحة آماله أنْ ينكر البعث، وهم يظنون أنهم على فرض أنه سيحدث فإنهم سيكونون فى الآخرة سادةً ، كما كانوا سادةً فى الدنيا .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ[1] لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾ [يس]

ومن الكافرين مَنْ قال : سنصير تراباً ثم نختلط بالتربة ويتم زراعة هذه التربة ، فتمتزج عناصرنا بما تُنبته الأرض من فواكه وخضر وأشجار ، ثم يأكل طفلٌ من الثمرة التى تغذَّتْ بعناصرنا ، فيصير بعضٌ منّا فى مكوِّنات هذا الطفل ، والقياس يوضح أننا سوف نتناثر فكيف يأتى بنا الله ؟ وكيف يُنشئنا من جديد ؟

والحق سبحانه يحسم الأمر ، فيقول : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ..(٧٩)﴾ [يس] فلو تذكر الإنسان خَلْقه الأول ما ضرب لنا هذا المثل . قُلْ لهم يا محمد : يُحييها الذى أنشأها أول مرة ، فقد خلقها من عدم .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [الروم]

إن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على أنْ يبدأ الخَلْق على غير مثال ، ثم يُعيده بعد الموت ، وإعادته أهون عليه من ابتدائه بالنظر إلى مقاييس اعتقاد مَنْ يظن أن إعادة الشيء أسهلُ من ابتدائه ، فالله له مطلقُ القدرة فى خَلْقه ، وهو الغالب فى مُلْكه ، وهو الحكيم فى فعله وتقديره .

إن الذى يعيد إنما يعيد من موجود ، أما الذى بدأ فمن معدوم فالأهون هو الإعادة ، أما الابتداء فهو ابتداء من معدوم .

---

(١) الذى ضرب المثل لرسول الله وأتى بعظم نخر فقال : أتعدنا يا محمد إذا بليت عظامنا فكانت رميماً أن الله باعثنا خلقاً جديداً ثم جعل يفت العظم ويذره فى الريح ، هو أبى بن خلف . [أخرجه ابن مردويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر] . وذكر ابن مردويه رواية أخرى أنه أبو جهل بن هشام .

ويُوجِّـه الحـق سبحانه رسوله محمداً ﷺ ، فيقول : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ .. (٧) ﴾ [التغابن]

يعنى : قل بملء فيك (بلى) و (بلى) نفى للنفى السابق فى قولهم ﴿ أَن لَّن يُبْعَثُوا .. (٧) ﴾ [التغابـن] وحين ننقض النفى فإننا نثبت المقابل له ، فمعنى (بلى) أنهم سيُبعثون .

ثم لا يكتفى الأسلوب بذلك ، إنما يؤكد هذه القضية بالقسم ، فالحق سبحانه يعلّم رسوله أنْ يحلف بذاته سبحانه وهو مطمئن أنهم سيُبعثون وسيُحشرون، والحق سبحانه لا يُلقّن رسوله يميناً كاذباً والحق سبحانه صادق دون حلِف ، فما بالك حين يحلف لك ؟

وكلمة (بلى) هى حرف جواب مثل نعم تماماً ، ولكن (بلى) حرف جواب فى النفى ، يعنى ينفى الذى قبله ، وهناك أمثلة قرآنية كثيرة لاستخدام هذا الأسلوب .

منها ما قاله أهل الكتاب : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً .. (٨٠) ﴾ [البقرة] ثم جاء الجواب بعدها ﴿ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) ﴾ [البقرة]

فجاءت (بلى) لتنفى ما سبق من اعتقادهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، ثم أكدت أن النارَ مصيرُ مَنْ أحاطتْ به خطيئته واستمرأ عصيان الله والتمرد عليه سبحانه .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ .. (١١١) ﴾ [البقرة] ثم قال : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴾ [البقرة]

فعندمـا يقول سبحانه (بلـى) ، فهو سبحانه ينفى ما يقولونه وأن كلامهم غير صحيح ، وأنه سيدخلها غير هؤلاء .

فساعـةَ تأتـى قضيـةٌ منفية ، ثـم يأتى بعدها كلمـة (بلـى) فإنها تنقض القضية التى سبقتْها ، ومعنى ذلك أنها تثبت ضدها .

والغريب أن الكافرين يؤكدون أنه لا بعثَ ولا حشرَ ولا حساب وكأنهم أخذوا عهـداً بذلـك ، ممَّـنْ ؟ لا أحدَ يعـرف ، ولكن الله قال عن هذا : ﴿ تِلْـكَ أَمَانِيُّهُمْ .. (١١١) ﴾ [البقـرة] ، والأمـانـى هـى مطامـع الحمقى لأنها لا تتحقـق ، وهى أن تُعلِّـق نفسـك بأمنية ، وليس لهـذه الأُمنية سندٌ من الواقـع يُوصِّلك إلى تحقيق أمنيتك .

ويقول الحق سبحـانه عنهم : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾ [النحل] أى : أقسموا مبـالغين فى اليمين مُؤكدينه ، فيرد عليهم الحق سبحـانه : ﴿ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا .. (٣٨) ﴾ [النحل]

﴿ قُـلْ بَلَـى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ .. (٧) ﴾ [التغابـن] ورغم أن مسألة البعث لا تحتـاج إلى تـأكيـد ، إلا أن الحـق سبحـانه هنـا أكَّد بعثَ النـاس بعد الموت فى يوم يعلمه الله ، فـاستخدم الحقّ سبحـانه (اللام) ثم (النون) المؤكدة بعد (تُبعثُ) .

﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ .. (٧) ﴾ [التغابن] فـأنتم لن تُبعثوا فقط ، بل سننبئكم بمـا عملتم فى فترة حياتكم فى الدنيـا إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشرّ .

وكلمـة (تُنبؤن) من النبـأ ، ولا يُطلق النبـأ إلا على الخبر الهـام ، وليس مطلق الخـبر ، فـالنبأ خبر عجيب وهـام وعظيم ، فـإخبـارهم بمـا عملوا بعد بعثهم وفى هـذا الموقـف هو نبـأٌ عجيـب وهـام بـالنسبة لهـم ، لأنهم كانـوا يستبعدون هذا اليوم ويستبعدون أنْ يكون مـا أخبرهم به الرسل حقـاً ، فـإذا بهم يُبعثون .

وليس هذا فقط ، بل سيُنبئهم الله بما عملوا ، أى يخبرهم إخباراً يزلزل كيانهم ، فعن هؤلاء يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ [١] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

فالكافر سيُفاجأ فى الآخرة بالله الذى لم يكُنْ فى باله أنه سيحاسبه على ما فعل ، إنه يُفاجأ بوجود الله ، ولم يكُنْ هذا الإله فى باله ساعة أنْ قام بهذا العمل .

وهم يعلمون أنْ لو كان هناك بعث وحساب سيُجازون بما عملوا ، وهذه مسألة صعبة عليهم ، ومن مصلحتهم أنْ تكون الآخرة كذباً .

وصدق أبو العلاء المعري[٢] حين قال :

زَعَمَ المنجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلاَهُمَا ... لاَ تُحْشَرُ الأَجْسَادُ قُلْتُ إليكُمَا

إنْ صَحَّ قَوْلكُمَا فَلسْتُ بخَاسِرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلِى فَالخسَارُ عَلَيْكُمَا

أى : أن المؤمن بالبعث إنْ لم يكسب فلن يخسر ، أما أنتم أيها المنكرون فخاسرون ، فكُلُّ مكذِّب بالآخرة خاسر ، والنفس البشرية لابد أنْ تحتاط للقاء الله ، وأنْ تعترف أنَّ هناك حَشراً وتعمل لذلك .

---

(١) القيعة : أرض مستوية . أى قاع من الأرض . قال البغوى فى تفسيره (٦/٥٢) : القيعة جمع القاع وهو المنبسط الواسع من الأرض وفيه يكون السراب . وقال السعدى : لا شجر فيه ولا نبت . والسراب ظاهرة خداع بصرى ضوئى تحدث نتيجة ظروف البيئة المحيطة من اشتداد درجات الحرارة والأرض المستوية واختلاف فى معامل الانكسار مما يجعلها فى حالة توهج شديد حيث تبدو كالماء الذى يلتصق بالأرض ليعكس صوراً وهمية للأجسام وكأنها منعكسة عن سطح مرآة كبيرة .

(٢) أبو العلاء المعرى : أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى المعرى ، شاعر فيلسوف . ولد ٣٦٣ هجرية ومات ٤٤٩ هـ فى معرة النعمان . كان نحيف الجسم ، أصيب بالجدرى صغيراً فعمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة . لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه . كان يحرِّم إيلام الحيوان ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين عاماً وكان يلبس خشن الثياب . [الأعلام للزركلى ١/١٥٧] .

وهـذه الأبيـات أخرجتْ المعرى مما اتهموه به مـن أنه ينكر البعث ، صحيح أنه فى أول حياته قال :

تَحْطِمُنَا الأَيَّامُ حَتَّى كَأَنَّنَا ... زُجَاجٌ وَلكِنْ لاَ يُعادُ لَنَا سَبْكُ[1]

فقولـه : (لا يُعـاد لنا سَبْكُ) معناه أنه ينفى قـدرة الحق على أنْ يبعثنا مرة أخرى ، مع أنه من الممكن أنْ يتأوَّل فيها ، أى لا يُعاد لنا سَبْكٌ فى حياتنا هذه، ونحن لا نرى مَنْ مات يعود مرة ثانية .

وهـذا قاله فـى أول حياته ، ولكنـه آخر الأمر طلب من الطبيـب والمنجِّم أنْ يكفَّـا عـن إفساد العقول بالشك ، وهَبْ أنه اعتقـد ألاّ بعث ، وواحد آخر اعتقد أن هناك بعثاً ، نقول له : إما أنْ يجيء بعثٌ فيكذب مَنْ قال : لا بعث .

وإما ألاَّ يجيء بعثٌ ، فإذا لم يجيء البعث ما الذى ضَرَّ مَنْ آمن بالبعث ، وإذا جاء البعث فمَنْ الذى خسر ؟ سيخسر مَنْ أنكره . إذن : فالذى ينكر البعث يخسر ولا يكسب ، لكن مَنْ قال : إن هناك بعثاً لا يخسر وهكذا .

فإنْ كان كلامكُم صحيحاً من أنه لا يوجد بعث – والعياذ بالله – فلن أخسر شيئـاً لأنِّـى أعمـل الأعمال الطيبة ، وإن كان هناك بعـث – وهو حقٌّ – فسوف ألقى الجزاء فى الجنة ، وبذلك لم أخسر بل كسبت .

لكـن افرضوا أنكم عملتم الشرَّ كلّه وجاء البعث فأنتم الخاسرون ، والقضية الفلسفيـة المنطقية هنا هـى : إنْ لم أكسب فلن أخسر ، وأنتم إنْ لم تخسروا فلن تكسبوا .

ومعنى قوله تعالى ﴿ بِمَا عَمِلْتُمْ .. (٧) ﴾ [التغابن] أن الله قد أحصى عليهم

---

(١) أورده صلاح الدين الصفدى فى نكت الهميان (١/٣٦) وعبد الرحيم العباسى فى معاهد التنصيص (١/١٤٠).

أعمالهم وهذه مفاجأة أخرى لهم ، يقول تعالى : ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ .. (٦) ﴾ [المجادلة] فنحن نسجل عليهم أعمالهم ونُحصيها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .. (٧) ﴾ [التغابن] فكلُّ فعل على الله يسير ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) ﴾ [العنكبوت]

فأيهما يسيرٌ على الله ، الخَلْق أم الإعادة ؟ هل الذى خلق من عدم يعجز عن إعادة ما خلق ؟ الخَلْق الأول من عدم ، أما الإعادة فمن موجود ، فأيُّهما أهون وأيسر فى عُرْفكم وحسب منطقكم ؟

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] مع أن الحق سبحانه لا يُقال فى حقّه : هذا هيِّن وهذا أهون ، لكنه سبحانه يخاطبنا بما تفهمه عقولنا .

فإيجاد ما كان موجوداً أسهل من الإيجاد من عدم على غير مثال موجود ، فالبعث أهونُ على الله من بداية الخَلْق ، فبالنسبة للخالق سبحانه فليس عنده هيِّن وأهون منه ، لأنه سبحانه لا يفعل الأفعال معالجةً ولا يزاولها ، وإنما بقوله تعالى (كُنْ) .

فالحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً فإنه يقول له (كُنْ فيكون) ، وكلمة (كُنْ) نفسها هى أقصر أمر ، إن أمره ألطف وأدقّ من أنْ يدركه على حقيقته مخلوق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨ ﴾

الإيمان منهج تطبيقى يمزج بين العقل والقلب من ناحية، والقول باللسان من ناحية ثانية، والعمل بجوارح الإنسان من ناحية ثالثة، فالإيمان ليس نظرية فكرية يعتقدها عقل الإنسان وقلبه فقط، بل يجب أن يكون فى قوْل الإنسان وسلوكه العملى ما يصدق هذا الفكر وهذا المعتقد.

لذلك عندما قال الحق سبحانه: ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذى أَنْزَلْنَا .. (٨) ﴾ [التغابن] لم يقُل الحق بعدها: والله بما تعتقدون خبير. أو: والله بما تؤمنون خبير.

لا .. قال: ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) ﴾ [التغابن] فنقلنا من الإيمان النظرى إلى الإيمان العملى، فالمؤمن عليه أنْ يتحرك فيمَنْ حوله بسلوكيات توافق إيمانه بالله ورسوله والقرآن، فلا يعمل ولا يسلك سلوكيات تناقض هذا الإيمان.

فلا يسع المؤمن الذى آمن بالله وبالرسول وبالقرآن إلا أنْ يطبق ما جاء فى القرآن وطاعة رسول الله فيما جاء به من عند الله تعالى، وليس له أنْ يدعو أو يسعى لإبطال شريعة الله أو الخروج عليها أو الدعوة إلى غيرها.

وقد نعى الحق سبحانه على أولئك الذين شابهوا الكافرين الذين كفروا من قبل، فشابهوهم فى رفض أنْ يكون رسلُ الله إليهم من البشر ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا .. (٦) ﴾ [التغابن]

وأيضاً شابهوهم فى إنكار البعث ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا .. (٧) ﴾ [التغابن]

هـم يريـدون التملُّص مـن الإيمـان فيُبـدون الأعذار والتبريـرات ، ويضعون العقبـات تِلْو العقبات حتى لا يؤمنوا ، وعدم الإيمـان بـالرسل الذين يرسلهم الله هـو فى الحقيقة عـدم إيمـان بـالله عز وجل ، فـإذا كنـتَ لا تعترف بـالرسل فـأنت فى الواقـع لا تعترف بمَنْ أرسلهم .

وكـان لابـدّ لهـم أنْ يؤمنوا بمَنْ يرسلهـم الله سواء كـانوا بشـراً أو غير بشر ، والله لـه حكمـةٌ فى أنْ يكونوا من البشر ليكونَ أسهـل فى التخـاطب مع النـاس، وأيضـاً ليكونوا قـدوة ، فلو كـانوا ملائكةً لاحتـجَّ هؤلاء الكـافـرون أيضاً بـأنهم كيـف يتبعون ملائكـة ، فـالملائكة قـادرون على مـا يُؤمرون بــه ، أمـا نحن فلا نستطيع تنفيذ مـا أُمروا بـه .

وبعضهم أقرَّ بـأنْ يكونوا من البشر ولكنْ أرادوا هم أنْ يختـاروا الله مَنْ سيرسله لهم، فقـالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

لقد كـانوا يريدونـه أنْ ينزل على سيد من سـادة قريش ، فـاعتبروا أن المشكلة ليست فى القرآن ، ولكن المشكلة والآفة بـالنسبة إليهم أنه نزل على محمد ﷺ.

فقـال أهل الجاهلية : لمـاذا لم ينزل القرآن على رجـل عظيم من مكة أو من الطائـف ، قـالـوا ذلك استهزاءً بشأن رسول الله وتقليـلاً من مكـانته ، فـهم طلبوا أنْ تكون السيادةُ لغنى من أغنيـاء القريتين مكة أو الطـائف[1] .

لقـد أرادوا أنْ يظلُّوا فى السيادة والجـبروت والقـهر للغير ، والقرآن إنمـا جَاء ليساوى بين البشر جميعاً أمـام الحق الواحد الأحد .

---

(١) ذكر الطبرى فى (تفسير الزخرف ٣١) عن ابن عباس قال : يعنى بـالعظيم الوليد بن المغيرة القرشي، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى . وعنى بـالقريتين : مكة والطـائف . وقـال آخرون : بل عنى به عتبة ابن ربيعة من أهل مكة وابن عبد يـاليل من أهل الطـائف .

لقـد استكـثروا على رسـول الله أنْ ينزل عليـه هذا القرآنُ العظيـم ، وفى هذا القول فتنةٌ واختبار لرسول الله ، وهو يصبر على ذلك ويمضى إلى إتمام البلاغ عـن الله ولا يلتفت إلى ما يقولـون ، بل يأخذ هذا دليلاً على قوة المعجزة الدالة على صِدْق رسالته .

والحـق سبحانه يدعو هـؤلاء الكافرين إلى الإيمان بـالله أولاً ، ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ .. (٨) ﴾ [التغابـن] ، فالإيمـان بـالله هو أصل العقيدة وفـى القمة منها، وليس المقصود هنا هو الإيمان بوجود الله فقط ، بل المقصود الإيمان بالله إلهاً واحداً أحداً مستحقاً وحده للعبودية ، لأنه وحده الذى خلق هذا الكون بسمائه وأرضه وإنسانه وحيوانه ونباته .

فـلا يكفى أنْ نقـول نحن نؤمن بوجود الله وأننا لسنـا ملحدين ، فإنَّ مشركى قريش الذين بُعث فيهم رسول الله ، يقول تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت]

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾ [العنكبوت]

حتى خلق الله للإنسان نفسه كانوا يعترفون ويُقرُّون به : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

فمشكلتهـم وسبب كفرهم أنهم كانوا يشركون مـع الله آلهة أخرى وأصناماً وأوثانـاً ، ويتخذونها وسائط عنـد الله بزعمهم ، قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .. (٣) ﴾ [الزمر]

ولو قالوا : لا نذبح لهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى ، لكان من الجائز أنْ يدخلوا فـى عبادة الله ، ولكنهم يثبتـون العبادة للأصنام ، لذلـك لا مفرَّ من دخولهم

فى الشرك .

وهم يعترفون أن المتقرِّب إليه هو الله ، ولكن الحق يحسم أمر الشرك فيقول على لسان رسوله : ﴿ قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) ﴾ [الأنعام] فالرسول ﷺ لا يشهد بأى آلهة غير الله .

ثم إن الجميع شهد لله عز وجل بالربوبية لحظة الخَلْق الأولى ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا[1] .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

هم إذن قد أقرُّوا لحظة الخَلْق الأول بوحدانية الله وعاهدوا الله تعالى على ذلك ، لكنهم كفروا بتلك الشهادة وأشركوا به سبحانه ووضعوا فى بيت الله الحرام أصناماً ، وادَّعوا الكذب وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى .. (٣) ﴾ [الزمر]

ومن الإيمان بالله الإيمانُ بألوهيته سبحانه لا ربوبيته فقط ، أى : أنه صاحب التشريع والمنهج الذى يُنزله على رسله ليبلِّغوه للناس وليس للصنعة أنْ تتمرَّد على صانعها وتطلب صلاحها ممَّنْ تظنه صانعها ، أو أنها هى تُصلح نفسها .

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : حججنا مع عمر بن الخطاب ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ قبَّلك ما قبَّلتك ثم قبَّله ، فقال له على ابن أبى طالب : بلى يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع ، قال ثم قال : بكتاب الله تبارك وتعالى . قال : وأين ذلك من كتاب الله ؟ قال الله عز وجل ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] خلق الله آدم ومسح على ظهره فقرره بأنه الرب وأنهم العبيد، وأخذ عهودهم ومواثيقهم وكتب ذلك فى رقٍّ وكان لهذا الحجر عينان ولسان فقال له افتح فاك قال: ففتح فاه فألقمه ذلك الرق وقال : اشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة وإنى أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق يشهد لمن يستلمه بالتوحيد فهو يا أمير المؤمنين يضر وينفع ، فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن . [أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٦٨٢)] .

فالله لم يبعث الرسل عبثاً ، ولم يُنزل الكتب لعباً ، بل أرسلهم بالحق ، وأنزل إليهم الكتب بالحق لتهدى الناس إلى المنهج الحق ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

والكون لا يصلح إلا بمنهج الله ، فالله هو الذى خلق، وهو الذى أوجد ، وهو أدرى وأعلم بصنعته وبما يُفسدها وبما يُصلحها ، لأنه هو الصانع ولا يوجد مَنْ يعلم سِرّ ما يُصلح صنعته أكثر من صانعها .

وهناك أناسٌ يكرهون الإيمانَ أشدَّ الكراهية ، هؤلاء قال الله فيهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ[١] أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [البقرة]

فالرسول ﷺ يدعوهم للإيمان ، والمسلمون يدعونهم للإيمان ولكنهم يصفون الذين آمنوا بأنهم سفهاء ، أى أنهم فقراء من أراذل القوم ، أما سادة قريش فهم عقلاء مالكون للمال لا يليق بهم أنْ يؤمنوا .

ولفرط كراهيتهم للإيمان بألوهية الله ووحدانيته تجد الحق سبحانه يقول عنهم : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ[٢] قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ [الزمر]

والإنسان حين يسمع شيئاً لا يحبه يشمئز ، يعنى يظهر على سحنته الامتعاض، ثم تحدث منه نُفْرة وقشعريرة كئيبة ، ثم ينصرف عن هذا الشيء.

---

(١) السفهاء هنا : الجهلة ، وأصل السَّفه فى اللغة : خفة الحلم (خفة العقل) وقال الطبرى فى تفسيره (١/٢٩٣) : قال عامة أهل التأويل : هم النساء والصبيان لضعف آرائهم وقلة معرفتهم بمواضع المصالح والمضار التى تصرف إليها الأموال ، وذلك فى قوله تعالى ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا .. (٥) ﴾ [النساء] .

(٢) اشمأزت ، فيها ثلاثة أقوال : الأول : انقبضت عن التوحيد . قاله ابن عباس ومجاهد . الثانى : استكبرت. قاله قتادة . والثالث : نفرت . قاله أبو عبيدة والزجاج . (زاد المسير لابن الجوزى ٥/٢٧١) .

كذلك حال هؤلاء لما سمعوا ذكر الله وحده نفرتْ نفوسهم وانقبضوا عن توحيد الله ، لكن لماذا ؟ فمعنى توحيدهم الله أنْ يؤمنوا بالبعث والحشر وملاقاة الله ، وقد يُلاقون عقاباً على ما فعلوا وهو ما قالتْه سورة التغابن هنا : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَ'لِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٧) ﴾ [التغابن]

أما ما يعبدونه من أصنام فلا تأمرهم بأمر ولا تنهاهم عن شيء ، ولا هى تُحدِّثهم عن بعث أو حساب ، لذلك يستبشرون عندما يُذكر الذين من دون الله .

وهم يستبشرون لأسباب أخرى ، منها ظنُّهم أنهم يشفعون لهم ، لكنهم خائبون فى هذه وخائبون فى هذه ، فإنَّ ما عبدوهم من دون الله سيسبقونهم إلى النار .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ[١] جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَـٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) ﴾ [الأنبياء] ، فتلك الأصنام والحجارة التى عبدتموها من دون الله ستكون وقود النار التى يُعذِّب بها مَنْ عبدها ، وبذلك ينقطع عن الكافرين المشركين كلُّ أمل فى أنْ تنقذهم آلهتهم المزيفة .

والحصب مثل الحطب وهو كلّ ما تُوقد به النار أيّاً كان، خشباً أو قشاً أو بترولاً أو كهرباء ، وهنا وقودها العابدون وما عبدوه ، فما عبدتموه لن يقيكم يومئذ من عذاب النار .

والحق سبحانه هنا عندما يطالبهم بالإيمان بالله فى سياق سورة التغابن

---

(١) الحصب مشتق من الحصباء والحجارة . يُرمى به فى جهنم . وأرض محصبة ذات حصى . وحصبت النار : إذا ألقيت فيها ما تستوقد به . [الاشتقاق لابن دريد ١/٥٢٩] قال أبو عبيدة : كل ما ألقيته فى النار فقد حصبتها به . [الصحاح فى اللغة ١/١٣١] .

نجد أن المطلوب هو الإيمان بالله خالقاً للسماوات والأرض، خالقاً للإنسان صوَّره فأحسن صورته، وأنه سبحانه له الملْك وأنه سبحانه لا يُعجزه شيء، لأنه ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .. (١) ﴾ [التغابن]

وهو سبحانه العليم ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ .. (٤) ﴾ [التغابن]

وهو سبحانه غنيٌّ عن العالمين لا يحتاج إليهم، قال ربُّ العزة في الحديث القدسي: « يا عبادي، لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زادَ ذلك في مُلْكي شيئاً. يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من مُلْكي شيئاً»[1].

وآفة هؤلاء الكافرين أنهم لم يقدروا الله حقَّ قدْره، وظنوا أن المسألة بالنسبة للحق سبحانه هو تعذيبهم، مع أنه سبحانه يقول في وضوح: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء]

وعظمة الحقِّ سبحانه أنه لا يوجد شيءٌ من طاعة يعود إلى الله بنفع، ولا يوجد شيءٌ من معصية يعود إلى الله بالضرر.

ثم يقرن الحق سبحانه بين الإيمان بالله والإيمان برسوله، فقال: ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ .. (٨) ﴾ [التغابن] وقد قال الإمام الشافعي[2]: وضع الله رسوله من دينه وفَرْضه وكتابه الموضع الذى أبان جَلَّ ثناؤه أنه جعله عَلَماً لدينه بما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٦٧٣٧) وأحمد بن حنبل في مسنده (٢١٤٥٨) والبزار في مسنده (٤٠٥٣) والبيهقي في سننه الكبرى (١١٨٣٧) والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٠) عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٢) هو: محمد بن إدريس الشافعي الهاشمي القرشي أبو عبد الله، ولد في غزة عام ١٥٠ هـ، زار بغداد مرتين وقصد مصر سنة ١٩٩ فتوفي بها عام ٢٠٤ هجرية. وقبره معروف في القاهرة. كان الشافعي أشعر الناس وأعرفهم بالفقه والقراءات. أفتى وهو ابن عشرين سنة. له مؤلفات وكتب كثيرة. أشهرها: كتاب الأم في الفقه، وله المسند في الحديث. و (أحكام القرآن) و (الرسالة) في أصول الفقه. [الأعلام للزركلي ٦/٢٦].

افــترض مـن طاعته وحرم من معصيته وأبان مـن فضيلته بما قرن من الإيمان برسولــه مع الإيمان به[1] ، فقال تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ .. (٨) ﴾ [التغابن]

وثانـى ما يطالبُ الله الكافرين بالإيمان به هو الإيمان برسوله ﷺ ، لأنهم إذا كانـوا قـد آمنوا بالله فلا بـدّ أنْ يُؤمنـوا برسوله الذى أرسلـه إليهم ليبلِّغهم منهج الله أمراً ونهياً ، أم أنكم تظنُّون أنّ الله خلقكم سُدى وترككم هملاً ؟

وكثيـراً مـا ربـط القرآنُ بيـن الإيمان بـالله والإيمان برسـول الله فى آيات كثيرة ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَـاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِـاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ [الأعراف]

وهذه الآية آيةٌ جامعة فى ماهية الإيمان برسول الله ﷺ ، فهو : ﴿ رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُـمْ جَمِيعًا .. (١٥٨) ﴾ [الأعراف] فرسالته ﷺ عامة وليستْ خاصة بالعرب فقط ، بل هى رسالةٌ للعالمين الإنس والجن ، عربهم وعجمهم .

فـكلُّ رسالـة من الرسالات التـى سبقتْ رسالة رسـول الله ﷺ وجاءتْ لقوم مُحددين ولزمن مُحدّد ولعلاج داءات وآفات أصابتْ مجتمعاً ما ، أما رسول الله فهـو رسـولٌ إلى كلِّ الناس ، لذلك كان هو الرسول الخاتم الذى أعطى الخير كلَّه والنور كلَّه .

فرسالـة الإسلام رسالـة خاتمة ، وإيمانـنـا بـالرسول يقتضـى أنْ نؤمن أنه خاتم الأنبياء بحقٍّ ، وقد قال رسول الله : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثَلِ رجـل بنى بيتاً فأحسنـه وأجمله إلا موضعَ لبنة من زاويـة من زواياه ، فجعل الناسُ يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وُضعتْ هذه اللبنة ، فأنا اللبنةُ

---

(١) قاله الشافعى فى كتابه (الرسالة) (١/٧٣) فقرة (٢٣٦) .

وأنا خاتمُ النبيين»[١] .

فهو ﷺ خاتم النبيين وخاتم المرسلين ، يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب]

وبعض أهل الضلال يؤمنون برسول الله على نحو مخالف لمراد الله ، فيؤمنون به خاتماً للنبيين كما نصَّ عليه القرآن ، ولكنْ لا يؤمنون به ﷺ خاتماً للرسل ، فيدَّعون رسولاً بعد رسول الله ، ويدَّعون كتاباً بعد النور الذى أنزله الله مع نبيه ورسوله محمد .

وتجد مثل هذه الدعاوى فى البهائية[٢] والقاديانية[٣] وغيرها من المعتقدات الزائفة ، وهم ينسُون أو يتعمدون هذا ، فالرسول لا يكون رسولاً إلا إذا كان نبياً، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً . هذا بالنظر إلى الشريعة التى تأتى مع الرسول ولا تأتى مع النبى .

أما بالمعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى فالقرآن يقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ .. (٥٢) ﴾ [الحج]

فالنبى أيضاً مُرسَلٌ من الله ، وعلى ذلك فكلاهما – النبى والرسول – مرسل من عند الله ، لكن يوجد فرْق بين أنْ يرسل الحقُّ تشريعاً مع رسول ، ويكون هذا التشريع مستوعباً لأشياء وأحكام لم تكُنْ موجودة فى الرسالة السابقة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٥) والبزار فى مسنده (٨٢٣٣) ، والطبرانى فى مسند الشاميين (١٣٠) . من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) البهائية حركة نبعت من المذهب الشيعى الشيخى سنة ١٢٦٠ هـ تحت رعاية اليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزى بهدف إفساد العقيدة الإسلامية وتفكيك وحدة المسلمين ، أسسها الميرزا على محمد رضا الشيرازى ، مقرهم الرئيسى فى إسرائيل فى حيفا ، ويقطن أغلبيتهم فى إيران .

(٣) القاديانية دين مخترع ظهر أواخر القرن التاسع عشر الميلادى بقاديان إحدى قرى البنجاب الهندية. أسسه ميرزا غلام أحمد القاديانى المولود عام ١٢٦٥، ادعى أنه المهدى المنتظر والمسيح الموعود ، ثم ادعى أنه المسيح نفسه ، ثم ادعى نبوته وأن نبوته أعلى وأرقى من نبوة رسول الله .

عليه ، وبين أنْ يأتى إنسانٌ مُصطفى من الله ليطبق فقط ما جاء فى الرسالات السابقة .

فالأنبياء قد أرسلهم اللهُ ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يأتُوا بشرع جديد ، لكنَّ الرسولَ هو مَنْ أرسله اللهُ بشرع جديد ليعمل به وأمره الحقُّ بتطبيقه ، هذا هو الزائد فى مهمة الرسول .

إن الحقَّ سبحانه أرسل الأنبياء ليكونوا الأسوة السلوكية فيُطبقوا ما أُرسلَ به الرسلُ السابقون عليهم ، أما الرسلُ فأرسلهم الله بالشرع والتبليغ والتطبيق.

ومن الإيمان برسول الله أنْ تؤمن بأنه نبيٌّ أُميٌّ ، فالأمية فى رسُول الله شرف ، ولكنها أيضاً دليلٌ على صِدْقية القرآن ﴿ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا .. (٨) ﴾ [التغابن] وأنه وحيٌ مجرد من الله عزَّ وجل ، ليس لرسول الله فيه دورٌ إلا تبليغه فقط .

لذلك كان لابد له أنْ يكون أُمياً ، ورغم أن هذا واضحُ الوضوح كله ، ولكن غير المؤمنين قديماً وحديثاً ادَّعوْا على رسول الله أن القرآنَ من تأليفه وأنه ليس وحياً ، ولكنه أخذه عن الكتب السابقة .

كيف وهو أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ولم يُعرف بالبلاغة والشعر والخطابة بين قومه حتى يستطيع أنْ يأتى من عنده بهذا الكلام المعجز الذى لم يستطع فطاحل شعراء العرب الذين تمرَّسوا فى البلاغة واللغة أنْ يأتوا بآية من مثله .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾ [البقرة]

وثالث ما طلب الله ودعا إليه هو أنْ تؤمنوا بالنور الذى أنزله سبحانه على رسوله محمد وهو القرآن ، ولم يشأ اللهُ سبحانه أنْ يقول هنا : والكتاب الذى

أنزلنا . بل قال هنا : النور .

وهذا إشارة لهم أنَّ ما أنتم عليه هو الظلام بذاته ، وأن إيمانهم بالله ورسوله سيُخرجهم من الظلمات إلى النور الذى أنزله الله على رسوله .

فمهمة هذا الكتاب حدَّدها الحقُّ سبحانه فى قوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) ﴾ [إبراهيم]

وهو كتاب يُبصِّرنا بقضية القمة فى العقيدة ، وهى أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله ، وهو بهذا يُخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد .

وهو كتابٌ يلفتهم إلى آيات الكون ، وأنْ يعرفوا أن هناك آخرة ونعيماً أبدياً وشقاءً أبدياً ، وهو يقيم الدليل والحجة على الكافرين ويُحاججهم ويناقش ادعاءاتهم على مُنزِل الكتاب ، وعلى مَنْ نزل عليه ذلك الكتاب ، إنه كتابٌ يناقش صِدْقية القرآن نفسه ويردُّ على الطاعنين فيه .

وعندما جاء هذا النورُ ؛ فبدلاً من أنْ يأخذوا نور الإيمان انصرفوا عنه ، فكأنهم انصرفوا عن كلِّ ما يهديهم إلى طريق الله ، ولو آمنوا لأضاء نورُ الإيمان والإسلام طريقهم ، ولكن قلوبهم مملوءةٌ بظلمات الكفر فلا يروْنَ طريق النور .

إن القرآنَ هو وَحْيٌ مُنزَّل من عند الله ، يُعرف المؤمنين النور إلى الهداية وتكاليف الحق ويهدى مَنْ اختار الهدى ، وإنَّك يا محمد لتدعو بهذا القرآن إلى صراط مستقيم .

والإيمان بالله مسألة تطبيقية مرحلية ، فـ « الله » هو قمة الإيمان ، و« رسوله » هو المبلّغ عن الله ، لأنه جاء لنا بالنور وهو القرآن : ﴿ الَّذِى أَنْزَلْنَا .. (٨) ﴾ [التغابن]

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ[١] وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ .. (١٥٧) ﴾ [الأعراف] فالنور مرتبط برسول الله فهو أُنزل معه ﷺ وحَلّ معه ، فلا تظنُّوا أنكم تستطيعون الفصل بين الإيمان بالله وبين الإيمان برسوله وبالنور والكتاب الذى أُنزل معه .

واعلموا أن ﴿ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) ﴾ [التغابن] وهذه الآية تلفتنا إلى أمر هام ، فصدر الآية يُحدِّثنا عن الإيمان ، وهو أمر قلبيٌّ يخصُّ معتقد الإنسان ، فهو أمر نظرى يتعلق بالنظرية والمعتقد .

أما عَجُز الآية فيُحدِّثنا عن التطبيق ، فنقلنا الحق سبحانه إلى الجانب العملى فى الإيمان ، فقال : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ .. (٨) ﴾ [التغابن]

وقد قال الحسن البصري[٢]: « ليس الإيمانُ بالتحلِّى ولا بالتمنِّى ، إنما الإيمانُ ما وقر فى القلب وصدَّقه العمل »[٣] .

و ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ .. (٨) ﴾ [التغابن] تشمل قولك وفعلك ، فالقول عمل اللسان، والفعل عمل اليد أو الرِّجْل أو العين ، وسواءٌ كان الإيمان الذى فى القلب أو العمل الذى فى الجوارح فلا تظنُّوا أنَّ شيئاً من هذا يَخْفى على الله ، فإنه سبحانه : ﴿ خَبِيرٌ .. (٨) ﴾ [التغابن]

فإنه سبحانه خبيرٌ بما فى قلبك، عليمٌ بإيمانك بالله ورسوله والقرآن

---

(١) معنى عزروه : نصروه وأعانوه ، قاله مقاتل . وقال ابن قتيبة : عزروه أى عظموه . (زاد المسير لابن الجوزى ٣/٤٣) وقال الأخفش : أى عظموه ووقروه ، وقيل : معناه منعوه من عدوه وأصل العَزْر المنع. [فتح القدير للشوكانى ٣/١٠٢].

(٢) الحسن البصرى هو : الحسن بن يسار أبو سعيد تابعى ، كان إمام أهل البصرة، ولد ٢١ هـ ، هو أحد العلماء الفقهاء النساك ، ولد بالمدينة وشب فى كنف على بن أبى طالب . سكن البصرة ، له مع الحجاج ابن يوسف الثقفى مواقف ، توفى ١١٠ هجرية [الأعلام للزركلى ٢/٢٢٦] .

(٣) قال ابن تيمية فى [أحكام المرتد ١/٢٢٩] : « هذا مشهور عن الحسن يروى عنه من غير وجه ، كما رواه عباس الدروى حدثنا حجاج حدثنا أبو عبيدة الناجى عن الحسن . وأخرجه من قول الحسن البصرى ابن بطة العكبرى فى [الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ١٠٩٣] .

ومدى وماهية إيمانك ، ويعلم بنيّتك عند عملك وفِعْلك وقولك ، خبير بما تفعله وتصنعه، وإنْ لم يطلع عليك أحدٌ من الناس .

فالله خبير بنية مَنْ أبدى صدقة ، أو جاهد فى سبيل الله ، والله يجازيك على قدْر نيتك وقصدك ، إنْ كنتَ تبتغى بما تفعل مرضاةَ الله سبحانه أم لا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

الحق سبحانه هنا يؤكد لمن يُنكرون البعث والحساب وإنباءهم بما عملوا فى الدنيا أنهم لا مفرَّ لهم ولا حيلةَ لهم فى الهروب والفرار من مواجهة ذلك اليوم الذى يجمعكم فيه .

وهو سبحانه يُبطل زعمهم : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ .. (٧) ﴾ [التغابن]

ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ .. (٩) ﴾ [التغابن]

فكأن (يوم) هنا وهى ظرف زمان يحدث فيه إنباؤهم بما عملوا فى الدنيا، كأنه سبحانه قال : والله يُنبئكم بما عملتم ويعاقبكم عليها يوم يجمعكم .

---

(١) يكفّر عنه سيئاته : يمحو عنه ذنوبه . قال مقاتل بن سليمان : أى يغفر له ذنوبه . وقال أبو بكر جابر الجزائرى فى تفسيره [أيسر التفاسير ١٩٢/٣] : « معنى يُكفرها عنهم يغطيها ويسترها ولم يطالبهم بها كأنهم لن يفعلوها » .

وبعض العلماء ذهبوا إلى أن (يوم) هنا متعلقة بـ (خبير) قبلها ، على معنى أنهم سيُفاجئون أن الله يوم يجمعهم خبيرٌ بما عملوا ، وقد كانوا يظنّون أنْ لا شيءَ مما عملوه سيُحصَى عليهم ويقابلونه ويجدونه أمامهم يوم القيامة.

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا[1] بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾ [آل عمران]

يعنى أنه يجد جزاءَ عمله خيراً كان أو شراً ، أما صاحب العمل الخيِّر فإنه يُثاب ويرفل فى نعيم الله ، أما ما عملتْه النفسُ من السوء فهو يود أنْ يكونَ بينه وبينه أمدٌ بعيد أى غاية بعيدة .

والبعض قال : إن (يوم) هنا ليست متعلقة بـ : ﴿ لَتُنَبَّؤُنَّ .. (٧) ﴾ [التغابن] أو خبير ، بل متعلِّقة بما دلَّ عليه الكلام والسياق الآتى والحادث بعده ، وهو تغابُن المؤمنين والكافرين وتظالمهم ، أى : تتفاوتون وتتغابنون يوم يجمعكم.

وكلُّه صحيحٌ ومُحتمل وقد لا يكون أيّ شيء من هذا ، وأنْ تكون (يوم) متعلقة بفعل محذوف هو (اذكر) أو (اذكروا) أى : اذكروا يوم يجمعكم ليوم الجمع ؛ ولكن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج ، والله أعلم .

ورسول الله ﷺ إنما أُرسلَ لينذركم هذا اليوم ، يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ (٧) ﴾ [الشورى]

---

(١) الأمد : الغاية . [زاد المسير لابن الجوزى ١/٣٢٢] وقال الطبرى فى تفسيره (٦/٣١٩) : يعنى غاية بعيدة . قال الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار (٣/٢٣٣) : « قد اختلف فى تفسير الأمد فقيل : الغاية. وقيل الأجل ، وقيل : المكان . وقال الراغب (الأصفهانى) : الأمد والأبد يتقاربان ، لكن الأبد عبارة عن مدة من الزمان ليس لها حد محدود ولا يتقيد . والأمد مدة لها حد مجهول إذا أطلق . والفرق بين الزمان والأمد أن الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عام فى المبدأ والغاية .

فاذكروا يوم الجمع الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) ﴾ [المرسلات] فجمعناكم لموعدكم الذى كنا نعدكم فى الدنيا ، نجمع فيه بينكم وبين سائر مَنْ كان قبلكم من الأمم الهالكة .

فقد وفَّيْنا لكم بذلك ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) ﴾ [المرسلات] فالله مُنجز لكم ما وعدكم فى الدنيا من العقاب على تكذيبكم إيَّاه بأنكم مبعوثون لهذا اليوم ، فإنْ كانت لكم حيلةٌ تحتالونها فى التخلُّص من عقابه اليوم فاحتالوا .

إنَّ كذبهم سينكشف فى هذا اليوم ، فالفاضحة قد جاءت ، والفاضحة هى القيامة ، إنها تفضح كلَّ كذَّاب مكذِّب بيوم الدين ، وتفضح كلَّ غشاش وكلَّ داعية بغير الحق .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [آل عمران]

كيف يكون حالُهم يوم يجمعهم اللهُ للجزاء فى يوم لا ريبَ فيه ولا شكَّ فى مجيئه ، وهذا اليوم قادمٌ لا محالةَ لقيام الأدلة على وجوده ، ورغم خصومتهم لله فإنَّ الله العادل الحق لا يظلمهم ، بل سيأخذهم بمقاييس العدل .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]

فالله سبحانه هو القادر على الجمع والحشر يوم القيامة ، وقد أكَّد الحق سبحانه الجمع باللام ثم نون التوكيد ، ولا تظنُّوا أن الله يكذب عليهم فى هذا لأنه لا أحدَ أصدقُ من الله ، ويسوقها الله لنا بصيغة الاستفهام : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]

وعندما يأتى الخبر فى صيغة استفهام ويطلب منك اللهُ إجابة ، فالحق

سبحانه يعلم تمامَ العلم أنه لن يسعك إلا أنْ تجيب أن الله هو الأصدق حديثاً ، إنما هو سبحانه يُعطيك الفرصة لتبحث لتقتنع أنه لا أحدَ أصدقُ من الله ، فلا تخدعنّ نفسك .

فما وعدكم الحقُّ سبحانه ستجدونه ، يقول تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّة أَصْحَابَ النَّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ[١] بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالمينَ (٤٤) ﴾ [الأعراف]

وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان ينادى على قليب[٢] بدر : يا أبا جهل بن هشام ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا أمية بن خلف : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنِّى وجدتُ ما وعدنى ربى حقاً . قالوا : يا رسول الله تنادى قوماً قد جيَّفوا . قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أنْ يُجيبوا»[٣] .

وكما يكون الجمعُ جمعاً للأولين والآخرين هو أيضاً جمْع للأتباع والمتبوعين ، وحين يجتمعون يتبرءون من بعضهم البعض ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[٤] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ [البقرة]

---

(١) فأذن مؤذن : أى أعلم مُعْلِم ونادى مُناد . (ابن كثير فى تفسيره ٣/٤١٧) . وقال القرطبى فى تفسيره ٧/٢٠٩) « أى نادى وصوَّت يعنى من الملائكة » . ويُروى أن طاوساً دخل على هشام بن عبد الملك فقال له : اتق الله واحذر يوم الأذان . فقال : وما يوم الأذان ؟ قال : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [الأعراف] فصعق هشام فقال : هذا ذل الصفة فكيف ذل المعاينة ؟

(٢) القليب : البئر . جمعه أقلبة وقُلب . [معجم اللغة العربية المعاصرة مادة قلب] والقليب هو البئر التى لم تطو . وقيل : العادية القديمة التى لا يعرف صاحبها فائدة . [فتح البارى لابن حجر ١/٣٥٢] .

(٣) أخرجه النسائى فى سننه (٢٠٧٥) عن أنس بن مالك وصححه الألبانى . وأحمد فى مسنده (١٨٢ ، ١٢٠٣٩ ، ١٢٨٩٦) وأبو يعلى فى مسنده (٣٨٠٨) وابن أبى عاصم فى كتابه (السنة ٢٨٧٨) .

(٤) قال الطبرى فى تفسيره (٣/٢٩٣) : « يعنى بالكرَّة الرجعة إلى الدنيا . والكرة المرة الواحدة » . وقال أبو بكر الجزائرى فى (أيسر التفاسير ١/٧٠) : كرة : رجعة وعودة إلى الحياة الدنيا .

وقـد أُمـر رسـول الله ﷺ أنْ يخاطـب قومـه فيقول : ﴿ قُـلْ مَـنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَـاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَـى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ]

ثـم يقـول : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَـا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) ﴾ [سبـأ] فلن نطيل معكـم النقاش والحجة ، لأننـا نتكلـم بـالحق وأنتم تتلاعبون بـالباطـل ، فـالخلاصـة معكم أنْ يفصل الله بيننـا وبينكـم فـى محكمته الإلهية : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا .. (٢٦) ﴾ [سبأ] أى : يوم القيامة .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَـابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ [الشورى]

فما دُمْنـا لم نجتمع على الحق فى الدنيا فسوف يجمعنـا الله جميعاً يوم القيامة للحسـاب ، حيـث يجازى كلاً بعمله ، ويعطى كل ذى حقٍّ حقه ، وكوْنك ترد الأمر فى الحكومة إلى إله عـادل فهذا دليل على أنك على الحق ، وكفى بـالله حَكَماً .

والبشـر إنمـا يفـارقـون الدنيـا على مراحل من لدن آدم عليـه السلام ، والموت يحصـد الأرواح ، وقـد جـاء اليوم الذى يُجمـع فيه هؤلاء ، وإنْ تركـوا الدنيا فى أوقـات مختلفة متتـابعة ، فإن هذا اليوم يُجمع فيه الجميع لا يتخلف منهم أحد.

﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ [الكهف] أى : لم نترك منهم أحداً.

ويقول تعـالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) ﴾ [الكهف] وهذه هـى النفخـة الثانيـة ، فـالنفخة الأولى نفخة الصعق ، أمـا الثـانية فهى نفخة البعث والقيـامة والجمع من القبور والأجداث[1].

---

(١) الأجداث : القبور . جمع جدث . والمجتدث : الذى يحفر الجدث ويكوِّم التراب عليه . [المحيط فى اللغة — الجيم والدال مع الثاء] .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) ﴾ [يس] والأجداث القبور ، وهم يخرجون من القبور كالخيوطِ التى نُسلتْ من القماش .

فإذا ما خرجوا من قبورهم ورأوا الحقيقة التى طالما كذَّبوها قالوا : ﴿ يَـٰوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا .. (٥٢) ﴾ [يس] وعجيبٌ منهم أنْ يقولوا الآن ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا .. (٥٢) ﴾ [يس] فمعنى أنهم كانوا راقدين فى مراقدهم، فمعنى هذا أنهم سيستيقظون من مرقدهم .

إنهم نسُوا أن الله ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) ﴾ [آل عمران]

فالذى يخلف الميعاد إنما تمنعه قوةٌ قاهرة تأتيه تمنعه أنْ يفعل ، أما الله فلا تأتى قوة قاهرة لتغير ما يريد أنْ يفعل ، ولا يمكن أنْ يتغير ، لأن التغيُّر ليس من صفات القديم الأزلى .

فلا يظنَّنَ كافر أو منافق أن هناك شيئاً قد ينقذه مما سيحدث فى ذلك اليوم.

ثم يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ .. (٩) ﴾ [التغابن] وبه سُميت السورة ، وهو من أسماءِ يوم القيامة ، وهو يوم غبْن أهل الجنة أهلَ النار ، وهم يتغابنون عند الله فى المنازل فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

فأخذ أهلُ الجنةِ الجنةَ ، وأخذ أهل النارِ النارَ على طريق المبادلة ، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، والجيد بالرديء ، والنعيم بالعذاب .

وهذا نراه فى حياتنا عندما نبيع ونشترى ، ويُقال فى أمثالنا لمَنْ يبيع ملكه : البائع خسران والمشترى كسبان . ولو أن ظاهر الأمر أن البائع أخذ

نقوداً نظير عقاره ، ولكن فى الحقيقة أن المال الذى أخذه عُرْضة للنقصان ، بعكس مشترى العقار الذى اشترى شيئاً تزداد قيمته مع الوقت حتى وإنْ دفع فيه ثمناً غالياً .

فهؤلاء الكافرون باعوا منازلهم وبيوتهم وقصورهم التى كانت لهم فى الجنة ، والتى كان قد أعدَّها اللهُ لهم يوم خلقهم ، باعوها واشتروا الدنيا ومتعها، فآلتْ إلى أهل الجنة فزادوا نعيماً إلى نعيمهم وتركوا مقاعدهم فى النار لمن استحقَّ النارَ يُعذب فيها .

وهذا هو قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُـمُ الْوَارِثُـونَ (١٠) ﴾ [المؤمنون] فالحق سبحانه عندما خلق الخَلْق ، وجعل فيهم الاختيار بين الإيمان والكفر وبين الطاعة والمعصية رتَّب على ذلك أموراً ، فجعل الجنة على فرض أن الخَلْق كلهم مؤمنون بحيث لو دخلوا الجنة جميعاً لكان لكلٍّ منهم مكانه فى الجنة .

وكذلك جعل النار على فرْض أن الخَلْق كلهم كافرون ، فلو كفر الناس جميعاً لكانَ لكلٍّ منهم مكانه فى النار .

وعليه فحين يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ يتركون أماكنهم التى لهم فى النار ، وحين يدخل أهلُ النارِ النارَ يتركون أماكنهم التى كانت لهم فى الجنة ، فيرث أهلُ النار الأماكن الشاغرة فيها ، ويرث أهلُ الجنةِ الأماكنَ الشاغرة فيها .

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ .. (٩) ﴾ [التغابن] أى التغابن الذى لا جبرانَ لنهايته ، وقد يحدث التغابن فى الدنيا ، وذلك ما قاله الحسن وقتادة : بلغنا أن التغابن فى ثلاثة أصناف :

- رجل علم علماً فعلّمه وضيّعه هو ولم يعمل به فشقى هو ، وعمل به مَنْ تعلَّمه منه فنجا به .

– ورجـل اكتسب مـالاً من وجوه يسأل عنها وشحَّ عليه وفرَّط فى طاعة ربه بسببه ولم يعمل فيه خيراً ، وتركه لوارث لا حسابَ عليه فيه فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه .

– ورجـلٌ كان لـه عبد فعمل العبد بطاعة ربه فسعـد ، وعمل السيد بمعصية ربه فشقى .

ورُوى عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى يقيم الرجل والمرأة يوم القيامة بـين يديـه ، فيقول الله تعـالى لهما قولاً ، فمـا أنتما بقائلـين ؟ فيقول الرجل : يـا رب أوجبـتَ نفقتهـا عليَّ فتعسفتهـا[1] من حلال وحرام ، وهـؤلاء الخصوم يطلبون ذلك ولم يَبْق لى ما أوفى به . فتقول المرأة : يا رب وما عسى أنْ أقول : اكتسبـه حرامـاً وأكلتُه حلالاً ، وعصاك فى مرضاتى ولم أرْضَ له بذلك ، فبُعداً له وسُحقاً .

فيقـول الله تعـالى : قـد صدقتِ فيُؤمـر به إلى النـار ويُؤمر بهـا إلى الجنة ، فتطلع عليـه من طبقـات الجنة ، وتقول له : غبنّاك غبنّاك ، سعدنا بما شقِيتَ أنت به»[2] .

فـالتغابـن تفاعلٌ من الغَبْن وهو فـوْتُ الحظِّ ، والمراد بـالمغبون من غُبن عن أهله ومنـازله فى الجنة ، فيظهر يومئذ غبن كلِّ كافر بتركه الإيمان ، وغبن كلِّ مؤمن بتقصيره فى الإحسان .

فى ذلك اليوم يكون النـاسُ فريقين ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، أما فريق الجنـة فيقول تعالى عنـه: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِـالله وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْـهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ

(١) العسيف : الأجير . وأعسف : إذا سار بالليل خبط عشواء . والمعنى هنا أنه سار خبط عشواء فى تحصيل ماله من الحلال والحرام .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (١٨/١٣٧) سورة التغابن بدون عزو ولا راوٍ بصيغة رُوى وهى صيغة تمريض تفيد الضعف . حتى أن ابن عادل فى تفسيره اللباب (١/٤٩٤٢) قال : روى القرطبى .

جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ [التغابن]

فمَنْ يؤمن بالله أى يؤمن فى قلبه بالله سبحانه خالقاً ورازقاً ومالكاً لملْك السماوات والأرض ، خالقاً للإنسان فى أحسن صورة ، وأنه سبحانه يبعث الناسَ جميعاً ويحشرهم ويجازيهم على أفعالهم إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشرّ .

ثم يضيف إلى هذا العمل بالمنهج الذى أرسله الله وأنزله إلى رسوله ﷺ فى كتابه : ﴿ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا .. (٨) ﴾ [التغابن] أى : أنه أضاف إلى إيمانه القلبى العقلى عملاً تطبيقياً للمنهج .

وأنت عندما تعمل عملاً صالحاً فإنه يرجع عليك بالخير ، فلا تعتقد أن العمل الصالح يخرج منك ولا يعود ، ولكنه لابدّ أن يعود عليك بالخير .

والعمل الصالح هو مراد الله من إيماننا لتستقيم حياتنا ، فإنه لا يعمل صالحاً إلا إذا كان مؤمناً ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) ﴾ [الروم] ولم يقل : فهو يمهد لنفسه ، فلماذا ؟

لأن الذى يعمل الصالح لا يعود نفعه فى الدنيا على ذاته فقط ، بل يتعدَّى نفعه إلى المجتمع كله ويزداد صلاحاً ويستقيم ، فلو أن كلَّ فرد عمل الصالح ولم يفسد وترك الصالح على صلاحه لَعمَّ الصلاح ونبتتْ نبتات طيبة ، ولحفِظَ المسلمون طاقاتهم من إهدارها فى الرذيلة .

فمَنْ عمل صالحاً سيجد صلاحَ عمله ، ومَنْ أساء فسيجد عمله السيء ، لذلك فمَنْ عمل صالحاً يفرح بالرجوع إلى الله ، ومَنْ عصى وكفر فهو يحزن ويخاف ويتردد ويحاول ألاَّ يرجع ، ولكنه يرجع رغم أنفه .

هذا المؤمن بالله العامل بالصالحات قد يقع فى السيئات ، وخالق الخَلْق

يعلم ما خلقه، لذلك قال بعدها: ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاته .. (٩) ﴾ [التغابن]

فالحق سبحانه يذكر جزاء الإيمان والعمل الصالح: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [العنكبوت]

وهنا تتجلَّى العظمة الإلهية، حيث بدأ بتكفير السيئات وقدَّمها على إعطاء الحسنات، فالتخلية قبل التحلية، فهو سبحانه يُكفِّر عنه سيئاته ثم يُثيبه على أعماله الصالحة بإدخاله الجنةَ.

وكأنَّ الحقَّ سبحانه يقول لعباده: اطمئنوا فسوف أُطهركم من هذه الذنوب أولاً قبل أنْ أعطيكم الحسنات، فالإنسان بطبعه أميلُ إلى السيئة منه إلى الحسنة.

بل هناك ما هو أعظم من هذا عند الله، ففى آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان]

فالأمر لا يقف عند تكفيرها وتطهير المؤمن منها، بل إن الأمر يتعدَّى هذا أنْ تُبدَّل له السيئات فتصبح حسنات، وفى موضع آخر يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

وفى الحديث الشريف: « وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها»[1].

فعطاء الله لا نهايةَ له، ما دمتَ قد آمنتَ بالله وبرسوله وبالكتاب الذى أنزله الله على رسوله الذى وصفه الله بالنور، وهو تكفير سيئاتك وتطهيرك منها، ثم إبدال سيئاتك حسنات، ثم يعطيك ثواب ما عملت من العمل الصالح.

---

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن ». أخرجه الترمذى فى سننه (١٩٨٧) وأحمد فى مسنده (٢١٣٩٢، ٢١٤٤١) والبزار فى مسنده (٤٠٢٢) والحاكم فى مستدركه (١٧٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبى.

فكأنّ الله يُطهرك من ذنوبك وسيئاتك ويُكفّرها عنك لتكون محلاً طيباً صالحاً لاستقبال ثواب الله ، ولتعيش فى جنته طاهراً مُطهراً قبل أنْ تدخلها ، قد حلَّتْ عليك نعمةُ الله وثوابه فتدخل مُكرّماً .

بل إن الحقَّ سبحانه سيُطهر المؤمنين من غلٍّ قلوبهم وأمراض قلوبهم يقول تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَـٰذَا .. (٤٣) ﴾ [الأعراف]

فالمؤمنون فى الآخرة مطهرون من كلِّ نقائص الدنيا ومتاعبها، وأولها الغلّ والحقد .

وجزاء هؤلاء المؤمنين العاملين بالصالحات المطهرين من ذنوبهم وآثامهم جزاءٌ عظيم : ﴿ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (٩) ﴾ [التغابن] ولم يقل : يسكنه . بل قال : يُدخله . والدخول فى ذاته هو فوز عظيم لا يدانيه فوز .

يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران] فمجرد أنْ تُزحزح عن النار فوزٌ عظيم ، فأولى درجات الفوز أنْ يُزحزح الإنسانُ عن النار ولو إلى الأعراف .

فمجرد الزحزحة عن النار نعيم ، وعندما تقول : زحزحتُ فلاناً ومعناه أنه كان متوقفاً برعب وقد رأى النار بأُم عينه وهى تُسعَّر وتُوقد وتشتعل وتحطم بعضُها بعضاً ، فإذا زحزح عنها فهذا نعيم ما بعده نعيم .

ولكن الله سيُدخله الجنة : ﴿ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ .. (٩) ﴾ [التغابن] فهى ليستْ جنة واحدة بل جناتٍ ، منها ما يخصّه ، ومنها ما يعمّ الجميع ويشتركون فيه .

ورسول الله ﷺ يقول : « موضع سَوْطٍ فى الجنة خير من الدنيا وما فيها،

اقـرأوا إنْ شئتـم : ﴿ فَمَـنْ زُحْـزِحَ عَنِ النَّـارِ وَأُدْخِـلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَـازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]»[1] .

وهى جنات : ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (٩) ﴾ [التغابن] ليست نهراً واحداً ، بل هـى أنهـارٌ جارية تجرى من تحت الجنات ، وقد فصّل الحق سبحانه هذه الأنهار ، فقال : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد]

ماء ولبن وخمر وعسل ، وليس هذا فقط ، بل : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (١٥) ﴾ [محمد]

هـذه الجنات وهذه الأنهـار سيُقيمون فيها خالدين أبـداً ، فلن يُخرجهم من نعيـم الله أحـدٌ ، وما داموا هـم خالدين فيها فكذلك هذا النعيـم خالد لا ينقطع عنهم ولا يتغيَّر ولا يزول ولا ينقص .

﴿ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ [التغابن] فالفوز الـذى تحصله فى الدنيا من إيمانك ومن عملك الصالح ليس هو الفوز العظيم ، بل هناك ما هو أعظم ، وهو مثوبة الله لك يوم القيامة .

فـأيُّ نعيم تُحصِّله فى الدنيا زائل ، وأيُّ جائزة أو فوْز فى الدنيا ذاهب ، أما فوزك يوم الجمع فهو الفوز العظيم ، لأنه فوزٌ ليس بعده خسران .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) عن سهل بن سعد الساعدى قال قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٥٠ ، ٦٤١٥) وأضاف : « ولغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » . أما أبو هريرة فقد رواه باللفظ الذى معنا ، أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠١٣) وقال : حسن صحيح . والحاكم فى مستدركه (٣١٧٠) وصححه على شرط مسلم ، وابن حبان فى صحيحه (٧٤١٧) وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤط .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾

حدَّثنا الحق سبحانه فى الآية السابقة فقال : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا .. (٩) ﴾ [التغابن] ثم حدَّثنا عن ثوابهم فقال : ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ [التغابن]

كذلك هنا قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ثم قال : ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ [التغابن] ، فكان جزاء الذين كفروا وكذَّبوا بآيات الله أنهم أصبحوا أصحابَ النار ، يُصاحبونها وتُصاحبهم .

والناس إما مؤمنون وإما كافرون ، هكذا خلقهم الله : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] لذلك دائماً يُحدِّثنا القرآن عن الفريقين ، فيقول : ﴿ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ (٧) ﴾ [الشورى]

وقد تكلَّمنا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعن ثوابهم ، ثم ثنَّى الحق سبحانه الكلامَ عن الذين كفروا ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (١٠) ﴾ [التغابن]

والكفر هو محاولة سَتْر وجود الله واجب الوجود ، وسَتْر وجود الله سبحانه هو إثباتٌ لوجوده ، لأنك لا تستر شيئاً غير موجود ، وهكذا يكون الكفرُ مثبتاً للإيمان .

وكيف تكفر بالله تبارك وتعالى وتستر وجوده ، وكلُّ ما فى الكون وما فى

نفسك شاهدٌ ودليل على وجود الحق سبحانه .

والذين كفروا صنفان .. صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكّم عقله وعرف الحق فآمن ، والصنف الآخر مستفيد من الكفر ولذلك فهو متشبثٌ بالكفر مهما جاءه من الإيمان والأدلة الإيمانية والآيات فإنه يعاند ويكفر .

فهو يريد أنْ يحتفظ بسلطاته الدنيوية ، ونفوذه القائم على الظلم والطغيان، ولا يقبل أنْ يُجرَّد منهما ولو بالحق ، هذا الصِّنف هو الذى قال عنه الله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ [البقرة]

إنهم لم يكفروا لأن بلاغاً عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم ، ولم يكفروا لأنهم فى حاجة إلى أنْ يلفتهم رسولٌ أو نبيٌّ إلى منهج الله ، هؤلاء اتخذوا الكفرَ صناعةً ومنهجَ حياة ، فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادة . ولأنهم متميزون عن غيرهم بالباطل ، ولأنهم لو جاء الإيمانُ الذى يساوى بين الناس جميعاً ويرفض الظلم لأصبحوا أشخاصاً عاديين غير مُميزين فى أيِّ شيء .

وهم لم يستحقُّوا أنْ يكونوا أصحابَ النار لمجرد أنهم كفروا ، بل أيضاً لأنهم:

﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (١٠) ﴾ [التغابن]

هؤلاء الذين كذَّبوا بآيات الله وصفهم الله بأنهم : ﴿ صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُمَاتِ (٣٩) ﴾ [الأنعام] والصَّمم آفةٌ تصيب الأذن فلا تسمع ، والبكم آفةٌ تُصيب اللسانَ فلا ينطق .

ومعنى أنهم : ﴿ صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُمَاتِ .. (٣٩) ﴾ [الأنعام] أنهم بلا قدرة أيضاً على إبصار الهداية من أيِّ ناحية ، صُمٌّ لا يسمعون لكلمة الحق ، وبُكْم لا ينطقون ، وفى ظلماتٍ لا يهتدون إلى إدراكات الأشياء ولا إلى الإيمان .

والذين كذَّبوا بآيات الله هم إما مَنْ كذَّب الرسول فى الآيات الدالة على

صِدقِه وهو المبلِّغ عن الله ، وهؤلاء دخلوا في دائرة الكفر ، وإما هم الذين كذَّبوا بآيات المنهج .

ومَنْ يكذِّب الآيات ويستكبر عن اتباع الرسول لا تُفتَّح له أبواب السماء ، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) ﴾ [الأعراف]

وبذلك نعرف مَنْ هم الذين لا تُفتَّح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تُفتَّح لهم أبواب السماء ، إنهم المؤمنون . وحين تصعد أرواحهم إلى الملأ الأعلى تجد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى ، أما المكذِّبون فهم لا يترقون بل يهبطون ولا يدخلون الجنة .

وقد علّق سبحانه دخولهم الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ .. (٤٠) ﴾ [الأعراف]

و(سَمّ الخياط) هو ثُقب الإبرة ، أي : الذي تُدخل فيه فتلة الخيط ، ولا تدخل فتلة الخيط في الثقب إلا أنْ يكون قُطر الفتلة أقلَّ من قطر الثقب ، وأنْ تكون الفتلةُ من الصلابة بحيث تنفذ ، وأنْ تكونَ الفتلةُ غير مستوية الطرف ، لأنها إنْ كانت مقصوصة وأطرافها مستوية فهي لا تدخل في الثقب ، لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سِناً ليُدخلها في ثقب الإبرة .

وحين تأتي بالجمل وتقول له : ادخل في سمِّ الخياط فهل يستطيع ؟ طبعاً لا، لذلك نجد الحق سبحانه قد علَّق دخول هؤلاء الجنةَ على مستحيل .

والذين كذَّبوا بآيات الله الكونية ولم يعتبروا بها ولم يستنبطوا منها وجود إله قوي قادر حكيم ، وكذبوا الآيات المعجزات لصدق النبوة ، وكذلك كذَّبوا آيات القرآن فلم يعملوا بها ولم يتمسَّكوا بها ، هؤلاء يلقون الحكم من الله فلن

يُدخلهم الحقُّ الجنة .

وإذا كان مشركو قريش قد كفروا بآيات الله ، فلماذا يكفر أهل الكتاب الذين يؤمنون بوجود الله ، ونزلتْ عليهم الكتب السابقة ، لذلك يقول سبحانه وتعالى لرسول الله: ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) ﴾ [آل عمران]

فكفرهم بآيات الله ليس سَتْراً أولياً لها ، إنما هم آمنوا بالله وآمنوا بأن له آيات ، وكانت البشارات بالإسلام وبمحمد ﷺ مكتوبةً فى التوراة ومكتوبة فى الإنجيل ، وهم قد آمنوا بها قبل أنْ يجيء سيدنا رسول الله ، فلما جاء رسول الله بالفعل كفروا بها .

وفى هذا جاء القول الكريم : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ(١) عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) ﴾ [آل عمران]

إن الحق يسألهم على لسان رسوله ﷺ : لم تكفرون بآيات الله العجيبة وأنتم تشهدون ؟ لقد كانوا يستفتحون على مَنْ يقاتلونهم بمجيء نبى قادم .

إنهم كانوا يدعون الله قائلين : إنّا نسألك بحقِّ النبى الأمى الذى وعدتنا أنْ

---

(١) أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل من طريق عاصم ابن عمر بن قتادة الأنصارى حدثنى أشياخ منا قالوا : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا ، كان معنا يهود وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا : إن نبياً يُبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما بعث الله رسوله اتبعناه وكفروا به ، ففينا والله وفيهم أنزل الله ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة] أورده السيوطى فى [الدر المنثور ١/٤٥٦] .

تُخرجه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم ، فكانوا يُنصرون على أعدائهم فلما بُعث ﷺ كفروا به بغياً وحسداً .

لقد كفروا من أجل السلطة الزمنية ، فقد كانوا يريدون الملْك والحكم ، وهؤلاء لم يلجئوا فقط لمجرد التكذيب ، بل قاموا بتحريف ما بأيديهم من الكتب الدالة على صحَّة نبوة رسول الله .

وصنف آخر كذّب بالبعث والحشر يوم القيامة ثم الحساب والجزاء ، وكذّب بآيات الله الظاهرة للعيان فى الكون ، والتى تدلُّ بذاتها على قدرة الله على البعث والإعادة .

وهؤلاء ذكرهم فى السورة التى معنا ، فقال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] هؤلاء أكّد الحقُّ سبحانه لهم ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ .. (٧) ﴾ [التغابن]

هؤلاء لن يدخلوا فقط النار ، بل سيُصبحون هم أصحابها ، سيُصبحون أصحابَ دار كما نقول فى الريف ، فبئس الدارُ دارهم ، دارُ نار وسعير وزقّوم وعويل وصياح وصديد وسلاسل وقيود واحتراق أجساد .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

فالحق يُديم عليهم الحياة ليُديم عليهم التعذيب ، إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائماً وأبداً ، وقد توصَّل العلم إلى أن الإنسان تقلُّ حساسيته للألم الناتج من الضرب بالسوط بعد العشرين سوطاً الأولى ، وهو بذلك ينسى أن العذاب فى الآخرة على نمط آخر .

إن الله يخلق للمعذَّب إحساساً جديداً ليظلَّ مُستشعراً دائماً العذاب، قال تعالى: ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) ﴾ [آل عمران]

وهكذا يستمر العذاب باستمرار الجلود وتبديلها، والمعروف عن النار أنها تأكل ما فيها ثم تنتهى، أما هذه النار فلا نهايةَ لها، فكلما نضجتْ جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها، وهكذا تظلُّ النارُ متوقدة لا تنطفيء.

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن هؤلاء الذين كفروا وكذَّبوا بآيات الله ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. (١٠) ﴾ [التغابن]

والحق سبحانه جمع الكافرين والمكذبين بآيات الله فى عقاب واحد، فقال: ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. (١٠) ﴾ [التغابن] والصاحب هو الذى يألف صاحبه ويحب أنْ يجلس معه ويقضى أجمل أوقاته.

فكان قوله تعالى ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ .. (١٠) ﴾ [التغابن] دليلاً على عشق النار لهم فهى تفرح بهم عندما يدخلونها، كما يفرح الصديق بصديقه ولا تريد أنْ تفارقهم أبداً، ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وهكذا نرى مدى العشق بين النار والكافرين، إن النار تصاحبهم فى كلِّ مكان، وهى ليستْ مصاحبة كريمة بالنسبة للنار، ولكنها مصاحبة تحبُّها النار، فالنار حين تحرق كل كافر وآثم ومنافق تكون سعيدة لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج الله وكذَّبوا بآياته فى الحياة الدنيا.

وكذلك الحال بالنسبة للجنة. فإن الجنة أيضاً تحب مصاحبة كلِّ مَنْ آمن بالله وأخلص له العبادة وطبَّق منهجه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَأَخْبَتُوا[1] إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ﴾ [هود]

أى أن الجنـة تصاحـب المؤمنـين وتحبهـم وتلازمهم مثلمـا تصاحب النار الكافريـن والمكذِّبـين ، وكما أن النار تكون سعيدة وهـى تحرق الكافر فالجنة تكون سعيدةً وهى تُمتع المؤمن .

فـ ﴿ أَصْحَـابُ النَّـارِ .. (١٠) ﴾ [التغابن] يعنـى : أَنْ يصاحب ويلازم المذنب النارَ كما يصاحب ويلازم الإنسانُ منا صاحبه، لأن النار على إلْفٍ بالعاصين، وهى التى تتساءل ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

فالصُّحبـة تقتضـى نوعاً من الملازمة فيها تجـاذبُ المتصاحبين ، ومعنى ذلك أنه سيكون هناك تجاذبٌ بينهم وبين النار .

وكلمـة (صاحب) تُطلق على مَنْ تعرفـه معرفةً تروق كيانك وذاتك، فهناك مَـنْ تصاحبـه ، وهناك مَنْ تصادقـه ، وهناك مَنْ تؤاخيه ، وهنـاك مَنْ تعرفه معرفةً سطحية ولا تقيم علاقةً عميقة معه .

إن المعرفة مراتب والصحبة تآلفٌ وتجاذبٌ بين اثنين ، ومَنْ يصاحب النار فهو مَنْ تعشقه النار ويعشق هو النار .

وهنـاك أيضـاً ﴿ أَصْحَـابُ الْجَحِيمِ (١٠) ﴾ [المائدة] فقال تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .. (١٠) ﴾ [المائدة]

وحـين نسمـع قوله تعـالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَحِيـمِ .. (١٠) ﴾ [المائـدة] تتزلزل النفوس رهبـة من تلك الصُّحبة التى نبرأ منهـا ، فالصُّحبة كما قلنا تدلُّ على التلازم وتعنى الارتباط معاً ، وألاّ يتركَ أحدُهما الآخر ، كأن الجحيمَ لا تتركهم وهم لا يتركون الجحيم ، بل تكون الجحيمُ نفسُها فى اشتياق لهم .

(١) ورد فى معنى (أخبتوا) سبعة معان : خافوا ربهم ، أنابوا إلى ربهم ، وثابوا إلى ربهم ، اطمأنوا ، أخلصوا ، تخشعوا لربهم ، تواضعوا لربهم . أوردها ابن الجوزى فى زاد المسير ٣/٣٣٣ .

وللجحيم يوم القيامة عملان ، العمل الأول الصحبة التى لا يقدر الكافر على الفكاك منها ، والثانى لا تترك الجحيمُ فرصةً للكافر ليفكّ منها . ولأن النار تعشق هؤلاء الكافرين وتنتظرهم ، قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا[1] حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١) ﴾ [الزمر] أما أهل الجنة وأصحابها فيقول سبحانه : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧٣) ﴾ [الزمر]

فالنار تُفتَّح أبوابها بمجرد ورود الكفار مُساقين إلى النار زمراً وجماعات، وكما نقول نحن : من الدار للنار .

أما أهل الجنة فهناك حفلُ استقبال لهم وتكريم على أبواب الجنة ، فجاءت الواو ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧٣) ﴾ [الزمر] مُشعرةً بأنّ أبوابَ الجنة تُفتح على تُؤدة ومهل للاحتفاء بالأبرار الوافدين لتستقبلهم الملائكةُ على أبواب الجنة، أما الذين كفروا وكذَّبوا بآيات الله الذين هم أصحاب النار فيُؤخذون من الموقف العظيم المهول إلى تنفيذ العقوبة عليهم فوراً ، بل إنهم يُدفعون دَفْعاً ويُزجرون زجْراً .

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور] أى يوم يُدفعون إلى نار جهنم دفعاً ، ويُساقون إليها سَوْقاً عنيفاً ، ويُجرُّون على وجوههم ويُقال لهم توبيخاً ولوْماً ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) ﴾ [الطور] فاليوم ذوقوا عذاب الخُلْد الذى لا يبلغ قدره ولا يُوصف أمره .

والدَّع هو الدفْع بعنف وجفْوة ، والمعنى أنهم يُدفعون إلى النار دفعاً عنيفاً شديداً ، وقال مقاتل : تُغلّ أيديهم إلى أعناقهم ، وتُجمع نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يُدفعون إلى جهنم دفْعاً على وجوههم .

---

(١) زمراً : جماعات . وقال ابن كثير فى تفسيره (١١٩/٧) : أى جماعة بعد جماعة . وقال البغوى : أفواجاً بعضها على إثر بعض : كل أمة على حدة . وقال السعدى : أى فرقاً متفرقة كل زمرة مع الزمرة التى تناسب عملها وتشاكل سعيها .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا.. (١٠) ﴾ [التغابن] هو قطعٌ لأمل هؤلاء الكافرين المكذِّبين لآيات الله فى أنْ يخرجوا من هذا العذاب، إنه الخلود الذى لا يفنى، ولا يتركه الإنسانُ ولايترك هو الإنسان.

فهم أصحاب النار تلازمهم ويلازمونها، فلا هى تزولُ عنهم ولا هم يُزحزحون عنها.

ولكن هل الخلود هو المكْث طويلاً أو على طريقة التأبيد؟ بمعنى أن زمن الخلود لا ينتهى، ولو أن زمن الخلود لا ينتهى لَمَا وصف الحق سبحانه المكث فى النار مرةً بقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا.. (٨٨) ﴾ [آل عمران] ومرة أخرى بقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا.. (١٦٩) ﴾ [النساء]

هذا القول يدلُّ على أن لفظ التأبيد فى «أبداً» فيه ملحظٌ يزيد على معنى الخلود دون تأبيد، وإذا اتحد القولان فى أن الخلود على إطلاقه يفيد التأبيد، وأن ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا.. (١٦٩) ﴾ [النساء] تفيد التأبيد أيضاً، فمعنى ذلك أن لفظ «أبداً» لم يأتِ بشىء زائد، والقرآن كلامُ الله، وكلامُ الله مُنزَّه عن العبث أو التكرار.

إذن: لابد من وقفة تفيدنا أن الخلود هو المكْث طويلاً، وأن الخلود أبداً هو المكث طويلاً طُولاً لا ينتهى، فكلُّ لفظٍ فى القرآن محكم وله معنى.

ثم إن كلمة (خالدين) حين وردتْ فى القرآن فإننا نجد الحقَّ سبحانه وتعالى يقول فى خلود النار: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ[1] وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ [هود]

---

(١) زفير وشهيق: أى صوت شديد وهو الزفير، وصوت ضعيف وهو الشهيق. قاله أبو بكر الجزائرى فى تفسيره (أيسر التفاسير). وقال السمرقندى فى بحر العلوم (٢/ ٣٥٥): قال الربيع بن أنس: الزفير فى الحلق والشهيق فى الصدر. وروى عن ابن عباس أنه قال: زفير كزفير الحمار وهو أول ما ينهق الحمار والشهيق، وهو أول ما يفرغ من نهيقه فى آخره. معناه: أنيناً وصراخاً.

ولم يقُـل الحـقُّ سبحـانـه بـالخلـود فى النـار أبـداً إلا فى ثـلاث آيات فقط فى القرآن الكريم :

فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (١٦٩) ﴾ [النساء] ، وقوله جلَّ جلاله : ﴿ إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِيـنَ فِيهَـا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) ﴾ [الأحزاب] ، وقوله جلَّ جلاله : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾ [الجن]

وقال رسول الله ﷺ : « يُؤتى بـالموت كهيئة كبش أملح[1] ، فينـادى مُنـادٍ : يا أهـل الجنة فيشرئبون وينظرون . فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت . وكلهم قد رآه .

ثـم ينـادى : يا أهل النـار فيشرئبون وينظرون ، فيقـول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت . وكلهم قد رآه ، فيُذبح .

ثم يقول : يا أهلَ الجنة خلودٌ فلا موت . ويـا أهلَ النار خلودٌ فلا موت »[2].

ثـم قـرأ ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِـي غَفْلَةٍ .. (٣٩) ﴾ [مريم]

وهؤلاء فى غفلة أهل الدنيا ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .. (٣٩) ﴾ [مريم]

فتجسيـد المـوت فى صورة كبْش معنـاه أن للمـوت كينونةً ، ويُعلمنـا الله أنه يقضى على الموت فنحيا فى خلود بلا موت ، فـالله يجسد الموت أمـامهم كهيئة كبشٍ أملـح ، فيشرئـب أهل الجنـة وأهل النـار نـاظرين إلى هذا الـذى جِيءَ به

---

(١) الكبش الأملح هو الذى فى أطراف صوفه بياض يشتمل على سائر جسده [الاشتقـاق لابن دريد ١٢/١] قال الكسائى وأبو زيد : الأملح الذى فيه بياض وسواد ويكون البياض أكثر . [ابن منظور فى لسان العرب – مادة : ملح] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٣٠) ومسلم فى صحيحه (٧٣٦٠) وكذا أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٣١٦٥) .

فيروْنــه ويتحقّقــون منه أنه الموت. فيذبحه الله أمامهم ، وهذا قطْعٌ لأمل الذين كفروا فى النجاة مما هم فيه من العذاب ، فالموتُ قد مات .

والحق سبحانه كما أثبتَ الخلود فى النار لهؤلاء الكافرين الذين كذّبوا بآيات الله ، فهو سبحانه قطع أملهم أيضاً فى تخفيف العذاب عنهم أو حتى النظر فى أمرهم ، أو إليهم ، سواء كان نظراً حقيقياً أو نظر رحمة .

يقول تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢) ﴾ [البقرة] فلا يجب أنْ يعيشوا على أمل أن العذابَ فى الآخرة سيُخفف عنهم أو ستقلّ درجته أو تنقص مدته ، أو سيأتى العذاب يوماً ولا يأتى يوماً .

فالإنسان عندما يُعذَّب بشيء ، فإن تكرارَ العذاب عليه ربما يجعله يألف العذاب، ولكن الواقع يقول : إن العذابَ يشتد عليه ، فالتخفيف لا علاقةَ له بالزمن.

فالعذاب يظلّ دائماً أبداً ، وقد يظنُّ بعض الناس أن الكافر ما دام سيدخل النار ويحترق فسوف ينتهى أمره ، لا إنه يغفل قضية ويذكر قضية ، إنه يتناسى قوْلَ الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ[1] نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

وعذابهم مؤكد ولا يتركهم الحق ليستريحوا من عذابهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) ﴾ [غافر]

ويقول تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦) ﴾ [البقرة] ولا يملك أحدٌ تخفيفه . ويقول تعالى أيضاً : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف]

فأصحاب النار ينادون مالكاً خازنَ النار ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ .. (٧٧) ﴾

---

(١) سوف نصليهم : سوف ننضجهم فى نار يُصلوْن فيها أى يشوون فيها [الطبرى فى تفسيره (٨/ ٤٨٤) وقال البغوى فى تفسيره : ندخلهم ناراً . قال السمرقندى (١/٣٩٣) يقال : صلى إذا دخل النار لأجل شيء وأصلاه إذا أدخله للاحتراق . والاصطلاء بالنار الاستدفاء .

[الزخرف] يعنى : بالموت لنستريح مما نحن فيه من العذاب الدائم الذى لا ينتهى .

﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [التغابن] أى : باقون فى النار خالدون فيها لأنه لاعذر لكم . وهكذا قضى **الله** الأمرَ ليقطع الأملَ على الكفار الذين قد يظنون أن الموت سيأتى ليُخرجهم مما هم فيه من العذاب ويُريحهم ، فقطع **الله** عليهم هذا الأمل وآيسهم منه ، حيث جاء بالموت مُشخَّصاً وذبحه أمامهم، فلا موتَ بعد الآن ، فقد مات الموت .

لذلك وصف الحق سبحانه مصيرهم هذا بأنه ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ [التغابن] والمصير هو المرجع الأخير لأى شيء ، ومعنى ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ [التغابن] أى : ساءتْ نهايتكم ومرجعكم . وهى تُستعمل لذمٍّ وتقبيح الشيء . فحين تكون النار هى المأوى الأخير الدائم ، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟

إنهم لم يجدوا منفذاً إلا أنْ يدخلوا جهنم ، وهى بطبيعة الحال بئس المصير.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١) ﴾

لاشيء يخرج عن تقدير **الله** ، وقد جفَّ القلم على ما كُتب ، وعلى ما قُدر ، فلا يستطيع أحدٌ أنْ يتأبَّى على **الله** إذا أراد أنْ يُمرضه أو يُفقره أو يُميته .

فليس فى كوْن **الله** شيءٌ يستطيع الخروج عن مرادات **الله** ، وما دُمْتَ لا تقدر فلتخضع راضياً وتكسب الأمر ، وتأخذ الصبر على مقادير **الله** ، لتذوق

وتستعذب طعم الإيمان بأنَّ الله عليم ، وأنه حكيم وأنه قادر .

وقال عبادة بن الصامت[1] لابنه : يا بُنى إنك لن تجد طعمَ حقيقة الإيمان حتى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكُنْ ليُخطئك ، وما أخطأك لم يكُنْ ليصيبك . سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق اللهُ القلم فقال له : اكتب . قال : ربِّ وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كلِّ شيء حتى تقوم الساعة . يا بُنى إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ مات على غير هذا فليس منى »[2] .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) ﴾ [التغابن]

فبعد أنْ ذكر الحقُّ سبحانه ثوابَ مَنْ آمن ، فقال : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ [التغابن]

ثم ذكر سبحانه جزاء من كفر ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ [التغابن]

أراد الحقُّ سبحانه أنْ يوضح لنا عناصر هذا الإيمان الذى طلبه من الناس ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) ﴾ [التغابن]

إيمانٌ بالله ، وإيمانٌ برسوله ، وإيمانٌ بالكتاب الذى أُنزل معه وهو القرآن، ثم إيمانٌ بالقدر ، لذلك قال تعالى هنا : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ .. (١١) ﴾ [التغابن]

---

(١) هو : عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى أبو الوليد ، صحابى ، ولد ٣٨ قبل الهجرة . من الموصوفين بالورع ، شهد العقبة وكان أحد النقباء وبدراً وسائر المشاهد ، ثم حضر فتح مصر ، وهو أول من ولى القضاء بفلسطين ومات بالرملة أو ببيت المقدس عام ٣٤ هجرية عن ٧٢ عاماً ، كان من سادات الصحابة . [الأعلام للزركلى ٣/٢٥٨] .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٧٠٢) والبيهقى فى السنن الكبرى (٢١٤٠٠) والطبرانى فى مسند الشاميين (٥٩) والبيهقى فى القضاء والقدر (٨) وأبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء (٥/٢٤٨) عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

وقد روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب . شديدُ سواد الشعر لا يُرى عليه أثرُ السفر ، ولا يعرفه منَّا أحدٌ ، حتى جلس إلى النبى ﷺ ، فأسند رُكْبتيه إلى رُكبتيه ، ووضع كفَّيه على فَخِذيه .

قال : يا محمد أخبرنى عن الإيمان ، فقال رسول الله ﷺ : أنْ تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقتَ »(١) .

فهناك أشياء تجرى على الإنسان لا اختيارَ له فيها كأنْ يمرض ولا يقدر أنْ يقول : لا لن أمرض . أو قد يأتيه الموتُ فلا يقدر أنْ يقول : لن أموت .

وقد يهلك ماله أو تحترق داره فلا يستطيع رفْع القدر ، والمصائب هى من قَدر الله عزَّ وجل ، وهى تأتى لإفادة المؤمن ، فالمؤمن حين يُصاب إمَّا أنْ يُكفِّر الله عنه ذنباً ، وإمَّا أنْ يرفعه درجةً .

فإنْ استقبل المؤمن المصيبةَ بالرضا وعلم أنَّ الذى أجراها عليه حكيم ولا يجرى عليه إلا ما يعلم سبحانه أنه الخير وإنْ لم يعلمه المصاب ، فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف .

فالمؤمن يستقبل كلَّ قدر الله عليه بالرضا ، فالذى يُجرى عليه القدر ما دام لم يأمره بما لم يقع فى اختياره فهو حكيم ، ولا يُجرى سبحانه عليه إلا ما كان فى صالحه ، وبعد أنْ ترضى النفس بما أجرى عليها تعرف الحكمة .

فلو أحسنتَ استقبال القدر فيما يمرُّ بك من أحداث ، لعلمتَ تقصيرك فيما لك فيه دخْلٌ بأىِّ حادث وقع عليك نتيجة لعملك ، أما ما وقع عليك ولا دخْلَ لك

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٦٧) والنسائى فى سننه (٤٩٩٠) والطيالسى فى مسنده (٢١) والبيهقى فى سننه الكبرى (٢١٣٩٣) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو حديث جبريل يسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان وقد كان على هيئة بشرية .

فيه فهذا من أمر القدر الذى أراده الحق لك لحكمةٍ قد لا تعلمها وهى خيرٌ لك .

إذن : استقبال القدر إنْ كان من خارج النفس فهو لك ، وإنْ كان من داخل النفس فهو عليك ، ولو قمتَ بإحصاء ما ينفعك من وقوع القدر عليك لوجدته أكثَر بكثير مما سلبه منك .

فعلى الإنسان المؤمن أنْ يكون موصولاً بالمسبِّب الأعلى وأنْ يتوكل عليه سبحانه وحده ، وأنْ يعلم أن التوكل على الله يعنى أن تعمل الجوارحُ ، وأنْ تتوكلَ القلوب ، لأنّ التوكلَ عملُ القلوب وليس عمل القوالب .

ولينتبه كلٌّ منَّا إلى أن الله قد يُغيِّب الأسباب كى لا نغتر بها ، وبذلك يعتدل إيمانك به ويعتدل إيمان غيرك ، فتسجد لله شكراً ، مُتقبِّلاً قضاء الله وقدره .

ولهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وهكذا نجد أن مَنْ يقبل قدرَ الله فيه ، ويذكر أنَّ له رباً فوق كل الأسباب فالاطمئنان يعمر قلبه أمام أىِّ حدث مهما كان .

والمسلم إذا استسلم لقضاء الله ورضى بقدره فسوف يجنى ثمار هذا الاستسلام ، والذى يُطيل أمد القضاء على الناس أنهم لا يرضوْن به ، والحقُّ تبارك وتعالى لا يُجبره أحد ، فالقضاء نافذ نافذ ، رضيتَ به أم لم ترْضَ .

وحين تُسلِّم لله وترضى بقضائه يرفعه عنك ، أو يُبين لك وجه الخير فيه . إذن : عليك أنْ تحترم القدر وترضى به ، لأنه من ربك الخالق الحكيم ، ولا يُرفع قضاءُ الله عن الخَلْق حتى يرضوا به .

وكثيراً ما نرى اعتراض الناس على قضاء الله خاصة عند موت الطفل الصغير ، فتراهم يُكثرون عليه البكاء والعويل ، يقول أحدهم : إنه لم يتمتع بشبابه .

ونعجب من مثل هذه الجهالات : أىّ شباب ؟ وأية متعة هذه ؟ وقد فارق فى صِغَره دنيا باطلة زائلة ، ومتعة موقوتة إلى دار باقية ومتعة دائمة ؟ كيف وقد فارق العيش مع المخلوق ، وذهب إلى رحاب الخالق سبحانه ؟

وحين تجرى عليك الأقدار المؤلمة فيكفيك للصبر عليها أنْ تعلم أنها حكمة لله ، ويكفيك أنْ مُجريها عليك ربُّك .

وإذا أيقن المصابُ أنَّ ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ .. (١١) ﴾ [التغابن] فلا بدّ أنْ يرجع إلى الله ، يقول تعالى عمن أصيب ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة]

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهى مأخوذة من إصابة الهدف ، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قدْر إيلامها يكون الثوابُ عليها .

ومعنى قولهم ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة] أى نحن مملوكون لله ونحن راجعون إليه ، وحتى إنْ كان فى مصائب الدنيا ظلْم لنا وقع علينا من إنسان ، فسوف نأخذ ثوابَ ما ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله .

إذن : فنحن لله ابتداء بالملكية ، ونحن لله نهاية فى المرجع ، هو سبحانه ملك القوسين الابتداء والانتهاء ، ولذلك علَّمنا رسولُ الله ﷺ عند أىِّ مصيبة تصيب الإنسان أنْ نسترجع ، أى أنْ نقول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة] وزادنا أيضاً أنْ نقول : « اللهم أَجِرْنى فى مصيبتى واخلُفْ لى خيراً منها »[1]

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢١٦٥) عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (١٦٣٨٨، ٢٦٦٧٧) والبيهقى فى السنن الكبرى (٧٣٧٦) .

إنك إذا ما قلتها عند أى مصيبة تصيبك فلا بدَّ أنْ تجد فيما يأتى بعدها خيراً منها .

والمؤمن قد يُصاب فى عزيز لديه ، ثم يقف موقفاً إيمانياً فى استقبال هذه المصيبة ويقول : « إن حزنى لن يرده فالأفضل أنْ أكسب به الجنة » .

ويزيد على ذلك : يكفينى عزاءً الأجر عليه ، فأنا لم أكُنْ سآخذ منه طيلة حياته مثل الأجر الذى سآخذه فى صبرى على مصيبتى فيه .

فإذا ما أُصيب الإنسان بمصيبة فما عليه إلا أنْ يرضى ويقول : ما دامت هذه المصيبة لا دخْلَ لحركتى فيها وأجراها عليَّ خالقى فهى اختبارٌ منه سبحانه .

فمَنْ تحدُث له مصيبة بأنْ يموت ولد له ، ويظل فاتحاً لباب الحزن فى البيت وتبكى الأم كلما رأتْ مَنْ فى مثل سِنِّه فسيظل باب الحزن مفتوحاً، وإنْ أرادوا أنْ يزيل الله عنهما هذا الابتلاء فليقفلا باب الحزن بالرضا .

وليعلم كل مؤمن أنَّ ما أُخذ منه هو مُعوَّض عنه بأجر خير منه ، والمأخوذ الذى قبضه الله إليه وتوفاه معوَّض بجزاء خير مما يترك فى الدنيا .

ولذلك يُقال : المصاب ليس مَنْ وقعت عليه مصيبةٌ وفارقه الأحباب ، بل المصاب مَنْ حُرم الثواب(١) ، فكأنه باع نكبته بثمن بخس .

فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها إنما يحيا فى متعة ، ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناسٌ خالقهم على المصائب ، لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة قد تأتى للإنسان بنعمة أوسع مما أفقدته .

---

(١) أخرج البيهقى فى سننه الكبرى (٧٣٤٢) عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : لما توفى رسول الله ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول : إن فى الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل ما فات فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المصاب من حُرم الثواب . وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٣٩١) وصححه ووافقه الذهبى .

فعليـك أنْ تستقبـل هـذه المصيبة بالرضـا ، وإياك أنْ تفصـل المصيبة عن مُجريهـا وفاعلهـا ، بـل تأمل مـا يعقبها من الخـير ، ولا تفصـل المصيبة عن مجريها عليك ولا تقنط .

فالقنـوط عنـد المصيبة لا محلّ له ، ولو ربطتَ المصيبة بمجريها لعلمتَ أنه حكيـم ، ولابـد أنْ تكون له حكمةٌ قد تغيب عنك الآن ، لكن إذا أدرْتَ المسألة فى نفسك فسوف تصل إلى هذه الحكمة .

والمصيبة لا تصيب أحداً إلا بإذن **الله** ، فلا يجرى فى مُلْك **الله** شيء لايريده **الله** .

لذلك يقول تعالى : ﴿ **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا** .. (٥١) ﴾ [التوبة] فإنه لـن يحـدث لنا إلا مـا كتبـه **الله** لنـا . والـحق سبـحـانه قـال : ﴿ **مَـا كَتَبَ اللهُ لَنَا** .. (٥١) ﴾ [التوبة] ولم يقُلْ : مـا كتب **اللهُ** علينـا .

وعندما نتأمل هذا نجد هذه المسألة ستكون لحسابنا ، وسنأخذ عليها حُسن الثواب من **الله** . ولم يقُل الحق : كتب **اللهُ** علينـا لأنها لو كانت كذلك لكانَ معناهـا أنها جزاءٌ وعقابٌ من **الله** .

فالمؤمـن يستقبـل كلَّ مصيبـة متوقعاً أنْ يأتى له منها خـير ، ومـا دُمْنـا لا نستطيع أنْ نمنع وقوع المصائب والأحداث فلنقبلها كمؤمنين .

وهـو سبحانـه الذى كتب لنـا ، وهـذا يُشعرنـا أن المصيبة تقـع لمصلحة مَنْ يُصـاب بها ، فإنْ رأيتم مصيبةً قد نزلـت بنا وظننتم أنها تُسيئنا فاعلموا أننا نثـقُ فيمَنْ أجراهـا ، وأنه أجراها لحكمة تأديبية لنا ، وأنَّ كل شيء مكتوبٌ لنا لا علينا .

فـكلُّ مـا كتبه **الله** هو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً وإما ثواباً ، وإما ارتقاءً فى الحياة ، ولذلك فهو خير .

وقولـه تعـالى : ﴿ إِلَّا بِـإِذْنِ اللهِ .. (١١) ﴾ [التغابـن] فكـوْن المصيبة لا تقع بـالإنسـان إلا بإذنـه سبحانه ، وهذا محض نعمة من الله لأنه ينقذ الإنسانَ من التذلُّل للآخرين ، فهؤلاء الآخرون لا يستطيعون الإضرار به إلا إذا كان هذا مما كتبه الله .

وهـذا تأكيـد لما قالـه رسول الله فى الحديـث النبوى الشريـف : « إذا سألتَ فاسـأل الله ، وإذا استعنـتَ فاستعِـنْ بالله ، واعلم أن الأمـةَ إذا اجتمعتْ على أنْ ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءقد كتبه اللهُ لك ، ولو اجتمعوا على أنْ يضروك فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك ، رُفِعت الأقلامُ وجفَّتْ الصُّحف »[1].

ثم يقول الحق سبحـانه : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ باللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن] ومن عظمـة الإيمان أن الإنسان حين يؤمـن بـالله وتخلُص النية بهذا الإيمـان ، وبعد ذلك جاء قدر الله بما لا يحبه الإنسان تجد هذا الإيمان يهدى قلبه .

ويهدى أى يدل ويرشد ويُبين ويُوضح ، هذه هداية الدلالة ، وهنـاك هداية التوفيق والمعونة ، وهو المعنى الأرجح هنـا : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ باللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن]

أى يوفـق قلبـه ويُعينـه علـى تقبُّل قـدر الله وقضائـه فيما قـد يصيبه من المصائب ، والله هو الهادى ونحن المهديون والغاية هى الصراط المستقيم .

فللاهتـداء سبيلٌ واحد لا غير هو منهجُ الله تعالى ، وصراطه المستقيم الذى يجعله صابراً محتسباً راضياً .

وقـد فسَّر حَبْر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس قوله : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بـاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابـن] يعنى : يهد قلبه لليقين ، فيعلم أنَّ ما أصابه لم يكُنْ ليُخطئه ، وما أخطأه لم يكُنْ ليُصيبه .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٥١٦) وقال : حسن صحيح . وأخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٦٣) ، وأبو يعلى فى مسنده (٢٥٥٦) وصححه حسين سليم أسد ، وهو عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وعن أبي العالية[1] قال: إن الله قضى على نفسه أن مَنْ آمن به هداه، ومَنْ توكل عليه كفاه، ومَنْ أقرضه جازاه، ومَنْ وثق به أنجاه، ومَنْ دعاه استجابَ له بعد أنْ يستجيب الله [2].

وقال مقاتل بن سليمان[3]: مَنْ يصدق بالله في المصيبة ويعلم أن المصيبة من الله ويسلم لأمر الله يهده الله تعالى للاسترجاع يقول: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة]

فمعنى ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن] يوفق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه، لأنه يعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى.

حينها هدى الله قلبه فاطمأنَّ ولم ينزعج عند المصائب ويرزقه الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثوابٌ عاجل مع ما يدخره الله له يوم الجزاء من الثواب.

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (١٠) ﴾ [الزمر]

---

(١) هو أبو العالية رفيع بن مهران الإمام المقرئ الحافظ المفسر، الرياحي البصري أحد الأعلام. كان مولى لامرأة من بني رياح بن يربوع ثم من بني تميم، أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، سمع من عمر وعلي وأبي ذر وجمع من الصحابة. مات سنة ٩٣ هجرية.

(٢) أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/٢١١) قال أبو العالية: إن الله قضى على نفسه أن من آمن به هداه وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن] ومن توكل عليه كفاه وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] ومن أقرضه جازاه وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة] ومن استجار من عذابه أجاره، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران] والاعتصام بالله الثقة. ومن دعاه أجابه وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة] وقد أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٢٢١).

(٣) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي أبو الحسن، من أعلام المفسرين، أصله من بلخ انتقل إلى البصرة ودخل بغداد فحدث بها وتوفي بالبصرة عام ١٥٠ هجرية، كان متروك الحديث، من كتبه التفسير الكبير، ونوادر التفسير، والرد على القدرية، ومتشابه القرآن. الأعلام للزركلي (٧/٢٨١).

أمـا مَنْ جزع وهلع فلا يثبت أمـام المصائب جميعها فى النفس والمال والولد والأحباب .

فمَـنْ هـدى الله قلبـه لا يجزع بل يصبر صـبراً جميلاً ، وهو يكـون صبراً لا شكوى فيه ولا جزع ولا فزع .

والإنسـان إذا ما وقع فى مأزق أقوى مـن قدراته ولا فجوة فيه للنجاة فهو يستقبـل هذا المأزق بأحد الاستقبالين : الاستقبـال الأول أنْ يجزع ويتضرع . والاستقبال الثانى أنْ يصمد ويصبر .

والمؤمنـون هـم أهـل الابتـلاء مـن الله ، والابتـلاء مـن الله نعمـة ، فمجرد الابتلاء ليس شراً ، ولكن الشر هو أنْ تسقط فى الابتلاء ، فكلُّ ابتلاءٍ هو اختبارٌ وامتحـان.

ويقـول تعـالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ [البقرة]

فـأول تلـك الابتلاءات هو الخـوف ، فـأنت بخوفك تُعـين مصدر الخوف على نفسك ، فلا تعِشْ فى فزعك وخوفك قبل أنْ يأتيك .

فآفـةُ النـاس أنهـم يعيشون فى المصائب قبل وقوعهـا ، وهم بذلك يطيلون علـى أنفسهم أمدَ المصائـب ، فـالمصيبة قد تـأتى مثلاً بعـد شهر ، فلماذا تطيل من عمر المصيبة بـالتوجس منها والرهبة من مواجهتها ؟

ولك أنْ تعرف أنَّ الحق سبحـانه سـاعةَ تـأتى المصيبة فهو برحمته يُنزل معها اللطـف ، فكأنـك إنْ عِشْتَ فى المصيبة قبل أنْ تقـع ، فـأنت تعيش فى المصيبة وحدهـا معزولة عن اللطف المصاحب لها ، لكن لو ظللت صابراً محتسباً قـادراً على مواجهة أى أمرٍ صعب فـأنت لن تعيش فى المصيبة بدون اللطف .

وثانى الابتلاءات هو الجوع ، وثالثها نقص الأموال ، ورابعها نقص الأنفس، وخامسها صبر على نقص الثمرات .

المهم أنْ ينجح المؤمنُ فى كلِّ هذه الابتلاءات حتى يواجه الحياةَ صلباً ويواجه الحياة قوياً . والابتلاء غير مذموم فى ذاته ، وهو اختبارٌ قد ينجح فيه إنسان ، وقد يفشل فيه إنسانٌ آخر .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن] فالذى ينجح إنما هو مَنْ آمن حقَّ الإيمان ، وذاق حلاوة إيمانه بأن المقادير تجرى بيد الله ، هذا المؤمن يهدى اللهُ قلبه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) ﴾ [التغابن] فالله بكلِّ شيء ذو علم بما كان ويكون وما هو كائن من قبل أنْ يكون ، فلا يخفى عليه تسليمُ مَنْ انقاد وسلَّم لأمره ، ولا كراهةَ مَنْ كرهه . فالله عليمٌ بليغُ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية ، ولايحدث حدث فى الكون إلا بعلمه وإذنه .

وهو سبحانه عالمٌ بثواب مَنْ صبر على المصيبة ، عليمٌ بكل شىء ، عليم بما نُخفي وما نعلن ، عليمٌ بالسر وما هو أخفى من السر ، ولا تغيب ذرة من مُلكه عن علمه .

فالله عليمٌ بما تكون عليه أحوال الناس ، يعرف الأقوال وكذلك الأفعال والخبايا ، وعِلْم الله شاملٌ ، إنه يعلم ما فى نيتك ، ويعلم مدى صبرك على ما أصابك ومدى يقينك وتسليمك لله عز وجل .

والأب هنا يُوصى ابنه وصيةَ الموت الذى سيفارق بها الدنيا مُقبلاً على الله عزَّ وجل ، تاركاً الدنيا ، وذلك أن الوليد بن عبادة بن الصامت دخل على أبيه عُبادة وهو مريض يتخايل فيه الموت .

يقول الوليد : فقلتُ يا أبتاه أوصنى واجتهد لى . فقال : أجلسونى . فقال: يا

بنى إنك لن تطعم طعم الإيمان ، ولن تبلغ حقَّ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره .

قال قلتُ : يا أبتاه فكيف لى أنْ أعلم ما خير القدر وشره ؟.

قال : تعلم أنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بُنى إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : إنَّ أولَ ما خلق الله تبارك وتعالى القلم . ثم قال : اكتب . فجرى فى تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة ، يا بُنى إنْ متَّ ولسْتَ على ذلك دخلتَ النار(١) .

ولكن من المصائب ما يكون بسبب من المصاب نفسه ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) ﴾ [الروم]

ولو ربطتم وجود الرحمة أو المصيبة بمَنْ فعلها لعلمتُم أنه حكيم فى هذه وفى تلك ، ولو نظرتَ إلى المصيبة التى تُحزن الناس فيقنطون وييئسون بسببها. ولو نظرتَ إلى مَنْ أنزلها بك لارتاح بالُك واطمأنتْ نفسُك ، فالمصيبة تعنى الشيء الذى يُصيبك خيراً كان أو شراً .

وكلمة أصاب تدل على أنَّ سهم المصيبة أُطلق عليك ، وعمرها مقدار وصولها إليك ، فهى لابد صائبتُك لن تتخلَّف عنك أبداً ، ولن تُخطئك لأن الذى أطلقها إلهٌ وربٌّ حكيم .

فإنْ كانت حسنة فسوف تأتيك فلا تُتعب نفسك ولا تزاحم الناس عليها ، وإنْ كانت سيئة فإياك أنْ تقول : أحتاط لها لأدفعها عن نفسى لأنه لا مهربَ لك منها .

ثم لماذا تقنط وتيئس إنْ أصابتْك مصيبة ؟ لماذا لا تنتظر وتتأمل لعلَّ لها

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٧٥٧) والطبرانى فى مسند الشاميين (١٩٤٩) والضياء المقدسى فى الأحاديث المختارة . من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

حكمة ، ولعلَّ من ورائها خيراً لاتعلمه الآن ، وربما كانت ضائقة سوف يكون لها فرجٌ قريب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾

يأمر الحق جل جلاله المسلمين بطاعة الرسول ﷺ لأنها من طاعة الله ، فيقول جَلَّ وعلا : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾ [النساء]

فطاعةُ رسول الله من طاعة الله ، ومَنْ يُعرض عن طاعته فله العقاب في الآخرة ، بل قال تعالى عمَّنْ تمرد على طاعة رسول الله : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) ﴾ [آل عمران]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنتُ جالساً مع رسول الله ﷺ في رجال من أصحابه ، فقال رسول الله : أليس تعلمون أنِّى رسول الله إليكم ؟ قالوا : نشهد أنك رسول الله .

قال : أليس تعلمون أن الله تبارك وتعالى أنزل فى كتابه أنه من أطاعنى فقد أطاع الله ؟

قالوا : نشهد أنه مَنْ أطاعك فقد أطاع الله ، أمر اللهُ بطاعتك . قال : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإنَّ طاعة الله طاعتى ، وإن طاعتى أنْ تُطيعوا أئمتكم ، فإنْ صلّى قاعداً فصلُّوا قعوداً[1] .

والطاعة أنْ تمتثل أمراً وتجتنب نهياً ، تلك هى الطاعة ، كل منهج أو دين ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥٦٧٩) ، والبزار فى مسنده (٦٠٩٣) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٠٦٠) وأبو جعفر الطحاوى فى شرح مشكل الآثار (٥٦٤٤) وابن عساكر فى معجم شيوخ ابن عساكر (٧٣٣).

أمر أو نهى ، فامتثل الأمر واجتنب النهى .

وأنت إذا تصفحتَ القرآن وجدت آيات الطاعة المطلوبة من المؤمن بمنهج **الله**، والذى شهد بأنه لا إله إلا **الله** وأنَّ محمداً رسولُ **الله** تتمثل فى الأمر والنهى.

فإذا ما استقرأتَ القرآن وجدت أن الحق سبحانه يقول مرة فى الطاعة : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ .. (٣٢) ﴾ [آل عمران] ولم يكرر الحق هنا أمر الطاعة فالمطاع هو المكرر ، فـ (أطيعوا) أمر واحد ، نطيع مَنْ ؟ **الله** والرسول ، المطاع هنا هو **الله** والرسول .

ومرة يكرر أمر الطاعة ، فيقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٩٢) ﴾ [المائدة] ومرة ثالثة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾ [النور]

ومرة رابعة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ .. (٥٩) ﴾ [النساء]. وأدخل هنا أُولي الأمر أيضاً .

فإذا قال لك : أطيعوا **الله** والرسول ، فالأمر قد توارد فيه حكم **الله** وحكم الرسول . إذن : فتطيع فيه **الله** والرسول ، وإذا كان **لله** أمر إجماليٌّ وللرسول أمر تفصيليٌّ كالصلاة والزكاة والحج . إذن : فتطيع **الله** وتطيع الرسول .

وإذا لم يكُنْ **لله** أمرٌ فيه بل جاء من باطن التفويض فى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

فهذا الأمر أطيع فيه الرسولَ لأنه جاء فى آية أخرى قوله : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ .. (٨٠) ﴾ [النساء] لماذا : لأن الرسول عمل بالتفويض الذى أعطاه **الله** له حسب قول الحق : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا.. (٧) ﴾ [الحشر]

فقوله : (أطيعوا **الله**) يلزم منها إطاعة الرسول ، فلرسول **الله** ثلاثةُ ملاحظ

في التشريع : ملحظ يشرع فيه ما شرع الله تأكيداً له ، أو أن الله قد شرع إجمالاً، والرسول عيَّن تفصيلاً .

والأمثلة على ذلك أن الله فرض علينا خمس صلوات ، وفرض علينا الزكاة ، وهذه تكليفاتٌ قالها ربّنا ، والرسول يُوضِّحها : النّصاب كذا ، والسهم كذا .

إذن : فنحن نطيع ربنا فى الأمر إجمالاً ، ونطيع الرسول فى الأمر التفصيلى. أو أن الأمر لم يتكلم فيه اللهُ حكماً ، وإنما جاء من الرسول بتفويض من الله .

ولذلك فإن قال لك أيُّ إنسان عن أيِّ حكم من الأحكام : هات دليله من القرآن ولم تجد دليلاً من القرآن فقُلْ له : دليل أى أمر قال به الرسول من القرآن هو قول الحق : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

والحق سبحانه يأمر المسلمين بطاعة الرسول ﷺ لأنها من طاعة الله ، فيقول جلَّ وعلا : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾ [النساء]

فطاعة الرسول من طاعة الله ، ومَنْ يُعرض عن طاعته فله العقاب فى الآخرة، ويؤكد الحق سبحانه على طاعته وطاعة الرسول ، فطاعة الرحمن تستوجب طاعة الرسول .

والطاعة هى طاعةٌ بألوان التكليف وأنواعها ، فمرة يكون الأمر من الله قد جاء بها ، وأن يكون الرسول قد أكَّدها بقوله وسلوكه ، فالمؤمن حين يطيع فى هذا الأمر الواحد فهو يطيع الله والرسول معاً . ومرة يأتى حكمٌ من الله إجمالاً ويأتى الرسول ليُفصِّله .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾ [النور]

فالواحد منا لم يكُنْ يعرف كم صلاة فى اليوم ، ولا عدد الركعات فى كل

صلاة ، ولا نعرف كيفيتها لكنَ الرسول ﷺ قد فصَّل لنا الأمر فى كل صلاة .

إذن : فالمؤمن يطيع الله فى الإجمال ، ويطيع الرسول فى التفصيل ، إنَّ علينا أن نلتفت إلى أنَّ هنا طاعتين : الأولى طاعة الله . والثانية طاعة الرسول . أما فى الأمر المتحد فتكون الطاعةُ لله والرسول لأنه أمرٌ واحد ، وأما الأمر الذى جاء من الله فيه تكليف إجمالى فقد ترك اللهُ للرسول ﷺ بيانه .

فالمؤمن يطيع الله فى الأمر الإجمالى كأمر الصلاة وإقامتها ، ويطيع الرسول فى تفصيل أمر الصلاة وكيفيتها ، وأحياناً يجيء الحكم بالتفويض الأعلى من الله للرسول .

لقد ترك الحق سبحانه للرسول أنْ يصدر التشريعات اللازمة لاستقامة حياة المؤمنين ، لقد أعطاه الحق سبحانه التفويض العام ، وما دام سبحانه قد أعطى الرسول التفويض العام فإنَّ طاعة المؤمن تكون للرسول فيما يقوله الرسول ، وإنْ لم يقُلْ الله به .

إننا على سبيل المثال لا نجد فى القرآن دليلاً على أن صلاة الفجر ركعتان، لكن الرسول ﷺ هو الذى فصَّل لنا الصلاة فعرفنا أن الفجر ركعتان ، والظهر أربع ركعات ، والعصر مثل الظهر ، والمغرب ثلاث ركعات ، والعشاء أربع ركعات[1] .

والطاعة مطلوبة ممَّنْ آمن ، فيقول تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ .. (٥٩) ﴾ [النساء]

فما دُمْتَ قد آمنت بالله إلهاً حكيماً خالقاً عالماً مُكلِّفاً فاسمع مايريد أنْ يقوله لك ، فلم يكلف اللهُ مطلق الناس بأنْ يطيعوه ، إنما دعا مطلق الناس أنْ

(١) عن أبى مسعود قال : أتى جبريل عليه السلام النبى ﷺ فقال : قم فصل وذلك لزوال الشمس حين مالت الشمس ، فقام فصلى الظهر أربعاً ثم أتاه حين كان ظله مثله فقال : قم فصل فصلى العصر أربعاً . ثم أتاه حين غربت الشمس فقال : قم فصل فصلى المغرب ثلاثاً ، ثم أتاه حين غاب الشفق فقال : قم فصل العشاء الآخرة أربعاً ثم أتاه حين برق الفجر فقال : قم فصلِّ فصلى الفجر ركعتين » الحديث بطوله أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٤١٤٣) عن أبى مسعود الأنصارى .

يؤمنوا به ، ومَنْ يؤمن يقول له : أطعنى ما دمتَ قد آمنتَ بى .

فحيثية الطاعة للرسول ﷺ نشأتْ من الإيمان بالله وبالرسول ، وهذه عدالة كاملة لأنه سبحانه لا يكلف واحداً أنْ يفعل فعلاً إلا إذا كان قد آمن به سبحانه، أما الذى لا يؤمن به فهو لا يقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا .

إنه سبحانه يطالبه أنْ يؤمن به أولاً ، فإذا ما آمن به يقول له : استمع إليَّ ، لذلك تجد كلّ تكليف يُصدّر بقوله سبحانه ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٥٩) ﴾ [النساء]

ولكن إياكم أنْ تُقبلوا على أحكام الله بالبحث فيها أولاً ، فإن اقتنعتم بها أخذتموها وإنْ لم تقتنعوا بها تركتموها ، فإنَّ مثل هذا التصرف معناه أنك شككتَ فى الحكم ، بل عليك أنْ تُقبل على تنفيذ أحكامه لأنه سبحانه قالها وأنت مؤمنٌ بأنه إله حكيم .

والحق سبحانه يُحذِّرنا من عدم طاعة الله ورسوله ، فيقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا .. (٩٢) ﴾ [المائدة] لماذا هذا التحذير ؟ يأتى هذا التحذير ليُعلِّمنا الله أن الشيطان لن يدعنا ندخل فى مجال طاعة الله وطاعة الرسول ، وسيحاول جاهداً أنْ يُلبِّس علينا الأمر .

فعندما يعرف الشيطان ميلاً فى نفس الإنسان إلى لون من الشهوات يدخل إليه من باب المعاصى ، وإنْ كان الإنسانُ قد أوصد بعض السبل أمام الشيطان فلا يستطيع مثلاً إغراءه بالسرقة أو شرب الخمر .

لا يتركه بل يدخل إليه من باب الطاعة ، فيأتى الشيطانُ إلى الإنسان لحظة الوضوء ويُنسيه غسل هذه اليد أو تلك ، وهل أسبغ الوضوء أم لا ؟

أو يأتى الشيطان إلى المؤمن لحظة الصلاة فيُنسيه عدد الركعات أو عدد السجدات ، وهكذا يدخل الشيطان للمؤمن من ناحية الطاعة ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَاحْذَرُوا .. (٩٢) ﴾ [المائدة]

وقد قال تعالى عن الشيطان أنه توعَّد فقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ .. (١٦) ﴾ [الأعراف] فهو قد أقسم أنْ يقعد لهم على الطريق المستقيم لا الطريق المعوج ، ويقعد لهم على طريق الطاعة ليصرفهم عن الطاعة .

ومثال ذلك : عندما يتصدَّق إنسانٌ بصدقة قد يُعلنها ويقول : لقد تصدقت أكثر من فلان . وهكذا يضيع منه الأجر . الشيطان يحاول أنْ يدخل علينا من بابٍ لا نفطن إليه ، وهو باب الطاعة .

والحق سبحانه لا يجبر الإنسان على الطاعة ، بل ترك لك الاختيار ، فأوجد لك هذا الاختيار حتى يكون الحساب في الآخرة عدلاً ، فإذا اخترتَ الكفر لا يُجبرك اللهُ على الإيمان ، وإذا اخترتَ الفسوق لا يجبرك اللهُ على الطاعة ، إنه يحترم اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة .

فالحق سبحانه يترك لنا الإيمان بالاختيار ، ويترك لنا الطاعة والمعصية اختياراً ، ليعلم مَنْ يأتيه حباً ومَنْ يأتيه قهراً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ .. (١٢) ﴾ [التغابن] التولِّي هو الانصراف والإعراض . فقوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ .. (١٢) ﴾ [التغابن] أي : فإنْ أعرضتم عن منهج الله ونسيتموه ولم تلتفتوا إليه ورفضتم طاعة الله وطاعة رسوله .

وقد أمر الحقُّ سبحانه المؤمنين بأنْ لا يتولوا وأنْ لا يُعرضوا ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) ﴾ [الأنفال]

فما دمتم قد آمنتم فلا إعراضَ عما تؤمنون به ، والملحظ الجميل أنه سبحانه لم يقُلْ : ولا تولوا عنهما قياساً بالأسلوب البشري ، لكنه قال : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ .. (٢٠) ﴾ [الأنفال] أي : أنه سبحانه قد وحَّد الكلام في أمرين اثنين طاعة الله وطاعة الرسول ، ولأن الرسول مبلّغ عن الله فلا تقسيم بين الطاعتين ، لأن

طاعةَ الرسول هى طاعةُ الله تعالى .

أو نقول : إنّ التولى لا يكون أبداً بالنسبة إلى الله ، فلا أحدَ بقادر على أنْ يتولى عن الله ، لأن الله لاحقه ومدركه فى أيّ وقت .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) ﴾ [التغابن] أى : فإنْ أعرضتم عمّا كلفتكم به فاعلموا أنكم بتولّيكم وإعراضكم لن تضروا الرسول ، لأن الرسول ما كلف إلا أنْ يقوم بالبلاغ المبين .

وإنما أضررتم بأنفسكم حين أعرضتم عمّا كُلفتم به ، إن الحق سبحانه يعلم أزلاً أنَّ بعضاً من عباده قد يقول : إن هذا الحكم لم يرد فى القرآن ، لذلك جاء الأمرُ بطاعة الرسول .

وهكذا صارت للرسول طاعةٌ مستقلة ، وأرادها الله حتى يرد مقدَّماً على الذين يسألون عن نص فيه كل تفصيل ، بينما نجد هذه التفاصيل فى السنة النبوية الشريفة . فسبحانه قد علم أزلاً أن هناك مَنْ سيدّعى أنه لن يطيع إلا الله فى قرآنه .

ولذلك قال الرسول ﷺ : « يُوشك أنْ يقعد الرجلُ منكم على أريكته يُحدَّث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرَّمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرَّم الله »[1] .

أى أن الرسول هو المبلّغ عن ربه ، وأنَّ علينا أنْ نحذر الشيطان إذا أراد أنْ يدخل علينا من باب الطاعة .

ولكن لماذا قال الحق : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ .. (١٢) ﴾ [التغابن] ؟ وعن أيِّ شيء يكون التولّى ؟

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٦٠٦) والترمذى فى سننه (٢٦٦٤) ، وابن ماجه فى سننه (١٢) وأحمد فى مسنده (١٧٢١٣ ، ١٧٢٣٣) والدار قطنى فى سننه (٤٧٦٧) من حديث المقدام بن معد يكرب .

قال الحق ذلك ليوضح لنا أنَّ الإنسان له الاختيار فى أنْ يذهب إلى الطاعة، وله الاختيار فى أنْ يذهب إلى المعصية ، وإنْ تولّى الإنسان عن الطاعة إلى المعصية وعن الإيمان الذى جاء به الرسول الذى بلغ عن الله إلى البقاء فى الكفر ، فليعلم ذلك الإنسان أن الرسول قد أوفى مهمته وأدّاها .

فالمطلوب من الرسول أنْ يبلغ المنهج، وقد بلَّغ ﷺ بلاغاً مبيناً محيطاً واضحاً ومُستوعباً لكلِّ أقضية الحياة .

لقد أبلغنا ﷺ مطلوبَ الله أنْ نؤمن بإله واحد قادر حكيم له كلُّ صفات الكمال ، وأبلغنا ﷺ أنْ نبتعد عما كان عليه العرب من الأنصاب ومن الأوثان ومن الأصنام .

وبلاغ رسول الله ﷺ يتطلَّب منا إيماناً وعملاً ، والعمل ينقسم إلى قسمين : عمل إيجابى ، وعمل سلبى . ويتركز العمل الإيجابى فى « افعل كذا» إذا لم تكُنْ تفعله ، أما العمل السلبى فهو أنْ تكُفّ عما نهاك عنه الله ونهاك عنه رسول الله.

والله لا يريد للرسل أنْ يتعبوا أنفسهم فى حَمْل الناس على الإيمان ، إنما وظيفة الرسول هى البلاغ حتى يكون الحسابُ حقاً وعدلاً .

ورسول الله ليس مسئولاً عن الذين سيلقون بأنفسهم فى النار والعذاب ، وليس مسئولاً عن هُداهم وإنما عليه البلاغ . لذلك قال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ** (١١٩) ﴾ [البقرة]

والرسول يحب أنْ يهتدى إلى الإيمان كلُّ فرد فى أمته ، فقال الحق : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** (١٢٨) ﴾ [آل عمران]

أى : ليس لك يا محمد من الأمر شيءٌ إلاَّ أنْ يتوب الله عليهم فتفرح بتوبتهم أو يُعذِّبهم ، فلا يحزنك ذلك لأنهم ظالمون ، أى : ما عليك يا محمد إلا البلاغ فقط، أما هم فقد ظلموا أنفسهم بالكفر .

أرِحْ نفسك ، فما عليك إلا البلاغ فقط ، وهكذا يُخفّف **الله** مهمة الرسول ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** (٨٠) ﴾ [النساء]

والحفيظ هو الذى يحافظ على مَنْ يُبلغه أمر **الله** ، وأنْ يكون سائراً على منهج **الله** ، إنْ أراد أن ينحرف يعدله ، فيوضح سبحانه : أنا لم أرسلك حفيظاً عليهم ، أنا أرسلتك لتبلغهم ، وهم أحرار يدخلون فى التكليف أو لا يدخلون .

فإذا بلّغ الرسول حُكماً من الأحكام فعليهم أنْ يستقبلوا الحكم على أساس أنه قادم من **الله** ، وسبحانه يعلم أنَّ رسوله لا يكتم البلاغ ولكن ليجعل لرسوله العذر عند البشر .

فمهمة الرسول ﷺ هى البلاغ ﴿ **مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ** .. (٩٩) ﴾ [المائدة] أما تنفيذ البلاغ فهو دور المؤمنين برسالة رسول **الله** ، فإنْ أدَّوْها فلهم الجنة، وإنْ لم يُؤدوها فعليهم العقاب .

﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ**[1] **مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** (١٠٤) ﴾ [الأنعام]

وقد حكم **الله** أن البصائر جاءتنا ، وحكم بأن رسوله بلّغ ، فسبحانه أعطى لرسوله والرسول ناولنا ، فالحقُّ قد شرَّع ورسوله قد بلَّغ ، وبقى أنْ تُؤدوا ، ولا عذرَ لكم من المشرِّع الأعلى الذى خلق وهو الرب ، ولا من المبلّغ المعصوم وهو الرسول .

والبلاغ يجب أنْ يكون بالرِّفْق واللِّين ، وقد قال تعالى على لسان رسوله نوح :

﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (٦٢) ﴾ [الأعراف]

---

(١) بصائر : بينة وبينات . قال ابن الجوزى فى زاد المسير : البصائر جمع بصيرة وهى الدلالة التى توجب البصر بالشيء والعلم به . وقال البغوى : أى الحجج البينة التى تبصرون بها الهدى .

فالبلاغ يقتضى أنْ يقول لهم منهج الله ثم يدعو القوم لاتباع هذا المنهج بأنْ يُرقِّق قلوبهم ويخاطبهم بالأسلوب الهادىء وينصحهم ، والأداء القرآنى معجز ، فهو يقول : ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ .. (٦٢) ﴾ [الأعراف] فلم يقُلْ : وأنصحكم.

فمعنى : ﴿ لَكُمْ .. (٦٢) ﴾ [الأعراف] هنا أن النصيحة هنا والبلاغ ليس فيها مسألة خاصة بك ، بل كل ما فيها لصالح مَنْ تبلغه فقط ، وبذلك يتضح الفارق بين « نصحتك » و « نصحت لك » ، أو نصحته ونصحت له .

ولا تظنوا أن الرسول ﷺ له مصلحة فى إيمانكم ، فلن نعطيه مكافأة أو عمولة على كلِّ مَنْ يؤمن به ، فإياكم أنْ تظنُّوا أنكم بكفركم تُقلِّلون من مكافأة النبى خاصة ، وقد كانوا كارهين له .

فسواء آمنتم أو كفرتم فلن تعود عليَّ منفعة منكم ، فتولِّيكم عن سماع ما أبلغكم به لا يضرنى ولا ينفعنى لأنكم لا تملكون لى ضُراً ، ولا تملكون لى نفعاً، لأنِّى لن آخذ منكم أجراً .

كلمة : ﴿ عَلَى رَسُولِنَا .. (١٢) ﴾ [التغابن] تعطى معنى التكليف الذى يكلف به الرسول ، فحرف (على) مع (فإنما) يحصر ذلك التكليف فى التبليغ وبلاغ الرسالة وأنْ يُؤديها كما طلب منه لا ينقص فيه ولا يزيد .

فليس لرسول الله الزيادة على ما أنزل الله عليه من قرآن ، لذلك يقول تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى .. (٤) ﴾ [النجم] فاطمئنوا إلى حكمه لأنه لا ينطق عن هوى ، فليس فى نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق وتبليغهم قرآن ربهم ، يقول تعالى على لسان رسوله : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ .. (٥٠) ﴾ [الأنعام] فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى بل يُبلِّغ ما جاء به الوحى .

فما هو إلا بشر يُبلِّغكم رسالة ربكم وأفعل ما أمرنى به ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [يونس]

ورسول الله يضيف لنا بُعداً آخر للطاعة فى قوله ﷺ : « وإن طاعتى أنْ تطيعوا أئمتكم ، فإنْ صلَّى قاعداً فصلُّوا قعوداً » .

فرسول الله يُحدِّثنا عن إمامة الصلاة ، وأنه لابدّ من الاقتداء بهم فى هيئات الصلاة ، فإنْ صلُّوا قعوداً فلابدَّ أنْ نقتدى بهم فنصلى قعوداً أيضاً .

وقد حدثنا جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : اشتكى رسول الله ﷺ فصلَّينا وهو قاعد، وأبو بكر يُكبِّر يُسْمِع الناس ، فالتفتَ إلينا فرآنا قياماً ، فأومأ إلينا فقعدنا .

فلما سلَّم قال : إن فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود ، فلا تفعلوا ، ائتموا بأئمتكم ، فإنْ صلَّى الإمامُ قائماً فصلُّوا قياماً ، وإنْ صلَّى قاعداً فصلُّوا قعوداً »[١] .

ولابد أنْ يكون البلاغُ عن الله بلاغاً مبيناً ، لذلك قال هنا : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٢) ﴾ [التغابن] والمبين الذى يبين كلّ شيء تحتاجه حركة الإنسان الخليفة فى الأرض .

فمعنى ﴿ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٢) ﴾ [التغابن] أى البلاغ التام الكامل الذى يشمل كل جزئيات الحياة وحركاتها ، فقد جاء المنهجُ الإلهى شاملاً لكلِّ جوانب الحياة بدايةً بقول : لا إله إلا الله حتى إماطة الأذى عن الطريق[٢] فلم يترك شيئاً إلا حدَّثنا فيه .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٩٥٥) وابن ماجه فى سننه (١٢٤٠) وأحمد فى مسنده (١٤٦٣٠) وابن خزيمة فى صحيحه (٤٨٦) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٢) وكذا الترمذى فى سننه (٢٦١٤) والنسائى فى سننه (٥٠٠٥) وابن ماجه فى سننه (٥٧) وأحمد فى مسنده (٨٩١٣) من حديث أبى هريرة ، ولفظ مسلم « الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

فهـذا بلاغٌ مبين محيط لمصالح النـاسـ ، فلا يأتى الآن مَنْ يتمحك ويقول : ربنـا ترك كذا أو كذا .. فمنهج **الله** كامل .

ومعنـى (مبين) أى مُوضِّح كاشف لمنهـج **الله** ، فهو ليس بلاغـاً بـائنـاً فقط، بـل إنـه مُبين بـاستخدام اسـم الفاعل ، وذلك تأكيد وإمعـان فى وضوح البلاغ وتيسـير **الله** لـه ليصـل للأفهـام البسيطـة القاصرة قبـل الأفهام التـى تتسم بـالثقافة والعقل والتفكر ، فلا يُحرم من الخير أحدٌ لتواضـع استقبـالـه لمعطيات القرآن ،بل يفهمه كل أحد .

لذلـك قـال تعالى : ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّـرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا** .. (٩٧) ﴾ [مريم] ويسَّرنـا القرآن أى طوَّعنـاه لك حفظاً وأداء وإلقاءَ معـانٍ ، فأنت توظفه فى المهمة التى نزل من أجلها ، وهى البلاغ عن **الله** .

يقول الحق سبحـانه :

﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ١٣ ﴾

عندمـا نقـول (**الله**) فإن الذِّهْن ينصرف إلى الـذات الواجبة الوجود ، فكلمة (**الله**) هى علَم على واجب الوجود .

والحـق سبحـانـه حين أعلمنـا بـاسمه (**الله**) أعطـانـا فكرة على أن كلمة (**الله**) هذه يتحدَّى بهـا سبحـانه أنْ يُسمَّى بهـا سواه ، ورغم أن هنـاك ملحدين وكـافرين ومتمردين ، فلم يجروْ واحدٌ من هؤلاء أنْ يسمى نفسه **الله** .

ولم يجـروْ واحـدٌ من هـؤلاء أنْ يدخل فى هـذه التجربة ، لقـد كان بوُسْعهم أنْ يقولـوا : سنسمـى ونـرى ما يحدث ، ولكـن هذا لم يحـدث . فكلمة (**الله**) هى الاسم الذى اختـاره **الله** لنفسه وأعلمنا به ، وهـو اسم شـامل لكلِّ صفـات الكمال، والصفـات الأخـرى نحـن نسميها الأسمـاء الحسنى : مثـل القـادر ، والسميع،

والبصير ، والحى القيوم القهار ، كلُّها صفات صارت أسماء لأنها مطلقة بالنسبة لله .

وهذه الصفات حين تنصرف على إطلاقها فهى (الله) ، ومن الجائز أنْ تُضاف فى نسبتها الحادثة إلى غير الله ، أما اسم (الله) فلا يُطلق إلا على الحق سبحانه .

وساعة تسمع لفظ الجلالة (الله) فعليك أنْ تأخذه بكلِّ ما يدل عليه من صفات الجلال وصفات الجمال ، ما عرفته وما لم تعرفه ، لأنه سبحانه خلق الكون كله وهو قيُّوم عليه .

وهذا الخَلْق وتلك القيومية فعلٌ يقتضى صفات متعددة ، تقتضى قدرة وحكمة وعلماً واسعاً ورحمةً وبَسْطة وقبضاً وغير ذلك ،وبدلاً من أنْ يأتى لك بصفات القدرة وصفات الجمال ويذكرها ويُعددها لك يقول سبحانه عن نفسه (الله) ، لأنه الاسم الجامع لكلِّ صفاته .

وأنت تقول فى بدء كلِّ عمل (باسم الله) ، وفى ذلك إيجاز لما يحتاج إليه أيّ عمل ، لأن أيّ عمل يحتاج إلى قدرة فتقول : باسم القادر . ويحتاج إلى علم فتقول : باسم العليم . ويحتاج إلى حكمة فتقول : باسم الحكيم . ويحتاج إلى عزة فتقول : باسم العزيز . وقد تحتاج إلى قهر عدوك لأنك قد تدخل معه فى حرب فتقول : باسم القاهر .

إذن : كلُّ عمل يحتاج إلى حشد من صفات الكمال والجلال يخدم الفعل ، فبدلاً من أنْ يقول : باسم القادر وباسم الحليم وباسم العليم وباسم القابض ، يوفر عليك سبحانه كلّ ذلك فتقول : باسم الله ، لأن اسم الجلالة وهو (الله) هو الجامع لكلِّ صفات الكمال .

فإنْ قلتَ : « باسم الله » فهى تكفيك ، فإذا احتجتَ إلى قدرة وجدتها ، وإنِ

احتجـتَ إلى غنـىّ وجدتـه ، وإنِ احتجـتَ إلى بسـط وجدتـه . فلحظـة أنْ تقول (الله) كأنـك قلـت : القادر ، الضار ، النـافع ، السميع ، البصير ، المعطى إلى آخر أسماء الله الحسنى . فلفظ (الله) اسم ذات لا يدل على صفة معينة ، لكنه يحمل فى طياته كلَّ صفات الكمال فيه .

والحـق سبحانـه أثبت لنفسه جميع صفات الكمال فى اسمه (الله) ، ثم جاء بالقضيـة الأساسيـة ، وهو قوله تعـالى (لا إلـه إلا الله) أى : لا معبودَ بحقٍّ إلا الله .

وقـد جعـل الحق سبحانه كلمـة (لا إله إلا الله) شعـاراً للمؤمنين ، والشعار هـو المعْلَم الذى يكون مُميـزاً لمجموعة من النـاس أو لشعيرة معينة من شعائر الله ، فشعـار أذانـك مثلاً وصلاتك هو (الله أكبر) أى : أن الله أكبر من كلِّ شيء غيره.

وشعار كلّ مؤمن واقع فى كرب : لا كربَ وأنت رب ، ومؤدَّى هذا الشعار أنه مـا دام لك ربٌّ فلا تهتـم ، ولا تيأس ، فليست مع الله مشكلة ، المشكلة ألاَّ يكون لك ربٌّ تلجأ إليه .

وقد كان شعار المصطفى ﷺ لمَّا تجمع الأحزاب وحاصروا وأحاطوا بمدينة رسـول الله أنْ جعـل شعاره الإيمانى « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ،وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده »[(١)].

كذلـك هنـا قد جعل رسول الله شعار المؤمنين يـوم يُبعثون من قبورهم « لا إلـه إلا الله وعلـى الله فليتـوكل المؤمنـون » فشعـارهم التوحيد وقـد بعثهم الله موحدين متوكلين عليه وحده .

وعـن عائشة رضـى الله عنهـا قـالت : قـال رسـول الله ﷺ : « شعار المؤمنين

(١) أخرجه البزار فى مسنده (٨٤٣٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ كان يقول : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » .

يوم يُبعثون من قبورهم : لا إله إلا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[1] .

قد وحَّدوه فى الدنيا وتوكلوا عليه ، وهاهم يخرجون من أجداثهم وقبورهم وهم على ما عاشوا وما ماتوا عليه ويرجون رحمة الله .

وكلمة (لا إله إلا الله) كلمة تحمل نفياً وإثباتاً ، النفى فى (لا إله) والإثبات فى (إلا الله) ، فكلمة (لا إله إلا الله) معها دليلُ الصدق ، فلو كان هذا كذباً فهل سمعنا حساً أو حركة لمنْ يدَّعى أنه الله .

ولذلك ربنا سبحانه يأتى بهذه القضية من ناحية أخرى فيقول : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) ﴾ [الإسراء]

فلو كان عند تلك الآلهة المزعومة مظاهر قوة لذهبوا إلى الله سبحانه وأنكروا ألوهيته ، ولو كان هناك إلهٌ غير الله لحدثتْ معركةٌ بين الآلهة ، ولكنَّ هذا لم يحدث .

فكلمة (لا إله إلا هو) صِدْقٌ فى ذاتها حتى عند مَنْ ينكرها ، والدليل فيها هو عدم وجود المنازع لهذه الدعوة ، لأنه إنْ لم يوجد منازع فقد ثبت أنه سبحانه لا إله إلا الله ، وإنْ وُجد المنازع نقول : أين هو ؟

والله هو المعبود الذى يُتوجَّه إليه بالعبادة ، والعبادة هى الطاعة ، فمعنى عابد أى طائع ، وكل طاعة تقتضى أمراً وتقتضى نهياً .

والحق سبحانه شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، فقال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران]

فالله يشهد أن لا إله إلا هو ، ورسول الله يشهد أنْ لا إله إلا الله ، وهذه شهادة

---

(١) أورده السيوطى فى الجامع الصغير (٤٨٨٦) وعزاه لابن مردويه عن عائشة وحسَّنه . وكذا أورده المتقى الهندى فى كنز العمال (٣٩٠٣٢) .

الذات للذات ، وشهادة الملائكة أيضاً وكفى بالله شهيداً . فشهادة الملائكة شهادة المشهد ، ويُضاف إلى الملائكة ﴿ وَأُولُو الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] الذين يستنبطون من كوْن الله أدلة على أنه لا إله إلا هو .

والله سبحانه وتعالى شهد أنه لا إله إلا هو قبل أن يوجد أحدٌ من خَلْقه يشهد بوحدانية ألوهيته ، شهد أنه لا إله إلا هو قبل أنْ يخلق الملائكة ، ليشهدوا شهادة مشهد بأنه لا إله إلا الله .

والحق سبحانه أطلقها على نفسه وقال ﴿ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] وجعلها كلمة التوحيد وجعل الأمر فى غاية اليُسْروالسهولة والبساطة ، فلم يشأ الله أنْ يجعل دليلَ الإيمان بالقوة العليا دليلاً مُعقّداً ، أو دليلاً فلسفياً ، أو لا يستطيع أحدٌ أنْ يصل إليه إلا أهل الثقافة العالية .

لا إن الدينَ مطلبٌ للجميع من راعى الشاة إلى الفيلسوف ، إنه مطلوبٌ للذى يكنس فى الشارع ، كما هو مطلوب من الأستاذ الجامعى ، فيجب أنْ تكون هذه المسألة فى منتهى البساطة ، وأنْ تكون فى مستوى هذه العقول جميعاً ، فلا فلسفة فى المسألة .

فالله شهد بألوهيته من البداية ، ومن أسمائه سبحانه (المؤمن) ونحن مؤمنون بالله ، وربنا المؤمن بأنه إلهٌ واحد ، لذلك قبل أنْ يطلب منّا أنْ نشهد له بالوحدانية والتفرد بالألوهية شهد بها لذاته تعالى .

فلو قال معترض : كيف يشهد لذاته ؟ نقول : نعم يشهد لذاته سبحانه لأنه لا أحدَ غيره ، لا أحدَ معه ، فشهادة الذات للذات هنا شيءٌ طبيعى ، وكأنه سبحانه يقول : لا أحدَ غيرى ، وإنْ كان هناك إلهٌ غيرى فليُرني نفسه وليفصح عن وجوده .

فلو علمتْ الآلهة المدعّاة المزعومة بهذه الشهادة ، فسكوتهم عليها وعدم

اعتراضهم عجزٌ، وإنْ لم يدروا بها فهم غافلون نائمون، وفى كلتا الحالتين لا يصح أنْ يكونوا آلهة، فأيّ آلهة تلك التى لا تدرى بما يدور حولها أو تجبُن عن مواجهة خصمها.

ومادام « لا إله إلا هو » فليكن اعتمادك وتوكلك عليه وحده، واعلم أنك إنِ اعتمدتَ عليه وحده إلهاً فأنت قد اعتمدت على عزيز لا يُغلب على أمره.

قال ﷺ: « إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعتْ على أنْ ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أنْ يضرُّوك فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعتْ الأقلام وجفَّتْ الصّحف »[1].

إنك هنا تلجأ إلى خالق أعلى بيده مقاليد كلِّ شيء وهو على كل شيء قدير، فـ« لا إله إلا هو » تُغنيك وتكفيك عن الكل، توكلْ واعمل لإله واحد ولوجه واحد يكفِكَ كل الأوجه، واعلم أنه لا يوجد مَنْ يغلبه على أمره.

واستعانتك بالله وحده، ولجوؤك إليه وحده، وتوكلك عليه وحده يُحررك من ذُلِّ الدنيا، بالحى الذى لا يموت، بالقوى الذى لا يضعف، بالقاهر الذى لا يخرج عن أمره أحد.

إذا استعنتَ بالله سبحانه وحده كان الله جل جلاله بجانبك، وهو وحده سبحانه الذى يملك أنْ يُحوِّل ضعفك إلى قوة، وذُلّك إلى عِزٍّ.

لذلك كان شعار المؤمنين بالله وحده « لا إله إلا الله »، فهذه الكلمة مَعْلَم من معالم هذا الدين، فالشعار هو المعْلَم الذى يدل على الشيء.

ومنها أيضاً الشعائر، وهى معالم دين الله المتركزة فى « افعل » و «لاتفعل» زماناً ومكاناً، عقائد وأحكاماً، لكن الشعائر غلبتْ على ما نُسميه « مناسك الحج ».

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٦٣) وكذا الترمذى فى سننه (٢٥١٦) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٢٥٥٦)، والبيهقى فى شُعب الإيمان (١٠٤٣) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما.

ومن شعار المؤمنين أيضاً التوكل على **الله** وحده ، فما دُمْنا قد آمنا بأنه لا إله إلا هو فلماذا يتوكَّلْ بعضُنا على غير **الله** ، ولماذا نضع أملنا ورغبتنا وثقتنا فى غير **الله** ؟

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ [التغابن] فالمؤمنون **بالله** هم الذين يتوكلون عليه ، ففائدة الإيمان أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

الجوارح تقول : نزرع ، نحرث ، نأتى بالبذر الجيد ونروى ونضع سماداً ، ونفترض أنَّ الصقيع قد يأتى ونخشى على النبات منه فنأتى بقشٍّ ونحوه ونغطيه .

كلُّ هذه عمل الجوارح ، وبعد ذلك القلوب تتوكل ، فإياك أنْ تقول : المحصول آتٍ لأننى أحسنتُ أسبابى . لا بل لأن فوق الأسباب مسبِّبها .

ففائدة الإيمان أننى مؤمن بإله له طلاقة القدرة ، يخلق بأسباب ويخلق بغير أسباب ، والأسباب لك ، أما الذى فوق الأسباب فهو **الله** ، فأنت حين تعمل أخذتَ بالأسباب ، وحين تتوكل ضمنتَ المسبِّب ، وهو **الله** سبحانه .

وإياك أنْ تظنّ أن التوكل يعنى أنْ تترك الجوارح بلا عمل ، لا فهذا هو التواكل أو الكسل ، إنه التوكل الكاذب ، والدليل على كذب مَنْ يقول ذلك أنه يحب أنْ يتوكل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يُتوكل فيه .

والذى لا يتوكل على **الله** عليه أنْ يراجع إيمانه ، ولكل جارحة عمل ، وعملُ جارحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولنتذكر أن السعى للقدم والعمل لليد والتوكل للقلب .

فلا تنقل عملَ القلب إلى القدم أو اليد ، لأن التوكل الحقيقى أنْ تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عامل بلا توكل ، فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننا نجد الزارع الذى لا يتوكل على **الله** ينمو زَرْعه بشكل جيد ومتميز ، ثم تهبُّ عليه عاصفة أو يتغيّر الجو فيُصيبه الهلاك ، وتكون النتيجة الإحباط .

واحذر إهمال الأسباب أو أنْ تفتنك الأسبابُ ، لأنك إنْ أهملتَ الأسباب فأنت غير متوكل بل متواكل ، تنقل عمل القلب إلى الجوارح .

وإذا قال لك واحد : أنا لا أعمل بل أتوكل على الله ، قل له : هيا نرى كيف يكون التوكل ، وأحضر له طبقَ طعام يُحبه ، وعندما يمد يده إلى الطعام قُلْ له: اترك الطعام يقفز من الطبق إلى فمك .

فالذين لا يعملون بجوارحهم ويُعلنون أنهم متوكلون على الله ، نقول لهم : أنتم كاذبون ، لأن التوكل ليس من عمل الجوارح بل من عمل القلوب ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

لكن على مَنْ نتوكل ؟ يأتي قوله ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ [التغابن] إنك حين تتوكل على الحيِّ الذى لا يموت ، فلن يضيع عملك ، أما إنِ اتكلتَ على إنسان مثلك - حتى وإنْ كان ذا قوة - فقد تنقلب قوته ضعفاً ، وقد يُكرهك أو يُذلّك ، وقد تصيبه كارثة فيموت . فعلى الله وحده يتوكل المؤمنون ويُفوضون كلّ أمورهم إليه وحده ، حتى أن المؤمنين يقولون : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾ [إبراهيم]

والحق سبحانه يأمرنا أنْ نتوكل على الحى الذى لا يموت ، فلا تتكل على واحد من الأغيار ، فقد يصبح الصباح فتجده قد خلا بك وتخلَّى عنك ، أما إذا كان مولاك هو الحق فلن يخذلك .

فإذا كان المولى غير الله فهو من الأغيار ، فقد يكون اليوم قوياً قادراً على أنْ يأخذ بيدنا وينصرنا ونتوكل عليه ولكنه قد يموت غداً ، لذلك فهو لا يصلح مولى ، وقد يسقط عنه سلطانه وقوته ويصبح ضعيفاً محتاجاً لمنْ ينصره فلا ينفع ولياً ولا مُعيناً لأحد .

والمولى الحق الذى نتوكَّل عليه الذى يجب أنْ نتمسَّك به هو الذى لاتُصيبه الأغيار لأنه دائم الوجود لا ينتهى بالموت ، وهو دائم القوة والقدرة لا يضعف أبداً .

هذا هو المولى الذى تضع فيه ثقتك وتتوكل عليه ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يُوضِّح لنا أننا يجب ألاَّ نضع ثقتنا وأملنا إلا فيه ، وتوكلنا إلا عليه سبحانه وتعالى ، فيقول : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ .. (٥٨) ﴾ [الفرقان]

أى : إذا أردتَ فعلاً أنْ تتوكل ، فتوكَّلْ على مَنْ هو موجود دائماً ، قويٌّ دائماً، فتوكل على **الله** .

فإياك أنْ تتوكَّل على غير **الله** ، بل اجعل توكُّلك يكون على مَنْ لا يتغير . **فالله** هو القادر دائماً ، القاهر دائماً ، الغالب دائماً ، الموجود دائماً ، الناصر دائماً ، وهو سبحانه الدائم الباقى دائماً .

فلا تتوكل على مَنْ قد تصبح غداً فتجده ميتاً ولكن توكَّل على الحى الموجود دائماً ، العزيز الذى لا يُقهر ، القوى الذى لا يُغلب .

وصدق الشاعر حين قال :

اجْعَلْ بِربِّكَ كُلَّ عِزِّكَ ... يَسْتَقِرّ وَيَثْبُتُ
فَإِذَا اعْتَزَزْتَ بِمَنْ يَمُوتُ ... فَإِنَّ عِزَّكَ مَيِّتُ

والعاقل الفطن لايتوكل إلا على مَنْ يثق به ويضمن معاونته ، وأنه سيوافقك فى كلِّ ما تريد ، لكن ما جدوى أنْ تتوكل على أحد ليقضى لك مصلحة ، وفى الصباح تسمع خبر موته .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ (٥٨) ﴾ [الفرقان] وكأنَّ الحق تبارك وتعالى يريد أنْ ينصح خَلْقه : إنْ أردتَ أن تتوكل فتوكل على مَنْ ينفعك ولا يتركك ، على مَنْ يظل على العهد معك لايتخلى عنك،

على مَنْ لايُعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، هذه هى الفِطنة .

لكن ما جدوى أنْ تتوكَّل على مَنْ ليس فيه حياة ؟ وعلى فرض أنّ فيه حياة دائمة فلا تضمن ألاَّ يتغير قلبُه عليك ؟

ويقول تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) ﴾ [النمل] فأنت تتوكل على الله وأنت على الحق ، وعلى الطاعة له عز وجل ، لا على معصيته، وما دُمْتَ تتوكل على الله وأنت على حال الطاعة ، فلابدّ أنْ يكون نصيرك ومُعينك .

واستغْن بوكالة الله عن كلِّ شيء ﴿ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلا (٣) ﴾ [الأحزاب] وهو سبحانه نعم الوكيل، وهذا يُطمئن عباده .

ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) ﴾ [الأنعام] واعلم أن الله سبحانه ليس وكيلاً لك ، بل هو وكيل عنك ، لأن الوكيل لك ينفذ أوامرك ، لكن هو وكيل عليك ، مثل الوصى على القاصر هو وكيل عليه . ويقول للقاصر : افعل كذا فيفعل وسبحانه وكيل علينا .

وهم لايتخذون وكيلاً غير الله ، فالتوكل أنْ تؤمن بأن لك وكيلاً يقوم لك بمهام أمورك ، بدليل أن الشيء الذى لا تَقْوَى عليه تقول بصدده : « وكَّلتُ فلاناً ينجزه لى على خير وجه » .

فالمؤمنون يتوكلون على ربهم ، فهم يكلون أمورهم إلى مَن ائتمنوه على مصالحهم .

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلا (٢) ﴾ [الإسراء]

فإياك أنْ تتخذ من دون الله وكيلاً ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا (٦٥) ﴾ [الإسراء] فإنْ كان فى البشر مَنْ تثق به وتأتمنه على مصالحك ، فما بالك إنْ كان وكيلك

هو الله عز وجل ؟ لاشك إنْ كان وكيلك الله فهو كافيك ومُؤيِّدك وناصرك ، فلا يُحوجك لغيره سبحانه .

فيكفيك أنْ يكون الله وكيلك ، لأنه لا شيءَ يتأبّى عليه ، ولا يستحيل عليه شيء ، فإنه لا تُعوزه أسباب ، ولا يُثنيه عن إرادته شيء .

وإذا كان الحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ [التغابن]، فإنه في آيات أخرى يقول تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾ [إبراهيم]

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾ [يوسف]

فإذا كنتَ مُتوكلاً حقاً كما تدَّعي وتقول فتوكل على الله ، فإذا كان الإيمانُ ملحوظاً في آية سورة التغابن : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ [التغابن]، فالملحوظ هنا هو أنْ يكون توكلك على الله توكلاً حقيقياً وليس ادعاءً .

فالتوكل الحقيقي للجوارح هو أنْ تعمل ، ولذلك لابدَّ من العمل والأخْذ بالأسباب مع التوكل ، أما التواكل فأنْ ترفض الأسباب التي قدَّمها الله لك وتقعد عن الأخْذ بها ، وتقول : توكلتُ على الله .لا .. إنما استنفد الأسباب الموجودة لك من ربك ، فإنْ عزَّتْ عليك الأسباب فلا تيأسْ ، لأن لك رباً أقوى من الأسباب لأنه سبحانه خالقُ الأسباب .

فلابدَّ أنْ نُفرِّق هنا بين التوكل والتواكل : التوكل أنْ تكون عاجزاً في شيء، فتذهب إلى مَنْ هو أقوى منك فيه ، وتعتمد عليه في أنْ يقضيه لك ، شريطةَ أنْ تستنفد فيه الأسباب التي خلقها الله لك .

وقد ضرب لنا سيدنا رسول الله ﷺ مثلاً توضيحياً في هذه المسألة بالطير، فقال : « لو توكلتم على الله حَقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً

وتروح بطاناً »[١].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾

يخاطب الحق سبحانه هنا الذين آمنوا بأنه لا إله إلا هو، فهم يتوكلون على الله، ويخاطب الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول، وما داموا آمنوا وأطاعوا فلن يرفضوا تحذير الله لهم من أزواجهم وأولادهم.

فهم في حالة كفرهم بالله هم أعداء أنفسهم، فلن يخاطب اللهُ الكافرين ويُحذِّرهم من أزواجهم وأولادهم، فالتحذير أوجب لهم من أنفسهم ذاتهم قبل الأزواج والأولاد.

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٤) ﴾ [التغابن] أي : ياأيها الذين آمنتم بالله إلهاً ودخلتُم معه في عقد إيماني، فيا مَنْ آمنت بالله رباً وإلهاً وخالقاً خُذْ عَن الله وافعل لأنك آمنت بمَنْ أمرك.

فالإيمان هنا هو سبب التكليف، فالله لا يُكلف كافراً أو غير مؤمن، ولا يأمر بتكليف إلا لمَنْ آمنوا، فما دام العبد قد آمن فقد أصبحتْ مسئولية حركته في الحياة عند ربه، ولذلك يوحي إليه بمنهج الحياة، أما الكافر فلا يُكلِّفه الله بشيء.

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ : « لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » [أخرجه الترمذي في سننه (٢٣٤٤) وقال : حسن صحيح. وكذا ابن ماجه في سننه (٤١٦٤) وأحمد في مسنده (٢٠٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣)].

فالآية تبدأ بنداء الذين آمنوا بالله وكأنه يقول لهم : يا مَنْ آمنتم بى استمعوا لحديثى ، فلم يكلف الله من لم يؤمن به ، وإنما خاطب الذين أحبوه وآمنوا به، وما داموا قد أحبُّوا الله فلابد أنْ يتجه كلُّ مؤمن إلى مَنْ يحبه، لأن الله لن يعطيه إلا ما يُسعده .

والحق سبحانه هنا يلفت نظر مَنْ آمن به إلى قضية هامة هى علاقة الإنسان بأزواجه وأولاده وتأثيرهم عليه فى صَرْفه عن مقتضيات ومتطلبات ما آمن به واعتقده بقلبه ومارسه بجوارحه .

فيقول تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] وقد اختار الحقُّ سبحانه صنفين من الناس حول كلِّ إنسان منا ، وهم الأزواج والأولاد ، فهؤلاء هم الملاصقون المباشرون للإنسان .

وسبحانه يقول : ﴿ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] و (من) للتبعيض ، أى : ليس كلُّ أزواجكم أو أولادكم عدواً لكم ، بل بعضهم .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ .. (١١٢) ﴾ [طه] ، ومن هنا للتبعيض ، فيكفى أنْ تفعل بعض الصالحات ، لأن طاقة الإنسان لاتسع كلّ الصالحات ولا تقْوَى عليها ، فحسْبُك أنْ تأخذ منها طرفاً ، وآخر يأخذ طرفاً ، فإذا ما تجمعتْ كلُّ هذه الأطراف من العمل الصالح من الخلق كوَّنتْ لنا الصلاح الكامل في المجتمع كله .

ومثله أيضاً ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ .. (٤٠) ﴾ [الروم] فتكررت (مِنْ) التى للتبعيض ، والمعنى لايستطيع أحدٌ من شركائكم أنْ يفعل شيئاً ولو هيِّناً من الخلق أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة .

ويقول تعالى : ﴿ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] والأزواج متقدِّمون فى الإغواء والتوجيه إلى الشر قبل الأعداء ، لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو

الشيطان الملازم الذى يُهيء الانحراف إلى ما يريد .

وكلمة الأزواج جمع زوج . وتُقال للرجل والمرأة ، والزوج لا يعنى اثنين معاً كما يظن البعض ، إنما الزوج يعنى الفرد الذى معه مثله من جنسه ، ومثله تماماً كلمة (التوأم) . فهى تعنى (واحد) لكن معه مثله .

والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات] يعنى : ذكر وأنثى ، فالذكر وحده زوج ، والأنثى زوج ، وهذه القسمة موجودة فى المخلوقات ، وتُجمع زوج أيضاً على زوجات .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] أن الأزواج جاءت بصيغة المذكّر ولم يقلْ زوجاتك ، لأن الزوج يُطلق على الرجل وعلى المرأة .

وهذا تأخذ منه أن الله عندما نادى المؤمنين بندائه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٤) ﴾ [التغابن] لم يكُنْ يعنى الرجال فقط من المؤمنين بل النساء أيضاً ، فقد يكون الرجلُ مؤمناً صالحاً ، وزوجته هى التى تأخذه بعيداً عن منهج الإيمان.

وقد تكونُ المرأة مؤمنةً صالحة ، وزوجها هو الذى يأخذها بعيداً عن منهج الإيمان ، وهذا تجده فى حديث الله سبحانه عن زوجات أنبياء كُنَّ كافرات ، وأزواج مؤمنات كانوا كافرين .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾ [التحريم]

فلم يستطع نوح عليه السلام أنْ يستلب العقيدة الكافرة من زوجته ، ولم يستطع لوط عليه السلام أنْ يسلب العقيدة الفاسدة من زوجته ، بل كانت كلتا

المرأتـين تتآمـر كل منهما ضد زوجها - وهو الرسول - مع قومها ، لذلك كان مصير كلٍّ منهما النار .

وقـد كانـت امرأةُ لـوط تدلُّ قومهـا على مَنْ يـزور لوطاً من الرجـال ليأتوا ويفعلـوا بهـم الفاحشـة ، وقد حدث هذا فى وفـد الملائكة الذى جـاء فى هيئة شبـاب كأحسن الشباب .

ويقـول تعـالى :﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا[1] وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) ﴾ [هود]

فلـوطٌ عليـه السلام يعلم أنْ آفةَ قومه هى إتيـان الذكور ، وامرأته تعلم هذه الآفـة ، لكـن موقفها من هذا غير موقف لـوط ، فهى ترحب بتلك الآفة . ويُقال: إنهـا انتبهـت لمجيء الرجال الحسان ولم تعرف أنهـم ملائكة العذاب وصعدت إلى سطح المنزل وصفَّقت لعلَّ القوم ينتبهون لـها ، فلم يلتفت لـها أحد ، فأشعلتْ نـاراً فـانتبـه لـهـا القـوم ، وأشارتْ لـهم بمـا يعبر عن مجيء ضيـوف يتميزون بـالجمـال .

وفـى حياتنـا العـادية نجـد أن المرأة إنْ لم تكُنْ صـالحة كانت عدوة لزوجها، فتجـد مُنغِّصـات تستطيـع أنْ تضعها المرأة فى حياة زوجهـا تجعله شقياً فى حياتـه ، كأنْ تكـون سليطـةَ اللسان ، أو دائمـة الشِّجـار ، أو لا تعطى اهتماماً لزوجهـا ، أو تحـاول إثـارتـه بـأنْ تجعله يشكّ فيها.

وقـد يكـون الرجلُ طاهـرَ الأسلوب فى الحيـاة وتكون زوجتُـه راغبة فى أنْ

---

(١) وضاق بهم ذرعاً : ضاق صبره وعظم المكروه عليه ، وأصله من ذرع فلاناً القيء : إذا غلبه وسبقه . وأيضاً معناه : ضاق بهم وُسْعه . فناب الذراع عن الوسع . ويقولون : ضقت بهذا الأمر ذراعاً . (زاد المسير لابن الجوزى) .

يأتيها بالمال من أيِّ طريق ، وقد تكون المرأةُ طاهرة الأسلوب فى الحياة ، فلا ترضى أنْ يتكسَّب زوجها من مال حرام .

والحق سبحانه عندما يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن]

وفى هذا القول نجد أن العداوة تأتى من الأزواج قبل الأولاد ، ونعلم أن الزوجة فى بعض الأحيان هى التى تكره أولاً ، ثم يتأثر بكراهيتها ويتشبَّه بها الأبناء.

وكثيراً ما يكون الأولادُ فتنةً للآباء ، والفتنةُ بالأولاد تأتى من حِرْص الآباء عليهم والسعى إلى جعلهم فى أحسن حال ، وربما كانت الإمكاناتُ غيرَ كافية، فيُضطر الأبُ إلى الحرام من أجل أولاده .

فالفتنة تأتى الإنسانَ غالباً من الزوجة لزوجها ، أو من الزوج لزوجته أو من الولد ، لماذا ؟ لأنهما يحملانك على ما لا تطيق ، ويضطرانك ربما للسرقة أو للرشوة لتوفر لهما ما يلزمهما .

ورسول الله ﷺ قال : « ليس عدوك الذى إنْ قتلتَه كان لك نوراً ، وإنْ قتلك دخلتَ الجنة ، ولكنَّ أعدى عدوك ولدك الذى خرج من صُلْبك ، ثم أعدى عدوٍّ لك مالُكَ الذى ملكتْ يمينُك »[1].

فالإنسان منا حينما يُرزق بالولد أو البنت يطير به فرحاً ، ويُؤثره على نفسه ، ويُخرج اللقمة من فِيهِ ليضعها فى فم ولده ، ويسعى جاهداً ليوفر له رفاهية العيش ، ويُؤمِّن له المستقبل المُرضى .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٣٦٧) وكذا فى مسند الشاميين (ص ٣٣٢) وقد ضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٤٣٧٥) وقد قال ابن حجر الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٧٧٩٩) : فيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف

وصدق الشاعر[١] حين قال :

إِنَّمَـــا أَوْلادُنَـــا أَكْبَـــادُنَـا تَمْشِـــى عَلَـــى الأَرْضِ
إِنْ هَبَّتْ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِـم امْتَنَعَتْ عَيْنى عَنِ الغُمْضِ[٢]

ولكـن أحياناً كثيرة يكون بعض الأولاد سببَ شقاء آبائهم ، ويكونون أعداء لذويهـم ، إمّـا بصَرْفهـم عـن الطاعـة ، أو باضطرارهم إلى كسْب المال الحرام لتوفية متطلباتهم الحياتية التى لا تنتهى .

وليس الأولاد وحدهـم بل الأزواج أيضاً ، ففى روايـة لهذا الحديث : « ولكن أعدى عدوِّك نفسك التى بين جَنْبيْكَ ، وامرأتك تُضاجعك على فراشك وولدك من صُلْبك »[٣].

ونحن نجد فى القرآن قصة العبد الصالح الذى قتل غلاماً كان أبواه مؤمنين، فخشـى العبد الصالـح أنْ يُرهقهما طغياناً وكفراً ، فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كلِّ محرَّم ويأتى لهما بالشقاء .

وذلـك فى قوله تعـالى : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَـيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) ﴾ [الكهف]

وكثيراً ما يكون الأولادُ فتنةً للآباء ، والفتنة بالأولاد تأتى من حِرْص الآباء عليهم والسَّعى إلى جَعْلهم فى أحسن حال ، وربما كانت الإمكاناتُ غيرَ كافية، فيُضطر الأب إلى الحرام من أجل أولاده .

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائى أبو تمام ، ولد ١٨٨ هـ فى جاسم من قرى حوران بسورية نزل مصر وبغداد، كان أسمر طويلاً ، فى شعره قوة وجزالة ، توفى عام (٢٣١) عام قيام الدولة العباسية .

(٢) أورده ابن أبى عون فى التشبيهات وعزاه لـ (حطان بن المعلّى) ، وكذا البصرى فى الحماسة البصرية:

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

ولكن أورده ابن العديم فى (الدرارى فى ذكر الذرارى) لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى (البيتان معاً).

(٣) أخرجه الديلمى فى (الفردوس بمأثور الخطاب) (٥٢٤٨) وعزاه لأبى مالك الأشعرى . وأورده المتقى الهندى فى كنز العمال (١١٢٦٤) .

وقد علم الحق سبحانه وتعالى أنَّ هذا الغلام سيكون فتنة لأبويه وهما مؤمنان ، ولم يُرد الله تعالى لهما الفتنة وقضى أنْ يقبضهما إليه على حال الإيمان .

﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) ﴾ [الكهف] وخشينا أى خفْنا . فالواحد منا يُولد له ابنٌ فيكون قرة عَيْن وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سبباً فى فساد دين أبيه ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة ، فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم .

وأوضح قصة للولد الذى عصى أباه وصار عدواً لدعوته ابن نوح ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَـٰبُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) ﴾ [هود]

فكان ردّ الولد على أبيه : ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ .. (٤٣) ﴾ [هود]

فقال نوح : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ .. (٤٣) ﴾ [هود]

فعندما دعا نوحٌ عليه السلام ابنه ليركب معه فى السفينة ، رفض الولد طاعة أبيه ورفض الإيمان وآثر أنْ يظلّ فى جانب الكفر بما فيه من فناء للقوم الكافرين ، وظنَّ أنه قادر على أنْ يأوى إلى جبل يعصمه من الطوفان .

فظنَّ ابن نوح أنه سينجو إنْ آوى إلى جبل ، لعل ارتفاع الجبل يعصمه من الغرق ، لكن نوحاً عليه السلام يعلم أنْ لا نجاةَ لكافر ، بل النجاة فقط هى لمن رحمه اللهُ بالإيمان .

فنبَّهه أبوه وحذَّره فقال : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ .. (٤٣) ﴾ [هود]

فهذا عدو أبيه ، بل هو عدو نفسه لأنه أوردها المهالك ، ومعلومٌ أنّ الإنسانَ قد يظلم غيره لحظِّ نفسه ولصالحها ، فكيف يظلم هو نفسه ، وهذا يُسمُّونه الظلم الأحمق حين تظلم نفسك التى بين جنبيْك ، ولكن كيف ذلك ؟

نعرف أنَّ العدو إذا كان من الخارج فسهْلٌ التصدِّى له ، بخلاف إذا جاءك من نفسك التى بين جنبيك ، فهذا عدو خطير صَعْب التصدى له والتخلُّص منه .

والولد ونفسك التى بين جنبيْك ، وزوجك التى هى أقرب الناس إليك وقد أفضيتُما إلى بعضكما البعض ، قد تصبح هى أعدى أعدائك بأنْ تملك عليك لُبَّك وعقلك ونفسك ، فتقنعك بما فيه هلاكك وبما يبعدك عن منطق الإيمان .

وقد نزلت هذه الآية فى عوف بن مالك الأشجعي[١] وكان ذا أهل وولد ، فكان إذا أراد الغزو بكوا عليه ورقّقوه ، فقالوا : إلى مَنْ تدعنا ؟ فيرقّ ويقيم[٢].

وقال مجاهد : يحمل أحدَكم حبُّ ولده وزوجته على قطيعة الرحم أو على معصية ربه ، ولا يستطيع مع حبه إلا أنْ يعطيه ، فنهى اللهُ عن طاعتهم فى ذلك .

وهم فى هذا يُضاهون قوْلَ العدو الأول لبنى آدم وهو الشيطان ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إنَّ الشيطانَ قعد لابن آدم فى طريق الإيمان ، فقال له : أتؤمن وتذر دينك ودين أهلك ومالك ؟ فخالفه فآمن ، ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له : أتهاجر وتترك أهلك ؟ فخالفه وهاجر . ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له : أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ويقسَّم مالك ؟ فخالفه فجاهد فقُتل ، فحقٌّ على الله أنْ يُدخله الجنة[٣] .

فعداوته للإنسان عداوة مُسبقة ، وقد أقسم أنْ يُغوى بنى آدم جميعاً ،

---

(١) عوف بن مالك الأشجعى ، يكنى أبا عبد الرحمن ، أول مشاهده خيبر ، كانت معه راية أشجع يوم الفتح وسكن الشام توفى بدمشق عام ٧٣ هـ [أسد الغابة ٢/٣٨] شهد غزوة ذات السلاسل ومؤتة وتبوك . كان من نبلاء الصحابة .

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (جامع البيان) فى تفسير آية ١٤ التغابن (٣٤٥١٧ طبعة دار هجر) . وأورده محمد الطاهر بن عاشور فى التحرير والتنوير .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٦٠٠٠) والنسائى فى سننه (٣١٣٤) وابن حبان فى صحيحه (٤٥٩٣) وأبو القاسم البغوى فى معجم الصحابة (١١٨٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (٦٤٢٨) عن سبرة بن أبى فاكه رضى الله عنه .

فقال: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]، وقال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ(١) ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾ [الإسراء]

فأقسم بعزة الله سبحانه أنْ يُغوى خَلْقه، لذلك كان الشيطانُ هو أول عدوٍّ للإنسان، ويقف على الطريق المستقيم، مثال ذلك عندما يتصدّق إنسان بصدقة قد يعلنها ويقول: لقد تصدقتُ أكثرَ من فلان.

ونجد أن إبراهيم عليه السلام قد نجح فى اختبار الله له بابنه إسماعيل، فكان الولد عَوْناً لأبيه على طاعة ربه، لا عدواً له، لذلك نقرأ على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

ولننظر إلى ما قاله إسماعيل عليه السلام: ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] فإسماعيل أخذ الكلام على أنه أمرٌ من الله، فكان ممتثلاً لأمره.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) ﴾ [التغابن]

قد يسأل سائل: ما مناسبة الكلام هنا عن العفو والصلح والمغفرة بعد الحديث عن عداوة بعض الأزواج والأولاد، ولابد أنْ نعرف هنا سببَ نزول هذه الآية.

فقد نزلتْ فى أولاد الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وأراد أهلوهم وزوجاتهم وعيالهم أنْ يصرفوهم عن الهجرة بقولهم: لمن تتركوننا ؟ فالبعض كان يستجيب لهم ويقعد عن الهجرة، فيرقّ قلبه لتوسلاتهم بالبقاء وعدم الهجرة.

---

(١) لأحتنكن: لأستولين ولأحتوينهم ولأضلنهم ولأستأصلنهم. قال القرطبى: والمعنى متقارب أى لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال.

والبعض الآخر كان لا يستجيب لهم ، فكانوا يقطعون عنهم النفقة ، وكان البعض يقول لمن تخلَّف من أزواجه وأولاده : لئن جمعنا الله وإياكم لا تصيبون منِّى خيراً ، ولأفعلن وأفعلن ، فأنزل الله هذه الآية [1].

لذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) ﴾ [التغابن] بعد قوله ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن]

فهو دعوة إلى الرفق فى الحذر والتلطف فى لقاء المكروه الذى يجيء إلى المؤمن من زوجه أو ولده ، فإذا كان من واجب المؤمن أنْ يحذر هذا العدو الكامن فى أقرب الناس إليه وآثرهم عنده .

فإنَّ هذا العدو يجب أنْ يُنظر إليه من جانب آخر على أنه صديق ، وأن هذه العداوة طارئة ، وأنه يمكن أنْ تعالج هذه العداوة بالحكمة والحسنى على ألاَّ يكون ذلك على حساب الدين .

فالعفو والصفح والمغفرة من المؤمن لزوجه وولده الواقعيْن فى موقع الفتنة والعداوة له فى دينه ، إنما هو صبرٌ على الأذى واحتمال الضّر فى سبيل الإبقاء على علائق الود ووشائج القربى التى هى من أمر الدين ومن طبيعة الحياة .

ونلاحظ أن الحق سبحانه هنا جمع بين مراتب ثلاثة : العفو والصفح والمغفرة . والواو التى بين (تعفوا) و (تصفحوا) و (تغفروا) هى واو المغايرة، أى : أن العفو مقام آخر ومرتبة أخرى غير الصفح وغير المغفرة .

فقد تعفو عمَّنْ أساء إليك فى خصوص موقف ما ولكنك لا تصفح عنه ، فإنَّ الصفحَ يدفعك أنْ تعفو عنه فى مواقف أخرى ، ولكنك لا تفعل لأنك لم تصفح، وكذلك الصفح غير المغفرة ، فقد تصفح عن إنسان فلا تذكر سيئته أمام أحد ولا تُعاقبه وتصفح عنه فى مواقف أخرى .

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٣/٣٦٩) وكذا أبو إسحاق الثعلبى فى (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) (٩/٣٢٩) .

أمـا المغفـرة فـإنها مرتبـة أخرى ومقـام آخر عـالٍ لا يتسم بـه إلا الأقلُّون أصحاب الحظ العظيم فى العفو والصفح ، فتجده يتخلَّق بخُلق الله سبحانه فى المغفرة .

فالمغفـرة أصبحتْ سلـوك حياته وأخلاقه فيتجاوز عـن كلِّ إساءات النـاس ولـو تكـررتْ ويكل أمره إلى الله ، فلا ينتصر لنفسه ولا ينتظر من أحد طلبَ عفو أو صفـح ، فتجـده سهلاً ليِّناً مُعرضاً عن الانتصار لنفسه ، ولو بـالنظرة الحـادة لمَنْ أساء إليه .

ومثـل هذه المقامات المتدرجة نجدهـا أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

فأنـت تكظـم غيظك فـى المرحلة الأولى ، وتعفـو فى المرحلـة الثـانية ، وإنْ أخرجـت الانفعال من قلبـك وصلتَ إلى المرحلة الثالثـة ، وهى التى تمثل قمة الإيمان وهى الإحسان .

فـإذا كان المطلـوب فى المرحلة الأولى منع العمـل النزوعى فتكظم غيظك ، فـالأرقى من ذلك أنْ تعفو ، والعفو هو أنْ تُخرج المسألة التى تغيظك من قلبك ، وإنْ كنتَ تطلب مرحلة أرقى فى كظم الغيظ والعفو فأحسِن إليه بـالكلمة الطيبة ولو أنْ تهدى إليه شيئاً .

وقد يقول قـائل : ولكن الآية التى معنـا هنـا بدأت بـالعفو وليس بكظم الغيظ ، فقال : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا .. (١٤) ﴾ [التغابن]

نعـم ، هنـا العفو هـو المرحلة الأولى بينما هو فى سـورة آل عمران المرحلة الثانيـة بعد كظم الغيـظ ، وذلك لأن آية سورة آل عمران تتحدث عن ضرر واقع على نفس أو سَمْع الإنسان ، فكان لابدَّ من الكظم أولاً .

أمـا آيـة التغابن فـالأمـر يتعلق بعـدم طاعة الأب فـى تنفيذ أمر مـن أوامر

منهـج الله ، فيحتـاج إلى العفو والملاينة والملاطفة لعـلاج ما اعوجَّ من زوجه وأولاده.

والفـرق بـين العفو والصفـح أنَّ العفو هو أنْ تمحو من نفسـك أثر أى إساءة، وكأنه لم يحدث شيء . يقال : عفَتِ الريحُ الأثرَ أى : مسحته وأزالتْه ، فالإنسان حين يمشى على الرمال تترك قدمُه أثراً فتأتى الريح وتعفو الأثر أى تزيله .

أما الصفح فيعنى طَيّ صفحات هذا الموضوع لا تجعله فى بالك ، ولا تجعله يشغلك .

فهناك فرق بين أنْ تمحو الخطيئة ويبقى أثرها فى نفسك وتظل فى حالة من الغيظ والحقد ، والحق هنا يأمر بالعفـو أى إزالة أثر ما حدث ، ويأمر بالصفح أى أنْ تُخرج أثر الخطيئة من بالك .

فعنـد الصفـح لا يبقى أثـرٌ لهذا الذنب مطلقـاً فلا يعمل فى قلبـه ، بل يأتى الصفح حتى لا ينشغل قلبُ المؤمن بشيء قد عفا عنه ، ثم تأتى المرحلة الثالثة، وهـى فرصة مفتوحة لمَنْ يريد أنْ يتمادى فى مرتبـة الإحسان وترقى اليقين والإيمان بأنْ يُحسن الإنسان إلى مَنْ أساء إليه .

وهـذه المرتبة هى مقام المغفـرة ﴿ وَتَغْفِرُوا .. (١٤) ﴾ [التغابن] هذه المغفرة تجعلـك مُنفذاً لقـول الرسول الكريم ﷺ مما رواه أبيّ بن كعـب قال : لما أنزل الله عـز وجـل على نبيـه : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف]

قـال رسـول الله : ما هذا يا جبريل ؟ قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى مَنْ حرمك ، وتصِل مَنْ قطعك »[1].

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧٠٨/٦) من حديث الشعبى مرسلاً وعزاه لابن أبى الدنيا وابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ الأصبهانى . وأخرجه أبو نعيم الأصفهانى فى معرفة الصحابة (٥١٣٤) من حديث قيس بن سعد بن عبادة .

فمغفرتـك تجعلك تعفو رغم الظلـم الواقع عليك ، وتعطى رغم أنهم حرموك ، وتصل مَنْ طردك وقطعك .

ويُنهـى الحق سبحانــه الآية بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ .. (١٤) ﴾ [التغابن] . وغفور صيغة مبالغة (فعول) فهو سبحانه دائم المغفرة ، لأنه ربٌّ وبربوبيته يعفو ويصفح ويغفر ، وعلى العبد أنْ يتخلَّق بأخلاق الله سبحانه .

والحـق سبحانه يقـول : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّـونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) ﴾ [النور]

فـإنْ كنتَ تحـب أنْ يغفر اللهُ لك ، أفلا تغفر لمن فعـل معك سيئة ؟ وما دمت تريـد أن يغفـر الله لك فاغفر للناس خطأهم ، وهـو سبحانه ﴿ غَفُورٌ .. (١٤) ﴾ [التغابـن] لمـا قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها ، وهو أيضاً ﴿ رَحِيـمٌ (١٤) ﴾ [التغابـن] بكم فلا يعاجلكـم بالعقوبة شفقةً عليكم وحُباً فى رجوعكم إليه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

فقد تجد البعضَ يستمتعون بالمال والولد ، ولا يلتفت الإنسانُ الناظر إليهم إلى أن المـال والولـد هما أدواتُ عذابه ،وقد يقول إنسـانٌ : إنَّ الله قال : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

ونقول لمن يقول ذلك : أكمل الآية : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾ [الكهف]

ولا يغتر أحدٌ بالمال والولد ، لذلك يقول تعالى : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

فإياكم أنْ تروا واحداً من هؤلاء ممَّنْ رزقهم الله المال والولد ثم تقولون : كيف يكون عذابهم فى الدنيا وهم يملكون المال والولد ؟ ومثل هذا التعجب يعنى استحسان المال والولد والظن أن فيهما الخير كله .

لكنك إنْ نظرتَ بعمق إلى المال والولد وكل حطام الدنيا فستجده لا يستحق الإعجاب ، وإياك أنْ تغترَّ بشيء يمكن أنْ يتركك ، ويمكن أنْ يكون سبباً فى عذابك .

فالمال والولد قد يجعلان الإنسان مُلتفتاً إلى النعمة ويُلهيانه عن المنعم ، وإنْ لم يلتفت الإنسانُ إلى المنعم لا يذكره ، وإنْ لم يذكر الله أهمل منهجه .

والمال والولد فى الحياة الدنيا قد يكونان سببين فى أنْ يخاف الإنسان ترك الدنيا ، فإنْ لم يكُنْ لك إيمان بما عند الله فى الآخرة فقد تخاف أنْ يتركك المال أو الولد .

والذى لا يؤمن باليوم الآخر فالدنيا هى كل زمنه ، وإنْ فاتها كان ذلك مصيبة له ، وإنْ فاتته كان ذلك مصيبة عليه ، وإنْ آمن الإنسان بالله واليوم الآخر لَقالَ : لئن فاتتْنى الدنيا فلِى عند الله خيرٌ منها .

ويريد الحق سبحانه أنْ يمنع عن المؤمنين به فتنة النعمة التى تُلهى عن المنعم . فيقول الحق سبحانه : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ .. (٥٥) ﴾ [التوبة] وهذا يدلُّنا على أن للمال وحده إعجاباً ، وللأولاد وحدهم إعجاباً .

فمَنْ عنده مالٌ معجبٌ بما عنده ، ومَنْ ليس عنده مالٌ وعنده أولاد معجبٌ بهم أيضاً ، فإذا اجتمع الاثنان معاً يكون الإعجابُ أكبرَ وأشملَ .

والحق سبحانه وتعالى يريدنا أنْ نفهم أنَّ اجتماعَ المال والولد يجب ألاَّ يثير الإعجاب فى نفوسنا ، بل إنَّ سياق الآية يحذرنا من أنْ نعجب بمن عنده المال وحده ، أو بمَنْ عنده الأولاد وحدهم ، لذلك كرر الحق سبحانه كلمة (لا) فقال : ﴿ **فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ** .. (٥٥) ﴾ [التوبة]

وأفهمنا الحقّ سبحانه أنه إذا أمدّ الكافر أو المنافق بالمال والولد ، فذلك ليس رفعةً من شأنه ، وإنما ليُعذبه بهما فى الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا** .. (٥٥) ﴾ [التوبة]

واللام هنا فى ﴿ **لِيُعَذِّبَهُمْ** .. (٥٥) ﴾ [التوبة] هى لام تدخل على الفعل واسمها « لام العاقبة » ، وهى تعنى أننا ربما نقوم بالفعل لهدف معين ، ولكن قد تكون عاقبتُه شيئاً آخر تماماً غير الذى قصدناه ، بل ربما تكون عكس الذى قصدناه .

والأموال والأولاد لا يُغْنون من **الله** ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا** .. (١١٦) ﴾ [آل عمران]

فالكافرون يظنُّون أن الأموال والأولاد قد تُغنى من **الله** ، إنهم لا يُحسنون التقدير ، فالأموال والأولاد هم من مظانِّ الفتن ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** (٢٨) ﴾ [الأنفال]

وما دامت الأموال والأولاد فتنة فلا بد أنْ نفهم الأمر على حقيقته ، فالفتنة ليست مذمومة فى ذاتها ،لأن معنى (فتنة) اختبار وامتحان ، وقد يمر الإنسان بالفتنة وينجح .

وذلك كأنْ يكون عنده الأموال والأولاد ، وهم فتنة بالفعل فلا يغره المال ، بل إنه استعمله فى الخير ، ولم يُصبه الأولاد بالغرور بل علّمهم حمْلَ منهج **الله** وجعلهم يَنشئون على النماذج السلوكية فى الدين .

لذلك فساعة يسمع الإنسانُ أيّ أمر فيه فتنة فلا يظن أنها أمر سيء ، بل عليه أنْ يتذكّر أنّ الفتنة هى اختبار وابتلاء وامتحان ، وعلى الإنسان أنْ ينجح مع هذه الفتنة ، فالفتنة إنما تضر مَنْ يُخفق ويضعف عند مواجهتها .

والكافرون لاينجحون فى فتنة الأموال والأولاد ، بل سوف يأتى يوم لا يملكون فيه هذا المال ، ولا أولئك الأولاد ، وحتى إنْ ملكوا المال فلن يشتروا به فى الآخرة شيئاً ، وسيكون كلُّ واحد من أولادهم مشغولاً بنفسه .

فالكافر من هؤلاء يخدع نفسه ويغشّها ويغتر بالمال والأولاد وينسى أن الحياة تسير بأمر مَنْ يملك المُلْك كله ، إن الكافر يأخذ مسألة الحياة فى غير موقعها ، فالغرور بالمال والأولاد فى الحياة أمر خادع ، فالإنسان يستطيع أنْ يعيش الحياةَ بلا مال أو أولاد .

ومَنْ يغتر بالمال أو الأولاد فى الحياة يأتى يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرةً عليه لماذا ؟ لأنه كلما تذكر أن المال والأولاد أبعداه عما يؤهله لهذا الموقف فهو يعانى من الأسى ويقع فى الحسرة .

ويقول الحق سبحانه عن هذا المغتر بالمال والأولاد وهو كافر بالله : ﴿ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) ﴾ [آل عمران] وهذا مصيرٌ يليق بمَنْ يقع فى خديعة نفسه بالمال أو الأولاد .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (٢٨) ﴾ [الأنفال]

وفى هذا المعنى نجد سيدنا عمر رضى الله عنه وقد دخل عليه حذيفة فسأله: كيف أصبحتَ ؟ أجاب حذيفة : أصبحتُ أحبُّ الفتنة ، وأكره الحقَّ ، وأصلى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء .

وغضب سيدنا عمر ، ولولا دخول سيدنا على بن أبى طالب لَكَانَ لسيدنا عمر شأنٌ آخر مع حذيفة . وسأل عليٌّ عمرَ : ما يُغضبك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر:

سألت حذيفة كيف أصبحت فقال كذا وكذا .

فقال على رضى الله عنه : نعم يا أمير المؤمنين ، أصبح يحب الفتنة ، أى يحب ماله وولده ، فالحق سبحانه قال : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن] وهو يكره الموت والموت حَقٌّ ، مَنْ فينا يحبه يا أمير المؤمنين ؟

وهو يصلى بغير وضوء على النبى ﷺ ، وله فى الأرض زوجة وله ولد وهو ما ليس لله فى السماء ، فقال عمر قولته المشهورة : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن [1].

والحق سبحانه فى آية سورة الأنفال قال : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا .. (٢٨) ﴾ [الأنفال] وفى آية سورة التغابن قال ﴿ إِنَّمَا .. (١٥) ﴾ [التغابن] ، وكلاهما يدل على أن الله يخبرهم ويعلمهم ويعلمنا بحقيقة كونية ، وهى أن الأموال والأولاد فتنة أى محنة واختبار وابتلاء . ففى الآية الأخرى يؤكد الأمر بـ(إنما) .

وقد يسأل سائل : لماذا بدأ الكلام بالأموال أولاً ثم ذكر الأولاد ؟

نقول : المتتبع لآيات القرآن يجد أنها دائماً تذكر المال قبل الأولاد ، يقول تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف] فذكرَ المال أولاً ، ثم ذكر (البنون) .

ويقول تعالى لإبليس : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ[2] مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .. (٦٤) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرج ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٢/٣٣٩) عن سعيد بن المسيب قال : كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس فيها أبو الحسن ، وذكره السيوطى فى جامع الأحاديث (٣٠٨٢٩) .

(٢) واستفزز أى استزل واستخف . أى استنهض ليقوم ويخف ويتحرك . (بصوتك) أى بوسوستك . (وأجلب عليهم) أى صِحْ عليهم من الجلبة وهى الصياح ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ (٦٤) ﴾ [الإسراء] المقصود وأجلب راكبى الخيل وهم الفرسان . ورجلك : الماشين على أرجلهم . والمقصود بجيشك راكبين أو ماشين .

ويقـول : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَـاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُـرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .. (٢٠) ﴾ [الحديد]

فدائمـاً القـرآن يذكر الأموال قبل الأولاد . فلمـاذا قَـدَّم المـال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟ وقد قَدَّمه سبحانه لأن المال عام فى المخاطب على خلاف البنين .

فـكلّ إنسان لديـه المال وإنْ قلَّ ، أمـا البنون فـهـذه خصوصية ، ومن النـاس مَـنْ حُـرم منها ، كمـا أن البنـين لا تـأتى إلا بـالمـال ، لأنه يحتـاج إلى الزواج والنفقة لكى يتناسل وينجب .

إذن : كلٌّ واحد له مـال وليس لكلٍّ واحد بنون .

والحـق سبحـانـه يقـول : ﴿ إِنَّمَـا أَمْوَالُكُـمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَـةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن]

والفتنـة ابتـلاء واختبـار ، والحق سبحـانـه يختبر الإيمان بـ فتنـة ، ويخطىء الناس عندما يظنون أن الابتلاء فى ذاته شر ، لا إن الابتلا مجردُ اختبار .

والاختبار عُرْضة أنْ تنجح فيه وأنْ ترسب ، فـالفتنة ليسـ شيئاً مذموماً ولا هى مصيبة تقع ، ولكن المصيبة تقع إذا رسب الإنسانُ فى تنة .

والفتنـة مأخوذة من أمر حسِّـيٍّ هو فتنة الذهب وكذلك الـ يد ، فتنة الذهب هى صَهْر الذهب فى البوتقة حتى ينصهر ، فتطفو كالزبد كـ عناصر الشائبة المختلطـة بالذهب ، وكذلك الحديد يتم صَهْـره حتى تنفصل رات المتماسكة بعضها فى بعض ويطفو الخبث .

ونعـرف أن الحديـد أنواع ، فـالحديد الزهر شوائبه ظاهرة به وسهل الكسر ، بينما نجد الحديد الصلب بلا خَبَث فهو صلب ، وفتنة الذهب حديد تكشف عن المعادن الغريبة المختلطة به .

ونُقلت كلمة « الفتنة » من المحسَّات إلى المعانى وصارت الفتنة هى الاختبار الـذى ينجح فيـه الإنسان أو يرسب ، فهى ليستْ ضارة فى ذاتها ولكنها ضارة لمَنْ يرسب فيها .

فالاختبارات التى يمرُّ بها الإنسان كلّها هى فتنة ، والذى ينجح تكون الفتنةُ بالنسبة إليه طيبةً ، والذى يرسب ويفشل فالفتنة بالنسبة إليه سيئة .

وإذا كان رسـول الله ﷺ قـد استشهد هنا بآية سورة التغابن : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُـمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابـن] فى الحديث الشريف الذى رواه عبد الله بن بريدة عن أبيه بريدة الأسلمى [١] قال : رأيتُ رسول الله ﷺ يخطب ،فجاء الحسن والحسـين رضى الله عنهما وعليهما قميصان أحمران يمشيانِ ويعثرانِ ، فنزل ﷺ فحملهما بين يديه ثم قال : « صدق الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن] نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعتُ حديثى ورفعتُهما [٢] ثم أخذ فى خطبته .

فرسول الله يقصد بفتنة الأولاد هنا الانشغال وأخْذ الفكر، لا أنهما سيأخذانه لطريـق غـير طريق الإيمان ، بـل هى الفتنة بمعنى أنْ يشغـلاه عمَّا هو فيه من عمل وخطبة لا أكثر.

ومن هذا أيضاً ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تجوَّز ذات يـوم فـى صلاة الفجر. فقيل : يـا رسول الله لم تجوَّزْتَ ؟ قال : سمعتُ بكاءَ صبيٍّ فظننتُ أنَّ أمه معنا تصلى فأردتُ أن أفرغ له أمه[٣].

(١) بريدة الأسلمى هو بريدة بن الخصيب ، كان رئيس قبيلة أسلم ، ولما هاجر رسول الله ﷺ مر بكراع الغميم وبريدة بها فدعاهم رسول الله إلى الإسلام فأسلموا ، ثم قدم بريدة على رسول الله المدينة وهو يبنى المسجد ، ومات بريدة فى خلافة يزيد بن معاوية بمرو.

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (١١١١) والترمذى فى سننه (٣٧٧٤) والنسائى فى سننه (١٤١٣) وكذا ابن ماجه (٣٦٠٠) وأحمد فى مسنده (٢٣٠٤٥) من حديث بريدة الأسلمى .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٣٧٢٦) من حديث أنس بن مالك . وقد أخرج ابن أبى داود فى كتاب (المصاحف) (٤٢٤) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى الفجر بأول المفصل ، فقرأ ذات يوم بقصار المفصل . قيل له فقال : إنى سمعت بكاء صبى ، فأحببت أن أفرغ له أمه .

لقد شغله بكاء الصبى ، فما بال قلب أمه ؟! إنه أراد أنْ يرحم الأم ويرحم الصبيّ الذى يبكى يريد أمه لأمر ، وهذا إذا قلنا عنه أنه فتنة فى الصلاة بسبب الولد ، فإنه لا يصل إلى معنى الفتنة التى تقصده آية سورة التغابن .

فرقَّةُ قلب رسول الله وحُبه لابنيْ ابنته فاطمة الحسن والحسين ، وحُبه لفاطمة التى قال عنها « إنما هى بضعة منى »(١) لقد كانت أحبَّ بناته إليه ، لذلك كان الحسن والحسين أحبَّ أحفاده إلى قلبه ، فأبوهم علىّ ابن عمه الذى فاداه بنفسه ليلة الهجرة إلى المدينة .

لقد صَعُبَ عليه أنْ يرى حفيديْه يمشيان ويعثران فيما يلبسانه ، فأراد أنْ يقِيل عثرتهما ، فترك خطبته ونزل من على منبره الشريف وأخذهما بيديْه ورفعهما من على الأرض .

ثم قال : صدق الله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن] ، فالأولاد قد يكونون فتنة واختباراً ، المهم هل هما فتنة واختبار خيْر أم شر .

فليست كلُّ فتنة شراً ، وليس كلُّها خيراً ، فالفتنة لابدَّ منها ، يقول تعالى :
﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت]

وفتنة الأموال تأمر الناس بالبخل والكنز والفساد بكلِّ أصنافه ، وفتنة الأولاد تدعو إلى التقاعس عن القيام بالمهمات الكبرى التى قد تطلب من الإنسان فتدعوه إلى الجُبْن والبُخْل والشُّح أيضاً .

والواجب على المؤمن أنْ يستعلى على فتنة المال ويُرخص من قيمته فى النفوس ، فلا يجعل المال يشغله أو يُعطله .

وإذا كان يبغى من وراء المال أو الأولاد المنفعة ، فلا تنظر إلى منفعة عاجلة

---

(١) عن المسور بن مخرمة قال قال رسول الله ﷺ : « إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها » .؟ أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦١) ومسلم فى صحيحه (٣٧١٤ ، ٣٧٦٧) .

مهما كبرتْ وكثرتْ ، ولكن انظر إلى منفعة آجلة عظيمة بعظمة مَنْ يعطيك أجراً عليها .

وأجرك ليس عند أحد من الخَلْق ، بل هو عند مَنْ خلق الخَلْق .

ثـم يقول الحـق سبحانـه : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن] الحق سبحانه يحب من عباده أنْ ينجحوا في الاختبارات التي يتعرَّضون لها ، لا أنْ يفشلـوا ، فأنـت إذا كنتَ تسعى لتحصيل المال من أيِّ طريق ، أو تستجيب لفتنة أولادك لـك فيصرفونك عما لابـدَّ لك من الثبات على الطاعـة والبُعْد عن المال الحرام حتى ينشأ أولادك من حلال .

واستقامتكم على منهج الله لن تضيع ويجعل الله لكم في طاعتكم ونجاحكم في الفتنة أجراً عظيماً ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن]

فالنفس البشرية مُولَعة بحكم تكوينها الفطرى من الله بحب النفع لنفسها ، ولكـن المختلَـف فيه هو قيمة هذا النفع ، وعمر هـذا النفع لأن الذى يسرق إنما يريد أنْ ينفع نفسه بجهد غيره ، ومَنْ لا يسرق يريد أيضاً أنْ ينفع نفسه ليبارك الله له في المال ، وأنْ يعطيه الرزق الحلال .

وهكـذا تكون النفعيـة وراء كلِّ عمل ، سواء أكان إيجابـاً أم سلباً ، فإذا كانت الخيانـةُ ستـؤدى لك نفعاً فـى أولادك أو أموالك ، فاذكر مـا يقابل الأمانة من الأجر عند الله عزَّ وجل ، وضع هذه فى كفة وضَعْ تلك فى الكفّة الأخرى ، وانظر أيّ كفّة ترجح ، ولا بد أنْ ترجح كفّة الأجر عند الله عز وجل .

ولنـا أنْ نتصـوَّر عظمة عطاء الحق ، فالمنهـج الإيمانى يعود خيره على مَنْ يُؤديـه ، وفـى هذا يقول تعـالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً .. (٩٧) ﴾ [النحل] ثم يقـول ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

فالحياة الطيبة هى النتيجة الطبيعية للعمل الصالح الذى يبتغى صاحبه وجه الله والدار الآخرة ، فيجمع الله له حظَّيْن من الجزاء ، حظاً فى الدنيا بالحياة الطيبة الهانئة ،وحظاً فى الآخرة : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

فهو ينتفع من اتباعه منهجَ الله حياةً طيبة مطمئنةً سعيدةً بطاعة الله ، فهو يعيش فى نور الله وبركة رزق الله ، ومع هذا يعطيه الله أجراً على طاعته وثواباً على استقامته رغم أنه انتفع باستقامته .

ثم إن الأجر عند البشر يساوى قيمة العمل ، لكن الأجر عند الله لا يساوى العمل فقط ، بل هو عظيمٌ بطلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى .

فهناك فرْقٌ بين أجر الناس للناس فى الدنيا ، وأجْر المُنعم سبحانه فى الآخرة ، والناس قد ألِفُوا الأجر على أنه جُعْل[1] على عمل ، فعلى قدْر ما تعمل يكون أجرك ، فإن لم تعمل فلا أجرَ لك .

أما أجر الله لعباده فى الآخرة فهو أجر عظيم دائم ، فإن ظلمك الناس فى تقدير أجرك فى الدنيا ، فالله تعالى عادل لا يظلم ، يعطيك بسخاء لأنه المنصف المتفضّل ، وإن انقطع الأجرُ فى الدنيا فإنه دائم فى الآخرة ، لأنك مهما أخذتَ من نعيم الدنيا فهو نعيمٌ زائل ، إما أنْ تتركه وإما أنْ يتركك .

ووصْف الأجر بأنه عظيم يدلُّ على كِبرَ فى الحجم ونفاسة فى الصفات وامتداد فى الزمن ، وهذه هى عناصر العظمة فى الشيء ، وأى أجر أعظم من أجر الله لعباده فى الآخرة !!؟

---

(١) الجُعْل : ما يُجعل من العطية أو غيرها أو أجر على عمل . فالجُعل بالضم ما جُعل للإنسان من شيء على شيء يفعله وكذلك الجِعالة بالكسر . وفى كتاب التعريفات للجرجانى : الجعل ما يُجعل للعامل على عمله .

وعظمةُ الأجر أيضاً أنه عند الله لا عند البشر، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن] وفي آية أخرى ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ .. (١١٢) ﴾ [البقرة]

فالله جعل التكليف منه سبحانه، فالمنطقى أنْ يكون الأجرُ عند الله، فلا يوجد خوفٌ أو حزن من أنْ لا ينالوا أجرهم الذى وعدهم الله به، فالخوف يكون من شيء سيقع، والحزنُ يأتى على شيء قد وقع، ولا هذه ولا تلك تحدث عندما يكون أجرُنا عند الله.

فما عند الله لا خوفٌ عليه بل هو يُضاعف ويزداد، وما عند الله لا حزن عليه، لأن الإنسان يحزن إذا فاته خيرٌ ولكن ما عند الله باق لا يفوتك ولا تفوته.

وقد كانت السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ تجلو الدرهم وتُطيِّبه عند التصدُّق به، فلما قيل لها: ماذا تصنعين؟ قالت: أجلو درهماً وأطيِّبه لأنِّى نويتُ أنْ أتصدَّق به، فقيل لها: أتتصدقين به مجلواً ومُعطراً؟

قالت الزهراء بنت رسول الله ﷺ: لأنى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقير[1].

إن الأجر يكون عند من يُغليه ويُعليه ويرتفع بقيمته، وهو الخالق الوهاب.

ومَنْ يتأمل آيات القرآن يجد فيها معنًى جميلاً فى الأجر العظيم، أن الأجر أحياناً لا يكون مقابلاً للعمل الحسن، بل يكون محْضَ الفضل.

يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾ [النساء] فقد أسماه الله أَجراً مع أنه زائد، لأن هذا الفضل جاء تابعاً للأجر، فإذا لم يعمل الإنسان هذا العمل فإنه لا يستحق أجراً، وبالتالى لا ينال فضلاً.

وما دام الأجر من عند الله فهو عظيم، لأنه أجر مناسب للمعطى وهو الله عز وجل.

---

(١) ذكر السمعانى فى تفسيره (٢/٣٤٦): رُوى عن ابن مسعود أنه قال: إن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد الفقير.

ويقول تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) ﴾ [النساء]

فما هو الأجر العظيم ؟ يأتى بعده قوله تعالى : ﴿ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) ﴾ [النساء]

والدرجات جمع درجة ، وهى المنزلة الارتقائية التى يرتقى فيها الإنسان ، ويضيف عليها الحقُّ سبحانه المغفرة والرحمة .

وكلمة ﴿ عِنْدَهُ .. (١٥) ﴾ [التغابن] فى الآية تعطى ملمحين :

الملمح الأول : هو تيئيس مَنْ لم يؤمن بالله من أن يجد أجْراً فى الآخرة على ما قد يعمله من أفعال الخير دون أنْ يؤمن بالله ، فإنه لم يفعل الصالحات ابتغاءَ مرضاة الله ، أو فعلها لأجل آلهة أخرى مزعومة .

إذن : فخُذْ أجرك ممن فعلت له ، وهذا غير متحقق لأنه لا إله إلاَّ الله ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر] فلا أحدَ له مُلْك يوم القيامة .

وكيف ينتظرون من الله أجراً على أعمالٍ لم يعملوها لله ، بل عملوها لينالوا حظوةً عند الناس فى الدنيا ، وقد نالوها ، وغيرهم فعلوها لآلهة أخرى .

الملمح الثانى : أن كلمة ﴿ عِنْدَهُ .. (١٥) ﴾ [التغابن] تعطى معنى أن الأجر سيكون فى الدنيا أو سيكون فى الآخرة ، لأن الله يملك الدنيا والآخرة ، فـ ﴿ عِنْدَهُ .. (١٥) ﴾ [التغابن] تحتمل العندية فى الدنيا والعندية فى الآخرة .

وهذا غير قوله تعالى عن إيتاء الأجر فى الآخرة ، يقول تعالى : ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ [النساء]

فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل : جزاء يأتى فور حصول

الشرط ، وجزاء يأتى بعد زمن يسير تؤديه « السين » . وجزاء يأتى بعد زمن أطول تؤديه « سوف » .

ويستخدم الحق سبحانه هنا كلمة (سوف) ، وكان من الممكن أنْ يأتى القول ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .. (١٠) ﴾ [الفتح] ، ولكن لدقَّة الأداء القرآنى البالغة جاءتْ بأبعد المسافات وهى (سوف) .

ونعرف أنَّ جواب شرط الفعل إذا ما جاء على مسافة قريبة فنحن نستخدم (السين) ، وإذا ما جاء جوابُ الشرط على مسافة بعيدة فنحن نستخدم (سوف) .

وجاء الحق هنا بـ (سوف) لأن مناطَ الجزاء هو الآخرة ، فإيَّاك أيُّها العبد المؤمن أنْ تقول : لماذا لم يُعطنى الله الجزاءَ على الطيِّب فى الدنيا ؟

لأن الحق سبحانه وتعالى لم يقل (فسنؤتيه) ولكنه قال : ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ [النساء] مما يدلُّ على أنَّ الفضل والإكرام من الله ، وإنْ كان عاجلاً ليس هو الجزاء على هذا العمل ، لأن جزاء الحق لعباده المؤمنين سيكون كبيراً ، ولا يدلُّ على هذا الجزاء فى الآخرة إلا ﴿ فَسَوْفَ .. (٧٤) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾

الاتقاء من الوقاية ، والوقاية هى الاحتراس والبُعْد عن الشر ، وقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ .. (١٦) ﴾ [التغابن] أى : اتقوا غضب الله الذى يؤدى بنا إلى أنْ نتقى كلَّ صفات جلاله ونجعل بيننا وبينها وقاية ، فمن اتقى صفات جلال

الله أخذ صفات جماله .

فصفات الجلال تجدها فى القهار والجبار والمذل والمنعم والضّار ، فمَن اتقى واحترس من قهر الله وجبروته وانتقامه أخذ صفات الجمال المتمثلة فى الغفار والرحيم والتواب والعفوّ .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ .. (١٦) ﴾ [التغابن] أى : جعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية حتى لا يصيبكم عذابٌ عظيم ، ولا تصيبكم آثارُ صفات الجلال، وذلك بأنْ تكون أعمالكم فى الدنيا وفقاً لمنهج الله سبحانه وتعالى . إذن : فالتقوى مطلوبة فى الدنيا .

وأنتم لا تتحملون متعلقات آثار صفات الجلال ، فأنتم لا تتحملون غضب الله ولا قَهْر الله ولا بطش الله .

فإياكم أنْ تُغضبوا ربكم فى أيّ عمل من هذه الأعمال ، وكُنْ أيها المسلم فى هذه التقوى على يقين من أنك ملاقي الله ، ولا تشك فى هذا اللقاء أبداً ، وما دُمْت ستتقى الله وتكون على يقين أنك تلاقيه ؛ لم يَبْقَ لك إلا أنْ تُبشر بالجنة .

يقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) ﴾ [البقرة]

وتقوى الله تعنى أنْ نفعل أوامر الله وأنْ نتجنَّب نواهيه ، لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإنْ حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صِرْنا مع الكون كأننا مُسخَّرون لقضايا المصلحة والخير .

وبعض السطحيين قد ينظر إلى بعض من آيات القرآن ويقول : إن بها تناقضاً . فيقولون : بعض من آيات القرآن تقول :﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ .. (٢٤) ﴾ [البقرة] . وبعض الآيات تقول ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٧٨) ﴾ [البقرة] فهل للنار وقاية؟ وهل لله وقاية ؟

وهـؤلاء لا يفهمـون أن ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٧٨) ﴾ [البقـرة] تعنى : اجعل وقاية بينك وبين ما يؤذيك ويُتعبك ، فـ ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٧٨) ﴾ [البقرة] تعنى : اجعل بينك وبين عقاب **الله** وقاية ، وهى الدرع التى يقيمها الإنسان بتنفيذ أوامر **الله** بـ (افعل) والامتثال لنواهى **الله** بـ (لا تفعل) .

وعندما تجعل بينك وبين **الله** وقاية فأنت تجعل بينك وبين غضب **الله** وقاية، وهكذا تتساوى « تقوى **الله** » مع « اتقاء النار » .

والمتقون هم الذين يجعلون بينهم وبين أيّ شيء يُغضب **الله** وقاية ، والطريق أنْ نتبع منهجه فلا ندخل النار التى هى جند من جنود **الله** ، والوقاية من النار لا تكون إلا بطاعة **الله** باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

فمعنى اتق **الله** : اجعل بينك وبين عذاب **الله** وغضبه وقاية ، وهذا نفسه معنى : اتق النار . يعنى : ابتعد عن أسبابها حتى لا تمسَّك النار .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] والفاء هنا للتعقيب على ما سبق من قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن]

فلا تجعلوا أموالكم وأولادكم يصرفونكم عن طاعة **الله** واتباع منهج **الله** ، وإلا تكونون قد فشلتم ورسبتم فى اختبار **الله** لكم ، وتكون نتيجة الفتنة سلبية بالنسبة لكم .

لذلك جاء بعدها (فاتقوا) بوضع فاء قبل (اتقوا) أى : انتبهوا واجعلوا تقوى **الله** وخشيته والخوف منه هو الذى يُحرككم لا أهواؤكم فى الميل مع رغبات أولادكم ورغباتكم فى كَنْز المال والشُّح به والبخل .

ولـو تـأملنـا القرآن نجـده يقـول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فلمـاذا قال هنـا ﴿ مَـا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] وعلَّق الأمر على استطاعة العبـد لتنفيذ التقـوى ، مع أنه سبحـانه قـال فى آية أخرى : ﴿ يَـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

ومَـنْ يستطيـع أنْ يتقى الله حـقَّ تقـاته ؟ ذلك صَعُب علـى المسلمين ، ولذلك عندمـا نزلـت آية سورة آل عمران قـالوا : ليس منّـا مَنْ يستطيع أنْ يتقى الله حقَّ تقاتــه ، فنزلت الآيــة الكريمة : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

والـذى يطبـق الآية الكريمــة : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِــهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] يحقـق خـيراً أكبر فى عملــه ولكنه لا يستطيـع أنْ يتقى الله حـقَّ تقـاته إلاَّ فى أعمـال محدودة جداً . إذن : الخير هنـا أكبر ، ولكن العمل الذى تنطبق عليه الآية محدود .

أمــا قولــه تعـالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُــمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فإنه قد حدد التقـوى بقدْر الاستطاعة ، ولذلك تكون الأعمـال المقبولة كثيرة وإنْ كـان الأجرُ عليها أقلّ .

وعندمـا نـأتى إلى النتيجة العـامة .. أعمـالٌ أجرُهـا أعلى ولكنها قليلة ومحدودة جداً ، وأعمـالٌ أجرُهـا أقلّ ولكنها كثيرة ، أيّهمـا فيه الخير ؟ طبعاً الأعمـال الكثيرة ذات الأجر الأقل فى مجموعهـا تفوق الأعمـال القليلة ذات الأجر المرتفع .

ولكـن مـا حـقّ التُّقى ؟ هـو أنْ يكـون إيمـانُك أيهــا المؤمن إيمانــاً راسخاً لا يغــادرك ولا تتذبـذب فيه ، واتقــاء الله حقَّ تُقاته هـو اتبــاعُ منهجه فيُطاع الله باتبـاع المنهج فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يكفر .

وقيل في معنى : ﴿ حَقَّ تُقَاتِه .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] أي : أنه لا تأخذك في الله لومة لائم ، أو أنْ تقول الحق ولو على نفسك . هذا ما يُقال عنه « حق التقى » أي : التُّقى الحق الذى يُعتبر تُقى بحقٍّ وصدق .

وقال العلماء : إن هذه الآية عندما نزلتْ وسمعها الصحابة استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم : مَنْ يقدر على حقِّ التقى ؟ ويقال : إن الله أنزل بعد ذلك : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فهل معنى هذا أن الله كلّف الناس أولاً ما لا يستطيعون ، ثم قال من بعد ذلك: ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

لا .. إن الحق سبحانه لا يكلف إلا بما في الوُسْع ، والناس قد يخطئون الفهم لقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فيقول العبد :أنا غير مستطيع أنْ أقوم بذلك التكليف ، ويظنُّ هذا العبد أن التكليف يسقط عنه ، لا إنَّ هذا فَهْم خاطيء .

إنَّ قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] أي : إنك تتقى الله بما كان في استطاعتك من الوُسْع ، فما باستطاعتك أن تقوم به عليك أن تقوم به ، فلا يهرب أحدٌ إلى المعنى المناقض ويقول : أنا غير مستطيع لأنَّ الله يعلم حدودَ استطاعتك .

وساعةَ تكون غيرَ مستطيع فهو سبحانه الذى يُخفِّف ، فالحق سبحانه هو الذى يعلم إذا كان الأمرُ خارجاً عن استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمرُ خارجاً عن استطاعتك فالله هو الذى يُخفِّف عنك .

فقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِه .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] هذه منزلة عالية في التقوى لا يقوم بها إلا الخواصّ من عباد الله ،وعندما

شقَّتْ هذه الآية على الصحابة وقالوا[١] : ومَنْ يستطيع ذلك يا رسول **الله** ؟

فنزلت ﴿ **فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** .. (١٦) ﴾ [التغابن] وجعل **الله** التقوى على قدر الاستطاعة ، وهكذا نُسخت الآية الأولى مطلوباً لازماً ، ولكنها بقيتْ ارتقاءً، فمَنْ أراد أنْ يرتقى بتقواه إلى ﴿ **حَقَّ تُقَاتِه** .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] فبها ونعمتْ، ومَنْ لم يستطع أخذ بالثانية .

وفى تأمُّل آخر للآيتين سنجد ملمحاً آخر يردّ على مَنْ يقول بالتناقض فى الآيتين ، فآية ﴿ **حَقَّ تُقَاتِه** .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] جاءت فى سياقٍ يختلف عن آية ﴿ **فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فآية ﴿ **حَقَّ تُقَاتِه** .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] جاءت فى سياق آيات تُحدِّثنا عن الكفر والإيمان ، قال تعالى : ﴿ **يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** (١٠٠) **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** (١٠١) ﴾ [آل عمران]

فالكلام هنا عن إيمان وكفر ، فلا يناسبه فعله بحسب الاستطاعة ، فالذى يناسب المقام هو قوله : ﴿ **اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِه** .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] ، فالإنسان مُطالب بالإيمان بالله بما أمر به **الله** ، ولا يقرب الكفر ولا الشرك بأيّ شكل من الأشكال .

وعليه فالإيمان بالله ورسُله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وهذه كلها

---

(١) قال سعيد بن جبير (وهو من كبار التابعين) : لما نزلت الآية ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .. (١٠٢)﴾ [آل عمران] اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرّحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦)﴾ [التغابن] فنسخت الآية الأولى ، أورده ابن كثير فى تفسيره (٨/ ١٤٠) وعزاه لابن أبى حاتم .

معانٍ لا تقبل الاستطاعة ، بل لا بدّ من حق التقاة .

فالاستطاعة تأتى فى الأمور التى تجوز فيها ، وهذا يناسب الموقف الذى فى سورة التغابن ، فالإنسان يكون مؤمناً ولكن تغلبه نفسه أو حُبه للمال أو حُبه لأولاده وأهله فيستجيب لهم فى بعض الأمور التى ليس من بينها الكفر والشرك ، حينها يناسبه ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فالله هو الخالق سبحانه يعلم ضعف الإنسان والظروف التى قد تأخذ به يميناً ويساراً ، ولكن ليس الإيمان من بين هذه التى تحتمل الاستطاعة ، تستطيع أو لا تستطيع إلا فى حالة الإكراه ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ .. (١٠٦) ﴾ [النحل]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا .. (١٦) ﴾ [التغابن] فالمطلوب ليس السمع بجارحة الأذن فقط ، بل المطلوب سمع يتبعه طاعة وتنفيذ لما سمعت .

فأنت تسمع كلَّ ما يُقال حولك ، وقد تنتبه إلى ما تسمع وقد لا تنتبه ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) ﴾ [الحاقة] فوعى الأذن لما تسمع يجعلها تستفيد مما تسمع وتعتبر بما يرد عليها ، فلا يكون ما تسمعه مجرد أصوات كهؤلاء الذين قال الله عنهم :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد]

فهم استمعوا وسمعوا ما قال رسول الله ، ولكنهم خرجوا من عنده يقولون ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] أى : أنهم يسمعون ولا يعقلون ولا يدخل النورُ إلى قلوبهم ، فكأنهم صُمٌّ عن آيات الله لا يسمعونها .

فالمؤمن يسمع ويتأثر بما يسمع فيزداد إيمانه ، أما الكافر فلا تستطيع أذنه أنْ تنقل الوعى والإدراك بما سمع .

المؤمنون تفيض أعينهم من الدمع عند سماع قول الله وسماع القرآن ، أما مَنْ غلُظت قلوبهم فلم يتخللها أو يدخلها ويخالطها نورُ القرآن ، فهؤلاء تغلظ قلوبهم عن سماع الحق وإنْ سمعوه بجارحة الأذن .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ .. (٤٤) ﴾ [فصلت] أى : صَمَم فلا يسمعون ، وما دام فى الأذن وَقْر وصمم فلن تسمع ، وإنْ سمعت شيئاً أنكره القلب ، والجوارح لا تنفعل إلاَّ بما شُحن به القلب من عقائد .

أما الذين هداهم الله فيسمعون كلمة الحق وتستقبلها قلوبهم بالرضا فتنفعل لها جوارحهم بالالتزام ، فتسمع بالأذن وتقبل بالقلب وتنفعل بالجوارح طاعةً والتزاماً بما أمرت به .

وهذا هو مقصودُ الحق سبحانه هنا ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا .. (١٦) ﴾ [التغابن] وارتباط السمع والطاعة بالتقوى قد صرَّح به حديثُ رسول الله .

ويقول الحق سبحانه عن المؤمنين : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. (٢٨٥) ﴾ [البقرة]

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. (٥١) ﴾ [النور]

فالسماع هو بلوغ الدعوة ، والطاعة هى انفعالٌ بالمطلوب ، وأن يمتثل المؤمن أمراً ويمتثل المؤمنُ نهياً فى كلِّ أمر يتعلق بحركة الكون .

فمعنى ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا .. (١٦) ﴾ [التغابن] أى : اسمعوا سمعاً واعياً يليه إجابة وطاعة ، لا مجرد أنْ يصل الصوتُ إلى أذن السامع دون أنْ يؤثر فيه شيئاً .

فالسمع له وظيفة ، وهو إبلاغ كلام الله لمدركات الإنسان العقلية والقلبية، ثم يتبعه تنفيذ وطاعة .

والحق سبحانه يريد لنا أن نكون ممن يسمعون ويطيعون ، لا أنْ نكون من هؤلاء الذين قالوا (سمعنا وعصينا) .

يقول الحق سبحانه عنْ أولئك اليهود : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا .. (٩٣) ﴾ [البقرة]

فهم سمعوا ما قاله لهم الله سبحانه وعصَوْهُ ، فهم سمعوا فى القول وعصوا فى الفعل ، فهم قالوا : سمعنا ولكنهم لم ينفذوا فلم يفعلوا ، والله سبحانه يريدهم أن يسمعوا سماع طاعة لا مجرد سماع بالجارحة .

لذلك يحب الله من المؤمنين أن يسمعوا سماع طاعة وسماع تنفيذ .

ومن هنا ينقلهم الحق سبحانه إلى الإنفاق كوجه من أوجه طاعة الله سبحانه، فيقول : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

ولاحظ أن الحق سبحانه يقول (خيراً) أى : أن الحق سبحانه يقارن بين أمرين ، أحدهما خيرٌ من الآخر وأكثر نفعاً وخَيْرية من الأمر الآخر .

هذان الأمران هما الإنفاق والشح ، وشُح النفس يأتى لأن الإنسان لا يأمن أبداً أنْ يأتيه العجزُ من بعد القدرة ، لذلك فإنه يحاول إنْ كان يملك شيئاً أنْ يُؤَمِّن العجز المتوهم ، فيحافظ على ما عنده من حاجات .

وهو يظن أنّ شُحه وبُخله واحتفاظه بالشيء عنده ، وفى ملكيته خيرٌ له ، لذلك يُلفت الحقُّ سبحانه نظرهم ، فيقول : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

والحق سبحانه يُطمئن المنفقين ، فيقول : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ

والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

فالإنفاق فى سبيل الله يردُّه الله لك مضاعفاً ، لذلك لا تحزن ولا تخف على مالك لأنك أعطيتَه لمقتدر قادر واسع عليم ، فأنفق لأنه سبحانه سيزيدك .

وقد دخل رسول الله ﷺ على بلال وعنده صَبرٌ[1] من المال ، فقال له رسول الله : أنفق يا بلال ولا تَخْشَ من ذى العرش إقلالاً[2] .

وفى رواية أنه كان تمراً ، فقال رسول الله : ما هذا يا بلال ؟ فقال : تمرٌ أدخره ، قال : ويحك يا بلال أو ما تخاف أنْ يكونَ له بُخار فى النار ؟ أنفق يا بلال ولا تخْشَ من ذى العرش إقلالاً[3] .

فرسولُ الله يطلب من بلال أنْ ينفق ، على فَقْر بلال وحاجته ، فما بالنا بغيره ممَّنْ يعبُّون المال عباً ويكنزونه ولاينفقونه فى سبيل الله .

وقد كان بلال بن رباح رضى الله عنه رجلاً فقيراً لم يُؤْت سَعة من المال أو الرزق . وقد أراد أنْ يدَّخر بعض تمره لأضياف رسول الله عندما يأتيه ، ورغم هذا وجَّهه رسولُ الله إلى الإنفاق لا الادخار ، فقال له : أنفق يا بلال ، ولا تخْش من ذى العرش إقلالاً .

وليس معنى هذا أن رسول الله لا يحضُّ على أنْ يدخر الإنسان جزءاً من ماله أو رزقه لوقت حاجة ، أو ليرتقى بما يدخره فى مستقبل الأيام ، إنما هو خشى على بلال من أنْ يكون يدخر هذا خشية أنْ لا يرزقه اللهُ غيره ، فأراد أنْ تبقى قلوبُ أصحابه نقيةً من الدنيا .

---

(١) الصُّبرة : واحدة صبر . تقول : اشتريت الشيء صبرة أى بلا كيل ولا وزن . [أنيس الفقهاء ١/٧٣] وهو كما نقول فى العامية : شروة . فالصبرة : الكومة من أى شيء [المعجم الوسيط] .
(٢) أخرجه البزار فى مسنده (١٣٦٦) من حديث بلال بن رباح .
(٣) أخرجه البزار فى مسنده (١٩٧٨) من حديث ابن مسعود (٩٨٩٣) من حديث أبى هريرة ، وكذا أبو يعلى فى مسنده (٦٠٤٠) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠١٧) .

وهذا أمر يرتبط بتقوى قلبه وخوفه من الله ، وخوف أنْ يسمع ولا يطيع ، وخوْف أنْ يعصى أمر الله ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] وكذلك خوْف أنْ يتأصَّل فى قلبه حُبُّ الدنيا فيقع فى قلبه بُخْلٌ أو شح ، فإنَّ ﴿ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

فقول الحق سبحانه ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] هو قانون يريد به الله أنْ يحارب الشحَّ فى نفوس المخلوقين ، إنه يقول لكلٍّ منَّا : انظر النظرة الواعية ، فالصدقة والنفقة فى الخير ، والمصلحة والصلاح لا تنقص ما عند الإنسان بل ستزيده .

فالأرض لا تنقص من مخزنك حين تعطيها كيْلة من القمح ، صحيحٌ أنك أنقصتَ كيلةً من القمح لتزرعها ، ولكنك تتوقع أنْ تأخذ من الأرض أضعافها.

والحق سبحانه حين تعرَّض لمنابع الشح فى النفس الإنسانية أوضح أنَّ أول شيء تتعرّض له النفسُ البشرية أن الإنسان يخاف من النفقة لأنها تنقص ما عنده .

وقد حذَّر رسول الله من الشُّح فى قوله « اتقوا الظلم ، فإنَّ الظلم ظلماتٌ يوم القيامة واتقوا الشُّحَّ فإن الشُّحَّ أهلك مَنْ كان قبلكم ، حملهم على أنْ سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم »[1].

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

فشحُّ النفس أمر غالب على النفس الإنسانية ، لذلك قال : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فيقيه الله أنْ يكونَ شحيحاً بخيلاً ، فهذه نعمةٌ من

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٧٤١) وأحمد فى مسنده (١٤٥٠١) والبيهقى فى السنن الكبرى (١١٨٣٥ ، ٢٠٩٥٤) والبخارى فى الأدب المفرد (٤٨٣ ، ٤٨٨) وصححه الألبانى .

الله ورحمةٌ يرحمه الله بها ، لأن مَنْ تشح نفسه بالمال أو بالعلم الذى تعلَّمه ، أو بالحكمة التى وهبها الله له تجد مآله ومصيره إلى الخسران.

أما ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فيكون ضمن مَنْ أفلح ونجا من الخسران وفاز ، لأنه أنفق المال فى سبيل الله فأعطاه الله أضعاف ما أنفق ، فهو تاجر مع الله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ .. (٢٦١) ﴾ [البقرة]

ومَنْ بذل علمه للآخرين أثابه الله عن كلِّ نفس تعلمت منه شيئاً نافعاً ، سواء فى علم دنيوى أو دينى ، ومَنْ آتاه اللهُ حكمةً وعقلاً فنقله إلى غيره فإنه يجنب مَنْ لا خبرة عنده الوقوع فيما يُغضب الله .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن] والفلاح هو الفوز والمفلح هو الفائز ، أى أولئك هُم الفائزون .

فكلمة ﴿ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن] معها دليلها ، فالمفلح هو الذى أخذ الصفقة الرابحة ، والكلمة مأخوذة من فلح الأرض ، فالذى يفلح الأرض ويحرثها ثم يزرعها يجد الثمرة تجيئه فى النهاية .

فالمفلح هو الفائز الناجى المستفيد بثمرة عمله ، والفلاح لايقتصر على الآخرة ، إنما هناك فلاح فى الدنيا يكون ثمرة للإنفاق ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) ﴾ [التوبة]

والإنفاق فى سبيل الله يشمل مجالاتٍ متعددة ، ففى سبيل الله تحدث حركة فى المجتمع يستفيد منها الناس ، فحين تخرج الزكاة يستفيد منها الناس ، وحين تجهز بها جيوش المسلمين يستفيد منها الناس .

فأنت إنْ أنفقتَ ولم تكنز حدث رواجٌ فى السوق ، والرواج معناه العمل ووسائل الرزق ، وإيجاد الحافز الذى يؤدى إلى ارتقاء البشرية .

وأنت حين تشترى لبيتك غسالة أو ثلاجة أو بنيتَ بيتاً صغيراً فإنك تُوجد رواجاً اقتصادياً فى المجتمع ، وفى نفس الوقت ارتقيتَ بوسائل استخداماتك، والرواج يدفع إلى اكتشاف الأحسن الذى يفيد البشرية ، ولكن إذا كنزتَ كلَّ مالك ساد الكساد الاقتصادى .

وليس معنى ذلك أنْ ينفق صاحبُ المال كلَّ ماله وزيادة ، لأن الحق سبحانه يريد الوسط فى كلِّ شيء ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[1] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

فالحق سبحانه يحذر من سفاهة الإنفاق وعدم الإبقاء على جزء من المال لمواجهة أى أزمة مفاجئة ، لكنك إنْ قترتَ حدث كسادٌ فى السوق وتوقَّف الإنتاجُ وتعطّل العمال .

والإسلامُ يريد نفقةً معتدلة توجد الرواج السلعى وادخاراً تستخدمه فى الارتقاء بحياتك ومواجهة الأزمات ، حينها نكون من المفلحين فى الدنيا والآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) ﴾

حدَّثنا الحق سبحانه فى الآية السابقة عن الإنفاق ، فقال تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

فلا تجعل الدنيا فى قلبك ، بل اجعلها فى يدك لتنفقَ من مالك على أهلك

(١) الإقتار : التقصير عن الذى لابد منه ، بأن يجيعهم أو يعريهم بخلاً وشحاً ، فالتقتير التضييق الذى هو نقيض الإسراف .

وعلى مصالح أولادك ومجتمعك ، فإنَّ الدنيا إذا سكنت قلبك لم تخلص من الشحّ والبخل حتى ولو بعلمك أو رأيك أو نصيحتك .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]، فالمشكلة فى النفس الشحيحة التى تشح حتى تبسّمه فى وجه أخيه ، رغم أن رسول **الله** ﷺ قال : « تبسُّمك فى وجه أخيك صدقة »[1] .

فطهِّر قلبك من الشّح ، لأنك لن تفلح إلا إذا طهّرتَ قلبك من الشح ، فمَنْ شحَّ إنما يشحّ على نفسه ، وليس ذلك فى صالح مَنْ يشحّ ؛ فالكريم يستزيد من **الله** العطاء ، أما الشحيح فليس له زيادةٌ من **الله** .

لذلك يقول تعالى : ﴿ هَـٰأَنْتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ .. (٣٨) ﴾ [محمد]

وربك حين يراك تنفق مما أعطاك يزيدك ، لأنك مؤتمن على الرزق ، لذلك يقول أحد الصالحين : اللهم إنك عوّدتنى خيراً ، وعوَّدتَ خلقك خيراً ، فلا تقطع ما عوَّدتنى حتى لا أقطعَ عن الناس ما عوَّدتهم .

إذن : فالعطاء استدرارٌ لنعمة **الله** وسببٌ للمزيد منها .

وهَبْ أن لك عدة أولاد وأعطيتَ لواحد منهم جنيهاً مثلاً ، فذهب واشترى به حلوى ثم وزَّعها على إخوته ولم يُؤثر نفسه عليهم لا بد أنك ستأتمنه وتعطيه المزيد ، لأن الخير فى يده يفيض على الآخرين .

واعلم أنك أيها القادر حين تحرم فقيراً فأنت المحروم ، لأن **الله** غنيٌّ عنك بقدرته المطلقة ، غنيٌّ وقادر أنْ يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسخون بما أفاء

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (١٩٥٦) وابن حبان فى صحيحه (٤٧٤) من حديث أبى ذر . وقد أخرجه البزار فى مسنده (٤٠٧٠) بأتم من هذا فقال : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر تكتب لك صدقة ، وإماطتك الشوك والحجر عن الطريق صدقة ، وإرشادك الضال عن الطريق صدقة » .

الله عليهم من رزق فى سبيل الله ، فالذى يمسك عن العطاء إنما منع عن نفسه باب رحمة .

والإنفاق قد يكون صدقةً أو زكاة أو إنفاقاً يصبُّ فى رواج اقتصادى وتشغيل الشباب ، وهذا فى حَدِّ ذاته يقى المجتمعات من الانحراف وضياع الأجيال فى مهاوى الضياع .

ومن الإنفاق إقراض المحتاج ، وكان من الممكن ألاَّ يكون هناك محتاج إذا آتى كلٌّ منَّا قُرْباه ويحملهم على فائض ماله وفائض حركته ، فلو أن كل قادر تولَّى الفقراء والمساكين من أقربائه لما وُجد محتاج فى مجتمع المسلمين .

فإذا أردتَ أنْ تفتح لنفسك باب البر مع الله فوسِّع دائرة الإنفاق ، وأنت إذا أنفقتَ على المحتاج الذى استدعاه الله للوجود فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خَلْقه دون أنْ يلزمك به الله .

والغنيُّ حين يقبض يده عن المحتاج فإنه يُدخل فى قلب المحتاج الحقد ، وأىّ مجتمع يدخل فى قلبه الحقد نجد كل المنكرات تنتشر فيه ، والحق سبحانه إنما يطلب تطهير المال بالإنفاق منه فى سبيل الله ليزيد وينمو ، وليخرج الضغن والحقد من المجتمع ، فالحقد إذا دخل مجتمعاً فعلى هذا المجتمع السلام .

وكأنَّ الحق سبحانه يقول للإنسان : تحرك فى الحياة وأنا أحمى نتيجة ما تتحرك فيه ، ولكن لى فى مالك الذى جعلتُك فيه خليفة حقّ عليك أنْ تعطى بعضاً منه لأخيك المحتاج .

وإنْ لم يقف الغنيُّ بجانب المحتاج فى لحظة احتياجه لمن يعينه ، فقد يأخذ المحتاج ما يحتاج تلصّصاً بأنْ يتحايل عليه ليسرقه أو ينهبه ، أو ربما دفعه

الحقد والحسد إلى أنْ يقتله أو يتآمر على قتْله .

وحين تعطى المحتاج فإنما أنت مناول عن الله ، ويدُ الله الممدودة بأسباب الله .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٥٤) ﴾ [البقرة] فأنتم تنفقون من فضل الله عليكم ومما رزقكم ، ومن فضل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم ونسبه لكم حتى وإن احتاج أخوك .

والحق سبحانه قد اعتبر النفقة فى سبيل الله هى قرض من العبد للربِّ الخالق الوهّاب لكلّ رزق ، والمال فى الحقيقة مال الله ، لكن إنْ ملَّكك الله وطلب منك أنْ تُعطى أخاك الفقير يحترم ملكيتك ولا يعود سبحانه فى هِبَته لك .

لذلك يأخذ منك الصدقة على أنها قرْضٌ لا يرده الفقير ، إنما يتولى ربك عز وجل ردّه ، فيقول تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ سبحانه : يُقرض فلاناً وإنما يُقرض الله لأنه تعالى هو الخالق .

وهنا قال تعالى أيضاً : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ .. (١٧) ﴾ [التغابن] فأنت عندما تُقرض إنساناً فكأنك تُقرض الله .

والقرض فى اللغة معناه قضْم الشيء بالناب ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن عملية الإقراض هى مسألة صعبة ، وحتى يُبيِّن للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله (يقرض) ، إنه سبحانه المقدِّر لصعوبتها ويُقدِّر الجزاء على قدر الصعوبة .

فإعطاؤك للقرض أصعب من إعطائك الصدقة ، فأنت عندما تعطى الصدقة تجد نفسك غير قلقةٍ على ما تُخرجه من مالك لأنك أصلاً قد أخرجتها من حساباتك فأنت لا تنتظر رداً ممَّنْ تصدّقت عليه .

أمــا القرض فأنــت حين تُقرض أحداً وقبل أنْ تقرضــه تفكر فى أمور كثيرة وتسأل أسئلة عديدة ، هل سيردّ لك ما اقترضه منك ؟ هل تعطيه قرضاً أقلّ مما يقول ؟ وماذا لو لم يرد كيف أسترد مالى ؟

لذلـك تجـد القرضَ أصعبَ من الصدقة ، ثم إنه طـوال الوقت يحسب كم بقى مـن الوقـت ويحل السداد ، وقد تجده يقع فى ذنوب كثـيرة بسبب إقراضه لأحد الناس ، فكلما قابله كأنه يريد أنْ يطالبه بالقرض .

وقـد يحدث مَنٌّ وأذى وتلتقى أعينهما ، فتجـد نُفْرة وعتاباً وعدم قدرة على التحدّث معاً بشكل طبيعى ، ولذلك كان القرضُ أصعبَ .

لذلـك رتَّب الحق سبحانه على القرض ثواباً أكبر وأعظم من ثواب الصدقة، وأذكر ونحن فى أمريكا سألنا أحد المستشرقين يقول : هناك تعارض بين قوْل القرآن ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠) ﴾ [الأنعام] وبين قول النبى ﷺ : « مكتـوب علـى بـاب الجنـة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »(١).

فشـاء الله أنْ يلهـم بكلمتين للـرد عليه ، فقلت للمترجم : نعـم الحسنة بعشر أمثالهـا حـين تتصدق ، لكـن فى القرض مثلاً لـو تصدَّق بـدولار فهو عند الله بعشرة دولارات ، لكن يعود عليك دولارك مرة أخرى ، فكأنَّ لك تسعةَ دولارات، فحين تضاعف تصير ثمانية عشر .

قالـوا : فلمـاذا زاد ثوابُ القرض ؟ نقول : لأن المتصدق حين يتصدَّق ينقطع أمله فيما قدَّم ، لكن المقرض لا يزال مُعلَّق البال في القرض ينتظر ردَّه ، فكلما صـبر عليه أخذ أجراً ، ثـم إن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما المتصدَّق

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر . فقلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة . أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٤٣١) والطبرانى فى المعجم الأوسط (٦٧١٩) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٢٨٨) .

عليه فقد يقبل الصدقة وهو غير محتاج إليها ، وربما كان ممَّنْ يكنزون المال.

والحق سبحانه يريد أنْ ينمي القرض لماذا ؟ قالوا : لأن الله يريد أنْ تسير حركة الحياة وأنْ تتكامل ، وأنت تعتز بمالك وتخاف عليه وتريد له النماء ، وسوف تجد هذا كلَّه في القرض فاجعله قرضاً ، فهو الباب الذي فتحه الله لك للزيادة وللثواب .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ .. (١٧) ﴾ [التغابن]

ولكن الحق سبحانه وضع شرطاً في القرض لكى يُضاعفه لك ، وهو أن يكون قرضاً حسناً ، فما هو القرض الحسن ؟

والتعبير بالقرض الحسن هنا يدل على أن مصدر المال الذي تقرض منه لابد أن يكون من حلال ، وكما يقول رسول الله فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً[1].

فأنت عندما تُقرض أخاك المحتاج إنما تقرض الله عز وجل ، فأنت فى هذا تتعامل مع الله ، فلا بد أن يكون تعاملك مما اكتسبته من حلال ، إذ كيف تتعامل مع الله بمال حرام أخذته نُهْبة من الناس سرقةً أو اختلاساً أو رِباً أو من اقترافك أيّ معصية .

فلا بدَّ أنْ يكون مالُكَ الذي تُقرض منه مالاً حلالاً طيباً ليكون قرضاً حسناً.

ويصف الحق سبحانه القرض بأنه حسن حتى لا يكون فيه منٌّ ولا أذى أو

---

(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب .. يا رب .. ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّى بالحرام فأنى يستجاب لذلك » . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٩٣) وأحمد فى مسنده (٨٣٣٠) والترمذي فى سننه (٢٩٨٩) .

منفعـة تعود على المقرض وإلاَّ صـار في القرض ربا ، ولنا الأسوة الحسنة في الإمـام أبي حنيفـة[١] عندما كان يجلس في ظل بيت صاحـب له ، ثم حدث أن اقترض صاحبُ هذا البيت من أبي حنيفة بعض المال .

وجـاء اليـوم التالي للقرضـ فجلس أبو حنيفـة بعيداً عن ظـل البيت فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو حنيفة : خفْتُ أنْ يكون ذلك لوناً من الربا .

أمـا عـن المنّ والأذى فقـد نـهى القـرآن عن المـنِّ والأذى ، فقـال : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾ [البقرة]

وإذا كان الحـقُّ سبحانـه يُحدِّثنا هنا عن الصدقة ، فإن القرض أيضاً يدخل في بـاب الإنفـاق في سبيل الله ، وأيضاً فإن الإقراضـ كما قلنا عملية أشدّ من الصدقة على النفس .

فـإيـاك حـين تنفق مالك في سبيـل الله سواء كانت صدقـة أو قرضاً أنْ تمنّ علـى مَـنْ تعطيه أو تؤذيه ، فالمـنّ هو أنْ يعتدّ على مَنْ أحسـن إليه بإحسانه ، ويُريه أنه أوجب عليه حقاً له ، وأنه أصبح صاحبَ فضل عليه .

فمـن الأدب الإيمانـي في الإنسان أنْ ينسى أنه أهـدى وينسى أنه أنفق ، ولا يُطلع أحداً من ذويه على إحسانه على الفقير أو تصدقه عليه ، وخاصة الأطفال الصغار الذين لا يفهمون منطق الله في الأشياء .

فعندمـا يعـرف ابني أنني أعطي لجاري كذا ، ربما دلّ ابنـي ومَنَّ على ابن جـاري ، فإيـاك أنْ تُتبع النفقة منـاً أو أذى لأنك إنْ أتبعتهـا بـالمنّ كرهها مَنْ

---

(١) أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت التيمي بالولاء الكوفي ، ولد بالكوفة عام ٨٠ هـ ونشأ بها ، كان يبيع الخز (الحرير) ويطلب العلم في صباه ثم انقطع للتدريس والإفتاء . إمام الحنفية أحد الأئمة الأربعة توفي عام ١٥٠ هجرية عن ٧٠ عاماً . [الأعلام للزركلي ٨/٣٦] .

تصدَّقتَ عليه أو أقرضته ، وتولّد عنده حقد تجاهك وبغض .

لذلك تجد كثيراً من الناس يقولون : كم صنعتَ بفلان وفلان الجميل ، هذا كذا وهذا كذا ، ثم خرجوا عليّ فأنكروه . وما دمت تتذكر ما أسديته إليهم فمن العدالة من الله أنْ ينكروه ، ولو أنك عاملتَ الله لما أنكروه ، فما دُمْتَ لم تعامل الله فإنك تقابل بنكران ما أنفقت .

ويجب أنْ يظلَّ الإنفاق غير مصحوب بالمنِّ ، وأنْ يبتعد المنفق عن المنّ دائماً ، فلا يمتنع عن المنّ فقط وقت العطاء ، ولكن لابدّ أنْ يستمر عدم المنّ حتى بعد العطاء وإنْ طال الزمن .

فأنت فى الإنفاق تتعامل مع الله سبحانه ، ولتنظر إلى ما فعلته سيدتنا فاطمة[1] بنت رسول الله ﷺ ، لقد راحت تجلو الدرهم وتُطيِّبه ، فلما قيل لها : ماذا تصنعين ؟ قالت : أجلو درهماً وأُطيِّبه لأنى نويتُ أنْ أتصدَّق به . فقيل لها: أتتصدَّقين به مجلواً ومُعطراً ؟

قالت الزهراء بنت رسول الله : لأنِّى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقير[2] .

والقرض لكى يكون قرضاً حسناً لابدّ أنْ يكون بلا فائدة ربوية تعود على المقرض ، فإن الربا يجعله قرضاً سيئاً يدخل الضيق والجهد والضنك على مَنْ يقترض بالربا وإنْ كان محتاجاً ، وأيضاً فهو يدخل الخراب على مَنْ يقرض ماله لآخر ويأخذ زيادة على ماله بازدياد المدة استغلالاً لحاجة المقترض .

---

(١) هى فاطمة بنت رسول الله الهاشمية القرشية وأمها خديجة بنت خويلد ، ولدت ١٨ قبل الهجرة ، إحدى الفصيحات العاقلات ، تزوجها ابن عم رسول الله على بن أبى طالب فى الثامنة عشرة من عمرها ، وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب . عاشت بعد أبيها ستة أشهر . عام ١١ هجرية عن ٢٩ عاماً . [الأعلام للزركلي ٥/١٣٢] .

(٢) الذى فى نزهة المجالس لعبد الرحمن الصفورى (١/ ٣٣٤) أن عائشة رضى الله عنها كانت إذا تصدقت بدرهم طيبته فسألها النبي ﷺ عن ذلك فقالت : يا نبى الله أحببت أن يكون درهمى مطيباً لأنه يقع فى يد الله قبل يد السائل فقال : « لقد وفقك الله يا عائشة » .

ورسول الله ﷺ يقول : « كلُّ قرض جرَّ نفعاً فهو ربا »[1] .

وربُّ العزة سبحانه يقول : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم]

فما آتيتم من ربا تبغُون به الزيادة ، سواء أكانت نفعاً أو مالاً أو غير مال، سواء أكانتْ مشروطة أو غير مشروطة ، والله سبحانه حرَّم الربا لأن المال فى الربا يصبح سلعة ، فالمائة تُردّ مائة وخمسين مثْلاً .

وهذا يفسد المجتمع لأنه من المفروض أنْ يزيد المال بالعمل ، فإذا أصبحت زيادة المال بدون عمل فسدتْ حركة الحياة ، وزاد الفقير فقراً ، وزاد الغنيُّ غنيً، وهذا ما نراه فى العالم اليوم .

حتى على مستوى الدول نجد الدول الفقيرة تزداد فقراً ، لأنها تقترض المال وتتراكم عليها فوائده حتى تكون الفائدةُ أكثر من الدَّيْن نفسه ، وكلما مرَّ الوقت زادتْ الفوائد فيتضاعف الدَّيْن ويستحيل التسديد ، والدول الغنية تزداد غِنىً ، لأنها تدفع القرض وتسترده بأضعاف قيمته .

وعقد الربا لا يحمى إلا الطرف الدائن فقط ، وهناك أمر خلقى آخر وهو أن الإنسان لا يعطى ربا إلا إذا كان عنده فائض زائد على حاجته ، ولا يأخذ إنسانٌ من المرابى إلا إذا كان محتاجاً .

فانظروا إلى النكسة الخلقية فى الكون ، إن المعدم الفقير الذى لا يجد ما يسُدُّ جوعه وحاجته يُضطر إلى الاستدانة ، وهذا الفقير المعدم هو الذى يتكفّل بأنْ يعطى الأصل والزائد إلى الغنى غير المحتاج .

---

(١) أورده العجلونى فى كتابه « كشف الخفاء» (١٩٩١) وقال : رواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده عن على رفعه . قال فى التمييز : إسناده ساقط . وأورده الزيلعى فى (نصب الراية) كتاب الحوالة، ومن طريق الحارث بن أبى أسامة ذكره عبد الحق فى أحكامه فى البيوع، وأعلّه بسوّار بن مصعب وقال : متروك .

فكيف يكون هذا القرض حلالاً ؟ وهو يخرج عن وَصْف القرض الحسن الذى يسُدّ حاجة الفقير المحتاج لمال لسَدِّ حاجة ما أو حلِّ مشكلة ما تعترضه ، ولكن فى نفس الوقت لا يضرّ به ولا يُكربه فى حياته ، ويجعله يعيش فى كرْب وهَمٍّ من الدَّيْن الذى عليه ، ومن الفائدة المفروضة على الدَّيْن .

ولكى يكون القرْضُ قرضاً حسناً لابد أنْ يكونَ محكوماً بضوابط الشرع الشريف الحكيم عندما يُوجب كتابة الدَّيْن والإشهاد عليه وإنْ كان صغيراً حتى لا تكونَ هناك مُضارّة للدائن أو المدين .

يقول تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا .. (٢٨٢)﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه يضع ضوابط للتداين والاقتراض بين الناس ، حتى يضبط القرض بكتابته حفْظاً للحقوق ونشْراً للأمان فى نفوس أصحاب الأموال على أموالهم ليستمر سيال الإقراض وإغاثة المحتاج والملهوف دون الإضرار بصاحب المال .

فالحق سبحانه كما أغلق باب الإقراض بالربا يفتح أبواب القرض الحسن ولكن بضوابط من الكتابة والإشهاد عليه ، وقد قال رسول الله ﷺ عن الربا « ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضعه ربانا ، ربا العباس بن عبد المطلب ،

فإنه موضوع كله »[١].

ويقول تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) ﴾ [البقرة]

وإذا كان الله قد حرَّم إقراض المال بالربا والزيادة فإنه أحلَّ الإقراض قرضاً حسناً ، بل ندب إليه ورغَّب فيه ليتكافل المجتمع ، ولكن بضوابطه بكتابته مثلاً .

فإلزام الحق سبحانه بكتابة الدَّيْن هو تنفيذ لأمر الله يحقق رفْع الحرج بين الأحباء خاصة ، ويظن كثيرٌ من الناس أن الله يريد بالكتابة حماية الدائن لا ، فالمقصود بذلك والمهم هو حماية المدين ، لأن المدين إنْ علم أن الدَّيْن موثَّقٌ عليه حرص أنْ يعمل ليؤدى دَيْنه .

أما إذا كان الدَّيْن غير مُوثَّق فمن الجائز أنْ يكسل عن العمل وعن سداد الدَّيْن، وبذلك يحصل هو وأسرته على حاجته مرة واحدة ، ثم يضنّ المجتمع الغنيُّ على المجتمع الفقير فلا يُقرضه ، ويأخذون عدم أداء ذلك الإنسان القرض الذى اقترضه ذريعةً لذلك .

ويقع هذا الإنسان الذى لم يُؤد دَيْنه فى دائرة تحمُّل الوِزْر المضاعف لأنه ضيّق باب القرض الحسن .

إن الله يريد أنْ يسير دولاب الحياة الاقتصادية عند مَنْ لا يملك ، لأن مَنْ يملك يستطيع أن يُسيِّر حياته ، أما مَنْ لا يملك فهو المحتاج ، ولذلك فهناك مثَل فى الريف المصرى يقول : مَنْ يأخذ ويعطى يصير المالُ ماله .

---

(١) أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه (٢٨٠٩) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه . ومن حديث عمرو ابن الأحوص « ألا وإن كل ربا فى الجاهلية موضوع ، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون غير ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله» أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٨٧) .

إنه يقترض ويسدد ، لذلك يثق فيه كل الناس ، ويرونه أميناً ويرونه مُجداً ، ويرونه مخلصاً ، ويعرفون عنه أنه إذا أخذ وفّى ، فكلُّ المال يصبح ماله . إذن: فالله سبحانه بكتابة الدَّيْن يريد حماية حركة الحياة عند غير الواجد ، لأن الواجد فى غير حاجة إلى القرض .

ويؤكد الحق سبحانه كتابة القرض الحسن بقوله : ﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] فلا تملُّوا من كتابة أيّ دَيْن ، سواء كان صغيراً أو كبيراً .

ولتأكيد حماية المدين قال تعالى ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] فالمدين الذى عليه الدَّيْن المقترض هو الذى يُملى الدَّيْن الذى عليه ﴿ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

ولماذا لا يُملى المقرض صاحب الدين ؟ لأن المدين يكون عادة فى مركز الضعف ، فلعلَّ الدائن عندما تأتي لحظة كتابة ميعاد السداد فقد يُقلل هذا الميعاد ، وقد يخجل المدين أنْ يتكلم ويصمت لأنه فى مركز الضعف .

ولا شكَّ أن كتابة الدَّيْن تحمي مصالح الدائن أيضاً ، فلا يرفض أنْ يُقرض أحداً ، وهذا فيه إشاعة للقرض الحسن بين الناس .

وقد يسأل سائل : الحق سبحانه يقول هنا ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ .. (١٧) ﴾ [التغابن] فيستخدم (إنْ) التى تدل على الشك ، بينما فى آية أخرى قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) ﴾ [الحديد]

والجواب عن هذا أن آية سورة التغابن ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا .. (١٧) ﴾ [التغابن] جاءت بعد حديث الله عن مَنْ يشحّ بماله ويبخل ، فقال : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

والشحيح الذى طبعه الشّح ، صعب عليه الإنفاق ، سواء كان صدقة أو قرضاً، ونحن فى أمثلتنا العامية نقول : الطبع غلب التطبّع ، لذلك قال تعالى: ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ .. (١٧) ﴾ [التغابن]

وقد رتَّب الحق سبحانه ثواباً مضاعفاً على الإقراض ، فقال : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ .. (١٧) ﴾ [التغابن] فالله يعطيك أضعافاً مضاعفة نتيجة هذا القرض .

فإذا كان القرض يُنقص من مالك فى ظاهر الأمر لأنك كان من الممكن أنْ تستخدمه واستثماره بما يعود عليك بربح وفير يُعظم من مالك ، ولكنك اخترتَ أنْ تُقرضه لمحتاجين عوناً لهم ورغبةً فى ثواب الله .

لذلك فالله يزيد مالك ويبسطه ويعطيك ويُرجع إليك مالك أضعافاً مضاعفة، وفى الآخرة يكون الجزاء جزيلاً ، فأنت أقرضتَ الله والله يردّ ما اقترضه لأجل الفقراء أضعافاً مضاعفة ، فالله يعطيك أضعافاً مضاعفة نتيجة هذا القرض .

ثم إنه يُتبع هذا بقوله ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. (١٧) ﴾ [التغابن] فالغفران هنا لأىّ شيء ؟ إنه لما يعتمل فى نفس المقرض من قلق على ماله ، ولما قد يصدر منه تجاه مَنْ اقترض منه.

وفي آية أخرى يقول تعالى ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ[1] وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ .. (١٢) ﴾ [المائدة]

فغفران الذنوب وتكفير السيئات هو جزاء ومكافأة فوق مضاعفة مالك أضعافاً مضاعفة ، فيضم لكم إلى تلك المضاعفة غفرانَ ذنوبكم .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) ﴾ [التغابن]

فالله يشكر للمنفق والمتصدّق والمقرض أنْ وقفوا بجانب المحتاجين من خَلْقه ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أيّ الناس أحبّ إلى الله ؟ وأيّ الأعمال أحبّ إلى الله؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحبّ الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس ، وأحبّ الأعمال إلى الله تعالى سُرورٌ تُدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تقضي عنه دَيْناً ، أو تطرد عنه جوعاً »[2] .

وهو سبحانه الشكور الذي يعطي على القليل الكثير ، يشكر مَنْ يشكره على نعمه بطاعته ، فمَنْ شكر الله بالحمد شكره الله بالزيادة ، لذلك من أسمائه تعالى (الشكور)

فالله يشكر للعبد وقوفه بجانب خَلْقه ، وإذا كان الناس يشكرون بعضهم بعضاً فما بالك بشكر الله سبحانه ؟ وأنتَ إنْ شكرتَ الله يزدك ، فهذه الزيادة شُكْر لك على شُكْرك لربك ، أي مكافأة لك .

---

(١) عزرتموهم : الإعانة والنصر . قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدى . ومعناه أيضاً : التعظيم والتوقير . قاله عطاء وأبو عبيدة . [زاد المسير] والتعزير : التعظيم وهو الثناء بخير ، وهو رد الظلم والمنع ، ورددتم وردعتم سفهاءهم عنهم . [الدر المصون في علم الكتاب المكنون] .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣٤٦٨) وكذا في معجمه الأوسط (٦٠[illegible]) وكذا في معجمه الصغير (٨٦١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وفيه سكين بن سراج اتهمه ابن حبان برواية الموضوعات وتركه الحافظ في التقريب . قال الألباني في السلسلة الصحيحة : « قد جاء بإسناد خير من هذا رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج وابن عساكر عن بعض أصحاب النبي» (٩٠٦) .

ولكن لماذا قال الحق سبحانه ﴿ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) ﴾ [التغابن] ؟ فما الذى يجمع بين الشكر والحلم ؟ خاصة أنه سبحانه فى آيات أخرى جمع بين المغفرة والحلم ، فقال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ[1] فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) ﴾ [البقرة]

أما أنْ يجمع سبحانه بين الشكر والحلم فهذا يثير تساؤلاً ويدعو إلى التأمل، والحلم خُلق يجعل صاحبه صبوراً على الأذى صفوحاً عن الذنب ، وفى حَقِّ الله الحليم الذى لا يعاجل الغافلين بالعقوبة .

والحليم الذى يحلم على البعد إنْ أساء ويتجاوز للصالحين عن الهفوات ، فإنْ خالط عملك الصالح سوءٌ ، وإنْ خالفتَ منهج الله فى غفلة أو هفوة فلا تجعل هذا يُعكِّر صَفْو علاقتك بربك أو يُنغِّص عليك طمأنينة حياتك ، لأن ربك حليمٌ سيتجاوز عن مثل هذا على حَدِّ قولهم (حبيبك يبلع لك الزلط) .

فكأنَّ الحق سبحانه فى قوله ﴿ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) ﴾ [التغابن] يريد أنْ يقول لعباده : إننى شكور لإقراضكم للمحتاجين من عبادى وحليم لكم ، فلن أُعاجلكم بعقوبة لو بدر فى إقراضكم منٌّ وإيذاءٌ عسى أنْ تتوبوا لتأخذوا ثوابكم أضعافاً مضاعفة ، المهم أنَّ مصلحة المحتاج تتحقق .

وقد روتْ لنا كتب السنة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة] قال أبو الدحداح:

---

(١) اللغو هنا له معان متعددة :
١ – أن يحلف على الشيء يظن أنه كما حلف ثم يتبين له أنه بخلافه .
٢ – أنه : لا والله ، وبلى والله من غير قصد لعقد اليمين .
٣ – أنه يمين الرجل وهو غضبان .
٤ – أنه حلف الرجل على معصية فليحنث وليكفِّر ولا إثم عليه .
٥ – أن يحلف الرجل على شيء ثم ينساه .

يا رسول الله إنَّ الله يريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح [١] . قال : أرنا يدك . قال : فناوله يده .

قال : أقرضتُ ربى حائطى ، وحائطه فيه ستمائة نخلة ، فجاء يمشى حتى أتى الحائط ، وأم الدحداح فيها وعيالها . فنادى : يا أم الدحداح . قالت : لبيك. فقال : اخرجى فقد أقرضتُه ربي [٢].

فأبو الدحداح يعلم أن ربه شكور حليم ، فما كان منه إلا مدّ يده لرسول الله وقال : أقرضتُ ربى حائطى ، وهو بستان به ستمائة نخلة رغم أن امرأته وعياله فيه ، وما كان من امرأته إلا قالت : لبَّيكَ يا أبا الدحداح ولم ترفض أو تعترض ، فإنه أقرضه لله سبحانه ، ليذهب إنتاجه للفقراء والمساكين والمحتاجين وفى سبيل الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

تُحدِّثنا الآيات هنا عن ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى ، وسورة التغابن بها عدَّة أسماء من أسماء الله ، فمنها (القدير) ، ومنها (البصير) ، ومنها (العليم) ، ومنها (الغنى) ، ومنها (الحميد) ، ومنها (الخبير) ، ومنها (الغفور)، ومنها (الرحيم) ، ومنها (الشكور) ، ومنها (الحليم) .

ثم يُنهيها الحق سبحانه بقوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [التغابن]

فهو سبحانه أولاً ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (١٨) ﴾ [التغابن] . والغيب هو

---

(١) أبو الدحداح ثابت بن الدحداح ، كان فى بنى أنيف أو فى بنى العجلان ، شهد أحداً وقتل بها شهيداً على يد خالد بن الوليد وقد كان مشركاً ، وقيل إنه مات على فراشه مرجع النبى ﷺ من الحديبية .

(٢) أخرجه أحمدبن حنبل فى مسنده (١٢٥٠٤) وابن حبان فى صحيحه (٧١٥٩) والبزار فى مسنده (٢٠٣٣) والحاكم فى مستدركه (٢١٩٤) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى عالم الغيب فلا يُطلع أحداً من خَلْقه على غيبه إلا مَن ارتضاه واصطفاه من البشر .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) ﴾ [الجن]

والغيب هو ما يغيب عنك وعن غيرك ، أما الشيء الذى يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فلا يكون غيباً ، فإذا سُرق منك مال مثلاً فأنت لا تعرف مَن الذى سرق ، والسارق فى هذه الحالة غيْبٌ عنك ، ولكنه ليس غيباً عن غيرك .

فالسارق يعرف نفسه ، والذى دبّر له الجريمة يعرفه ، ومَنْ رآه وستر عليه يعرفه ، وأنت أيضاً لا تعرف مكان المسروقات ، ولكن السارق يعرف المكان الذى خبَّأها فيه .

إذن : فهى غيْبٌ عنك وليست غيباً عن غيرك ، ولكن هناك غيب عنك وعن غيرك ، وهذا ما ينفرد به الحق سبحانه وتعالى فى قوله سبحانه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

فالغيب الذى يقصده الحق سبحانه فى قوله (عالم الغيب) ، هو غيب يختصُّ نفسه به ، وهو الغيب المطلق .

وبعض العارفين بالله قد يكشف لهم الله لمحةً من لمحات الغيب ، فيخبر الواحد منهم الناس فيخلف الله سبحانه وتعالى ما كشفه حتى يظلَّ الله وحده عالم الغيب ، فما دام ذلك اصطفاه الله بغيب أطلع الناس عليه ، فسبحانه قد يُغير أحداث الغيب ولا يعطى لذلك الشخص خبراً عن أىّ غيب آخر ، فلا يقال له (عالم الغيب) ولكن قل : إنه معلَّم غيب .

فالحق سبحانه عالمٌ بالغيب المطلق الذى لا توجد له مقدمات تُوصِّلنا إليه، ولذلك لا نستطيع أنْ نعرف الغيب المطلق لأنه ليس معروفاً عند البعض، ومجهولاً عند غيرهم ، وليس له مقدمات توصلنا إليه لأنه الغيب الذى ينفرد

به الحق عز وجل .

والغيب المطلق هو الذى لا يعرفه إلا الحق تبارك وتعالى وليس له مقدمات، ويكشفه الله لمن يرتضيه مِصْداقاً لقوله سبحانه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

وهذا الغيب المطلق يختلف عن الغيب المقيد الذى له مقدمات ، ما إنْ يأخذ بها الإنسان ويُرتبها حتى يصل إلى اكتشاف سرٍّ من أسرار الكون .

ومن هذا الغيب المطلق قضية القيامة ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ .. (٦٥) ﴾ [النمل] فالقيامة لا يعلم وقتها إلا الله سبحانه ، إلا أنه جعل لها مقدمات وعلاماتٍ تدلّ عليها وتُنبيء بقُرْبها .

والنبى ﷺ يفتخر بأنه لا يعلم موعد يوم القيامة ، فيقول حين سُئِل عن الساعة : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[1].

وسَتْر الغيب عن الخَلْق نعمة كبرى لله تعالى ، لأنه سبحانه ربُّ الناس جميعاً، ويريد سبحانه أنْ ينتفع خَلْقه بخَلْقه ، ألا ترى أنك إنْ علمتَ فى إنسانٍ سيئة واحدة تزهدك فى كلِّ حسناته وتجعلك تكرهه ، وتكره كلّ حسنة من حسناته ، فستر الله عنك غيبَ الآخرين لتنتفع بحسناتهم .

والغيب حجزه الله عنَّا ، إما بحجاب الزمن الماضى أو الزمن المستقبل ، أو بحجاب المكان ، فأنت لا تعرف أحداث الماضى قبل أنْ تولد إلى أنْ يأتى مَنْ تثق به فيخبرك بما حدث فى الماضى ، وكذلك لا تعرف ما سيحدث فى المستقبل .

أما حاجز المكان فأنت لا تعرف ما يوجد فى مكان آخر غير مكانك ، وقد

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠ ، ٤٧٧٧) وأخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٨) وأخرجه أبو داود فى سننه (٤٦٩٧) والترمذى فى سننه (٢٦١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه. قال السائل : متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها .

يكون الشيءُ فى مكانك لكن له مكينٌ فلا تطلع عليه .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (١٨) ﴾ [التغابن]
وكلمة (عالم الغيب والشهادة) تشرح لنا أنه سبحانه ما دام عالم الغيب فمن باب أوْلَى أنه يعلم المشهود ، فيعلم عالم الشهادة .

وقد يظنّ ظانّ أنه جلس فى مكان معزول مستور ويفعل ما يريد ، فلن يشهده الله لأنه قد يفعل ما يريد دون أنْ يراه أحد ، لكن ذلك غير حقيقي، لأن الحقَّ سبحانه عالم الغيب والشهادة ، فلا يوجد مستورٌ عنه فى هذا الكون ، فلا الغيب يغيب عن علمه ، ولا العالم المشهود يغيب عن علمه .

فأيُّ سرٍّ يوجد لابد أنْ يعلمه سبحانه ، وهو سبحانه القائل : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

والشهادة يعنى المشهود ، والله يعلم الغيب الذى غيّب عنى ويعلم الشهادة لغيرى ، فربما ظنَّ البعض أنْ المستتر الغيب لا يعلم إلا الغيب ، فأراد سبحانه وتعالى أنْ يؤكد على هذه المسألة ، فهو سبحانه غيب لكنه يعلم الغيب والشهادة.

وكوْنُ الله سبحانه يعلم عالم الشهادة وهو المشهود من الناس للناس يحمى الناس من تطاولهم على بعضهم وتجاوزهم الحدّ ، لأنهم يوقنون أن الله يعلم مشهدهم كما يعلم غيبهم .

لذلك كان الله هو خير الشاهدين ، فالشهود قد يكونون عدولاً ، أو يكونون ممَّنْ يُدارون فسقهم فى ظاهر العدالة ، وهو سبحانه خير الشاهدين .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) ﴾ [الحج] والشهيد هو الرائى الذى لا عملَ له فى تحريك المشهود إلى غير ما يشهده ، والله تعالى هو

الحكم الذى يفصل بين عباده .

والحكم يحتاج إلى بينة أو شهود ، والشهود لابد أنْ يكونوا عدولاً ، ولا يتحقق العدل فى الشهادة إلاَّ بدين يمنع الإنسان أنْ يميل عن الحق ، فإن كان الحكم هو الله فلا حاجة لبينة ، ولا حاجة لشهود ، لأنه سبحانه يحيط علمه بكلِّ شيء، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض .

وكلمة الشهادة تعنى تسجيل ما فعلوا وتسجيل أيضاً أنهم بُلِّغوا المنهج وعاندوه وخرجوا عليه ، فارتكبوا الجريمة التى تقتضى العقاب لأن العقوبة لا تكون إلا بجريمة ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

ولذلك يُقال ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) ﴾ [الإسراء] وشهادة الحق سبحانه تعنى أنه تعالى الشَّهيدَ الذى رأى ، والحاكم الذى يحكم ، والسلطة التنفيذية التى تنفذ .

ثم يصف الله سبحانه نفسه فيقول ﴿ الْعَزِيزُ .. (١٨) ﴾ [التغابن] ، والعزيز الذى لا يُغلب لجبروته ولا يسأله أحد ، فهو سبحانه الغالب على أمره ، لا تسيطر عليه قوة ، ولا تحمى هؤلاء الناس قوةٌ من دون الله ، فهو القادر العزيز .

فكلمة « العزيز » تفيد الغلبة والقهر ، فلا يستطيع أحد أنْ يعلو عليه فلا يُنال ولا يقدر عليه أحد ، والشيء العزيز أى نادر الوجود ، فالعزة تأتى لامتناع شيء إما لقدرته ، أو عزيز بمعنى نادر أو يستحيل .

والعزيز هو الأمر الذى يعزّ على الناس أنْ يتداولوه ، فيقال : عزَّ عليَّ أنْ أصل إلى قمة الجبل .

وهو سبحانه العزيز المطلق لأنه لا إله إلا هو ، لا يُغلب ولا يُقهر ، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾ [هود]

وكلمة العزيز مأخوذة من المعانى الحسية ، فيقال : الأرض العزاز . أى : الأرض الصخرية التى يصعب المشى عليها ولا يقدر أحدٌ أنْ يطأها ، ومن هذا

المعنى جاءت كلمة « العزيز » .

والعزيـز علـى إطلاقه هو الله ، ولكنّا نقول عن إنسـان ما : عزيز قومه . فهى صـفة أخذت مرتبة الأسـماء ، وهى إذا أُطلقت إنما تشير إليه سبحانه ، وأسماء الله إما أنْ تكون أسماء ذات ، وإما أنْ تكون أسـماء صفات ، فإنْ كان الاسم لا مقابلَ له فهو اسم ذات مثل « العزيز » .

أما إنْ كان الاسمُ صفة الصفة والفعل مثل (المعز) فلا بدّ أنْ له مقابلاً وهو هنا « المذل » ، ولو كان يقدر أنْ يُعز فقط ولا يقدر أنْ يُذل لما صار إلهاً .

فـ (العزيز) على إطلاقه لا تنصرف إلا لله تعالى ، لكن يمكن أنْ نقول : فلان العزيز فى قومه ، فلان الرحيم بمَنْ معه ، فلان النافع لمن يتصـل به ، إنما لو قلت : النافع على إطلاقه فهو الله سبحانه وتعالى .

والحـق سـبحانه ليس (العزيـز) فقـط ، بل هـو (رب العزة) ، قـال تعالى :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) ﴾ [الصافات]

ويقـول تعـالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء]

فـإذا أردتم العـزة فاطلبوها من صـاحب العزة الذاتية الأزليـة الأبدية وهو الحق سـبحانه وتعـالى ، ولو أردتم العزة الحقيقية التـى تُغنيكم عن الطلب من الأغيـار مثلكـم ، فلتذهبوا إلى مصـدر العزة الذى لا تنالـه الأغيار ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

فـإنْ أردتم عـزةً حقيقية فاطلبوها ممنّ لا تتغير عزّته ، وهو الحق سـبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] ، وفى هذا القول تصويبٌ لطلب العـزة ، وليطلب كلّ إنسـان العزة إيماناً بالله ، فسبحانه الـذى يهب العزة ولا تتغير عزّته .

وكلمة ﴿ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] تدلُّ على أن العزة لها أفرادٌ شتى : عزة غنى ، وعزة سلطان ، وعزة جاه ، فإنْ أراد واحد أنْ يعرفها ويعلمها فهى جميعاً فى الحق سبحانه وتعالى .

فإنْ أردتَ أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عزٍّ فاذهب إلى الله ، واجعلوا العزة والمرجع إليه وحده ، وما دام الله عزيزاً فالذى آمن به عزيز ، يقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون] فلا تلتمس العزة إلا من الحق سبحانه .

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أنْ تكون عزةُ رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى ، والعزة لله فى كلِّ ألوانها ، إنْ كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإنْ كانت عزةَ القبض على الأمور فهو العزيز القابض، وإنْ كانت عزة الحلم فهو الحليم ، وإنْ كانت عزةَ الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبار ، فكلُّ ألوان العزة لله تعالى .

وليس لأحد أنْ يسأله لِمَ فعل هذا ؟ ولِمَ ترك هذا ؟ لذلك كان هذا هو معنى العزة ، ولذلك كان سبحانه عزيزاً .

ولكى تكون عزيزاً فخُذ العزة من الله ورسوله وبالبيئة الإيمانية ، وقد قال الحق سبحانه عن البعض : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) ﴾ [مريم]

فهم يطلبون العزة فى عبادة هذه الآلهة ، فما الذى سيعود عليكم من عبادتها؟ لذلك يردّ عليهم الحق تبارك وتعالى ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ .. (٨٢) ﴾ [مريم] و(كلا) تنفى أن يكون لهؤلاء عِزٌّ فى عبادة ما دون الله ، بل إنها ستكون ضِداً لهم وخَصْماً .

ثم يصف الحق سبحانه نفسه بأنه (الحكيم) الذى لا يصدر منه الشيء إلا بحكمة بالغة ، فمع أنه سبحانه العزيز الغالب على أمره فإنه سبحانه حكيم

فى تصرُّفه ، حكيمٌ يستعمل القهر والغلبة بحكمة .

وهذا نجده فى وَصْف خليل الله إبراهيم عليه السلام لربه سبحانه ، فيقول: ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت] ، فاختار من صفات ربه (العزيز) أى الذى لا يُغلب وهو يَغْلِب ، وهذه الصفة تناسب ما كان من محاولة إحراقه وكأنه يقول للقوم : أنا ذاهب إلى حِمىَ مَنْ لا يُغلب .

ثم يصف ربه بأنه (الحكيم) أى فى تصرفاته ، فلابدّ أنه سبحانه سينقلنى إلى مكان يناسب دعوتى ، وأناس يستحقون هذه الدعوة بما لديهم من آذان صاغية للحق وقلوب وأفئدة متشوِّقة إليه .

فهو سبحانه الحكيم فى كلِّ ما قضى وأمر ، وهو سبحانه عزيز بذاته ، ومع عزَّته سبحانه حكيم لا يظلم ، فهو صاحب العزة التى لا تُعارض ، والحكمة التى لا تخطيء .

والحكمة من (الْحَكَمَة) وهى قطعة الحديد التى تُوضع فى فم الفرس لتلجمه حتى يمكن للراكب أنْ يتحكَّم فيه ، ذلك أن الحصان حيوان مُدلَّل شارد يحتاج إلى ترويض ، وقطعة الحديد التى تُوضع فى فمه تجعله أكثرَ طاعة لصاحبه .

وكأن إطلاق صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه جَلَّ جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هدى ودون دراية .

والحكمة أنْ يُوضع هدف لكلِّ حركة لتنسجم الحركات بعضها مع بعض ، ويصير الكونُ محكوماً بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والحكيم هو الذى يضع لكلِّ كائن إطاره وحدوده .

والحكمة هى أنْ يؤدى كل شيء ما هو مطلوب منه ببراعة ، والحكمة فى الفقه هى أنْ تستنبط الحكم السليم ، والحكمة فى الشعر أنْ تزنَ الكلمات على التفاعيل، والحكمة فى الطب أنْ تعرف تشخيص المرض والدواء الذى يعالجه.

والحكمة فى الهندسة أنْ تُصمّم المستشفى طبقاً لاحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج ومخازن الأدوية وغير ذلك أو فى تصميم المنزل للسكن المريح ، وحكمة بناء منزل مثلاً تختلف عن حكمة بناء مستشفى أو حتى (كوبرى) أى معبر .

ولو أننا تأملنا آيات سورة التغابن فى ضوء اسم **الله** (الحكيم) الذى أنهى **الله** به السورة سنجد أن **الله** حكيم فى خَلْقه الناس مؤمنين وكافرين ، وحكيم فى خَلْق السموات والأرض ، حكيم فيما أصاب الناسَ من مصائب ، حكيم فى أنه جعل من أزواجنا وأولادنا عدواً لنا ، حكيم فى أنْ جعل الناسَ أغنياءَ وفقراء ، وطالب الأغنياء بالإنفاق فى سبيل **الله** زكاةً وصدقةً وإقراضاً للفقراء والمحتاجين .

حكيم فى ترتيب الثواب العظيم المضاعف على إعانة المحتاجين بإقراضهم قرضاً حسناً .

وعظمة الحق سبحانه أنه عزيزٌ لا يُغلب على أمره ، وهو صاحبُ كلِّ الحكمة فى وَضْع الأشياء فى مواضعها ، بحيث إذا ما عرفتَ حكمة ما يُجريه **الله** سبحانه وتعالى على خَلْقه فأنتَ تتعجَّب من عظمة قدرة **الله** .

فالحكمة هى وَضْع الشيء فى موضعه ، وما دمتَ قد وضعتَ الشيء فى موضعه فإنه لا يكون هناك قلقٌ ، وما دام الشيء موضوعاً فى مكانه فهو مُستقر ، وما دام الشيءُ مُستقراً فإنه لا يتلوَّن وتزداد الثقة فيه .

وإذا كان الحق سبحانه يقول : ﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (٨) ﴾ [التغابن] فإن الإيمان هو انقيادٌ وتسليم **لله** سبحانه وتعالى ، فإذا أمر **الله** بأمر من الأمور فلا اختيارَ لنا فيه ، لأنه سبحانه يرى بحكمته وعلمه هدفاً أو أهدافاً أو حكمة .

وهنا يجب أنْ يقف الاختيار البشرى بمعنى أنه لا أحدَ يملك تعديل مرادات

الله بـأىِّ شكل من الأشكال ، لأننا فى حياتنـا اليومية حين نـرى واحداً من البشر قد اشتهر بحكمته وعلمه فى أمر من الأمور أكثر منّا ، نقول له : وكّلناك فـى هذا الأمر وسنسـير وراءك فيما تقـرره ، ومعنى هذا أننا سنُسلم اختيارنا لاختيارات هذا الحكيم .

إننـا لا نعطى أحـداً هذه الصـلاحية إلا إذا تـأكدنا بـالتجربـة أنه عليم بهذه المسألة ، وأنه حكيم فى تصرّفه ، وإنْ سألك أحدٌ من الناس : لماذا تتصرف فى ضوء ما يقوله لك فلان ؟ فتقول : إنه حكيم وخبير فى هذه المسائل، وهذا دليلٌ منك على أنك واثقٌ فى علمه ، وواثقٌ فى صدقه ، وواثقٌ فى حكمته.

فـ (الحكيـم) لا ينظر إلى ظاهر معطيات الشـيء الآن ويغفل ما قد يأتى به مـن مضـرّة ، ولله المثل الأعلى : إنك قد تصـل إلىَ الشـيء ، وتظن أنه يُخلِّصـك من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدى إلى شيء أضرّ ، وهذا هو السبب فى اختلاف ألوان ووظائف العقاقير المختلفة .

ولذلك نجد الطبيب الحاذق يكتب عدداً من الأدوية ليستخلص المريض منها ما يشفيه ، ويحاول بقدر الإمكان أنْ يُجنِّبه الآثار الجانبية لتلك الأدوية .

إذن : فهـذه حكمـة لأن الطبيبَ لا يكتب الدواء الواحـد الذى قد يأتى منه أثرٌ ضـارٌ ، بـل يكتب معـه دواءً يُخفِّـف من ضرره ، وهـذه حكمة منـه لأنه يعمل احتياطات لما قد ينشأ من ضرر أو أثر جانبى .

وفـى أريافنـا يُسمون الطبيـب (الحكيم) ، لأنـه يتعامل مع الجسـم البشرى بحكمة ، بإعطائه الأدوية التى تشفيه دون أنْ تضره ، أو لا تضرّه ضرراً بالغاً.

والحكيـم هـو الذى لا يترك شـيئاً للعبـث ، فهو المقدِّر لكلِّ أمـر بحيث يكون موافقاً للصواب .

ووَصْـف الحق سـبحـانه نفسه بأنه (الحكيم) ينسـحب أيضاً على كتـاب الله سـبحـانه ، فـالحقّ سـبحـانه وصف قرآنه أيضـاً بـالحكمة ، قـال تعالى : ﴿ الم (١)

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [لقمان] أي الموصوف بالحكمة ، أو الحكيم قائله ، أو الحكيم مُنزله .

وقد أنزل الله المنهج فى الكتاب ليقود حياتنا إلى كل صلاح ، فإنْ طبقناه فلسوف يأتي منه كلّ نفع ، ولن يأتي لنا أيّ ضرر ، وهذا هو عين الحكمة . فـ ﴿ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ .. (١) ﴾ [يونس] أنه الكتاب الذى يمتليء بالحكمة الصادرة من الله ، أو الكتابَ الذى أنزله الربُّ الحكيم .

ومعنى كلمة (الحكيم) يتضح لنا من سياقها ، فإنْ نسبت الأمر إلى الحكم فهو كتابٌ صادرٌ من الحق سبحانه ، وإنْ أردتَ الوصف بمعنى فاعل فهو من حاكم ، والحاكم هو الذى يحكم فى قضايا ليبين وجه الحق فيها ، والقرآن يحكم فى كلِّ قضايا الإيمان .

وقد جعل رسول الله ﷺ الثناء على الله بأنه عالم الغيب والشهادة فى دعاء وذكر نقوله صباح مساء ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال أبو بكر : يا رسول الله مُرْنى بشيء أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيت . فقال رسول الله ﷺ : « قل اللهم عالم الغيب والشهادة ، فاطرَ السماوات والأرض ، ربَّ كلِّ شيء ومليكه، أشهد أنْ لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شَرِّ نفسى ومن شرِّ الشيطان وشركه»[1].

فالإصباح على إيمان ، والإمساء على إيمان كان حرْصَ المؤمنين الأوائل بالإسلام ، حتى أن الحارث بن مالك الأنصارى مرَّ برسول الله ﷺ فقال له : كيف أصبحتَ يا حارث ؟ فقال : أصبحتُ مؤمناً حقاً . فقال له رسول الله : انظر ما تقول ، فإنَّ لكلِّ شيءٍ حقيقةً ، فما حقيقةُ إيمانك ؟

فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرتُ ليلى ، وأظمأتُ نهارى ، وكأنِّى أنظر إلى عرش ربِّى بارزاً ، وكأنِّى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنِّى أنظر

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٣٩٢) وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . وكذا أحمد بن حنبل فى مسنده (٦٣) والطيالسى فى مسنده (٩) والنسائى فى السنن الكبرى (٧٦٥٢ ، ١٠٥٦٣) والبخارى فى الأدب المفرد (١٢٠٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

إلى أهل النار يتضاغوْن[1] فيها، فقال : يا حارث عرفتَ فالزم ، عرفتَ فالزم ، عرفتَ فالزم[2].

وهنا يقول أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يا رسول الله ، مُرْنى بشيء أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ .

وأبو بكر لا يسأل عن مجرد ألفاظ يحرِّك بها لسانه ، إنما يسأل عن دعاء وذكر يعيشه بكلِّ جوارحه الناطقة والفاعلة والنابضة . فالجوارح منها الناطقة كاللسان ، ومنها الفاعلة كاليد والرِّجْل ، ومنها النابضة كالقلب ، ومنها المفكرة كالعقل الكامن فى مركز التفكير فى المخ .

فأرشده رسول الله ﷺ إلى ذكر ودعاء يقوله إذا أصبح وإذا أمسى ، وأيضاً إذا أخذ مضجعه للنوم أو للراحة .

قال : قل اللهم عالم الغيب والشهادة ، فاطرَ السماوات والأرض ، ربَّ كلِّ شيء ومليكه ، أشهد أنْ لا إله إلاَّ إلا أنت ، أعوذ بك من شرِّ نفسى ومن شرِّ الشيطان وشَرَكه .

ذِكْر لله عز وجل وثناءٌ عليه بأنه سبحانه عالمُ الغيب والشهادة يعلم ما غاب عنَّا وعن غيرنا ، ويعلم المشهود منّا ومن غيرنا ، وكيف لا وهو سبحانه فاطر السماوات والأرض هو سبحانه الذى خلقها وابتدأها على غير مثال سابق .

وهو سبحانه ربّ كلِّ شيء ومليكه ، هو مالك كلِّ شيء فى السماء والأرض، يملكك ويملك ما تملكه ، بل يملك أعزّ ما يقوم به ذاتك وهو روحك .

فهو المتفرد وحده بالألوهية فلا إله إلا هو ، هو أوجدنا فى الحياة ووهبنا

---

(١) يتضاغون : يتصايحون ويتباكون . ضغا يضغو إذا صاح وضجَّ . ويقال : رأيت بنى فلان يتضاغون من الجوع أى يصيحون ويتباكون . [لسان العرب – مادة : ضغا] .

(٢) أخرجه أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوى فى (معجم الصحابة) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٣١٠٦٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (٣٢٨٩) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٠١٠٧) من حديث الحارث بن مالك .

أرواحنا لتتحرّك أجسادنا فى الأرض بمنهج **الله** وحده ، لا بمناهج أخرى تأخذ بنا بعيداً عمَّنْ يعلم غيبنا ومشهودنا .

وكما نُثنى على **الله** ونذكره وندعوه ونلجأ إليه سبحانه ، فنحن نعوذ به من شرِّ نفوسنا الأمَّارة بالسوء التى إن اتبعنا هوانا فى طاعتها وطاعة أهوائها فسنقع فيما هو أشدُّ ، وهو شرُّ الشيطان وشركه وأشراكه التى ينصبها لنا ، فالشيطان أقسم بعزة **الله** ليبذل كلَّ جهد لإغواء بنى آدم .

يقين الإنسان بأن **الله** هو فاطر السماوات والأرض ، ربُّ كل شيء ومليكه ، وأنه لا إله إلا **الله** ، ويجرى تأكيد هذا صباحاً ومساء ، وكذلك إذا أسلم الروحَ إلى الخالق سبحانه وديعة عنده عند النوم ، إنْ شاء قبضها وإنْ شاء أرسلها .

هذا اليقين يتأكد عندما تؤمن أنه سبحانه العليم البصير السميع عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه منك شيءٌ ، وأنه سبحانه العزيز ، وأنه سبحانه الحكيم.

ومن هنا ندرك معنى أنْ تبدأ سورة التغابن بالتسبيح ﴿ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (١) ﴾ [التغابن]

وتنتهى أيضاً بالتسبيح ، يقول تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ** (١٧) **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**(١٨) ﴾ [التغابن]


سورة الطلاق



سورة الطلاق(١)



يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ① ﴾

تبدأ الآية بخطاب النبى ﷺ فقالت (يا أيها النبى) ، ومن عظمة نبينا ورسولنا محمد وعلو مكانته عند مَنْ اصطفاه خاتماً لرسالته فى الأرض أنّ الله ذكر الرسل والأنبياء فى خطابه لهم بنداء أسمائهم فقط ، كقوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ .. (٣٣) ﴾ [البقرة] ، وقوله تعالى ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي

(١) سورة الطلاق سورة مدنية عدد آياتها ١٢ آية . وتسمى أيضاً سورة النساء الصغرى أو القُصرى سماها بهذا ابن مسعود . نزلت بعد سورة البقرة [التحرير والتنوير سورة الطلاق] وقبل سورة البينة ، هى السورة رقم ٩٦ فى ترتيب النزول ، أما ترتيبها فى ترتيب المصحف فهو ٦٥ .

أَنَا اللهُ .. (٣٠) ﴾ [القصص] ، وقوله تعالى ﴿ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة] ، وقوله تعالى ﴿ يَـٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ .. (٤٨) ﴾ [هود]

فسبحانه ينادى كلَّ رسول له بالاسم المشخّص للذات بصرف النظر عن أيِّ صفة ، لكن رسول الله لم يُناد باسمه أبداً بل ناداه الحق بالمشخص للوصف ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. (٤١) ﴾ [المائدة] أو قوله الحق ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (٦٥) ﴾ [الأنفال]

ولأن الحق سبحانه لم يُناد نبيه ورسوله محمداً باسمه ، فلا يجوز لنا أنْ نناديه ﷺ كما ننادى بعضنا بعضاً فلا نقول (يا محمد) ، قال تعالى ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا .. (٦٣) ﴾ [النور]

فلا يليق أنْ نناديه ﷺ باسمه : يا محمد . لأن الجامع بين الرسول وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسولُ الله ، فلابد أنْ نناديه بوصف النبى أو الرسول .

فإذا كان الحقُّ تبارك وتعالى لم يجعل دعاءه للرسول وللنبى كدعائه لباقى رسله وأنبيائه ، أفندعوه نحن باسمه ؟ ينبغى أنْ نقول : يا أيها الرسول ، يا أيها النبى ، يا رسول الله ، يا نبى الله ، فهذا هو الوصف اللائق المشرِّف .

ونُودى ﷺ بـ (يأيها النبى) و (يا أيها الرسول) تعظيماً له ، ونحن حين نريد أنْ نُعظّم من ننادى نسبق الاسم بمقدمات ، فقول : يا سيدى فلان ، يا فضيلة الشيخ ، يا صاحب العزة .. إلخ .

والحق سبحانه نادى رسوله بـ (يا أيها النبى) و (يأيها الرسول) ، والرسول هو سفير بين الله وبين خَلْقه ، ليُبلغهم منهجه الذى يريد أنْ تسير عليه حياتهم ، فالرسول مُبلّغ ، أما النبى فمُرْسَل أيضاً من قِبَل الحق سبحانه ، لكن ليس معه شرعٌ جديد ، إنما يسير على شرع مَنْ سبقه من الرسل ، أما هو فقدوة وأسْوة سلوكية لقومه .

ومحمد ﷺ جمع الأمرين معاً ، فهو نبى ورسول له خصوصيات أمر بها ولم يُؤمر بتبليغها ، وهذه مسائل خاصة بالنبوة ، وله أمورٌ أخرى أُمر بها وأُمِرَ بتبليغها .

وقد يسأل سائلٌ : ولكن لماذا نادى الله محمداً ﷺ هنا بالنبوة ؟ فقال : (يأيها النبى) ولم يُناده بالرسالة (يأيها الرسول) ، مع أن الأمر هنا بعد (يأيها النبى) يتعلق بتشريع ؟ ذلك لتغليب الأسوة السلوكية ؛ التى تمثلها النبوة .

ونلاحظ هنا أن كلمة (النبى) مأخوذةٌ من النبأ وهو الخبر الهام ، فالخبر يكون من البشر للبشر ، فإنْ كان من خالق البشر فهو نبأ . أى : أمر عظيم ينبغى الاهتمام به .

وهو هنا أمر الطلاق والذى يخص أمر العلاقات الزوجية التى تمسّ صميم الحياة الاجتماعية لأىّ مجتمع والذى ينظم علاقة الرجل بالمرأة ويمتد أثره للأبناء ، وعدم تنظيم هذا الأمر يؤدى إلى خلل بالغ يصيب المجتمعات بالاضطراب .

والطلاق مأخوذٌ من الانطلاق والتحرر ، وتشريع الطلاق حدٌّ من حدود الله ، فإنْ حاولتَ أنْ تأتى بأمر لا يناسب ما أمر الله به فى تنظيم اجتماعى فقد نقلتَ المأمور به إلى حيز المنهى عنه ، وبذلك تُحدِث ظلماً .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعالج قضايا المجتمع يعالجها علاجاً يمنع وقوع المجتمع فى الأمراض والآفات ، والبشر إنْ أحسنَّا الظن بهم فى أنهم يشرعون للخير وللمصلحة . فهم يشرعون على قدر علمهم بالأشياء ، لكننا لا نأمن أنْ يجهلوا شيئاً يحدث ولا يعرفوه .

فهم شرّعوا لما عرفوا ، وإذا شرعوا لما عرفوا وفوجئوا بأشياء لم يعرفوها ، ماذا يكون الموقف ؟

إنْ كانوا مخلصين بحقٍّ داسوا على كبرياء غرورهم التشريعى وقالوا : نُعدِّل

ما شرعنا ، وإنْ ظلّوا فى غلوائهم فمَنْ الذى يشقى ؟ إنَّ المجتمع هو الذى يشقى بعنادهم .

فالذى يشقى بأخطاء المقننين من البشر هو المجتمع ، إلى أنْ يجيء مُقنِّن يعطف على المجتمع ويُعدل خطأ مَنْ سبقه .

أما الحق سبحانه فقد جاءنا بتشريع يحمى البشر من الشقاء واختلاف الأهواء ، حتى يضمن أن المجتمع لا يشقى بخطأ من المشرعين لفترة من الزمن إلى أنْ يجيء شرعٌ آخر ، ويُعدِّل للناس ما أخطأ فيه غيره .

فالذى وضع التشريع الأول لم يكن له من العلم ما يدل على مقتضيات الأمور التى تجدّ ، فلما جدَّت أمور فى الحياة لم تكُنْ فى ذهن مَنْ شرَّع أولاً ، احتاج الناس إلى تعديل التشريع .

ولنمسك بأىِّ قانون بشرى مُعدَّل فى أيّ قضية من قضايا الكون ، ولننظر إلى أيّ اتجاه يسير ؟ إنه دائماً يتجه إلى الإسلام ، وإنْ لم يلتق مع الإسلام فإنه يقرب من الإسلام .

وعندما قامت فى أوربا ضجة على الطلاق فى الإسلام ، ما الذى حدث ؟ جاء التشريع بالطلاق فى إيطاليا تحت سمع وبصر الفاتيكان ، هل شرعوا الطلاق لأن الإسلام أباح الطلاق ؟

لا ، إنما شرّعوه لأن أمور الحياة أخضعتهم إلى ضرورة تشريع الطلاق ، فكأنهم أقاموا الدليل بخضوعهم لأمور الحياة على أنَّ ما جاء به الإسلام قبل التجربة كان حقاً ، بدليل أنَّ أوربا لجأت إلى تشريع الطلاق لا كمسلمين ، ولكن لأن مصالح حياتهم لا تتأتّى إلا به .

والطلاق عملية صعبة ، فهو عملية تأتى والنفس فيها غضب ، وتأتى والزوج والزوجة وأهل الزوج وأهل الزوجة فى كدر .

والزواج صلَة مَبْناها السكن والمودة والرحمة ، فإن انعدمت هذه العناصر

فكيف يستمر الزواج ؟ وكيف ترغم زوجاً على أنْ يعايش زوجة لا يحبها ولا يقبلها ، وتُرغم زوجة أنْ تعيش مع زوج لا تحبه ؟

إن التفريق بينهما فى مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه ليرزق الزوجَ خيراً منها ، ويرزق الزوجةَ خيراً منه .

وكثيراً ما شهدنا هذا فى واقع الحياة ، وعاش الزوج مع الزوجة الجديدة سعيداً ، وعاشت الزوجة مع الزوج الجديد سعيدة .

صحيح أن مثل هذا الحل للعلاقة بين الرجل والمرأة قد يحمل الكثير من القسوة على الأسرة . .

والحق سبحانه يذكر عناصر ثلاثة لاستبقاء العلاقة الزوجية ، فيقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم]

ولو تأملنا هذه المراحل الثلاثة لوجدنا السكن بين الزوجين ، حيث يرتاح كلٌّ منهما إلى الآخر ويطمئنّ له ويسعد به ويجد لديه حاجته ، فإذا ما اهتزتْ هذه الدرجة ونَفَر أحدهما من الآخر جاء دور المودة والمحبة التى تُمسك بزمام الحياة الزوجية ، وتوفر لكليهما قدراً كافياً من القبول .

فإذا ما ضَعُف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة ، فيرحم كلٌّ منهما صاحبه ، يرحم ضعفه ، يرحم مرضه ، وبذلك تستمر الحياة الزوجية ، ولا تكون عُرْضة للعواصف فى رحلة الحياة .

فإذا ما استنفد الزوجان هذه المراحل فلم يَعُدْ بينهما سكن ولا مودة ، ولا حتى يرحم أحدُهما صاحبه فقد استحالتْ بينهما العِشْرة ، وأصبح من الحكمة مفارقة أحدهما للآخر .

وهنا شرع الحق سبحانه الطلاق ليكون حلاً لمثل هذه الحالات ، ومع ذلك

جعله ربنا سبحانه أبغضَ الحلال حتى لا نُقدِم عليه إلا مضطرين مُجبرين .

والحق سبحانه يريدك أنْ تبتعد عن لفظ الطلاق ، وألاَّ تلجأ إليه إلاَّ عند الضرورة القصوى ، لذلك يُعلمنا رسول الله ﷺ فيقول : « إنَّ أبغضَ الحلال عند الله الطلاق »[1].

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ .. (١) ﴾ [الطلاق] فاستخدم سبحانه لفظة (إذا) الشرطية أى إذا حدث وطلقتم النساء ، وهى تعطى معنى أنه ليس القاعدة .

والحق سبحانه إذا كان استخدم هنا (إذا) الشرطية ، فإنه استخدم أيضاً (إن) فى آيات أخرى كقوله تعالى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ[2] قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه جاء بكلمة (إن) فى احتمال وقوع الطلاق ، و (إن) كما نعرف تُستخدم للشكّ ، فكأن الله عَزَّ وجلَّ لا يريد أنْ يكونَ الطلاقُ مُجترءاً عليه ومُحققاً .

وقد خاطب الحقُّ سبحانه هنا نبيه ﷺ ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [الطلاق]وهو خطابٌ للأمة كلّها فى شخص رسول الله ، لأنه ﷺ هو المبلِّغ ، والمبلِّغ هو الذى يتلقَّى الأمر ويقتنع به أولاً ليستطيع أنْ يُبلِّغه .

ومثله قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. (٣٠) ﴾ [الروم] فـ (أقم) هنا بمعنى أقيموا ، لأن خطابَ الرسول خطابٌ لأمته ، بدليل أنه سبحانه يقول

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٨٠) ، وابن ماجه فى سننه (٢٠١٨) والبيهقى فى سننه الكبرى (١٥٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . وقد أخرج أبو نعيم الأصبهانى فى (أخبار أصبهان) (٥٤٠) من حديث على أن رسول الله قال : « تزوجوا ولا تطلقوا ، فإن الطلاق يهتز له العرش» ولكن رماه الألبانى بالوضع .

(٢) المقتر : المعسر . فالمقتر من أقتر الرجل إذا قلَّ ماله وافتقر وقتر على عياله : ضيق عليهم فى النفقة.

فى الآية بعدها ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ .. (٣١) ﴾ [الروم] ولو كان الأمر له وحده لقال منيباً إليه .

وقد يسأل سائلٌ هنا : لماذا لم يقُلْ هنا : يأيها الذين آمنوا إذا طلقتم النساء. بل قال ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [الطلاق] رغم أن الفعل بعدها يخاطب الجماعة (طلقتم) ؟

كما قلنا : الله يخاطب الأمة تبعاً لخطابه لرسول الله ، وهو تكريمٌ وتشريف لرسول الله ، ولكن أيضاً فإنَّ الموضوع الذى تتعرض له سورةُ الطلاق موضوعٌ يمسُّ حياة الناس ويُنظّم العلاقات الزوجة زواجاً وطلاقاً ، إنها تتحدث فى أمر تنهدم به الأُسَر والمجتمعات .

لذلك كان لابدّ من تنظيم أمر الطلاق حتى لا تكون فوضى منعاً لظلم المرأة أو الرجل ، ومنعاً لاختلاط الأنساب ، فالأمر ليس متروكاً لآحاد الناس يُنظمونه كما يشاؤون ، بل هو منُوط بوليِّ الأمر أو مَنْ ينوب عنه من القضاة .

لذلك خاطب الله هنا رسول الله كوليٍّ لأمر المسلمين والقاضى بينهم فى أقضيتهم فى زمن وجوده ﷺ ، فأمر الطلاق وأحكامه تقوم الدولة على إلزام الناس بأحكام الشرع فيه ، لذلك ناسب هنا أن لا يخاطب الذين آمنوا ، بل يخاطب ولى الأمر .

فليس لإنسان أنْ يتزوج هكذا مع نفسه دون ولى للمرأة ودون عقد وإشهار وصداق ، وليس له أنْ يطلق دون أنْ يسجل طلاقه أو يُشهد عليه الثقات من الناس ، وبالتالى ليس له أنْ يراجع امرأته إلا أن يُشهد الناس على مراجعته لامرأته، وذلك حفظاً لحقوق المرأة وعدم الوقوع فى الإثم .

فقد يُطلِّق رجل امرأة مع نفسه وينسى أو يَذْهل أو يسافر دون أنْ يخبر أحداً وتجد المرأة نفسها بعد سنين طويلة أنها كانت تعيش معه فى رباط غير رباط الزواج.

ولذلك لما سُئل ﷺ عن الرجل يُطلِّق امرأته ثم يقع بها ولم يُشهد على طلاقها ولا على رجعتها ، فقال : طلقتَ لغير سنة وراجعتَ لغير سُنة ، أشهِدْ على طلاقها وعلى رجعتها ، ولا تَعُدْ(1).

والحق سبحانه هنا يقول : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] ففِعْل الشرط هنا (طلقتم) ، وجوابه هو ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] فالطلاق ليكون لِعدَّة محددة ، ولأجل محدد مُسمّى .

ونظام العدَّة له حالات :

– إنْ كانت المطلَّقة غير حامل فعدَّتها ثلاثة قروء ، أى ثلاثة أطهار إنْ كانت ممَّنْ يحضن .

– وإنْ كانت حاملاً فعدَّتها أنْ تضع حملها .

– وإنْ لم تكُنْ حاملاً وقد بلغتْ سنَّ اليأس ولم تَعُد تحيض ، أو كانت صغيرة ولم تصل لِسِنِّ الحيض ، هذه وتلك عدّتها ثلاثة أشهر .

أما الحالة الأولى فيقول تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] والمقصود بالمطلقات هنا أى المطلقات طلاقاً رجعياً ، فمن حق الزوج أنْ يراجع زوجته فى أثناء فترة العدة فى الطلاق الرجعى ، فإن انتهت عدَّتها فقد سقط حقه فى مراجعة الزوجة بنفسه ، وله أنْ يراجعها ولكن بمهر وعقد جديدين ما دام قد بقى له حَقٌّ ، أى لم يستنفد مرات الطلاق .

والعِدَّة هى الفترة الزمنية التى شرَّعها الله بعد زواج انتهى بطلاق أو بوفاة الزوج ، فإنْ كانت العدَّة بعد طلاق فمدّتها ثلاثة قروء ، والقرء هو الحيضة أو الطُّهْر ، فإنْ كانت المطلَّقة صغيرة لم تحِضْ بعد ، أو كانت كبيرة تعدَّتْ سِنَّ

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٨٨) وابن ماجه فى سننه (٢٠٢٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٤٦٩٠) من حديث عمران بن حصين . قال السندى فى حاشيته على سنن ابن ماجه : « يريد أن اللائق الإشهاد فى الحالتين لئلا يقع النزاع والتهمة » .

الحيض ، فالعدَّة تنقلب من القروء إلى الأشهر ، وتصبح « ثلاثة أشهر ».

فالعدَّة فى حالة الطلاق الرجعى تعطى للزوج فرصة أنْ يراجع زوجته ، وأنْ يعيدها بنفسه إلى عصمته ، والعدَّة تكون لاستبراء الرحم والتأكد من خُلوِّه من الحمل ، وقد تكون العدَّة لا لهذا ولا لذاك ، ولكن لأنه توفى عنها .

فالعدَّة قبل الدخول لها حكم ، وبعد الدخول لها حكم آخر .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] أى : ينتظرن، واللفظ هنا يناسب المقام تماماً ، فالمتربِّصة هى المطلَّقة ، ومعنى مطلقة أنها مزهودٌ فيها وتتربَّص انتهاءَ عدَّتها حتى ترد اعتبارها بصلاحيتها للزواج من زوج آخر .

وقوله ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] المقصود به الطُّهر ، لأنه قال (ثلاثة) بالتاء ، ونحن نعرف أن التاء تأتى مع المذكر فى تمييز العدد ، ولا تأتى مع المؤنث ، والحيضة مؤنثة . والطُّهْر مذكّر . إذن ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] هى ثلاثة أطهار متواليات .

– أما الحالة الثانية فى العدَّة فهى المطلقة التى تُطلَّق وهى حامل فعدَّتها أنْ تضع حملها ، فيقول تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

وعليها ألاَّ تكتمَ ذلك ، فقد يجوز أنْ تكون حاملاً وبعد ذلك تكتم ما فى بطنها حتى لا تنتظر طول مدة الحمل وتتزوج رجلاً آخر ، فيُنسب الولد لغير أبيه .

وقد تتزوَّج المرأة المطلَّقة بعد ثلاثة شهور وتدَّعى أنها حاملٌ من الزوج الجديد ، وأنَّ حملها لم يستمر سوى سبعة أشهر أو ستة أشهر .

– أما الحالة الثالثة فهى المطلَّقة التى بلغتْ سِنَّ اليأس ولم تَعُد تحيض

ولم تكُنْ حاملاً ، أو كانت صغيرة لم تصل لِسِنِّ الحيض ، فهذه كما قلنا عدَّتها ثلاثة أشهر .

فكلمة (النساء) فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ .. (١) ﴾ [الطلاق] تشمل كل هذه الأصناف من المطلَّقات ، ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى : طلِّقوا كل واحدة مِنْهُنّ بحسب حالتها ولعدَّتها التى حدَّدها الله لكلِّ حالة.

والكلام هنا ليس عن فرد واحد ولكن عن كثيرين ، والأمر لجماعة يعنى أمراً لكلِّ فرد فيها ، فإذا قال المدرس للتلاميذ : أخرجوا أقلامكم . فمعنى ذلك أن كلَّ تلميذ يُخرج قلمه . وإذا قال رئيس الجماعة : اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن كل واحد يركب سيارته .

فمقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً .. (٣) ﴾ [النساء]

وهو قوْل يخاطب جماعة ، وليس فيه إلزام لكلِّ أحد أنْ يُعدِّد ، ولكنه واحد ينكح اثنتين ، وآخر ينكح ثلاث نساء ، وآخر ينكح أربع نساء ، وآخر لا يستطيع أيَّ شيء من هذا ، فله أنْ يتزوّج بواحدة ويقتصر عليها .

وهنا أمر يجب الالتفات إليه ، وهو أن قوله : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] معناه أن الطلاق يكون للعدَّة ، بمعنى أنْ لا يطلقها وهى حائض ، ولا يُطلِّقها فى طُهْر قد جامعها فيه ، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلَّقها تطليقة ، فإنْ كانت تحيض فعدَّتها ثلاث حيض ، وإنْ كانت لا تحيض فعدَّتها ثلاثة أشهر ، وإنْ كانت حاملاً فعدّتها أنْ تضع حملها .

فالمعتبر فى العدَّة هو الطهر ، وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه طلَّق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله ﷺ ، فسأل عمر بن الخطاب

رسول الله عن ذلك ، فقال رسول الله ﷺ :

« مُـرْه فليراجعهـا ، ثم ليمسـكها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثـم تطهر ، ثم إنْ شـاء أمسـك بعد ، وإنْ شاء طلَّق قبل أنْ يمس ، فتلك العدَّة التى أمر الله أنْ تُطلَّق لها النساء»[1].

فقـد شـاءت إرادة الله عـز وجل ألاَّ يُطلِّـق الرجلُ زوجته وهـى حـائض ، لأن المرأة فى فترة الحيض لا يكون لزوجها رغبةٌ فيها وربما ينفر منها ، لكن يريد الحق عز وجل ألاَّ يُطلِّق الرجلُ زوجته إلا فى طُهْر لم يسـبق له أنْ عاشرها فيه معاشرة الزوجِ زوجته ، وبعد أنْ تغتسـل من الحيض ، وذلك حتى لا يُطلِّقها إلاّ وهو فى أشدِّ الأوقات رغبةً إليها .

وهذا ما حدث مع عبد الله بن عمر عندما طلَّق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله ، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله عن ذلك ، فأمره رسول الله أنْ يأمر ابنه عبد الله أنْ يراجع امرأته ، ثم ليُمسكها حتى تطهر من حيضها ، وليس هذا فقط بل تحيض مرة أخرى ثم تطهر ، أى أكثر من شهر ، طُهرين .

وله بعد ذلك أنْ يمسـك زوجته فلا يُطلِّقها ، وإنْ شـاء طلَّقها قبل أن يمسَّـها ويعاشرهـا معاشـرةَ الأزواج ، ثم قال ﷺ : « فتلك العدة التى أمر الله أنْ تُطلَّق لها النساء » .

ولا شك أنَّ هذا يعطى فرصة كبيرة ليراجع الرجل نفسه أكثر من مرة قبل أنْ يُطلِّق زوجته ويهدم بيته .

ثـم يقـول تعـالى : ﴿ وَأَحْصُـوا الْعِـدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى احفظوها أى : احفظوا الوقتَ الذى وقع فيه الطلاق ، حتى إذا بلغْنَ أجل عِدَّتهن بحسْب حالتها حَلَّتْ للأزواج .

فالإحصـاء معرفة ابتداء وقت العدَّة ومعرفة انتهاء وقتها ، لئلا تطول فترة

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥١) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٧٢٥) من حديث عبدالله بن عمر . وكذا أبو داود فى سننه (٢١٨١) والنسائى فى سننه (٣٣٩٠) .

العدَّة على المرأة فتمتنع من الأزواج .

ولكن مَنْ المخاطب هنا بقوله : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق] مَنِ الذى سيحصى العدة ، هل هم الأزواج ؟ أم الزوجات ؟ أم المسلمون على العموم ؟

البعض من العلماء قال : إن المُطالب بإحصاء العدَّة هم الأزواج لأنهم الذين تلزمهم الحقوق وتلزمهم النفقة ويلزمهم الرجعة إنْ أرادوها ، فإنْ لم يُحصوا العدَّة ومضتْ المدة قد يُراجِعُون ، بينما كان الوقت قد فات ولزمهم حينها عقد جديد بمهر جديد .

ففى الإحصاء فوائد ، منها مراعاة الرجعة ، وزمان النفقة والسُّكنى ، والإحصاء معرفة العدّ وضبطه ، وهو مشتق من الحصى وهى صغار الحجارة لأنهم كانوا إذا كثرتْ أعداد شيء جعلوا لكلِّ معدود حصاة ، ثم عدُّوا ذلك الحصى .

ولاحظ أن الله لم يقُل : احسبوا العدة ولكنه قال (وأحصوا) والإحصاء فيه تدقيق أكثر فى حساب الشيء ، لأن التساهل قد يؤدى إلى أحد أمرين :

إما التزويج قبل انتهائها فربما اختلط النسب ، وإما تطويل المدة على المطلَّقة فى أيام منْعها من التزوّج لأنها فى مدّة العدّة لا تخلو من حاجة إلى مَنْ يقوم بها .

والمراد بالإحصاء هنا شدة الضبط والعناية بشأن العد حتى لا يحصل خطأ فى وقت العدة . والمعنى : يا أيها النبى أخبر المؤمنين ومُرْهم إذا أرادوا تطليق نسائهم المدخول بهن من المعتدَّات بالحيض ، فعليهم أنْ يطلقوهن فى وقت عدتهن .

أى فى طهر لم يُجامعوهن فيه ثم يتركوهن حتى تنقضى عدَّتهن ، وهذا ما فعله رسول الله عندما أمر عمر بن الخطاب أنْ يأمر ابنه عبد الله أنْ يراجع امرأته ، وأنْ لا يُطلِّقها إلاّ فى طهر لم يجامعها أو لم يمسّها فيه .

وهنـا لفتةٌ أخرى فى قوله تعـالى : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى : أن الـكلام هنا بخصـوص المرأة المطلّقة المدخول بهـا ، لأن غير المدخول بها لا عدَّةَ لها .

وأيضاً فإن الحق سبحانه حمى حقَّ الزوج بهذه العدّة ، وكذلك حق المتوفَّى عنهـا زوجُها فى أثناء العدَّة ، وحمى أيضـاً كرامة المـرأة ، وجعل المرأة حرماً لا يقـترب منه أحدٌ يخدش حياءها وحجابها ، إن عليها عدة محسـوبة فى هذا الوقت لرجل آخر ، فلا يحقّ لأحد أنْ يقترب منها .

فالمـرأة خاصـةً إذا كانـت مُطلّقـة قد تمتلكهـا رغبةٌ فـى أنْ تثأر لنفسـها ولكرامتهـا ، وربمـا تعجلت الزواج ، وربما كانت مسـائل الافـتراق أو الخلاف ناشئةً عن اندساس رغبة راغبٍ فيها .

وبمجرد أنْ يتم طلاقها وتعيش فترة العدة فقد يحوم حولها الراغبون فيها، أو تستـشرف هى من ناحيتها مَنْ تراه صـالحاً كزوج لها ، ولذلك يفرض الحق سـبحانه سـياجاً من الزمن ويجعل العِدَّة كمنطقة حرام ليحمـى المرأةَ حمايةً موضوعية لا شكلية .

ثم يقول الحق سبحـانه : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق]

يلفتنـا الحق سـبحانه هنا إلى أمر هـام ينتظم سـورة الطلاق كلها ، وينتظم أمور العلاقـات الزوجية زواجاً وطلاقاً ، عدةً ونفقة .

قـال تعـالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق] وقـال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق] ، وقـال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق] وقـال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠) ﴾ [الطلاق]

وتقـوى الله تعنـى أَنْ نفعـل أوامـر الله وأَنْ نتجنَّـب نواهيـه لنحكـم حركة اختياراتنـا بمنهـج ربنا ، فـإنْ حكمنا حركة اختياراتنا بمنهـج الله صِرْنا مع الكون كأننا مسخرون لقضايا المصلحة والخير .

فالتقـوى فى معناهـا العام طاعـةُ الله باتبـاع أوامره واجتنـاب نواهيه ، فمعنى التقوى هو أنْ تتقى معضلات الحياة ومشكلاتها بأنْ تلتزم منهج الله ، وساعة ترى منهج الله وتُطبقه فتكون قد اتقيتَ المشكلات .

أما مَنْ يُعرض عن تقوى الله فإن الحقَّ سبحانه يقول عن مصيره : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه]

ولا يظـن أحـدٌ أنَّ التقـوى هى اتقاء النـار ، لا إنها أعمّ من ذلـك ، إنها اتقاء المشكلات والمخاطر التى تنشـأ من مخالفة منهج الله ، وليعلم الإنسانُ أن كلَّ مخالفـة ارتكبها لابد أنْ يمر عليهـا يومٌ ترتكب فيه هذه المخالفة كما ارتكبها فى غيره .

فالتقوى هى تقوى كل مشاكل الحياة ، فالذى يجعل الحياة مليئةً بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التى نسُنها لأنفسنا ونعمل بها ، ولكن إذا أخذنا تقنين الله لنا فمعنى ذلك أننا نتقى المشاكل .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه] أى : أن حياته تمتلئ بالهموم والمشاكل لأنه يخالف منهج الله، وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لقال الناس : خالفنا منهج الله وفلحنا .

لذلـك كان لابـد أنْ توجد المشـاكل لتنبهنـا أنَّ منهج الله يجب أنْ يسيطر ، وحين يتمسَّك النـاسُ بمنهج الله لا تأتى لهم المشاكل بإذن الله .

والضـنك هو الضيق الشديد الذى تحـاول أنْ تُفلـت منه هنـا أو هنـاك فلا تستطيع ، والضنك لا يعنى فقط الفقْر والحاجة ، إنما له صُور أخرى كثيرة .

فـلا تقِسْ مستوى التحضّر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ فى حسبانك كُلَّ

النواحى الأخرى ، فمن أتقن النواحى المادية الدنيوية أخذها وترف بها فى الدنيا ، أما الصلاح الدينى والخلقى والقيمى فهو سبيلٌ لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

والمسألة ليست حالة اقتصادية إنما هى مسألة منهج لله تعالى غير مُطبَّق وغير معمول به ، لذلك لو عِشنا بمنهج الله لوجدنا لذة العيش ولو مع الفقر .

فالمعيشة الضنك والعياذ بالله تأتى حين تنطمس النورانية الإيمانية، وحين لا تحافظ على إشراقية هذه الذرة التى شهدتْ خَلْق الله وشهدتْ له بالربوبية ولو حافظت عليها لظلَّتْ كل التعاليم واضحة أمامك ، وما غفلتَ عن منهج ربك هذه الغفلة التى جرَّتْ عليك المعيشة الضنك .

لذلك تسمع مَنْ يقول : العيشة ضنك ، فلا يقفز إلى ذهنك عند سماع هذه الكلمة إلا مشكلة الفقر ، لكن الضنك أوسع من ذلك بكثير ، فقد يوجد الغِنَى والترف ورَغد العيش ، وترى الناس مع ذلك فى ضنك شديد .

فانظر مثلاً إلى السويد ، وهى من أغنى دول العالم ، ومع ذلك يكثر بها الجنون والشذوذ والعُقد النفسية ، ويكثر بها الانتحار نتيجة الضيق الذى يعانونه ، مع أنهم أغنى وأعلى فى مستوى دخْل الفرد .

وارتباط تطليق النساء بتقوى الله ذكره القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

فمعنى (تتقى) أى : أنْ تلتحم بمنهج الحق ، فالمؤمن التقى هو الذى يخاف الله ، وقد أوصى رسول الله ﷺ الرجال فقال : « الله الله فى النساء ، فإنهن

عَـوَانٌ[1] فى أيديكــم ، أخذتمـوهن بـأمـانة الله ، واسـتحللتم فروجهـن بكلمـة الله »[2].

والحـق سـبحـانه يقـول ﴿ وَاتَّقُـوا اللهَ .. (١) ﴾ [الطلاق] ثم يـقــول بعدهـا : (ربكم) ، فهو سـبحـانه يجمع بين صـفة الألوهية لله وصفة الربوبيـة ، فيقــول (الله ربكم) .

فـالربُّ عطاؤه مكفول لكلِّ مَنْ خلق ، مؤمنهم وكافرهم ، فهو سبحـانه وتعـالى الذى استدعـاهم للوجود وخلقهم ، فـالربّ سبحـانه يضمن لهم رزقهم وحياتهم، والله سبحـانه لا يحرم خَلْقاً من خَلْقه من عطاء ربوبيته فى الدنيا .

وعطــاء الألوهيــة تكليف ، وعطــاء الربوبية رزق وتربيــة ، والرزق والتربية مطلوبــات لـكلِّ مَـنْ كان على الأرضـ ، لأننا لم نعلـم أن أحداً فــى الوجود قد اسـتدعى نفســه فى الوجود ، وإنما اسـتدعـاه خـالقه، ومـا دام الخـالق الأكرم هو الذى استدعى العبد مؤمناً أو كـافراً فـهو المتكفِّل برزقه .

وعطاء الربوبية يشـمل الخَلْق جميعاً ، فـالخـالـق الأكرم هو ربّ النـاس كلهم ويتـولى تربيتهـم جميعــاً ، فعطاءُ الربوبيــة للجميع ، أمـا عطــاء الألوهيـة فهو « افعل » و « لا تفعل » .

والرب هو الذى يتولّى تربية المربى لبلوغه حدّ الكمال المنشود له ، وكلمة (رب) تعنــى أنــه تـولى تربية الخَلْـق إلى غـاية ومهمة ، والتربيــة تحتـاج إلى مقومــات ماديــة ومقومات معنويــة روحية ومنهجية ، لذلـك يأتى بهـا الحق سـبحـانه شـاملةً للكون كله ، كمـا فى فـاتحة الكتـاب ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

---

(١) عوان : أسرى مستسلمات ، فهُنَّ بمنزلة الأسير . وعوان جمع عانية وهى الأسيرة . وما دامت المرأة أسيرة عند الرجل فليحسن عشرتها لأنها لا تملك من أمر نفسها شيئاً .

(٢) أخرج البيهقى فى شُعب الإيمان (٤٨٨١) عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ فى خطبته بعرفات : « اتقوا الله فى النساء ، فإنهن عوان عندكم ، اتخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

فهو سيِّد كل العالمين ومالكهم ومُربِّيهم ، وهو الذى يُنشِّئهم التنشئة التى تجعلهم صالحين لأداء مهمتهم فى الحياة بقوة البنيان وببقاء النوع بالتزاوج وبقوة القيم .

وفى آية يقول تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ .. (٦١) ﴾ [الأعراف] أى من سيد العالمين ومن مُتولى تربية العالمين ، ومَنْ يتولَّ التربية لا يُنزل منهجاً يُضل به مَنْ يربيهم ، بل يُنزل منهجاً ليصلح مَنْ يُربيهم .

ومعنى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى : لا تعصوه فيما أمركم به، فلا تُطلِّقوا النساء فى الدم ولا فى الطهارة وقد جامعتموهن إلا فى الطهارة بعدما يغتسلْنَ من الحيض من قبْل أن تُجامعوهن .

وهو تحذيرٌ من التساهل فى أحكام الطلاق والعدة ، وذلك أنَّ أهل الجاهلية لم يكونوا يقيمون للنساء وزناً ، وكان قرابة المطلقات قلّما يُدافعن عنهنّ فتناسى الناسُ تلك الحقوق وغمصوها .

فلذلك كانت هذه الآياتُ شديدةَ اللهجة فى التحدى ، وعبَّر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود الله ، ولزيادة الحرص على التقوى أتبع اسم الجلالة بوصف (ربكم) للتذكير بأنه حقيقٌ بأنْ يتقى غضبه .

فاتقوا الله ربكم فى تطويل العِدَّة عليهن والإضرار بهن ، فلا تعصوه فيما أمركم به .

وهى دعوةٌ للرجال خاصةً إلى تقوى الله فى هذا الموقف ، وألاَّ يكونَ الطلاقُ عن عدوان أو انتقام أو اتباع لشهوة عارضة أو نزوة طارئة ، فإن الرسول ﷺ يقول : «إنَّ من أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[1].

فاتقوا الله ربكم بأنْ تصونوا أنفسكم عن معصيته التى من مظاهرها إلحاق

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٨٠) وابن ماجه فى سننه (٢٠١٨) والبيهقى فى السنن الكبرى (١٥٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . وكذا أخرجه الطرسوسى فى مسنده (١٤) .

الضرر بأزواجكم بتطليقهن فى وقت حيضهن ، أو فى غير ذلك من الأوقات المنهيّ عن وقوع الطلاق فيها .

فعندما يأمركم الحقّ سبحانه بأمر يخصُّ زوجك وأهل بيتك بموجب أنه الله، وأنّ علينا أنْ نستجيب لأمر الله ، ولكنه أيضاً بموجب ربوبية الله يدلّنا على ما يُصلح حالك مع زوجك وأهل بيتك .

وعندما يحدث الطلاق لابد أنْ يحدثَ بما شرَّعه الله ، وأنْ تكون كل أموره محوطة بتقوى الله ، ومخافته وخشيته .

فالله يُربِّيكم بمنهجه ويكلؤكم تحت عينه ، ليستقيم أمر حياتكم على منهج الله ، وتقوى الله هنا تخصّ إحصاء عدة المرأة المطلقة ، وتخص أيضاً عدم إخراج المرأة المطلّقة طلاقاً رجعياً من مسكن الزوجية ، فالله ربٌّ ويعلم نفوس عباده رجالاً ونساء ، ويعلم أنَّ هذا قد يُقرب بين رجل طلّق امرأته فى لحظة طيش وبين مطلقته .

فيجعل المرأة قريبة من الرجل عسى أن يوفق الله بينهما، فيرجع الرجلُ امرأته وتستقيم الأمور بينهما .

وقد روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : طُلِّقتْ خالتى ، فأرادت أنْ تجُدَّ[1] نخلها فزجرها رجل أنْ تخرج ، فأتت النبى ﷺ فقال : « بلى فجُدِّى نخلكِ ، فإنكِ عسى أنْ تصَّدَّقى أو تفعلى معروفاً »[2] .

والبعض قد يفهم تعارضاً بين هذا الحديث الشريف وبين قوله تعالى الذى نحن بصدد خواطرنا عنه ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق]

فالمرأة فى الإسلام لها ذمتها المالية المستقلة ، ولها أنْ ترعى مالها بذاتها أو بتوكيل مَنْ تثق فيه ، ولكن قد يقف أمامها أمرٌ شرعه الله ، وهو أنها قد

---

(١) تجد نخلها : تصرمها . وجداد النخل : صرامها . والصرام : القطع .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٧٩٤) وأبو داود فى سننه (٢٢٩٩) والنسائى فى سننه (٣٥٥٠) وابن ماجه فى سننه (٢٠٣٤) وأحمد فى مسنده (١٤٤٨٤) من حديث جابر بن عبد الله .

تكون مُطلَّقة لا يحقّ لها أنْ تخرج فى مدة عدَّتها .

ولكن هذا ليس على إطلاقه ، فإن المرأة المطلقة لها الحق فى الخروج لحاجاتها الضرورية ولمباشرة مالها ، والحديث يعطينا مثالاً عملياً ، فخالة جابر بن عبد الله طُلِّقَتْ فأرادت أنْ تجُدَّ نخلها أى تجزّه لتستفيد منه ، فزجرها أحد الرجال أنْ تخرج .

فأتت المرأة لنبى الله ﷺ لتسأله ، فأباح لها رسول الله أنْ تخرج لتجُدَّ نخلها ، فرسول الله نظر نظرةً أبعد ، فقال : « إنكِ عسى أنْ تصّدَّقى أو تفعلى معروفاً » .

فرسول الله أراد أنْ يُوجهها إلى فعل الخير ، كأنْ تتصدَّق أو تفعل معروفاً كإغاثة ملهوف أو سداد دَيْنِ مَن غلبَهُ الدين ، أو إعانة مَنْ يريد التزوج ، أو وضْع شيء من هذا النخل للفقراء والمحتاجين .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى : لا تُخرجوهن من بيوتهن حتى تنقضى عدتهن ، وليس لها أنْ تخرج إلا بإذنه، وليس للزوج أنْ يُخرِجها ما كانت فى العدة ، فإنْ خرجت فلا سُكْنى لها ولا نفقة .

وقد نسب الحقُّ سبحانه البيوت إلى ضمير النساء من المطلقات ، وهو إشارةٌ إلى أنهن مستحقات المكث فى البيوت مدة العدَّة بمنزلة مالك الشيء ، وهذا ما يُسمى فى الفقه مِلْك الانتفاع دون العين ، وللمطلقة حكم الزوجة ما دامت فى العدة إلاَّ فى استمتاع المطلِّق .

فلا تُخرجوهن حتى تنقضى عدتهُنَّ من بيوتهن من مساكنهن التى يسكنّها قبل العدة وهى بيوت الأزواج ، وأضيفتْ إليهن لاختصاصها بهنَّ من حيث السُّكْنى .

فهذا نَهْى للرجال عن أنْ يُخرِجوا مُطلقاتهم قبل انقضاء العدة ، بل ينبغى أنْ يُمسِكوهن فى بيت الزوجة ، فإنهن زوجاتٌ إلى أنْ تنقضى العدة .

وفى إضـافة بيوت الأزواج إلى الزوجات ما يُدخل فى شعور كلٍّ من الرجل والمرأة أن الزوجية لا تزال قائمة بينهما فى أثناء العدة ، وأن الزوجة ما زالت فى بيتها بيت الزوجية .

وهذا من شأنه أنْ يجعل المسافة النفسية قريبةً بينهما ، وأنْ يكون ذلك داعيةً إلى إصلاح ذات البين وإزالة أسباب الفُرْقة ، فالمرأة فى أثناء العدة لا تزال فى بيتها بيت الزوجية وليست غريبة عنه ، وهى بهذا الشعور تتصرف كما كانت تتصرف قبل إيقاع الطلاق عليها ، وهذا مدخل واسع إلى المصافاة وإصلاح ما بالنفوس .

فلا تُخرجوا المعتدات من المساكن التى كنتم تُساكنوهن فيها قبل الطلاق، غضباً عليهنَّ أو كراهة لمساكنتهن أو لحاجة لكم إلى المساكن ، لأن تلك السُّكْنى حقّ الله تعالى أوجبه للزوجات ، فليس لكم أنْ تتعدوه إلا لضرورة ، كانهدام المنزل أو الحريق أو السيل أو خوف الفتنة فى الدين .

فاتقوا الله ربكم فى الإضرار بهنَّ لا تُخرجوهن من بيوتهن أى من مساكنهن عند الفراق إلى أنْ تنقضى عِدّتهن ، فقوله ﴿ **لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ** .. (١) ﴾ [الطلاق] فيه دليلٌ على وجوب السُّكنى لها ما دامت فى العدة .

فإنَّ بيوتهن التى نهى الله تعالى عن إخراجهنّ منها هى البيوت التى كانت تسكنها قبل الطلاق ، فأمره بإقرارها فى بيتها ، ونسبه إليها بالسُّكنى .

ويقول سبحانه : ﴿ **وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ** .. (١) ﴾ [الطلاق] فلا تخرج المطلَّقة ما دام لزوجها عليها رجعة وكانت فى عدةٍ ، وهذا الخروج ألاَّ تتحول من بيتها وإنِ احتاجتْ إلى الخروج بالنهار لحاجتها خرجت ولا تبيت إلا فى بيتها .

وليس للزوج أنْ يُخرجها من مسكن الزوجية ما دامت فى العدة ، ولا يجوز لها الخروج أيضاً لحقِّ الزوج إلا لضرورة ظاهرة ، فإنْ خرجت أثمت ولا تنقطع

العدة ، والرجعية والمبتوتة فى هذا سواء ، وهذا لصيانة ماء الرجل .

ويقول تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق] وفى سورة النساء يقول تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ[1] لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١٩) ﴾ [النساء]

ويقول تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ يَنِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾ [الأحزاب]

والفاحشة هى الذنب الفظيع ، وموقف العلماء من الفاحشة فيه اختلاف ، فبعض العلماء قال : إنها الكبيرة من الكبائر ، وقال بعض آخر من العلماء : إن الفاحشة هى الزنا .

والفاحشة مأخوذة من التفحُّش أى التزايد فى القبح ، ولذلك صرفها بعض العلماء إلى لونٍ خاص من الذنوب وهو الزنا ، لأن هذا تزيُّد فى القبح .

والذين قالوا : إن الفاحشة المقصود بها الزنا نظروا إلى قول الله سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ [الإسراء] أو الفاحشة هى ما فيه حدٌّ ، أو الفاحشة هى الكبائر ونحن نأخذها على أنها التزيُّد فى القبح على أىِّ لونٍ من الألوان .

فكلمة (فاحشة) ليست قُبحاً فقط ، بل تزيُّد وإيغال وتعمُّق فى القبح ومبالغة فيه .

والمتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أنَّ الزنا هو الذنب الوحيد الذى سماه القرآنُ فاحشةً فهى إذن الزنا ، أو كل شيء يخدش حكماً من أحكام الله تعالى،

---

(١) فى العضل عدة أقوال منها :
– أن الرجل يكره صحبة امرأته ولها عليه مهر فيحبسها ويضربها لتفتدى . قاله ابن عباس وقتادة .
– أن الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها ثم يطلقها كذلك أبداً إلى غير غاية يقصد إضرارها .

ولكن لماذا الزنا بالذات ؟

نقول : لأن كلَّ الذنوب الأخرى غير الزنا إنما تتعلَّق بمحيطات النفس الإنسانية ، أما الزنا فيتعلق بالنفس الإنسانية ذاتها ، ويترتب عليه اختلاط الأنساب وبه تُدنّس الأعراض ، وبه يشكّ الرجل فى أهله وأولاده ، ويحدث بسبب هذا من الفساد مَا لا يعلمه إلا الله .

لذلك نصَّ عليه القرآن صراحةً فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ [الإسراء]

ومن أقوال العلماء فى الفاحشة : أنها الذنب العظيم الذى يخجل صاحبه منه ويستره عن الناس ، فلا يستطيع أنْ يجاهر به ، كأنه هو نفسه حينما يقع فيه يعلم أنه لا يصح ولا ينبغى لأحد أنْ يطلع عليه .

فالفاحشة هى الشيء الذى اشتد قُبْحه ، والدليل على فُحْشه أن الموصوم به يحب ألاَّ يعرف وأنْ تظلّ جرائمه خِلْسةً من المجتمع ، وأن الذى يقترف هذه الفاحشة يكره أن تُفعل فى محارمه ، ويكفيها فحشاً أن الله تعالى سماها فاحشة ، وشرع لها حداً يُقام على مرتكبها علانية أمام أعين الجميع .

ولكن ما معنى الفاحشة هنا فى هذه الآية ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق]

البعض من العلماء قالوا : الفاحشة البغض والنشوز ، فإذا فعلتْ ذلك فقد حلّ له منها الفدية . وقال ابن مسعود : إذا آذتْك فقد حلّ لك أخْذ ما أخذَتْ منك[1] .

ومن العلماء مَنْ قال : خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها الفاحشة المبينة ومنهم مَنْ رأى أن فاحشةَ المرأة هنا هى أنْ تبذوَ[2] المرأة على أهل الرجل ، فإذا

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٢٩٠) وعزاه لابن جرير الطبرى فى تفسير الآية [النساء : ١٩] .
(٢) تبذو : تجيء بالكلام القبيح والفحش . وتبذو : تشتم وتسبّ وتسيء القول فى أقارب زوجها ، فهذه يجوز إخراجها ونقلها إلى مكان آخر لقطع إيذائها عنهم . فلسانها ذربٌ فتؤذيهم بلسانها السليط .

بذت عليهم بلسانها فقد حَلَّ لهم إخراجها .

فالفاحشة هنا بمعنى العصيان البيّن وهو النشوز ، فالفاحشة المبيّنة أنْ تفحُشَ المرأةُ على أهل الرجل وتُؤذيهم ، فتكون امرأةً سيئةَ الخُلق .

فالمرأة السيئة الخُلق البذيئة اللسان على زوجها وأهل زوجها لا تستحق أنْ يتم الاحتفاظ لها بحقِّها فى البقاء فى مسكن الزوجية مع طليقها إلى أنْ تنقضى عِدَّتها .

وقد أحلَّ الإمام الشافعى إخراجَ المرأة البذيئة على أحمائها ، فالفاحشة المبينة الأمر القبيح الواضح الموجب لإخراجها ، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة .

ففى هذه الحال يجوز لهم إخراجها ، لأنها هى التى تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جَبْر لخاطرها ورِفْق بها ، فهى التى أدخلت الضرر على نفسها.

وهذا فى المعتدَّة الرجعية ، أما البائن فليس لها سُكْنى واجبة ، لأن السكن تبع للنفقة ، والنفقة تجب للرجعية دون البائن .

ولأن الشارع سبحانه حكيم ، فوراء السُّكنى للمطلَّقة حكمة بالغة فهذا حِفْظ للأعراض ، فإن المطلقة يكثر التفات العيون لها .

والملفت أن الحق سبحانه استخدم كلمة (مبيِّنة) ولم يقل سبحانه : بفاحشة بيِّنة . أى واضحة ، ولكنه سبحانه قال (مبيِّنة) فالفاحشة هنا واضحة ظاهرة ظهوراً لا لبْسَ فيها ، فهى مبيِّنة بذاتها موضحة لنفسها وُضوحاً لا يَخْفى على أحد .

وهذا تعبيرٌ عن مجاهرة المرأة بفاحشتها أو ببذاءتها مجاهرةً لا يحتملها أحدٌ أو تطاولها على زوجها بالسُّباب والنشوز والارتفاع عليه والتمرد عليه وعلى أهله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) ﴾ [الطلاق]

قوله (وتلك) اسم إشارة لمؤنث ، ولابد أنْ نعرف أنَّ (تلك) ليست كلمة واحدة وإنما هي ثلاث كلمات . (ت) اسم إشارة وهو مؤنث (ذا) التى فى (ذلك). واللام تدلُّ على البُعد ورفعة هذه الحدود وتأكيد عدم تعدِّيها وتجاوزها . و (ك) لمخاطبة الناس جميعاً .

فـ (تلك) هى إشارةٌ لأمر بعيد ، فعندما نشير إلى شيء قريب فإننا نقول (ذا) . وعندما نستخدم صيغة الإشارة مع الخطاب نقول : ذاك . وعندما نشير إلى مؤنث فنقول (تِ) . وعندما نشير إلى خطاب مؤنث نقول : (تيك) . واللام كما عرفنا هنا للبُعد أو للمنزلة العالية .

فـ (تلك) إشارة ، ولابد أنْ نُفرِّق بين الإشارة والخطاب ، لأن البعض يخلط بينهما ، فالإشارةُ هى التى تشير إلى شيء مثل قولنا : هذا وذا أو تلك ، وهذا : إشارة لمذكر .

والمثال هو قولنا : هذا القلم جميل . أما قولنا : تلك الدواة جميلة فـ (تلك) إشارةٌ لمؤنثة . أما الكاف فهى حرف خطاب ، فالتاء إشارة للآيات وهى مؤنثة. والكاف فى (تلك) للمخاطب .

والمشار إليه هنا هو حدود **الله** والمتمثِّلة هنا فى هذه الآية فى أحكام التطليق ما دام لم يُعدْ هناك مجال لاستمرار الحياة الزوجية ، فإنْ كان الطلاقُ واقعاً لا محالة فلا بد أنْ يتمَّ بطريقة شرعية تحفظ للمرأة حقوقها ، وتحفظ للرجل رغبته فى إعادة امرأته إليه مرة أخرى ، وتحفظ للمجتمع حمايةَ النسل وعدم اختلاط الأنساب .

فتلك حدود **الله** ، وليس من الصواب أنْ نحصر الحدود فى حدود الجزاءات والعقوبات على السرقة والزنا والحرابة[1] والقتل ، فالحدود التى وضعها **الله**

---

(١) يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ..(٣٣) ﴾ [المائدة] وهذا حكم الله فى الحرابة أى قطع الطريق، فالحرابة هى أشد الجرائم لأن منها عدة جرائم كالسرقة بالإكراه والقتل والإخافة والترويع وهدم عامر البنيان وتهديد الأبرياء ، فعند فعل عمل يجمع بين هذه الجرائم فهذه حرابة يطبق فيها حكم الآية.

سبحانه هى أحكام ، ومرة تكون هذه الأحكام أوامر ، ومرّة تكون نواهى .

ومعنى « الحد » هو الفاصل المانع من اختلاط شيء بشيء ، وحدودُ الله هى محارمه ، والمحارم هى التي يضع الله لها حداً فلا تتعداه . فلكى تمنع نفسك من تلك المحرمات فعليك ألاَّ تقربَ النواهى ، وفى الأوامر عليك ألاَّ تتعداها .

فحدودُ الله هى ما شرعه لعباده حداً مانعاً بين الحِلِّ والحرمة ، وحدودُ الله إمّا أنْ ترد بعد المناهى ، وإما أنْ ترد بعد الأوامر .

فإنْ وردت بعد الأوامر فإنه يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] أى آخر غايتكم هنا ولا تتعدوا الحد ، ولكن إن جاءت بعد النواهى يقول ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه يريد أنْ يمنع النفس من تأثير المحرمات على النفس ، فتُلح عليها أنْ تفعل ، فإنْ كنت بعيداً عنها فالأفضل أنْ تظلَّ بعيداً .

وانظر جيداً فيما قال رسول الله ﷺ : «إن الحلال بيِّن ، وإنَّ الحرام بيّن ، وبينهما أمورٌ مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضه ، ومَنْ وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحِمَى يُوشك أنْ يقع فيه، ألا وإنَّ لكل ملك حِمى ، ألا وإنَّ حِمى الله فى أرضه محارمه »[١].

وما دامت الحدودُ تشمل مناهى الله وتشمل أوامر الله ، فكلُّ شيء مأمورٌ به، وكلُّ شيء منهيٌّ عنه يجب أنْ يظل فى مجاله من الفعل فى (افعل) ، ومن النهى فى (لا تفعل) .

وإذا انتقل نظام (افعل) إلى دائرة (لا تفعل) ، وانتقل ما يدخل فى دائرة (لا تفعل) إلى دائرة (افعل) . هنا يختلّ نظام الكون ، وما دام نظام الكون أصابه الخلل فقد حدث الظلم .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢ ، ٢٠٥١) وكذا مسلم فى صحيحه (٤١٧٨ ، ٤١٨١) وأبو داود فى سننه (٣٣٣١) والترمذى فى سننه (١٢٠٥) والنسائى فى سننه (٤٤٥٣) وابن ماجه فى سننه (٣٩٨٤) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

فالظلم هو أنْ تنقل حقَّ إنسـان وتعطيه لإنسـان آخـر ، وتشريع الطلاق حَدٌّ مـن حـدود الله ، فإنْ حاولت أنْ تـأتى بـأمر لا يناسـب مـا أمر الله بـه فـى تنظيم اجتماعى فقد نقلت المأمور به إلى حيز المنهيّ عنه وبذلك نحدث ظلماً .

وحين يحدّ الله حُدوداً أى يمنع أنْ يلتبس حقٌّ بحقٍّ ، أو أنْ يلتبس حقٌّ بباطل فهو الذى يضع الحدود ، وهو الذى فصل حقوقاً عن حقوق .

ونحن فى حياتنا عندما نقوم بفصل حقوق عن حقوق فى البيوت والأراضى فنحن نضـع حدوداً واضـحة ، ومعنى « حد » أى فاصـل بين حقّيْن ، بحيث لا يأخذ أحدٌ ما ليس له من آخر .

والحـدود التى نصـنعها نحن والتى قـد لا ينتبه إليها كثيرٌ مـن الناس هى نوعـان : نـوع لا يتعدّى بالبناء ، فعندما يريد واحد أنْ يبنى فالأول يبنى على الأرض التى هى حَقٌّ له ، ويكون الجداران ملتصقيْن بعضهما ببعض .

وعندمـا يـزرع فلاح بجانـب فلاح آخر ، فـكلُّ فلاح يزرع فى أرضـه وبين القطعتين حَدٌّ ، وهذا يحدث فى النفع .

لكن لنفترض أنَّ فلاحاً يريد أنْ يزرع أرزاً ، وجاره لن يزرع أرزاً ، فالذى لن يزرع الأرز قد تـأخذ أرضه مياهـاً زائدة ، فالمياه تصلح للأرز وقد تفسد غيره.

ولذلـك يكـون الحكم هنـا أنْ يقيم زارع الأرز حداً اسـمه « حدّ الجيرة » ليمنع الضـرر، وهـو ليس «حد الملكية » فـزارع الأرز هنـا ينقص من زراعته مسـافة متريـن ، ويصـنع بهما حَدّ الجيرة ، حتى لا تتعـدى المياه التى يُروى بها الأرز إلى أرض الجار ، إنه حَدٌّ يمنع الضرر وهو يختلف عن الحدِّ الذى يمنع التملُّك .

إذن : فمن نـاحية حمـاية الإنسان لنفسه من أنْ يُوقع الضرر بـالآخرين عليه أنْ ينتبـه إلى المقولة الواضـحة « لا تجعـل حقَّك عند آخر حدِّك ، بل اجعل حقَّك فـى الانتفـا ع بعيـداً عن حدِّك » وهذا فـى الملكية ، وذلـك إذا كان انتفاعُكَ بما تملكه كله سيضرّ بجارك .

وكذلـك يعاملنـا الله ويقول فـى الأوامـر : ﴿ تلْكَ حُدُودُ الله فَـلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] ، وفى النواهى يقول سبحانه : ﴿ تلْكَ حُدُودُ الله فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

أى : أنـك إذا مـا تلقيـتَ أمراً فلا تتعـدَّ هذا الأمر وهذه هـى الملكية ، وإذا ما تلقيتَ نهياً فلا تقرب الأمر المنهيّ عنه .

مثال ذلك النهى عن الخمر ، فالحق لا يقول « لا تشرب الخمر » وإنما يقول : ﴿ يَأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة]

أى لا تذهـب إلى المكان الذى يوجد فيه من الأصـل ، كُـنْ فى جانب ، وهذه الأشياء فى جانب آخر .

والحق سبحانه يحب مَنْ يقف عند الحدود ، ففى المنهيات لا تقترب . وفيما أحلَّه الله : لا تتعدَّ .

وهذه الأمور التى بيَّنتُها لكم من الطلاق للعدَّة وإحصاء العدة والأمر باتقاء الله ، وأنْ لا تخرج المطلقة من بيتها إلا أنْ تأتى بفاحشة مبيِّنة حدود الله التى حدَّها لكم أيها الناس .

وتلك طاعة الله فلا تعتدوها ، فلُبُّ طاعتك الله وتقواك له أن تقفَ عند حدوده لا بالنقصـان عنـه ولا بالزيادة عليـه ، ومَنْ راعى مع الله حـدَّه أخلص الله له عهده .

لذلـك يقـول تعـالى : ﴿ وَمَـنْ يَتَعَـدَّ حُـدُودَ الله فَقَـدْ ظَلَـمَ نَفْسَـهُ .. (١) ﴾ [الطـلاق]، وفـى آية أخرى يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُـدُودَ الله فَأُولَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

فإياكـم أنْ تتعـدَّوا هذه الحدود ، لأن الإنسـان إذا ما تعدَّى هذه الحدود يقع

فـى ظلم نفسـه ، وظلم مَنْ يعول ، وظلم المجتمع . ومَـنْ تعدى هذه الحدود فقد أسرف .

والعَـادُون هم المعتـدون المتجاوزون لما شُرع لهـم ، وربنـا تبارك وتعالى حينما يُحذِّرنـا من التعدى يفرِّق بين التعدِّى فى الأوامر ، والتعدِّى فى النواهى، فـإنْ كان فـى الأوامر يقول ﴿ فَـلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقـرة]، وإنْ كان فى النواهى يقول ﴿ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

ثـم يقـول تعالى : ﴿ فَقَدْ ظَلَـمَ نَفْسَهُ .. (١) ﴾ [الطـلاق] ومثلها قوله تعالى فى سـورة البقرة : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُـمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُـنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُـنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه يحذر من مثل هذا السلوك ، فإياك أنْ تظنَّ أنك حين تعتدى علـى زوجتك بعـد أنْ تراجعها أنـك ظلمتهـا هى ، لا إنمـا أنت تظلم نفسـك لأنك حـين تعتـدى على إنسـان فقد جعلت رَبَّهُ فـى جانبه ، فإنْ دعـا عليك قبِل الله دعوته ، وبذلك تحرم نفسـك من رضـا الله عنك ، فهل هنـاك ظلمٌ أكثر من الظلم الذى يأتيك بسخط الله عليك ؟

فمن الظلم ظلم الإنسـان لنفسه حينما يُحقق لهـا شهوة عاجلة ومتعةً زائفة تُورثه ندماً وحسرة وألماً آجلاً ، وبذلك يكون قد ظلم نفسه ظلماً كبيراً وجرَّ عليها ما لا تطيق ، ذلك فضلاً عن ظلم الإنسان لغيره بشتى أنواع الظلم وأشكاله.

ومنتهى الحُمْق أنْ يظلم الإنسانُ نفسه ، لو ظلم غيره لقلنا : خيرٌ يجلبه لنفسه ، لكن ما الخير فى ظلم الإنسان لنفسه ؟ ومن ظلم نفسه لا تَلُمْه إنْ ظلم الآخرين .

وظلم النفس هو أنْ نخالف ما شرع الله للنفس لينفعها نفعاً أبدياً مستوفياً ، ولكن النفس قد تندفع وراء حُبها للشهوات وتمنيها للنفع العاجل الذى لا خلودَ

له ، وعندما يحقق الإنسان هذا النفع العاجل لنفسه فهو يظلم نفسه .

فظلمُ النفس هو الفعل الذى يُسيء إلى النفس وحدها ، أو أن الإنسان يصنع سيئة ويُمتع نفسه بها لحظة من اللحظات ، ولا يستحضر عقوبتها الشديدة فى الآخرة .

والحق سبحانه حين يُحرم عليك أنْ تظلم غيرك فهو قد حرَّم عليك أيضاً ظلم نفسك .

فظلمُ النفس هو الظلم الأحمق ، لأن ظلم الغير قد يعود على الظالم بنوع من النفع ، أما ظلم النفس فلا يعود عليها بشيء ، فمَنْ خالف منهج **الله** فى أحكامه حتى ولو كان مما بينه وبين زوجته ، وبذلك يكون قد فوَّت على نفسه نعيم الدنيا ونعيم الآخرة .

فمَنْ يتعدَّ حدود **الله** فى أحكام الطلاق والرجعة والعدَّة وعدم إخراج المطلقة طلاقاً رجعياً من بيت الزوجية يكون قد ظلم نفسه قبل أنْ يظلم غيره .

فهو من البداية هدم بيته بطلاق قد يكون هو السبب فيه بعدم استطاعته التعامل السليم مع زوجته مما أدى إلى الشقاق والفراق وتشرُّد الأولاد .

فمَنْ يتعدَّ حدود **الله** وأمره فيُطلّق لغير العدّة التى هى ثلاثة طُهورات فقد ظلم نفسه ، ومن الناس مَنْ يريد بالتطليق مُضارة المرأة وإغاظتها والإضرار بها ، وهؤلاء الذين قال **الله** فيهم :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا[1] لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال الضحاك : إنما كانوا يضارّون المرأة لتفتدى . وقال عدة من العلماء : كان الرجل يطلق المرأة فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره ثم يطلقها فتعتد فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة فنهاهم **الله** عن ذلك وتوعدهم عليه . تفسير ابن كثير (١/ ٦٢٩) .

فكان الرجل يطلق امرأته تطليقة واحدة ثم يدعها ، حتى إذا كادَ أنْ تخلو عدتها راجعها ، ثم يُطلّقها حتى إذا كاد أنْ تخلو عدتها راجعها ولا حاجة له فيها ، إنما هو ليطوّل عليها ليُضارها بذلك ، فنهى الله عن ذلك .

فلا تُبقِ أيها الرجل على الحياة الزوجية من أجل الإضرار بالمرأة وإذلالها، ومعنى الضرار أنك تصنع شيئاً فى ظاهره أنك تريد الخير ، وفى الباطن تريد الشر .

يقول الرجل أنا لا أريد طلاقها وسأعيدها لبيتها يقول ذلك ويُبيِّت فى نفسه أنْ يُعيدها ليُذلّها وينتقم منها ، وذلك لا يُقره الإسلام بل وينهى عنه .

فظُلْمك لامرأتك أو مطلقتك يؤدى إلى اختلال المعاشرة واضطراب حال البيت وفوْت المصالح بالمخاصمات والمشاحنات والمشاجرات والدخول فى تعاند الإرادات والتنابذ بالألفاظ .

فهو قد عبث بآيات الله واتخذ الرخصة التى جعلها الله له فى مراجعة زوجه، والتى من شأنها أنْ تُصلح ما أفسد اتخذها وسيلة لمزيد من الإفساد .

فالله قد أتاح للزوج فرصة مراجعتها وإمساكها بعد أنْ قطع حبل الزوجية ، فأسكن الله زوجته أو مطلقته الرجعية فى مسكن الزوجية حتى تنقضى عِدَّتها، فإنْ شاء راجعها فلا يُطلقها من يده مرة أخرى .

﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) ﴾ [الطلاق] فأنت لا تدرى فربما كان بقاء المرأة فى مسكنها مدة العدة يدعوك إلى أنْ تراجع نفسك وترجع عما فعلته فتراجعها فى العِدَّة ، وهذا كثيراً ما يحدث .

بخلاف ما لو خرجت من البيت وكثر القيل والقال وتدخّل الناس بالإفساد انقطع حبْل الصِّلة ، والمشرِّع حريص جداً على عدم انقطاعه .

وقوله ﴿ لَا تَدْرِي .. (١) ﴾ [الطلاق] وإنْ كنتَ لاتدرى فالتزم حكم الله الذى يعلم المصلحة وتوجيهها ، فالله يُصلحك بمنهجه .

ومعنى ﴿ لَا تَدْرِي .. (١) ﴾ [الطلاق] أي : لا تعلم ، يُقال : هل دريْتَ بالموضوع الفلانى ؟ يعنى : علمت به .

والحق سبحانه يقول : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ .. (١) ﴾ [الطلاق] و « لعل » من أفعال الرجاء ، وذكرها يعنى الرجاء فى أنْ يتحقق ما يأتى بعدها ، ومراتب الرجاء بالنسبة للنفس وبالنسبة للغير وبالنسبة لله تختلف .

أنت تقول : اسأل فلاناً لعلّه يعطيك ، هذه مرتبة من الرجاء . وتقول : لعلِّى أعطيك . وهذه أقرب إلى التحقيق من أنْ أرجو غيرى أنْ يُعطيك .

إذن فهى مرحلة أعلى فى الإجابة وأنْ تقول : لعلَّ الله يعطيك مرحلةً ثالثة وعالية من الرجاء لأنك ترجو الله ولا ترجو أحداً من البشر ، فإذا قال الله ﴿ لَعَلَّ اللهَ .. (١) ﴾ [الطلاق] ، فيكون هذا توقعاً مُؤكداً للعطاء .

فمراحل الرجاء رجاء لغيراك من غيرك ، ورجاء منك لغيرك ، ورجاء من الله لسواك ، فالرجاء من الله رجاءٌ مُحقَّق لأنه سبحانه كريم يحب أنْ يرحمنا ، ولا شيء يمنعه من أنْ يُحقق ذلك .

فأقوى درجات الرجاء وآكدها الرجاءُ من الله ، فالوعد من الله ، والرجاء فيه سبحانه لا يخيب .

وقد تقول : لعلِّى أعطيك ، فهو من كلامك أنت ومع ذلك قد لا تستطيع تحقيقه. أما إذا قال الله : لعلكم . فهذا أرجى الرجاءات ولا بد أنْ يتحقّق .

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أبا عمرو بن حفص بن المغيرة خرج مع على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى اليمن ، فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس[1] بتطليقة كانت بقيتْ من طلاقها ، فأمر عليٌّ الحارثَ بنَ هشام وعيّاش ابنَ أبى ربيعة لها بنفقة . قالا : والله ما لكِ من نفقة إلا أنْ تكونى حاملاً .

---

(١) فاطمة بنت قيس بن خالد القرشية الفهرية أخت الأمير الضحاك بن قيس ، صحابية من المهاجرات الأُول . لها رواية للحديث ، كانت ذات جمال وعقل ، وفى بيتها اجتمع أصحاب الشورى عند قتل عمر، توفيت عام (٥٠هـ) [الأعلام للزركلى] توفيت فى خلافة معاوية .

فأتت النبى ﷺ فذكرت له قولها ، فقال : لا نفقةَ لكِ .

واستأذنتْه فى الانتقال (أى فى الخروج من بيت مطلِّقها) فأذن لها ، فقالت: إلى أين يا رسول الله ؟ قال : إلى ابن أم مكتوم ، وكان أعمى تضع ثيابها عنده ولا يراها . فلما مضت عدتها أنكحها النبى ﷺ أسامة بن زيد .

فأرسل إليها مروان بن الحكم قبيصة بن ذؤيب يسألها عن هذا الحديث فحدَّثته به . فقال مروان : لم نسمع بهذا الحديث إلا من امرأة ، سنأخذ بالعصمة التى وجدنا الناس عليها[1] .

فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان : بينى وبينكم القرآن ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ.. (١)﴾ [الطلاق] حتى بلغ ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١)﴾ [الطلاق]

قالت : هذا لمَنْ كانت له مراجعة فأيُّ أمر يحدث بعد الثلاث ؟ فكيف تقولون: لا نفقةَ لها إذا لم تكُنْ حاملاً فعلام تحبسونها ؟

هذا الحديث يُعطينا لمحة مهمة عن صحابية من الصحابيات كانت تفقه كتاب ربها ولها فيه استنباط وفَهْم ورأى تستدرك به على أفهام أخرى له ، وهى الصحابية فاطمة بنت قيس .

وقد طُلِّقَتْ فاطمة مرتين من أبى عمرو بن حفص بن المغيرة فطلَّقها التطليقة الثالثة ، فأمر عليُّ بن أبى طالب رضى الله عنه الحارثَ بن هشام وعيّاش بن أبى ربيعة أنْ يتكفَّلا بنفقتها ، فرفضا لأنها ليستْ حاملاً ، فلا يحقّ لها نفقة خاصة لأن طلقتها كانت طلقة بائنة بينونة كبرى لأنها طُلِّقت للمرة الثالثة .

وقد سألت رسول الله فقال : لا نفقةَ لكِ ، وما دام ليس لها نفقة فليس لها سُكْنى ، لذلك استأذنت رسول الله فى الانتقال من بيت مَنْ طلَّقها ، فأذن لها فى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٧٧١ ، ٣٧٧٢ ، ٣٧٧٧) وأبو داود فى سننه (٢٢٩٢) والنسائى فى سننه الكبرى (٩١٩٩) والطبرانى فى المعجم الكبير (٢٠٣٦٦) من حديث فاطمة بنت قيس .

الانتقال إلى بيت عبد الله بن أم مكتوم ، وقد كان أعمى حتَّى تستوفى عِدَّتها .

فلما استوفتْ عِدَّتها زوَّجها[1] رسول الله أسامة بن زيد . وفى عهد مروان ابن الحكم[2] سألها مروان عن هذا الحديث فقصَّته ، فلما استنكر مروانُ كلامَها قالت فاطمة : بينى وبينكم القرآن . وهو استنكر أمر خروجها وانتقالها .

لذلك قالت الآية : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق] حتى بلغ ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) ﴾ [الطلاق]

فقالت : هذا لمَنْ كانت له مراجعة واستشهدتْ بقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) ﴾ [الطلاق] أن الأمر هنا هو أمرُ رخصة المراجعة للرجل .

ومن نهاية الآية استشهدت على أنَّ عدم الإخراج والخروج إنما هو للمطلَّقة طلاقاً رجعياً ، لذلك قالت بعدها : فأيّ أمر يحدث بعد الثلاث ؟ أى الثلاث طلقات .

والمقصود بالعصمة أى ما كان عليه الناسُ من عدم خروج المطلَّقة أثناء العدَّة ، ولكن فاطمة بنت قيس قالت : لا نفقة لها إذا لَم تكُنْ حاملاً ، فعلام تحبسونها ؟

فالله سبحانه لأنه حكيم ولأنه رحيم لا يترك عباده فى حرج أو كرب دون

---

(١) بعدما طُلقت فاطمة بنت قيس طلبها للزواج معاوية بن أبى سفيان وأبو الجهم ، فقال لها رسول الله ﷺ : أما أبو الجهم فشديد . وأما معاوية فصعلوك لا مال له . ولكن أنكحك أسامة ؟ فقالت : أسامة ! تهاوناً بأمر أسامة ثم قالت : سمعاً وطاعة لله ولرسوله فزوجنيه فكرمنى الله بأبى زيد وشرفنى الله ورفعنى به [أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٨٠)] وقد كان أسامة بن زيد حب رسول الله صغير السن حتى أنه عندما مات رسول الله كان عمره عشرين سنة ، ولكنه كان متزوجاً قبلها بهند بنت الفاكه ، وأيضاً درة بنت عدى وكان له منها [محمد وهند] ثم تزوج فاطمة بنت قيس فولدت له جبيراً وزيداً وعائشة وتزوج غيرهن أيضاً توفى ٥٠ هـ . [طبقات ابن سعد ٤/٦٦] .

(٢) هو : مروان بن الحكم بن أبى العاص أبو عبد الملك خليفة أموى (ولد ٢ هـ) ، وإليه ينسب (بنو مروان) ودولتهم (المروانية) . ولد بمكة ونشأ بالطائف وسكن المدينة (توفى عام ٦٥ هـ) عن ٦٣ سنة . [الأعلام للزركلى ٧/٢٠٧] .

أَنْ يُفرِّج هذا الكرب وهذه المشكلة عنهم ،وشريعة الله عدلٌ كلها ورحمة كلها .

فإذا كان الله قد أباح للرجل تطليق امرأته فإنه سبحانه وضع له حدوداً لا يتعداها ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] ثم ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق] ثم ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ .. (١) ﴾ [الطلاق] ثم ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق]

والله يفتح للرجل المطلِّق طلاقاً رجعياً ، وللزوجة المطلَّقة طلاقاً رجعياً ، يفتح لهما باب الرجعة مرة واثنتين لرأب صَدْع حياتهما الزوجية ، فلعلَّ الله يُحدِث بعد طلاقكم إياهنَّ رجعة ، فلعل الرجل يراجعها فى عدَّتها .

فكأنَّ الحق سبحانه يقول : إنما أبقينا المطلَّقة فى منزل الزوج فى مدة العدة لعلَّ الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله فى قلبه رجعتها ، فيكون ذلك أيسرَ وأسهل .

فلعلَّ الله أن يُحدث فى قلب المطلِّق الرحمة والمودة ، فيراجع مَنْ طلَّقها ويستأنف عِشْرتها فيتمكن من ذلك مدة العدة ، أو لعله يُطلِّقها لسبب منها فيزول ذلك السبب فى مدة العدة ، فيراجعها لانتفاء سبب الطلاق .

والبعض لفتَ إلى أمر آخر ، وهو أنَّ هذه الآية تحريضٌ على الطلاق الرجعى ، والنهى عن الطلاق ثلاثاً أو طلاقاً غير رجعى ، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضرَّ بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة فى الارتجاع فلا يجد إلى المراجعة سبيلاً .

وقد يسأل سائل : قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِي .. (١) ﴾ [الطلاق] هل المخاطب هنا هو رسول الله ؟ فنقول : هو خطابٌ للمتعدى لا للنبى ﷺ ، فالمعنى : ومَنْ يتعدَّ حدود الله فقد أضرَّ بنفسه ، فإنك لا تدرى أيها المتعدِّى عاقبةَ الأمر .

لعلَّ الله يُحدث فى قلبك بعد ذلك الذى فعلت من التعدِّى أمراً يقتضى خلاف ما فعلته فيبدل ببغضها محبة ، وبالإعراض عنها إقبالاً إليها ويتسنَّى تلافيه

رجعةً أو استئناف نكاح .

وهـذه الآيـة مثـل قولـه تعـالى : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ .. (١٥) ﴾ [النساء] ثم قال : ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلا (١٥) ﴾ [النساء]

فالسبيل هنا هو المخرج الذى يخرُجْنَ به من الحبس فى البيوت ، وهو الجَلْد أو الرجم ، أى توقيع عقوبة عليهن يتطهرن بها إنْ أخلصْنَ قلباً وقالباً .

ذلك أن الحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. (٧٨) ﴾ [الحج] ويقول ﴿ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ .. (٦) ﴾ [المائدة]

فالله ما اجتباكم ليُعنتكم أو ليُضيق عليكم ، أو ليعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعل الأمرَ كله يُسْراً وشرعه على قدر الاستطاعة ، ورخَّص لكم ما يُخفِّف عنكم، ويُذهب عنكم الحرج والضيق .

فالله يُحدث من الأمور ما يُخفِّف ويرأب الصدع ليحيا المجتمع سليماً مُعافى.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ .. (٢) ﴾ [الطلاق] فالبلوغ يأتى بمعنيين ، فمرَّة

يُطلق البلوغ على القرب ، ومرة أخرى يُطلق على البلوغ الحقيقى الفعلى، فمثال مقاربة الشيء يقول تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦) ﴾ [المائدة] أى : إذا قاربتم القيام إلى الصلاة فافعلوا كذا من أفعال الوضوء والاستعداد للصلاة ، أما البلوغ الحقيقى فمثاله عندما يصل الطيار بالطائرة إلى محطة الوصول فتجده يعلن أنه وصل إلى البلد الفلانى .

وهنا طلَّق الرجل زوجته لكن عدَّتها لم تنته بل قاربتْ على الانتهاء ، فربما يمكنه أنْ يُسرِّحها أو يُمسكها بإحسان ، وأصبح للزوج قدر من زمن العدة يبيح له أنْ يُمسك أو يُسرّح لكنه زمنٌ قليل .

إن الحق سبحانه يريد أنْ يتمسَّك الزوج بالإبقاء على زوجته إلى آخر لحظة ويستبقى أسباب الالتقاء وعدم الانفصال حتى آخر لحظة .

وهذه علَّة التعبير بقوله تعالى : ﴿ بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ .. (٢) ﴾ [الطلاق] أى : قاربْنَ بلوغ الأجل، إن الحق سبحانه يريدنا أنْ نتمسك باستبقاء الحياة الزوجية إلى آخر فرصة تتسع للإمساك ، فهى لحظة قد ينطق فيها الرجلُ بكلمة يترتب عليها إما طلاق، وإما عودة الحياة الزوجية .

أما قوله فى الآية الأخرى ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ .. (٢٣٢) ﴾ [البقرة]

﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ .. (٢٣٢) ﴾ [البقرة] هنا معناه إذا انتهت العدة ولم يَعُد للزوج حَقٌّ فى أنْ يراجعها إلا بعد عقد ومهر جديدين ، وهَبْ أن الزوج أراد أنْ يعيد زوجته إلى عصمته مرة أخرى ، وهنا يتدخّل أهل اللدد والخصومة من الأقارب ويقفون فى وجه إتمام الزواج .

ونقول لهؤلاء : ما دام الزوجان قد تراضيا على العودة فلا يصح أنْ يقف أحدٌ فى طريق عودة الأمور إلى ما كانت عليه .

فبلوغ الأجل فى سورة الطلاق معناه أن عدة المرأة لم تَنْتَه بعد ، بل قاربتْ على الانتهاء وإلا لم يكُن هناك معنى لقوله : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق]

أما بلوغ الأجل فى سورة البقرة فهو انتهاء عدة المرأة فعلياً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾ [البقرة]

فهنا قوله ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ .. (٢٣٤) ﴾ [البقرة] أى انتهت عدَّتها ، وهى هنا عدَّة المرأة الأرملة التى تُوفِّى زوجها وعدَّتها أربعة أشهر وعشراً ، لذلك قال تعالى: ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (٢٣٤) ﴾ [البقرة]

والمقصود هنا أنْ تتزوج زواجاً جديداً بعد انقضاء عدتها ، وهى لا تستطيع هذا إلا إذا انتهت عِدَّتها وانقضتْ .

أما الأجل المقصود فى العدة التى حددها الحق سبحانه للمطلَّقة بثلاثة قروء ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

فهو هنا ليس أجلاً مُحدداً بزمن ، وإلا لكان الأجل هو الزمن نفسه ، إنما الأجل هنا محدد بحدث يحدث ، وهو الثلاثة قروء أى الثلاثة طهورات من دم الحيض ، وقد يتأخر الطُّهر من الحيض فيتأخر الأجل المضروب للمرأة لاستيفاء عِدَّتها .

وهذا الأجل للمطلَّقة التى تحيض ، أما التى يئستْ من المحيض أو لم تحِضْ من الأساس فأجلُها هو نفسه الزمن ، فلا تعلق عدَّتها على حدث يحدث ، لأن

الحدث أصلاً لن يحدث ، لذلك قال تعالى فى شأنها : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ .. (٤) ﴾ [الطلاق]

فالعدة هنا محددة بزمن وهو ثلاثة أشهر محددة .

ويقول تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق]وفى آية أخرى يُعبَّر بالمصدر فيقول : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ .. (٢) ﴾ [الطلاق] هنا معناه راجعوهن بحُسن معاشرة ورغبة فيهن فأمسكوهن برجعة تراجعونهن بها إن أردتم ذلك ، فالزوج أمام خيارين إما الإمساك ومراجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده .

ولكن لا بد أنْ يكون إمساكك بالمعروف ، والمعروف اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس وكل ما ندب إليه الشرع، ونهى عنه من المحسِّنات والمقبحات .

والمعروف ما يُستحسن من الأفعال ، والمعروف فى الإمساك النّصفة وحُسن العشرة والصُّحبة فيما للزوجة على زوجها .

والمعروف مقابل للمنكر ، فالأمر الخيِّر متعارف عليه بالسَّجية ، والفطرة وكأنَّ المتعارف عليه دائماً من جنس الجمال ومن جنس الخير ، أما الأمر الذى تُنكره النفس فمن جنس الشر وجنس القبح .

فمن شأن الجمال ومن شأن الحُسْن أنْ يكونَ معروفاً ، وكلمة المعروف تعنى الأمر المتداول عند الناس ، وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن المعاشرة بالمعروف، فقال : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (١٩) ﴾ [النساء]

وهناك فرْق بين الود والمعروف ، فالود يكون عن حُب ، لكن المعروف ليس

ضرورياً أنْ يكون عن حُبٍّ ، فالبيوت لا تُبنى على المودة والحب فقط ، فهل لو لم يكُنْ هناك حُبٌّ ومودة أتخرب البيوت ؟

لا ، بل ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (١٩) ﴾ [النساء] حتى لو لم تحبوهن ، وهذا يُرغِّب الرجل فى إرجاع زوجته إليه واستمرار الحياة معها ، وإنْ كان يكره منها سلوكاً أو خلقاً أو تصرفاً ، فإنه قد يُرجعها حفاظاً على أولادهما ولمحاولة الإصلاح .

فقوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق] يخفف الضغط النفسى الواقع على الزوج والذى يدفعه إلى عدم إرجاع زوجه إلى عصمته لأنه لم يَعُدْ يحبها ، فلا تنسَ أنّ المطلوب منك أنْ تعاملها بمعروف لا بالحب والود، وهذا تدرج مع الزواج ، فقد يبدأ الأمر بالمعاملة بالمعروف ، ثم ينقلب إلى وُدٍّ وحب .

فالإمساك بالمعروف هو القيام بما يجب لها من حَقٍّ على زوجها ، ولذلك قال بعض العلماء : من الإمساك بالمعروف أنَّ الزوج إذا لم يجد ما ينفق على الزوجة أنْ يُطلقها ، فإنْ لم يفعل خرج عن المعروف .

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق] أى : فراجعوهن بما أمركم الله به من الحقوق التى أوجبها الله لهنَّ من النفقة والكسوة والمسكن وحُسْن الصحبة.

وكلمة ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ .. (٢) ﴾ [الطلاق] تعطى معنى الضنِّ بالشيء وعدم التفريط فيه ، فكأن الحق سبحانه يقول للمطلق : لا تفرط فى زوجتك لعلّ الله يجعل فيها خيراً ، ولعلَّ الأمور تنصلح فيما بينكم .

ومثل هذا قوله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ لزيد[1] : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ

---

(١) هو زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى ، شاعر وصحابى من بنى كلب وأمه من طيء ، أسره بنو القين فى غارة على طيء وباعوه بمكة فاشترته خديجة بنت خويلد التى وهبته للنبى ﷺ فتبناه ثم نزل تحريم التبنى بخصوصه ، ونزل فيه آية من القرآن فى تزويجه لزينب بنت جحش ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا (٣٧) ﴾ [الأحزاب] توفى عام ٨ هجرية .

زَوْجَكَ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

ومن الإمساك بالمعروف أنْ لا تُمسكها ضراراً ، قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

فلا تُبْق أيها الرجل على الحياة الزوجية من أجل الإضرار بالمرأة وإذلالها، فالضِّرار فى الزواج أن الرجل يقول : أنا لا أريد طلاقها وسأعيدها لبيتها، يقول ذلك ويُبيِّت فى نفسه أنْ يعيدها ليذلها وينتقم منها ، وذلك لا يُقرّه الإسلام بل وينهى عنه .

ولكن كيف تكون المراجعة ، قال الشافعي[1] : لما لم يكُنْ نكاح ولا طلاق إلا بكلام لم تكُنْ الرجعة إلا بكلام . وقال أبو حنيفة : تصح الرجعة بالوطء . وقال مالك : إن نوى الرجعة بالوطء كانت رجعة وإلا فلا .

والرجعة بالقول كأن يقول : راجعتُ زوجتى ونحوها مثل : رددتها أو أعدتها. والأصل فى الرجْعة هى القول لأنه يصح أنْ يُراجعها قبل طهورها الثالث من حيضتها الثالثة ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

وهذا لا يكون بالوطء لأنه لن يطأها فى حيضتها ، فإنها إذا طهرتْ من حيضتها الثالثة دون أنْ يُرجعها تكون مُسرَّحة منه، وتكون قد حدثتْ المفارقة .

---

(١) أورد هذه الأقوال الماوردى فى الحاوى الكبير (١٠/٧٥٩ ، ٧٦٠) واستطرد : ولا تصح الرجعة إلا بكلام من الناطق وبالإشارة من الأخرس ولا تصح بالفعل من الوطء والاستمتاع . أما أبو حنيفة فقال : تصح الرجعة بالقول وبالفعل كالوطء والقبلة حتى لو نظر إليها بشهوة صحت الرجعة . أما الإمام مالك فعلّق الفعل بالنية منه .

أمـا المفارقة فقد قال عنها الحق سبحانه : ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق]ويقول تعالى فى آية أخرى ﴿ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

وذلك يدلُّ على أن المفارقة بين الزوجين إنْ تمت إنما تتم بالجمال أى اللطف والرقَّة والرحمة بدون بشاعة وبدون عنف ، لأن التسريح فى ذاته مفارقة مؤلمة، فلا يجمع الله عليها شدتين : شدة الطلاق وشدة العنف والقسوة .

والتسريح والمفارقة يكون دون مشاحنة ولا خصومة ولا خروج عن حَدِّ الاعتدال ، بل يكون ﴿ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] ولا بد أنْ يكون السراحُ سراحاً جميلاً .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) ﴾ [الأحزاب]

وتسريح الزوجة عادة ما يُصاحبه غضب وانفعال ، فينبغى أنْ يكون التسريحُ جميلاً لا عنف فيه ، كأنْ يُطيِّب خاطرها بقوله : هذا قدرنا ، وأرجو أنْ يعوِّض الله عليك بخير منى أو غير ذلك مما يراه مناسباً لتخفيف الخطْب عليها .

ويكفى أنْ تتحمل هى ألم المفارقة ومصيبة الطلاق ، وأيّ جمال فيمَنْ يفارق زوجته بالسِّباب والشتائم ويؤذيها بأنْ يمنعها حقاً من حقوقها ؟

ومن التسريح بمعروف إعطاء المرأة حقوقها ، يقول تعالى : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) ﴾ [البقرة] ، ولكل مطلَّقة متعةٌ بالقدر الذى قاله سبحانه .

فإنْ لم تفرضوا لهنَّ فريضة أى مهراً معيناً ، فقال : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ .. (٢٣٦) ﴾ [البقرة] ، وإنْ كنتم فرضتم لها مهراً فنصفُ ما فرضتم ، فكأنَّ الله قد جعل لكل حالة حكماً يناسبها .

والحق سبحانه لم يجعل لكلٍّ حالة حكماً يناسبها فقط، بل جعل لكل حالة تعبيراً ولفظاً يناسب هذه الحالة.

فالمرأة التى تُطلَّق من قبل أنْ يمسَّها زوجها أى دون أنْ يجامعها ويعاشرها يقول تعالى عنها: ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) ﴾ [الأحزاب] فيذكر الحق سبحانه فى حقها لفظ التسريح، وهو لفظ يعبر عن المفارقة دون ألم يُذكر فى كلا الجانبين.

فالمرأة التى لم تُمس وتُطلَّق دون مسيس لا يجد الرجل شيئاً فى نفسه إنْ طلقها، ولا يجد تعلقاً بها ولا رغبة فيها، لذلك لابد أن يكون تسريحه لها سراحاً جميلاً لأنها لا شك متألمة أشد الألم.

ثم إنها ليست لها عدَّة لأنها طُلِّقت قبل الدخول بها وقبل الخلوة بها خلوة شرعية، فحقَّ لها أنْ تتزوج فوراً إنْ جاءها مَنْ يخطبها ليُطيِّب خاطرها، بل تُعطى أيضاً نفقة متعة تعويضاً لها عما أصابها من ألم نفسيٍّ.

أما المرأة المطلَّقة بعد الدخول بها، فيقول الحق سبحانه عنها: ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق] وكأنَّ الحق سبحانه يُذكِّر الرجل والمرأة معاً بأنه سبحانه جمع بينهما فى رباط الزوجية، وقال ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]، وقال: ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ .. (٢١) ﴾ [النساء]

والإفضاء معناه أنكم دخلتم معاً أوسعَ مداخلة، وحسْبُك من قمة المداخلة أن عورتها التى تسترها عن أبيها وعن أخيها وحتى عن أمها وأختها تُظهرها لك.

ولا يوجد إفضاء أكثر من هذا ودخلت معها فى الاتصال الواسع، أنفاسك، ملامستك، مباشرتك، معاشرتك، مدخلك، مخرجك، فى حمامك، فى المطبخ، فى كل شيء حدثتْ إفضاءات.

وأنت ما دُمتَ قد أفضيتَ لها ، وهي قد أفضتْ لك فقد حدثتْ المداخلة الشاملة ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة] هنا عندما يُطلق الرجلُ زوجته بعد أن أفضى بعضهم إلى بعض وتداخلا هكذا ، يقول تعالى : ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق]

فيستخدم الحق سبحانه لفظ التفريق لا التسريح ، وكأن الحق سبحانه يُذكِّره بما كان بينه وبينها من حميم العلاقات ومن حبهما لبعضيهما ، فيستخدم لفظاً شديداً (فارقوهن) كأنه يقول له : تذكَّرْ أنك ستفارق ما أحببته ، وكأنه يحثُّه على مراجعتها .

وإنْ كان لا بدّ من المفارقة فليكُنْ فراقاً لا محذورَ فيه ، من غير تشاتم ولا تخاصم ولا قهر لها على أخْذ شيء من مالها ، بل يُطلِّقها على وجه جميل وسبيل حسن .

ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه قد قدَّم الإمساك والمراجعة على المُضيِّ في المفارقة ، وهذا إشارة إلى أن الإمساك أرضى لله تعالى وأوفق بمقاصد الشريعة ، فالمراجعة مندوب إليها لأن أبغض الحلال عند الله الطلاق .

ولا بد أن يكون إمساكاً مأذوناً فيه ، بمعنى أنه إمساك مقيد بأن يكون بالمعروف ليس فيه إضرار .

ومن المفارقة بالمعروف الإشهاد على الرجعة ، فإذا أراد مراجعتها قبل أنْ تنقضي عدّتها أشهد على ذلك رجلين عند الطلاق وعند المراجعة ، فإنْ راجعها فهي عنده على تطليقتين ، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدَّتها فقد بانتْ منه واحدة ، وهي أملَكُ بنفسها ثم تتزوج مَنْ شاءت هو أو غيره .

وكلُّ مَنْ راجع في العدة فإنه لا يلزمه شيءٌ من أحكام النكاح غير الإشهاد على المراجعة فقط ، فذكر الإشهاد في المراجعة ولم يذكره في النكاح ولا في الطلاق .

وفائدة الإشهاد ألاَّ يقع بينهما التجاحد ، وألاَّ يُتهم فى إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدَّعى الباقى ثبوت الزوجية ليرث .

وإنْ سأل أحد : كيف نأتى بذوى العدل ؟ ونقول : انظر إلى عدالتهما فى نفسيهما وَلْنَرَ تصرفات الإنسان هل هى مستقيمة أو لا ؟ وهل هو مسرف أو معتدل سواء فى الطعام أو الغضب ، أو فى أيِّ لون من ألوان السلوك ؟

ومَنْ كان مأموناً على نفسه فهو مأمون على غيره ، ويجب كذلك أنْ يكون من ذوى الخبرة فى هذا الأمر .

وإذا كان الحقُّ قد أمرنا أنْ نختار ذوى العدل للحكم فى رقبة شاة[1] ، فما بالنا برقاب الناس ومصالح الناس ؟

ونحن إذاً مطالبون بأنْ نميز ذوى العدل بين الناس من خلال مراقبة حركة الإنسان مع نفسه وعلى نفسه وعلى أهله ، وعندما نكتشف أنه صار مأموناً على نفسه ، هنا نستطيع أنْ نُوليه أمور غيره بالخدمة العامة ، وذلك حتى لا تخيب الأمة ، فالأمم إنما تخيب باختيارٍ غير مدروس لقيادات المواقع المختلفة فيها .

ومعنى : ﴿ ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] أى اللذان يُرضى دينهما وأمانتهما وعدالتهما ، والعدالة هى الاعتدال فى الأحوال الدينية ، وذلك بأنْ يكون مجتنباً للكبائر محافظاً على مروءته وعلى ترْك الصغائر ، ظاهر الأمانة غير مغفل ، وأنْ يتسم بصفاء السريرة واستقامة السيرة .

وآيات القرآن فى الإشهاد والاستشهاد منها المطلق ومنها المقيد . قال تعالى فى اللاتى يأتين الفاحشة من المسلمات ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ

---

(١) وذلك إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ .. (٩٥) ﴾ [المائدة] ..

فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ .. (١٥) ﴾ [النساء] فجاء قيد (منكم) .

وقال تعالى فى شأن المطلّقات المعتدات : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُم .. (٢) ﴾ [الطلاق] فجاء قيد (منكم) .

أما فى آية التداين فقال : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] ثم قال فيها: ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

فلم يقيد الإشهاد أو الاستشهاد بالعدل ولا بـ (منكم) ، أى من المسلمين . وكذلك لم يضع هذين الشرطين .

فالحق سبحانه اشترط فى الاستشهاد أو الإشهاد فى الوقائع المتعلّقة بأمور المؤمنات الشخصية أنْ يكون الإشهادُ من المؤمنين ولم يذكر هذا القيد فى الإشهاد على دفع أموال اليتامى إليهم ، ولا فى الإشهاد على البيع ، والفرق بين الأحكام المالية المحضة وأحكام النساء المؤمنات جليّ واضح .

ولكن مجموع الآيات على أن الأصل أو الكمال فى الإشهاد أن يكون الشهودُ من عدول المؤمنين للثقة بشهادتهم والاحتراز من الكذب والزور والخيانة التى يكثر وقوعها ممَّنْ لا ثقةَ بأيمانهم وعدالتهم .

أما الإشهاد على الأمور الخاصة بنساء المسلمين وبيوتهم إذ لا يحتاج فيها إلى غيرهم وليس من شأن سواهم أنْ يعرفها ولوجوب الاحتياط فيها .

أما قوله تعالى : ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] ففيه توسعة عظيمة فى الإشهاد ، فكثيرٌ من الجنايات والعقود والإقرار قد تقع من بعض المسلمين على مرأىً ومسمع من غيرهم ، وقد يكون هؤلاء الذين سمعوا ورأوا من أهل الصدق والأمانة ، لأن دينهم يحرم الكذب والخيانة .

وليس كلّ أحد صالحاً للشهادة ،ولقبول شهادة أحد هناك شرائط عشرة ، وهو أن يكون حُراً بالغاً مسلماً عدلاً عالماً بما شهد به ، ولم يجرّ بتلك الشهادة منفعة إلى نفسه ، ولا يدفع بها مضرَّة عن نفسه ، ولا يكون معروفاً بكثرة الغلط ، ولا بترك المروءة ، ولا يكون بينه وبين مَنْ يشهد عليه عداوة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ .. (٢) ﴾ [الطلاق] فإذا شهدتم على شيء فأقيموه ، ومن إقامة الشهادة أنْ لا تشهد إلا على مثل الشمس أو دَعْ[1] ، فلا تشهد على شهادة حتى تكون الشهادةُ عندك أضوأ من الشمس .

ومن إقامتها أنْ تشهد بها تقرّباً إلى الله في إقامتها على وجهها إذا مسَّتْ الحاجة إليها من غير تبديل ، ولا تغيير ولا كتمان .

وليكُنْ أداؤها ابتغاءَ وجه الله فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً ، وقد قال تعالى عن القائمين بشهاداتهم ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) ﴾ [المعارج]، ثم قال ﴿ أُولَـٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥) ﴾ [المعارج]

وهم الذين لا يشهدون إلا بما يعلمونه ، ولا يُحابى فيها قريباً ولا صديقاً ولا نفسه ، رفيعاً كان أو وضيعاً ، ولا يكتمونها ولا يُغيرونها .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] ، فما دُمتَ قد دُعيتَ للشهادة فلا يسعْكَ إلا المبادرة إلى الشهادة ، أما إذا لم تُدْعَ إلى الشهادة فالشهادة حينها على ثلاثة أقسام :

- حقوق الناس ، فلا يجوز أداء الشهادة حتى يدعوه صاحب الحق إلى ذلك.

- حقوق الله ، التي يُستدام فيها التحريم كالطلاق والعتق ، فيجب أداء

---

(١) عن ابن عباس قال : سئل النبي ﷺ عن الشهادة . قال : هل ترى الشمس ؟ قال : نعم . قال : على مثلها فاشهد أو دع . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٦٩) ومحمد بن يحي المزكي النيسابوري في المزكيات (٢١) وأورده المتقي الهندي في كنز العمال (١٧٧٨٢) وأورده الحافظ ابن حجر العسقلاني في بلوغ المرام (١٤٠٥) ، وقال : أخرجه ابن عدي بإسناد ضعيف وصححه الحاكم فأخطأ .

الشهادة بذلك دُعِى أو لم يُدْعَ .

– حقوق الله التى لا يُستدام فيها التحريم كالحدود ، فهذا ينبغى سَتْره حتى يُدعَى إليها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]

قوله ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] ذا وحدها للإشارة و « الكاف » للخطاب، والخطاب إذا أُفرد فالمراد به خطاب الله لرسوله ، والمؤمنون فى طى ذلك الخطاب ، فيقول (ذلك) .

ومرة يقول ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] أى : أنه سبحانه يخاطبنا نحن ، والميم للجمع . مثل ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

واللام للبُعد والميم للجمع . فحين يريد الحق أنْ يخاطب رسوله يقول : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة] ، ولكنه هنا يخاطبنا فيقول ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] إشارة إلى كل ما سبق من أحكام الطلاق والعدَّة وإحصائها وعدم إخراج المعتدَّة من بيت الزوجية حتى تنقضى عِدَّتها .

وكذلك عدم تعدِّى الحدود التى حدَّها الله بأنْ لا يخرجْنَ إلاَّ أنْ يأتينَ بفاحشة مبيِّنة .

ومما يشير الله سبحانه إليه هو الإمساك بالمعروف إنْ وفَّقه الله لأنْ يمسك زوجته قبل انتهاء عِدّتها ، وليكُنْ هذا بالمعروف والإحسان دون قهر أو إذلال أو قصد الإضرار بها .

حتى إنْ عزما الفراق فليكُنْ هذا بالمعروف دون شَتْم أو أكل حَقٍّ لها عندك، ولا بد أنْ تشهد ذوى عدل من المسلمين على الطلاق وعلى الرجعة ليكون هذا

رادعاً لكلا الطرفين من التلاعب أو ادعاء غير الحقيقة .

ومما يُوعظون به إقامة الشهادة لله ، فيقول تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ .. (٢) ﴾ [الطلاق] ومعنى (أقيموا الشهادة) أى : أدّوها على الوجه الأكمل وأدوها على ما أحبّ منكم فى أدائها .

وإقامة الشيء أداؤه على الوجه الأكمل الذى يُؤدِّى غايته ، فالشهادة المطلوبة هى الشهادة المستوفاة الشروط والتى تقيمها كما يريدها مَنْ شرعها .

ومعنى إقامة الشهادة لله أنْ تجعل وجهتك لربك وحدك ، ولا تلتفت عنه يميناً ولا شمالاً .

ويقول تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ[1] بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾ [النساء]

واللى هو التحريف أى تُحرِّفوا الشهادة وتُغيِّروها فإنَّ الله بما تعملون خبير، أو أن يُعرض الشخص عن أداء الشهادة لأنه يخاف من المشهود عليه ، لأن الشهادة ترجِّح حكم المشهود له ، لهذا فهو يُعرض عن الشهادة .

وإنْ جاء للشهادة فهو يلفّ الكلمات ويلوى لسانه بها ، لذلك قيل : الذى يُفسد العدل هو الهوى ، والهوى عمل القلب ، لذلك نحتاج إلى خبرة الخبير اللطيف .

وقد قال تعالى أيضاً : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ[2] شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) القوَّام : مبالغة من قائم . والقسط : العدل . قال ابن عباس : كونوا قوّالين بالعدل فى الشهادة على من كانت ولو على أنفسكم . [زاد المسير لابن الجوزى] .

(٢) لا يجرمنكم : لا يحملنكم . أو لا يدخلنكم الجرم . (شنآن) : بُغض قوم . [زاد المسير] قال الشوكانى فى فتح القدير : لا يحملنكم بغض قوم على الاعتداء عليهم .

خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [المائدة]

فتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات ، ولو أن المجتمع حينما يرى أن شهادة أفراده هى شهادة بالقسط وشهادة بالعدل ، فإن كلَّ فرد فى المجتمع إذا همَّ بظلم يرتدع قبل أنْ يفعل الظلم .

والمؤمن مطالب بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومطالب ثانياً أنْ يشهد بالقسط والعدل لإصلاح غيره .

والهدف هو أنْ تأتى الشهادة على الوجه الصحيح لها ، والشهادة تُطلق على أى أمر نحضره ، والشهادة تطلق على متلازمات متعددة يجمعها كلها « الحضور » كقوله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ[1] يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الحج]

وما دام الشاهدُ صادقاً فلن يخشى محاورة أى طرف يسأله ، وما دامت الواقعة صادقة تظل كما هى مهما تنوعتْ الأسئلة وتغيرتْ الأساليب ، فالشاهد الصادق يستوحى واقعاً لا يتغير ، أما الشاهد الكاذب فهو يلفّ ويدور ويُغيِّر من أقواله .

والشهادة هى الفيصل من التنازع ، ولذلك يُوصى النبى ﷺ ألاَّ يشهد الرجل على أمر إلا بعد أنْ يكون قد رآه رأى العين كما يرى الشمس « على مثلها فاشهد أو دَعْ » .

والشهادة تتطلب أمرين : الأول هو حضور الشاهد لحظة وقوع المشهود به. والثانى هو أمانة النقل .

---

(١) ضامر : بعير أو فرس مهزول من بُعْد الشُّقة . فهى جمال هزيلة قد هزلت من طول السفر ، وقد ضمر جنباه من كثرة ما سيق إلى البيت أى اشتد عليه الحمل والركوب والسير إلى أن وصل إلى البيت العتيق فضمر جنب الدابة فسُمى ضامراً .

وقــال تعــالى : ﴿ ذَٰلـكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُـوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَـا .. (١٠٨) ﴾ [المائدة]
والشــاهد والشــهيد هــو الذى يُرجــح حكم الحق ، فــإذا ظهر أمر مــن الأمور فى حياتنــا الدنيا الذى نحتاج إلى حكم فيهــا ، فنحن نرفع الأمر الذى فيه خلاف إلى القاضى فيقول : هـاتوا الشهود .

ويستجوب القاضى الشهود ليحكم فى ضوء الشهادة .

وإقامة الشـهادة تعنى أيضــاً أنْ تكون الغاية النهائية فى الشهادة وفى كل عمل هى ابتغاء مرضــاة الله ســبحانه ، فاقصــد فى كل شــهادة تشــهدها وجه الله.

﴿ ذَٰلِكُــمْ يُوعَــظُ بِهِ .. (٢) ﴾ [الطلاق] فهذا تشريــع ربكم ، وهو موعظة لكم يــا مَنْ تؤمنــون بــالله رباً حكيماً مشرعاً وعالماً بنوازع الخير والشر فى نفوس البشر .

والموعظة تعنى ألاَّ تُنشــيء حكماً للســامع ، بل تعظــه بتنفيذ مـا عُلم له من قبــل ، ولذلــك يُقال : واعظ وهو الذى لا يُنشــيء مســائل جديدة ، بــل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويعظه بما يعلم .

ولأنهــا موعظــة قادمــة من ربكم فلا بدَّ مــن الالتفات والانتبــاه ، وهى من كمــالات التربيــة ، فالموعظة نوع مــن التربية جاءت من ربكــم الأمين عليكم، فالموعظة هنا تأتى ممَّنْ يعطى ولا ينتظر منك شــيئاً ، فهو ســبحانه مُنزَّه عن الغرض لأنه لن ينال شيئاً منك ، فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه .

والموعظــة بالمنهج تخصُّ العقلاء الراشــدين لأن حركة العاقل الراشــد تمرُّ علــى عقلــه أولاً ويختــار بين البدائــل ، أما حركة المجنون فهــى غير مرتَّبة ولا منسَّقة ولا تمر على عقله لأن عقله مختلّ الإدراك ، وفاقدٌ القدرة على الاختيار بين البدائل .

والعاقل الراشد هو الذى يُوعظ بما يُقال له ويُوعظ به ، فلا يُعرض عن الموعظة ، ولا يبعد عن منهج الله وشرعه الذى شرعه فى علاقاته الاجتماعية مع زوجه وطليقته .

﴿ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (٢) ﴾ [الطلاق] فمَنْ يؤمن بالله يعرف أن للإيمان مطلوباً ووراءه مسئولية عملية ، وأن من مقتضى الإيمان بالله أنْ تعمل بمراده وتأخذ بمنهجه .

فحين تدخل إلى الإيمان مختاراً يجب أنْ تلتزم بعهد الإيمان ، وأول شيء استؤمنتَ عليه عهد الإيمان بالله الذى أخذه الله عليك ، وما دُمت قد آمنتَ بالإله فعليك أنْ تُنفِّذ أوامره .

والحق سبحانه بدأ هنا ببداية الإيمان وهو الإيمان بالله ، ثم يأتى بعد ذلك بنهاية الإيمان وهو ضرورة الإيمان بـ (اليوم الآخر) ، فبداية القوس هو الإيمان بالله ، وطرفه الأخير الإيمان باليوم الآخر .

والإيمان باليوم الآخر يأتى بأنْ تؤمن بالله ثم تؤمن بما يخبرك به الله ، فالإيمان بالله أولاً ، وبعد ذلك الإيمان بما أخبرنى به الله .

فهذا الذى أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة إنما يأتمر به مَنْ يؤمن بالله وأنه شرع هذا ، ومَنْ يخاف عقاب الله فى الدار الآخرة .

فإنَّ مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر يتعظ بمواعظ الله ويُقدِّم لآخرته من الأعمال الصالحة ما استطاعه بخلاف مَنْ ترحل الإيمان عن قلبه فإنه لا يبالى بما أقدم عليه من الشر .

وخَصَّ الله تعالى المؤمن بالله واليوم الآخر لأنه المنتفع بذلك دون غيره ، فالوعظ التحذير مما يضرّ والتذكير المُلين للقلوب ، وقد قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ

وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿ (٢٣٢) ﴾ [البقرة]

والحق سبحانه هنا يقول ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ .. (٢٣٢) ﴾ [البقرة] بالإفراد فى (ذلك) ، أما فى سورة الطلاق ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ .. (٢) ﴾ [الطلاق] بالجمع فى (ذلكم) .

ففى سورة البقرة يخاطب شخصاً واحداً أو صنفاً واحداً ، وهو الذى يعضل المطلَّقة التى بانت من زوجها بينونةً صغرى بأن انقضت عِدَّتها ، فهو يعضلها أنْ تعود زوجة مرة أخرى لزوجها الأول بعقد جديد ومهر جديد .

أما فى سورة الطلاق فالحق سبحانه يخاطب متعددين بأوامرَ ونواهٍ مختلفة، يخاطِبُ المطلّق بأنْ يُطلِّق المرأة لعدَّتها ، وأنْ يُحصى العدة ، وأنْ لا يُخرجها من بيتها ويخاطب المطلَّقة بأنْ تُحصى عِدَّتها ، وأنْ لا تخرج من بيتها .

يخاطب مَنْ يريد أنْ يراجع امرأته فى عِدَّتها أنْ يُمسكها بالمعروف أو يُفارقها بالمعروف ، ويخاطبه كذلك بأنْ يشهد ذوى عدلٍ منكم على رجعته، ويخاطب الشهود أنْ يقيموا الشهادة لله ، ثم قال :﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (٢) ﴾ [الطلاق]

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]

ولكل آية من آيات القرآن مقام ومنزلة ومكانة ، منها هذه الآية التى جاءت فى سياق الكلام عن أحكام الطلاق والعدَّة وسُكْنى المطلَّقة وعدم إخراجها ، ولكنها آية عامة تعم كل مَنْ كان فى ضيق وهمٍّ وكرب .

لذلك قال رسول الله ﷺ[1] : « إنى لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم ﴿ وَمَنْ

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٢٠) والنسائى فى سننه الكبرى (١١٥٣٩) والحاكم فى مستدركه (٣٨١٩) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، والدارمى فى مسنده (٢٧٦٧) وأحمد فى مسنده (٢١٥٩١) وزاد فيه : فجعل يتلو بها ويرددها عليَّ حتى نعستُ .

يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]

فهى كافية لعباد الله عن اللجوء أو التذلل لغيره ، لأنها آية تفتح باب الأمل لكلِّ مهموم وحزين ، أو مَنْ ضاقت عليه الدنيا .

ويقول تعالى مخاطباً مَنْ آمن به : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] . وفرقاناً هنا هى المخرج الذى يجعله الله لمن اتقاه، وهو أيضاً النجاة ، وهو أيضاً النصر ، وهو الهدى فى قلوب المتقين .

فالتقوى تُنجي المؤمن وتنصره على ذاته وعلى قلقه على ما هو فيه وعلى رزقه ، فأنت عندما تتقى الله فهو سبحانه يجعل لك مخرجاً ، وعليك أنْ تترك كلَّ عمل فيه معصية لله ، وانظر إلى يد الله الممدودة لك بخيره .

وهذه مسألة تحدث لمن يتقى الله ، فما دام يأخذ بالأسباب ويتقى الله فسوف يجد فى لحظة من لحظات الكرب أنَّ الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب، لأن الله هو الرصيد النهائى للمؤمن .

فإذا فقدتَ الأسباب وضاقتْ بك الحيل لم يبْقَ لك إلاَّ أنْ تلجأ إلى المسبِّب سبحانه ، فمَنْ ضاقت به أسبابه فى حياته فليلجأ إلى الله فإنه لن يجد مخرجاً إلا عنده .

ومخرجه أنه يعلم أنه قَبل أمر الله ، وأن الله هو الذى يعطيه ، وهو يمنعه ، وهو يبتليه ، وهو يعافيه ، وهو يدفع عنه .

وقد ذكر عبادة بن الصامت[1] أن بعض آبائه طلَّق امرأته ألفاً فانطلق بنوه إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله إن أبانا طلَّق أمنا ألفاً فهل له من

---

(١) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى أبو الوليد صحابى من الموصوفين بالورع وُلد عام ٣٨ ق. هـ شهد العقبة وكان أحد النقباء وبدراً وسائر المشاهد ثم حضر فتح مصر . وهو أول من ولى القضاء بفلسطين ومات بالرملة أو ببيت المقدس عام ٣٤ هـ عن ٧٢ عاماً [الأعلام للزركلى ٣/٢٥٨] وكان أسود يفوق طوله المترين .

مخـرج؟ فقـال : إن أباكـم لم يتـق الله فيجعل لـه مـن أمره مخرجـاً ، بـانتْ منه بثلاث على غير السُّنة ، والباقى إثم فى عنقه[1] .

وقد سـأل رجلٌ ابنَ عباسٍ رضـى الله عنهما عن أنه طلَّق امرأته مائة ، فقال لـه ابـن عباس[2] : عصـيتَ ربك ، وبـانـتْ منك امرأتُك ، ولم تتـق الله فيجعل لك مخرجاً . وقرأ هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]

فمَـنْ يخـفِ الله فيعمل بما أمره به ويجتنب مـا نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجاً ، فالمطلق إذا طلَّق جعل الله لـه عدَّة المرأة مخرجاً للمراجعة ، وحتى إذا انقضـتْ عدّتها دون أنْ يراجعها ثم طلبتها نفسـه وأرادها جعل الله له مخرجاً بأنْ جعل لـه السبيل إلى خطبتها ونكاحها .

أما إذا طلَّقها ثلاثاً فلم يكُنْ له إلى ذلك سبيل .

فمَنْ يتق الله يجعل له من أمره يُسْراً . قال : يعنى بالمخرج واليُسْر ما قلناه من أنه إذا طلَّق طلقة واحدة ثم سـكت عنها ، فإنْ شـاء راجعها بشهادة رجلين عدلين ، وإنْ مضتْ عدَّتها ولم يراجعها كان خاطباً من الخُطّاب .

فالتقـوى هنا مع إيمانـه بالله واليوم الآخر تجعله يخـاف من الله أنْ يتخذ الطلاق لعبةً فيُطلِّق امرأته طلقةً عند كلِّ حيضـة فقد أخطأ السـنة وعصى الرب وأخذ بالعُسْر ، فمن أين له بالمخرج ؟

فمَنْ يتق الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يجعل له مخرجاً من المعصية إلى الطاعة ، ويُقال : من الحرام والشبهات إلى الحلال . وقيل : يجعل له مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الدنيا ومن شدائد يوم القيامة .

---

(١) أخرجه الدارقطنى فى سننه (٣٩٤٣) من حديث عبادة . قال الدارقطنى : رواته مجهولون وضعفاء كلهم إلا شيخنا (أبو محمد بن صاعد) وابن عبد الباقى . وقد أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧٧٧٢) ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال لعبادة : « أما اتقى الله جدك ، أما ثلاثة فله ، وأما تسعمائة وسبعة وتسعون فعدوان وظلم ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له» .

(٢) أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى (١٥٣٧٣) وسعيد بن منصور فى سننه (١٠٦٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٩٩٤) من حديث ابن عباس .

فاحذر من مخالفة منهج الله سبحانه ، لأن المخالفة تنافى التقوى ، فالتقوى هى أنْ تتقى معضلات الحياة ومشكلاتها بأنْ تلتزم منهج الله ، وساعة ترى منهجَ الله وتطبقه فأنت اتقيت المشكلات .

أما مَنْ يُعرض عن تقوى الله فإنَّ الله يقول عن مصيره ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه]

ولا يظن أحدٌ أن التقوى هى اتقاء النار ، لا إنها أعم من ذلك ، إنها اتقاء المشكلات والمخاطر التى تنشأ من مخالفة منهج الله .

فالذى يجعل الحياةَ مليئة بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التى نسُنّها لأنفسنا ونعمل بها ، ولكن إذا أخذنا تقنين الله لنا فمعنى ذلك أننا نتقى المشاكل .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه] أى أن حياته تمتلىء بالهموم والمشاكل لأنه يخالف منهج الله، أما المتبع للمنهج فإنه يأخذ نفعه ساعة تأدية هذا المنهج .

والضَّنك هو الضيق الشديد الذى تحاول أنْ تفلت منه هنا أو هناك فلا تستطيع ، والمعيشة الضنك هذه تصيب مَنْ أعرض عن الله ، لأن مَنْ آمن بالله إن عزَّتْ عليه الأسباب لا تضيق به الحياة أبداً ، لأنه يعلم أن له رباً يُخرجه مما هو فيه .

أما غير المؤمن فحينما تضيق به الأسباب وتُعجزه لا يجد مَنْ يلجأ إليه فينتحر ، وليس الضنك والضيق هو الفقر والحاجة فقط ، إنما له صور أخرى، فهناك مجتمعات راقية مادية ومعيشياً طعاماً وشراباً وترفاً ، ففى السويد –مثلاً– أعلى نسبة انتحار ، وأعلى نسبة شذود رغم أنها أعلى دول العالم دخلاً.

فلا تقيسوا مستوى التحضر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ فى حسبانك كلَّ

النواحـى الأخرى ، فمـن أتقن النواحى المادية الدنيويـة أخذها وترف بها فى الدنيـا ، أما الصـلاح الدينى والخلقى والقيمى فهو سـبيلٌ لـترف الدنيا ونعيم الآخرة .

وهـذه الآية ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًـا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] البعض أخذها على أنها آيةٌ عامة فى كلّ أمر يصيبك بالضيق، وتحتاج فيه للخروج منه إلى مخرج ، ولم يُخصِّصها بأمر الطلاق .

فعـن ابن عباس رضـى الله عنهمـا قال : جاء عوف بن مالك الأشـجعى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسـول الله إن ابنى أسره العدو وجزعتْ الأم ، فما تأمرنى؟ قال : اتقِّ الله واصـبر . وآمرك وإياهـا أنْ تسـتكثر من قول : لا حوْلَ ولا قوة إلا بـالله .

فانصرف إليها وقالت : ما قال لك النبى ﷺ ؟ قال : أمرنى وإياك أنْ نستكثر مـن قـول : لا حول ولا قوة إلا بـالله . قالت : نِعْم ما أمرك بـه ، فجعلا يقولان ، فغفل عنه العدو فسَاقَ غنمهم فجاء بها إلى أبيه وهى أربعة آلاف شاة .

فنزلتْ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] ما ساق من الغنيمة[1].

ويُحكى أنَّ رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ولِّنى ما ولاَّك الله . قـال : أتقـرأ القـرآن ؟ قال : لا . فقال : إنَّا لا نُولى مَنْ لا يقرأ القرآن . فـانصرف الرجل واجتهد فى تعلّم القرآن رجاء أنْ يعود إلى عمر فيولّيه عملاً .

فلمـا تعلّـم القرآن تخلَّف عـن عمر ، فـرآه ذات يوم فقال : يا هـذا هجرتنـا . فقـال: يا أمير المؤمنين لسـتَ ممَّـنْ يُهْجَر ، ولكنى تعلمتُ القـرآن فـأغنانى الله

(١) رواه الثعلبى فى تفسيره بسنده إلى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس . أورده الزيلعى فى تخريج أحاديث الكشاف (٥٢/٤) .

تعالى عن عمر وعن باب عمر[1].

فقال : أيّ آية أغنتْك ؟ فقال : قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

والله تعالى جعل للتقيِّ مخرجاً من كلِّ ما يضيق عليه ، ومَنْ لا يتقى يقع فى كلِّ شدة .

فمَنْ يلتزم حدود الله ويراقب ربَّه ويخشى سلطانه يجعل له مخرجاً مما هو فيه من معاناة وضيق ، فإذا اتقى الله ولزم حدوده اختار له الله سبحانه الطريق المستقيم ، الذى يتبدَّل فيه حاله من ضيق إلى سعة ، ومن همٍّ إلى فرج، سواء كان ذلك بإمساك الزوجة أو فراقها ، أو فى أى أمر من أمور الحياة يعرض له .

فالتقوى هى المخرج من الشدائد ، والتقوى ظاهر وباطن ، فالظاهر ما يحل بظاهر البدن ، وهو المحافظة على حدود الله تعالى فلا يتجاوز شيئاً منها ما استطاع ، وإذا أُكره يبادر حالاً للاستغفار والرجوع .

والباطن ما يحلّ بباطنه من الإخلاص فى العمل وحُسْن النية ، وقد اتفقتْ الأمة على فضلها ولزوم التحلى بها وعدم مرافقة غير أهلها ، فالذى يريد أنْ يحيا حياةً طيبة فعليه أنْ يقضى حياته مع المتقين كى يكون حَيَّ القلب ، دائمَ اليقظة ، بعيداً عن الغفلة .

والتقوى تُورث خشية الله ، وخشية الله تمنع صاحبها من كلِّ سوء .

وقد ضمن الله للمتقين أنْ يجعل لهم مخرجاً مما يضيق على الناس ، فإذا لم يحصل ذلك دلَّ على أن فى التقوى خللاً فليستغفر الله وليتُبْ إليه .

---

(١) أورده الثعلبى النيسابورى فى الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/٣٣٨) سورة الطلاق . وكذا أورده شمس الدين الشربينى فى تفسير السراج المنير (٤/٢٢٧) . وكذا البقاعى فى (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور)(٨/٣١) .

والله يجعل لك من كلِّ ضيق مخرجاً إنِ اتقيته ، والضيق أنْ يتضاءل الشيءُ الواسع أمامك عما كنتَ تُقدِّره ، والضيق يقع للإنسان على درجات فقد تضيق به بلده فينتقل إلى بلد آخر .

وربما ضاقتْ عليه الدنيا كلها ، وفى هذه الحالة يمكن أنْ تسعه نفسه ، فإذا ضاقتْ عليه نفسه فقد بلغ أقصى درجات الضيق ، والذى يضيق بأمرٍ ما ، هو الذى لا يجد فى مجال فكره وبدائله ما يخرج به من هذا الضيق ، إنما الذى يعرف أنَّ له منفذاً ومخرجاً فلا يكون فى ضيق .

ولذلك يقول : لا كرب وأنت رب ، فساعة أنْ تضيق بك الدنيا والأهل والأحباب، وتضيق بك نفسك فليسعك ربك ولتكن فى معيته سبحانه .

لذلك قال تعالى بعد ذلك واصفاً مَنْ ينجون من هذا الضيق ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل]

فالله فى معية مَنْ اتقاه ، فمَنِ اتقى الله فهو فى جواره ومعيته ، وإذا كنتَ فى معية ربك فكيف يجرؤ عليك ضيق ، والتقوى فى معناها العام طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه .

كذلك مَنْ وقع فى ضيق بسبب مشاكله مع امرأته حتى وصل الأمر إلى الطلاق فإنه إذا كان مُتقياً لله يجعل له الله مخرجاً يُخرجه مما هو فيه ، ويحفظ عليه بيته وزوجه وأولاده ، فمن اتقى الله فى امرأته وأولاده هداه الله إلى طريق يستطيع بها إصلاحهم لا كسْرهم وتشتيتهم .

فالأساس فى أمور الزواج هى التقوى وخشية الله ، وهذا يمنع شروراً كثيرة، وأيضاً مَن احتكمت معه الأمور فاضطر إلى التطليق فليكُنْ الطلاق كما أمر الله، أى لا يكون فى حيضة المرأة بل فى طهرها منه ، وهذا يعطى فرصة للتعقّل وتدبُّر الأمر وتداركه .

وحتى إذا طلَّقها فى طهر فله أنْ يراجعها فى عِدَّتها ، وقد جعل الله الفرصة أكبر بعدم إخراج المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً من بيت الزوجية ليكون المجالُ أوسعَ للتراضى والتقارب والهدوء فيراجعها ويرأب الصدع .

حتى مَنْ كان جاهلاً بتحريم طلاق البدعة فلم يعلم أنَّ الطلاق فى الحيض محرَّم أو أنَّ جمع الثلاث محرم ، فهذا إذا عرف التحريم وتاب صار مِمَّنْ اتقى الله فاستحقَّ أنْ يجعل الله له مخرجاً .

والأمر يحتمل معنى آخر ، فمَنْ طلَّق امرأته قد يكون طلَّقها اضطراراً لسبب يعود إليها هى ، ومعه منها أولاد فتضيق به الدنيا هو وأولاده، حينها لا بد أنْ يعلم أن الله سيجعل له مخرجاً بأنْ يُهيء الله له زوجة أخرى تحفظ عليه حياته وتحفظ له أولاده .

وسيرزقه الله حتماً من حيث لا يحتسب ، مصداقاً لقوله تعالى فيما بعد ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] يرزقه فرجاً ، ويرزقه زوجة، ويرزقه مالاً إنْ كان فقره هو سبب الطلاق ، ويرزقه صحةً إنْ كانت صحته العليلة هى سبب طلاقه لامرأته .

ولكلِّ آية من آيات القرآن مقام ومنزلة ومكانة ، منها هذه الآية التى جاءت فى سياق الكلام عن أحكام الطلاق والعدة وسُكْنى المطلقة وعدم إخراجها ، ولكنها آية عامة تعم كل مَنْ كان فى ضيق وهَمٍّ وكرب .

لذلك قال رسول الله ﷺ : « إنِّى لأعلم آيةً لو أخذ بها الناس لكفتْهم »[1] . فهى كافية لعباد الله عن اللجوء أو التذلّل لغيره ، لأنها آية تفتح باب الأمل لكلِّ مهموم وحزين، أو مَنْ ضاقت عليه الدنيا .

ويقول تعالى مخاطباً مَنْ آمن به : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٢٠) مختصراً ، وكذا أخرجه النسائى فى السنن الكبرى (١١٥٣٩)، والحاكم فى مستدركه (٣٨١٩) . وأخرجه مطولاً الإمام أحمد فى مسنده (٢١٥٩١) وابن حبان فى صحيحه (٦٦٦٩) .

فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] وفرقاناً هنا هو المخرج الذى يجعله الله لمن اتقاه ، وهو أيضاً النجاة ، وهو أيضاً النصر ، وهو الهدى فى قلوب المتقين .

فالتقوى تُنجى المؤمن وتنصره على ذاته وعلى قلقه على ما هو فيه وعلى رزقه ، فمَن اتقى الله والتزم بحدود الله ولم يتعدَّها رزقه الله من حيث لا يحتسب وجعل له مخرجاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾

فأنت عندما تتقى الله فهو سبحانه يجعل لك مخرجاً ، وعليك أنْ تترك كل عمل فيه معصية لله ، وانظر إلى يد الله الممدودة لك بخيره ، ولا تُدخل فى بطنك وبطن مَنْ تعول إلا مالاً من حق ، ومالاً بحركة شريفة نظيفة .

وليكن سند المؤمن دائماً قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

ويجب أنْ نفهم أيضاً أن قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (٢١٢) ﴾ [البقرة] ينسحب على معنى آخر وهو أنه سبحانه لا يحب أنْ تُقدر أنت رزقك بحساب حركة عملك فقط ، فحساب حركة عملك قد يخطيء.

فعلى الإنسان أنْ يعمل فى الأسباب ، ولكنه لا يأخذ حساباً من الأسباب ويظن أنْ ذلك هو رزقه ، لأن الرزق قد يأتى من طريق لم يدخل فى حسابك ولا فى حساباتك .

وقال الله في ذلك : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب فسبحانه يهبه مما فوق الأسباب ، وهذه مسألة تحدث لمَنْ يتقي الله ، أتحدى أنْ يوجد مؤمن ليس في حياته مثل هذه الأمور ما دام يأخذ بالأسباب ويتقي الله وسوف يجد في لحظة من لحظات كربه أنَّ الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب ، لأن الله هو الرصيد النهائي للمؤمن .

وهَبْ أنك سائر في الطريق وفي جيبك جنيه واحد ، وليس عندك غيره وضاع منك ، هل تحزن ؟ نعم سوف تحزن ، ولكن إنْ كان في بيتك عشرة جنيهات فحُزْنك يكون خفيفاً لضياع الجنيه ، ولو كان رصيدك في البنك ألفاً من الجنيهات فلن تحزن على الجنيه الذي ضاع .

ومَنْ له ربٌّ ويبذل الجهد في الأَخْذ بالأسباب سيجد الحلَّ والفرج من أيّ كرب بما هو فوق الأسباب ، وأنت لا تبحث عن رزقك بقدر ما يبحث هو عنك ، ويقول أهل المعرفة : رزقك أعلم بمكانك منك بمكانه ، يعني يعرف عنوانك .

أما أنتَ فلا تعرف عنوانه ، بدليل أنك قد تطلب الرزق في مكان فلا تُرزق منه بشيء ، وقد ترى الزرع زاهياً في الحقول تأمل فيه المحصول الوفير وتبني عليه الآمال ، فإذا بعاصفة أو آفة تأتي عليه ، فلا تُرزق منه حتى بما يسدّ الرمق .

والحق سبحانه يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، ولا يظُنّن إنسانٌ أنَّ عمله هو الذي سيرزقه ، إنما يرزقه الله بسبب هذا العمل ، فإن انتقل من عمل باطل إلى عمل آخر حلال فلن يضنّ الله عليه بعمل حق ورزق حلال ليقتات منه .

ولكن ما هو الرزق ؟ الرزق عند القوم هو كل ما يُنتفع به ، فكلُّ شيء تنتفع به هو رزق ، والناس يقصدون كلمة الرزق على شيء واحد يشغل بالهم دائماً وهو المال .

نقول لهم : إن الرزق هو كلُّ ما يُنتفع به ، فكلُّ شيء يكون مجاله الانتفاع يدخل في الرزق : علمك رزق ، وخلقك رزق ، وجاهك رزق ، وكل شيء تنتفع به هو رزق .

لكن الناس لا يفهمون الرزق إلا على أنه مال ، ولا يفهمون أنه يُطلق على كل شيء ينتفعون به .

والحق سبحانه يقول للمطلق والمطلقة إنْ حاولا كل الوسائل لعدم المفارقة ولكنهما لم يُفلحا ، فيقول تعالى : ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) ﴾ [النساء]

فسبحانه عنده الفضل الواسع ، وهو القادر على أنْ يرزق الزوجَ زوجةً صالحة تُشبع كلَّ مطالبه ، ويرزق الزوجة زوجاً آخر يُشبع كل احتياجاتها ويقبل دمامتها لو كانت دميمة ، ويجعله الله صاحب عيون ترى نواحي الخير والجمال فيها .

فإياك أنْ تظن أنَّ الله ليس عنده ما يريح كل إنسان ، فسبحانه عنده كل ما يريح كل الناس ، وصيدلية منهج الله مليئة بالأدوية، ومن الحكمة أنه سبحانه لا يُرغم اثنين على أنْ يعيشا معاً وهما كارهان لأنهما افتقدا المودة والرحمة فيما بينهما .

والله واسع عليم ، أي يتسع لكل مُلْكه ، لا يشغله شيء عن شيء ، لذلك عندما سُئل الإمام على كرم الله وجهه : كيف يحاسب الله الناسَ جميعاً في وقت واحد؟ قال : كما يرزقهم جميعاً في وقت واحد[1] .

فالله واسعُ فضله ، بمعنى أنه قادر على إعطاء الفضل لكلِّ الخلق ، ولن ينقص ذلك من فضله شيئاً .

---

(١) سئل الإمام على بن أبي طالب رضي الله عنه : كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرتهم [شرح نهج البلاغة للشريف الرضي – طبعة دار الشعب ص ٤٠٤ فقرة ٢٩٨] . وهناك زيادة : " فقيل : كيف يحاسبهم ولا يرونه فقال الإمام على : كما يرزقهم ولا يرونه " .

والرزق كما قلنا هو كل ما يُنتفع به ، فالقوة رزقٌ ، والعلم رزقٌ ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق ، والزوج رزق ، والزوجة رزق ، وكلُّ ما فيه حركة للحياة رزق .

فإنْ لم يكُنْ عندك مال لتنفق منه فعندك عافية تعمل بها لتحصل على المال ، وتتصدق منه على العاجز والمريض ، وإنْ كان عندك حلم فإنك تنفقه بأنْ تقى الأحمق من تصرفات قد تؤذى المجتمع وتؤذيك ، وإنْ كان عندك علم فلتنفقه لتُعلِّم الجاهل ولتعمل به أولاً .

والبعض قد يكون رزقه علماً وحكمة فى مواجهة مواقف تحدث فى بيوتنا ومع أزواجنا ، فالأمر يحتاج توفيق **الله** سبحانه حتى لا يقع فى مأزق مفارقة زوجته ، وهذا لا يكون إلا باتباع منهج **الله** وشرعه ، فى التعامل معها أو إمساكها بالمعروف ، أو حتى مفارقتها بالمعروف .

ولا يظُنّن أحدٌ أنَّ مفارقة الزوج أو الزوجة هو نهاية الحياة ، بل قد يكون بدايةَ حياة على أسس جديدة .

﴿ **مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى من حيث لا يدرى أو يُؤمِّل أو يرجو ، بل إنَّ **الله** يسبِّب له أسباب الرزق من حيث لا يشعر ولا يعلم .

حتى أن بعض العلماء قال : إذا اتقى وآثر الحلال والتصبُّر على أهله فتح **الله** عليه إنْ كان ذا ضيقة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، أى يرزقه من جهة لا تخطر بباله .

وفى هذا يروى أبو ذر رضى **الله** عنه حواراً دار بينه وبين رسول **الله** ﷺ قال: جعل رسول **الله** يتلو عليَّ هذه الآية : ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا** (٢) **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** .. (٣) ﴾ [الطلاق] حتى فرغ من الآية ، ثم قال : « يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم »

قال أبو ذر : فجعل يتلوها ويُردِّدها عليَّ حتى نعستُ ، ثم قال : يا أبا ذر

كيف تصنع إنْ أُخرجتَ من المدينة ؟ قلت : إلى السعة والدعة[1] ، أنطلق فأكون حمامة من حمام مكة ؟ قال : كيف تصنع إنْ أخرجت من مكة ؟ قال قلت : إلى السعة والدعة وإلى الشام والأرض المقدسة .

قال : وكيف تصنع إنْ أُخرجت من الشام ؟ قلت : إذاً والذى بعثك بالحق أضع سيفى على عاتقى ، قال : أو خيرٌ من ذلك ؟ قلت : أو خير من ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع وإنْ كان عبداً حبشياً[2] .

فمن توكل على الله لم تضِقْ نفسه أبداً ، فهو يعلم تماماً أن الله سيجعل له من كل ضيق مخرجاً ، وسيهيء له فرجاً لا يحتسبه ولا يظنه ، ولا يدرى من أين يأتيه ، فالله يُنجيه من كلِّ كرْب فى الدنيا والآخرة .

هذا اليقين أتى به رسول الله ﷺ فى وصيته لابن عباس رضى الله عنهما ، وقد كان ابن عباس غلاماً صغيراً ، كان عمره يوم وفاة النبى ﷺ ١٤ عاماً .

قال رسول الله : « يا غلام ، إنِّى مُعلِّمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعِنْ بالله ، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أنْ ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللهُ لك ، ولو اجتمعت على أنْ يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك ، رُفعت الأقلام وجفَّتْ الصحف »[3] .

ما كتبه الله سواء لك أو عليك هو ما سيكون ، كتبه سبحانه بموجب علمه تعالى ، فليكُنْ اعتمادك عليه وحده ، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إلهاً

---

(١) الدعة : السكون والراحة ولين العيش والرخاء والرفاهية . والدعة هى النَّعْمة المذكورة فى قوله تعالى ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(٢٧) ﴾ [الدخان] قال البغوى فى تفسيره (ونعمة) ومتعة وعيش ليِّن .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢١٥٩١) والطبرانى فى المعجم الأوسط (٢٤٧٤) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٦٦٩ ، ٢٧٦٣ ، ٢٨٠٤) ، والترمذى فى مسنده (٢٥١٦) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٢٥٥٦) ، والحاكم فى مستدركه (٦٣٠٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (١١٠٨٠ ، ١١٣٩٤) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (١٩٢ ، ١٠٤٣ ، ٩٥٢٨ ، ٩٥٢٩) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

فأنت قد اعتمدتَ على عزيز لا يُغلب على أمره .

فاعمل لوجه الله وحده يكفِكَ كلَّ الأوجه ، فلا تلجأ إلا إليه ولا تستعن إلا به سبحانه ، فالاستعانة بالله تُخرجك عن ذُلِّ الدنيا ، فأنت حين تستعين بغير الله فإنك تستعين ببشر مهما بلغ نفوذه وقوته ، فكلها في حدود بشريته .

فلتكُنْ استعانتك بالحي الذي لا يموت ، فالاستعاذة طلب المعونة ، فإذا استنفد الإنسان أسبابه لا بد أنْ يتذكر أنَّ له رباً لا يُعبد سواه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ[1] .. (٣) ﴾ [الطلاق] ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) ﴾ [آل عمران] ويقول أيضاً: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ [آل عمران] والذي لا يتوكل على الله عليه أنْ يراجع إيمانه .

ولكلِّ جارحة عمل ، وعمل جارحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولنتذكر أن السعي للقدم ، والعمل لليد ، والتوكل للقلب ، فلا تنقل عمل القلب إلى القدم أو اليد ، لأن التوكل الحقيقي أنْ تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عامل بلا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننا نجد الزارع الذي لا يتوكل على الله ينمو زرعه بشكل جيد ومتميز ، ثم تهبُّ عليه عاصفة ، أو يتغير الجو فيصيبه الهلاك وتكون النتيجة الإحباط .

واحذر إهمال الأسباب أو أنْ تفتنك الأسباب ، لأنك إنْ أهملتَ الأسباب فأنت غير متوكل بل متواكل تنقل عمل القلب إلى الجوارح ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

إياك أنْ تظن أنَّ التوكل يعني أنْ تترك الجوارح بلا عمل ، لا فهذا هو التواكل أو الكسل ، إنه التوكل الكاذب ، والدليل على كذب مَنْ يقول ذلك أنه يحب أنْ يتوكَّل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يتوكل فيه .

ونقول للرجل الذي يدَّعي أنه يتوكل ولا يعمل : أنت لستَ متوكلاً ولو كنتَ

---

(١) فهو حسبه : كفاه الله ما أهمَّه . فمن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه .

صـادقاً فى التوكل ، إياك أنْ تمدَّ يدك إلى لقمة وتضـعها فى فمك ، كُنْ متوكلاً كما تدَّعى ودَع التوكل يضـع لك اللقمة فى فمك واترك التوكل ليمضـغها لك ، وادعاؤك التوكل دون أخذ بالأسباب هو بلادة حِسٍّ إيمانى وليس توكلاً .

ومعنـى أنِّـى أتوكل على الله أننى استنفدت أسـبابى ، ولذلـك أرجع إلى مَنْ عنده قدرة وليس عنده عجز ، وهذا هو التوكل المطلق ، والتوكل الإيمانى معناه تسليمك زمـام أمـورك إلى الحق ثقةً بحُسْـن تدبـيره ، ومن تدبـيره أنْ أعطاك الأسباب فلا تردّ يدَ الله الممدودة بالأسباب ، زاعماً التوكل .

والله لا يترك مَنْ توكل عليه ، ومثال هذا توكل هـاجر[1] عليها السـلام امرأة إبراهيـم الخليـل عليه السـلام ، فقد تركهـا إبراهيم عند بيـت الله الحرام ، ليس معها إلا رضيعها إسماعيل فى مكان لا طعام فيه ولا ماء .

وهنا قالت هـاجر قولتها المشهورة لإبراهيم عليه السلام : إلى مَنْ تكلنا؟ آللهُ أمرك بذلك ؟ فقال سيدنا إبراهيم : نعم . فقالت : إذن لن يُضيِّعنا[2]، لقد استغنتْ بالخالق عن المخلوق .

لقـد عطش ولدهـا وأرادت أنْ تبحث عن منبـع ماء أو طير ينـزل فى مكان لتعلم أن فيه ماء أو ترى قافلة تسير ومعها ماء ، لذلك خرجت إلى أعلى مكان وتركت الوادى وصعدت إلى أعلى جبل الصفا فلم تجد شيئاً ، فنظرتْ إلى الجهة الأخرى إلى المروة وصعدتْ فلم تجد شيئاً .

وظلتْ تتردد بين الصـفا والمروة سـبعة أشـواط ، ولنا أنْ نتصـوَّر حالتها ، امـرأة فـى مثل سِـنِّها ، وفى مثـل وحدتها ، وفـى مثل عدم وجود مـاء عندها

---

(١) هاجر جارية مصرية . ومعناها بالهيروغليفية زهرة اللوتس . وهاجر من القبط من قرية نحو الفرما يقال لها أم العرب . فصارت العرب كافة من مصر بأمهم هاجر لأنها أم إسماعيل وهو أبو العرب . [فضائل مصر المحروسة – الكندى ١/٢] .

(٢) عن ابن عباس قال : جاء نبى الله إبراهيم بإسماعيل وهاجر فوضعهما بمكة فى موضع زمزم فلما مضى نادته هاجر : يا إبراهيم إنما أسألك ثلاث مرات : من أمرك أن تضعنى بأرض ليس فيها ضرع ولا زرع ولا أنيس ولا زاد ولا ماء ؟ قال : ربى أمرنى . قالت : فإنه لن يُضيعنا . أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٠٩٥٤) .

ولا بُدَّ أنها عطشتْ كما عطش وليدها .

وعندما بلغ منها الجهد انتهت محاولاتها وعادت إلى حيث يوجد وليدها، ولو أنَّ سعيها بين الصفا والمروة أجدى فرأت ماء لقُلْنا : إن السعى وحده قد جاء لها بالماء ، لكنها هى التى قالت من قبل : إذن لن يُضيعنا .

وهى بهذا القول قد ارتبطت بالمسبِّب لا بالسبب ، فلو أنه أعطاها بالسبب المباشر وهو بحثُها عن الماء لما كان عندها حجة على صِدْقها فى قولها : « إذن لن يضيعنا » .

ويريد الحق سبحانه أنْ ينتهى سعيها سبع مرات بلا نتيجة وتعود إلى وليدها فتجد الماء عند قدم الوليد ، وهكذا صدقت هاجر فى يقينها عندما وثقتْ أن الله لن يضيعها ، وأراد الله أنْ يقول لها : نعم لن أضيعك وليس بسعيك، ولكن بقدم طفلك الرضيع يضرب بها الأرض فينبع منها الماء .

وضرْبُ الوليد للأرض بقدمه سببٌ غير فاعل فى العادة ، لكن الله أراده سبباً حتى يستبقى السببية ولو لم تُؤدِّ إلى الغرض ، وعندما تتوكل توكَّلْ على الحى الذى لا يموت ، فلا تتوكل على مَنْ قد تصبح غداً فتجده ميتاً ، ولكن توكلْ على الحى الموجود دائماً ، العزيز الذى لا يُقهر ، القوى الذى لا يُغلب .

ومعنى ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى هو سنده ويكفيه ، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) ﴾ [الأنفال] أى : يكفيك الله ، فحسبك الله وهو حسْب مَن اتبعك من المؤمنين ، أى يكفيكم الله .

ويمكن أنْ يكون المعنى : يكفيك الله فيما لا تستطيع أنْ تحققه بالأسباب ، ويكفيك المؤمنون فيما توجد فيه أسباب .

ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ [التوبة]

وقد جاء سبحانه بـ (حسبى) من الحساب ، واحسبها فلن تجد إلا الله ، وما دام حسبك الله ولا إله إلا هو فسبحانه يبسط عليك حمايته ونُصْرته لك ، فمن العقل أنْ تضع نفسك بين يدى رسولك الذى أبلغك البلاغَ الكامل عن الله ، وأنْ تتوكل عليه سبحانه .

وما دام سبحانه هو حسبك ولا إله إلا هو ، والواجب يفرض عليك أنْ تظلَّ فى معيته سبحانه ، ومعنى حسبك الله يعنى : كافيك عن الاحتياج لغيره لأنه يعطيك كل ما تحتاج إليه ويمنع عنك الشر وإنْ كنت تظنه خيراً لك .

وإذا توكلتَ على الحى الذى لا يموت ، فآثار هذا التوكل أنْ يحميك من ذنوب العباد ، فهو وحده الذى يعلم ذنوبهم ويعلم حتى ما يدور فى أنفسهم .

فمنْ يتق الله فى أموره ويُفوِّضها إليه فهو كافيه ، وقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه[1] : إنَّ أكبر آية فى القرآن تفويضاً آية ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

فمن فوَّض إليه أمره كفاه ما أهمه ، والحسب الكافى ، فبيَّن أنه كافٍ مَنْ توكل عليه ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أحبَّ أنْ يكون أقوى الناس فليتوكلْ على الله »[2] .

فمعنى قوله ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى : يثق بالله ويُفوِّض أمره إليه . ويقال : التوكل على الله هو الرضا بقضائه . وقد قال

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨٥٧٧) والبخارى فى الأدب المفرد (٤٨٩) وعبد الرزاق فى مصنفه (٦٠٠٢) والبيهقى فى شعب الإيمان (٢١٧٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٧٧٠٧) وصححه . وكذا أخرجه عبد بن حميد فى مسنده (٦٧٥) من حديث ابن عباس : « إن لكل شيء شرفاً ، وإن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة ، وإنما يجالس بالأمانة ، ولا تصلوا خلف النائم ولا المتحدث ، واقتلوا الحية والعقرب وإن كنتم فى صلاتكم، ولا تستروا الجدر بالثياب ، ومن نظر فى كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر فى النار ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » .

وهـب بـن منبه[١] : « يقول الرب تبارك وتعـالى : إذا توكل عليَّ عبدى لو كادتْه السماوات والأرض جعلتُ له من بين ذلك المخرج »[٢] .

فقولـه تعـالى : ﴿ وَمَـنْ يَتَوَكَّلْ عَلَـى اللهِ فَهُوَ حَسْبُـهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] شرط وجواب يدخل فيه كل من الزوج والزوجة كما يدخل فى حَيِّزه الناس جميعاً ، فمَنْ يتوكل على الله ويُسلِّم أمره إليه فهو حسبه وكافيه ومُدبِّر أمره .

فمَـنْ يتـوكل على الله فـى أمر دينه ودنياه بأنْ يعتمد علـى الله فى جَلْب ما ينفعه ودفْع ما يضره ويثق به فى تسهيل ذلك ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى : كافيه الأمر الذى توكَّل عليه فيه .

﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى لا بدّ من نفاذ قضائه وقدره ، فأمره يبلغ على من توكل وعلى مَنْ لم يتوكل ، فهو سبحانه منفذ قضـاياه وأحكامه فى خَلْقه بما يريده ويشاؤه .

وقـد قال عبد الله بن رافع : لمـا نزل قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] قال أصحاب النبى ﷺ : فنحن إذا توكلنا عليه نرسل مـا كان لنـا ولا نحفظـه ، فنزلـتْ ﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْـرِهِ .. (٣) ﴾ [الطـلاق] فيكم وعليكم .

فـلا بـدّ من نفاذ أمر الله ، توكلتَ أيها المـرء أو لم تتوكل ، فإنْ توكلت كفاك وتعجلتَ الراحة والبركة ، وإنْ لم تتوكل وكلك إلى عجزك وتسخطك ، وأمرُه فى الوجهين نافذ .

فلا تستـبعدوا وقوع ما وعدكم الله حين ترون أسباب ذلك مفقودة ، فإنَّ الله إذا وعد وعداً فقد أراده ، وإذا أراد الله أمراً يسَّر أسبابه ، فهو سبحانه هو المالك

---

(١) وهب بن منبه أبو عبد الله ، من أبناء فارس ، إخبارى قصصى ، تابعى ثقة ، قاضى صنعاء ، وكان صاحب حكمة وفطنة .

(٢) أخرجه أحمد فى الزهد (٢٩١) عن وهب بن منبه قال يقول الرب تعالى : إذا توكل عليَّ عبدى لو كادته السماوات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج ، وأورده الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) (١٤ / ٣٣١) وعزاه لأحمد فى الزهد عن وهب بن منبه .

المتصرف في هذا الوجود ، وكل شيء بيده خاضعٌ لمشيئته مستجيبٌ لإرادته ، وما يريده سبحانه واقع لا محالة دون أنْ يَعوقه مُعوّق أو يغيره أحد .

ومعنى ﴿ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أي واصل إلى مراده ، والبلوغ مجاز في الحصول على المراد .

﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق] أي جعل لكلِّ شيء أجلاً ومنتهى يُنتهى إليه ، فالحق سبحانه قد جعل لكل شيء من الطلاق والعدة وغير ذلك حداً وأجلاً وقدراً ينتهى إليه .

لذلك قال تعالى هنا : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] فلا تقلق على شيء من الدنيا ما دُمْتَ في معية الله ، فالله عنده المخرج مما أنت فيه ، وعنده الرزق، فقط توكَّلْ عليه سبحانه ، واعلم أنَّ أمر الله وقضاءه وقدره الذى قدَّره لك نافذ .

﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] وقد جعل لكلِّ شيء قدراً ، فالله حين يقدر قدراً لا يمكن لمخلوق أنْ يُفلت من هذا القدر .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ﴾

عملية الحيض في المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها ولحياة الإنجاب، والكلام هنا ليس عن الحيض ، ولكن عن عدة المرأة التى انقطع حيضها وقد طُلِّقت، فإذا كان الحق سبحانه قد حدَّد عدة المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً

يراجعها فيها زوجها ، قد حددت هذه العدة بالنسبة لها ثلاثة طهورات أى تحيض وتطهر ، وتحيض وتطهر ، وتحيض وتطهر .

ولكن ما موقف التى انقطع حيْضها وقد يئستْ منه ، فكيف تحسب عدَّتها ،وقد أمرنا الحق سبحانه بإحصاء العدة ، فقال : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق]

فالمرأة التى انقطعت عنها الدورة الشهرية فعدَّتها ليست عدَّةَ حيض وطهارة، إنما عدة زمنية محددة وهى ثلاثة أشهر .

وهو ما يُسمونه « سنّ اليأس » ، واليأس هو أنْ تقطع الأمل من أمر مراد لك ، ولا تملك الوسائل لتحقيقه ، فقد أصابهن اليأس من الحيض لكبرهِنَّ ببلوغهن سِنَّ الخامسة والخمسين والستين .

فعدَّتهن ثلاثة أشهر عوضاً عن الثلاثة قروء فى حَق مَنْ تحيض، والتى ذكرتها سورة البقرة ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ(١) بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

فأصل العدة بالحيض ، والأشهر بدل من الحيضات عند عدمها ، فاللائى يئسْنَ من المحيض هُنَّ القواعد اللائى قعدنَ عن المحيض ، بأنْ كُنَّ يحضن ثم ارتفع حيضهن لكبر أو غيره ولم يُرج رجوعه، فإنَّ عدتها ثلاثة أشهر، جعل لكلِّ شهر مقابله حيضة .

وسنّ اليأس يختلف تحديده باختلاف الذوات والأقطار كما يختلف سن ابتداء الحيض كذلك .

وكلمة (المحيض) هى مصدر ميمى أى مبدوء بالميم بمعنى الحيض ، أي: دم الحيض . وقد يأتى بمعنى مكان الحيض كما فى قوله تعالى : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

---

(١) يتربصن : ينتظرن ويعتددن مدة . والتربص : الانتظار . وهو خبر فى معنى الأمر أى ليتربصن قصد بإخراجه مخرج الخبر تأكيد وقوعه .

ومَنْ جعل المحيض بمعنى الحيض أراد اعتزلوهنَّ في أيام حيضهنَّ ، فهو اسمٌ لمكان الحيض ، ومصدر لحدث الحيض نفسه ، ومنه الحوض لأن الماء يحيض أي يسيل إليه .

والحائض هي التي يقع لها حدث الحيض وإنْ لم يكُنْ واقعاً بها في ذات اللحظة ، ومنه حديث رسول الله ﷺ : « لا تُقبل صلاةُ حائض إلا بخمار »[1] فهو لا يقصد وهي في أيام حيضها لأن الحائض لا صلاةَ عليها أصلاً ، وإنما المراد : التي من شأنها أن تحيض .

فعندما ينقطع حيضها تزولُ عنها صفةُ أنها حائض ، وتصبح من القواعد من النساء اللاتي قعدْنَ عن المحيض ، ولكن لا يزول عنها أنها لا تصلى إلا بخمار سواء كانت قد بلغت سِنَّ المحيض أو يئستْ منه .

ويضع الحق سبحانه جملة ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ .. (٤) ﴾ [الطلاق] والارتياب محله القلب ، فإنْ شككتم ولم تتيقنوا أتحيض أم لا تحيض ، هل انقطع حيضُها أم لا ، فالتي قعدتْ عن المحيض والتي لم تحِضْ بَعْد فعدَّتها ثلاثة أشهر .

أما إذا امتنع حيض المرأة وهي شابة ، فإنه يُتأنَّى بها حتى يُنظر ، حامل أم هي غير حامل ؟ فإن استبان حملها فأجلُها أنْ تضع حملها فإنْ لم يستبنْ حملُها فحتى يستبين بها وأقصى ذلك سنة .

فـ (ارتبتم) أي شككتم وجهلتم كيف عدتهن .

ومن هذه التي قد يقع الشك فيها والجهل ﴿ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ .. (٤) ﴾ [الطلاق] وهُنَّ الصغيرات إذا طلقهنَّ أزواجهن بعد الدخول ، فهن لم يبلغن المحيض وقد مُسِسْن ، فعدتهن ثلاثة أشهر .

فاللاتي في حال الصِّغر هُنَّ بمنزلة الكبيرة التي يئست من المحيض، فـ ﴿ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ .. (٤) ﴾ [الطلاق] معطوف على ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٦٤١) ، وابن ماجه في سننه (٦٥٥) ، وأحمد في مسنده (٢٥٢٠٨ ، ٢٥٨٧٥ ، ٢٦٢٦٩) ، وابن حبان في صحيحه (١٧١١) والبيهقي في سننه الكبرى (٣٣٧٩) عن عائشة رضي الله عنها .

.. (٤) ﴾ [الطلاق] فيأخذن حُكماً واحداً وهو أنَّ عدتهنَّ بالأشهر ، وليست بالطهر من الحيض ، لأنهنَّ إمَّا لم يحضْنَ أصلاً ، أو يئسْنَ من المحيض .

وزواج الصغيرة جائز بنصِّ هذه الآية ، ورسول الله ﷺ عقد على عائشة رضى الله عنها وعمرها ست سنوات[1] ، فالإسلام فيه سعة ، وتؤمن به مجتمعات متباينة ، والفقهاء أجازوا زواج الصغيرة بشرط عدم الإضرار بها بمعنى تحملها للوطء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .. (٤) ﴾ [الطلاق] فعدَّة المرأة الحامل التى طلَّقها زوجها هى أنْ تضع حملها ، وعلى هذه المرأة أنْ لا تكتم حملها .

قال تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

وهذا يدلُّ على أن المرأة لها شهادتها لنفسها فى الأمر الذى يخصُّها ولا يطَّلع عليه سواها ، وهى التى تُقرر المسألة بنفسها فتقول أنا حامل أو لا ، وعليها ألاَّ تكتم ذلك ، فقد يجوز أنْ تكون حاملاً وبعد ذلك تكتم ما فى بطنها حتى لا تنتظر طول مدة الحمل وتتزوج رجلاً آخر فينسب الولد لغير أبيه .

فغالباً ما يستمر الحمل تسعة أشهر ولكن هناك استثناء ، فهناك حملٌ مدّته سبعة أشهر ، وأحياناً ستة شهور .

فكتمان المطلَّقة لحملها يترتب عليه أكثر من إشكال ، منها ألاَّ يرث الولدُ من الأب الأول ، وأن محارمه لم تعُد مُحرَّمة عليه ، فأخته من أبيه لم تعُدْ أخته ، وكذلك عماته وخالاته وتنقلب الموازين ، هذا من جانب الأب الأصلى .

---

(١) أخرج البيهقى فى السنن الكبرى (١٣٨٠٥) وكذا فى (دلائل النبوة ٧/ ٢٨٤) باب تسمية أزواج النبى. وفيه : « ثم تزوج رسول الله عائشة بعد خديجة وعائشة يومئذ بنت ست سنين فنكحها رسول الله ﷺ بمكة وهى ابنة ست سنين ، ثم إن رسول الله ﷺ بنى بعائشة بعدما قدم المدينة وعائشة يوم بنى بها بنت تسع سنين» .

أما من جانب الزوج الثانى فالطفل يكتسب حقوقاً غير مشروعة له ، سيرث منه وتصبح محارم الرجل الثانى محارمه فيدخل عليهن بلا حَقٍّ ، ويرى عوراتهن وتحدث تداخلات غير مشروعة .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] هو قوْلٌ يريد به الحق أنْ تقوم الحياة على طُهْر وعلى شرف وعلى عفاف ، ولا يعتدى أحدٌ على حقوق الآخر .

فأجلهنَّ أنْ يضعْنَ حملهنَّ ، فإذا نفضت الرحم ما فيها فقد انقضتْ عدَّتها ، وقد حدث أن وضعت امرأة على عهد رسول الله اسمها سُبَيْعة بنت الحارث الأسلمية(١) بعد وفاة زوجها بخمس عشرة ليلة فأمرها نبى الله ﷺ أن تزوج .

وكان عمر يقول : لو وضعتْ ما فى بطنها وهو موضوع على سريره من قبل أنْ يقبر حلَّتْ . أى حلَّتْ أنْ يتزوجها رجل آخر بعد وفاة زوجها .

وكلَّ مطلقة حامل أو مُتوفّى عنها زوجها وهى حامل أيضاً فأجلها أنْ تضع حملها حتى ولو كان سقطاً ، فإذا ما وضعت ما فى رحمها فقد انقضتْ عدتها ، فليس المحيض من أمرها فى شيء إذا كانت حاملاً .

ولا يحلُّ للمطلَّقة أنْ تقول إنِّى حائض وليستْ بحائض ، أو تقول إنى حُبْلَى وليست بحُبْلَى ، أو تقول لست بحائض وهى حائض ، أو تقول لست بحبلى وهى حُبْلَى لتبين من زوجها قبل أنْ تنقضى العدة ، وتضيف الولد إلى الزوج الثانى وتستوجب الميراث إذا مات الرجل فتقول لم تنقض عدَّتى وقد انقضتْ عدَّتها .

وقد يسأل سائل : وما عِدَّة المرأة التى تُوفِّى عنها زوجها وهى حامل وقد

---

(١) سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، كانت امرأة سعد بن خولة ، فتوفى عنها بمكة فى حجة الوداع وهى حامل ووضعت بعد وفاته بعشرين يوماً . وهى صحابية جليلة ، روت عن رسول الله أحاديث ، وروى عنها عبد الله بن عمر وزفر بن أوس ومسروق . وهى ممن نزل فيهن قوله تعالى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ .. (١٠) ﴾ [الممتحنة] .

يكون حملها في بدايته ، هل تعتد عدة المتوفَّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً، أم عدة الحامل بوضع حملها ؟

ولهذا السائل نقول : الله عز وجل حدد عدَّة المرأة المتوفَّى عنها زوجها ، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾ [البقرة]

فعدَّة المتوفَّى عنها زوجها أنها تتربَّص بنفسها أربعة أشهر وعشراً ، هذا إذا لم تكُنْ حاملاً ، فإنْ كانت حاملاً فعدَّتها أبعد الأجلين ، فإنْ كان الأجلُ الأبعد هو أربعة أشهر وعشراً فتلك عدَّتها .

وإنْ كان الأجل الأبعد هو الحمل فعدَّتها أن ينتهي الحمل ، ولكن أليس من الجائز أنْ يموت زوجها وهي في الشهر التاسع من الحمل فتلد قبل أنْ يُدفن ؟ وهل يعني ذلك أنَّ عدَّتها انتهت ؟

لا ، إنها تنتهي بأبعد الأجلين وهو في هذه الحالة مرور أربعة أشهر وعشْر، وإنْ قال بعض الفقهاء : إنَّ عدة الحامل بوضع الحمل .

لكن إذا لم يكُنْ زوجها متوفى عنها فعدَّتها أنْ تضع حملها ، وإنْ شاءت أن تتزوج بعد ذلك فلها ذلك ولو بعد لحظة .

وبعض الناس يفسرون الحكمة من جَعْل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، فيقولون : لأنها إنْ كانت حاملاً بذكر فسيظهر حملها عندما يتحرك بعد ثلاثة أشهر ، وإنْ كانت حاملاً بأنثى فستتحرك بعد أربعة أشهر ونعطيها مهلة عشر ليالٍ .

ونقول لهم : جزاكم الله خيراً على تفسيركم ،ولكن العدة ليست لاستبراء الرحم لأنها لو كانت لاستبراء الرحم لانتهتْ عدَّة المرأة بمجرد ولادتها .

ولو كان الأمر للتأكد من وجود حَمْل أو عدمه لكانتْ عِدَّتها ثلاث حيضات إنْ كانت من ذوات الحيض ، وإنْ كانت من غير ذوات الحيض لصغر أو لكبر سِنٍّ لكانت عدَّتها ثلاثة أشهر ، لكن الله اختصها بأربعة أشهر وعشر وفاءً لحق زوجها عليها وإكراماً لحياتهما الزوجية .

والمرأة الحامل التى تُوفِّى عنها زوجها إذا قعدت أقصى أو أبعد الأجلين تكون قد عملتْ بمقتضى الآيتين ، وإنْ اعتدَّتْ بوضع الحمل فقد تركتْ العمل بآية عدَّة الوفاة ، والجمع بين الآيتين أوْلَى من الترجيح باتفاق أهل الأصول .

فلو أنَّ امرأة حاملاً تُوفِّى عنها زوجها وهى حامل فى الشهر الأول مثلاً فعدَّتها ليست أربعة أشهر وعشراً ، بل عدتها وضعها الحمل فتنتهى عدتها بوضعها لحملها .

أما القول بأقرب الأجلين فهو قول خطأ لا يقول به أحد ، لأن مقتضى هذا القول هو أنها إذا كانت حاملاً الآن فى الشهر الأول فمرَّ عليها أربعة أشهر وعشر وهى ما زالت فى السادس يحل لها على هذا القول أنْ تتزوج . وهذا لا يجوز بحال ، فإن الرجل الجديد سيسقى ماؤه زرع غيره فلا يحل هذا بحال وهو من أكبر الكبائر .

ويقول رسول الله ﷺ : « لا تُوطأ حاملٌ حتى تضع »[1] ، وقال أيضاً « لا يحلّ لامريء يؤمن بالله واليوم الآخر أنْ يسقى ماؤه زرعَ غيره »[2] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق]

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ورفعه أن رسول الله قال فى سبايا أوطاس : "لا تُوطأ حامل حتى تضع ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة "أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٥٩) وأحمد فى مسنده (١١٦١٤) والبيهقى فى سننه (١١١٠٥) والحاكم فى مستدركه (٢٧٩٠) وصححه على شرط مسلم .

(٢) عن رويفع بن ثابت الأنصارى قال قام فينا خطيباً قال : أما إنى لا أقول لكم إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم حنين قال : «لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماؤه زرع غيره» يعنى إتيان الحبالى .

هذه هى المرة الثالثة التى يذكر الحق سبحانه فيها أمر التقوى فى سورة الطلاق فى خلال أربع آيات فقط ، فى الآية الأولى قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ رَبَّكُمْ .. (١) ﴾ [الطلاق]

وفى الآية الثانية قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]
وهنا قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق]

وذلك لعظم التقوى ومخافة ومراعاة حدود الله والخوف من عقابه سبحانه، لذلك أكَّد سبحانه على التقوى ، فمَنْ خاف الله فاجتنب معاصيه وأدَّى فرائضه، ولم يخالف إذنه فى طلاق امرأته فإنه يجعل الله له من طلاقه يُسْراً ، وهو أنْ يُسهِّل عليه إنْ أراد الرخصة .

فمَنْ يتق الله فى اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يُسْراً فى توفيقه للطاعة، فيسهل له أمره ويُيسِّره عليه ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً .

فمَن اتقى الله تعالى يسَّر له الأمور وسهَّل عليه كلَّ عسير ، وهو تسهيل الرجعة ما دامت فى عِدَّتها والقدرة على خطبتها إنْ انقضت ودعتْه إليها بسبب التقوى .

فالحق سبحانه يعظ الرجال والنساء للأخذ بما فى هذه الأحكام مما عسى أنْ يكون فيه مشقةٌ على أحد بأنَّ على كلٍّ أنْ يصبر لذلك امتثالاً لأمر الله ، فإنَّ الممتثل لأمر الله وهو المتقى يجعل الله له يُسراً فيما لحقه من عُسْر .

والأمر فى قوله تعالى ﴿ مِنْ أَمْرِهِۦ .. (٤) ﴾ [الطلاق] هو الشأن والحال ، والمقصود يجعل له من أمره العسير فى نظره يُسْراً ، بدلالة أنه سبحانه يجعل من أمره نفسه الذى هو فيه يجعله يُسراً .

واليُسْر انتفاء الصعوبة أى انتفاء ما يُسبِّب له مشقة أو أمراً مكروهاً .

والمقصود من هذا تحقيق الوعد باليسر فيما شأنه العُسْر لحثِّ الأزواج على امتثال ما أمر الله به الزوج من الإنفاق فى مدة العدَّة ، ومن المراجعة وترْك

منزله لأجل سُكْناها إذا كان لا يسعهما ، وكذلك أمر المرأة من تربُّص أمد العدة وعدم الخروج ، فمَنْ يراقب الله ويخشاه فى أقواله وأفعاله ويجتنب ما حرّم الله عليه يسهُل عليه أمره ويُوفِّقه لكلِّ خير .

والحق سبحانه إنما يريد بنا اليُسْر ولا يريد بنا العُسْر ، قال تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** .. (١٨٥) ﴾ [البقرة] فالله يريد أنْ نعيش فى يسر وسهولة من أيسرنا ، لا أن نعيش فى عسر وضيق .

والذى يُسبِّب لنا العسر والضيق هو عدم الالتزام بمنهج الله وعدم تقوى الله، واعلم أنَّ مع العسر يُسْراً ، فالعسر الذى تظنه عُسْراً هو نفسه معه يُسْر .

ويقول تعالى ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** .. (٧٨) ﴾ [الحج] فالله لا يريد أنْ يُضيق عليكم أو يُعسِّر عليكم الأمور ، إنما جَعل الأمر كله يُسْراً ورخّص لكم ما يُخفِّف عنكم ويُذهب عنكم الحرج والضيق .

ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه يقول ﴿ **يَجْعَلْ لَهُ** .. (٤) ﴾ [الطلاق] فالله إنما يريد مصلحتك ويريد نفعك ، فالله ليس له هوى فيما يأمرك به ، إنما هى مصلحتك وسلامتك .

فمن الآثار المترتبة على تقوى الله عز وجل أنْ يُيسِّر له الأمور ، وأنْ يُهيء له سُبُل الخير ، وأنْ يفتح الطرق التى تُوصله إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

فالمؤمن التقى يُيسِّر الله له أموره ويُيَسر لليُسْرى ويُجنِّبه العسرى ويُسهِّل عليه الصعاب ، ويجعل له من كلِّ هَمٍّ فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب .

فبالتقوى ينضج عقل الإنسان وتتكوّن عنده ملكةٌ قوية وبصيرة نيِّرة تضيء له الطريق المظلم ، ويفرق بها بين الحق والباطل ، وبين النافع والضار.

يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا[١] وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. (٢٩) ﴾ [الأنفال]

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ[٢] مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. (٢٨) ﴾ [الحديد]

بالتقوى يأمن الإنسان إذا خاف الناس ، ويُسَرُّ إذا حزنوا ، ويستبشر إذا قنطوا ويئسوا ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ .. (٦٤) ﴾ [يونس] بالتقوى تزداد علاقة الإنسان بربه ، وينال الفلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة .

بالتقوى يطمئن المسلم على ذريته من بعده ، ولاسيما ضعفاؤهم ، قال تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾

قوله (ذلك) إشارة إلى كلِّ ما سبق من أحكام الطلاق والرجْعة والعدَّة وعدم إخراج المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً من بيت الزوجية ، وكذلك أحكام العدة بين اللاتى يئسْنَ من المحيض ، واللاتى لم يحضْنَ أصلاً .

---

(١) الفرقان : المخرج . عن ابن عباس ، والمعنى : يجعل لكم مخرجاً فى الدين من الضلال . وهو أيضاً : النجاة . قاله قتادة والسدى . وهو أيضاً : النصر . قاله الفراء . وهو أيضاً هدى فى قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل . قاله ابن زيد وابن إسحاق . (زاد المسير لابن الجوزى) .

(٢) كفلين : نصيبين وحظين . يعنى يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى ومحمد وبالإنجيل والقرآن . والمقصود نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل . [فتح القدير للشوكانى].

فقولـه (ذلـك) يعنـى مـا ذُكـر مـن الأحكـام ومـا عُلـم من حكـم هؤلاء المعتدَّات، ونلاحظ أن الحق سبحانه لم يقلْ : هذا أمر الله . بل قال : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق]

واللام فى (ذلك) للبُعد إشارة لبُعد منزلة هذا الأمر وأهميته وعظيم اهتمام الشارع به . وقد أفرد الكاف مع أن الخطاب للجمع كما يُفصح عنه قوله تعالى : ﴿ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ .. (٥) ﴾ [الطلاق] ؛ لأن الكاف هنا لتعيين الفرق بين البعد والقرب ، لا لتعيين خصوصية المخاطبين؛ فلم يقل سبحانه هنا (ذلكم) كما قاله فى آيات أخرى ، فقد قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾ [البقرة] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾ [النور]

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق] كلمة (أمر الله) وردت فى القرآن فى مواضع عدة بمعان ، منها قضاء الله أى ما قضاه الله على عباده ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) ﴾ [النساء] وذلك فى الكلام عن بنى إسرائيل .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ[١] وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ[٢] وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ

---

(١) نطمس : الطمس هو المحو . أى نذهب بآثار الوجه وتخطيطه حتى يصير على هيئة القفا . وقيل : إنه بعد الطمس يردها إلى موضع القفا والقفا إلى مواضعها . [فتح القدير للشوكانى] .

(٢) أصحاب السبت هم أهل أيلة . وزاد ابن عباس : بين مدين والطور . وهى إيلات أو أم الرشراش . وتقع فى أقصى جنوب فلسطين بين مدينة العقبة الأردنية من الشرق وبلدة طابا المصرية من الغرب . وهى قرية مصرية يحتلها الإسرائيليون منذ عام ١٩٤٩م . بينما هى مصرية بموجب فرمان رسم الحدود مع فلسطين عام ١٩٠٦ .

مَفْعُولًا (٤٧) ﴾ [النساء]

فالحق سبحانه بقدرته الشاملة وصفات جلاله الكاملة لا يتخلف شيء فى وجوده عن أمره ، فإذا وعد بشيء فلا بد أنْ يحدث ، فأمر الله غير أوامر البشر ، فأوامرُ البشر هى التى تتخلَّف أحياناً ، سواء أكانت وعداً أم وعيداً .

فأنت قد تعد إنساناً بخير ولكنك ساعةَ أداء الخير لا تستطيعه ، فتكون قدرتك هى التى تحتاج إلى أداء الخير ، أو توعد إنساناً وتهدده بشرٍّ وستعمل فيه غداً كذا ، وقد يأتيك غداً مرض يُقعدك فلا تستطيع إنفاذ وعيدك .

إذن فأنت قد لا تستطيع إنفاذ شيءٍ من وعدك ولا شيءَ من وعيدك ، لأنَّ قدرتك من الأغيار ، وما دامت قدرتكم من الأغيار فقد تُوجد أو لا توجد .

لكن الحق سبحانه وتعالى إذا وعد بوعد أو أوعد بوعيد ، أيوجد شيء يُغيِّر هذا ؟ لا ، إذن فساعةَ يقول ربنا بوعد أو وعيد فاعرف أن هذا سيحدث فى الوعد، أما فى الوعيد فإنَّ الله قد يتجاوز عنه كرماً وفضلاً ما عدا الشرك بالله .

وأمْر الله قد يكون ما سيكون فى يوم القيامة وما سيحدث قبل وقوعها ، يقول تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل]

وأمْر الله قد يكونْ هنا قضاء الله وحُكْمه بنصر الرسول والمؤمنين لا شكَّ فيه ولا محالةَ ، وأن هزيمة أهل الكفر قادمة ولا مفرَّ منها إنْ هم استمروا على الكفر .

وساعة سمع الكلُّ ذلك فزعوا ، لأن أمر الله واقعٌ لا محالة ، ثم جاء قوله ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] فالأمر الذى يعلنه محمد ﷺ لا يعلم ميعاده إلا الله سبحانه .

وكلمة (أتى) تدلُّ على أن الذى يخبرك وهو الله يستوى معه الزمن ، فـ (أتى) فعل ماض ، ولا تستعجلوه مستقبل ، كيف يقول الله سبحانه (أتى) ثم يقول (فلا تستعجلوه) ؟

إنه مستقبل بالنسبة لنا، أما بالنسبة لله تبارك وتعالى، فما دام قد قال (أتى) فمعنى ذلك أنه حدث، فلا أحد يملك أنْ يمنع أمراً من أمور الله من الحدوث، فالعذاب آت لهم، ولا يخفف عنهم لأن أحداً لا يملك تخفيفه.

وقد يكون ﴿ أَمْرُ اللهِ .. (٤٧) ﴾ [النساء] بمعنى قضاء الخير للإنسان، قال تعالى: ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) ﴾ [هود]

فقال لها تعالى: ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود]

وأمر الله هنا هو أمرٌ خير لامرأة إبراهيم عليه السلام المرأة العجوز العقيم وزوجها شيخ كبير، والله يردُّها إلى مسبِّب الأسباب. فالأسباب لا تعطى وحدها، فالأسباب عندها تعطلت، أما حين تصل الأسباب إلى الله فلا عجب.

ولكم ما معنى (أمر الله) هنا في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ .. (٥) ﴾ [الطلاق]

الأمر هنا هو الحكم أو التشريع الذي شرَّعه سبحانه، فهو حكمه الذي حكم به بين عباده، وشرعه الذي شرعه لهم، وهو أمر الله لا أمر أحد غير الله، لذلك أضاف الأمر إلى صاحبه سبحانه وهو الله عز وجل.

وهذا الذي شرع لكم من الأحكام هو أمر الله الذي أنزله إليكم لتسيروا على منهجه وتعملوا به، دون تحايل منكم على أمر الله، فلا تكونوا مثل بني إسرائيل الذين يعشقون التحايل على أمر الله لئلا يُنفِّذوا ما أمرهم به.

قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ[1] الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي

(١) في تعيين هذه القرية خمسة أقوال، ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير:
– أيلة. قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير. وهي ما يعرف الآن بـ (إيلات).
– مدين. عن ابن عباس. – ساحل مدين. عن قتادة – طبرية. قاله الزهري.
– قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينونا. قاله ابن زيد.

السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

فهؤلاء كانوا أهل قرية حاضرة البحر أى قريبة من البحر ومشرفة عليه، لأننا نقول فلان حضر أى كان بعيداً فاقترب ، وهم من اليهود لأنهم حُرِّم عليهم العمل يوم السبت .

فابتلاهم الله عز وجل بلاءً عظيماً فحرَّم عليهم ما لم يحرمه على آخرين ، وذلك لتعنتهم وخروجهم عن أحكام الله فشدَّد الله عليهم ، فكان هؤلاء يروْنَ السمك فى المياه يوم السبت وهو يرفع زعانفه كشراع المركب وتطل عليهم أشرعة الحيتان وهم فى بيوتهم .

وهذا ابتلاءٌ من ربهم لهم فى يوم السبت وعقاب لأنهم ممنوعون من صيده ، ويروْنَ هذا السمك أمامهم في يوم السبت ، لكن فى بقية الأيام التى يُباح فيها العمل كيوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا تظهر لهم ولا سمكة واحدة .

وهنا قالوا : ما دام ربنا قد حرَّم علينا أنْ نصطاد يوم السبت فعلينا أنْ نحتال وصنعوا أكياساً من السلك المضفَّر والذى نسميه الجوبية يدخل السمك فيها ولا يستطيع الخروج منها ، فيأتى السمك يوم السبت فى الجوبية ويستخرجونه يوم الأحد .

أو يصنعون حوضاً له مدخل وليس له مخرج ، وفى هذا المكر وتمكر لهم السماء بحيلة أشد ، لقد أراد الله ابتلاءهم لأنهم فسقوا عن المنهج ، وخرجوا عن الطاعة واستحلُّوا أشياء حرمها الله ، لذلك يُحرِّم الله عليهم أشياء أحلَّها لغيرهم .

فهم تحايلوا على أمر الله بأنْ صنعوا مصايد للأسماك تدخل فيها ولا تستطيع الخروج ، وهذا تحايل على أمر الله .

والله عز وجل لا يغيب عن علمه شيء ، فهو يعلم ما فى النفوس والنوايا ، وهذا مثل أمر الله ورسوله بالاصطفاف صفوفاً للصلاة ، وأنْ يقف الرجال أولاً ثم الأطفال ثم النساء ، ومن الرجال مَنْ يتقدم الصفوف كيْلا تقع عيونه على امرأة ، ومنهم مَنْ قد يتحايل ويقف فى الصفوف الأخيرة ليرى النساء من تحت أذرعه وهو راكع أو ساجد .

فأوضح الحقُّ سبحانه أنَّ مثل هذه الأمور لا تفوت عليه ، فهو العالم بالأسرار وأخفى منها .

وأمور الزواج والطلاق وأحكامهما وأحكام العدة والرجعة يحدث فيها تحايل كثير سواء من الرجل أو المرأة ، لذلك قال تعالى هنا : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق]

فهو أمر الله لا يجوز لأحد التحايل عليه أو التهرُّب من تنفيذه ، فتنفيذ أمر الله فى هذه العلاقات بين الرجل والمرأة يُجنِّبهما مشاكل كثيرة تسبب لدداً فى الخصومة .

ورسول الله ﷺ يقول : « اللهم إنى أحرِّج حقَّ الضعيفين المرأة واليتيم »[1]، وكأنه ﷺ يقول : إنى لا أسمح لأحد أنْ يجور أو يتحايل على حقِّ هذين الضعيفين : المرأة واليتيم .

والمرأة يشتد ضعفها عندما تكون مطلَّقة أو أرملة ، ففى كلتا الحالتين تفقد زوجها وتفقد وجوده إلى جوارها ، والأمر يحتاج إلى تقوى الله وخشيته حتى لا يتم الإضرار بها بقصد الإيذاء والإعضال .

إذ كيف نقف أمام الله ونحن قد أوقعناها فى حرج ، فهذا ما أحذر منه تحذيراً بالغاً وأزجر عنه زجراً أكيداً فإنه ظلم لهما ، والله لا يأمر بالظلم إنما

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٣٦٧٨) وأحمد فى مسنده (٩٦٦٤) والنسائى فى السنن الكبرى (٩١٠٤، ٩١٠٥) والحاكم فى مستدركه (٢١١) وصححه على شرط مسلم ، والبزار فى مسنده (٨٤٨٣ ، ٨٤٨٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

يأمر بالعدل والإحسان .

وقد حدَّد حدوداً لا للزواج فقط ، بل لإنهاء علاقة الزواج بالطلاق فوضع أموراً للعدة وإحصائها ، هذا أمر الله الذى ليس لأحد تجاوزه .

ورسول الله ﷺ يقول : « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم »[1] فالذى يجابهك بالخصومة يجعلك تحتاط له ، أما الذى يقابلك بنفاق فهو الذى يريد أنْ يخدعك ، وهذا عنف فى الخصومة .

فالخصم الواضح أفضل لأنه يواجهك بما فى باطنه ، لكن إذا جابهتَ الذى يبطن خصومته ويُظهر محبته يكون قاسياً عليك فى خصومته لأنه يريد أنْ يخدعك ويُبيِّت لك .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ .. (٥) ﴾ [الطلاق] فلم يقُل الحق سبحانه : أنزله إليك . رغم أن أمر الله وحكمه وتشريعه أنزله الله على محمد رسول الله ﷺ ، وهذا دليلٌ من الله على أن الله يخاطب بهذا التشريع كل أحد من أمة محمد ، وكأنه أنزله على كل فرد من أفراد الأمة .

ثم إن أمْر الله أمر خالق ربٍّ ، فالحق سبحانه هو المتولِّى التربية ، ومعنى التربية هو إيصال مَنْ تتم تربيته إلى الكمال المطلوب له ، فهناك ربٌّ يربِّى ، وهناك عبد تتم تربيته ، والرب يعطى الإنسان ما يؤهله إلى الكمال المطلوب له .

والله عز وجل ربٌّ ، ومن عادة الرب أنْ يتعهد المربَّى ليؤدى غايته على الوجه الأكمل ، أرأيتم أباً يربى أبناءه إلا لغاية ؟ وما دام هو سبحانه ربِّى فلا يأمرنى إلا لصالحى وصالح مجتمعى ، فلا شيء من طاعتنا يعود عليه بالنفع، ولا شيء من معاصينا يعود عليه بالضرر ، لأنه سبحانه خلق الكون كله بصفات الكمال المطلق .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٧ ، ٧١٨٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٦٩٥١) والترمذى فى سننه (٢٩٧٦) والنسائى فى سننه (٥٤٢٣) وصححه الألبانى .

والفطرة السليمة تقتضى استقبال أوامر الله بالقبول والتسليم ، ولو تأملنا السورة من أولها سنجد أن الله كرر الحديث عن أمر الله ، فقال فى الآية الأولى: ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا .. (١) ﴾ [الطلاق] وفى الآية الثالثة قال : ﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

ثم يقول تعالى فى الآية الرابعة : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .. (٤) ﴾ [الطلاق]

ثم يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ .. (٥) ﴾ [الطلاق] فكأنَّ الأمر الذى سيُحدثه الله بعد ذلك هو ذلك التشريع والحكم فى العِدَّة وقبلها الرجعة ، وهذا الأمر سيكون يُسْراً على عباده لا عسراً ، لذلك قال تعالى : ﴿ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .. (٤) ﴾ [الطلاق]

ولم تتوقف الآيات عن ذكر أمر الله ، بل قال تعالى فى الآية الثامنة : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ[1] عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا .. (٨) ﴾ [الطلاق]

وكأنَّ الله يُحذر ويُنبه لعاقبة الخروج عن أمر الله وشرْعه وحكمه ، لذلك ناسب هنا أنْ يذكر الحقّ سبحانه تقوى الله وخشيته للمرة الرابعة من بداية السورة ، فيقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾ [الطلاق]

يُحدِّثنا الحق سبحانه مرة ثالثة عن ثواب التقوى وجزائها ، أما الأولى فقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أما الثانية فقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق]

---

(١) عتت : كفرت وتركت أمر ربها فلم تقبله . [زاد المسير الطلاق ٨] عتت : عصت وطغت . [البغوى فى تفسيره] . عتت : أعرضت . عتت : تكبرت وطغت .

إيجاد مخرج للمتقى مما هو فيه ، ثم التكفّل برزقه من حيث لا يحتسب ثم تيسير أمره ، وكلّ هذا فى الدنيا ، سنحلّ لك مشكلتك بإيجاد المخرج لك منها، وسنجعل رزقك من مصادر وموارد لم تكن تتوقعها ، وسنيُسّر لك أمرك ، كلُّ هذا بفضل تقواك لله ، فتقواك هى التى فتحت لك أبواب الخير كلها فى الدنيا .

ولكن ماذا عن الآخرة ؟ هنا تأتى آية ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا** (٥) ﴾ [الطلاق] فجزاءُ التقوى فى الآخرة أمران ذكرتهما الآية : تكفير السيئات ، وإعظام الثواب والأجر .

وتكفير السيئات مرتبطٌ بأنْ يجتنبَ الإنسانُ كبائرَ الذنوب كالزنا والقتل، يقول تعالى : ﴿ **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا** (٣١) ﴾ [النساء]

واجتناب الكبائر ليس معناه فقط عدم مزاولة الحدث أو الفعل ، ولكن أيضاً عدم الاقتراب من مظانّ الحدث حتى يسدّ المؤمنُ على نفسه مخايلة شهوة المعصية له وتصوّره لها وترائيها له .

ومعنى تكفير السيئات أى إماطة العقاب ، فإنِ ارتكب إنسانٌ أمراً يستحقّ عليه عقاباً وقد اجتنب الكبائر يُكفِّر عنه الله أى يضع ويستر عنه العقاب .

فالاجتناب إعطاءُ الشيء جانباً وهو التباعد ، وهو أبلغ من مزاولة الفعل. والكبائر جمع كبيرة وهى مقابلةٌ للصغير من السيئات ، وهناك ما هو أصغر من الصغيرة وهو اللمم(١) .

---

(١) اللمم فى كلام العرب : المقاربة للشيء . والمراد به هاهنا ستة أقوال :
- ما ألموا به من الإثم والفواحش فى الجاهلية فإنه يُغفر فى الإسلام .
- أن يلم بالذنب مرة ثم يتوب ولا يعود .
- أنه صغار الذنوب كالنظرة والقبلة .
- أنه ما يَهُم به الإنسان .
- أنه ما خطر بالقلب .
- أنه النظر من غير تعمد . [زاد المسير لابن الجوزى] .

والحق سبحانه هنا عندما يقول ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] المقصود بها صغائر الذنوب لا كبائرها ، لأن تكفير السيئات مشروطٌ باجتناب الكبائر ، إذن ليست الكبائر هي التي ستكفَّر بل الصغائر ، فالسيئات منوطةٌ بالأمر الصغير وبالأصغر .

والحق سبحانه لن يسقط العذاب والعقاب فقط ، بل سيزيدكم **الله** فسيعطيكم المدخل الكريم ، فقال تعالى : ﴿ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [النساء] ، ويقول سبحانه : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. (٢٦) ﴾ [يونس]

وقد كان يكفي تكفير السيئات وألاَّ تعاقب ، لكنك حين تتجنب الكبائر لا يسقط عنك العقاب فقط ، بل يُدخلك **الله** مُدخلاً كريماً .

والمدخل الكريم يتناسب مع مَن يُدخلك في مُدْخله ، فما بالك بمدخل يُدخلك إياه **الله** ؟

يقول رسول **الله** ﷺ : قال **الله** تعالى : « أعددتُ لعبادى الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر واقرءوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧) ﴾ [السجدة][1]

ولتكفير الذنوب والسيئات طرق أخرى هيأها **الله** لعباده تطهيراً لهم من السيئات والخطايا وتخفيفاً لأثقالهم فى يوم الحساب ، كالمرض والموت وغيرهما من القدريات التى يُجريها **الله** عليك ، حينها قُلْ إنَّ ربى أراد بى خيراً.

فبها تُكفَّر الذنوب والسيئات وبها أنال أجر الصابرين ، وربما أننى غفلتُ عن ربى أو غرَّتنى النعمة فابتلانى **الله** ليلفتنى إليه ويُذكِّرنى به .

وقد فتح الحق سبحانه أبواباً أخرى لتكفير السيئات والذنوب ، فجعل من

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٤٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣١٠) والترمذى فى سننه (٣١٩٧) وابن ماجه فى سننه (٤٣٢٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

أسس الاستغفار : من الصلاة للصلاة كفارةُ ما بينهما ، الجمعة للجمعة كفارة، الحج كفارة ، الصوم كفارة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارةٌ لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر »[1].

أى أن ربنا قد جعل أبواباً متعددة للمغفرة والرحمة ، من هذه الأبواب أيضاً صوم يوم عرفة ، ألم يقُلْ رسول الله ﷺ : « صوم يوم عرفة إلى صوم يوم عرفة يُذهب السيئات »[2] .

ويقول تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا[3] مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ .. (١١٤) ﴾ [هود]

وأول هذه الحسنات التى تُذهِب السيئات هى الإيمان بالله وأنْ تشهد أن لا إلــه إلا الله ، وهـذه حسنةٌ أذهبت الكفـر ، فالإيمان بالله هو أكبر صفة ، وهذه الحسنة تُذهِب الكفر .

وذهاب السيئة يكون إما عن طريق مَنْ يحفظ عليك العمل ويكتبه عليك فيمحوه الله من كتاب سيئاتك ، أو أنْ يعفو الله سبحانه عنك فلا يعاقبك عليه، أو يكون ذهاب العمل فى ذاته فلا يتأتّى ، وما وقع لا يرتفع أو يحفظها الله إنْ وقعتْ .

فهو سبحانه القائل : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١١٨) ﴾ [ق] ويقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) ﴾ [الانفطار]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٧٢) ، وأخرجه الترمذى فى سننه (٢١٤) ، وابن ماجه فى سننه (١٠٨٦)، وأحمد فى مسنده (١٠٢٩٠) وابن خزيمة فى صحيحه (٣١٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) مما ورد فى هذا ما أخرجه البيهقى عن الفضل بن عباس عن النبى ﷺ قال : "من حفظ لسانه وسمعه وبصره يوم عرفة غفر له من عرفة إلى عرفة " . شعب الإيمان (٣٤٩٠) .

(٣) الزلف : ساعات الليل ، واحدتها زلفة . وزلف الليل : المغرب والعشاء .

وهكـذا يكون إذهـاب السـيئة وتكفيرهـا ، إما محوهـا مـن الكتـاب ، وإما أنْ تظلّ فى الكتـاب ، ويُذهب الله سبحـانه عقوبتهـا بـالمغفرة .

والتقوى تنتظم كلّ أفعال الخير والحسنـات التى تُذهب السـيئـات ، لذلك قـال تعــالى : ﴿ وَمَــن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْــهُ سَيِّئَاتِهِ .. (٥) ﴾ [الطـلاق] وأنت عندمـا تتقى الله فى زوجك وأولادك وأهل بيتك وتعـاملهم بمـا يُرضـى الله سبحـانه وتجنِّبهم الحرج والعَوَز يغفر لك الله ويكفر عنك سيئـاتك .

والتقـوى مخـاطـبٌ بهـا الرجـل الزوج أو المطلّـق ، ومخـاطبٌ بهـا الزوجة أو المطلّقة ، فليتق الله كلٌ منهمـا فى أحكام الله سـواء الرجعة أو إحصاء العدَّة من قبَل الزوج أو الزوجة ، وأنْ لا تتلاعب المرأة فى أمر حيضتهـا وحمْلهـا لتتلاعب بـأمر ميراث أو غيره .

لهؤلاء جميعاً يقول تعـالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق] وليس هذا فقط ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا .. (٥) ﴾ [الطلاق]

بعد محو السـيئـات ومحو العقـاب عليهـا يـأتى إعظامُ الأجر والثواب ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ .. (٢٦) ﴾ [يونس]

وتعظيم الأجر قد يكون بمضـاعفة الجزاء على الحسـنة بعشرة أضـعاف إلى سـبعمائة ضـعْف . يقول تعــالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَــةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَــا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾ [الأنعام]

فـالأصـل هو الحسـنة ، وهذا هو مطلق الرحمة والفضل ، ولذلك ورد الحديث: « إنَّ ربكم عز وجلّ رحيم ، ومَنْ هَمَّ بحسـنة فلم يعملهـا كُتبت له حسـنة ، فـإنْ عملهـا كُتبتْ له عشراً إلى سـبعمائة ضعف إلى أضعـاف كثيرة ، ومَنْ هَمَّ بسيئة فلـم يعملهــا كُتبت لـه حسـنة ، فـإنْ عملهـا كُتبـت له واحـدة أو يمحوهـا الله عز وجل، ولا يهلك على الله إلا هـالك »[1].

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥١٩) والنسائى فى السنن الكبرى (٧٦٢٣ ، ١١٨٠١) وأبو عوانة فى مستخرجه (١٨٧) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٢٥٩١) وابن منده فى التوحيد (١٩٠) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

ولكن لماذا يجعل الله لنا أجراً على فعلنا الخير وعلى تقوانا له ، أليس الأَوْلَى أنِ يكون فعل الخير وتقوانا لله بدونِ أجر ؟

لقد وضع الحق سبحانه هذا الأجر لأنه جلَّ وعلا يريد للحسنة أن تُفعل وينتفع الغير بها ، فإنْ كان فاعلها حريصاً على الأجر الزائد فهو يقدمها بنية مخلصة، والناس يختلفون فيما بينهم ، والأكثرون يحبون أنْ يُؤجروا عما يفعلونه ، بل يزداد فعلهم للخير أكثر عندما يزداد الأجر ، هكذا طبيعة البشر .

والقليل هم الذين يفعلون الخير لحبِّهم لفعل الخير ويحبون الله لأنهم يحبونه، ولأنه أهلٌ للطاعة ولأنه أهْلٌ للحب ، فمَنْ أطاع الله رغبةً في النعيم بالجنة يأخذ جنة الله ، ومَنْ أطاع الله لأن ذات الله أهْلٌ لأنْ تُطاع فإن الله يعطيه متعة ولذةَ النظر إليه سبحانه .

تقول رابعة العدوية[1] في هذا المعنى :

كُلُّهُمْ يَعْبُدُون مِنْ خَوْفِ نَارٍ وَيَرَوْنَ النَّجَاةَ حَظاً جَزِيلاً
إنَّنى لسْتُ مِثْلَهم وَلهذَا لَسْتُ أبْغى بِمَنْ أُحِبُّ بَدِيلاً

وقالت أيضاً : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك خوفاً من نارك فأدخلنى فيها، وإنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، إنما أعبدك لأنك تستحقّ أنْ تُعبد .

فحبُّك لله ولطاعته ولتقواه هو الذى يرتقى بك فى مقامات الإيمان لا حُبك للثواب والأجر ، ورسول الله ﷺ يقول : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: مَنْ كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأنْ يُحبّ المرء لا يحبه إلا لله ، وأنْ يكره أنْ يعود فى الكفر بعد أنْ أنقذه الله منه كما يكره أنْ يُقذَف فى النار »[2] .

---

(١) هى رابعة بنت إسماعيل العدوية أم الخير مولاة آل عتيك البصرية ، صالحة مشهورة مولدها بالبصرة، لها أخبار فى العبادة والنسك ولها شعر، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هجرية .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦، ٢١ ، ٦٩٤١) وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٤، ١٧٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، وكذا أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٢٤) والنسائى فى سننه (٤٩٨٧ ، ٤٩٨٨) .

وفى الحديث القدسى : « أوَلوْ لمْ أخلق جنة وناراً ، أما كنت أهْلاً لأنْ أُعبد »؟ .

فالله تعالى بذاته سبحانه أكبر من أيِّ شيء حتى وإنْ كانت الجنة والأجر من الله ، ففى آخر سورة الكهف يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ [الكهف]

فلم يقُلْ : مَنْ كان يرجو جزاء ربه أو أجر ربه أو جنة ربه أو نعيم ربه ، إنَّ المؤمن الحق لا ينظر إلى النعيم بل يطمع فى لقاء المنعم سبحانه .

ومن تعظيم الأجر تبديل السيئات حسنات ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. (٧٠) ﴾ [الفرقان]

فالحسنة تعملها تُحسب لك بعشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة فتُحسب لك سيئة واحدة ، فكم من الحسنات ستكتب لك ؟ وكم من السيئات ستُكتب عليك ؟ ومع هذا فإن الله سيبدل سيئاتك هذه القليلة إلى حسنات .

وهذا دليلٌ على عظيم فضل الله ، وأنه سبحانه لا يريد أنْ يعذب عباده فهم خَلْقه خلقهم الله بيديه ، يقول تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾

لقد رتَّب الحق سبحانه حقوقاً للمرأة المطلَّقة فى السُّكنى والنفقة لم يرتبها دينٌ من الأديان ، ولا تشريع من الشرائع ، رَاعَى فيها الحق سبحانه أحوال المرأة من حيث طلاقها الرجعى أو البات البائن بينونةً صُغْرى أو كبرى .

ورتَّب حقوقاً للمطلَّقة الحامل لأنها أَوْلَى بالرعاية ، هى وابنها الذى من حقِّه رضاعة أمه له وإنفاق أبيه على رضاعته ، وأمر الجميع بالتشاور والتناصح من أجل مصلحة طفلهما رغبةً فى إرضاء الله .

والإسلام يحفظ للمرأة حقوقها تجاه زوجها الذى طلَّقها ، أياً كانت الحالة التى طُلِّقت عليها ، فإنْ كان طلاقها رجعياً احتفظ لها بحق السكنى فى مسكن الزوجية ، وكذلك النفقة عليها عسى أنْ يذيبَ القُرْب ما حدث بينهما من جفاء، فيُرجعها زوجها وتستمر بهما الحياة ويستقر الأمر بينهما ، وينشأ الأولاد بينهما فى جو سليم .

بل إن الله حرَّم على الزوج طرْدَ مطلّقته الرجعية من البيت وإلقاءها فى الشارع ، أو إرجاع الزوجة إلى بيت أهلها ، إلا إنْ جاءت بفاحشة واضحة لا تحتمل اللبس أو الشك أو عدم اليقين .

قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ .. (١) ﴾ [الطلاق]

ولكن ماذا عن حقِّها وقد بانتْ منه ، سواء بانقضاء عدَّتها أو أنه طلقها طلاقاً بائناً ، حينها لا يحقّ لها الرجوع إليه إلا بعقد جديد ومهر جديد .

وإلى أنْ تعود إليه بعقد جديد وصَداق جديد لها عليه حَقّ السُّكنى ، قال تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] فقوله تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] يعنى المطلقات اللاتى بِنَّ من أزواجهن فلا رجعة لهم عليهنَّ وليست حاملاً .

ولو كانت السُّكنى مع أزواجهن فى بيوتهن لما قال تعالى : (أسكنوهن) وكلمة ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] فيها معنى السكينة والطمأنينة ، أى أنْ يكون المسكنُ آمناً لها ، فالسكن هو المكان الذى يستريح فيه الإنسان ويرجع إليه دائماً ،ولذلك قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة]

فـ (اسكن) فيها عنصران : الهدوء والاطمئنان ، هذا هو معنى اسكن : توفير الهدوء والاطمئنان ، ومنه أُخذ اسم السكن وكلمة المسكن ، وإذا فقد المكان الذى تسكن فيه عنصراً من هذين العنصرين ، وهما الهدوء والطمأنينة لا يقال عليه مسكن .

والسكن يحقق الاستقرار ويتيح للإنسان أنْ يأكل براحة وتأنٍّ ، فسكنُك الحقيقى هو الذى تشعر فيه بالهدوء والراحة والخصوصية ، فالسكن يحتاج إلى استقرار ذاتيٍّ لا يشاركك فيه أحد .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ حَيْثُ .. (٦) ﴾ [الطلاق] فـ (من) للتبعيض ، ومعناه : أسكنوهن مكاناً من بعض مساكنكم ، ولذلك قال قتادة : لو لم يكُنْ له إلا بيت واحد أسكنها فى بعض جوانبه[1] .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. (٣٠) ﴾ [النور] أى بعض أبصارهم ، فمن الأبصار ما لا يُغضّ كالقاضى الذى يحكم فى قضية طرفها امرأة لا بدّ له من التحقُّق منها والنظر إليها .

وإذا كانت المرأة المطلَّقة من حقها مسكن مناسب هادىء مريح لها ولأولادها ، فمن باب أوْلى أن يُسكِن الزوجُ زوجته التى معه سكناً كريماً مناسباً ، فحق السُّكنى هو حقٌّ أوجبه الله تعالى .

---

(١) ذكره الطبرى فى تفسيره من قول سعيد بن جبير : فإن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه . وذكره ابن كثير فى تفسيره من قول قتادة : إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه . وكذا الشوكانى فى فتح القدير (٢٤٦/٧) .

فإذا وجبت السُّكنى للمطلَّقة فللتى فى صلب النكاح أوْلَى ، قال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (١٩) ﴾ [النساء] ومن المعروف أن يُسكنها فى مسكن ، لأنها لا تستغنى عن المسكن للاستتار عن العيون وليكون لها حرية تصرُّف فى مسكنها وحفظ متاعها وحاجياتها .

ويجب أنْ يكون السكن متناسباً مع متطلبات العصر وتتوفر فيه مقومات الحياة الضرورية ، ولكن ليس معنى هذا أنْ تتعنت المرأة فى طلباتها وتُرهق زوجها أو حتى طليقها بطلبات لا يستطيعها .

لذلك قال تعالى : ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُم .. (٦) ﴾ [الطلاق] أى سكناً مناسباً لحالتك المادية يتوافق معك قبل أنْ يتوافق معها، بحيث إنك ترضى أنْ تسكن فيه ولا تعافه ولا تستقذره .

ثم يضيف الحق سبحانه : ﴿ مِن وُجْدِكُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] فالشيء يتناسب مع قدرة صاحبه ، فالرجل الفقير حين يبنى مسكناً يكون المسكن متواضعاً مجرد حوائط تستر الإنسان ، أما صاحبُ الإمكانات الضخمة فيبنى قصراً كبيراً .

فالله أوجب السكن للمطلَّقة على مُطلِّقها ولكن مما يستطيعه ومما يجده لا يُكلّف أكثر من طاقته ، ولا يقصر عن طاقته الفعلية ، فلا يكون ذا إمكانات مرتفعة ، ثم يُسكن زوجته أو مُطلّقته سكناً غير مناسب لها ولا لقدرته المادية.

فقوله تعالى : ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] قوْلٌ مُعجز يندرج تحته كلام كثير ، وهو حَلٌ لمشاكل اجتماعية كثيرة تقع بين الرجل والمرأة .

فقوله ﴿ مِنْ وُجْدِكُم .. (٦) ﴾ [الطلاق] يعنى : من سعتكم التى تجدون ، والوُجْد : الغنى والمقدرة . إنْ كان موسراً يُوسع عليها فى المسكن والنفقة ، وإنْ كان فقيراً فعلى قدْر الطاقة .

فقدْر وحالة المسكن تكون بالمعروف بين الناس ، فهو البيت الذى يسكنه مثلُه ومثلها بحسب وُجد الزوج وعُسْره ، والوُجْد المقدرة والطاقة على ما يجد، فإنْ كان مُوسَّعاً عليه وسَّع عليها فى المسكن والنفقة ، وإنْ كان مُقتَّراً عليه فعلى قدْر ذلك .

والحق سبحانه يقول في موضع آخر : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) ﴾ [البقرة]

فنفقة المتعة تكون فى حدودٍ تناسب حالة الزوج . والموسّع الغنى عليه أنْ يعطى ما يليق بعطاء الله له ، والمقتر الفقير عليه أنْ يعطى فى حدود طاقته .

فالموسع هو الذى أوسع على نفسه بتوسيع حركة أسبابه فى الحياة ، والإقتار هو الإقلال ، وعلى قدْر السّعة وعلى قدْر الإقتار تكون المتعة ، كذلك السكن والنفقة .

والحق سبحانه لا يُكلّفنا إلا بما نقدر عليه ونطيقه ، يقول تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] ، وكلّ تكاليف الرحمن تدخل فى الوُسْع ، فإنْ كان سبحانه قد كلَّف فاعلم أيها الإنسان أنه سبحانه قد كلّف بما فى وُسْعك وبما يدخل فى طوْعك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] يعطينا الحق سبحانه هنا لفتةً إلى استخدام كلمة ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] ولم يقُل تعالى : ولا تضروهن . وكلاهما من مادة واحدة (ض ر ر) ولكن الفرق كبير بين اللفظين .

فـ (تضروهن) تدل على إيقاع الضرر ولكن قد يكون عن غير قصد ، فالزوج قد يفعل فعلاً ونيته حسنة ، فيتسبَّب هذا فى وقوع ضرر بالمرأة .

أما المضارَّة فهى الإضرار عن قصد وعمد ، بل وببذل الجهْد الكبير والمال للإضرار بالمرأة ، وهذه المضارَّة لها صور كثيرة يفعلها ويقع فيها مَنْ لم

يتأدَّبوا بأدب الإسلام ، فتجد رجلاً يضارُّ امرأته لتفتدى نفسها منه بمالها ، أو تخرج من مسكنه الذى اتخذه لها .

وقد تكون للمضارَّة صورةٌ أخرى فقد يُطلِّقها ، فإذا بقى يومان راجعها ، وبذلك يضيع حقُّها فى السُّكنى ، إنه لا يريد أنْ يلتزم بما حدَّه الله من حدود فى علاقته بامرأته فتجده يبذل كلَّ جَهْد ليُضيع حقّ المرأة ، فهو غير مُوقِن باطلاع الله عليه .

فلا تضارُّوهن عند سُكْناهن بقول أو بفعل ، وغرضكم من هذا أنْ يَمْلَلْن فيخرجن من البيوت قبل تمام العدَّة ، لأنكم حينئذ تكونون قد وقعتم فى نَهْى الله عن إخراجهن ، قال تعالى : ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ .. (١)﴾ [الطلاق]

فالحق سبحانه نهى عن إخراجهن ، ونهاهُنَّ عن الخروج وأمر بسُكْناهن ، ولكن على وجه لا يضرُّ بهن ولا يُسبِّب لهنَّ مشقة أو عنتاً .

فقوله ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] هو خطاب للأزواج بأنْ يلتزموا حدود الله مع مطلقاتهن اللاتى أمسكوا بهن فى بيوتهم ، وألاَّ يستعملوا معهنَّ الكيْد والضرر وصولاً إلى حملهن على ترْك ما لهنَّ من حقوق على أزواجهن .

فحقوق المعتدَّة هى السُّكنى والنفقة ، فأسكنوا المطلَّقات فى مسكن مشابه لما تسكنون فيه بقدْر أحوالكم وسِعتكم ، ولو فى غرفة من غرف البيت الذى تسكنون فيه .

ولا تُلحقوا بهنَّ ضرراً فى النفقة والسُّكنى فتضطروهن إلى الخروج من المسكن أو التنازل عن النفقة ، فلا تؤذوهن ولو بالكلام ﴿ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] كى يخرجن من بيوتهن كرهاً ، بل عاملوهن بالحسنى مدة عدَّتهن ، وتذكّروا وصية الله فيهن .

فالأمر يحتاج من الجميع مروءةً ومرحمةً وأدباً فى التعامل ووقوفاً عند حدود الله وأوامره ، غير عامدين إلى مضارّتهم ، سواء بالتضييق عليهن فى فسحة المسكن أو مستواه أو فى المعاملة فيه .

فحالات الطلاق دائماً فيها مُشادَّة وغيظ وحنق وكيد وتدبير مكائد ، لذلك يعالج الحق سبحانه هذا بشيء فوق القانون وهو الأخْذ بيد الجميع برفق ورحمة ليأخذوا من ينابيع المودة والمعروف التى فجَّرها فى القلوب بلمسات التقوى والأمل فى الله وانتظار رضاه وفرجه ويُسْره ومخرجه مما هم فيه .

فالله سبحانه يُرتِّب تعويضاً لمن يتقى الله ، فيقول : ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا** (٢) **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** .. (٣) ﴾ [الطلاق] ويقول : ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا** .. (٤) ﴾ [الطلاق] ، ويقول :﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا** .. (٥) ﴾ [الطلاق]

وقد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ ضارّ أضرَّ الله به ، ومَنْ شاقّ شاقَّ الله عليه »[١] .

بل إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ملعونٌ مَنْ ضارَّ مؤمناً أو مكر به » وقال : « ملعونٌ مَنْ ضارَّ مسلماً أو غرَّه »[٢] أى : خدعه وغشّه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** .. (٦) ﴾ [الطلاق]

المطلَّقات قد يكُنَّ حوامل وقد يكُنَّ غير حوامل ، وقد خَصَّ الله هنا ذوات الأحمال بحديث وبكلام يخصهنَّ لعظم الوصاية بهنّ ، فإن الله هو خالق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٧٩٣) والترمذى فى سننه (١٩٤٠) وأبو داود (٣٦٣٧) ، وابن ماجه (٢٣٤٢) وأبو القاسم البغوى فى معجم الصحابة (١٩٦٥) ، من حديث أبى صِرْمة واسمه قيس الأنصارى .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (١٩٤١) وقال : حديث غريب . وضعَّفه الألبانى وكذا أبو بكر المروزى فى مسند أبى بكر (١٠٠) مختصراً ، وقد رواه البزار فى مسنده (٤٣) مطولاً بلفظ : "لا يدخل الجنة جسد غُذِّى بحرام ، ولا يدخل الجنة سيء الملكة ، ملعون من ضارّ مسلماً أو غرَّه" .

الناس وعالمٌ بنفوسهم ، فهو سبحانه يعلم أنّ بعض الرجال قد يمتنعون عن النفقة على مطلّقاتهم من الحوامل رغم أنهن حوامل في أبنائهن .

فإنّ عدة الحامل هي حتى تضع حملها ، قال تعالى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ.. (٤) ﴾ [الطلاق] وهذه المدة قد تطول فقد يكون قد طلّقها وهي في الشهر الأول ، وهو مُلزم بالإنفاق عليها طول مدة عدّتها .

لذلك جاء قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] ، فنفقتُها واجبة عليه حتّى تضع حملها أي حتى تنتهي عِدّتها .

والحق سبحانه تحدَّث في عموم المطلّقات البائنات أولاً عند الكلام عن السُّكنى ، ولكنه سبحانه أوجب للحامل منهنَّ حقاً آخر وهو النفقة عليهن ، وقد قال بعض العلماء : إن الله سبحانه لما ذكر السُّكنى أطلقها لكلِّ مطلَّقة ، فلما ذكر النفقة قيَّدها بالحمْل ، فدلَّ على أن المطلقة البائن لا نفقةَ لها .

ويدلُّ على هذا حديث رسول الله ﷺ الذي حدَّثتْ به فاطمة بنت قيس[1] قالت: أرسل إليَّ زوجي أبو عمرو بن حفص بطلاقي ، وأرسل معه بخمسة آصع[2] تمر وخمسة آصع شعير ، فقلت : أما لي نفقة إلا هذا ولا أعتدّ في منزلكم ؟ قال : لا ، قالت : فشددتُ عليَّ ثيابي وأتيتُ رسول الله ﷺ ، فقال : كم طلَّقك ؟ قلتُ : ثلاثاً. قال : صدق ليس لك نفقة . اعتدّي في بيت ابن عمك ابن أم مكتوم فإنه ضرير البصر تلقي ثوبك عنده ، فإذا انقضتْ عِدَّتك فآذنيني[3] أي : أعلميني .

---

(١) فاطمة بنت قيس هي أخت الضحاك بن قيس القريشية الفهرية ، إحدى المهاجرات الأُوَل الجميلات العاقلات ، وهي التي روت قصة الجساسة بطولها فانفردت بها مطولة ، في بيتها اجتمع أهل الشورى لما قتل عمر . قال ابن سعد : أمها أميمة بنت ربيعة من بني كنانة . (طبقات ابن سعد ٨/ ٢٠٠) . وانظر أسد الغابة لابن الأثير (٣/ ٤٠٠) .

(٢) آصع : جمع صاع . والصاع يساوي أربعة أمداد ، والمدّ ملء كفّي الرجل وذهبت هيئة كبار العلماء في السعودية إلى أن الصاع يساوي ٢,٦٠٠ كيلو جرام ، على أساس أن المدّ لديهم هو ٦٥٠ جراماً . ومعلوم أن المد يختلف من رجل لآخر .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٧٨٦) والترمذي في سننه (١١٣٥) والنسائي في سننه (٣٤١٨) وأحمد في مسنده (٢٧٣٦١) والنسائي في السنن الكبرى (٥٥٨١) من حديث فاطمة بنت قيس .

فهذه امرأة طُلِّقت طلاقاً بائناً فليس لها سُكنى ولا نفقة ، وإنْ كان الإمام أبو حنيفة قد ذهب إلى أنَّ لها سكنى ونفقة ، لأن منْع هذا عنها هو مضارَّة لها ، والمضارَّة نهى الله عنها ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق]

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن حق الرضيع بعد وَضْع الحمل وقد انقطعتْ نفقتها فيُرتِّب الحق سبحانه حقاً مالياً آخر فى ذمة الزوج تجاه الرضيع ، فيقول تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق]

وكأنَّ الحق سبحانه يجعل للمرأة حقاً ولكن من خلال حق الرضيع ، فهى أم ، وعلى كل الأحوال فهى ستُرضع ابنها ، ولكن الله يجعل لها أجراً على إرضاعها ابنها .

والحق سبحانه يُنزل للرضيع لبناً فى صَدر أمه يجده وقت أنْ يجوع ويمتنع وقت أنْ يشبع وينتهى ، ويتوقف عندما تتوقف الرضاعة ، فالله يُنزله للرضيع، ومع ذلك يُوجب الحق سبحانه على مطلّق المرأة أنْ يدفع لها أجراً على إرضاعها لطفله الذى هو طفلها .

وذلك وضْع للرجل أمام مسؤلياته فهو مسئولٌ عن إرضاع ابنه ، ثم إنه مسئولٌ عن نفقة ابنه بعد انتهاء فترة رضاعته التى قد تصل إلى عامين كاملين .

يقول تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ .. (٢٣٣) ﴾ [الطلاق]

فعظمةُ الحق سبحانه أنه يتكلم عن إرضاع الوالدات لأولادهنَّ بعد الطلاق، فالطلاق يُورث الشقاق بين الرجل والمرأة ، والحق سبحانه وتعالى ينظر للمسألة نظرةَ الرحيم العليم بعباده ، فيريد أنْ يحمى الثمرة التى نتجتْ من الزواج قبل أنْ يحدث الشقاق بين الأبوين . فيُبلغنا سبحانه : لا تجعلوا شقاقكم

وخلافكم وطلاقكم مصدر تعاسة للطفل البريء الرضيع .

وهـذا كلامٌ عـن المطلَّقات اللاتى تركْـنَ بيوت أزواجهن ، فهُـنَّ بعيدات عن الرجل ، لأنها لو كانت معه لكان رزقُ الوليد وكسوتُه أمراً مفروغاً منه ،والحق سبحانه هنا يفرض حقاً للرضيع ، وأمه لم تكُنْ تستحقه لولا الرضاع .

وبعضُ الناس فهموا خطأ أن الرزق والكسوة للزوجات عموماً ، ونقول لهم: إن الرزق والكسوة هنا للمطلَّقات اللاتى يُرضعن فقط .

وقد تُرضـع الأم المطلقة ابنها وقد لا تُرضـعه هى ، فإنْ أرضعته هى فعلى مُطلِّقها أبى الولد أنْ يعطيها أجرَ ما أرضعتْ ، هذا طبعاً فى المطلَّقات ، بالاتفاق بينهمـا ، فـإذا رضـيتْ بأنْ تُرضـعه بأجـر مثلها لم يكُـنْ للأب أنْ يسترضـع غيرها.

وعليه أنْ يُوفيها أجر رضاعتها وكلّ ما يلزم من أصناف النفقة ، وهى أحقُّ بولدها من غيرها ، فشفقة الأم على ابنها أتمّ من شفقة غيرها عليه .

فإذا وضـعنَ حملهن وهُنَّ طوالق فقد بنَّ بانقضـاء عدَّتهن ، ولها حينئذ أنْ تُرضـع الولد ، ولها أنْ تمتنع منه ولكن بعد أنْ تُغذِيه باللبأ وهو باكورة اللبن الذى لا قوامَ للولد غالباً إلا به ، وهو ما يسميه العامة (لبن السرسوب) ، فإنْ أرضـعتْ استحقتْ أجر مثلها ، ولها أنْ تُعاقد أباه أو وليّه على ما يتفقان عليه من أجرة .

وقـد نصَّ الحق سبحانه هنا ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] نصّ على أن أجر الرضاع وما يلحق به من الكسوة والرزق إنما هو على الرجل المطلق ، لأن الرضـاعة كانت حقـاً على المرأة دون طلب أجر وهى فى عصمة زوجها ، فلما بانتْ منه بوضْعها لحملها أراد الحق سبحانه أنْ يُنبه الرجل على مسئولية المطلِّق عن رضاع ولده .

ثـم يقـول تعـالى : ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ .. (٦) ﴾ [الطلاق] هنا دعوة

للرجل والمرأة للتشاور فى أمر رضاعة الرضيع والتفاهم فيما بينهما فيما يتعلق بشئون أبنائهما ، وفيما هو أنفع لهم .

والحق سبحانه يحثُّهما على أن يكون تشاورهما وتفاهمهما بمعروف، بالحسنى وبرحابة الصدر والعقل . دون مماكسة وتهرُّب من جانب الزوج ، ودون معاسرة وإحراج للآباء من جانب المطلَّقة .

فلتتشاورا ولتأتمرا فيما بينكما بأمر ينتهى باتفاق على أجرة معقولة، لا إفراطَ فيها ولا تفريط ، من غير إضرار ولا مضارة ، كما قال تعالى : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِه .. (٢٣٣) ﴾ [البقرة]

فقوله تعالى : ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوف .. (٦) ﴾ [الطلاق] هو خطاب للرجال والنساء ، أى يأمر كل واحد منكم صاحبه بخير من المسامحة والرفق والإحسان.

فتؤمر أنت بالإحسان إليها ، وتؤمر هى بالطاعة لك ، فليقبل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل من كلٍّ منهما ، فالجميل منها إرضاع الولد من غير أجرة ، والجميل منه توفير الأجرة عليها للإرضاع ، فالمهم هو مصلحة الولد وألاَّ يلحق به ضرر .

وليأمر كلّ واحد صاحبه بخير ، ولا شكّ أن مَنْ أمر بخير فهو أسرع إلى فعل ذلك الخير ، ليقبل كلّ واحد ما أُمِر به من المعروف والقبول والامتثال بما ائتمروا عليه بمعروف .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) ﴾ [البقرة] فالعدل وحده قد يكون شاقاً ، وقد يُبقى البغضاء فى النفوس ، أما عملية الفضل فتُنهى المشاحّة والمخاصمة والبغضاء .

والمخاصمة إنما تأتى عندما أظن أنِّى صاحب الحق وأنت تظن أنك صاحب الحق ، ومن الجائز أنْ تأتى ظروف تُزيِّن لى فَهْمى ، وتأتى لك ظروف تُزيِّن لك

فهمك ، فحين نتمسَّك بقضية العدل لن نصل إلى مبلغ التراضى فى النفوس البشرية ،ولكن إذا جئنا للفضل تراضيْنا وانتهينا .

فالفضل أنْ تتنازلَ عن حقك ، وهو يتنازل عن حقه وتنتهى المسألة ، والحق سبحانه حين يُشرِّع الحقوق يضع الضمانات ، ولكنه لا يمنع الفضل بين الناس.

ولكن المشكلة هى أنه فى حالات كثيرة يكون العذر والمكابرة والمخاصمة والمشاحنة هو الأكثر بين الناس إلا مَنْ رحم ربِّى ، ووارد أنْ يحدث عدم اتفاق على أجر الإرضاع والنفقة ، إما من قِبَل الزوج الذى لا يريد أنْ يدفع ، أو يدفع ولكن يدفع أجراً زهيداً لا يقوم بالطفل ولا بأمه .

أو يأتى من قِبَل المطلَّقة بالشطط فى الحدِّ الذى تريده أجرةً على الرضاع ، بأنْ تطلب ما لا يستطيعه الزوج ويُسبِّب عُسْراً له ، وأحياناً يكون رفْض الزوج للدفع هو هذا الشطط .

فمعنى ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] أى إذا تضايقتم وتشاكستم ، والتعاسر مأخوذ من العُسْر الذى هو ضد اليُسْر والسماحة .

فماذا يكون الحل أمام الأب إزاء تعنُّت المرأة فى طلباتها ، حينها من حقِّه أنْ يبحث عن مرضعة أخرى تُرضع له ولده .

ومن إعجاز القرآن قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) ﴾ [الطلاق] ، وكأن الحق سبحانه يلفت نظر المرأة أنَّ الأمر ليس وقفاً عليه ، فإنْ كنتِ لن تُرضعيه بالمعروف والإحسان ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ .. (٦) ﴾ [الطلاق] أى للأب ﴿ أُخْرَى (٦) ﴾ [الطلاق] أى امرأة أخرى .

فـ (الفاء) هنا تنبيه للمرأة أن هناك حلاً آخر بعيداً عنها ،وسيُنزع منها الطفل لتُرضعه أخرى وتضمّه لصدرها وتُحرم هى من نظرة طفلها لها وهى تُرضعه .

والمرأة هنا هى الأَوْلَى بالمعاتبة لأن المطلوب منها هو اللين فقط مع الرجل وعدم إعساره وإعجازه ، فهو دافعٌ للمال فلا داعيَ للتعنُّت معه كَثر أم قلّ، فلتلينى راضيةً وإلا ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) ﴾ [الطلاق]

وأيضاً فالمطلوب منها هو لبنها لولدها ، وهذا لن تدفع فيه شيئاً ، فالله يُنزله فى ثدييها دون إرادة منها إلا ما كان من الاهتمام بأمر غذائها ليجرى فيها لبنٌ يكفى طفلها ويقوم بها .

ولكن قد يُقال : ماذا لو لم يقبل الطفلُ ثدى امرأة أخرى ، حينها تُجبر أمه على إرضاعه بأجرة مثلها حتى لا يتضرَّر الولد .

وللاسترضاع آدابه التى حدَّثنا الحق سبحانه عنه ، فقال : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ .. (٢٣٣) ﴾ [البقرة]

فإنْ أردتم أنْ تأتوا للطفل بمرضعة فلا لوْمَ عليكم فى ذلك ، وهذه المرضعة التى تُرضع الوليد تحتاج إلى أنْ يُعطيها الأب ما يسخيها ويجعلها تُقبل على إرضاع الولد بأمانة والإشراف عليه بصدق .

وعلى الرجل ألاَّ يُدلِّس على المجتمع ويتظاهر بتنفيذ أحكام الله فى الاسترضاع، فيقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾ [الطلاق]

فتجد الأب عندما يرى مرضعةَ ابنه أمام الناس فهو يدَّعى أنه ينفق عليها ويُعطيها أجرها كاملاً ويقابلها بالحفاوة والتكريم ، بينما الواقع مخالفٌ لذلك، فأنت لا تعامل المجتمع وإنما تعامل الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧ ﴾

على الإنسـان أنْ يُحسـن الحركة فى الأرض ويعمل عملاً يكفيه ويكفى مَنْ يعول ، ثم يفيض لديه ما يُحسن به .

والفـارق بـين المؤمن والكافر فى حركة الحياة أن الكافر يعمل فى أسـباب الحياة لينتج ما يقُوته ويقُوت مَنْ يعول فقط ، أما المؤمن فإنه يزيد عليه أنَّ ما يفيض عنه يتوجه به إلى غير القادر على العمل مُحتسباً ذلك عند الله .

فلم يُغر الله الإنسان أنْ يتحرَّك لنفسه فقط ، ولكن أغراه أنْ يتحرك فى الحياة حركةً تسعه وتسع مَنْ يعول ، فحركتُك ستنفع كلَّ الدوائر حولك .

هذه الدوائر هـى المذكورة هنا فى حديث رسـول الله : نفسـك ، ولدك ، أهلك ، زوجتك ، خادمتك .

وما دام الحق قد وضـع لنا الأسـباب لاسـتبقاء الحياة ، ووضـع لنا أسلوبَ السـعى فى الأرض لتسـتبقى الحياة بالحركة فيها ، فقد وضـع أيضـاً الوسيلة الكريمة لاستبقاء النوع ، وجعل من حركة الأصل ما يعود على الفرعِ .

وقـد أوجد الحق سبحـانه فـى نفس كل واحد غريزةَ الحـب والحنان ، ونحن نـرى هـذه الغريزة كآية من آيـات الله مُتمكِّنة فى نفوس الآباء ، ولهذا يسـعى الأب فى الحياة ليستفيد هو وأولاده .

والـذى يتحرك حركةً واسـعة فـى الحياة قد يأتـى عليه زمـان يكفيه عائد حركتـه بقيـة عمره لأنه تحرَّك بهمة وإخلاص ، وأفـاء الله عليه الرزق الوفير ، وقد يتحرك رجلٌ لمدة عشرين عاماً أو يزيد ، ويضمن لنفسه ولأولاده من بعده الثروة الوفيرة .

وهناك مَنْ يكدّ ويتعب فى الحياة ويكسب رزقاً يكفيه ويكفى الأبناء والأحفاد، وهكذا نجد الذين يتحركون لا يسـتفيدون وحدهم فقط ، ولكن المجتمع يستفيد أيضاً .

والحـق سبحـانه يكلِّف كلَّ مؤمـن أنْ يأخذ مسئولية الإنفاق علـى الدائرة

القريبة منه ، ليتحمل كلّ موجود فى الحياة مسئولية قطاع من المجتمع مربوط به رباطاً نسبياً كالوالدين والأقربين .

بل إنه سبحانه أمرنا أنْ نجعل الضعفاء من الأيتام مشاعاً على المجتمع مطلوبين من الجميع ، سواء كانت تربطهم بنا قرابةٌ أو لا تربطنا بهم قرابة ، فهم جميعاً أقاربنا لأن الله كلَّفنا بأنْ نرعاهم .

واعلم أن هذا رزقهم هم ساقه الله إليهم عن طريقك ، فقد تربح مالاً وفيراً ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه فلا يكون هذا رزقك ولكنه رزق غيرك وأنت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً حتى تُوصِّله إلى صاحبه .

ولو امتنَّ عليك خادمك بالخدمة فتقول له : بل خدمتَ نفسك وخدمتَ عيالك حينما خدمت لتوفر لك ولهم أسباب العيش ، وأنا الذى تعبتُ وعرقتُ لأوفِّر لك المال الذى تأخذه لتنفقه وتُوصِّله لعيالك .

فكلٌّ يخدم عياله ويسعى ويكدّ ليجنى مالاً ينفقه على عياله ، والرزق من الله عز وجل، والحق سبحانه يقول : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٢٦) ﴾ [الرعد] أى : أنه سبحانه يمدّ الرزق ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٢٦) ﴾ [الرعد] من القدْر .

أى فى حالة إقداره على المقدور عليه ، وهو مَنْ يعطيه سبحانه على قدر احتياجه ، لأن القَدْر هو قطع شيء على مساحة شيء ، كأنْ يعطى الفقير ويبسط له الرزق على قدر احتياجه .

أو يقدر بمعنى يضيق على إطلاقها ، ويقول سبحانه : ﴿ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] ولأن الله آتاه فهذا يعنى أنه بسط له بقدره . والبسْط يكون بقدر أيضاً ، ومعنى ﴿ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] أى : يضيق عليه .

واللام فى قوله تعالى : (لينفق) هى لام الأمر وقد جاءتْ مكسورةً لأنها فى أول الجملة ، ولايُبتدأ فى اللغة بساكن فحركت بالكسر للتخلُّص من السكون. ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق]

فجاءت لام الأمر ساكنة ، لأنها واقعة فى وسط الكلام .

والحق سبحانه يأمر بالإنفاق ، فالإنفاق فيه حركة للمجتمع وفيه تكافلٌ، أما عدم الإنفاق والتقتير فإنه يُوقف حركة المجتمع ، وما دام الحق سبحانه يأمر بالإنفاق فلا بدّ أنْ نعرف ما هو الشيء الذى سننفقه ، ومَن الذى يستحق أنْ ينفق عليه .

وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله عندى دينار . قال : أنفقه على نفسك . قال : عندى آخر . قال : أنفقه على ولدك . قال : عندى آخر . قال : أنفقه على أهلك ، قال : عندى آخر . قال : أنفقه على خادمك . قال : عندى آخر . قال : أنت أعلم(١) .

وقد كان أبو هريرة رضى الله عنه إذا حدَّث بهذا الحديث يقول : يقول ولدك: أنفق عليَّ إلى مَنْ تكلنى . تقول زوجتك : أنفق عليَّ أو طلِّقنى ، يقول خادمك : إلى مَنْ تكلنى أنفق عليَّ أو بعْني(٢) .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾ [البقرة]

فالإنفاق يكون من الخير الذى آتانا الله إياه وهو الشيء الحسن النافع ، والمنفق عليه هو دوائر الذى ينفق ، لأن الله يريد أنْ يحمل المؤمن دوائره الخاصة، حتى تلتحم الدوائر مع بعضها فيكون قد حمل المجتمع على كل المجتمع .

فالحق سبحانه حين يُحمِّلنى مهمة الإنفاق على أسرتى ووالديَّ والأقربين فهذه صيانة للأهل ، وكلٌّ واحد منّا له والدان وأقربون ودائرتى أنا تشمل والدى

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٣٣٣٧) ، وأحمد فى مسنده (٢/٢٥١ ، ٤٧١) ، وأبو داود فى سننه (١٦٩١) والنسائى فى سننه (٥/٦٢) والحاكم فى مستدركه (١/٤١٥) والبيهقى فى سننه (٧/٤٦٦) . عن أبى هريرة رضى الله عنه . وفى بعض روايات الحديث : أنت أبصر .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٧٤٢٣) من حديث أبى هريرة ، وقالوا : يا أبا هريرة هذا شيء قاله رسول الله أم هذا من كيسك ؟ قال : بل هذا من كيسى . (أى من عقلى) .

وأقاربى وهكذا ، ثم تشيع مهمة الإنفاق فى أمر آخر فى اليتامى والمساكين .

ولو حسبنا دوائر كل واحد من الوالدين والأقربين وما يكون حوله من اليتامى والمساكين فسنجد الدوائر المتماسكة قد شملت كل المحتاجين ويكون المجتمع قد حمل بعضه بعضاً ، ولا يوجد بعد ذلك إلا العاجز عن العمل .

والإنفاق هو الإخراج ، أى إخراج المال عن ملكية الإنسان ببيع أو هبة أو صلة ، فإنْ أردتَ أنْ تفتح لنفسك باب البر مع **الله** ، فوسع دائرة الإنفاق وستجد أن البر قد أخذ حيزاً كبيراً من الإنفاق ، لأن المنفق مُستخلف عن **الله** .

فـ**الله** هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام هو المستدعى إلى الوجود فهو سبحانه مكلّف بإطعامه ، وأنت إذا أنفقتَ على مَنْ كلّفك **الله** بالإنفاق عليه فإنك تتودد إلى **الله** بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أنْ يلزمك به **الله** .

إنَّ عليك أنْ تتحرك فى الحياة حركةً تسعك وتسع أنْ تنفق على مَنْ تعول، وإلا لو تحركتَ حركة على قدرك فقد لا تجد ما تنفقه ، فعلى كلِّ مؤمن أنْ يأخذ مسئولية الإنفاق على الدائرة القريبة منه ، ليتحمل كلُّ موجود فى الحياة مسئولية قطاع من المجتمع مربوط به رباطاً نسبياً كالوالدين والأقربين .

والرجل مُطالب بالكدح والسَّعى من أجل الإنفاق ، والإنفاق يجب أنْ يكون من الكسب الطيب الحلال ، فلا تأتِ بمال من مصدر غير حلال لتنفق منه .

والمنفق إما ذو سعة قد وسَّع **الله** عليه وبسطَ له الرزق ، وإما رجل قد قُدر عليه زرقه فله قدرٌ محدَّد من الرزق .

ومناسبة الآية هنا الكلام عن الإنفاق على قدر السعة جاء باعتبار الآية السابقة قوله تعالى : ﴿ **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ** .. (٦) ﴾ [الطلاق]
أى : مما تجدونه دون إرهاقكم بشيء فوق طاقتكم . ثم قوله تعالى : ﴿ **وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** .. (٦) ﴾ [الطلاق]

يريد الحق سبحانه أنْ لا تشتط المرأة فى طلبات النفقة عليها وإلزامه بما

لا يستطيعه ، ويكون فوق طاقته واحتماله ورزقه الذى رزقه الله به وبما آتاه إياه .

فيُبيِّن الحق سبحانه أنَّ أمره للرجل بالإنفاق مرتبط بقدر سعة ماله وغناه ورزقه ، فينبغى أنْ تكون النفقةُ فى حدود تناسب حالة الزوج ، فالموسع الغنى عليه أنْ يعطى ما يليق بعطاء الله له ، والمقتر الفقير عليه أنْ يعطى ما يليق بعطاء الله له ، والمقتر الفقير عليه أن يعطى فى حدود طاقته .

يقول تعالى : ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ .. (٢٣٦) ﴾ [البقرة]

و (الموسع) مشتق من « أوسع » واسم الفاعل (موسع) ، واسم المفعول (موسَع له) .

فإنْ نظرتَ إلى أنَّ الرزق من الحق فهو (موسَع له) ، وإنْ نظرتَ إلى أن الحقَّ يطلب منه أنْ توسع حركة حياتك ليأتيك رزقك ، وعلى قدر توسيعها يكون اتساع الله لك فهو موسع .

فـ (الموسع) هو الذى أوسع على نفسه بتوسيع حركة أسبابه فى الحياة . والإقتار هو الإقلال ، وعلى قدر السعة وعلى قدر الإقتار يكون الإنفاق .

والله سبحانه هو الواسع العليم ، مُلْكه واسع ورزقه واسع ، ولا تظنوا أنَّ كوْنَ الله سيضيق عن رزق الرجل المفارق لزوجته ، أو المرأة المفارقة لزوجها من عطاء الله لهما .

فما دام سبحانه قد قرر الفراق كحلٍّ لعدم توافق فى حياتهما معاً ، فهو سبحانه سيعطى عن سعة للزوج وعن سعة للزوجة ، فلينفق الرجل من سعته على مُطلَّقته وعلى رضيعه ، ولتتأكد الزوجة أن الله سيُوسع لها فى الرزق إنِ اتقتْ الله عز وجل ولم تتعنت فى طلباتها المالية وطلبات رضيعها .

يقول تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٢٦) ﴾ [الرعد] والبسط هو مدّ الشيء ، فالحق سبحانه يمد الرزق لمن يشاء ويقدر .

ويقول سبحانه أيضاً : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) ﴾ [الإسراء]

فالله الذى لا تنفد خزائنه يعطى خلْقه بقدر ، فلا يبسط لهم الرزق كلّ البسط ولا يقبضه عنهم كلّ القبض ، بل يبسط على قوم ويقبض على آخرين لتسير حركة الحياة لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسَّعه على جميع الناس لاستغنى الناسُ عن الناس ، وحدثتْ بينهم مقاطعة تفسد عليهم حياتهم .

ووراء ذلك حكمة بالغة لله تعالى ، وعلى العبد أنْ يرضى بما قسم له فى الحالتين ، وأنْ يسير فى حركة حياته سيراً يناسب ما قدّره الله له من الرزق .

﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] أى : مَنْ ضيق عليه الرزق فلينفقْ على قدره ولا يتطلع إلى ما هو فوق قدرته وإمكانياته ، وهذه نظرية اقتصادية تضمن للإنسان الراحة فى الدنيا وتوفِّر له سلامة العيش .

ومَنْ يتأمل قوله تعالى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ .. (٧) ﴾ [الطلاق] يجد أن الحق سبحانه نسب السعة إلى الإنسان الموسَّع عليه الغنى المتيسّر الحال ، أما مَنْ قُدر عليه رزقه ، فقال تعالى : ﴿ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق]

فنسب ما عند الفقير إلى أن هذا هو ما آتاه الله إياه ، وكأنَّ الحق سبحانه فى الأولى يجعل السعة من سعى الإنسان مع أنَّ ما كسبه نتيجة سعيه هو أيضاً مما آتاه الله .

فالله كما قلنا يبسط الرزق لمَنْ يشاء ، أما قوله تعالى فى حالة التقدير ﴿ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] فهى لفتةٌ للمرأة أنه إذا كان مُطلّقها غير قادر ، وليس عنده ما يُلبِّى طلباتها فهذا ليس ذنبه ، إنما هذا ما قدَّره الله له من رزق .

ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَنْ قُدِرَ .. (٧) ﴾ [الطلاق] ببناء الفعل للمجهول دلالةً على أنَّ أمر الرزق وتوسيعه أو تقريره ليس بيد الإنسان ، إنما هو محْضُ عطاء من الله ، فهذا الذى قدر عليه رزقه إنما قدّره الله وحدَّد له رزقاً محدداً .

والإنســان إنمــا يُنفق مما آتاه الله ويرزقه إياه ، بقــدر غناه وثرائه أو فقره ، فعلى الوالد أنْ ينفق على الأم المرضع التى طلَّقها بقدر سعته وغناه .

ومَــنْ كان رزقــه بمقدار القوت فحســب فلينفقْ على مقــدار ذلك لا يُكلف الله أحداً من النفقة على مَنْ تلزمه نفقتهم إلا بمقدار ما آتاه الله من الرزق .

وهذا بحسب إعساره أو يساره ، وغناه أو فقره ، فالله لا يُكلِّف نفساً إلا ما أعطاها من قدرة أو غِنى ، وعند الاختلاف يُقدِّر القاضى النفقة وتكون بحسب دخْل الرجل وما يملك من مال .

وهــذا فيه مراعــاةٌ لحال المعسر إنْ كان صــادقاً ، وترغيب لــه فى أنْ يبذل مجهوده للإنفاق .

والإنسان إنما ينفق بحسب سعته ، وقد سأل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة أى عن حاله ، فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ويأكل أخشن الطعام فبعث إليه بألف دينار .

وقال للرسول : انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها ، فما لبث أنْ لبس الليِّن من الثياب وأكل طيِّب الطعام فجاءه الرسول فأخبره فقال : رحمه الله تأوّل هذه الآية ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق][1]

وعن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله ﷺ : ثلاثة نفر كان لأحدهم عشرة دنانير فتصدَّق منها بدينار ، وكان لآخر عشر أواق فتصدَّق منها بأوقية، وكان لآخر مائة أوقية فتصدّق منها بعشر أواق[2] .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور وعزاه لابن جرير الطبرى عن أبى سنان (الطلاق ٧) وأخرجه الطبرى فى تفسيره (٣٤٦٦٦) ، وهو فى جامع الأحاديث (٣٠١٢١) وكنز العمال (٤٦٥٧) وعزاه لابن جرير الطبرى .

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٣٦١) ، وكذا فى معجم الشاميين (١٦٦٢) وضعَّفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٣٤٤٩) من حديث أبى مالك الأشعرى ، وكذلك ضعفه فى ضعيف الجامع (حديث رقم ٢٥٨٨) .

فقال رسول الله : هم فى الأجر سواء ، كُلٌّ قد تصدَّق بعشر ماله ، قال تعالى: ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِه .. (٧) ﴾ [الطلاق] ، فلا يكلّف الفقير مثلما يكلّف الغنى ، لذلك قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا .. (٧) ﴾ [الطلاق]

فمَنْ وسَّع اللهُ عليه الرزق فلينفق عن سعة فى السكن والنفقة وأجر الرضاع، ومن كان رزقه ضيقاً فلا حرج عليه فلينفق بقدر ما يستطيع .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] والوسع هو الطاقة والقوة والقدرة ، فعلى قدْر طاقتك وقدرتك يُكلفك ربك .

وهو سبحانه لا يكلفُ إلا بما فى وُسْعك ، بدليل أن المشرع سبحانه يعطى الرخصة عندما يكون التكليفُ ليس فى الوسع ، وهنا سبحانه يأمر بالإنفاق فقال (لينفق) ثم يعطى الرخصة فى نفس الآية ، فيقول تعالى : ﴿ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِه .. (٧) ﴾ [الطلاق]

فالتكليف مرتبط بالوسع والطاقة ، أما مَنْ لا يقدر ولا يستطيع فيفتح اللهُ له باباً فسيحاً يُهدِّىء النفوس ويحدُّ من الخلافات والمشاحنات ، فيضع الحقُّ سبحانه مبدأ :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا .. (٧) ﴾ [الطلاق] فلا تظنُّوا أنّ الله حين يكلف الإنسان يُكلِّفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذى يضع نفسه فى موضع الشطط .

فلا تفترض وتُقدِّر أنت تكاليف المعيشة ، ثم تحاول إخضاع إرادتك إلى هذا التصوّر ، بل انظر إلى الوارد إليك وعِشْ في حيز وإطار هذا الوارد ، ولا تختلس ولا ترتشِ . ثم تقول : هذا ما آتانى الله .

فإنْ كان دخلُك مائة جنيه فرتِّب حياتك على أنْ يكون مصروفك يساوى دخلك لأن الله لا يكلفك إلا ما آتاك ، ولننظر إلى ما آتانا الله ، لذلك لا تدخل فى حساب الرزق إلا ما شرع الله ، فلا تسرق ولا تنهب .

عليك ألاّ تأخذَ ولا تنتفع إلا بما أحلَّ الله لك ، فإنْ عشْتَ فى نطاق ما أحلَّ الله يُعنك الله على كلِّ أمرك وكلِّ حاجاتك ، لأنك تحيا بمنهج الله ، فيصرف عنك الحقُّ مهمات الحياة التى تتطلب أنْ تزيدَ على ما آتاك الله ، فلا تخطر على بالك أو على بال أولادك .

فأنت إذا دخلتَ السوق وآتاك اللهُ قدراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات لكن الحقَّ سبحانه يجعلك لا تنظر إلا فى حدود ما فى طاقتك ، وكذلك يحسِّن لك الله ما فى طاقتك ويُبعد عنك ما فوق طاقتك ، لأن الله لا يُكلِّف نفساً إلا ما آتاها ، ولا يُحرِّك شهوات النفس إلا فى حدود ذلك .

والحق سبحانه يُطمئن الجميع ، فيقول تعالى واعداً : ﴿ **سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** (٧) ﴾ [الطلاق] فمن قتر عليه رزقه سيُيسِّر الله حاله ويُزيل حالة عُسْره، ويُبدِّله بدلاً منها يُسراً .

وقد كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : ما أبالى على أيِّ حال رجعتُ إلى أهلى ، لئن كانوا على عُسْر إنِّى لأنتظر اليسر ، وإنْ كانوا على يُسْر إنِّى لأنتظر العسر[1] .

فمن بعد الشدة يأتى الرخاء ، ومن بعد الضيق تأتى السعة ، ومن بعد الفقر يأتى الغنى .

فهذا وعدٌ للمعسر أنْ ينتظر الرزق من الله ويتأكد أنْ اليُسْر آتٍ إليه ، يفرج به كرْبه ويُوسِّع عليه معيشته ، وما دام الله سيجعل بعد عُسْر يُسْراً ، فإنْ جاءك اليُسْر فلا تضنّ به ولا تبخل .

فهذه بشارة للمعسرين ، فالله تعالى سيزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم المشقة، فهم وإنْ كانوا فى حالٍ ضيقة فإنه سبحانه سيفتح عليهم وسيوسرهم .

والله سبحانه هنا يجعل اليسر بعد العسر ، فالذى لا يتأبَّى ولا يتمرد على

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٣/٣١٩) ، قال ابن مسعود : ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها . وقال عمر : ما أبالى أصبحت على عسر أو يسر لأنى لا أدرى أيهما خير لى .

قدر الله فى رزقه وفى عمله فإن الله يجعل له بعد العُسْر يُسراً .

وفى آية أخرى يجعل الله اليُسْر مع العسر لا بعده ، فقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) ﴾ [الشرح]

وقد خرج رسول الله ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك وهو يقول : « لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن »[١] .

والله إنما يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ، فلماذا تُعسِّرون على أنفسكم فكأنكم لو خالفتم ما أمر الله به توقعون أنفسكم فى العُسْر والعنت والمشقة حينها ستكونون أنتم المعسِّرين على أنفسكم .

ولا تنسوا أنَّ الله هو سبحانه الذى سيجعل بعد العُسْر يُسْراً ، فكثير من الناس يُنسيهم اليُسْر أن الله أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءتْ عن علم منهم ، وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أنْ يُحسُّوا بآلام الغير ويشغلوا بآلام أنفسهم ، لكن المؤمنين لا ينسون ربهم أبداً .

وإذا كان الله سيجعل بعد عُسْر يُسراً فإنَّ من الجاهلين مَنْ يأتيهم اليُسْر فيريدونه عُسْراً ويأتيهم السهل فيريدونه صعباً ، يأتيهم الفرج والمخرج من الله فيرفضون فرج الله ويُسْره .

والله لا يُيسِّر إلا لمَنْ علم من قلبه إخلاصه وتجرّده والتزامه بأوامر الله سبحانه ، كهذا الذى يقترض من الناس مالاً وفى نيته أداؤه ، فإنَّ الله يُيسِّر له سبيل الأداء .

أما مَنْ أخذ أموال الناس يريد إتلافها فالله لا يُيسِّر له أنْ يُسدد[٢] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٩٥٠) عن الحسن البصرى مرسلاً . ولكن قد أخرج الإمام مالك فى موطئه (٩٦١) من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجاً وإنه لن يغلب عسر يسرين .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٣٨٧) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله » ، وكذا ابن ماجة فى سننه (٢٤١١)، وأحمد فى مسنده (٨٧١٨) والبزار فى مسنده (٨١٥٨) والبيهقى فى سننه الكبرى (١١٢٧٤) .

وإذا كان الحق سبحانه استخدم (السين) التى للمستقبل فى قوله : ﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] فهذا معناه لا تستبطئوا يُسْر الله فكونوا على يقين أنه آتٍ، وأن الله يَفى بوعده لكم .

ولاحظ أن الحق سبحانه لم يقُلْ : سوف يجعل ، فإنَّ (سوف) فيها امتداد لتحقُّق الأمر فى المستقبل ، أما (السين) فإنها تدلّ على قرْب حدوث اليُسْر إن اتقيتُم الله وصبرتم .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن عاقبة العتو عن أمر الله والخروج عنه ، فيقول:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى (وكأين) هى للتكثير مثل (كم) ، فعندما يقول لك إنسان مثلاً: لماذا تُجافينى ؟ فتقول له : كم زُرْتك ؟ وهو لا يقصد به الاستفهام أو أنْ يذكر لك عدد زياراتك له ، إنما المقصود هو اعترافه بكثرة زياراتك له . وأنت لا تقول له : كم زُرْتك . إلا وأنت واثقٌ أنه إذا أراد أنْ يجيبَ فسيقول : زُرْتنى كثيراً .

فعندما تقول له : كم زُرْتك ؟ كم تفضلت عليك ؟ كم واسيْتك ؟ كم أكرمتك؟ فإن (كم) تأتى للتكثير وتأتى مثلها (كأيِّن) فهى للتكثير أيضاً ، فعندما تقول مثلاً على قول بعض العامة « ياما حصل كذا » فـ « ياما » هذه معناها (كأيِّن) .

ومثل هذه الآية قوله فى آية أخرى ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[1] كَثِيرٌ .. (١٤٦) ﴾ [آل عمران] فمعناها أنبياء كثيرون قاتل معهم مؤمنون برسالتهم كما حدث وحصل مع رسول الله .

---

(١) الربيون : الجموع الكثيرة . وقال الحسن : ربيون كثير : علماء كثير . وقال أيضاً : أبرار أتقياء صبر. قال ابن الجوزى فى زاد المسير (١/٤٢٦) : فى معنى الربيين خمسة أقوال : الألوف – الجماعات الكثيرة – الفقهاء والعلماء – الأتباع – المتألهون العارفون بالله .

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فإذا سمعت (كأين) فافهم أنَّ معناها كثير كثير بما يفوق الحصر ، والعدّ هو مظنّة الحصر ، والشيء الذى فوق الحصر تنصرف عن عدِّه ، ولا أحد يحصر رمال الصحراء مثلاً .

فالانصراف عن العَدِّ معناه أنَّ الأمر الذى نريد أنْ نتوجه لعدِّه فوق الحصر ولا أحدَ يعُد النجوم أو يُحصيها ، لذلك قال تعالى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ .. (١٠٥) ﴾ [يوسف] لكثرة هذه الآيات فى السماوات والأرض بما يفوق الحصر والعَدَّ .

فحين يقول سبحانه (وكأين) معناه أنَّ ما يأتى بعدها كثير جداً ، الذى بلغ من الكثرة مبلغاً يُبرّر لنا العذر أمام الغير إنْ لم نُحصه ، وآيات الله فى السموات والأرض كثيرة كثيرةٌ لا تُحصى ، والآيات جمع آية وهى الشيء العجيب .

فـ (كأين) تدلُّ على الكثرة مثل (كم) الخبرية حين نقول : كم أحسنتُ إليك تعنى مرات عديدة تفوق الحصر ، فهى تدلّ على المبالغة فى العدد والكمية ، ومنها أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. (٦٠) ﴾ [العنكبوت]

فالكثرة الكاثرة من الدواب لا تحمل رزقها ومع ذلك تأكل وتعيش ، فالبعوض والذباب مع ضَعْفه فإنه يتغذّى على دم الإنسان القوى ، كذلك الميكروب الذى يفتك بالإنسان لا يحمل رزقه .

والغريب أنّك تجد الحصان والحمار والماشية لا تحمل رزقها رغم قدرتها على الحمل ، لذلك تراه إنْ شبع لا يدخر شيئاً ليأكله فى وقت آخر ، ربما يدوس الطعام الباقى منه أو يبول عليه ، وكذلك كل الحيوانات حتى أنهم يقولون : لا يعرف الادخار من المخلوقات إلا الإنسان والفأر والنمل .

إذن: قوله تعالى : (كأيِّن) يدلّ على الكثرة التى تفوق الحصر والعد .

وهنا الحق سبحانه يقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ .. (٨) ﴾ [الطلاق]

والقرية هى تجمُّع جماعة من الناس يسكنون فى مكان محدود .

والمراد بالقرية ليس قرية الريف التى نتعارف عليها اليوم ، لأن القرية فى عُرْف العربى القديم هى المكان الذى يقابل العاصمة ، وكانت البيئة العربية قديماً بيئة « التبدِّى » أى أنهم يُقيمون فى البادية وينتقلون من مكان إلى مكان ، ولم يكونوا مُتوطِّنين فى مكان واحد .

فكانت عاصمة البدو هى القرية التى تتكوَّن من عدد صغير من البيوت ، ولذلك يُسمِّى القرآن الكريم (مكة) بأم القرى ، فيقول تعالى : ﴿ وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا .. (٩٢) ﴾ [الأنعام]

ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا .. (٧) ﴾ [الشورى]

فـ (أم القرى) هى مكة ، وهى أعظم القرى شأناً وهى محطّ أنظار مَنْ حولها، وفيها حاجيات كثيرة تفى بحاجات مَنْ يقيم فيها ومَنْ ينزلها لحج أو تجارة أو غيره ، ففيها كلُّ متطلبات الحياة .

والقرية لها تسلسل فنقول (نَجْع) وهو المكان الذى تسكنه أسرة واحدة . و (كَفْر) لعدة أسر ، ثم (قرية) ثم (أم القرى) وهى الحضر أو العاصمة .

وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن قرى كثيرة ، فحدَّثنا عن القرية التى كانت حاضرة البحر وهى أيلة أو طبرية ، قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ .. (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

وهناك القرية التى هى بيت المقدس وفى قول آخر أنها أريحا ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا .. (٥٨) ﴾ [البقرة]

وعندما يقول الحق سبحانه على لسان إخوة يوسف بعد خروجهم من مصر ورجوعهم إلى أبيهم بدون أخيهم بنيامين : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف] ، فإنما كانوا يقصدون بالقرية عاصمة مصر فى ذلك الوقت ، وهى مدينة منف[1] أو ما نعرفه الآن بـ « البدرشين » .

وكما ذكر القرآن (القرية) كحاضرةٍ من حواضر المجتمعات فى ذلك الوقت حدثنا أيضاً عن (المدينة) .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ .. (١٢٣) ﴾ [الأعراف] وقال تعالى عن موسى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا .. (١٥) ﴾ [القصص] وقال : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ .. (١٨) ﴾ [القصص]

وقال : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ .. (٢٠) ﴾ [القصص] فالمدينة فى هذه الآيات هى عاصمة ملك فرعون مصر .

أما قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) ﴾ [يس] فالمقصود بها أنطاكية فى قول جميع المفسرين[2] .

والمدينة تتميز بشيء ليس فى القرية حتى بالمعنى القديم لها ، فالمدينة الأمر فيها منظم بقوانين وملك ووزراء ومسئولين ودستور يحكم المكان ، وجيش منظم يدافع عنه .

ولذلك نجد مدينة الفرعون أو مدينة أنطاكية ، وفوق هذا مدينة رسول الله التى كانت فى البداية يثرب ثم أصبحت المدينة لأنها كانت قد أصبحت عاصمة لدولة وليدة .

---

(١) منف مدينة مصرية قديمة ، أسسها عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد الملك نارمر وكانت عاصمة مصر فى عصر الدولة القديمة (الأسرات ٣-٦) وكانت فيها عبادة الإله بتاح ومكانها الحالى بالقرب من منطقة سقارة بقرية ميت رهينة . وهى أول عاصمة لمصر الموحدة ، وكلمة منف هى الاسم العربى لها . ومعناها الجدار الأبيض .

(٢) المدينة : أنطاكية. فهم المقصودون بقصة أصحاب القرية ، والرجل الذى جاء من أقصى المدينة هو حبيب النجار وكان مجذوماً ، وكان منزله فى أقصى البلد .

وقد قال تعالى عن المدينة مدينة رسول الله : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١) ﴾ [التوبة] ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [التوبة]

ويذكر لنا الحق سبحانه ويقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِه .. (٨) ﴾ [الطلاق]

فالكثير من القرى عتتْ عن أمر ربِّها ، وذكر كثيراً من هذه القرى ، وأكثر قرية ذكرها الحق سبحانه في القرآن قرية قوم لوط[1] ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) ﴾ [الأنبياء]

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ .. (٤٠) ﴾ [الفرقان] وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) ﴾ [العنكبوت]

وقال أيضاً : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا[2] مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) ﴾ [العنكبوت]

لقد كانت قرية لوط عليه السلام أكثر قرية عتتْ عن أمر ربِّها فاستحقت عذاب الله مطراً بالحجارة ، وجعل عاليها سافلها بما فعلوه من الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحدٌ من العالمين .

والحق سبحانه عندما يقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ .. (٨) ﴾ [الطلاق] لا يقصد المكان كبيوت وشوارع وحارات ، إنما يقصد سبحانه أهل القرية وسكانها ، فالقرية اسمٌ للمكان المُعدّ إعداداً خاصاً لمعيشة الناس فيه .

---

(١) سدوم وعمورة هي قرى قوم لوط عليه السلام والتي خسف الله بها بسبب ما كان يقترفه أهلها من مفاسد ، ويعتقد كثير من الباحثين وعلماء الدين أن القرى التي خسفها الله تقع في منطقة البحر الميت وغور الأردن . وحسب المصادر العبرية القرى هي : سدوم وعمورة وأدومة ، وصبيم . وقد يأتون الذكور من دون النساء .

(٢) الرجز هنا معناه : الحصب والخسف . (زاد المسير لابن الجوزي ٥/٧٦) ورجزاً : عذاباً . وهو الرمي بالحجارة . وقيل : إحراقهم بنار نازلة من السماء [فتح القدير للشوكاني ٥/٤٤٠] .

وبطبيعة الحال ، عندما يقول ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف] لن يسأل إنسان المكان أو المبانى ، بل يسأل أهل القرية .

فالقرية هنا لم تتمرد على أمر الله وترفضه وتأباه ، إنما الذى تمرد هم أهلها ، فقوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ .. (٨) ﴾ [الطلاق] أى : أن أهلها عتوا وفسدوا وأفسدوا .

والعُتو كبرياء وإباء ، وهو المرود والتمرد على أمر الله وبلوغ الغاية من الفساد، وما هذا إلا لأنهم لم يكونوا يرجون أو ينتظرون لقاء الله ، لذلك وصفهم الحق سبحانه فقال : ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾ [الفرقان]

فـ (عتوا) أى بالغوا فى الظلم والتحدى وتجاوزوا الحدود ، بل أكد العتو بالمصدر (عتواً) ، ثم وصف المصدر أيضاً فقال ﴿ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾ [الفرقان]

وعُتو هذه القرى كان عن أمر ربها ورسله ، فهم تعاتوا على أمر الله سبحانه وعلى أمر رسوله ، فالعاتى الذى بلغ فى الظلم الحد مثل الطاغوت الذى إنْ خاف الناس منه انتفش وتمادى وازداد قوة .

فـ (عتت) أى أبت وعصت واستكبرت فحقَّ عليها عذاب الله ، وقد ذكر الحق سبحانه ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ .. (٨) ﴾ [الطلاق] فى ثلاثة مواضع من القرآن ، فقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾ [الحج]

وقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾ [محمد]

والموضع الثالث الذى معنا هنا فى سورة الطلاق ، فهم إنما استحقوا العذاب والهلاك لأنهم عتوا ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ .. (٨) ﴾ [الطلاق]

وأمر ربِّها ورسله هنا هو تهديد لمن يخرجون عن شرع الله فى أحكام الطلاق والعدة وعدم إخراج المرأة من مسكن الزوجية طالما أنها فى العدَّة

وعدم الالتزام بأحكام الرضاع .

لأن بهذا الخروج عن أمر الله تزداد المظالم فى المجتمعات ويتشرد الأبناء وتفسد النساء ويتعنت الرجال ويتمرد النساء ، ويعيش المجتمع فى ظلمات من التخبيط قد تؤدى إلى القتل وإراقة الدماء ، بل إنه بيقين يؤدى إلى تأخر المجتمع لأن المجتمع حينها يغرق فى المشاكل والمنازعات والخصومات والمشاكلات والكيد والاحتيال .

لذلك قال العلماء ﴿ **عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِه** .. (٨) ﴾ [الطلاق] أى لم تأتمر بأمر **الله** ورسوله ولم تنتهِ بنهى **الله** ورسوله ، فأعرضت عن أمر **الله** إعراضَ العاتى المعانِد .

فالحق سبحانه يوجه تهديداً شديداً لأولئك الذين يخالفون شريعة **الله** ويبتغون شرائعهم من مناهج أخرى وثقافات أخرى تمردتْ وعتتْ عن أمر **الله** .

والحق سبحانه لم يُنزل عذابه بأهل هذه القرى دون سابق إنذار أو إرشاد أو إرسال الرسل ، بل أرسل الرسل وأنزل الكتب لهداية أهل تلك القرى وأمهلهم لعلهم يرتدعون وينزجرون رغم إقامتهم على الظلم ،لذلك قال تعالى : ﴿ **أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ** .. (٤٨) ﴾ [الحج]

فهى مقيمة على الظلم مُصرة عليه ، فالله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته كما قال رسول **الله** ﷺ .

وبعد الإملاء والإمهال يأتى الحساب الشديد ، يقول تعالى : ﴿ **فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا** .. (٨) ﴾ [الطلاق] ، فالله سيحاسبهم حساباً عسيراً على أعمالهم كلها ، والحساب يكون بالتنقير والاستقصاء لذنوبهم ومحاسبتهم على كل شيء صغيراً أو كبيراً دون تجاوز لهم أو عفو .

فالحساب يكون بالمناقشة والاستقصاء ، والحق سبحانه أوجد لك الاختيار

حتى يكون الحساب عدلاً ، فإذا اختار أحد الكفر لا يجبره الله على الإيمان ، وإذا اختار الظلم لا يجبره الله على العدل ، وإذا اختار الفسوق لا يجبره الله على الطاعة .

فالحق سبحانه يحمي اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة .

وكلمة ﴿ حِسَابًا .. (٨) ﴾ [الطلاق] تدل على الدقة ، والحساب يفيد العدد والأرقام ، وأحياناً تفيد الظن والفكر .

وقد قرن الحق سبحانه بين الحساب والعذاب ، فقال : ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) ﴾ [الطلاق]

وقد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نُوقش الحساب عُذِّب »[1] فهناك ارتباط بين المحاسبة ومناقشة الإنسان فيما فعل في الدنيا وسؤاله عن ماله وشبابه وبين إيقاع العذاب به ، فما من عبد يخلو من الذنوب .

وقد روت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ « مَنْ حُوسب يوم القيامة عُذِّب » . فقالت عائشة : أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] فقال رسول الله : « ليس ذلك الحساب ، إنما ذلك العرض ، مَنْ نُوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب »[2] .

فقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] خاص

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٣٦) والبزار فى مسنده (١٩٩) ، وأحمد فى مسنده (٢٤٩٥٨) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت قلت أليس يقول الله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] قال : ذلك العرض . وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٩٠) بلفظ آخر : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : اللهم حاسبنى حساباً يسيراً فلما انصرف قلت : يا رسول الله ما الحساب؟ قال : ينظر فى كتابه ويتجاوز عنه إنه من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك ، وكل ما يصيب المؤمن يلقى الله عنه حتى الشوكة يشاكها .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥٠٠٢) ، ومسلم فى صحيحه (٧٤٠٦) من حديث عائشة رضى الله عنها.

بصنف من أصناف أهل الجنة وهم مَنْ أوتى كتابه بيمينه ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) ﴾ [الانشقاق] أى : مسروراً بثواب الله وفضله عليه .

فمَنْ أُوتى كتابه بيمينه يقول ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) ﴾ [الحاقة] لذلك ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) ﴾ [الحاقة]

إنه يدعو الناس ليقرءوا كتابه فإنه كتابُ حسنات كتاب نجاته من النار ، لذلك كان حسابه حساباً يسيراً وهو العرض وقراءة كتابه ، كأنَّ مجرد هذا هو حساب فى حقه أو عذاب ، عذاب انتظار القرار الإلهى ، هذه اللحظات العصيبة على المؤمن تجعلها حساباً .

فهذا حساب العرض لا حساب المناقشة ، والعرض أنْ يُقال له : فعلت كذا وفعلت كذا ، ثم يقال : سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيتجاوز عنه الله .

أما الذى عتا عن أمر ربه وأمر رسوله وعصى الله تمرداً على أمره سبحانه فسوف يُحاسب حساباً شديداً عسيراً بالاستقصاء فى كل صغيرة وكبيرة والمباحثة والمناقشة فى كلِّ نقير وقطمير[1] .

حتى أنهم سيقولون ﴿ مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا .. (٤٩) ﴾ [الكهف]

وقد يكون حسابهم هذا فى الدنيا ، فيُحاسبون على أعمالهم حساباً شديداً

(١) النقير : النقرة التى فى ظهر النواة . [الصحاح فى اللغة] ، قال أبو على القالى فى كتابه (الأمالى) (١/ ٢٣٠) : فيكون معناه حقيراً متناهياً فى الحقارة . قال الواحدى فى شرح ديوان المتنبى (١/ ١٢٧) : النقير النقرة تكون فى ظهر النواة يضرب مثلاً للشيء الحقير.
القطمير : القشرة الرقيقة على النواة كاللفافة لها . قال فى المعجم الوسيط : الشيء الهين الحقير يقال: ما أصبت منه قطميراً .

فيقع بهم عذابٌ مهلك شديد ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا .. (٤٨) ﴾ [الحج]

فالأخذ هو في الدنيا أي إيقاع العذاب بهم وإهلاكهم مهما كانت قوتهم ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ .. (١٣) ﴾ [محمد]

والإهلاك شاءه الحقُّ سبحانه بوسائل كثيرة ، قال تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فالحاصب هو الحصى الصغار ترمى لتجرح ولكن يحمى عليها لتكوى وتلسع حين يرميهم بها الريح . ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً لأن النار ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع ألمه ، لكن رميهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتديم آلامهم .

أما الصيحة فهى الصوت الشديد الذى تتزلزل منه الأرض وتُصم منه الآذان، وتلك كانت عقوبة ثمود ، وقد سماها الحق سبحانه أيضاً الطاغية ، فقال : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) ﴾ [الحاقة]

فالله يُملى للعتاة والمتجبرين ويمدّ لهم الأمر ثم يأخذهم بغتة بالعذاب ، وقد يأتى العذاب من فوقهم كما جاء لقوم أبرهة الذين أرادوا هدم الكعبة فسلط عليهم طيراً أبابيل[1] ترميهم بحجارة من سجيل[2] فجعلهم كعصف مأكول ، وهناك مَنْ أخذهم بالصيحة ، وهناك من أهلكهم بريح صرصر[3] عاتية .

---

(١) الأبابيل : جماعات متفرقة . (زاد المسير لابن الجوزى) . قال الطبرى فى تفسيره : طيراً متفرقة يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى . فـ (أبابيل) : فرق شتى متتابعة مجتمعة ، أتتهم من كل مكان .

(٢) السجيل : الطين المتحجِّر . قال موسى بن أبى عائشة : كانت الحجارة التى رُموا بها أكبر من العدسة وأصغر من الحمّصة . وقال قتادة : كانت مع كل طير ثلاثة أحجار : حجران فى رجليه وحجر فى منقاره فجعلت ترميهم بها . [ذكره الطبرى فى تفسيره] .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة] . الصرصر : صوت الريح الشديدة . وفى الصحاح : الريح الصرصر الباردة . فالأمر يحتمل المعنيين . والعاتية : الشديدة الغالبة .

ومنهم مَنْ أهلكه الله بأنْ انشقّتْ الأرض من تحته فابتلعته وابتلعتْ قصره وكلّ ما يملك كقارون ، ومنهم مَنْ يغرق بالماء كفرعون ، وكلها عذابات استئصال .

ويُعطينا الحق سبحانه مثالاً آخر في قصة مملكة سبأ باليمن ، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا .. (١٦) ﴾ [سبأ]

فكانت نتيجة إعراضهم ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ[1] وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ[2] وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ﴾ [سبأ]

فأهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره وأمره ، وكانوا يتيهون بالسدّ الذى يحفظ لهم مياه الأمطار ويمدّهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام، وأخذوا يتفاخرون ونسوا الله ، فكان هذا السد هو النكبة أو الكارثة التى أهلكتْ زرعهم ، فكان فى هذا هلاكهم .

وكما كان الحساب حساباً شديداً كان العذاب عذاباً نُكْراً ، والعذاب النُّكر أى المنكر الذى لا نعرفه والذى لا عهد لنا به أو أُلْفة ، بل هو عذاب منكر فظيع عظيم ، فهو عذاب لا يخطر فى بال أحد لعظم شدته .

وبعض العلماء ذهب إلى أنّ هذه الآية ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) ﴾ [الطلاق] أنها على التقديم والتأخير ، يعنى فَعذَّبناها فى الدنيا وحاسبناها فى الآخرة حساباً شديداً .

أى عذَّبنا أهلها عذاباً نكراً فى الدنيا بالجوع والقحط والسيف والخسف

---

(١) ذكر ابن الجوزى فى زاد المسير (٥/ ١٦٠) أربعة أقوال :
أحدها : العرم : الشديد . وقال ابن الأعرابى : العرم السيل الذى لا يُطاق . الثانى : أنه اسم الوادى . والثالث : أنه المسنّاة . والرابع : أنه الجرذ الذى نقب عليهم السد .

(٢) المراد بالخمط ثلاثة أقوال : الأول : أنه الأراك . قاله ابن عباس والحسن ومجاهد . والثانى : أنه كل شجرة ذات شوك . قاله أبو عبيدة . والثالث : أنه كل نبْت قد أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله . [زاد المسير لابن الجوزى ٥/ ١٦٠] .

والمسْخ وحاسبناهم فى الآخرة حساباً شديداً .

وقد روتْ عائشة رضى الله عنها أنها قالت : يا رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدّ من يوم أُحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يُجبْنى إلى ما أردت .

فانطلقت وأنا مهموم[1] على وجهى فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلّتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال : إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ،وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

قال : فنادانى ملك الجبال وسلَّم عليَّ ، ثم قال : يا محمد إنَّ الله قد سمع قوْل قومك لك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فما شئت ، إنْ شئت أنْ أطبق عليهم الأخشبين .

فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أنْ يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً[2] .

فلله سبحانه سنن فى خَلْقه وسنن فيما سبق من أقوام ، وقد عرفنا الذين أطاعوا رسلهم ماذا حدث لهم ، والذين كذَّبوا رسلهم ماذا حدث لهم .

وكان على أهل مكة الذين بُعث فيهم رسول الله أنْ يأخذوا عبرةً من الرسل السابقين ، وبما حلَّ بأعدائهم من عذاب الله ، لقد أرسل الله الرسل فكُذِّبوا وعُودوا واضطهدوا .

---

(١) مهوم : أى نام نوماً خفيفاً . ومثاله : هوّم المسافر فى القطار . ومعناه أيضاً : هزّ رأسه من النعاس . ومثاله : هوّم وهو جالس . [معجم اللغة العربية المعاصرة ٢٣٧٦/٣] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧٥٤) ، والبزار فى مسنده (١٠٣) ، والنسائى فى السنن الكبرى (٧٦٥٩) ، والطبرانى فى المعجم الأوسط (٨٩٠٢) من حديث عائشة رضى الله عنها .

وقد مرَّتْ على رسول الله أيام شديدة عصيبة ، حاربه فيها قومه وعادوه كيوم أُحُد ، وما حدث فيه من كسر إحدى أسنانه ، وكيوم حنين يوم فوجيء المسلمون بالمشركين ففروا لولا أن رسول الله نادى فيهم : أنا النبى لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب[1] .

ولكن ما كان أشد على نفسه الشريفة ﷺ هو أنه دعا الناس فلم يستجيبوا وعرض نفسه بالدعوة إلى الله فلم يُبالوا به وأعرضوا عنه ، بل سلَّطوا عليه سفهاءهم .

كان هذا أشدّ على رسول الله لأنه يعلم عاقبة مَنْ كذَّب الرسل وأعرض عنهم، فمن شفقته وخوفه على أمته لم يدْعُ عليهم بل دعا لهم بالهداية ، فقال : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[2] .

حتى إن ملك الجبال قال له : إنْ شئت أنْ أُطبق عليهم الأخشبين والأخشبان جبلا مكة المحيطان بها ، والأخشب هو الجبل العظيم ، ولو شاء رسول الله لأمر ملك الجبال بإطباق الجبلين على أهل مكة ، ولكن رسول الله مفطور على الرحمة.

فالرسول ﷺ لا يُبقى على هؤلاء ، ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة، لذلك قال : « بل أرجو أنْ يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك

---

(١) عن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رجلاً سأله : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين قال : لكن رسول الله لم يفر إن هوازن كانوا قوماً رماة وإنّا لما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام ، فأما رسول الله ﷺ فلم يفر ، فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان آخذ بلجامها والنبى ﷺ يقول : أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٦٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧١٦) وفيه زيادة : اللهم نزّل نصرك . قال البراء : كنا والله إذا احمر البأس نتقى به وإن الشجاع منا للذى يحاذى به يعنى النبى ﷺ .

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (١٣٧٥) من حديث عبد الله بن عبيد قال : لما كُسرت رباعية رسول الله ﷺ وشُجّ فى جبهته فجعلت الدماء تسيل على وجهه . قيل : يا رسول الله ادع الله عليهم فقال ﷺ : « إن الله تعالى لم يبعثنى طعاناً ولا لعاناً ولكن بعثنى داعية ورحمة ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» . قال البيهقى : وهذا مرسل .

به شيئاً »[1] . وقد كان وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾ [الحج] فالله يُمليهم ويُمهلهم ويُؤخِّرهم إلى أجل معين قد يكون لمدة ثم يقع بهم العذاب كما حدث مع الأمم السابقة التى أهلكها الله بسبب عُتُوِّهم وتمردهم وعصيانهم لله ورسله .

للذك قال الحق سبحانه بعدها :

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ ﴾

والإذاقة هى أشد الإدراكات تأثيراً ، فالإذاقة هى الإحساس الشديد بالمطعوم، شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدّى كلَّ مُحسٍّ به ولو لم يكُنْ مطعوماً أو مشروباً.

والحق سبحانه يقول : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] أى ذُقْ الإهانة والمذلة ، لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن بالإحساس فذوْق الطعام هو الحاسَّة الظاهرة فى الإنسان ، قد يجده بالذوق حريفاً أو حُلْواً أو خَشِناً أو ناعماً إلى غير ذلك .

ولكن الإذاقة التى يعنيها الحق سبحانه شيء أكبر من ذوْق المطعوم والمشروب ، إنما هو أمر يتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق .

وفى إطار هذا نفهم قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١) من حديث عائشة أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد . قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسى ..." الحديث بطوله .

يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

فالجوع سلب الطعام ، فكيف تكون إذاقة الجوع ؟ فالجوع ليس مما يُذاق ، ولا اللباس مما يُذاق . ولكن المقصود هنا هو الإحساس الشديد به ، فالذوق هو للإدراك لا للأكل ، فأنت حين تشترى فاكهة يقول لك البائع : تفضل ذُقْ فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعامها .

فالذوق إذن هو تناول الشيء لإدراك طعمه ، والإذاقة من الذوق وهو أعم الملكات شُيوعاً فى النفس ، فأنت ترى بعينك ، وتسمع بأذنك وتشم بأنفك ، لكن المذاق تشترك فيه كلُّ الملكات الإدراكية ، بل هى أقوى أنواع الإدراك .

والحق سبحانه أخبر عن القرية التى عتت وتمردت على أمر ربها فقال : ﴿ فَذَاقَتْ .. (٩) ﴾ [الطلاق]

فاختار سبحانه حاسة الذوق لأن كلَّ وسيلة إدراك قد تتصل بلون من ألوان الترف فى الحياة ، أما الذوق فيتصل بإمداد الحياة وهو الأكل والشرب وبهما قوام حياة الإنسان ، فهما ضرورتان للحياة لا مجرد ترف فيها .

فليس الذائق هو الفم فقط بل كل الجسم ، والحق سبحانه يقول : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران] ويقول أيضاً : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ﴾ [الحج]

والحريق ليس طعاماً يُذاق إنما هو يصنع إيلاماً إحساسياً فى الجلد وفى النفس ، وقد يفقد الإنسان حاسة ما من حواسه كالبصر أو اللمس أو الشم ، ولكنه لا يفقد حاسة الذوق أبداً ، بهذا المعنى ، الذى يتعدى اللسان ؛ فيستولى على كل الأعضاء .

ومثل عذاب الحريق فى الأثر (عذاب النار) ، قال تعالى : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ

النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾ [السجدة] فالإذاقة تتعدى اللسان وتستولى على كل الأعضاء ، فكلّ ذرة فيه تذوق عذاب النار .

والحق سبحانه ينبه بلفظ الإذاقة (فذاقت) أن أهل هذه القرى أحسَّتْ بعذاب الله بكلّ الحواس التى فيها حِسّ ، حتى تلك الحاسة المختفية داخل النفس ، فذلك يشمل كل جزء فى الإنسان .

ومن الضرورى أن نفهم أنَّ الذوق غير البلع والشبع ، ونرى ذلك فى عالمنا السلعى والتجارى ، فساعة تشترى مثلاً فاكهة يقول لك البائع : إنها فاكهة حلوة ذُقْ منها . ولا يقول لك : كل منها واشبع . إنه يطلب منك أن تجرب طعم الفاكهة فقط ثم تشترى لتأكل بعد ذلك حسب رغبتك وطاقتك .

وإذا كان الأمر أمر ذوْق وتذوّق للعذاب ، فما بالك بالعذاب نفسه وألمه ، فعندما يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) ﴾ [القمر]

وفى آيات أخرى يقول تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ (٢٨) ﴾ [المدثر]

فنار سقر[1] لا تترك شيئاً من اللحم ولا العصب إلا أهلكته ثم يعود كما كان لإدامة العذاب ، وهى نار تغير البشرة وتُسود الجلود محرقة للجلود .

و (سقر) اسم لجهنم من سقرته الشمس إذا آلمتْ دماغه لشدة إيلامها ، فإذا كان مسُّ سقر بهذه البشاعة والقسوة والإيلام ، فما بالك بدخولها ؟

وقوله تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ .. (٩) ﴾ [الطلاق] فيه ترتيب وتعقيب على الآية قبلها ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) ﴾ [الطلاق]

فبسبب عُتوّها وعصيانها وتمردها ذاقتْ وبال أمرها وعاقبة ما فعلوه .

---

(١) سقر : اسم من أسماء النار . والسقر : البُعد . وسقرته الشمس : لوّحته وآلمت دماغه بحرِّها . وقيل : سميت النار سقر لأنها تذيب الأجسام أما الأرواح فهى جوهر غير قابل للذوبان .

وقد قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .. (٥٢) ﴾ [يونس]

ويقول : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .. (٥٥) ﴾ [العنكبوت]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) ﴾ [الزمر]

فالحق سبحانه لم يظلمهم ، فذوقوا ما عملتم كأنّ العمل نفسه الذى عملوه هو نفسه سيكون هو النار التى تحرقهم ، وليس ذلك تجنياً من الله ولا بسلطة القهر لعباده ، ولكن بعدالة الحكم لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كسبتم .

ونلاحظ أن الحق سبحانه لم يقُلْ : بما كنتم تكتسبون ، لأن اكتسابهم لم يعُدْ فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، لذلك قال تعالى : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .. (٥٢) ﴾ [يونس]

فهؤلاء من إفراط إدمانهم للسيئات وعتوهم عن أمر الله فسدتْ فطرتهم ، ولم تعُدْ ملكاتهم تتضارب عند فعل السيئات .

وحين ترى جملة فيها الفاء فاعلم أنها مُسبَّبة عن شيء قبلها ، وإذا سمعت مثلاً قول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ .. (٢١) ﴾ [عبس] فمعنى ذلك أن القبر جاء بعد الموت ، فإذا وجدت « الفاء » فاعرف أن ما قبلها سببٌ فيما بعدها ، ويُسمونها « فاء » السببية[1] .

ولكن ماذا ذاقت القرية التى عتت عن أمرها ؟ يقول تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا .. (٩) ﴾ [الطلاق]

---

(١) فاء السببية هى التى يكون ما قبلها سبباً لما بعدها "لا تظلم فتُظلم" . ويشترط لها أن تسبق بنفى أو طلب . فأما النفى فكقولك : لم تحضر فتستفيد . وتقول : جارك غير مقصر فتعنفه . لا فرق بين أن يكون باسم أو بفعل أو بحرف .

الوبـال هو الثقل والعاقبة ، وهو ما يجرُّه عليه عصيانه وتمرده من عاقبة السوء ، فكلٌ عاص أو رافض لحكم الله يظن أن هذا سينفعه ويغيب عنه ما يجرُّ عليه من الوبال فيما بعد ذلك ، رغم أنه قد يكون استفاد استفادةً وقتيةً من فساده .

والحقّ سبحانه يقول : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ[1] (٤٤) ﴾ [الأنعام]

فهؤلاء قد فتح الله عليهم أبواب كل شيء ، مال وجاه وسلطة ، ولكنها لم تكن لهم بل عليهم ، ولكنهم فرحوا بها وبطروا نعمة الله فعاثوا فى الأرض فساداً بما أنعم الله عليهم .

﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام] فكان وبال عاقبتهم أَنْ أخذهم الله بغتةً ، فليس هذا كله فى صالحهم بل هو وبالٌ عليهم فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم وهم سيبطرون بها فتكون سببَ عذابهم .

فمَنْ ضلَّ عن الحق وزاغ عن طريق الاستقامة فإنما يجنى على نفسه وإنما يعود وبالُ ذلك عليه ،لأنه هو الذى يجنى ثمرة عواقبه السيئة الوخيمة فيخلد فى النار .

والوبال فى أصله اللغوى مصدر الوبيل ، وهو الطعام الثقيل الذى لا يوافق أكله وتكون له عواقبُ سيئة ، وهذا اللفظ بهذا المعنى مناسب لقوله تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ .. (٩) ﴾ [الطلاق]

وهى ذاقت ﴿ وَبَالَ أَمْرِهَا .. (٩) ﴾ [الطلاق] فأضاف الوبال إلى الأمر الذى فيه القرية وأهلها من إضافة المسبب إلى السبب ، أى ذاقوا الوبال الذى تسبَّب لهم فيه أمرهم وشأنهم الذى كانوا عليه .

---

(١) مبلسون : هو الآيس من رحمة الله . وهو المجهود المكروب الذى قد نزل به من الشر ما لا يستطيعه . وهو المكتئب الحزين النادم الشديد الحسرة وهو الساكت المتحير . ذكر هذه الأقوال ابن الجوزى فى زاد المسير . (٢/ ٣٣٤) .

والأمر هو الحال والشأن الذى هى عليه ، ويحتمل المعنى أيضاً الذنب أى ذاقت جزاء ذنبها الذى فعلته بعتوِّها عن أمر ربها وحكمه .

والقرية التى عتتْ عن أمر ربها إنما ذاقت وبال أمرها وذنبها فى الدنيا كالطاعم يأكل طعاماً وبيلاً وخيماً فيجد وبال شره عليه ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) ﴾ [الطلاق] أى فى الآخرة .

والعواقب هى أدبار الأشياء وأعقابها ، والأمر كان يحتاج منهم النظر إلى أدبار الأشياء وعواقبها ،ولكن طيشهم وسفههم صرفهم عن التفكُّر فى عاقبة الأشياء فأذهله وجعله ينظر إلى الأمور نظرة سطحية متعجلة .

لقد نظروا إلى متعة زائلة موقوتة ونسوا تبعة ثقيلة لن يقدروا عليها فيما بعد، ولو كانوا يهتدون بهدى الله وهدى رسوله ويرون العذاب الذى أنذرهم به حقيقة وواقعاً لا يتخلفون عنه لما حدث لهم هذا ولمَا واجهوا هذه العاقبة .

فمرجع الخَلْق جميعاً إلى الله سبحانه ،ومشكلة هؤلاء أنهم لم يلتفتوا إلى عاقبة الأمور ولا إلى مَنْ بيده عاقبة الأمر كله فلم يرتدعوا ، أما مَنْ نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن فى الدنيا فمرجعه إلى حُسْن الثواب والجنة ، ومَنْ لم ينظر إلى عاقبة الأمر وعتا وعصا وتمرد فمآل أمره ومآبه إلى العذاب ..

وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾ [يونس]

فلو تبصَّروا بالعواقب ولو تفكَّروا فى عاقبة أمرهم ما تجرأوا على المعصية، فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا .. (١٥) ﴾ [الإسراء]

أى تعود عليه عاقبة انصرافه عن منهج الله ، لأن شرَّ الإنسان فى عدم التزامه بمنهج الله يعود عليك ويعود على الناس من حوله ، فيشقى هو بشرِّه ويشقى به المجتمع .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج] يعنى : النهاية إلينا

وآخر المطاف عندنا .

وقد قال تعالى : ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) ﴾ [الطلاق] فعاقبة ذنبها وعُتوها هو الخسران ، واستخدام الحق سبحانه لكلمة (خسراً) تدل على أنهم كانوا يعتقدون أنهم بأعمالهم حققوا لأنفسهم نفعاً ، بينما هم لم يحققوا لأنفسهم إلا الخسران المبين .

وهو ليس خسراناً موقوتاً ، ولا هو خسران يمكن أنْ يُعوَّض فى الصفقة القادمة ، بل هو خسران أبديّ ، والندم سيكون عليها شديداً ،وخسرانهم لا ينتهى من فور مجيء الساعة ، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم ، فهم يُفاجئون بوقوع ما كانوا يكذبون به ، ويعلمون جيداً أن ما صنعوه فى الدنيا لا يستوجب إلا العذاب .

و ﴿ خُسْرًا (٩) ﴾ [الطلاق] تعنى أنها خسران مبين يلازم الإنسان ولا ينفكّ عنه ، وهو خسران لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أنْ تعوضه أو تصبر عليه، إنما يمتد للآخرة حيث لا عوض لخسارتها ولا صبر على شدتها .

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ وَهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) ﴾ [النمل] والأخسر مبالغة فى الخسران ، فلم يقل : خاسر إنما أخسر لأنه خسر النعيم لأنه لم يقدم صالحاً فى الدنيا ، وليته ظلّ بلا نعيم وترك فى حاله ، إنما يأتيه العذاب الذى يسوؤه .

لذلك قال تعالى : ﴿ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) ﴾ [النمل] لأنهم لم يدخلوا الجنة لعدم استحقاقهم لها ، وهذه خسارة لهم ، ثم هم فى النار وهذه خسارة أخرى.

خسروا دنياهم وخسروا آخرتهم وخسروا أنفسهم خسراناً أبدياً ، والأكثر خسارة هم الأخسرون الذين قال الله عنهم : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ﴾ [الكهف]

وقد استثنى الحقُّ سبحانه من الخسران ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

إيمان بالله ورسوله وقرآنه وعمل بالصالحات . ثم التواصي بالصبر والتواصي بالحق يُخرج الإنسان من دائرة الخسران ، ويقول تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر]

فالإنسان على إطلاقه في خُسْر ، ولكن مَنْ الذى ينجو من الخسران ؟ تأتى الإجابة من الحق فيقول : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فالإنسان المعزول عن منهج الله هو الذي يحيا فى خسران ، أما مَنْ يعيش فى رحاب المنهج فهو الذى لا يخسر أبداً ، فالمنهج يحميه من الزلل والخسران .

والحق سبحانه إنما يخاطب الناس بالمنطق الذى يفهمونه منطق المكسب والخسارة ، فالمؤمنون رابحون على كل حال ، أما الكافرون والعصاة الذين تمرَّدوا على منهج الله فهم خاسرون على كلِّ حال .

فهم خاسرون لأنهم ﴿ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .. (١٦) ﴾ [البقرة]

فقوله : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ .. (١٦) ﴾ [البقرة] التجارة بيع وشراء ، كاسب وخاسر ، فحظّ البائع من البيع والشراء أنْ يكسب ، فإذا كسب قيل : ربحت تجارته ، وإذا لم يكسب ولم يخسر ، أو إذا خسر ولم يكسب ففى الحالين لا يحقق ربحاً ونقول ما ربحت تجارته .

فقوله ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة] يدل على أنهم خسروا كلّ شيء لأنهم لم يربحوا ، فكأنهم لم يحققوا شيئاً له فائدة ، وخسروا الهدى أي خسروا الربح ورأس المال .

ما ربحت تجارتهم ، وربما يكونون لم يكسبوا ولم يخسروا ، ولكن هم قدَّموا الهدى ثمناً للضلال فلم يربحوا وضاع منهم الهدى أي رأس مالهم .

فجنوا ثمار ما غرست أيديهم من أعمال السوء ، فكان عاقبة أمرهم الخسران والنكال ، ذلك لعُتوهم ولتكبُّرهم ، فكانت عاقبتهم الخسران والهلاك خُسْراناً لا خُسْرانَ بعده .

ثم يقول الحق سبحانه عما أعدَّه الله لهؤلاء التعساء الخاسرين :

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) ﴾

قوله سبحانه ﴿ أَعَدَّ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] أي أعددنا وهيّأنا ، والذي أعدَّ هو الله القوي القادر سبحانه هو الذي يُعد ، وهو يُعدّها على قدر سعة قدرته ، وقد أعدَّ الحقُّ العذاب الأليم لهم أي الشديد إيلامه .

وقال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) ﴾ [النساء] فمعنى (أعتدنا) : أعددنا ، فالمسألة منتهية مُسبقاً ،فالجنة والنار مخلوقة فعلاً ومُعدَّة ومجهزة ، لا أنها ستعد في المستقبل ، وقد أُعدَّت إعدادَ قادرٍ حكيم .

والعذاب إيلامُ حيٍّ يشعر بالعذاب ويُحسُّ به ، وهذا غير الإهلاك الذي يُذهب الحياة ، فالإهلاك والاستئصال يمنع الإحساس بالعذاب ، ولا بد لأيٍّ قرية طغتْ وبغتْ أنْ ينالها شيءٌ من العذاب .

وشدة العذاب وقوته تناسب قوة مَنْ يُوقع العذاب ، فنأخذ الحدث قياساً

بالنسبة لفاعله ، فإذا كان الفاعل هو الله فهل لأحد طاقة على عذاب الله ؟

والعذاب يُوصف مرَّة بأنه أليم ، ويُوصف مرة بأنه مهين ، ويُوصف هنا بأنه شديد ، ولكلٍّ نوع من أنواع العذاب أثره السيء فى المعذَّب .

فالعذاب المهين الذى تكون فيه ذلة النفس ، أما العذاب الأليم فهو الذى يكون فى البنية ، فالإنسان له بنيةٌ جسدية وله معنويات ، فمن ناحية البنية الجسدية يصيبه العذاب الأليم ، ومن ناحية المعانى النفسية تصيبه الإهانة .

أما العذاب الشديد فهو الذى لا يقوى الإنسان على تحمُّله ، ودرجة العذاب وشدته وقوته تختلف باختلاف المعذِّب ، فإنْ كان المعذِّب ضعيفاً فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وإنْ كان المعذِّب متوسط القوة فتعذيبه يكون متوسطاً .

أما إنْ كان المعذِّب هو قوة القوى فلابد أنْ يكون عذابه شديداً ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) ﴾ [البقرة]

فهم ساعة يروْنَ العذاب حقَّ اليقين سيدركون عندها أنّ القوة لله ، وأنه شديد العقاب ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) ﴾ [البقرة]

والعقاب من الله سيأتى فى وقت ليس للفرد فيه جاه من مال أو حسب أو نسب يحميه من الله ، فإنْ أطمعك ضعفُ المجتمع فى أنْ تعصى الله وتتمرّد على منهجه فعليك أنْ تخاف الله لأن عقابه شديد .

فالذين يُشاقون الله ورسوله يستحقُّون عذاب الله وعقابه ، وعليهم أن يتحملوا العقاب الشديد من الله .

﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ﴾ [الأنفال] فالله أقوى من كلِّ ما تصنعون فى كونه ، وعقابه تعالى شديد وأليم .

ونعلم أن العقاب لا يعم الناس إلا بقدْر ذنوبهم ، فليس معنى أنّ الله شديد

العقاب أنْ تُصيب شدة العذاب من فعل ذنباً يسيراً ، ولكن لكلٍّ جزاؤه على قدر ذنبه ، وهذا العقاب والعذاب مهما كان يسيراً فهو شديد أليم .

أعدَّ الله عذاباً شديداً لمَنْ عتا عن أمر الله وعصى الله وتمرد على منهج الله ، ومن عذابه طعام الزقوم ، وهى شجرة ﴿ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيم (٦٤) طَلْعُهَا[1] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات]

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ﴾ [الصافات] ، ويقول تعالى فى آيات أخرى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم (٤٣) طَعَامُ الأَثِيم (٤٤) كَالْمُهْلِ[2] يَغْلِى فِى الْبُطُونِ (٤٥) ﴾ [الدخان]

ورسول الله ﷺ يعطينا لمحةً عن هذا العذاب الشديد من طعام الزقوم ، ليس بأكلة منه إنما بقطرة واحدة ، فيقول رسول الله ﷺ : « لو أن قطرةً قُطرت فى بحار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم »[3] .

قطرة واحدة فى بحار الدنيا على عظمها وتلاطمها ومساحاتها الشاسعة لو سقطتْ تلك القطرة فيها لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فلا يستفيدون من تلك البحار بشيء أبداً ، لا بمائها ، ولا بحيواناتها البحرية فكيف بمَنْ يكون الزقوم طعامه ؟

---

(١) أول حمل النخل الطلع فإذا انشق فهو الضحك وهو الإغريض ثم البلح ثم السياب ثم الجدال إذا استدار واخضر قبل أن يشتد ثم البسر إذا عظم ، ثم الزهو إذا احمر . [أدب الكتاب لابن قتيبة ١/٢٢] .

(٢) المهل : الصديد والقيح . وردى الزيت وما أذيب من نحاس أو فضة . وفى حديث أبى بكر : " ادفنونى فى ثوبيَّ هذين فإنما هما للمهل والتراب " . [الصحاح فى اللغة ٢/١٨١ للجوهرى] .

(٣) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٠٢) ﴾ [آل عمران] فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، كيف من يكون طعامه ؟ "أخرجه أبو داود الطيالسى (٢٧٦٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٩٠٥) وفى المعجم الأوسط (٧٥٢٥) وفى المعجم الصغير (٩١١) وكلها من طريق أبى داود الطيالسى .

وإذا كان الله قد أعدَّ لهم عذاباً شديداً فناسب أنْ يقول هنا : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] وأمْر التقوى أمر عجيب ، فتجد الحق سبحانه يقول (اتقوا الله) وأحياناً يقول (اتقوا النار) ، فكيف نأخذ سلوكاً واحداً تجاه الحق سبحانه وتعالى ، وتجاه النار التى سيُعذّب فيها الكافرون ، والنار خَلْق من خَلْق الله؟

فالله تعالى يقول (اتقوا النار) أى : لا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعذّبوا فى النار ، فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأنْ تركت المعاصى وفعلت الخير .

والنار أحد جنود العذاب لله سبحانه ، فالله يريدنا أنْ نجعل بيننا وبين عذاب النار وقاية ، وأنْ نجعل بيننا وبين صفات الجلال فى الله وقاية .

والنار من متعلِّقات صفات الجلال ، لذلك فإنّ قوله (اتقوا الله) تساوى (اتقوا النار) ، والنار لا تفعل العذاب بالعصاة بذاتها ، إنما بتسليط الله لها على العاصى .

ويقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) ﴾ [البقرة] أى : إياكم أنْ تغضبوا ربكم فى أى عمل من هذه الأعمال ، وكُنْ أيها المسلمَ فى هذه التقوى على يقين من أنك مُلاقى الله ، ولا تشك فى هذا اللقاء أبداً ، وما دُمت ستتقى الله وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يبْقَ لك إلا أنْ تُبشَّر بالجنة .

فاجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ، لأن الحق له صفات جلال هى الجبروت والانتقام والقهر ، وللحقّ صفات جمال فهو الغفور الرحيم المغنى الحكيم إلى غير ذلك من صفات الجمال ، إذن فلنجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية تقينا من جنود صفات الجلال ومنها النار .

ولا يعى هذا ويفهمه ويسلك سلوكاً قويماً يتقى الله فيه إلا أولو الألباب والعقول الذين يدركون بعقولهم أنَّ تقوى الله وإيمانهم بالله هو الذى سيُنجيهم

من عذاب الله الشديد المعدّ لمَنْ عتَا وتمرد .

وقوله ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] و (أولو الألباب) هم أصحاب العقول الراجحة ، والألباب جمع لُبّ . واللبّ هو جوهر الشيء المطلوب ، أما القشر فهو موجود لصيانة اللبّ . وسُمِّى العقلُ لُباً لأنه ينثر القشور بعيداً ويعطينا جوهر الأشياء وخيرها .

فـ (لُبّ الشيء) حقيقة جوهره ، فالقشرة توجد لتحفظ هذا اللبّ ، والمحفوظ دائماً هو أنفَسُ من الشيء الذى يُغلِّفه ليحفظه .

وهكذا يكون أولو الألباب هم البشر الذين يستقبلون القضية الإيمانية بعقولهم ، ويحركون عقولهم ليتذكروها دائماً ، ذلك أنّ مشاغل الحياة ومُتعها وشهواتها قد تصرف الإنسان عن المنهج .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢) ﴾ [إبراهيم] أى : يتذَّكر أصحاب العقول أن الله واحدٌ أَحد ، فلا إله إلا هو .

فـ (أولو الألباب) أى : أصحاب العقول المحفوظة من الهوى ، لأن آفة الرأى الهوى ، والهوى يتمايل به .

فـ (اللبّ) الذى هو العقل يحكم لُبَّ الأشياء لا ظواهر الأشياء وعوارضها ، فهناك أحكام تأتى للأمر الظاهر والحق للُبِّ .

فـ (أولو الألباب) هم أصحاب العقول القادرة على التدبُّر والتفكُّر والتمييز. وقد أسماهم الحق فى آيات أخرى (أولى النهى) قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) ﴾ [طه]

والنُّهى : العقول ، وبها تتم عملية التدبير فى الاختيارات ، والعقل من العقال الذى تعقل به الدابة حتى لا تشرد منك ، وكذلك العقل لم يُخلق لك كى تشطح به كما تحب ، إنما لتعقل غرائزك وتحكمها على قدر مهمتها فى حياتك .

وسُمِّيت العقول كذلك النُّهَى لأنها تنهى عن مثل هذه الشطحات . إذن : فلا بدّ للإنسان من عقل يعقل غرائزه حتى لا تتعدَّى المهمة التى جعلت لها ويُوقفها عند حدِّها المطلوب منها ، وإلا انطلقتْ وعربدت فى الكون .

لا بدَّ للإنسان من نُهْية تنهاه وتقول له : لا لشهوات النفس وأهوائها ، وإلاَّ فكيف تطلق العنان لشهواتك ، ولستَ وحدك فى الكون ؟ وما الحال لو أطلقَ غيرُكَ العنان لشهواتهم ؟

وسُمّى العقل لُباً ليشير لك إلى حقائق الأشياء لا إلى قشورها ، ولتكون أبعدَ نظراً وأعمق فكراً فى الأمور .

فالعقل هو الميزان ، وهو الذى يُجرى المعادلة ويُوازن بين الأشياء ، وكذلك إنْ جاء بمعنى النُّهى أو اللبّ فإنها تؤدى نفس المعنى ، فالنّهى من النَّهْى عن الشيء . واللبّ أى حقيقة الشيء وأصله ، لا أنْ يكون سطحيَّ التفكير يشرد منك هنا وهناك .

والله لا يُنبِّه الناس إلى ما فيهم من عقل إلا وهو يريد منهم أنْ يحكِّموا عقولهم فى القضية ، لأنه جلَّ شأنه يريد منك أنْ تحكِّم عقلك ، فإنْ حكَّمت عقلك فى القضية فسيكون حكمُ العقل فى صَفِّ أمر الله .

فمجرد التعقُّل يعطى الإنسانَ الخيرَ ، والتعقُّل هو محاولة فَهْم نواميس الكون من الأسباب والمسبِّبات ، فيقول تعالى فى آيات كثيرة : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) ﴾ [المؤمنون] ، ويقول تعالى : ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) ﴾ [السجدة]

فهو يُحرِّض الإنسان على أنْ يتذكّر ويتفكّر ويعتبر ، ولو كان القرآن يريد أنْ يخدع الإنسان لما أثار انتباهه إلى ضرورة التذكّر والتفكّر والتدبّر والاعتبار.

وحين يُنبِّهك الحق سبحانه إلى أنْ تستعمل عقلك فهذا دليلٌ على الثقة فى أنك إذا استعملتَ عقلك وصلتَ إلى القضية المرادة ، فلو أنهم استعملوا عقولهم فى استخدام المقدِّمات المحسَّة التى يؤمنون بها ويسلمون .

فمهمة العقل مأخوذة من اشتقاقه ، فالعقل مأخوذ من عقال البعير ، وعقال البعير هو الحبل الذى يُربط به ساقا الجمل حتى لا ينهض ويقوم .

والعقل إنما جاء ليحكم الملكات ، لأن كل ملكة لها نزوع إلى شيء ، فالعين لها ملكة أنْ ترى كلّ شيء ، فيقول لها العقل : لا داعى أنْ تشاهدى ذلك لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أنْ تسمع كل قول فيقول لها العقل : لا تسمعى إلى ذلك حتى لا يضرك .

فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح ، ثم ينقلنا الحق سبحانه لوصف آخر للعقل وهو اللبّ ، أى العقل الذى يهتم بمعالى الأمور ويزن الأمور بحكمة ويصل بلُبّه إلى حقائق الأشياء وجوهرها .

ولكن مَنْ هم أولو الألباب ؟

الحق سبحانه هنا يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠) ﴾ [الطلاق] فـ (الذين آمنوا) بدل من ﴿ أُولِي الْأَلْبَابِ ..(١٠) ﴾ [الطلاق] أى : أن أولى الألباب هم الذين آمنوا .

أى : الذين آمنوا بالله إلهاً ودخلوا معه فى عقد إيمانى ، فآمنوا بالله ورسوله ليس فى قلوبهم ريب ولا شكّ ، بل هم يؤمنون بأن القرآن مُوحى به من الله مُبلَّغ إلى محمد ﷺ بالوحي المُنزَّل من السماء .

آمنوا بالله رباً وإلهاً وخالقاً ، لذلك استحقوا وصف (أولى الألباب) فخذوا عن الله وافعلوا كما أُمرتم لأنكم آمنتم بمَنْ أمركم ، فالذين آمنوا ملتزمون ، وما دام الإنسان ملتزماً فسيعوق نفسه عن حركات الوجود التى تأتيه من غير حِلٍّ.

فيا مَنْ آمنتم بى بمحض اختياركم ، وآمنتم بى إلهاً له كلُّ صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية ، ما دُمتم قد آمنتم بهذا الإله فاسمعوا من الإله الأحكام التى يطلبها منكم .

والحق سبحانه لم يحدِّد فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠) ﴾ [الطلاق]

آمنوا بماذا ؟ فالإنسان إنْ آمن بالله فقط ، فهذا يقتضى أنْ يبحث المؤمنُ بالله عن مطلوب الله ، ومطلوبُ الله إنما جاء به رسول ، لذلك فالإيمان بالله يقتضى أنْ يؤمن الإنسانُ برسول ، لأن قصارى ما يعطيك العقل أيها الإنسان أنْ تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خالقاً ويُدبِّره .

وإيمانك برسول يُعتبر إيماناً بالكتاب الذى جاء به وكذلك إيماناً بالملائكة، وكان الذين آمنوا من أولى الألباب ، أو هم أولو الألباب ؛ لأنهم استخدموا عقولهم استخداماً صحيحاً ووصلوا إلى الإيمان الحق بالله وبرسوله وبكتابه ، فلم تأخذهم الأهواء .

ومَن استعمل عقله فى استخدام المقدِّمات المحسَّة التى يؤمنون بها ويُسلمون ، فالعقل أراده الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى فى تحقيق شهوات النفس ، فالحق سبحانه يعقلك عن الحركة التى فيها هوى بأنْ منحك العقلَ ليؤدى لكِ هذه المهمة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) ﴾ [الطلاق] نحن نعلم أن (قد) للتحقيق . فـ (قد) إذا دخلت على الفعل الماضى تكون للتحقيق ، وإنْ دخلت على المضارع فهى للتكثير إنْ كانت منطقية الأسباب ، وهى للتقليل إنْ كانت غير منطقية الأسباب .

وكلمة ﴿ أَنْزَلَ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] تعنى : أوجد وخلق من أعلى ، وما دام كلُّ شيء قد وُجِد بمشيئة مَنْ هو أعلى من كلِّ الوجود ، فكلُّ شيء لصالحك مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة (أنزل) من جهة العلو الحسية ، بل خُذْها من جهة العلو المعنوية، فالمطر مثلاً ينزل من أعلى حسِّياً ويختلط بالأرض فيأخذ النبات غذاءه منها ، والرزق بالمطر ومن الأرض مُقدَّر ممَّنْ خلق ، وهو الأعلى سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ

لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

فقد أنزل الحقُّ سبحانه منهجه على الرسل عليهم السلام لتصلح حياة الناس، وأنزل الحديد أيضاً هذا الذى نستخرجه من الجبال ومن الأرض ، فالمراد هنا بالإنزال الإيجاد ممنْ هو أعلى منك لصالحك أيها الإنسان .

فالله إنما أنزل المنهج ليعمل به الإنسانُ لتستقيم حركة حياته وحياة ذريته، فالله أنزل إلينا منهجه ليُرينا طريق الخير ويُبعدنا عن طريق الشر .

فمنهجُ الله الذى أنزله على رسوله قد عرَّفنا أن الله تبارك وتعالى هو الذى خلق لنا هذا الكون وخلقنا ، وبيَّن اللهُ لنا ماذا يريد الحق منا ، وكيف نعبده ، ومنهج الله أعطانا الطريق وشرعَ لنا أسلوبَ حياتنا تشريعاً حقاً .

أنزل اللهُ تعالى منهجاً للحياة الطيبة للإنسان على الأرض ، فإذا سمعت كلمة ﴿ أَنْزَلَ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] تجدها منسويةً إلى الله دائماً : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر]. إذن : فكلمة (أنزل) مقصورة على الله ، إنما كلمة (نزَّل) تأتى من الملائكة ، و (نَزَل) تأتى من الروح الأمين الذى هو جبريل .

فكأن كلمة ﴿ أَنْزَلَ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] بهمزة التعدية ، عدَّتْ القرآن من وجوده مسطوراً فى اللوح المحفوظ إلى أنْ يبرز إلى الوجود الإنسانى ليباشر مهمته .

فلغتنا العربية دقيقة ، وعندنا فرْق بين (أنزل) و (نَزَّل) و (نَزَل) ، ولذلك فكلمة (نَزَل) تأتى للكتاب ، وتأتى للنازل بالكتاب ، يقول تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء]

ويقول سبحانه : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء] وكلمة (أنزل) ، (ونزل) تُشعرنا بعُلو المكانة التى نزل منها المنهج ، ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه قال هنا : ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ .. (١٠) ﴾ [الطلاق]

ويقـول تعـالى أيضـاً : ﴿ وَالَّذِيـنَ يُؤْمِنُونَ بِمَـا أُنْزِلَ إِلَيْـكَ وَمَا أُنْزِلَ مِـنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [البقرة]

ولكـن الحق سـبحـانه يقول فى آيات أخـرى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْـكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾ [النحل]

وهكذا نجد أن الإنزال يأتى مرة مُتعدِّياً بـ (إلى) ، ويأتى مرة أخرى متعدياً بـ (على) ، وقال بعض من العلماء : إن الكلام حينما يكون موجهاً لرسول الله ﷺ ، فالحق يقول : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ .. (٦٤) ﴾ [النحل]

وكأنَّ هؤلاء العلماء – دون قصـد منهم – يفصـلون بين بلاغ الله للرسـول والبـلاغ إلى أمة الرسـول ﷺ ، ولم يلتفتـوا إلى أن الغاية من إنزال المنهج على الرسول هو هداية الأمة .

وعلينا ألاَّ نأخذ الأمر بسطحية ، فـ (إلى) و (على) إنما تفيدان أن المنهج نزل للأمـة وللرسـول ﷺ ، فمرة يأتى الحق بالنزول مُتعدياً بـ (إلى) ، ومرة يأتى الحق بالنزول مُتعدياً بـ (على) ، ويوجه الخطاب لرسـول الله كقوله سبحانه: ﴿ وَمَـا أَنْزَلْنَا عَلَيْـكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُـمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُـدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾ [النحل]

ومرة ثالثة يأتى الحق بالإنزال فى حديث إلى المؤمنين : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَـابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُـمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَـا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُـدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .. (١٤٠) ﴾ [النساء]

إنـه كتـابٌ مُنـزَّل من السـماء وملحوظ فيه العلـو ، والغاية مـن النزول هو مصـلحة الأمـة ، فالإتيان بـ (على) يفيد العلو ، ولمصـلحة الأمة . (العلوية) هنا ليُعلى مقام المنهج فى نظر المؤمنين فهو قد نزل لمصلحتهم .

فالمنهج هو من حيث العلو يأتى بـ (على) ، ومن حيث الغاية يأتى بـ (إلى)،

فهو منهج نزل من الحق الأعلى ونزل إلى الرسول وعلى الرسول ليُبلغه إلى المؤمنين لمصلحتهم . فكلمة (أنزل) تدل على أن هذا عطاء علوى .

﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) ﴾ [الطلاق] ، والذكْر هو حفظ الشيء أو استحضاره، وقد يكون الذكر بمعنى القول لأنك لا تقول الشيء إلا بعد أنْ تستحضره .

وقد أنزل سبحانه القرآنَ ، ورسولُ الله هو أول مَنْ طبَّق القرآن والسنة ، ويقول تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل]

فالذكر يأتى أحياناً مقصوداً به التذكير بالقرآن وهو المنهج النازل من السماء وطبَّقه رسول الله ، وسنة رسول الله من الذكر أيضاً ، والحق سبحانه يصف القرآن فيقول : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] والذكْر ضد النسيان ، وقد وردت معانٍ كثيرة للذكر فى القرآن ، وأول هذه المعاني وقمتها أن الذكر حين يُطلق يُراد به القرآن : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) ﴾ [آل عمران]

وكذلك فى قوله الحق : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .. (٩) ﴾ [الحجر] إذن: يُطلق الذكر ويُراد به القرآن ، ومرة يُطلق الذكر ويُراد به الصيت أى الشهرة الإعلامية الواسعة ، وقد قال الحق لرسوله عن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤) ﴾ [الزخرف]

أى أن القرآنَ شرفٌ كبيرٌ لك ولأمتك ، وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة، ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء] أى : فيه شرفكم وفيه صيتكم وفيه تاريخكم .

وشرفُ القرآن دائم أبداً : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] ، وتجد القرآن يقرأ مُرتّلاً ، ويقرأ مُجوّداً ، وكلُّ هذا ذِكْر وشرف كبير .

وقد يُراد بالذكْر ما نزل على جميع الرسل ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ[1] إِلَّا

---

(١) محدث : يعني ما يحدث الله من تنزيل شيء من القرآن ويعظهم به . قال مقاتل : يحدث الله الأمر بعد الأمر. وقيل : الذكر المحدث ما قاله النبي ﷺ وبيّنه من السنن والمواعظ سوى القرآن . [تفسير البغوي ٥/٣٠٦].

اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) ﴾ [الأنبياء]

أى : أن كل ما نزل على الرسل ذكر ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [الأنبياء] فالمراد بالذكر كل ما نزل على الرسل من منهج الله .

والذكْر أيضاً التذكير ، فقد أنزل اللهُ تعالى إليهم قرآناً يُذكِّرهم بربهم وخالقهم ليعملوا بما يُرضيه تعالى ، فـ (ذكراً) هنا أي قرآناً يُذكرهم ، فالله أنزل إليكم ذكراً يُذكركم به وينبهكم على حظكم من الإيمان بالله والعمل بطاعته ، فالله أنزل إليكم كتاباً لكم فيه شرفٌ وعِزٌّ وهو القرآن .

ويخاطب الحق سبحانه : ﴿ المص (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ .. (٣) ﴾ [الأعراف]

فهو كتابٌ أنزل من الله وهو المرسل ، و ﴿ إِلَيْكَ .. (٢) ﴾ [الأعراف] لأنك رسول ، والمرسَل إليهم هم الأمة ، إمَّا أنْ تنذرهم إنْ خالفوا ، وإما أنْ تُذكرهم وتهديهم وتُعينهم أو تُبشّرهم إنْ كانوا مؤمنين .

وذِكْر الله إنما أنزله اللهُ ليُتَّبع : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ .. (٣) ﴾ [الأعراف] فالمنهج الذى يأتى من الرب الأعلى هو الذى يُصلح الحياة ، فاتبعوا ما أُنزِل إليكم من ربكم من أعلى .

فلا يصح أنْ تأتى لمن دونه وتأخذ منه ، مثلما يفعل العالم الآن حين يأخذ قوانينه من دون الله ومن هوى البشر ، فهذا يحب الرأسمالية فيفرضها بالسيف ، وآخر يحبّ الاشتراكية فيفرضها على البشر بالسيف ، وكل واحد يفرض بسيفه القوانين التى تلائمه .

وكلها دون منهج الله لأنها أفكار بشر وتتصادم بأفكار بشر ، والأوْلَى من هذا وذاك أنْ نأخذ ممن لا نستنكف جميعاً أنْ نكون عبيداً له ، ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَـاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّـورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا (١١) ﴾ [الطلاق]

فقولـه تعالى (رَسُولاً) على البدل من (ذكراً) أى : أنـزل الله إليكم ذكْراً هـو الرسـول . وهـو معنـىً من معانى الآية ، ولكـن من معانيها أيضـاً أنَّ الله أنزل إليكم ذِكْراً وأرسل رسولاً .

وعلـى هذا لا تكون (رسـولاً) بـدلاً من (ذكراً) ، بل تكون بتقدير (أرسـل). والرسـول إمـا هو جبريل عليه السـلام ، فيكـون القرآن مُنـزلاً ، ويكون جبريل الرسول مُنزلاً أيضاً ، لأنه نزل بالقرآن على محمد ﷺ .

فرسـولُ الله من الملائكة إلى رسـله من البشر هو جبريل عليه السلام ، وقد قـال تعـالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] أي نزل جبريل بالقرآن، فجبريل هو الروح الأمين على الوحى وعلى كلام الله ، فـ (نزل) تـأتى للنـازل بـالكتـاب .

فجبريـل رسـولٌ مـن الله إلى رسـول الله ﷺ ، وهـو حـامـلٌ للوحـى من الله ، فـالقـرآن لم ينـزل وحده ، وقد نـالت الملائكة شرفَ أنْ يكون المبلّغ لرسـول الله منهم ، وهو جبريل عليه السلام .

لذلـك قـال تعـالى : ﴿ لَـٰكِـنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْـزَلَ إِلَيْـكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِـهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ .. (١٦٦) ﴾ [النساء] والرسول أيضاً هو محمد ﷺ ، فيكون الله قد أنزل إليكم ذِكْراً وبعث إليكم رسولاً .

ثم يقول الحق سبحـانه :

﴿ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾

فمن نعمة الله علينا أنْ أرسل إلينا رسولاً يتلو علينا آيات الله ، والرسول جاء يتلو آيات الله وآيات القرآن ، وكانت عجيبة عليهم ، وقد جاءهم الرسول بآيات مقروءة ليلفت الناس إلى الآيات المنظورة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران] ، وليست المسألة أنه يتلو الآيات ليعجبوا منها فحسب ، فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كلَّ سامع للقرآن إلى مَنْ خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة .

وهناك فرْقٌ بين التلاوة والتعليم ، فالتلاوة أنْ يتلو عليهم ، أى أنَّ الرسول هو الذى يتلو ، والتعليم يكون بأنْ يتلوا هم القرآن ، ثم قال : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران] ، وعلَّم أى نقل العلم من معلِّم إلى معلَّم .

وقد كان رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحى بعدة آيات ، وقد يطول إلى رُبْعين أو ثلاثة أرباع ، فلما أنْ يُسرَّي[1] عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته ليكتبوه، ويتلوه كما أنزل عليه ، فيكتبه الكتبة ويحفظه مَنْ يحفظه منهم ، وكانوا أمةَ روايةٍ وأمةَ حفظٍ .

فالتلاوة هى أنْ تقرأ القرآن ، وأما التعليم فهو أنْ تعرف معنى آيات الله وما جاءتْ به لتُطبِّقه وتعرف من أين جاءت ، ومحمد ﷺ نشأ بينهم ولم يعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ، ولا جلوساً إلى معلم .

فمعنى ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ .. (٦٩) ﴾ [الشعراء] أى : اقرأ . ونقول للقراءة (تلاوة) لأنه لا يُتلى إلا المكتوب المعلوم المفهوم ﴿ عَلَيْهِمْ .. (٦٩) ﴾ [الشعراء] أى : على أمة الدعوة كلها ، المصدِّقين بالقرآن والرسول والمكذِّبين .

---

(١) يُسرَّى عنه : يُكشف عنه . سُرِّى عنه بضم السين المهملة وكسر الراء المشددة ، أي كشف عنه شيئاً بعد شيء بالتدريج (عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني ١٤/٢٤٧) .

فهذه التلاوة للدعوة ، أما فى قولـه تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] فهى تلاوة المسلم للقرآن للأُنْس الذى لا ينقضى ، وهو كتابُ الله ومعجزته التى أنزلها الله ، فاشتغل بتلاوته ، فمع كل تلاوة له ستجد سكناً إلى ربك .

فـ (اتل) أى اقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوة لنفسك ، فميزة معجزتك يا محمد أنك تستطيع أنْ تُكرِّرها فى كلِّ وقت ، وأنْ تتلوها كما تشاء وأنْ يتلوها بعدك مَنْ سمعها ، وستظلّ تتردد إلى يوم القيامة ، والتلاوة قوْلٌ من فعل اللسان .

وقد كان رسول الله يتلو القرآن وآيات الله فى بيوت أزواجه ، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب]

فكتابُ الله المقصود هنا وآياته هى القرآن الكريم ، ويقول الحق سبحانه لنبيّه ورسوله محمد ﷺ : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ .. (٢٥٢) ﴾ [البقرة] فكلمة ﴿ آيَاتُ اللهِ .. (٢٥٢) ﴾ [البقرة] تعنى الأشياء العجيبة ، و﴿ نَتْلُوهَا .. (٢٥٢) ﴾ [البقرة] أى : نجعل كلمة بعد كلمة ، وهى من (ولى) أى جاء بعده بلا فاصل .

وآيات الله ثلاثة أنواع :

– آيات كونية ، وهى العجائب التى فى الكون ويُسمِّيها الله سبحانه آيات ، وقد سمَّى الحقُّ سبحانه الظواهر الكونية آيات ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت] . وقال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم]

– وهناك آياتٌ ، هى الدليل على صِدْق الرسل عليهم السلام فى البلاغ عن الله وهى المعجزات لأنها خالفتْ ناموسَ الكون المألوف للناس ، فكلّ شيء له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ، فهذا يستدعى الانتباه .

ومثل هذه الآيات النار التى أُلقى فيها إبراهيم عليه السلام ولم تحرقه، فأعداؤه أخذوه وألقوْا به فى النار فنجَّاه الله سبحانه من النار فخرج منها سالماً .

ولم يكُنْ المقصود من ذلك أنْ ينجو إبراهيمْ من النار ، فكان من الممكن أنْ لا يُمكِّنهم الحق عزّ وجلَّ من أنْ يُمسكوه ابتداءً ، ولو شاء الله تعالى أنْ يطفيء النارَ بقليل من المطر لفعلَ ، لكن ذلك لم يحدث .

الذى حدث أنهم أمسكوا بإبراهيم عليه السلام وألقوا به فى نار عظيمة ، ولكن النار لم تحرقه لأنَّ الله أمرها ، فقال : ﴿ يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا[1] وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ .. (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

– وتُطلق الآيات أيضاً على آيات القرآن الكريم ، وما دامت الآيات القرآنية من الله ، والمعجزات من الله ، وخَلْق الكون من الله ، فهل هناك آية تصادم آية؟ لا لأن الذى خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو الله إلهاً واحداً ، ولو كان الأمرُ غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات .

وكلمة الآيات تُستعمل للأمور العجيبة اللافتة للنظر ، تقول مثلاً : فلان آيةٌ فى الحسن ، أى أن حُسْنه لافتٌ للنظر ، وتقول : فلانٌ آية فى الذكاء ، صحيح أنَّ هناك أذكياءَ كثيرين لكنه آية فى الذكاء . أى أن هذا الإنسان أمره عجيبٌ فى الذكاء ، فالآيات هى التى يقف الإنسان عندها وقفةً طويلة ليتأمل فى عجائبها .

فالآيات قسمان : منظور ومقروء . المنظور : كل الكون .. والمقروء هو القرآن، فالقرآن يفسر آيات الكون ، وآياتُ الكون تفسر آيات القرآن ، والرسول جاء يتلو آيات القرآن ، ليلفت الناسَ إلى الآيات المنظورة .

وبتلك الآيات المنظورة يكون العجب من دِقَّة خَلْق الكون ، فينتهى الإنسانُ إلى الإيمان بمَنْ خلق هذا الكون .

(١) قال ابن عباس : لو لم يقل سلاماً لمات إبراهيم من بردها ، ومن المعروف في الآثار أنه لم يبق يومئذ نار في الأرض إلا طفئت ، فلم يُنتفع في ذلك اليوم بنار في العالم . [تفسير البغوي ٥/٣٢٨] .

فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كلَّ سامع للقرآن إلى مَنْ خلق هذا الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة ، ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون ، فالرسول ينقل المؤمنين إلى المنهج الذى يُزكى الإنسان .

منهج النور الواضح فى كلماته ، فالمطلوب من الرسول أنْ يبلّغ المنهج ، وقد بلّغه ﷺ بلاغاً مبيناً محيطاً واضحاً ومستوعباً لكل أقضية الحياة .

وقوله تعالى ﴿ **مُبَيِّنَات** .. (١١) ﴾ [الطلاق] أى : مُبيّنات لمن سمعها وتدبّرها أنها من عند **الله** ، يُبين لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام ، وهى فى ذاتها بيِّنة واضحة جلية .

و﴿ **مُبَيِّنَات** .. (١١) ﴾ [الطلاق] بكسر الياء هى قراءة حفص(١) وغيره على صيغة اسم الفاعل ، أى أن الآيات تبين للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام، أما قراءة الجمهور فهى : مبيَّنات . بفتح الياء أى بيَّنها **الله** وأوضحها ، كقوله تعالى: ﴿ **قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ** .. (١١٨) ﴾ [آل عمران] بيَّن **الله** فيه الحلال والحرام.

وقد قال تعالى فى آيات أخرى : ﴿ **وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَات** .. (٣٤) ﴾ [النور] فالله تعالى قد أنزل لكم الآيات الواضحة التى تضمنً لكم شرف الحياة وطهارتها ونقاء نسل الخليفة **لله** فى الأرض .

وهذه الآيات ما تركت شيئاً من أقضية الحياة إلا تناولته وأنزلت الحكم فيه ، وقد نلتمس لكم العذر لو أن فى حياتكم مسألة أو قضية ما لم يتناولها التشريع ولم ينظمها .

---

(١) هو حفص بن عمر بن عبد العزيز الأزدي الدوري أبو عمر ، إمام القراءة في عصره ، كان ثقة ثبتاً ضابطاً ، هو أول من جمع القراءات ، كان ضريراً نسبته إلى الدور وهي محلة ببغداد ، نزل سامراء ، وتوفي بقرية من قرى الري وهي طهران حالياً وذلك عام ٢٤٦ هجرية [الأعلام للزركلي ٢/٢٦٤] وانظر تراجم القراء (١٣/١) للشيخ فائز بن عبد القادر .

لذلك يقول سيدنا على رضى الله عنه عن القرآن : فيه حكم مابينكم ، وخبر ما قبلكم . ونبأ ما بعدكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله[1].

ولا يزال الزمان يثبت صدق هذه المقولة ، وانظر هنا وهناك لتجد مصارع الآراء والمذاهب والأحزاب والدول التى قامت لتناقض الإسلام ، سواء كانت رأسمالية شرسة أو شيوعية ملحدة .. إلخ كلها انهارت على مرأى ومسمع من الجميع.

نعم . مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، ومَنْ ابتغى الهدى فى غيره أضلّه الله لأنه خالقك ،وهو أعلمُ بما يُصلحك ، فلا يليق بك إذن أنْ تأخذ خَلْق الله لك ثم تتكبَّر عليه وتضع لنفسك قانوناً من عندك أنت .

ومعنى ﴿ مُبيِّنَاتٍ .. (١١) ﴾ [الطلاق] أى : مبينات لاستقامة حركة الحياة ، لأن حركة الحياة تحتاج لأنْ يتحرك الجميع ، ويؤدى كلٌّ مهمته حتى تتساند الحركاتُ ولا تتعاند ، فالذى يُتعِب الناس فى هذه الدنيا أنْ تبنى وغيرك يهدم .

ومقصود هذه الآيات هو ما قاله تعالى هنا : ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١١) ﴾ [الطلاق]

والرسول عندما يأتى ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور يريد أناساً تفهم عنه ، لذلك يأتى من أنفسهم ، ويكون إنساناً له مواصفاتكم ، لذلك قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران]

فالقرآنُ نزل ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور ، فيسير الناسُ على هدى وعلى بصيرة .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩٠٦) والبزار في مسنده (٨٣٦) والدارمي في سننه (٣٣٣١) وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٦٢٩) من حديث علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ : « ألا إنها ستكون فتنة . فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : «كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم» . إلخ .

والحق سبحانه يعقد لنا مقارنة بين الذين آمنوا والذين كفروا، يقول تعالى: ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٢٥٧) ﴾ [البقرة] ثم يقول: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ .. (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فالمؤمنون وليّهم الله، والله لا يترك عباده فى ظلمات الشرك والكفر، بل يُخرجهم من الظلمات إلى نور الإيمان والتوحيد والطاعة، فالله وليّ الذين آمنوا يتولّى شئونهم وأمورهم، وهو ناصرهم ومُحبّهم ومُعينهم.

وهو سبحانه يُخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، أما الذين كفروا فأولياؤهم الطاغوت يُخرجهم من النور إلى الظلمات.

والذين آمنوا هم الذين اتبعوا رضوانه فسلكوا سبل السلام، قال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١٦) ﴾ [المائدة]

فمَن اتبع رضوانه يهديه الله لسُبل السلام، ففيه رضوان مُتبع، وفيه سبل سلام كمكافأة، هؤلاء يُخرجهم الله من الظلمات إلى النور، والظلمات هى محلّ الاصطدام.

وعندما يُخرجهم من الظلمات إلى النور يروْنَ الطريق الصحيح الموصِّل إلى الخير والطريق الموصِّل إلى غير الخير، والله لم يقُلْ: ليُخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى الأنوار، فلم يجمع (النور) بل جعله مفرداً، فالنور واحد لا يتعدد، أما الظلمات فمتعددة بتعدُّد الأضواء، ظلمة هنا وظلمة هناك.

والحياة لا تحتاج فقط إلى ما يثير المظاهر المادية بالنور، بل تحتاج أيضاً إلى نور ينير ويكشف المظاهر المعنوية.

والنور الذى جاء به رسول الله ﷺ يجلى الحسَّ والمعنى فى آن واحد لنتجنب

الأشياء التى تطمسها الظلمة ، ولنسير على بيِّنة من المعانى فلا نصطدم بالعقبات.

وقد يقول قائل : لماذا يعيش الناسُ فى الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر ؟ وتكون الإجابة : إنَّ هناك أناساً يستفيدون من وجود الناس في الظلمات ، لذلك يكون بينهم أناسٌ ظالمون وأناسٌ مظلومون .

والظالم الذى يأخذ - اغتصاباً - خير الآخرين ويُعربد فى الكون يخاف من رجل الدعوة الذى ينهاه عن الظلم ويدعوه إلى هداية العقل ومنطقه ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحب أنْ تُنطق هذه الكلمة ، إنه يكره الكلمة والقائل لها .

والذين يعيشون فى الظلام يكونون قد ألفوا الظلمة والفوضى ، وكُلٌّ منهم يعربد فى الآخرين ، وعندما جاء الدين فرَّ بعضهم من مجيء النور ، لأن النور يحرمهم من لذَّات الضلال ، ولأن النور يوضح الرؤية .

والظلمات هى محلّ الاصطدام ، وعندما يُخرجهم من الظلمات إلى النور يروْنَ الطريق الصحيح الموصِّل إلى الخير ، والطريق الموصِّل إلى غير الخير، وبعدما يخرجون من الظلمات إلى النور تكون حركاتهم متساندة وليست متعاندة ، ولا يوجد صدام ولا شيءَ يُورثهم بغضاء وشحناء .

والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسِّية ، وكذلك النور المعنوى أقوى من النور الحسى .

والله إنما يُخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فكلُّ عمل سلوكيٍّ لا بد أنْ يوجد من ينبوع عقديٍّ ، والإيمان أنْ تنسجم حركة الحياة مع ما فى القلب وفْق مراد الله سبحانه ، فكأنَّ العملَ الصالح ينبوعه الإيمان .

ونحن حين نسمع ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا** .. (١١) ﴾ [الطلاق] فهذا عمل قلبى ونسمع بعده ﴿ **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** .. (١١) ﴾ [الطلاق] وهذا عمل الجوارح ، فبعمل القلب مع عمل الجوارح يتحقق من السلوك ما يتفق مع العقيدة .

والاعتقاد القلبى يجعل مشاقّ التكليف فى الأعمال الصالحة مقبولة وهيِّنة، وفائدة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح .

والصالحات هى جمع صالحة ، والصالحة هى الأمر المستقيم مع المنهج، وضدها الفساد ، وأقلّ الصالحات هو أنْ يترك الصالح على صلاحه أو يزيده صلاحاً .

ولا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) ﴾ [النساء]

فهناك مَنْ يحاول عمل بعض من الصالحات حسْب قدرته ، والمطلوب من المؤمن أنْ يعمل من الصالحات على قدْر إمكاناته ومواهبه .

وأول مرتبة فى الأعمال الصالحة أنْ يترك الإنسانُ الأمورَ الصالحة على صلاحها ، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه أن المؤمن لن يعمل الفساد ، وكلُّ عمل تصلح به خلافة الإنسان فى الأرض هو عمل صالح .

فالذى يرصف طريقاً حتى يستريح الناسُ من التعب عمل صالح ، وتهيئة المواصلات للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عملٌ صالح ، ومَنْ يعمل على ألاَّ ينشغلَ بالُ البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عملٌ صالح .

وقد رتَّب الحق سبحانه على الإيمان بالله وعمل الصالحات ثواباً فى الآخرة، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (١١) ﴾ [الطلاق] فالحق سبحانه مع الحياة الطيبة التى يمنحها الله لمن أطاعه بإيمانه وعمله الصالح فيحيا فى الدنيا حياةً مطمئنةً بالإيمان، فالله أيضاً يُدخله جنات ، وليس جنة واحدة بل هى جنات تجرى من تحتها الأنهار.

فهى تجرى من تحتها فكأنَّ منبعها ومصدرها من تحت هذه الجنات بزروعها وبنيانها ، فإن الزروع هى التى تحتاج إلى مياه ، أما المبانى فنحن

نخشى على المبانى من المياه ، وهذا بتقديرنا نحن ، أما بتقدير الله فهو يُعد الشيءَ إعداداً يليق به سبحانه .

فالخَلْق قد يشقُّون نهراً ،و نجد بعد ذلك النشْع يضرب فى المبانى ، لكن تصميمات الحق بطلاقة قدرته سبحانه تكون فيه الجناتُ تجرى من تحتها الأنهار ولا يحدث منها نشعٍ ، سواء من تحت أبنية الجنات ، أو من تحت زروعها.

والحق سبحانه مرة يقول : ﴿ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١١) ﴾ [الطلاق] ومرة أخرى يقول : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة] فهذا ممكن وهذا ممكن .

وهى أنهار ذاتية ، وهى أنهار لا شُطآن لها ، وهى أنهارٌ من أشياء متنوعة مُحبَّبة للإنسان ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[1] وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد]

فآفة ماء النهر فى الدنيا أنه قد يقف ويركد ويصبح ماءً راكداً آسناً متغيرَ الرائحة ، وتظهر فيه الطحالب ،لذلك قال تعالى عن أنهار الماء فى الجنة أنها ﴿ أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. (١٥) ﴾ [محمد]

فالله ينزع منها الأكدار التى تراها فى الأنهار الحادثة فى الحياة الدنيا ، وهى جاريةٌ أبداً فى أنهار لا شطوط لها تحجز الماء .

وقد روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ مرفوعاً أنه قال: « أظنكم تظنون أن أنهارَ الجنة أخدودٌ فى الأرض ، لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض، إحدى حافتيها اللؤلؤ والأخرى الياقوت ، وطينها المسك الأذفر . قلت : ما

(١) الماء الآسن : المتغير الريح . قاله أبو عبيدة والزجاج . وقال ابن قتيبة : هو الماء المتغير الريح والطعم. [زاد المسير لابن الجوزى ٥/٣٧٥].

الأذفر ؟ قال : الذى لا خلطَ له »[1].

أمـا أنهار اللـبن الذى لم يتغير طعمه ، فقد كان العربىُّ يأخذ اللبن من الإبل ويخزنه فى القِرَب ، وبعد ذلك ترحل الإبل بعيداً إلى المراعى إلى حيث تسـافر، وعندمـا كان الأعرابـى يحتـاج إلى اللبن فلم يكُنْ أمامـه غير اللبن المُخزَّن فى القِرَب، ويجده متغيرَ الطعم لكن لا يجد غيره .

لذلك يُعطيهم الحق سبحانه أنهاراً تجرى بـاللبْن لم يتغير طعمه ، ولن يتغير طعمه لأنهم سيحيوْنَ فى هذه الجنة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١١) ﴾ [الطلاق]

﴿ وَأَنْهَـارٌ مِـنْ خَمْرٍ لَـذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ .. (١٥) ﴾ [محمد] ولكن خمر ليسـت كخمر الدنيـا إضـاعةً للعقـل وذهـاباً به ، إنما هى مجرد ﴿ لَـذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ .. (١٥) ﴾ [محمد]، وخمـر الدنيـا لا يشربها النـاسُ بلـذَّة ، بدليل أنك عندمَا ترى مَـنْ يشرب كأسَ خمر فهو يسكبه فى فمه مرة واحدة .

ليس كمـا تشرب أنت كوباً من مـانجـو وتتلذذ به ، إنه يأخـذه دفعة واحدة ليُقلِّل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومحمَّض وتغتـال العقولَ وتفسدهـا، لكن خمر الآخرة لا اغتيالَ فيها للعقول .

ورابع الأنهار أنهار العسـل المُصـفَّى ، وهو عسلٌ لا رملَ فيه ولا حصى ولا شـوائب ، فمـا يُعكر عليك العسـل فـى الدنيا سأُصـفِّيه أنا لك فـى الآخرة دون معالجة منك ، ودون بذْل مجهود .

عسلٌ ليس فيه كلّ الشوائب الموجودة فى عسل الدنيا ، فـالله يُقدِّم لنا خير ما كنا نحبه من عسل الدنيا ولكن بدون ما يُكدره .

﴿ خَالِدِيـنَ فِيهَـا أَبَـدًا .. (١١) ﴾ [الطلاق] فجنةُ الآخـرة لا تزول عنهم ولا هم يُزحزحون عنها ، والخلود أبداً هو المكث طويلاً طولاً لا ينتهى ، فإذا كان الخلودُ هو

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في كتابه (حلية الأولياء) [٦/ ٢٠٥] ، وابن أبي الدنيا في (صفة الجنة ٦٦) والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٥٤١٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

المكث طويلاً فإن ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١١) ﴾ [الطلاق] أى أن المكث فى الجنة ينتقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ .. (١٠٨) ﴾ [هود]

فعن أى سماء وأى أرض تلك التى تحدَّث عنها الحق سبحانه ؟ هل هى السماء التى نراها ؟ أو الأرض التى نعيش عليها ؟ كيف والله يقول : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ .. (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

فهذه الأرض التى نعيش عليها والسماء التى تُظلنا ستدمَّران يوم القيامة ، فأين هى الأبدية والخلود ؟ ولا بد أنْ نغفل عن الخلود هنا بالأرض والسماوات المبدَّلات ، وهى أرض المعاد ، أرضٌ حياتُك فيها بدون أسباب ، لا تزرع ولا تحصد ولا تصنع لتعيش .

بل هى أرضٌ ساعةَ يخطر الشيء على بالك تجده أمامك دون أنْ تتحمل أيَّ مشقة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا .. (١١) ﴾ [الطلاق]

كلمة ﴿ رِزْقًا (١١) ﴾ [الطلاق] هنا تذكِّرنا بالوعد الذى قطعه اللهُ على نفسه العلية لمن اتقى الله ، فقال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

فالله يرزق مَنْ يتقى الله فى الدنيا رزقاً واسعاً من حيث لا يظن أو يحتسب أو يتوقّع ، فيرزقه رزقَ نفسه وامرأته التى فى عصمته أو نفقة المرأة التى طلّقها، ويرزقه رزقَ أبنائه .

حتى إذا كانت الآخرةُ رزقه اللهُ رزقاً آخر فيدخله جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار

خالدين فيها أبداً ، ثم يُتبعها الله بقوله : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا (١١) ﴾ [الطلاق]

فالله يُوسِّع له فى الجنات رزقاً بما فيها من المطاعم والمشارب وسائر ما أعدَّ لأوليائه فيها فطيَّبه لهم ، فى جنة لا ينقطع نعيمها .

فهذا وعد كريم من ربٍّ رحيم يعد كل مَنْ آمنَ به وعمل صالحاً أنْ يُدخله جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، قد أحسن اللهُ له فيها رزقاً ، وهو نعيمُ الجنة الذى لا ينفد ولا ينقطع أبداً .

وأيّ جزاء أحسن من الجنة ؟! وأيّ رزق أحسن من رزقها ؟! فلا يُقاس رزق الأرض برزق الآخرة فى الجنة ، والله هو الرازق فى الدنيا والآخرة ولكن الله يُهوِّن من رزق الأرض إلى جانب رزق الجنة .

والحق سبحانه لم يقُلْ هنا : قد أحسن اللهُ لهم بل قال تعالى : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ .. (١١) ﴾ [الطلاق] بالإفراد دلالةً على أن لكلِّ فرد رزقاً على وجه الخصوص به لا رزقاً على العموم ، والناسُ يتفاوتون فى رزق الدنيا وأيضاً يتفاوتون فى رزق الجنة من مطاعم ومشارب ومساكن .

أما الذى يشتركون فيه جميعاً فهو الخلود فى الجنة ، لذلك قال تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١١) ﴾ [الطلاق] بالجمع ، فالخلود يشمل الجميع .

وقد حدَّثنا الله عنِ رزق الجنة فى آياتٍ كثيرةٍ ، فقال سبحانه : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

وكما فى البقرة حديث عن أنهار الجنة كذلك فى سورة الطلاق ، وأيضاً تحدثت الآيتان فى سورتين عن رزق الجنة ، وهو حديث عن ثمر الجنة وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا فى طعمه وفى رائحته حتى وإنْ تشابها فى الاسم(١) .

---

(١) عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة] في اللون والمرأى وليس يشبه الطعم . وعن ابن عباس قال : ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء . وقال عبد الرحمن بن زيد : يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا ، التفاح بالتفاح ، والرمان بالرمان [تفسير الطبري ١/٤١٦] .

فأهـل الجنة يـروْنَ ثمرهـا ويتحدَّثون يقول ربما تكون هذه الثمرة هى ثمرة المانجو أو التين الذى أكلناه فى الدنيا ولكنها تختلف تماماً فى الحقيقة .

فطعـام أهـل الجنة لا ينتج عنه فضـلات ، فالإنسـان يأكل كما يشـاء دون أنْ يحتـاج إلى إخـراج فضـلات ، وذلـك لاختلاف ثمـار الدنيا عـن الآخرة فى التكوين.

ورزق الدنيا قد يكون فتنة ، ثم إن الرزقَ فى الجنة يأتى من الله بدون أسباب، وهو أفضل وأعلى منزلة من الرزق الذى يتم بالأسباب .

ومـا دام قد أحسـن اللهُ له رزقاً والله يخـبر كلَّ مؤمن بهذا من الآن فما عليه إلا أنْ يُحسن فى عمله الصالح ، وهذا كما قال قوم قارون له : ﴿ **لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** (٧٦) **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** .. (٧٧) ﴾ [القصص]

ثم يقولون له : ﴿ **وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** (٧٧) ﴾ [القصص]

فكمـا أحسـن الله إليك أحسِـنْ إلى النـاس ، وكما تحـب أنْ يغفر الله لك فاغفر لغيرك إساءته ، وما دام ربّك يعطيك فعليك أنْ تعطى ، ومن الإحسان أنْ لا تبغى الفساد فى الأرض ، والفساد يأتى من الخروج عن منهج الله فإنْ غيّرت فيه فقد أفسدتَ ، فالفساد كما يكون فى المادة يكون فى المنهج وفى المعنويات .

يقـول سـبحـانه : ﴿ **وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا** .. (٥٦) ﴾ [الأعراف] فالحق سـبحانه خلق كل شيء على هيئة الصلاح لإسعاد خَلْقه فلا تعمد إليه أنت فتفسده ، ومن هذا الصلاح المنهج ، فالمنهج هو قوام الحياة المعنوية أوْلَى من قوام الحياة المادية .

إذن : فلتكُنْ مؤدّباً مع الكون من حولك ، فإذا لم تستطع أنْ تزيده حُسناً فلا

أقلّ من أنْ تدعه كما هو دون أنْ تُفسده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾ ﴾

فمنهج الله الذى أنزله على رسله قد عرفنا أن الله تبارك وتعالى هو الذى خلق لنا هذا الكون وخلقنا ، فدقة الخلق وعظمته تدلّنا على أن هناك خالقاً عظيماً .

والله هنا يُذكّرنا بعظمة الخالق سبحانه ، وقد قال تعالى فى آيات أخرى : ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾ [الرعد]

وقال : ﴿ اللهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) ﴾ [إبراهيم]

﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ [١] وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) دائبين : دؤوبهما في طاعة الله . قاله ابن عباس . [الطبري ٢٠٩٣٧] قال ابن كثير في تفسيره (٥١١/٤) : دائبين أي يسيران لا يقران ليلاً ولا نهاراً . (٥٧٧/٦) : لا يفتران ولا يقفان إلي يوم القيامة .

والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خَلْقه السماوات والأرض ، وأوضح سبحانه أن السماوات سبع وقد جاءت مجموعة ، أما الأرض فجاء بها مفردة، فقال تعالى:
﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٤) ﴾ [الأعراف]

لكنه جلَّ وعلا يقول هنا في سورة الطلاق : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق]

فكما خلق سبع سماوات خلق سبع أراضين ، ولكن لماذا جاء بالسماء بالجمع فقال (سموات) وترك لفظ (الأرض) مفرداً ؟ لماذا لم يقل : سبع أراضين ؟ وذلك لأن كلمة (أرضين) ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها ، وأتى بالسماوات مجموعةً لخفّتها ويُسْر نطقها .

فحين تكلم الحق سبحانه عن الأرض والسماء قال ، إنها سبع سماوات ولم يقل سبع أراضين ، بل قال : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق] فدلَّ على أن الأرض سبع كالسماء ، وإنْ كانت السماء كل ما أظلَّك ، فالأرض كلّ ما أقلَّك، لكن أين هذه الأراضين السبع ؟

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن السماوات سبع ، وأخبرنا النبي ﷺ أنه مرَّ بها في مرحلة المعراج فقال في الأولى كذا وكذا ، وفي الثانية كذا وكذا[1] وما دامت السماء كل ما أظلّك والأرض كل ما أقلّك ، فالخَلْق في السماء الأولى مثلاً سماؤهم السماء الثانية ، وأرضهم سماؤنا الأولى وهكذا وهكذا ..

فالسماء سقف ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٣٤٩ أبو ذر) (٣٨٨٧ مالك بن صعصعة) قال أبو ذر : فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا .. وفيه : فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبَل يساره بكى فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح . قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : هذا آدم . وفي السماء الثانية ابنا الخالة يحى وعيسى عليهما السلام . وفي السماء الثالثة يوسف . وفي السماء الرابعة إدريس . وفي السماء الخامسة هارون . وفي السماء السادسة موسى عليه السلام .

مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء]وهو سقف من صُنْع الخالق العظيم ، سقف يغطى الأرض كلها ومحفوظ بلا أعمدة يراها البشر .

لذلك قال تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]، وقال : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٠) ﴾ [لقمان]

فالله سبحانه خلق السماوات مرتفعة قائمة بقدرته لا تستند على شيء وأنتم تنظرون إليها وتشاهدونها بغير دعائم ، ويصح أيضاً أن تعود إلى العمد أى بغير العمد التى نعرفها ، ولكن رفعها الحق بقوانين الجاذبية .

أو رفع السماوات ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (١٠) ﴾ [لقمان] أى أن العمد مختفية عن رؤية البشر .

فحين ننظر إلى الأفق نجد السماء من غير عمد ، وخَلْق السماوات والأرض ليست عملية سهلة وهو سبحانه القادر ، إنه سبحانه خلق الإنسان خَلْقاً عجيباً، وأعجب منه خَلْق السماوات والأرض ، فهو سبحانه القائل : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

وهكذا نعلم أنه سبحانه إما أنه حمل السماوات على أعمدة أدقّ وألطف من أنْ تراها أعيننا ، ولذلك نراها بغير أعمدة ، أو أنها مرفوعة بلا أعمدة على الإطلاق .

وقد تكون موجودة ، ولكنكم لا ترونها بحكم قانون إبصاركم ، ولا تعجب من أنْ يوجد مخلوق لا تراه ،فالعين وسيلة من وسائل الإدراك ولها قانون خاص فهى ترى أشياء ولا ترى أشياء أخرى .

و ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ .. (١٢) ﴾ [الطلاق] فليس الله هو ما يعبده المشركون من الآلهة والأوثان التى لا تقدر على خَلْق شيء، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ

الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ .. (٤٠) ﴾ [فاطر]

وخَلْق السماوات والأرض دليل على كمال قدرته سبحانه وعظمته ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) ﴾ [نوح] فالحق سبحانه هو الخالق لسبع سموات بإتقان بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظرُ أيَّ خلل فى هذا الخلق .

ويقول تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا[1] مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ[2] فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ .. (٣) ﴾ [الملك]

فليُعد الإنسانُ النظرَ إلى السماء فلن يجد أيَّ خلل من شقوق أو فروق ، و (فطور) معناها شقوق . وهذه صنعة الخالق سبحانه الذى يبنى ويُسوِّى ويُزيِّن .

﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق] فالله خلق من الأرض مثل السبع سماوات ، فى كل واحدة منهن مثل ما فى السماوات من الخَلْق مالا يعلمه إلا الله .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق] يتنزل الأمر أمر الله بين السماء السابعة والأرض السابعة ، فبين كلِّ سماءين أرض وأمر ، والأمر قد يكون الوحى ، وقد يكون القضاء والقدر .

وذلك بحياة بعض وموت بعض ، وغِنَى قوم وفَقْر قوم ، ولله فى أمره تدابير، فيُنزل سبحانه المطر ويُخرج النبات ، ويأتى بالليل والنهار ، والصيف والشتاء.

---

(١) طباقاً : مطابقات بعضها فوق بعض . [زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٥٠] قال مقاتل بن سليمان في تفسيره (٣/ ٤٠٢) : ما بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام وعظمها مسيرة خمسمائة عام . وقال ابن جرير الطبري (٢٣/ ١١٩) : طبقاً فوق طبق .

(٢) تفاوت : تشقق . قاله ابن عباس . وقال قتادة : من تفاوت أى من اختلاف . قال ابن كثير في تفسيره (٨/ ١٧٧) : أي مستو ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ولا نقص ولا عيب ولا خلل .

وقال البعض من العلماء[1] : في كل أرض من أرضه ، وسماء من سمائه خَلْقٌ من خلقه ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضائه .

فالأمر يعم الوحي وجميع ما يأمر به سبحانه من تصريف الرياح والسحاب وغير ذلك من عجائب صُنْعه لا إله غيره .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢) ﴾ [الطلاق] فقضاء الله وأمره يتنزّل بين ذلك كي تعلموا أيها الناس كُنْه قدرته وسلطانه ، وأنه لا يتعذَّر عليه شيء أراده ، ولا يمتنع عليه أمر شاءه ولكنه على ما يشاء قدير .

فكلُّ شيء يدخل في إرادة الله وقدرته سبحانه ، فالله له مُلْك السماوات والأرض ، وهو على كل شيء قدير ، فلله طلاقة القدرة في مُلْكه ، ولذلك إذا قال أنه سيأتي بأمر فسيتحقق هذا الأمر حتماً وسيتم ، ولا توجد قدرة في هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه ، ولا قوةَ إلا قوته جلَّ جلاله ، ولا فعل إلا ما أراد .

فالله لا يُعجزه شيء ولا يخرج عن طاعته شيء ، وهو سبحانه القادر الأعلى، القادر على كلِّ شيء ، وهو قدير على أنْ تظل سننه دائمة ولا توجد قوة تزحزح هذه القضية لأن السنن وضعها الله ، فمَن الذي يُغيِّرها ؟

إنها لن تتغير إلاَّ بقوة أعلى ، ومعاذ الله أنْ تكون هناك قوة أعلى من قوة الله .

والله قدير حتى قبل أنْ يوجد مقدورٌ عليه ، فلم يكُنْ قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسان ،لأن الله سبحانه وتعالى ليس له أغيار ، لذلك يظلّ قديراً وموجوداً في كل لحظة ، وهو كان وما يزال .

وسبحانه وتعالى القدير أبداً ، فسبحانه قد قدر على أن يُوجد خَلْقه كلهم،

---

(١) قاله قتادة فيما ذكره عنه السيوطي في الدر المنثور (١٤/٥٦١) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣٢٤٠) وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٦/٤٤).

ويعطى لهم ما يحفظ لهم حياتهم ويحفظ لهم نوعهم ، إنه قادر على أنْ يعطى رزق القوت ورزق المباديء والقيم وأنْ يُوفى خَلْقه رزقهم في كلِّ عطاء .والله يُنزل قضاءه وأمره بين ذلك كى تعلموا أيها الناس كُنْه قدرته وسلطانه ، وأنه لا يتعذر عليه أمر شاءه ، ولكنه على ما يشاء قدير .

ثم يقول تعالي : ﴿ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾ [الطلاق] فالله سبحانه مدرك لكل الأشياء والخواطر ، فما بالسمع يسمعه ، وما بالعين يراه ، وما فى الصدر يعلمه . وما هو فى أيّ حِسٍّ من أحاسيس الإنسان هو عليم به، لأنه أحاط بكلِّ شيء علماً .

والإحاطة تقتضى العلم والقدرة على الناس ، فلن يُفلتوا من علم الله ولا من قدرته ، ولا بدَّ من العلم مع القدرة ، لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

فإحاطته سبحانه بالناس تعنى أنه سبحانه يعلمهم ويقدر على تنفيذ أمره فيهم .




سورة التحريم

سورة التحريم [١]



يقول الحق سبحانه : [٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ① ﴾

الجامع بين الرسول ﷺ وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسول الله وأنه نبيُّ الله ، فلا بد أنْ نناديه بهذا الوصف ، ولم لا وربّه عز وجل وهو خالقه ومصطفيه ، قد ميّزه عن سائر إخوانه من الرسل ومن أولى العزم ، فناداهم بأسمائهم .

---

(١) سورة التحريم سورة مدنية ، وهي رقم ٦٦ في ترتيب المصحف . عدد آياتها ١٢ آية . ترتيب نزولها ١٠٧ نزلت بعد سورة الحجرات . ومن أسمائها أيضاً سورة (لم تحرم) نزل بعدها سورة الجمعة .

(٢) سبب نزول الآية : عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فدخل على حفصة بنت عمرْ واحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس ، فعرفت فسألت عن ذلك فقيل لي : أهدت لها امرأة من قومها عُكة عسل فسقت منه النبي ﷺ شربة ، قلت : أما والله لنحتالن له . فقلت لسودة بن زمعة : إنه سيدنو منك إذا دخل عليك . فقولي له : يا رسول الله أكلت مغافير ؟ فإنه سيقول لك : سقتني حفصة شربة عسل . فقولي : جرستْ نحله العرفط . وسأقول ذلك وقولي أنت يا صفية ذلك . قالت سودة : فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فكدت أن أبادئه بما أمرتني به ، فلما دنا منها قالت له سودة : يا رسول الله أكلت مغافير ؟ ...» الحديث بطوله أخرجه الواحدي في أسباب النزول (٤٣٠) .

﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] ، وقال : ﴿ يَـٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا .. (٤٨) ﴾ [هود] ، وقال : ﴿ يَـٰٓإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا .. (١٠٥) ﴾ [الصافات] ، وقال : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. (٣٠) ﴾ [القصص] ، وقال : ﴿ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة] ، وقال : ﴿ يَـٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ .. (٢٦) ﴾ [ص]

لكن لم يُناد رسول الله باسمه أبداً ، إنما ناداه بـ (يأيها الرسول) أو (يأيها النبى) ، فإذا كان الحقُّ تبارك وتعالى لم يجعل دعاءه للنبى كدعائه لباقى أنبيائه ورسله ، أفندعوه نحن باسمه .

ينبغى أنْ نقول : يأيها الرسول ، يأيها النبى ، يارسول الله ، يانبيَّ الله، فهذا هو الوصف اللائق المشرف به ﷺ .

وحين ينادى الحق سبحانه وتعالى أشرف مَنْ ناداهم وهم رسله ، نجد أنه سبحانه نادى كل الرسل بمشخصاتهم العَلَمية (يا آدم) والمشخَّص العَلَمى هو الاسم ، وهو لا يعطى وصفاً إلا تشخيص الذات بدون صفاتها .

فكلُّ الرسل ناداهم الحق سبحانه بالمشخَّص العَلَمَى الذى لا يعطى إلا التشخيص ، أما رسول الله خاتم الرسل فما ناداه الله باسمه أبداً ، إنما ناداه الله بالوصف الزائد عن مشخَّصات الذات .

وذلك لأن الله سبحانه يريد أنْ يبلغنا أن محمداً ﷺ هو الرسول الذى جاء ناسخاً ومؤمناً بالكل ، هو الذى يستحق النداء بالوصف الزائد عن مشخَّصات الذات (يأيها الرسول) ، وهو الرسول الذى تقوم عليه الساعة .

فقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [التحريم] نداء لرسول الله ﷺ ، والمنادِى هو الحق سبحانه ، رسول الله لقبه ، واسمه محمد ، واسمه أحمد كما ذكر فى القرآن ، والإنسان حين يُولد يُوضَع له اسم يدل على مُسمَّاه .

ورسـول الله لـه اسـم وكنية ولقـب ، أمـا اسـمـه فمحمد ، وقد ورد فـى القرآن الكـريم أربـع مرات ، ﴿ وَمَا مُحَمَّـدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِـهِ الرُّسُلُ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمـران] ، ﴿ مَـا كَانَ مُحَمَّـدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّـن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُـولَ اللَّهِ.. (٤٠) ﴾ [الأحـزاب] ، ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُـولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] ، ﴿ وَالَّذِيـنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُـزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ .. (٢) ﴾ [محمد]

وورد باسم أحمد فى موضع واحد هو ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾ [الصف]

أمـا كنيتـه فـأبو القـاسـم ،ولقبه رسـول الله ، فرسـول الله لمـا وُلد أسـمـاه جده بأحبّ الأسمـاء عنده ، وقـال : سمّيته محمداً ليحمد فى الأرض وفى السمـاء [1].

ولمـا وُلد القـاسم كُنِّى بـه رسول الله فقيل : أبو القـاسم ، فلمـا اختـاره الله للرسالة وللسـفـارة بينه تعـالى وبين الخَلْق لقبه برسـول الله وبـالنبى وهذان اللقبـان على قدر عظيم من الرِّفْعة لو جاءت من البشر ، فمـا بـالك وهـى من عند الله .

ونُـودى ﷺ بيـأيـهـا النبى ويـأيـهـا الرسـول تعظيمـاً لـه ، ونـحـن حين نريد أنْ نعظم مَن نـنـادى نسبق الاسم بمقدمـات ، نقول : يـا سيدى فلان يـا فضيلة الشيخ، يـا صـاحب العزة .. الخ

وقـد تقدَّمـتْ (أيهـا) على المنـادى هنـا ، لأن الاسـم المنـادى المُحلَّى بـأل لا يُنـادى مبـاشرة إلا فى لفظ الجلالـة (الله) فنقول : يـا الله ، فكأنَّ الحق سـبحـانـه توحّد حتى فى النداء ، وهذا فى نداء المفرد .

والحق سـبحـانـه نـادى رسـولـه بيـأيـهـا النبى ، ويـأيـهـا الرسـول ، الرسـول هـو

---

(١) ذكره محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣ هـ) في كتابه (التحرير والتنوير ٣/٢٣٧) أن جد رسول الله عبد المطلب بن عبد مناف قيل له : لم سميته محمداً وليس من أسماء آبائك ؟ فقال : رجوت أن يحمده الناس .

سفير بين الله وبين خَلْقه ، ليُبلغهم منهجه الذى يريد أن تسير عليه حياتهم فالرسول مُبلِّغ ، أما النبى فرسول أيضاً من قِبَل الحق سبحانه ، لكن ليس معه شرع جديد ، إنما يسير على شرع مَنْ سبقه من الرسل ، أما هو فقدوة وأُسْوة سلوكية لقومه .

ومحمد ﷺ جمع الأمرين معاً ، فهو نبى ورسول له خصوصيات أُمر بها ولم يُؤمر بتبليغها - وهذه مسائل خاصة بالنبوة - وله أمور أخرى أُمر بها وأمر بتبليغها .

والمعلوم من أقوال العلماء أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً بالمعنى الاصطلاحى ، وإلا فهم جميعاً مُرْسَلون من قِبَل الله .

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [التحريم] فكلمة النبى مأخوذة من النبأ وهو الخبر الهام ، فالخبر يكون من البشر للبشر ، فإنْ كان من خالق البشر فهو نبأ ، أى أمر عظيم ينبغى الاهتمام به وأصله من النَّبْوة ، وهى الشيء العالى المستدير فى وسط شيء مُسْتو .

فحين تقول : رأيت فلاناً اليوم . هذا لا يُسمَّى نبأ إنما خبر ، لذلك قال سبحانه: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ .. (٢) ﴾ [النبأ] أى الخبر الهائل الذى هزَّ الدنيا كلها وملأ الأسماع وزلزل العروش .

ونبوة رسول الله نبوة رحيمة كانت سبباً فى تنزُّل الرحمة تِلْو الرحمة، ولنبوته أدبٌ وخُلُق عظيم عالٍ ، وأهل النبوة هم الذين اتبعوا منهج النبى .

والنبوة حينما تأتى إنما تأتى لتلفت الناسَ إلى السماء وإلى منهجها ، ولتنتظم حركة حياتها فى الكون ، وأن المنتفع أولاً وأخيراً بالمنهج هم أنفسهم، لأنهم هم الذين يشقُون بمخالفتهم منهج الله .

ومسألة النبوة هى اصطفاءٌ إلهيّ يكبر ويسمو على كلّ مقامات الدنيا ،

والنبوة رحمة ، قال تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا.. (٦٥) ﴾ [الكهف]

ولذلك عندما قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] ردَّ الله عليهم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] أى النبوة .

ويقول تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾ [البقرة]

فالله يعطى الرحمة لمن يشاء لكى يؤدى مهمته أو يُنزل رحمته على مَنْ يشاء ، والرحمة هى عطاءات ألوهية ، وهى رحمة الله العليا أنْ يرسل رسولاً، ومطلق الرحمة تأتى على يد جبريل عليه السلام وعلى يد الرسل ، فعطاؤه تعالى فى النبوات رحمة أشاعها الله فى ذرية إبراهيم عليه السلام .

فكيف يقسمون رحمة الله التى هى النبوة وهى قمة حياتهم ، ونحن نقسم لهم أرزاقهم ومعايشهم فى الدنيا ؟ فمعنى ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا .. (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى فى ركْب النبوة ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .. (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى : للنبوة، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

لكن قمة هذه الرحمة جاءت فى النبى الخاتم والرسول الذى لا يُستدرَك عليه برسول بعده ، لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء] ، فالرسل قبل محمد ﷺ كانوا رحمة لأممهم ، أما محمد فرحمة لجميع العالمين .

والرسالة رحمة من الله يختصّ بها مَنْ يشاء من عباده ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

وحتى نفرق بين النبى والرسول نقول : النبى مُرسل والرسول مرسل كلاهما مُرْسَل من الله ، ولكن النبى لا يأتى بتشريع جديد ، وإنما هو مُرسل على منهج الرسول الذى سبقه .

واقرأ قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ .. (٥٢) ﴾ [الحج] فالنبيّ مُرْسَل أيضاً ولكنه أُسْوة سلوكية لتطبيق منهج الرسول الذى سبقه .

لكنْ هناك فرْقٌ بين أنْ يرسل الحقّ تشريعاً مع رسول ، ويكون هذا التشريع مُستوعباً لأشياء وأحكام لم تكُنْ موجودة فى الرسالة السابقة عليه وبين أنْ يأتى إنسانٌ مُصْطفى من الله ليطبق فقط ما جاء فى الرسالات السابقة .

فالأنبياء قد أرسلهم الله ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يأتوا بشرع جديد ، لكن الرسول هو مَنْ أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره الحق بتطبيقه ، هذا هو الزائد فى مهمة الرسول .

إن الحقّ سبحانه أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأرسل الحقّ الأنبياء ليكونوا الأُسْوة السلوكية فيُطبِّقوا ما أرسل به الرسل السابقون عليهم.

والحق سبحانه هنا يخاطب نبيه ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم]

وهو خطابٌ ونداء معاتبة لرسول الله ، وكثيراً ما تجد فى القرآن عتاباً لرسول الله ، وهو عتابٌ لصالحه لا عليه ، كما تعاتب ولدك الذى أجهد نفسه فى المذاكرة خوفاً عليه .

ومن ذلك قوله تعالى معاتباً نبيه ﷺ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) ﴾ [عبس]

والعتاب هنا لأن رسول الله ﷺ ترك الرجل المؤمن[1] الذى جاءه يستفهم عن أمور دينه وذهب يدعو الكفار والمكذبين به ، فكأنه اختار الصعب الشاق وترك السهل اليسير .

---

(١) هو عبد الله بن أم مكتوم . أخو بني فهر وقد كان أعمى . وعن عائشة قالت : أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ [عبس : ١] في ابن أم مكتوم قالت : أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدني . قالت : وعند رسول الله من عظماء المشركين قالت : فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر . ويقول : أترى بما أقوله بأساً ؟ فيقول : لي . ففي هذا أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ تفسير الطبري (٢٤/٢١٧) .

إذن : فالعتـاب هو عتابٌ لصـالح الرسـول لا ضـده ، كما يظـن البعض فى فهمهم لهذه الآيات .

كذلـك الأمـر فـى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَـا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَـلَّ اللهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم] فالله يعاتب رسـوله لأنه ضـيَّق على نفسه ، فحرَّم عليها ما أحلَّه الله لها .

فـالله كثيراً ما عاتب رسـوله ، وعتابه لرسـوله له لا عليـه ، ففى عتابه فى شـأن ابن أم مكتوم نجد أن الرسـول وجد طريق الإيمان برسـالته يسـير سـيراً سـهلاً بين الضعفاء ، ولكنه شغل نفسـه وأجهدها رجاء أنْ يتذوق المستكبرون المتجبِّرون حلاوة الإيمان .

فـالعتاب هنا لصـالح مَنْ ؟ إنه عتابٌ لصـالح رسول الله ، ولشدة حرصه ﷺ على هداية القوم أجمعين ، كان يحب أنْ يعامل الطغاة بشيء من اللين ليتألف قلوبهم .

وهنـا يقـول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَـا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَـكَ .. (١) ﴾ [التحريم] وكان الرسول ﷺ قد حرَّم أموراً على نفسه[1] ولم يحرمها على النـاس .

وهنـا يوضـح له الحق سـبحانه : لا تُحرم على نفسك ما أحللتُ لك . إذن : هذا أمرٌ لمصلحة الرسول .

فأمر التحريم موكولٌ إلى الخالق سبحانه وكذا أمر التحليل ، وليس للإنسان أنْ يتدخّـل فـى ذلـك أبداً ، فتدخُّل الإنسـان يكـون أحياناً بتحريم مـا أحلَّ الله وأحيانـاً يكون تدخُّله بتحليل ما حرّم الله .

والله عـزَّ وجـلَّ يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ .. (٨٧) ﴾ [المائدة]

---

(١) حرَّم على نفسه أكل العسل ، وفي رواية أنه حرّم على نفسه إتيان مارية لأنه أتاها في غرفة حفصة رضي الله عنها .

وآية ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ .. (١) ﴾ [التحريم] تشير إلى أمر أغضب النبى ﷺ ، فامتنع عن بعض ما ترغب فيه النفس البشرية من أمور حلَّلها الله.

والنبى ﷺ لم يُحل ما حرَّم الله بل حرَّم على نفسه ما أحلَّ الله له ، وهذا ضد مصلحته وكأنَّ الحق سبحانه يُسائله : لماذا ترهق نفسك ؟ فهذا عتب لمصلحة النبى ﷺ .

والتحريم تضييق على النفس ، فالحق سبحانه يعتب على رسوله لأنه ضيَّق على نفسه ، وحرَّم عليها ما أحلَّه الله له ، كما تعتب على ولدك الذى سهر طويلاً فى المذاكرة حتى أرهق نفسه ، فالعتاب لصالح الرسول لا ضدَّه .

والله تعالى أحلَّ أشياء وحرَّم أشياء ، فلا تنقل شيئاً مما حُرِّم إلى شيء أُحِلَّ، ولا شيئاً مما أُحلَّ إلى شيء حُرِّم ، كما قال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ .. (٣٢) ﴾ [الأعراف]

وربُّك يا محمد لا يُضيِّق عليك ، وينهاك أنْ تضيِّق على نفسك وتحرِّم عليها ما أحلَّ لها ، كما يلومك على أن تحلل ما حرّم عليك ، لأن ذلك فى صالحك .

وقد روتْ السيدة عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً ، قالت عائشة : فتواطأتُ أنا وحفصة أنْ أيّتنا ما دخل عليها رسول الله فلتقلْ له : إنِّى أجد منك ريح مغافير أكلتَ مغافير[1].

فدخل رسول الله على إحداهما فقالت له ذلك . فقال ﷺ : بل شربتُ عسلاً عند زينب ولن أعود له ، فنزل قوله تعالى : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ

(١) مغافير : صمغ كريه الرائحة يصدر عن شجر الطلح وهو العُرفط . وهو جمع مغفور . قال الكرماني : هو نوع من الصمغ يحلب عن بعض الشجر يحل بالماء ويشرب وله رائحة كريهة . [عمدة القاري ٣٠/٨٧] وقد كان رسول الله يكره أن تشم منه رائحة كريهة .

أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ(١) أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ(٢) قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا(٣) عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ .. (٤) ﴾ [التحريم]

وأصل هذه القضية أنَّ رسول الله كان إذا صلَّى الغداة دخل على نسائه امرأة امرأة ، وكانت قد أهديت لحفصة بنت عمر رضى الله عنه عكة(٤) من عسل، فكانت حفصةُ إذا دخل عليها رسول الله مسلِّماً حبسته وسقته منها ، وأنَّ عائشة رضى الله تعالى عنها أنكرت احتباسه عندها .

فقالت عائشة لجويرية عندها حبشية يُقال لها خضراء :(٥) إذا دخل رسول الله على حفصة فادخلى عليها فانظرى ماذا تصنع فأخبرتها الخبر وشأن العسل فغارت فأرسلت إلى صواحبها ، وقالت : إذا دخل عليكُنَّ رسول الله ، فقُلْنَ: إنَّا نجد منك ريح مغافير ، وهو صمغ العرفط(٦) كريه الرائحة ، وكان رسول الله يكره ويشقُّ عليه أنْ يوجد منه ريحٌ منتنة لأنه يأتيه الملَك .

---

(١) تحلة أيمانكم : كفارة أيمانكم . والمعنى : قد بيَّن الله لكم تحليل أيمانكم بالكفارة فأمره الله أن يكفِّر يمينه فأعتق رقبة . [زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٤٥] .

(٢) صغت قلوبكما : زاغت وأثمت . قال الزجاج : عدلت [فتح القدير للشوكاني ٧/ ٢٥٢] .

(٣) تظاهرا عليه : أي تتظاهرا . قرأ الجمهور (تظاهرا) بحذف إحدى التاءين تخفيفاً . والمراد بالتظاهر التعاضد والتعاون . والمعنى : إنْ تعاضدا وتعاونا في الغيرة عليه منكما وإفشاء سره . [فتح القدير للشوكاني ٧/ ٢٥٢] .

(٤) العُكة : آنية السمن أصغر من القِرْبة . جمعها عُكَك وعكَاك . نقل السيوطي في (المزهر في علوم اللغة ١/ ٣٤٤) : الاسم العام في ظروف الجلود للبن وغيره الزقف ، إن كان فيه لبن فهو وطيف ، وإن كان فيه سمن فهو نحْي ، فإن كان فيه عسل فهو عكة ، فإن كان فيه ماء فهو شكوة وقربة ، فإن كان فيه زيت فهو حمين .

(٥) في (الشمائل الشريفة) للسيوطي (١/ ٢٣٦) : « كانت ناقته تسمى العضباء وبغلته الشهباء وحماره يعفور وجاريته خضراء » . نقله عن البيهقي في سننه عن جعفر بن محمد عن أبيه مرسلاً .

(٦) العرفط : شجر من العضاه (كل شجر له شوك) ينضح المغفور منه . وهو يفترش على الأرض لا يذهب فى السماء (أي ليست له ساق) له ورقة عريضة وشوكة حديدة حجناء (مُعْوجَّة) . مفرد العرفط عرفطه .

وكان أنْ دخل رسـول الله على امرأة امـرأة وهُنَّ يقُلْنَ له ذلك ، ثم دخل على عـائشـة فأخذتْ بأنفها ، فقال لها النبى : ما شـأنك ؟ قالت : أجد ريح المغافير أأكلتها يا رسـول الله . قال : لا بل سـقتْنى حفصة عسلاً . قالت : جرستْ نحلُه[1] العُرْفط . فقال لها : والله لا أطعمه أبداً فحرمه على نفسه[2] .

والحق سبحانه يربأ برسوله وحبيبه محمد ﷺ أنْ يقع فيما وقع فيه يعقوب عليه السلام عندما حرَّم على نفسه أشياء لم يحرمها الله بل كانت حلالاً .

قال تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) ﴾ [آل عمران]

فيعقوب عليه السلام أو إسرائيل حرَّم بعضاً من الطعام على نفسه وهو حُرٌّ فـى أنْ يأخـذ أو يترك ، أو أنه قد حرَّم على نفسـه فوافقـه الله ، لأن النـاذر حين ينذر شيئاً لم يفرضه الله عليه ، فهو قد ألزم نفسه بالنذر أمام الله .

وإسرائيل إنما حرَّم على نفسـه بعضاً من الأطعمة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ .. (٩٣) ﴾ [آل عمران]

وصـار ما حرَّمه إسرائيل على نفسـه مُحرَّماً على بنى إسرائيل ، أما ما حرّمه رسولُ الله على نفسه فقد عاتبه اللهُ فيه ولم يَسْرِ التحريم على أمته ﷺ ، بل أرسى الله قاعدة فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ .. (٣٢) ﴾ [الأعراف]

وما دام قد أخرج اللهُ الزينة لعباده فهو قد أرادها لهم .

وقولـه : ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ .. (١) ﴾ [التحريم] أى تبتغى بذلك التحريم

---

(١) جرست : رعت . [مقدمة فتح الباري ١/ ٩٥] والمعنى أن نحل هذا العسل الذي شربته قد رعت شجر العرفط ، لذلك ظهرت رائحته الكريهة في العسل .
(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٦٨ ، ٦٩٧٢) وكذا مسلم في صحيحه (٣٧٥٢) . من حديث عائشة رضي الله عنها .

مرضاة زوجاتك ، فقوله (تبتغي) مفسِّر لقوله (تحرم) . وهو أيضاً بمعنى مُبتغياً به مرضاة أزواجك في محلٍّ نصب على الحال من فاعل (تحرم) .

و ﴿ مَرْضَاةَ .. (١) ﴾ [التحريم] لترضى أزواجك ، وأزواج جمع زوج ، وكلمة الزوج تعني مفرداً معه مثله ، فلا نأخذ كلمة الزوج على أنها اثنان ، يقول تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) ﴾ [القيامة] إذن : فالذكر زوج والأنثى زوج أيضاً .

وقد كان رسول الله خيْرَ الناس لأهله وأزواجه ، وكان حريصاً على الإحسان إليهنَّ وإرضائهن ما استطاع ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُصوِّب هذا الأمر ليضعه في إطاره الصحيح ، أن الزوج لا يُحرِّم شيئاً أحلَّه الله له لمجرد إرضاء الزوجات، فالأغلب فيهنَّ أنْ لا يَرضَيْن بشيء .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) ﴾ [التحريم] وهو دليلٌ على أن الله تعالى قد غفر لرسوله ما وقع فيه من تحريم ما أحلَّه وأباحه.

فالمغفرة من الله والرحمة منه أيضاً ، فالله ﴿ غَفُورٌ .. (١) ﴾ [التحريم] لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها ، فهو ﴿ رَحِيمٌ (١) ﴾ [التحريم] بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقةً عليكم وحُباً في رجوعكم إليه .

والله غفور رحيم حتى لمَنْ تواني قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركْب الإيماني ويتدارك ما فاته ، لأن الله يغفر ما فات إنْ حاول العبد تداركه ، والله سبحانه غفور رحيم أزلاً ، فهو غفور رحيم قبل أنْ يوجد مغفور له ، وهو سبحانه رحيم قبل أنْ يوجد مرحوم .

فالصفات ثابتة له سبحانه ، والله هو الذي يُغير ولا يتغيَّر فلن يغيره زمنٌ ما ، بل كان في الأزل غفوراً رحيماً ، وما يزال أيضاً غفوراً رحيماً ، وكذلك كان علمُ الله أزلياً وحكمته لا حدودَ لها .

وصـفة المغفـرة وصـفة الرحمة فى مطلقهمـا تكون الله وحـده ، وهى توبةٌ للجانى ورحمة للمجنى عليه ، فالله سبحانه له طلاقةُ القدرة فى أنْ يغفر وأنْ يرحم .

فـإيـاك أنْ تقول : إنَّ فلاناً لا يسـتحق المغفرة والرحمة لأنه سـبحانه مالك السماء والأرض ، وهو الذى أعطى للبشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه وله طلاقةُ القدرة فى الكون .

والله غلبت رحمتُه ومغفرتُه غضبَه وعقابه ، وقد قال رسول الله ﷺ « إن الله كتب كتاباً قبل أنْ يخلق الخَلْق : إنَّ رحمتى سبقتْ غضبى ، فهو مكتوبٌ عنده فوق العرش »[١] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

نحـن نعلـم أن (قـد) للتحقيـق . و (فرض) فعل ماض يدلّ على أن حدث الفعل وقع فى زمن الماضـى ، فكفّارة اليمين قد أوجبها الله قبل وقوع اليمين من رسول الله ﷺ .

و (قـد) إذا دخلـتْ على الفعل الماضـي تكون للتحقيق ، أمـا إذا دخلتْ على المضـارع فهى للتكثير إنْ كانت منطقية الأسباب ، وهى للتقليل إنْ كانت غير منطقية الأسباب .

ولكـن (قـد) أحياناً تكون للتحقيق إذا دخلتْ على المضـارع إذا كان الفعلُ متعلقاً بصـفة من صـفات الله ، مثل قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَـمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٥٥٤) وأبو يعلي في مسنده (٦٤٣٢) وابن منده في التوحيد (٧١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

يَقُولُونَ .. (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فعلم الله علمٌ أزليٌّ ، ولا قوةَ ولا أمرَ يخرجّان عن معلوم الله ، فـ (قد) هنا داخلةٌ على الفعل المضارع وهى هنا للتحقيق ، فالحق سبحانه أراد أنْ يُبلغنا أنه علم أزلاً بما حدث ، وجاء بـ (قد) لنستحضر صورة الفعل .

والفرض هو التكليف الذى كلَّفنا الله به ، فالله فرض علينا خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وفرض علينا صيام شهر رمضان ، وفرض زكاةً قدرُها باثنين ونصف بالمائة من مالك الذى بلغ النصاب وحال عليه حول أى عام كامل ، وفرض على المستطيع حج بيت الله الحرام مرة فى العمر .

فإذا زاد الإنسانُ ركعات كتطوع أو صيام أيام من غير شهر رمضان أو تصدّق بما يزيد على ما فرضه الله من زكاة أو حج أكثر من مرة حج الفريضة أو اعتمر، فهذا ليس فرضاً عليه إنما هو تطوَّع تطوَّع به من جنس ما فُرض عليه .

فالحق سبحانه عندما يقول ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ[1] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]
وقوله ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات]

هل الحق سبحانه هنا فرض على المؤمنين أنْ يُصلُّوا آناء الليل فلا يهجعون إلا قليلاً من الليل ؟ لا ، ولكن مَنْ يريد أنْ يدخل فى مقام الإحسان فهو يفعل ذلك .

أما المسلم العادى فيكتفى بصلاة العشاء ، وعندما يأتى الصبح فهو يؤدى الفريضة ، ولكن مَنْ يدخل فى مقام الإحسان فقليلاً من الليل ما يهجع .

وكلمة (فرض) تقتضى أنْ يوجد فارض ، ويوجد مفروض عليه ، والفارض هنا هو الله الذى ملك ، وهناك فرق دقيق بين (فرض) و (واجب) ، فالفرض يكون قادماً من أعلى ، لكن الواجب قد يكون من الإنسان نفسه ، فالإنسان قد يُوجب على نفسه شيئاً .

---

(١) الأسحار : قال محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٣/٢٠٧) : هو الوقت الذي يطيب فيه النوم ويشق القيام . قال الطاهر بن عاشور في (التحرير والتنوير) الأسحار جمع السَّحَر وهو آخر الليل .

ولكى نُوضح أمر الفرض والفريضة نجد قوله تعالى عن المهور ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً .. (٢٤) ﴾ [النساء] أى : أن الذى فرض المهر أو الصداق للمرأة هو الله .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ .. (٢٤) ﴾ [النساء] ، ونلحظ هنا أن هناك فرقاً بين أنْ يشرع الحق لحق ، وأن يترك باب الفضل مفتوحاً ، فمن حقّها أنْ تأخذ المهر ، لكن ماذا إذا تراضتْ المرأة مع الرجل فى ألاّ تأخذ المهر وتنازلت له عنه ؟

أو أنْ يعطيها أكثر من المهر ؟ هذا ما يدخل فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ .. (٢٣٧) ﴾ [البقرة] فلا لوْمَ ولا تثريبَ فيما يتراضى به الزوجان من بعد الفريضة .

ويقول الحق سبحانه فى أول سورة النور : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا .. (١) ﴾ [النور] والشيء المفروض هنا معناه الواجب أن يُعمل لأنَّ المشرع قاله وحكم به وقدَّره .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. (٢٣٧) ﴾ [البقرة] أى نصف ما قدَّرتم . إذن : كل شيء له حكمٌ فى الشرع ، فإنَّ الله تعالى مقدره تقديراً حكيماً على قدره .

هذا الفرض غير فرض الأركان الخمسة للإسلام التى هى فرض من الله عز وجل ، أما هنا فهو إيجاب يُوجبه الفرد على نفسه .

ومعنى ﴿ فَرَضْنَاهَا .. (١) ﴾ [النور] أى فرضنا ما فيها من أحكام ، فهى سورة عظيمة من القرآن أنزلناها وأوجبنا العمل بأحكامها .

والحق سبحانه يقول هنا ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم] فقال تعالى : (لكم) ولم يقُلْ : عليكم . فالفرض هنا والإيجاب هو لمصلحتكم لتجدوا مخرجاً من الأيمان التى أقسمتموها وأوقعتم بها أنفسكم فى الحرج ، فهو سبحانه يُبين لكم المخرج من أيمانكم .

وقال بعض العلماء[1] : إذا وصل بـ (على) لم يحتمل غير الإيجاب كما فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] ، أما إذا وُصل باللام (لكم) احتمل الوجهين ، التبيين والإيجاب .

ونلاحظ أن الحق سبحانه عندما خاطب رسوله ﷺ قال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم] فخاطب مفرداً ، ولكن عندما أشار إلى فرضه كفارة اليمين قال تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم]

فانتقل من خطاب المفرد إلى خطاب المجموع ، ولذلك اختلف العلماء هل كفَّر رسول الله عن يمينه أم لا ؟ أَمْ أن المطالب بتكفير اليمين هم ما دون رسول الله .

فذهب الحسن البصرى إلى أن رسول الله لم يكفِّر عن يمينه لأنه كان مغفوراً له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر[2]، إنما هو تعليم للمؤمنين ، ولكن هل هذا ذنب ؟

هل امتناع رسول الله عن أكل العسل أو حلفه على هذا مرضاةٌ لأزواجه ؟ وهل هذا يُعد ذنباً لكى نقول إنه ﷺ قد غُفرت له ذنوبه المتقدمة والمتأخرة ، لذلك فهو لا يحتاج إلى التكفير عن يمينه ؟

ورسول الله ﷺ هو القائل لنفر من الأشعريين ، والله لا أحملكم وما عندى ما أحملكم . وأُتى رسول الله بنهب[3] إبل ، فسأل عنّا فقال : أين النفر الأشعريون، فأمر لنا بخمس ذود غر الذّرى ، فلما انطلقنا قلنا : ما صنعنا لا يُبارك لنا ، فرجعنا إليه فقلنا : إنّا سألناك أنْ تحملنا ، فحلفت أنْ لا تحملنا أفنسيت ؟

---

(١) قال فخر الدين الرازي في تفسيره (٣٠/٥٦٩) : قال صاحب (النظم) : إذا وصل بـ (علي) لم يحتمل غير الإيجاب كما في قوله تعالى ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] وإذا وصل باللام احتمل الوجهين .

(٢) ذكره الفخر الرازي في (مفاتيح الغيب) (٣٠ / ٣٧٠) .

(٣) نهب إبل : غنيمة إبل ، والجمع : النِّهاب . [الصحاح في اللغة للجوهري ٢/٢٣٤] والنهب : الغنيمة . [كتاب العين للخليل بن أحمد - ٤/٥٩] والجمع نهاب ونهوب ، [لسان العرب - مادة نهب] .

قال : لستُ أنا حملتكم ولكن الله حملكم وإنّي والله إنْ شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها[1] وقد أنزل الله في هؤلاء قرآناً فقال تعالى : ﴿ وَلاَ عَلَى الذينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

فلم يكن بحوزة رسول الله دواب تحملهم فينصرفون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لأنهم لا يجدون ما ينفقون ، وكان المؤمن من هؤلاء يحزن لأن رسول الله لم يجد له فرساً أو دابة تنقله إلى موقع القتال .

وهم لم يدمعوا أمام النبي ، ولكنهم أدمعوا في حال تولِّيهم ، وهذا انفعال نفسيٌّ من فرط التأثر لأنهم لا يشتركون في القتال ، ولو دمعوا أمامه ﷺ لقال المنافقون إنهم يتصنّعون تعصير أعينهم ويبذلون جهدهم للمراءاة ، ولكن انفعالهم كان بعيداً عن أعين رسول الله ، فكان نزولُ القرآن بقصتهم دليل صدقِ رسول الله وأن القرآن وَحْي من عند الله سبحانه .

إذن فكفَّارة اليمين كانت لرسول الله أيضاً ولعموم المسلمين وإذا تأملنا الآيتين معاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم] . ثم قوله : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .. (٢) ﴾ [التحريم] ثم قوله : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم]

الآية الأولى تكلَّمتْ عن التحريم ولم تُحدثنا عن يمين أقسمه رسول الله ، والآية الثانية تحدثنا عن كفارة اليمين ، فهل معنى هذا أنَّ مجرد التحريم دون قسَم يُعد يميناً وقسماً ؟

اختلف الناس في هذا ، ولكن سواء كان مجرد التحريم يُوجب الكفارة ، أم أنه اقترن عند رسول الله بيمين كما جاء في بعض روايات الحديث ، فالآية

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٣٣ ، ٤٣٨٥ ، ٥٥١٨ ، ٦٦٤٩) وكذا مسلم في صحيحه (٤٣٥٤ ، ٤٣٥٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

تُوجب تحلَّة يمين أو بمعنى آخر كفارة يمين .

وكفارة اليمين ذكرها الله عزَّ وجل ، فقال : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ (١) فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) ﴾ [المائدة]

والكفارة ستر العقوبة ، وليس معنى هذا أن الإنسان تلزمه الكفارة ما دام قد عقَّد الأيمان وأقسم يميناً مؤكداً ، فالكفارة تكون فقط حين يحنث فى القسم فلم يبر به .

فتكون الكفارة أحد أربعة أشياء : إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أى كسوة عشرة مساكين ، أو تحرير رقبة بإعتاق عبد أو غيره إنْ وُجد ، أو صوم ثلاثة أيام لمن لم يجد .

والحق سبحانه عندما قال فى سورة التحريم : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم] فهو سبحانه يشير إلى الكفارة التى فى سورة المائدة، فسورة التحريم نزلت بعد سورة المائدة .

والكفارة فيها جانبان : جانب منهما لزجر النفس وجانب آخر لجبر الذنب ، لذلك عندما حلف خليفة أندلسى يميناً وأراد أنْ يؤدى عن اليمين كفارة ، فأفتاه القاضى منذر بن سعيد[٢] بأن كفارة يمينه هذا هو صيام ثلاثة أيام ، مع أن الصيام لمن لم يجد مالاً ليطعم أو يكسو أو يعتق ، فهل الخليفة لا يجد مالاً ؟ لا؛

---

(١) اللغو في الأيمان : لغا الرجل تكلم باللغو وهو اختلاط الكلام ويستعمل اللغو فيما لا يعتد به ، ومنه اللغو في الأيمان أي ما لا يعقد عليه القلب . [التوقيف على مهمات التعاريف - للمناوي ٦٢٣/١]
قال برهان الدين الخوارزمي (ت ٦١٠ هـ) في (المغرب في ترتيب المعرَّب) : اللغو الباطل من الكلام.

(٢) هو منذر بن سعيد البلوطي القاضي الأندلسي ، من فحص البلوط قرب قرطبة ، يكنى أبا الحكم ولد ٢٧٣ هـ . كان فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً ، أخذ عن بعض علماء مكة ومصر ، ولي قضاء (ماردة) ثم قضاء (الثغور) ، ثم قضاء الجماعة (قرطبة) إلى أن توفي عام ٣٥٥ هجرية عن ٨٣ عاماً . [الأعلام للزركلي ٢٩٤/٧] .

ولكن القاضى منذر بن سعيد نظر إلى جانب زَجْر النفس فى الكفارة ، ولذلك قال لمن سأله : أمثل أمير المؤمنين يُزجر بعتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين ؟

وقد يسأل سائل : ولكن رسول الله لم يحنث فى يمينه حتى تجب عليه الكفارة؟ نعم رسول الله لم يحنث فى يمينه بمعنى أنه لم يخالف يمينه فذهب وشرب عسلاً ، أو أنه خالف يمينه وجامع مارية فى رواية مَنْ قال أن الآية نزلتْ بسبب أن رسول الله جامع مارية زوجه فى غرفة حفصة رضى الله عنها ، فغضبتْ حفصة ، فحلف رسول الله أنْ لا يقربها وحرَّم مارية على نفسه فنزلت الآية .

ولكن الكفارة أيضاً شرعها الله ليس للعقوبة فقط على مَنْ حنث فى يمينه وأتى بعكس ما حلف عليه ، بل شرعها الله أيضاً ﴿ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم] أى شرع لكم وقدر ما به تنحلّ أيمانكم قبل الحنث ، وما به الكفارة بعد الحنث .

فكلّ مَنْ حرّم حلالاً عليه من طعام أو شراب أو سرية ، أو حلف يميناً بالله على فعل أو ترك ثم حنث أو أراد الحنث ، فعليه هذه الكفارة المذكورة .

وقوله تعالى : ﴿ تَحِلَّةَ .. (٢) ﴾ [التحريم] تحلة أصلها تحللة فأُدغمت اللامان، وهى من مصادر التفعيل كالتوصية والتسمية ، فكأنَّ اليمين عقد ، والكفارة حلّ، لأنها تُحل للحالف ما حرَّمه على نفسه .

فكلمة ﴿ تَحِلَّةَ .. (٢) ﴾ [التحريم] دليل على أن رسول الله لم يحنث فى يمينه، فالتحلة لا تكون بعد الحنث ، فإنه بالحنث ينحلّ اليمين وتجب حينها الكفارة، وإنما تكون التحلة إذا أُخرجت قبل الحنث لينحلّ اليمين ، وإنما هى بعد الحنث كفارة لأنها كفّرت ما فى الحنث من سبب الإثم لنقض عهد الله .

فإعجاز النظم القرآنى هنا أنه لم يذكر شيئاً عن الكفارة فلم يقُلْ الله تعالى : قد فرض الله عليكم كفارة أيمانكم ، بل قال : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم]

وسبق أنْ تكلَّمنا على (لكم) أي لمصلحتكم ، فلو كانت كفارة لقال عليكم عقوبة على الإثم الذى ارتكبتموه .

ونلحظ ملحظاً آخر فى قوله تعالى ﴿ تَحِلَّةَ .. (٢) ﴾ [التحريم] فنرى فيها تقليل استعمال اليمين ، لذلك قال تعالى هناك ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ .. (٨٩) ﴾ [المائدة]

والحفظ هو عدم التضييع ، فعلى الإنسان ألاَّ يجرى اليمين على لسانه والدليل على التقليل فى قوله (تحلة) قول رسول الله فى الحديث : « لا يموت لمسلم ثلاثةٌ من الولد فيلج النار إلا تحلَّة القسم »[1] ، أى القسم الذى قاله الله فى الآية ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم]

ومعنى تحلة القسم أى قدْر ما حللت به يمينى ولم أبالغ ، أى أن النار لا تمسّ مَنْ مات له ثلاثة من الولد فصبر ولم يجزع ولم يقنط ، ولم يكْفُر؛ فلا تمسُّه النار إلا بقدر الورود.

والله يعطينا مثالاً بمسألة تحلَّة القسم ، فقال تعالى فى قصة أيوب عليه السلام ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا [2] فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ .. (٤٤) ﴾ [ص]

فأيوب عليه السلام قد حلف أنْ يضرب امرأته إذا برئ من مرضه مائة سوط ، وأراد الله أنْ يُحلَّه من هذا القسم فأمره أنْ يأخذ حزمة من حشيش أو عُشْب فيها مائة عود ويضربها بها ضربة خفيفة ليبرَّ فى قسمه .

وكان ذلك رحمة من الله به وبزوجه التى قامت على رعايته وقت مرضه، وكان أيوب عبداً شاكراً لله كأنَّ الضربة الواحدة هى مائة ضربة ، وهذا تحليل للقسم .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٥١ ، ٦٦٥٦) وكذا مسلم في صحيحه (٦٨٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قال أبو عبد الله البخاري : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ..(٧١) ﴾ [مريم]

(٢) الضغث : عثكال النخل بشماريخه . وقيل : هو قبضة من حشيش مختلط رطبها بيابسها . قال الواحدي: الضغث ملء الكف من الشجر والحشيش والشماريخ . [فتح القدير للشوكاني ٦/ ٢٥٠] .

ولا تقصير فى الأخذ بالرخصة بتحليل القسم ، ففى الكفارة ما يكفى للوفاء بتعظيم اليمين بالله ، لذلك ابتدأ الحق سبحانه الآية بحرف التحقيق (قد) فقال ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ .. (٢) ﴾ [التحريم] فلا تستعظموا الأخْذ بالرخصة للتحلل من اليمين مع صدق قلوبكم ونياتكم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم] يعنى المتولّى شئونكم وكلمة (مولى) تأخذ معنى القريب والناصر والمعين الذى تفزع إليه فى شدائدك .

فقد يُوجد لك مولى فى الدنيا وهو من الأغيار ، ومن الجائز أنْ يتغير قلبه عليك ، ومن الجائز أنْ تنالك الأحداث التى هى فوق قدرتك وطاقتك .

ومن الجائز أن يكون لك مولى تنشده وتطلبه لنصرتك فيرفض ، لأنَّ خصمك له بهذا المولى ولاء أقوى وأشد ، فيقف بجانب خصمك وقد يُوهمك أنه معك لكن قلبه ليس معك .

أما الله عز وجل فهو المولى الحق ، فلا تُوجد قوة أعلى منه وهو لا يتغير لأن الأغيار من طبيعة الخَلْق ؛ فسبحان الخالق !

ثم يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله عن ذاته العلية ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [التحريم] فيصف الحقّ سبحانه نفسه بصفتين : العلم والحكمة .

فهو سبحانه (العليم) أى الذى يعلم كل شيء خافياً كان أو ظاهراً ، والعلم كله منه سبحانه ، وهو سبحانه العليم بنيتنا ومدى إخلاصنا يعلم ما فى صدورنا قبل أنْ ننطق به .

فلا شيءَ يفوت على الله سبحانه أو يُفلت منه ، عليم بخبايا البشر ، عليم بالضرورات التى تطرأ على التكليف فهو سبحانه يشرع لهذه الضرورات . وهو سبحانه العليم بكلِّ خفايا عباده والكاشف لكلِّ الملكات النفسية فى خلقه ، عليم بما تسعه نفسُ الإنسان ، لذلك فهو لا يكلف نفساً إلا وُسْعها .

وهو سبحانه العليم بالمناسب لكلِّ حال ، وهو العليم أبداً بما ينفع الناس جميعاً ، وهو العليم بما تتطلبه الحكمة علماً يحيط بكل الزوايا والجهات ، العليم بما يجول فى الخواطر .

ثم إنه ﴿ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [التحريم] فهو الحكيم الذى لا يصدر منه الشيء إلا بحكمة بالغة ، وهو الحكيم فى فعله وتقديره وتصرُّفه .

فالحكيم هو الذى يضع كلَّ أمر فى مكانه ، الذى لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم، الذى يضع الشيء فى موضعه الدقيق بحكمة ، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ، ويغفل ما قد يأتى به من مضرَّة .

فأنت قد تصل إلى الشيء وتظن أنه يُخلِّصك من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدى إلى شيء آخر ، فهو سبحانه الذى لا يترك شيئاً للعبث ، فهو المقدِّر لكلِّ أمر بحيث يكون موافقاً للصواب .

فهو سبحانه ﴿ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [التحريم] الذى أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم ، وهو الحكيم فى جميع ما خلقه وحكم به ، فلذلك شرع لكم من الأحكام ما يعلم أنه موافق لمصالحكم ومناسب لأحوالكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) ﴾

السر هـو ما أسررتَ به لغيرك ، فكأنه يعلمه اثنان ، أنت ومَنْ أسررتَ إليه ، ولكـن هنـاك ما هو أخفى من السر وهو ما تُبقيه فى نفسـك ولا تخبر به أحداً ، إنه يظلّ فى قلبك لا تُسرّ به لإنسان .

والله سـبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فما أُسرُّ به إلى غيرى فهو السر ، وما أُخفيه فى صـدرى ولا يطلع عليه أحد هـو أخْفـى من السرِّ ، فلا يُقال أسررت إلا إذا بُحت به لغيرى ، أما ما أخفيه فى صدرى فلا يعلمه أحدٌ إلا الله ، فهذا ما هو أخفى من السرِّ .

وأنـت عندما تضـع سرَّك عنـد أحد فأنت تثق فيه وتستـأمنه عليـه ، وكأن الأسرار فى خزانة لن يعرف أحدٌ ما بداخلها ، فأنت عندما تُسرّ إلى إنسان أمراً ما فأنت تعتبره كنفسك ، وأن السرَّ لن يخرج خارجه .

أما عندما تُسرُّ إلى إنسـان بكلام وسـط مجموع من النـاس ولكنك تهمس به فهذه نجوى ، ويكون السرُّ حينئذ هو ما احتفظتَ به داخل نفسك .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ .. (٧٨) ﴾ [التوبة] فالسر هنـا ما تكتمه فى نفسك ولا تُطلع عليه أحداً ، فليس السر هو ما تُسر به للغير لأن هذه هى النجوى ، وهى ما أسررت به للغير بحيث لا يعلمه مَنْ يجالسكما .

وسـواء كان السر هو ما أسررتَ به لغيرك وخرج منك لأنك استـأمنتَ الغير علـى ألاَّ يقولـه ، أو كان السر ما أخفيتَه أنت فى نفسـك ، فالله هو العالم به فى الحالتين .

فالسرُّ هنا فى الآية : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] كان السر عند رسول الله ﷺ وانتقل إلى بعض من أزواجه .

والأخفى من السرِّ هو ما قبل أنْ تبوح بالسر وكتمته ولم تبح به ، وسبحانه

يعلم هذا السر وما تُخفيه ، أى السر الذى لم تقُلْه لأحد ، بل ويعلمه قبل أنْ يكون سراً .

فالسر ما تركته فى نفسك محبوساً وأسررته عن الخَلْق لا يعرفه إلا أنت ، أو السر ما أسررت به إلى الغير وساعتها لن يبقى سراً ، وإذا ضاق صدرك بأمرك فصدْرُ غيرك به أضْيق .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] أى ليس كل أزواجه وإلا لم يكُنْ سراً ، فرسول الله أسرّ إلى البعض من أزواجه .

وبعض الشيء طائفة منه ، والبعض يصدق على الواحد والواحدة ، وهى هنا حفصة بنت عمر بن الخطاب زوج النبى ﷺ .

وقد حدث أن رسول الله دخل بمارية[1] القبطية سريته بيت حفصة بنت عمر، فوجدتها معه . فقالت حفصة : يارسول الله فى بيتى من بين بيوت نسائك ؟! قال : فإنها عليّ حرام أن أمسَّها يا حفصة واكتمى هذا عليَّ .

فخرجت حفصةُ حتى أتتْ عائشة ، فقالت : يابنت أبى بكر ألا أُبشِّرك ؟ فقالت: بماذا ؟ قالت : وجدتُ مارية مع رسول الله فى بيتى . فقلت : يا رسول الله فى بيتى من بين بيوت نسائك ؟! وبى تفعل هذا من بين نسائك ؟!

فكان أول السِّرّ أن حرَّمها على نفسه . ثم قال لى : يا حفصة ألا أبشرك ؟ فقلت : بلى بأبى وأمى يارسول الله . فأعلمنى أن أباك يلى الأمر من بعده ، وأن أبى يليه بعد أبيك . وقد استكتمنى ذلك فاكتميه »[2].

---

(١) مارية القبطية : أم إبراهيم بن رسول الله . تسرَّى بها رسول الله فولدت له . وهي مارية بنت شمعون. مصرية الأصل بيضاء ، ولدت في قرية (حفن) من كورة (أنصنا) بصعيد مصر . أهداها المقوقس سنة ٧ هـ للنبى هى وأخت لها تُدعى (سيرين) ولدت لحسان بن ثابت ولده عبد الرحمن وماتت في خلافة عمر (١٦ هـ) ودفنت بالبقيع . [الأعلام للزركلي ٥/٢٥٥] .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٥٠٤) ، وكذا في المعجم الأوسط (٢٣١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قال ابن حجر العسقلاني في (تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي) (٣/٤٤٦): « أصل هذا الحديث رواه النسائي والحاكم وصححه من حديث أنس » .

فـ (مارية) كانت سرية رسول الله أهداها له المقوقس[1] عظيم القبط فى مصر بعد رسالة رسول الله إليه « أسلم تسلم »[2] فكان أنْ أهدى المقوقس لرسول الله مارية القبطية وتسرَّى بها رسول الله وولدتْ له إبراهيم فصارت أم ولد وأعتقتْ وأصبحتْ زوجةً لرسول الله .

وأزواج جمع زوج والزوج يُطلق على الشيء معه ما يقارنه فكلمة زوج تُطلق ويراد بها الشيء الواحد الذى معه ما يقارنه ، والحق سبحانه يقول : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] فكلمة زوج هنا أُطلقت على حواء ، فآدم زوج وحواء زوج .

فكلُّ زوجة من زوجات رسول الله هى زوج له ، فلا نأخذ كلمة زوج على أنها اثنان بل هى مفرد ، وقد قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١) ﴾ [النساء]

ورسول الله حرَّم على نفسه مارية إرضاءً لحفصة ، وعاتبه الله فى ذلك كما عاتبه فى أمر تحريمه للعسل إرضاء لأزواجه ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .. (١) ﴾ [التحريم]

وأمر العسل معروف لمعظم أزواجه بل إنهنَّ اتفقن على أنْ تقول كلٌّ منهن لرسول الله إذا دخل عليها : شربتَ عسلاً ؟ فالأمر مستفيض بينهن .

أما أمر تحريم رسول الله مارية على نفسه فهو خاص بحفصة ، وكذلك أمر

(١) المقوقس : صاحب الإسكندرية . لا مدخل له في الصحابة فإنه لم يسلم ولم يزل نصرانياً . قال ابن ماكولا : اسم المقوقس جُريج ، يعني بجيمين أولهما مضمومة . [أسد الغابة ٣/ ٤٣] . وقال ابن الأثير في البداية والنهاية (٤/ ٣١٠) : « اسمه جريج بن مينا » . (٥/ ٣٢٦) أنه من بطاركة الروم . أي حكام مصر في ذلك الزمن .

(٢) نص كتاب رسول الله إلى المقوقس أرسل به حاطب بن أبي بلتعة فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلي المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم . أسلم يُؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا .. (٦٤) ﴾ [آل عمران] [نصب الراية للزيلعي ٤/ ٤٢١] .

خلافة أبيها عمر بعد أبى بكر الصديق أبى عائشة ، وهذان الأمران هما اللذان أسرَّهما رسول الله لحفصة .

ولكنها لم تلبث حفصة أنْ أخبرت عائشة بأمر حديث رسول الله إليها ، فقال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ** .. (٣) ﴾ [التحريم] أى أخبرت به ، ولكن حفصة لم تخبر به خبراً عادياً على سبيل الكلام العادى أو كما نقول (الثرثرة) ، بل ﴿ **نَبَّأَتْ بِهِ** .. (٣) ﴾ [التحريم]

ونحن قلنا من قبل : إن كلمة (نبأ) لا تأتى إلا فى الخبر العظيم ، والنبأ هو الخبر المهم ، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر ، بل نطلقه على الخبر اللافت للنظر .

فالنبأ هو الخبر المهم الشديد الذى له وقْع وأثر عظيم ، لذلك قال : ﴿ **فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ** .. (٣) ﴾ [التحريم] و(نبّأ) تعطى معنى أكثر من (أنبأ) فـ (نبأت) بتضعيف الباء ، أى أن الكلمة فيها حرفان من شكل واحد أى متماثلان .

و﴿ **نَبَّأَتْ** .. (٣) ﴾ [التحريم] تعطى معنى الاهتمام بالإخبار ، فليس مجرد إخبار بل هو خبر مهم جمعتْ حفصة رضى الله عنها نفسها له وحدَّثتْ عائشة عنه باهتمام شديد ، فلم يقُل (أنبأت) .

﴿ **وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ** .. (٣) ﴾ [التحريم] أى أظهره الله على قول حفصة لعائشة، فأظهر الله نبيه محمداً ﷺ على أنها قد أنبأت بذلك صاحبتها ، فـ (أظهره) أطلعه على أن حفصة قد نبَّأت عائشة بما أسرَّه إليها رسول الله .

ويظهر على كذا لها معنيان فى اللغة : الأول بمعنى يعلم كما فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ** .. (٢٠) ﴾ [الكهف] يعنى : إنْ علموا بكم وعرفوا مكانكم .

والثانى بمعنى يعلو ويغلب ويقهر كما فى قوله تعالى : ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ** .. (٩٧) ﴾ [الكهف] أى السد الذى بناه ذو القرنين ، فالمعنى ما استطاعوا أنْ يعلوه ويرتفعوا عليه .

ومنهـا ﴿ لَمْ يَظْهَـرُوا عَلَى عَـوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النـور] يعنى : يعرفونها ويستبينونها أو يقدرون على مطلوباتها ، فليس لهم علم أو دراية بهذه المسائل، فهم لم يطلعوا على عورات النساء .

فـ ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] أى : أطلعه . ولكن أظهره تعطى معنى الاستعلاء والعلو على ما حدث وعلى إفشاء حفصة للسرِّ الذى أسرّ به لها على أنْ تكتمه .

لذلـك قـال بعدها ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ .. (٣) ﴾ [التحريم] فعاتب رسول الله حفصة على بعض ما أسرَّ لها به وأعرض عن بعضه تكرُّماً منه ﷺ، حتى أن بعض العلماء قال : ما استقصى كريمٌ قط[1].

فيقـال : عرَّفها أمر تحدُّثها عن مارية وما حدث معها وتحريم رسول لها على نفسه ، وأعرض عن تحدُّثها عن خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما له ﷺ .

وأنـت إذا أسـررتَ إلى إنسـان بعـدة أمـور ووجدته قد أفشـى سِـرَّك فعندما تواجهه تجده محتاراً هل وصـلك الحديث كله أم بعضه ، فإذا ذكرت أمراً واحداً تجـده قلقـاً متحيراً خجـلاً حيياً من أنْ يكون وصـلك الحديث كله خاصـة أنك طلبت كتمانه.

ورسول الله ﷺ قال هنا لحفصة : « واكتمى هذا عليَّ » .

﴿ فَلَمَّـا نَبَّأَهَـا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَـٰذَا .. (٣) ﴾ [التحريم] ، لقد ظنت حفصـة أن عائشة رضى الله عنها هى التى أخبرته ، فلا يعتقد أحدٌ أن حفصة تشك فى أن الله يخبر نبيه ورسوله بما لا يحيط به علماً من أمر الأمة .

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في كتابه (قوت القلوب في معاملة المحبوب) (٢/ ٤٣٤) وعزاه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٤/ ٥٧٧) وعزاه لابن مردويه من قول علي ، أما البغوي في تفسيره (٨/ ١٦٤) فقد عزاه للحسن البصري .

وبسبب ظنها أن عائشة قد تكون هى التى أخبرت رسول الله ، لذلك سألت ﴿ مَنْ أَنبَأَكَ هَـٰذَا .. (٣) ﴾ [التحريم] أى مَنْ أعلمك وأخبرك أنِّى قد أفشيتُ سرَّك الذى أسررتَ إليّ به .

كيف وصلك الأمر، وما تحدَّثتُ به مع عائشة كان بينى وبينها ، فهل هى التى أخبرتك ؟

﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) ﴾ [التحريم] أى : الله الذى لا تخفى عليه خافية، فهو سبحانه العليم الخبير .

فالعليم الذى يعلم كل شيء خافياً كان أو ظاهراً ، والعلم كله منه ، سميع بما يُقال عليمٌ بما فى الصدور قبل أنْ ينطقوا به ، فكل حركة قبل أن تحدث يعلمها سبحانه .

والخبير يزيد على العلم بإحاطته التامة لكلِّ شيء ، فالخبير صاحب العلم الدقيق الذى يعلم خبايا الأمور ، ونحن حتى فى مسائل الدنيا الهامة نقول : نستدعى لها الخبير ، فالمختص العادى لا يقدر عليها .

فالخبير هو مَنْ وصل إلى منتهى العلم الدقيق ، فلا يسأل أهل العلم السطحى، فالخبير هو الذى لا يغيب عنه شيء .

ثم يخاطب الحق سبحانه حفصة وعائشة رضى الله عنهما فيقول :

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ ﴾

والتوبة مطلوب من الله طلبه من عباده ، فالتوبة رحمة بعباده ، فتشريع التوبة ليس رحمةً بالعاصى وحده ، ولكنه رحمة بالمجتمع كله ، فالتوبة لو لم تشرع لَعانَى المجتمع كله .

فلو لم يشرع الله التوبة ، ولو لم يُبشِّرنا بأنه سيقبلها لكانَ الذى يذنب ذنباً واحداً لا يرجع عن المعصية أبداً .

والله شرع قبول التوبة حتى لا ييأس الإنسان ، فيُحسُّ أن أبواب السماء مفتوحة له دائماً ، وأن الله الذى خلقه رحيمٌ به ، إذا أخطأ فتح له أبواب التوبة وغفر له ذنوبه ، حتى يُحسَّ كلُّ إنسان برعاية الله سبحانه له هو على الأرض من أول بداية الحياة .

فالمنهج موجود لمن يريد أنْ يؤمن ، والتوبة قائمة لكل مَنْ يخطيء ، والتوبة هى أصل المغفرة ، أنت تتوب عن فعلك للذنب وتعتزم ألاَّ تعود لمثله أبداً ، ويقبل الله توبتك ويعفو عنك .

والحق سبحانه يحب التوبة من عباده ، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله فى فلاة[1].

فإنْ ترجعا إلى الله نادمتين تائبتين فقد فعلتما ما يوجب التوبة ، فقوْل الحق سبحانه ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ .. (٤) ﴾ [التحريم] هو حضٌّ على التوبة وهو أيضاً عرْضٌ للتوبة عليهما ، لأن الحق سبحانه يقول بعدها : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ .. (٤) ﴾ [التحريم]

﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. (٣) ﴾ [التحريم] والإصغاء هو ميْل الأذن إلى المتكلم ، لأنك قد لا تسمع مَنْ يتكلم بغير إصغاء ، وحين يسير الإنسان

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٩) عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلّه في أرض فلاة » وكذا في صحيح مسلم (٧١٣٧) . والأرض الفلاة التي ليس فيها ما يقوم به البدن من المأكول والمشروب . وكأنها فليت من مقومات الحياة .

منّا في الطريق فهو يسمع الكثير ، ولكن أذنه لا تتوقف عند كلِّ ما يسمع بل قد تقف الأذن عندما يظن الإنسانُ أنه كلامٌ مُهم .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) ﴾ [الأنعام] والأفئدة هي القلوب ، صحيح أن الآذان هي التي تصغي ، لكن القلوب قد تتسمع ما يُقال .

وعندما يقول تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. (٤) ﴾ [التحريم] أي : أنه سبحانه نقل الإصغاء من الآذان إلى القلوب وهذا إدراك ، فقلوبهم مالتْ إلى حبِّ تحريم رسول الله ماريةَ على نفسه رغم كراهيته ﷺ لذلك .

والبعض من العلماء ذهب إلى أن ﴿ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. (٤) ﴾ [التحريم] هنا المقصود بها أنها مالتْ إلى التوبة مما فعلتاه ، فقال : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. (٤) ﴾ [التحريم] أي : مالت واتجهت إلى التوبة .

فقلوبكما قد صغتْ إلى الحق ، وهو ما وجب من الابتعاد عن ما يُسخط رسول الله .

﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. (٤) ﴾ [التحريم] أي : تعاونا عليه . والظهير : المعين. والحق سبحانه يقول : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا .. (٤) ﴾ [التوبة]

ويُظاهر أي يُعاون ، وكلّها مأخوذة من مادة الظهر ، وهو يتحمل أكثر من اليد ، فالإنسان لا يقدر أنْ يحمل جوالَ قمح بيده مثلاً ، ولكنه يقدر أنْ يحمله على ظهره .

ولذلك يقول المثل العامي : مَنْ له ظهر لا يُضرب على بطنه . إذن : فالظهر للمعونة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا

ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ [الصف] أى : عالين .

فقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. (٤) ﴾ [التحريم] يعنى تعاونا ، وهى مأخوذة من الظهر ، كأنك قلتَ : أعطنى ظهرك مع ظهرى لنحمل الحمل معاً ، والظهر محل الحمل .

﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. (٤) ﴾ [التحريم] أى : تظاهرا وتعاونا على أذى النبى ﷺ ، فإنْ تعاضدا وتعاونا فى الغيرة عليه منكما وإفشاء سِرِّه وتتفقا على ما يسوؤه من إفراطهم فى الغيرة .

فإنْ تعاونا على هذا وتآزرا ، وكان كلٌّ منهما عَوْناً للأخرى عليه ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ .. (٤) ﴾ [التحريم] أى ناصره ومُعينه ، وحين يكون الله فى معونته فهو يعطيه من قدرته غير المحدودة .

فالله هو المولى الحق ، فلا توجد قوة أعلى منه وهو لا يتغير ، والحق سبحانه يؤكد الأمر بالضمير المنفصل (هو) ، فيقول ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ .. (٤) ﴾ [التحريم] وكان من الممكن أنْ تكون العبارة : فإنَّ الله مولاه .

أما وقد جاء بـ (هو) بين لفظ الجلالة و (مولاه) فإنه تأكيد لإعانة الله لرسوله ونُصْرته له . وليس الله وحده سبحانه هو مولى رسول الله ، ولكن أيضاً ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ .. (٤) ﴾ [التحريم]

وقد خصَّ الله هنا (جبريل) بالذكر رغم أنه سبحانه سيذكر الملائكة بعد ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ .(٤) ﴾ [التحريم] . فجبريل عليه السلام هو أمين الوحى وهو أقرب الملائكة إلى الأنبياء والرسل لا سيما رسول الله ﷺ ، فكلٌّ رسول كان مُؤيَّداً بروح القدس ، وهو جبريل عليه السلام .

وقد حدَّثنا ربُّ العزة سبحانه عن جبريل فقال : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا

لله وَمَلائكته وَرُسُله وَجبْريلَ وَميكَالَ[1] فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ للْكَافرِينَ (٩٨) ﴾ [البقرة]

وقد وصف الحق سبحانه جبريل فقال : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ[2] فَاسْتَوَى (٦) ﴾ [النجم] أي : ذو قوة .

وقال الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) ﴾ [التكوير] فجبريل شديد القوة الظاهرة والباطنة، قويّ على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه ، قوى على إيصال الوحى إلى الرسول ﷺ .

وليس جبريل وحده ، بل : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ .. (٤) ﴾ [التحريم] هما أبو بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . والمقصود كلّ مؤمن صالح .

وقد كان عمر بن الخطاب يحفظ لرسول الله أمره ويشدد على ابنته حفصة فى أمر مراجعة رسول الله ، وقد كان يظن أن هذا لا يحدث .

قال عمر : بينما أنا فى أمر أتأمَّره إذ قالت امرأتى : لو صنعت كذا وكذا . قال فقلت لها : مالكِ ولما هاهنا فيما تكلفك فى أمر أريده . فقالت لى : عجباً لك يابن الخطاب ، ماتريد أنْ تُراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظلّ يومه غضبان .

فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة ، فقال لها : يابُنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظلَّ يومه غضبان ، فقالت حفصة : والله إنَّا لنراجعه . فقلت : تعلمين أنِّى أحذرك عقوبة الله وغضب رسول الله .

يابنية لا يغرنك هذه التى أعجبها حُسْنها وحب رسول الله إياها . يقصد

---

(١) ميكال : مفعال بغير همز ، هي لغة أهل الحجاز ، وبها قراءة حفص ، وميكائيل لغة تميم وقيس وكثير من أهل نجد . وهناك قراءات أخرى ، قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/١٠١) : قال الكسائى : جبريل وميكال اسمان لم تكن العرب تعرفهما فلما جاء عرَّبتهما .

(٢) المِرَّة : القوة والشدة في الخلق . وقيل : ذو صحة جسم وسلامة من الآفات . ومنه قول النبي ﷺ « لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّة سوي » . وقيل : ذو حصانة عقل ومتانة رأي . [فتح القدير للشوكاني ٦٧/٧] .

عائشة[١] .

بل إن الحق سبحانه يذيِّل الآية بقوله ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

فالله هو مولاه وجبريل والصالحون من المؤمنين ، ويعين المؤمن فى نصرة رسول الله الملائكة ، فإنهم ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

والملائكة لفظها لفظٌ مؤنث ولكن لم يقُل الحق سبحانه : ظهيرة ، لأن (ظهير) يعنى معين ، والمعونة تتطلب القوة والعزم والمدد ، لذلك جاء لها باللفظ المناسب الذى يدلّ على القوة ، وهو (ظهير) .

فـ (ظهير) فى الآية الكريمة أى معين . لذلك يُقال : فلان يشد ظهرى أى يعاوننى بقوة . ويُقال : ظهر فلان على فلان أى غلبه وتفوّق عليه . ويقال : وعلا ظهره .

و (ظهير) على وزن فعيل ، وهذا الوزن يستوى فيه المذكر والمؤنث ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [الأعراف]

فالجميع سيكونون أعواناً له ﷺ على مَنْ آذاه وأراد ما يسوءُه . وظهير هنا أيضاً بمعنى الجمع أى ظهراء ، كقوله تعالى : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥ ﴾

كلمة (عسى) فى اللغة تأخذ أوضاعاً متعددة ، فـ (عسى) معناها فى اللغة

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩١٣) ، وكذا أخرجه مسلم في صحيحه (٣٧٦٥) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

الرجاء . كقول واحد : عسى أنْ يجيء فلان . أى : أرجو أن يجيء فلان أو قول واحد مخاطباً صاحباً له : عسى أنْ يأتيك فلان بخير . وهذا رجاء أنْ يأتى فلان إلى فلان ببعض الخير ، وقد يأتى فلان بالخير وقد لا يأتى ، لكن الرجاء قد حدث .

وقد يقول واحد لصاحبه : عسى أنْ آتيك أنا بخير ، هنا يكون الرجاء أكثر قوة ، لأن الرجاء فى الأولى فى يد واحد آخر غير المتحدث ، أما الخير هنا فهو فى يد المتحدث ، لكن أيضمن المتحدث أنْ توجد له القوة والوجود حتى يأتى بالخير لمَنْ يتحدَّث إليه ؟

وإذا قال قائل : عسى **الله** أنْ يأتيك بالفرج ، فهذه أوغل فى الرجاء ، لكن هل مَنْ يقول ذلك واثق من أن **الله** يجيب الرجاء ؟ قد يجيب **الله** وقد لا يجيب وفقاً لإرادة **الله** سبحانه ، لا لمعايير مَنْ يرجو أو المرجو له .

أما عندما يقول الحق سبحانه عن نفسه ﴿ **عَسَى رَبُّهُ** .. (٥) ﴾ [التحريم] ، فهذا هو القول البالغ لنهايات كلِّ الرجاءات ، فـ (عسى) بمراحلها المختلفة تبلغ قيمتها عندما يقول الحقُّ ذلك .

فالأقوى على الإطلاق هو أنْ يقول **الله** عن نفسه ﴿ **عَسَى رَبُّهُ** .. (٥) ﴾ [التحريم] بالنسبة **لله** رجاء محقق لأنه إطماعٌ من **الله** عز وجلَّ .

ومثلها قوله ﴿ **فَأُولَـٰئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ** .. (٩٩) ﴾ [النساء] فهذا إطماعٌ من كريم قادر .

و**الله** لا شيءَ يُعطله أو يستعصى أو يتأبّى عليه ، فإذا ما قال الحق سبحانه عن نفسه ﴿ **عَسَى رَبُّهُ** .. (٥) ﴾ [التحريم] فقد انتهتْ المسألة وتقرر الوعد وتحقَّق ، وهذا ما يقال عنه رجاء محقق .

فلتكُنْ على وجل من أنْ يحقق **الله** هذا الرجاء ويبدِّل رسوله ﷺ أزواجاً

غيركُنَّ ، فالرجاء من الله إيجاب ، ونلاحظ أنّ يعقوب عليه السلام لثقته فى إنجاز الله لوعده نجده يقول : ﴿ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. (٨٣) ﴾ [يوسف]، ففى هذه الآية طلبُ الأمل الذى يُوحى بالفرج وقد كان .

فهو لم يقل : عسى أنْ يأتونى جميعاً ، بل نسب الأمر إلى الله طمعاً ورجاءً فى عظيم فضل الله فقال : ﴿ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. (٨٣) ﴾ [يوسف]

فإذا قلت ﴿ عَسَى اللهُ .. (٨٣) ﴾ [يوسف] أنْ يعطيك فهو أقوى الرجاء لأنك رجوتَ مَنْ لا يُعجزه شيء ولا يتعاظمه شيء ولا تناوله الأغيار . إذن : فالرجاء فيه محقَّق لا شكَّ فيه .

والمسألة ليست عند محمد ، إنما عند ربِّ محمد ، لذلك قال تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّهُ .. (٥) ﴾ [التحريم] فلم يقل : عسى الله ، بل قال (ربه) ، فربُّه هو الذى سيُبدِّلكن لأنكُنَّ لم ترعيْنَ حقَّ النبوة والرسالة .

والتعبير بـ (ربه) يُذكِّرنا بقوله ﷺ : « أدَّبنى ربى فأحسنَ تأديبى »[1]. فالله تعالى هو الذى ربَّاه وأدَّبه أحسن تأديب .

ومنزلة المربِّى تعظم فى التربية بمقدار كمال المربِّى ، فكأنه تعالى يقول : أنا ربك الذى أكملتُ تربيتك على أحسن حال ، فمَنْ أراد أنْ يرى قدرة الربوبية فليرها فى تربيتك أنت ، والمربَّى يبلغ القمة فى التربية إنْ كان مَنْ ربَّاه عظيماً .

فـ (ربه) الذى رباه لن يتخلَّى عنه ولن يخذله ، ونجد هذا نفسه فى دعاء يوسف عليه السلام والتجائه إلى ربه واعتصامه به ، فقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. (٣٣) ﴾ [يوسف]

---

(١) أورده الألباني في السلسلة الضعيفة (١/ ١٧٢) وقال : ضعيف . قال ابن تيمية في (مجموعة الرسائل الكبرى) (٢/ ٣٣٦) : معناه صحيح ولكن لا يُعرف له إسناد ثابت وأيده السخاوي والسيوطى . انظر كشف الخفاء للعجلوني (١/ ٧٠) .

فدعا يوسف ربه باسم الربوبية اعترافاً بفضله سبحانه ، لأنه هو جلَّ جلاله مَنْ ربَّاه وتعهَّده ، وهو هنا يدعوه باسم الربوبية ألاَّ يتخلى عنه فى هذا الموقف.

فالربّ هو الذى يتولّى التربية والإعطاء ، بينما مطلوب (الله) هو العبودية والتكاليف ، لذلك ينادى المؤمن ربه فى الموقف الصعب (ياربنا) أى يا مَنْ خلقتنا وتتولاَّنا وتمدّنا بالأسباب .

وقد قالت السيدة عائشة لرسول الله : « يا رسول الله ، ما أرى ربك إلا يُسارع فى هواك »[1] . فقال لها ﷺ : وأنتِ يا عائشة لو اتقيتِ الله لسارع فى هواك »

فالله يسارع فى هواى لأننى سارعت فى هواه ، طلب منى فأديت ، لذلك يلبى لى ما أريد من قبل أنْ أطلب منه .

والحق سبحانه هنا جعل محمداً غائباً عبَّر عنه بضمير الغائب ، فقال ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم] فالحق سبحانه يخاطب أزواج رسول الله مدافعاً عنه ، فرسول الله لم يخطيء معهن فى شيء .

فحقُّه أنْ يأكل ما شاء عند مَنْ يشاء منهن ، وحقُّه أنْ يقترب ممن شاء من زوجاته فى أيِّ بيت من بيوته ، ولكنه ﷺ تنازل فحرَّم على نفسه شرب العسل، وحرَّم على نفسه مارية أم ولده إبراهيم ، فماذا تريدون أكثر من هذا ؟

لذلك كان الخطاب هنا لأزواج رسول الله ، إنه سبحانه يضعهن أمام حقيقة أنه ربُّ محمد وأنه لن يتخلَّى عنه ، فهو كما قال سبحانه : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك . [أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٨٨)] قال النووي : معناه يخفف عنك ويوسع عليك في الأمور ولهذا خيَّرك .

بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

وقد قلنا إن ﴿ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ .. (٤) ﴾ [التحريم] هما أبو بكر وعمر ، وقد حدث أن قال عمر : بلغنى عن بعض أمهاتنا أمهات المؤمنين شدة على رسول الله ﷺ وأذاهنَّ إياه ، فاستقريتهن امرأةً امرأةً ، أعظها وأنهاها عن أذى رسول الله وأقول : إنْ أبيتُنّ أبدَله الله خيراً منكن .

حتى أتيتُ على زينب فقالت : يا ابن الخطاب أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ؟ فأنزل الله ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم][1]

إذن : فالإبدال هنا سيكون بطلاقهن ولكنه مشروطٌ بطلاق رسول الله لأزواجه ﴿ إِنْ طَلَّقَكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم] ، لذلك كانت (عسى) هنا لا تعنى وجوبَ وقوع الإبدال ، لأنه مشروطٌ بشرط تطليقه لهنَّ وهو ما لم يحدث . والأمر لم يتعدّ تخويفهن ونصيحتهن .

فإنْ طلقهنَّ رسول الله فسيُبدله أزواجاً ، أول صفة لهنَّ الإسلام لله فى كلِّ ما يأمر به ، وثانيها الإيمانُ بالله ورسوله . أى فيهما ما عندكم وأكثر ، فإسلامهن وإيمانهن لن يكونا قولاً فقط .

أما قوله تعالى : ﴿ قَانِتَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] القنوت هو دوام الطاعة لله سبحانه ، ومنه قنوتُ الفجر الذّى نقنته ، وندعو ونقف مدة أطول فى الصلاة التى فيها قنوت .

والمرأة القانتة خاضعةٌ لله ، لذلك فهى امرأة صالحة ، لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ .. (٣٤) ﴾ [النساء] فالمرأة الصالحة هى التى

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (فضائل الصحابة) (٤٣٤ ، ٤٩٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه . ومعنى استقريتهن أي مررت بهن واحدة واحدة . قال الأزهري في تهذيب اللغة (٢٠٧/٩) : « الإنسان يقتري أرضاً ويستقريها إذا سار فيها ينظر حالها وأمرها . وقال بعضهم : ما زلت أستقري هذه الأرض قرية قرية » .

استقامتْ على المنهج الذى وضعه لها مَنْ خلقها فى نوعها .

والقنوتُ هو عبادةٌ مع خشـوع وخضـوع واسـتدامة ، فالقنوت هو العبادة الخالصة لله الخاضعة الخاشعة .

والحق سبحانه يخاطبهنَّ : ﴿ يَـٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾ [الأحزاب] ثم يقول: ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا .. (٣١) ﴾ [الأحزاب]

ومعنى ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : بالغ فى الصلاح والورع حتى وصل إلى درجة الخضـوع ، وهو الخضـوع والخشـوع ، فالقنوت خضـوعٌ تام وكاملٌ لله وتخشُّع وتذلّل لله فى دعائه .

ويقول تعالى : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ .. (٤٣) ﴾ [آل عمران] أى : بالغى فى الخشوع والخضوع لله بوضع الجبهة التى هى أشرف شيء فى الإنسان على الأرض ، لأن السجود هو أعلى مرتبةً من الخضوع .

والله لا يريـد قوالـب تعبده بـل يريد قلوباً قانتة خاشـعة ، فالذى يُقبل على طاعة الله ثم ينصرف عنها كأنه قد جرَّب وُدَّه لله ، فلم يجد الله أهلاً للود .

أمـا العبد الطائع القانت فلا ينصرف عن العبادة لأنه ذاق حلاوة استدامة العبادة لله ، وما دام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يقبل عليها بخشوع واطمئنان واستدامة ويدخل فى دائرة القانتين .

فالله يُوجههنَّ لما هو أوْلَى بهنَّ وأليق وأجدر بأنْ يجتَهدْنَ لله فى الطاعة .

ثـم إنهن سـيكُنَّ ﴿ تَائِبَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] والتوبة تقتضـى عزماً على ألاَّ تُنشئوا ذنوباً جديدة ، والله يفتح لنا أبواب التوبة باباً بعد آخر ، ونعصـى فلا يأخذنا بذنوبنا ولا يحرمنا من نعمه ، ولا يُهلكنا بما فعلنا .

فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية، ورسول الله ﷺ : « كلُّ بنى آدم خطَّاء ، وخَيْر الخطائين التوابون »[1].

ولو لم يشرع الله التوبة ولو لم يُبشِّرنا بأنه سيقبلها لكان الذى يذنب ذنباً واحداً لا يرجع عن المعصية أبداً وكان العالم كله سيعانى .

والله يحبُّ التوابين توبة نصوحاً صادقة خالصة لا رجوعَ فيها ، وهذه التوبة تتسم بالإقلاع عن الذنب والندم على ما فات ، والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى .

وقد قال ﷺ : « إنَّ الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوبَ مُسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[2].

فـ ﴿ تَائِبَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] أى : من ذنوبهن راجعاتٍ إلى أمر رسول الله تاركات لما تحبه أنفسهن ؛ إنْ كان مكروهاً لرسول الله .

﴿ عَابِدَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] وتلك صفة أخرى وإنْ كانت مُتضمَّنة فى وصفهن بـ ﴿ قَانِتَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم]، ولكن الله يؤكد عليها هنا ، وهذا دليلُ أن العبادة ليست فقطْ أداءَ الصلاة والصيام والخشوع والخضوع فى أثناء العبادات .

ولكنَّ العبادة هى طاعةُ المعبود فى (افعل) و (لاتفعل) فـ (عابدات) هنا معناها طائعات لأمر الآمر وممتثلات لنهْى الناهى ، فالله هو الإله المعبود فى كونه ، ومعنى معبود أنه يُطاع فيما يأمر به ولا نُقدِم على ما نهى عنه .

والحق سبحانه يقول ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ .. (٥٦) ﴾ [الذاريات]

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢٥١) والبزار في مسنده (٧٢٣٦) وأبو يعلي في مسنده (٢٩٢٢) والحاكم في مستدركه (٧٦١٧) وصحح إسناده ، وقد ليَّن الذهبي علي بن مسعدة . والدارمي في سننه (٢٧٢٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٦٧٢٥) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٧١٦٥) وأحمد في مسنده (١٩٥٤٧ ، ١٩٦٣٥) وكذا البزار في مسنده (٣٠٢١) والطيالسي في مسنده (٤٩٢) من حديث أبي موسى الأشعري .

فعلّة الخَلْق هى العبادة ، ولكن هل العبادة هى الجلوس فى المساجد والتسبيح ، أو أنها منهجٌ يشمل الحياة كلَّها فى بيتك وفى عملك وفى السعى فى الأرض ؟

فالعبادة هى طاعةُ أوامر الله واجتناب نواهيه ، فما قال لى الله : افعل فإنِّى أفعل . وما قال : لا تفعل . فإننى لا أفعل لأن العبادة هى طاعةُ مخلوقٍ لخالقه فى أوامره ونواهيه .

والله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] ، فهناك نهى عن إيذاء رسول الله ، فإنْ طلقكنَّ رسول الله فسأبدله بأخريات يكُنَّ عابدات لله يمتثلْنَ أمر الله فى أنْ لا يُؤذِين رسول الله ، وأنْ يخترْنَ ما يختاره ﷺ ويُسارعن فى مَحابِّه .

ثم يذكر الحق سبحانه صفة أخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿ سَائِحَات .. (٥) ﴾ [التحريم] والسائح هو مَنْ ترك المكان الذى هو موطن له ، فيه بيتُه وأهلُه وأولاده وأُنْس بالناس ، ثم يسيح إلى مكان ليس له فيه شيء ، بل قد يتعرض فيه للمخاطر .

فالسياحة هى السير المستوعب سيْرَ اعتبار لينظر فى ملكوت السماوات والأرض ، وليستنبط من آيات الله ما يدل على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأنْ يضربَ فى الأرض ليبتغيَ من فضل الله .

وسياحة الاعتبار هى أمر مشترك بين الرجل والمرأة ، بدليل أنَّ الله قال ذلك فى وصف النساء : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم]

إذن ﴿ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] هنا مقصود بها سياحة اعتبار ، أو تكون السياحة التى تكون فيها الزوجة فى صُحْبة زوجها الذى يضرب فى الأرض .

والسياحة أيضاً تُطلق على الصيام ، لأن السياحة تُخرجك عما ألفْتَ من إقامة فى وطن ومال وأهل ، والصيام يُخرجك عمّا ألفْتَ من طعام وشراب

وشهوة . إذن : القدر المشترك بين الرجال والنساء هو فى سياحة الاعتبار وسياحة الصوم .

وقد حدث أنْ أراد رسول الله ﷺ أنْ يُطلِّق حفصة ، فجاء جبريل فقال : لا تُطلقها فإنها صوَّامة قوَّامة وإنها زوجتك فى الجنة[١] .

حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلَغَه هذا ، فوضع التراب على رأسه ، فقال : ما يعبأ اللهُ بك يا ابْنَ الخطاب بعدها ، فنزل جبريل على النبى ﷺ فقال: إنَّ الله يأمرك أنْ تُراجع حفصة رحمةً لعمر .

وعمر بن الخطاب يروى لنا هذا الموقف فيقول : لما اعتزل رسول الله نساءه دخلتُ المسجد ، فإذا الناسُ ينكتون بالحصى ويقولون : طلَّق رسولُ الله نساءه، وذلك قبل أنْ يُؤمر بالحجاب .

فدخلتُ على عائشة فقلت : يابنت أبى بكر ، أقد بلغ من شأنك أنْ تُؤذى رسول الله ؟ قالت : مالى ولكَ ياابن الخطاب .

فدخلتُ على حفصة ، فقلت لها : يا حفصة أقد بلغ من شأنك أنْ تُؤذى رسول الله ؟ والله لقد علمتُ أن رسول الله لا يحبك ، ولولا أنا لطلّقك رسول الله ، فبكتْ أشد البكاء .

فقلتُ لها : أين رسول الله ؟ قالت : هو فى خزانته فى المشْرُبة[٢] . فدخلتُ فإذا أنا برباح مولى رسول الله قاعداً على أسكفة[٣] المشربة مُدلياً رجله على نقير من خشب وهو جذْع يرقى عليه رسول الله وينحدر .

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٤٠١) والطبراني في المعجم الكبير (١٨٨٢٧) وأبو بكر الشيباني في (الآحاد والمثاني) (٣٠٥٢) وأبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة (٦٧٧٠) وكذا في حلية الأولياء (٢/ ٥٠) من حديث عمار بن ياسر .

(٢) المشربة : الغرفة . قال ابن منظور في لسان العرب : قيل للغرفة المشربة لأنهم كانوا يشربون فيها وهي مشاربهم . (مادة شرب) . والخزانة : المخدع ، والمخدع هو البيت الصغير الذي يكون داخل البيت الكبير .

(٣) أسكفة الباب : عتبة الباب فالأسكفة العتبة للباب وللغرفة وهي هنا أسكفة المشربة أي عتبة الغرفة . وقال النضر : أسكفة الباب عتبتها التي تُوطأ .

فاستأذن عمر على رسول الله ثلاث مرات ، وفى الآخرة قال عمر : يا رباح استئذنْ لى عندك على رسول الله بضرب عنقها لأضربنَّ عنقها ، ورفعتُ صوتى فأومأ إليَّ بيده أنْ أرقِهْ ، فدخلتُ على رسول الله وهو مضطجع على حصير ودخلتُ عليه حين دخلتُ ، وأنا أرى فى وجهه الغضب فقلت :

يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء ، فإنْ كنتَ طلقتهنَّ فإن الله تعالى معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك .

وقلَّما تكلمت وأحمد الله بكلام إلا رجوتُ أنْ يكون الله يُصدِّق قولى الذى أقوله، ونزلت هذه الآية : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم] ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم] وكانت عائشة بنت أبى بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبى ، فقلتُ : يارسول الله أطلقتهن ؟ قال : لا . قلت :

يا رسول الله إنِّى دخلتُ المسجد والمؤمنون ينكتون الحصى ويقولون : طلَّق رسولُ الله نساءه ، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تُطلقهنَّ . قال : نعم إنْ شئتَ . ثم لم أزلْ أُحدِّثه حتى تحسَّر الغضب عن وجهه وحتى كشَّر وضحك ، وكان من أحسن الناس ثَغْراً(١).

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا .. (٥) ﴾ [التحريم] ، وإذا كانت الصفات الستّ السابقة تتعلّق بصفاتٍ تخصُّ الإسلام والإيمان والقنوت والتوبة والعبادة والسياحة ، سواء كانت للاعتبار أو الاستثمار أو كانت الصيام ، فإنها كلّها صفاتٌ معنوية .

والله سبحانه يخاطب فى الآية نساءً منهن نساء تشتدّ عندهن الغيرة على

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٧٦٤) وابن حبان في صحيحه (٤١٨٨) والبزار في مسنده (١٩٥) وأبو يعلى في مسنده (١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه . والثغر : ما تقدم من الأسنان [الصحاح في اللغة] والثغر : الفم . وقيل : هو اسم للأسنان كلها ما دامت في منابتها . [المحكم لابن سيده] .

رسول الله ، إنه سبحانه يريد أنْ يقضى على هذه الغيرة ، فإنْ كان منكنَّ ثيِّبات وأبكار ، فإن الله قادر على أنْ يُبدِّلكُنَّ ويأتى لرسول الله بنساء أخريات ثيِّبات، وليس ثيبات فقط بل وأبكاراً أيضاً .

والثيِّبات جمع ثيِّب ، وهى المرأة التى سبق لها الزواج سواء كانت مطلّقةً أو أرملة ، وسُمِّيت ثيِّباً لأنها تثوب إلى زوجها أى ترجع إليه أو تثوب وترجع إلى غيره إنْ فارقها بالطلاق أو بالموت ، حينها تثوب وترجع إلى بيت أبويْها .

أما الأبكار فهى جمع بِكْر التى بقيتْ على عُذريتها ، وهاتان الصفتان الثيبات والأبكار لا تجتمعان فى امرأة واحدة ، لذلك استخدم الحق سبحانه (الواو) بينهما ، فقال تعالى : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا .. (٥) ﴾ [التحريم]

أما الصفات الستّ الأولى فقد تجتمع فى إنسان واحد رجلاً كان أو امرأة ، لذلك لم يستخدم الحق سبحانه (الواو) ، فقد تجد امرأة مسلمة مؤمنة قانتة تائبة عابدة سائحة صائمة فى وقت واحد .

والآية تحتمل أنها تشير إلى عائشة رضى الله عنها وحفصة رضى الله عنها، فالله يقول : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا .. (٥) ﴾ [التحريم] ، وقد كانت حفصة ثيباً عندما تزوجها رسول الله .

أما عائشة فكانت بكْراً حينما تزوجها رسول الله ، بل إنها كانت رضى الله عنها تفتخر بهذا من بين النساء اللاتى تزوجهن رسول الله ، حتى أنها سألتْ رسول الله يوماً ، فقالت :

يارسول الله ، أرأيتَ لو نزلتَ وادياً وفيه شجرةٌ قد أُكل منها ، ووجدتَ شجراً لم يُؤكل منها ، فى أيِّها كنتَ تُرتع بعيرك . قال : فى الذى لم يُرتع منها[1] ، تعنى أن رسول الله لم يتزوج بكْراً غيرها .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٧٧) وابن حبان في صحيحه (٤٣٣١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

وقد يقول قائل : وإنْ كان رسول الله يميل إلى أنْ يُرتع بعيره فى الشجرة التى يُرتع فيها ، فما الفضيلة فى أنْ يعده الله بـ ﴿ ثَيِّبَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم]

خاصة أنه ﷺ قد قال لجابر بن عبد الله وقدتزوج : هل تزوجتَ بكراً أم ثيباً؟ فقال : تزوجت ثيباً . فقال ﷺ : هلاَّ تزوجتَ بكراً تلاعبها وتلاعبك[1] .

ولكن للثيِّب فى الحياة العملية فوائد ، ذكرها جابر فى سبب تفضيله للثيب على البكْر ، فقال : يا رسول الله تُوفى والدى ولى أخواتٌ صغار ، فكرهتُ أنْ أتزوَّج مثلهن فلا تُؤدِّبهن ولا تقوم عليهنَّ ، فتزوجت ثيباً لتقوم عليهنّ وتُؤدِّبهنّ[2] .

وقد كان لجابر بن عبد الله تسع بنات صغيرات أخوات تركهنَّ له أبوه عبد الله بن حرام[3] ، فأراد أنْ يتزوَّج ثيباً ترعاهن وتقوم على أمورهن .

وهذا المعنى لم يغبْ عن رسول الله ، ولكنه ﷺ أراد أنْ يُسرِّى عن جابر بعد وفاة أبيه .

فقوله تعالى (ثيبات) دليل أنه كان يقصد حفصة رضى الله عنها ، وأنه كما له زوجات ثيِّبات فى الدنيا سنُبدله ثيِّبات أيضاً ، وكذلك أبكاراً ، ولكن ﴿ خَيْرًا مِنْكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم]

ولا شيءَ أشدّ وأقسى على المرأة من الطلاق والعزم على التزوج بزوجة أخرى ، فذلك قاصم لظهر المرأة مُؤرِّق لبالها ، لذلك كان هذا التهديدُ تهديداً غاية فى الشدة .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٩٦٧ – ٥٢٤٧) ، وكذا مسلم في صحيحه (٣٧٠٩) من حديث جابر ابن عبد الله . وفي لفظ مسلم زيادة : « قلت يا رسول الله إن لي أخوات فخشيت أن تدخل بيني وبينهن. قال : فذاك إذاً ، إن المرأة تنكح على دينها ومالها وجمالها فعليك بذات الدين تربت يداك » .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه مطولاً (٢٩٦٧) وكذا مسلم في صحيحه (٤١٨٤) وأبو عوانة في مستخرجه (٣٩٢٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٣) عبد الله بن حرام بن ثعلبة أبو جابر الأنصاري الخزرجي صحابي من أجلائهم كان أحد النقباء الاثنى عشر شهد العقبة مع السبعين من الأنصار وبدراً وقُتِل يوم أحد عام ٣ هجرية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

الحق سبحانه هنا يخاطب الذين آمنوا ، أى : يا أيها الذين آمنتم بالله إلهاً ودخلتم معه فى عقد إيمانى .

فالحق سبحانه ساعةَ يخاطب الناس جميعاً فهو يلفتهم إلى قضية الإيمان، ولكن حين يخاطب المؤمنين فهو يعطيهم أحكام الإيمان ، فالله لا يكلف بحكم إلا مَنْ آمن به ، أما مَنْ لم يؤمن به فلا يُكلفه بأيِّ حكم لأن الإيمانَ التزام ، وما دُمت قد التزمتَ بأنه إلهٌ حكيم فخُذْ منه أحكام دينك .

والمؤمنون يأخذون خطاب الحق لهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٦) ﴾ [التحريم] بمقياس المحبة لكلِّ ما يأتى منه سبحانه من تكليف ، حتى وإنْ كان فيه مشقة ، سواء كان صياماً أو قتالاً فى سبيل الله .

ففى الصيام قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [البقرة]

فالصيام نوعٌ من الإمساك ، وهو فى الإسلام صومٌ عن شهوتَيْ البطن والفَرْج منَ الفجر وحتى الغروب ، إنه إمساكٌ مطلق عن الطعام والشراب ونكاح النساء خلال هذه المدة الزمنية من اليوم لمدة شهر كامل .

ولا شكَّ أن الصيامَ تكليفٌ شاق ، ولكن المؤمن لأنه مؤمن يفرح به وينتظره من العام للعام .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى (١٧٨) ﴾ [البقرة]

فالقصاص قد يكون قاسياً ولكن المؤمنين يتقبّلونه ، لأن فيه صلاحَ المجتمع ورَدْعِ المجرمين ، لذلك قال تعالى فى الآية بعدها : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ [البقرة]

فالمؤمنون بالله يؤمنون أنّ تشريعه دقيقٌ ومحكمٌ يأتى بواجبات وبحقوق، فلا واجبَ بغير حَقٍّ ، ولا حقَّ بغير واجب ، وحتى نعرف سُمو التشريع مطلوبٌ من كلِّ مؤمن أنْ ينظر إلى ما يجب عليه من تكاليفه ويقرنه بما له من حقوق ، ولسوف يكتشف المؤمنُ أنه فى ضوء منهج الله قد نال مطلق العدالة .

وهنا يقول الحقّ سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا .. (٦) ﴾ [التحريم] أى : اعملوا بينكم وبين النارَ وقايةً ، واحترسوا من أنْ تقعوا فيها ، فالوقاية هى الاحتراس والبُعْد عن الشر .

ولا يُطلب منك أنْ تجعل وقايةً بينك وبين شيء إلا إنْ كنتَ لا تتحمل هذا الشيء ، فمعنى : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا .. (٦) ﴾ [التحريم] أى : اجعلوا بينكم وبين النار حاجزاً .

والحق سبحانه هو الذى سوَّى النفس البشرية بعظمته ، ففى الذات الواحدة آمرٌ ومأمورٌ ، فالإنسان يقى نفسه بأنْ يجعل الآمر يُوجِّه الأمر للمأمور ، ويجعل المأمور يطيع الآمر .

فأنت مطلوبٌ منك أنْ تقى نفسك مواردَ الهلاك فتأمرها وتنهاها ، ومثال هذا قوله تعالى عن قابيل : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ .. (٣٠) ﴾ [المائدة]

وهذا معناه أنَّ جزءاً من الذات هو الذى طوَّع بقية ذات قابيل لتقتل هابيل، فقد خلق الله النفسَ البشرية كملكات متعددة ، ملكة تحب الأريحية وأخرى تحب الشّح ، والملَكة التى تحب الأريحية إنما تطلب ثناء الناس ، والتى تحب

الشح إنما تفعل ذلك ليطمئنَ صاحبُها أنه يملك ما يُغنيه .

وكلتا الملكتين تتصارعان فى النفس الواحدة ، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ .. (٦) ﴾ [التحريم] ، فالنفس تقى النفس ، لأن الملكات فيها متعددة.

فبعضُ الملكات تحبُّ تحقيق المتعة والشهوة ، لكن هناك مَلَكة إيمانية تقول: تذكَّر أنَّ هذه الشهوات عاجلة ولكنها عظيمةُ المتاعب فيما بعد ، إذن : فهناك صراعٌ داخل ملكَات الإنسان .

فالنفس البشرية لها ألوانٌ ، فهناك النفسُ اللوامة تصنع شراً مرة فيأتى من داخل النفس ما يستنكر هذا الشر فتعود إلى الخير .

والحق سبحانه وتعالى ساعة ينزل منهجه يجعل فى كلِّ نفس خلية إيمانية، والخلية الإيمانية تستيقظ مرة فتلتزم ، وتغفل مرة ، فتنحرف ، ثم يأتى الاستيقاظ بعد الانحراف فيكون الانتباه .

وهكذا توجد النفس اللوامة ، تلك النفس التى تهمس للإنسان عند الفعل الخاطيء ، أن **الله** لم يأمر بذلك ، ويعود الإنسان إلى منهج **الله** تائباً ومستغفراً.

فإنْ لم توجد النفس اللوامة صارت النفسُ أمَّارة بالسوء ، وهى التى تتجه دائماً إلى الانحراف .

وحول النفس الواحدة توجد نفوسٌ متعددة تحاول أنْ تقاوم وتقوّم المعوج، وهى نفوس من البيئة والمجتمع ، فمرَّة يكون الاعتدال والاتجاه إلى الصواب بعد الخطأ قادماً من ذات الإنسان أى من النفس اللوامة ، ومرة لا توجد النفسُ اللوَّامة ، بل توجد النفس الأمّارة بالسوء .

والغفلة عن المنهج إنما تتم على مراحل ، فبعد بلاغ المنهج نجد إنساناً يغفل عن جزئية ما في هذا المنهج ، وتُنبِّهه نفسه وتلومه على تركه لتلك الجزئية ، ونُسمِّى هذا الموقف بصاحب النفس اللوامة .

إنه يفعل السيئة لكن نفسه تعود إلى اليقظة لمنهج **الله** ، لأنه يتمتع بوجود خلية المناعة الإيمانية فيه .

وهناك إنسانٌ آخر يستمريء المخالفة للمنهج وتُلح عليه نفسه بالمخالفة ، إنه صاحبُ النفس الأمَّارة بالسوء ، وتتوالى به دواعى ارتكاب السيئات ، ومثل هذا الإنسان يحتاج إلى غيره من خارج نفسه ليلفته إلى الخير .

وقد جعل **اللهُ** فى النفس الإنسانية نفساً لوَّامة ونفساً تأمر بالسوء ، ونفساً مطمئنة ، إن مهمة النفس اللوامة هى أنْ ترد على كلِّ ما تُوسوس به النفس الأمَّارة بالسوء .

لكن إنْ لم تَلُم النفس اللوامة ، فالنفس الآمرة بالسوء تتمادى ولا يردعها رادعٌ ، أما النفسُ المطمئنة فهى النفس التى تطمئن إلى منهج **الله** .

ولنعلم أن النفسَ البشرية قد فُطرتْ على محبة الخير ، فإنْ لم يحكمها هواها فهى تفعل الخير وتحبه ، فإنْ حكمها هواها ستر عنها الخير وفتح الهوى للنفس أبوابَ الشر .

وقد يطيع الإنسانُ هواه فى أمر من الأمور ثم يفيق فتلومه نفسه على ما فعل ، هذه هى النفس اللوَّامة التى تلوم صاحبها على الشر وتدفعه إلى الخير .

وإذا وُجدت النفس المطمئنة والنفس اللوامة ، فاعلم أنَّ المجتمع بخير لأن النفسَ المطمئنة تطيع وتأمر بالطاعة ، والنفس اللوَّامة تلوم صاحبها على الشر .

ولكلِّ مؤمن نقطة ضعف ، فإذا ضعف مؤمن يُسرع له أخوه المؤمن ليلومه

على ضعفه ويُصحِّح له مساره .

وإذا كان الإنسانُ مسئولاً عن نفسه ليقى نفسه النار ، فإنَّ الإنسانَ مسئولٌ أيضاً عن أهله ، والأهل هنا تعنى أهلَ بيته من زوجة وأولاد .

وقد سُئِل رسولُ **الله** ﷺ : كيف نقى أهلنا ناراً ؟ قال : « تأمرونهم بما يحبه **الله** ، وتنهونهم عمّا يكره **الله** »[1].

أى : علِّموا أنفسكم وأهليكم الخير ، فعلِّموا بعضكم بعضاً ما تقُون به مَنْ تُعلِّمونه النار وتدفعونها عنه إذا عمل به من طاعة **الله** واعملوا بطاعة **الله** .

ورسول **الله** ﷺ يقول : « ابدأ بنفسك ثم بمَنْ تعول »[2]فالإنسان يبدأ بنفسه أولاً، ثم إلى القرابة القريبة ، ثم القرابة البعيدة ، ثم على الأباعد .

والإنسانُ مسئولٌ عن أهل بيته ورَاع لهم ، وقد قال رسول **الله** ﷺ : « كلكم راعٍ ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته » .

وأصل المادة مأخوذةٌ من راعى الأغنام ، لأن راعى الغنم لا بدّ أنْ يتجه بها إلى الأماكن التى فيها العُشب والماء ، أى إلى أماكن الرعى ، وأنْ يكون حارساً عليها حتى لا تشردَ واحدةٌ أو تضلّ فتفتك بها ذئاب الصحارى ، وأنْ يُوفِّر لها الراحة حتى لا تتعب وتَنْفَق فى الطريق .

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٤/٥٨٨) وعزاه لابن مردويه عن زيد بن أسلم مرسلاً . وقال علي ابن أبي طالب : علِّموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدِّبوهم . أخرجه عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وغيرهم .

(٢) هذان حديثان : الأول : عن جابر بن عبد **الله** أن رسول **الله** قال : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك ، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا » . [مسلم في صحيحه ٢٣٦٠] .

أما الحديث الثاني : عن أبي هريرة عن النبي قال : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنىً وابدأ بمن تعول » . [البخاري في صحيحه ١٤٢٦] .

فالرجل عليه مسئولية نحو أهل بيته ، فـ « الرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلهم راعٍ وكلهم مسئول عن رعيته »[١].

وقد أعطانا الله مثلاً من أنبيائه وقيامه على أهل بيته ، قال تعالى : ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)﴾ [مريم] فقد كان من خصال إسماعيل عليه السلام العظيمة أنه كان يأمر أهله أى زوجته وأولاده بالصلاة والصدقة .

والحق سبحانه لا يهتم بخصلة ولا يذكرها إلا إنْ كانت كبيرة عنده تساوى كوْن إسماعيل صادقَ الوعد وكوْنه رسولاً ونبياً ، فمَنْ أراد أنْ يتصف بصفة من صفات النبوة فعليه أنْ يأمر أهله بالصلاة والزكاة .

لكن لماذا اختصَّ أهله بالذات ؟ اختصَّ أهله لأنهم البيئة المباشرة التى إنْ صلُحت للرجل صَلُح له بيته وصَلُحت له ذريته ، فالرجل إذا كان يلفت أهله إلى ذِكْر الله والصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة فإنه بذلك يسدُّ الطريق على الشيطان ، فليس للشيطان مجالٌ فى بيت يصلى أهلُه الخمسَ صلوات .

لذلك فالنبى ﷺ يقول : « رحم اللهُ امرءاً استيقظ من الليل فصلّى ركعتين ثم أيقظ أهله ، فإنِ امتنعت نضح فى وجهها الماء ، ورحم اللهُ امرأةً قامت من الليل فصلَّت ركعتين ، ثم أيقظتْ زوجها فإنِ امتنع نضحتْ فى وجهه الماء »[٢].

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢٨) والبخارى فى صحيحه (٧١٣٨) عن ابن عمر أن رسول الله قال : « ألا كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهلَ بيت زوجها وولده وهى مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته » .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (١٣١٠ ، ١٤٥٢) ، والنسائى فى سننه (١٦١٠) وأحمد فى مسنده (٧٤٠٤، ٩٦٢٥) ، والبزار فى مسنده (٨٥٠٢) والنسائى فى سننه (١٣٠٢) والحاكم فى مستدركه (١١٦٤) وصححه على شرط مسلم . كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فكلُّ رجل وكلُّ امرأة يستطيع في كلِّ ليلة أنْ يكون رسولاً لأهله ولبيئته يقوم فيها بمهمة الرسول .

ويقول الحق سبحانه في موضع آخر : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢)﴾ [طه]

وقد شرح لنا النبيُّ ﷺ هذه القضية ، فقال : « مُروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر »[١].

وهذا التكليف وإنْ كان في ظاهره من الأهل لأولادهم ، إلا أنه في حقيقته من الله تعالى فهو الآمرُ للجميع ، ولكن أراد الحقّ سبحانه أنْ يكون التكليفُ الأول في هذه السنِّ من القريب المباشر المُحسّ أمام الطفل .

فأبوه هو صاحبُ النعمة المُحسَّة حيث يُوفِّر لولده الطعام والشراب وكلّ متطلبات حياته ، فإذا ما كلَّفه أبوه كان أدعى إلى الانصياع والطاعة لأن الولد في هذه السنِّ المبكرة لا تتسع مداركه لمعرفة المنعم الحقيقي . وهو الله تعالى .

لذلك أمر الأب أن يُعوِّد ولده على تحمُّل التكليف ، وأنْ يعاقبه إن قصَّر ، لأن الآمر بالفعل هو الذي يعاقب على الإهمال فيه ، حتى إذا بلغ الولدُ سِنَّ التكليفِ الحقيقي من المنعم الأعلى سبحانه كان عند الولد أُنْسٌ بالتكليف وتعوّد عليه، وبذلك يأتي التكليف الإلهي خفيفاً على النفس مألوفاً عندها .

ولاحظ أنَّ الحق سبحانه يقول : ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢)﴾ [طه] فالمسألة هنا لا تقتصر على مجرد الأمر وتنتهي مسئولية الأب أو الأم عند هذا الحد ، إنما ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢)﴾ [طه] ، وفرْقٌ بين اصبر واصطبر .

اصبر الفعل العادي ، أما اصطبر ففيها مبالغة أي تكلَّف حتى الصبر وتعمده ، ومن

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرِّقوا بينهم في المضاجع » . أخرجه أحمد في مسنده (٦٧٥٦) . وحسَّن شعيب الأرناؤوط سنده . وأخرجه أبو داود في سننه (٤٩٥) ولفظه : « وهم أبناء سبع سنين .. وهم أبناء عشر سنين » .

ذلك أنْ تحرص على أداء الصلاة أمام أولادك لترسخ فى أذهانهم أهمية الصلاة .

فمثلاً عندما تدخل بيتك فتجد الطعام قد حضر ، فتقول لأولادك : انتظرونى دقائق حتى أصلى ، هنا يلتفت الأولاد إلى أنَّ الصلاة أهمّ حتى من الطعام وتغرس فى نفوسهم مهابة التكليف واحترام فريضة الصلاة والحرص على تقديمها على أيِّ عمل مهما كان .

وكان سيدنا عمر رضى الله عنه يقوم من الليل يصلى ما شاء الله له أنْ يصلّى حتى يُؤذَّن للفجر ، فيُوقظ أهله للصلاة فإنْ أبَوْا رشّ فى وجوههم الماء .

وعليك أنْ تعوِّد أولادك احترامَ نداء الله أكبر ، فبمجرد أنْ يسمعوا الله أكبر يُلبُّون النداء ، ولا يُقدمون عليه شيئاً آخر ، فالله لا يبارك فى عمل ألهاك عن نداء (الله أكبر) .

إذن : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ .. (٦) ﴾ [التحريم] من أى شيء سنقى أنفسنا ونقى أهلينا ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٦) ﴾ [التحريم]

ويقول تعالى فى آية أخرى ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤) ﴾ [البقرة] ، فالناس والحجارة سيكونان بمثابة الوقود الذى يشعل النار بل يزيدها اشتعالاً ، وسيكونان بمثابة حطب جهنم .

ويقول تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ [1] جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) ﴾ [الأنبياء]

فـ ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] هو كل ما تُوقد به النار أياً كان خشباً أو قشاً أو بترولاً أو كهرباء ، فما بالك لو كان حطب جهنم هو من الناس أنفسهم ممَّنْ كفروا بالله .

والنار تشتاق إلى الكفار وتنتظرهم وتتلهف عليهم كما يقول تعالى : ﴿يَوْمَ

(١) حصب جهنم : كل ما يُرمى به فيها . قال ابن قتيبة : الحصب ما أُلقى فيها وأصله من الحصباء وهو الحصى ، يقال : حصبت فلاناً إذا رميته . [زاد المسير لابن الجوزى ٤/٣٦١] .

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق] ، ويقول تعالى : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧)﴾ [الملك]

فالكافرون سيُلقى بهم فى النار فتزداد اشتعالاً فيكون لها صوتٌ عظيم ، ولها شهيقٌ يخطف القلوب وكأنها (تشفط) ما يُلقى فيها وهى تفور .

وقد رُوى أنه لما نزلتْ هذه الآية ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٦)﴾ [التحريم] قرأها النبى ﷺ فسمعها شاب إلى جنبه فصُعِق ، فجعل رسولُ الله رأسه فى حِجْره رحمةً له ، فمكث ما شاء الله أنْ يمكث ، ثم فتح عينيه فإذا رأسُه فى حِجْر رسول الله فقال :

بأبى أنت وأمى مثل أيّ شيء الحجر ؟ فقال : أما يكفيك ما أصابك على أن الحجر منها لو وُضع على جبال الدنيا لذابتْ منه[1].

هذه النار يقف على أمرها ملائكة وهم خَزَنة جهنم ، وهم ﴿غِلاظٌ شِدَادٌ .. (٦)﴾ [التحريم]

والغِلاظ جمع غليظ وهو القويّ البنْية عظيمها ، ما بين منكبى أحدهم مسيرة عام[2] ، وهم أيضاً غلاظُ القوْل على الكافرين ، فهم غِلاظ على أهل النار شداد عليهم .

فهم غِلاظُ القلوب لا يرحمون إذا استرحمهم الكافرون ، فطباعهم غليظةٌ قد نزعتْ من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ، فهم جُفاة قُساة شداد الأيدى إذا بطشوا .

قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله رغم أنهم ملائكة ، يقول الحق

---

(١) أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب ، وضعَّفه الألبانى فى ضعيف الترغيب (٢١٥٢) وهو عن محمد بن هاشم ، وتمامه : وإن مع كل إنسان منهم حجراً وشيطاناً . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٥٨٩/١٤) وعزاه لابن أبى الدنيا وابن قدامة فى كتاب البكاء والرقة .

(٢) قال ابن عباس : خزنة النار تسعة عشر ، ما بين منكبى أحدهم مسيرة سنة . [زاد المسير لابن الجوزى ٤٨/٦] .

سبحانه : ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا.. (٣١)﴾ [المدثر]

وهم تسعة عشر كما قال تعالى ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾ [المدثر] وهم غلاظ شداد فى ردودهم على كلام أهل النار لهم ، وقد قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩)﴾ [غافر]

فردُّوا عليهم رداً موئساً لهم ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)﴾ [غافر]

بل إنهم يطلبون القضاء عليهم ليستريحوا من العذاب ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧)﴾ [الزخرف]

ورُوى عن رسول الله أن الله حينما يُدخل أهلَ الجنة الجنةَ ، ويُدخل أهلَ النارِ النارَ يأتى بالموت على هيئة كبش فيقول للمؤمنين : أتعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هو الموت جاءنا وعرفناه . ويقول للكفار : أتعرفون هذا ؟ يقولون : عرفناه فيميت الله الموت . ويقول لأهل الجنة : خلود بلا موت . ولأهل النار : خلود بلا موت[1].

فأهلُ النار يتمنون الموت لأن الموتَ سيُريحهم من العذاب ، وفرْق بين عذاب وموت ، فالموتُ إنهاءٌ للحياة ، وليس بعد الموت إيلام، أما العذاب فلا ينشأ إلا مع الحياة لأنه إيلامُ حَيٍّ .

ولك أنْ تتصوَّر بشاعة العذاب الذى يجعل صاحبه يتمنى الموت ويدعو به لنفسه، يقول تعالى : ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ[2] دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣)

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٣٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣٦٠) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) ضيقاً مقرنين : قال المفسرون : تضيق عليهم كما يضيق الزج على الرمح ، وهم قد قُرنوا مع الشياطين. [زاد المسير ٤/٦٦٤] . قال البغوى (٦/٧٥) (مقرنين) : مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : مقرنين مع الشياطين فى السلاسل .

لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤)﴾ [الفرقان]

وهذا على حدِّ قوْل الشاعر(١):

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الموْتَ شَافِياً ... وَحَسْبُ المنَايَا أَنْ يكُنَّ أَمَانِيَا(٢)

ويصف الحق سبحانه الملائكة عموماً وخزنة جهنم خاصة أنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

فالملائكة طبيعة خِلْقتهم أنهم لا يعصُونَ الله أمراً ويفعلُون ما يأمرهم به، ولا يحيدون عن أمره أبداً، فلا تظنُّوا أنَّ خازناً من خُزَّان جهنم سيميل مع أهوائكم ويُخرجكم من النار مثلاً، لا؛ إنهم مجبولون على تنفيذ أوامر الله ومفطورون على عدم معصية الله .

لذلك جعل اللهُ خزنةَ جهنم من الملائكة، وهم من نور ولا تصيبهم الأغيار ولا شهوةَ لهم، فلا يتناكحون ولا يتناسلون، وهم أقرب إلى الصفاء، فهم خَلْق جُبِلُوا على طاعة الله .

ويصفهم الحق سبحانه فيقول: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)﴾ [النحل]، ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)﴾ [الأنبياء]

فهم ليسوا أمثالكم يكذبون ويكفرون، بل هم فى عبادة دائمة لا تنقطع ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)﴾ [الأنبياء] لا يضعفون ولا يكلُّون ولايتعبون ولا يملُّون من طاعة الله .

---

(١) هو: المتنبى . أحمد بن الحسين أبو الطيب . ولد ٣٠٣ هجرية - شاعر حكيم وأحد مفاخر الأدب العربي، ولد بالكوفة فى محلة تسمى (كندة)، نشأ بالشام، قال الشعر صبياً، ادعى النبوة فى بادية السماوة فتبعه كثيرون أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب . ورجع عن دعواه . قتل بالنعمانية عام ٣٥٤ هـ . [الأعلام للزركلى ١/ ١١٥] .

(٢) البيت من قصيدة لأبى الطيب المتنبى من بحر الطويل .

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا.. (٧) ﴾ [غافر]

وهم لا يُسبِّحون الله ويعبدونه عن خوْفٍ ورهبة ، بل تسبيحهم عن حبٍّ وعن إيمان ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ.. (٧) ﴾ [غافر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

نأتي في النداء بحرف الإقبال وهو (يا) ونُدخله على المنادى ، أي أنك تطلب إقباله ، فهل نطلب إقباله لمجرد الإقبال أو لشيء آخر ؟

والنداء في القرآن أنواعٌ كثيرة بحسْب المنادَى ، فهناك نداءٌ للذين آمنوا في آيات كثيرة عديدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [الصف]

ويقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) ﴾ [الأنفال]

وهناك نداءٌ للأنبياء والرسُل ، ونداءٌ لأهل الكتاب ، وليس هناك نداءٌ للذين كفروا إلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [التحريم]

وإنْ كان الحقُّ سبحانه قد نادى الذين كفروا ضمن ندائه للناس وطالبهم

بالإيمان بالله ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) ﴾ [الحج]

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ .. (٣٣) ﴾ [لقمان]

فالله يخاطب الناسَ كلَّ الناس ، مؤمنهم وكافرهم ، أما قوله سبحانه ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ .. (٧) ﴾ [التحريم] فإنه سبحانه لم يخاطبهم إلا وهم فى النار يلقوْنَ العذاب أصنافاً.

والذين كفروا كانوا يتعلَّقون بأمل كاذب فى أن النعيم فى الدنيا فقط ، ولكن الحقيقة غير ذلك وسوف يعلمون وها هم يُعاينونها ، لذلك قال تعالى :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [الحجر]

والذين كفروا صنفان ، صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكَّم عقله وعرف الحق فآمن ، والصنف الآخر مستفيد من الكفر ، ولذلك فهو متشبِّث به مهما جاءه من الإيمان والأدلة الإيمانية فإنه يعاند ويكفر.

إنهم لم يكفروا لأنَّ بلاغاً عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم، ولم يكفروا لأنهم فى حاجة إلى أنْ يلفتهم رسول أو نبى إلى منهج الله ؛ هؤلاء اتخذوا الكفر صناعةً ومنهجَ حياةٍ ، فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادةً ولأنهم متميزون عن غيرهم بالباطل .

والكفر هو محاولة سَتْر وجود الله واجب الوجود ، ومحاولة ستر هذا الوجود هو إعلانٌ بأن الله تعالى موجود فأنت لا تحاول أنْ تسترَ شيئاً إلا إذا كان له وجودٌ أولاً .

فسَتْر وجود الله سبحانه هو إثباتٌ لوجوده ،وهكذا يكون الكفر مُثبتاً للإيمان ، وأشدّ الكافرين جُرْماً مَنْ يكفر بعد إيمانه ، فيقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) ﴾ [آل عمران]

والذى يزداد كفراً هو الذى قد كفر فى ذاته وكان عائقاً لغيره عن أنْ يؤمن وهو لا يكتفى بخيبته ، بل يحاول أنْ ينشر خيبته على الآخرين ، وفى ذلك ازديادٌ فى الكفر والعياذ بالله .

بل إنه سبحانه لن يقبلَ من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو أراد الافتداءَ به ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) ﴾ [آل عمران]

فيُقال لهم : ﴿ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾ [آل عمران] فهم آمنوا أولاً ثم طرأ كفرهم على الإيمان ، وماتوا على ذلك الكفر .

هؤلاء تسْودّ وجوههم يوم القيامة ، وإنْ كانوا فى الدنيا سيكونون سادةً يتقلَّبون ويرتعون فى الدنيا ، وقد قال الحق سبحانه لرسوله وأمته تبع له : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ[1] الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) ﴾ [آل عمران]

فالكافرون يأخذون الحياة العاجلة المنتهية ، أما المؤمنون فيأخذون الآجلة التى لا تنتهى ، وينسى الكافرون أن الدنيا : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) ﴾ [آل عمران]

ولذلك يُقال لهم يوم القيامة ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ .. (٧) ﴾ [التحريم] فالأمر قد انتهى ومهلتكم انتهت فى الدنيا ، وفُرصتكم قد أضعتموها بأنفسكم ، فأعذاركم غير مقبولة .

---

(١) تقلب الذين كفروا : فيه ثلاثة أقوال :
- تصرفهم فى التجارات . قاله ابن عباس .
- تقلب ليلهم ونهارهم وما يجرى عليهم من النعم . قاله عكرمة ومقاتل .
- تقلبهم غير مأخوذين بذنوبهم . ذكره بعض المفسرين . [زاد المسير لابن الجوزى ١/ ٤٨٠]

فعذركم لا ينفع ، فقد ذهب وقتُ الاعتذار فلم يبْقَ إلا الجزاء على الأعمال ، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائه .

وهم يُقدِّمون أعذاراً كثيرة فى الآخرة ، فقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا[1] فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾ [الأعراف]

وعذركم غير مقبول ، بل كلكم جميعاً فى النار ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ .. (٣٨) ﴾ [الأعراف] الذين قلَّدوا غيرهم فى الضلال كثروا عدد الداعين إلى الضلال وتقوَّتْ بهم شوكتهم ، وأغريتم الناسَ باتباعهم .

ومما اعتذروا به أنَّ الذين استُضْعفوا استَنْكروا ممن استكبروا من الكافرين أن ضلالهم كان بسبب مكر الليل والنهار الذى مارسه عليهم مَن استكبر ، ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) ﴾ [سبأ]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ [سبأ]

فكلٌّ يُلقى بالمسئولية على الآخر ، فلما اتهمهم المستكبرون بالإجرام وأنهم انساقوا خلفهم طمعاً فى دنيا ردَّ المستضعفون ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٣٣) ﴾ [سبأ] فقد قضيتم الليل والنهار تُلحون علينا وتلعبون فى آذاننا حتى اتبعناكم.

أعذار وراء أعذار ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا

---

(١) اداركوا فيها : تداركوا . والتدارك : التلاحق والتتابع والاجتماع فى النار . وقرأ ابن مسعود (حتى إذا ادركوا) أى : أدرك بعضهم بعضاً [فتح القدير للشوكانى ٣٤/٣] .

أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) ﴾ [المؤمنون]

فكان ردّ الحق سبحانه عليهم : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ [المؤمنون]

هم يريدون أنْ يبعدوا المسألة عن أنفسهم ويُلْقُوا بها عند الله تعالى ، يقولون : يارَبّ لقد كتبتَ علينا الشقوة من الأزل فلا ذنبَ لنا ، وكيف نسعد نحن أنفسنا ؟ يقولون : لو شاء ربنا ما فعلنا ذلك، فكان ردَّ الحق سبحانه ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ [المؤمنون] أى : اسكتوا سكوتاً بذلّة وهوان، ويكفى ما صنعتموه بالمؤمنين بى .

وهذا يُقال لهم عند إدخالهم النار تأييساً لهم وقطعاً لأطماعهم ، ويقول تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾ [الروم]

فلا يُقبل منهم عذر ، ولا يقف الأمرُ عند عدم قبول العذر إنما ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .. (٥٧) ﴾ [الروم] والعتاب حوارٌ بلطف ودلال بين اثنين فى أمر أغضبَ أحدهما ، ولكن هؤلاء لا يجرؤ حتى أى شفيع أنْ يقول لهم : استعتبوا ربكم واسألوه أنْ يعتبكم أى يزيل العتاب عنكم .

فليس اليومُ يومَ اعتذار ، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل ، وقد عملتم ما تجزوْنَ عليه بهذه النار ، فلا تعتذروا عن ذنوبكم وإجرامكم فلا ينفعكم اليوم الاعتذار ، لأنه قد قدَّم إليكم الإنذار والإعذار .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٧) ﴾ [التحريم] فمصيركم هذا ليس ظلماً لكم ولا افتراء عليكم ، فلا نجامل صاحبَ الحسنة ولا نظلم صاحب السيئة ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ.. (١٧) ﴾ [غافر]

ويقول تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً[١] كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾ [الجاثية]

---

(١) جاثية : أى جالسة على الرُّكب . يقال : قد جثا فلان جثواً : إذا جلس على ركبتيه . [زاد المسير لابن الجوزى ٥/٣٥٦] قال ابن زيد : هذا يوم القيامة جاثية على ركبهم . وقال الضحاك : جاثية على الركب عند الحساب .

فالحق سبحانه لم يظلمهم ، بل إنَّ الحق سبحانه يخاطبهم فيقول : ﴿ **ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** (٥٥) ﴾ [العنكبوت] لم يقُلْ : ذوقوا النار ، إنما ذوقوا ما عملتم كأنَّ العمل نفسه سيكون هو النار التى تحرقهم .

فالإنسانُ لا يُسأل ولا يُجازى إلا ما عملتْ يداه ، فلا يُسأل عن شيءٍ لا دخْلَ له فيه .

والإنسانُ على كلِّ حال مطلوب منه التوبة عما هو عليه ، إنْ كان كافراً فتوبته إيمانه ، وإنْ كان مؤمناً فتوبته إقلاعه عن المعاصى والذنوب وظلم الناس وأكْل حقوقهم .

ولكن الحق سبحانه هنا خصَّ المؤمنين بطلب التوبة إلى **الله** ، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا[1] عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

وقد يسأل سائل : لماذا نادى **الله** الذين كفروا بين نداءين للذين آمنوا ، فقال تعالى ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ..** (٦) ﴾ [التحريم] ، ثم ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** (٧) ﴾ [التحريم]

---

(١) قرأها أهل المدينة بفتح النون (نصوحاً) فجعلوها صفة التوبة ، أى أن يحدِّث نفسه إذا تاب من ذلك الذنب ألاَّ يعود إليه أبداً . [تهذيب اللغة لأبى منصور الأزهرى ت ٣٧٠ هـ] . أما (نُصُوحاً) بضم النون فمعناها راجع إلى صفة التائب نفسه فيكون صادقاً خالصاً فى توبته .

ثـم جاء نداء الذين آمنوا ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا (٨) ﴾ [التحريم]، مَنْ يتأمل هذا يجد أنَّ الله يُشفق على الكافرين من عباده ، فهو سبحانه يضعهم بين المؤمنين ووسطهم ، هو يريدهم مؤمنين فلماذا تشذُّون عن دعوة الإيمان ؟

ثـم إن ما حـذّر الله منه المؤمنين وطلب منهم أنْ يقـوا أنفسهم منه هو النار التى وقودها الناس والحجارة ، فقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ [البقرة]

ولذلـك نـاسب أنْ يقول بعد ذكْر النار وينادى الكافرين ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [التحريم]

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا تُوبُـوا إِلَى اللهِ (٨) ﴾ [التحريم] ، فسبحانـه هـو المنادى ﴿ تُوبُـوا إِلَى اللهِ (٨) ﴾ [التحريم] ورسول الله ﷺ هو القائل : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره قد أضله بأرض فلاة »[1] وإذا قَرُبْتَ من الله هداك.

والتوبـة تقتضى العزم على ألاَّ تُنشئوا ذنوباً جديدة ، وألاَّ تعـودوا إلى ما ارتكبتموه من ذنوب سابقة ، فالحق سبحانه لا يردُّ مَنْ قصد بابه .

واقرأ الحديث القدسى لتعرف رحمة الله بعباده ، يقول الله عز وجل : « ما من يـوم تطلع فيه شمسُه إلاَّ وتنـادى السماء تقول : يا رب ائذن لى أنْ أسقط كسفاً على ابـن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وتقـول البحار : يا رب ائذن لى أنْ أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلَّه فى أرض فلاة »، وهو عند مسلم أيضاً (٢٧٤٧) دون قوله « سقط على بعيره » .

وتقـول الجبال : يـا ربِّ ائذن لى أنْ أُطبِق على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، فيقول الله تعالى : دعوهم لو خلقتموهم لرحمتموهم إنهم عبادى ، فإنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »[1] .

ومـادة (تـاب) تعنى الرجوع إلى الله ، فعندما يتوب العبد فهو يعود إلى ربه طالبـاً المغفرة عن العصيان والذنـب ، وعندما يتوب الله على العبد فذلك يعنى أن الله قَبِل توبته .

فالتوبـة كلهـا رجـوع إلى الله ، ومن لُطْـف الله سبحانه بالإنسـان أنْ شرع التوبـة حتـى يشعر الناسُ بالذنب وجعلها مـن فعل التائب ، ومـن فعل قابل التوبة وهو الله سبحانه ، فقال (توبوا) و (أتوب) .

كلُّ ذلـك حتـى لا يستشعر الإنسان عندمـا يرتكب ذنباً ويتـوب أنها مسألة مستعصية ، إنَّ الحق سبحانه يقول : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَـٰئِكَ أَتُـوبُ عَلَيْهِـمْ وَأَنَـا التَّـوَّابُ الرَّحِيـمُ (١٦٠) ﴾ [البقـرة]

إنه سبحانه يتوب على مَنْ تاب عن الذنب ويتوب عن المذنبين جميعاً ، فهو تعالى (توَّاب) وهـى كلمة تعنى المبالغة فى الصفة .

لقـد شـرع اللهُ سبحانه التوبة ليتوب عبـاده ، فإذا تابوا قَبِـل توبتهم ، وقد شـرع الحقُّ التوبـة للخَلْق ليرحمهم من شرور مَنِ ارتكبـوا المعاصى ، وليرحم أيضـاً أصحاب المعاصى مـا داموا قد تابوا عنها ، وهو سبحانه عظيمُ الرحمة بالعباد التوابين .

ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُـورٌ رَحِيـمٌ (١٥٣) ﴾ [الأعـراف]

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : « كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات» . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد : رواه الطبرانى بأسانيد أحدها رجاله وثقوا .

فقوله ﴿ثُمَّ تَابُوا.. (١٥٣)﴾ [الأعراف] أي: ندموا على ما فعلوا وأصرُّوا وعزموا على ألاَّ يعودوا.

والتوبة هى الرجوع عن أيِّ باطل إلى حق، ومن التائبين التائبون عن الكفر الطاريء على إيمان الفطرة وأخذوا منهج الله الذى آمنوا به، فهم تائبون يأخذون منهج الإيمان من المعبود.

وفتْح باب التوبة أمام العاصين رحمة يرحم اللهُ بها المجتمع كلّه من أصحاب الشهوات والانحرافات، وإلاَّ لو أغلقنا الباب فى وجوههم لشقى بهم المجتمع، حيث سيتمادَوْن فى باطلهم وغيِّهم، فليس أمامهم ما يستقيمون من أجله.

ولا بدَّ أنْ تكون التوبةُ توبةً نصوحاً ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا (٨)﴾ [التحريم]

فالله سبحانه يأمر عباده أنْ يتوبوا إليه توبة نصوحاً أى توبة صادقة خالصة لا رجوع فيها، هذه التوبة تتسم بالإقلاع عن الذنب والندم على ما فات والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى وردِّ المظالم لأصحابها إنْ كانت هناك مظالم.

فالتوبة النصوح هى التوبة التى لا عودةَ بعدها إلى المعصية، لا يرجع فى توبته كالمستهزيء بربه يقول: أفعل كذا ثم أتوب، كلمة ﴿مَتَابًا.. (٧١)﴾ [الفرقان] تعنى العزم ساعة أنْ يتوب ألاَّ يعود.

وللتوبة شروطٌ يجب مراعاتها لتكون توبةً نصوحاً، وهى أنْ تقلع عن الذنب الذى تقع فيه، وأنْ تندم على ما بدر منك، وأنْ تنوى وتعزم عدم العَوْد إليه مرة أخرى.

وليس معنى ذلك أنك إنْ عُدتَ فلن تُقبل منك التوبة فقد تتعرض لظروف

توقعك فى الذنب مرة أخرى .

لكن المراد أنْ تعزم صادقاً عند التوبة عدم العوْد ، فإنْ وقعت فيه مرة أخرى تكون عن غير قصد ودون إصرار ، وإلاَّ لو دبرتَ لهذه المسألة فقلتَ : أذنب ثم أتوب ، فمَنْ يُدريك أن الله تعالى سيمهلك إلى أنْ تتوب ؟ إذن : فبادر بها قبل فوات أوانها .

هذه إذن شروط التوبة إن كانت فى أمر بين العبد وربه ، فإنْ كانت تتعلق بالعباد فلا بُدَّ أنْ يتوفر لها شرط آخر وهو ردُّ المظالم إلى أهلها إنْ كانت تُرد ، أو التبرع بها فى وجوه الخير على أنْ ينوى ثوابها لأصحابها ، إنْ كانت مظالم لا تُردُّ .

﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ (٨) ﴾ [التحريم] ، فسبحانه يكفّر عنكم سيئاتكم صغائرها وكبائرها .

وتكفير السيئات له أسباب كثيرة منها هنا التوبة ، ومنها إخفاء الصدقة وإعطاؤها الفقراء فإنَّ الله يُكفّر عنكم بذلك من سيئاتكم ، يقول تعالى : ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾ [البقرة]

ومنها التقوى ، يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا[1] وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾ [الأنفال]

فالله يستر عنهم السيئات ويغفر لهم ، أى لا يعاقب عليها ويميط العقاب ، ومما يُكفّر السيئات أيضاً اجتناب الكبائر وهى كبائر الذنوب كالقتل والزنا والتولّى يوم الزحف .

يقول تعالى : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ

---

(١) فرقاناً : مخرجاً فى الدنيا والآخرة . وقال عبد الكريم الجزرى : نجاة . قال الطبرى فى تفسيره للآية : يجعل لكم فصلاً وفرقاً بين حقكم وباطل من يبغيكم السوء من أعدائكم المشركين .

مُدْخَلاً كَرِيمًا (٣١) ﴾ [النساء]

لكن هذه المسألة وقف فيها العلماء فقالوا : معنى ذلك أننا سنغرى الناس بفعل السيئات ما داموا قد اجتنبوا الكبائر فقد يفعلون الصغائر .

نقول : لا ، فالإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر ، لذلك لا تُجزْ الصغائر لنفسك ، فالحق يُكفِّر ما فلتَ منك فقط ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) ﴾ [النساء]

فهم يفعلون الأمر السيء بدون ترتيب وتقدير سابق ، والتوبة لا تكون لمن استمرأ الذنوب والمعاصى وفعل السوء ولا يفكر فى التوبة إلا لحظة الغرغرة والاحتضار .

يقول تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ (١٨) ﴾ [النساء]

ولاحظ أن القرآن عبَّر عن صاحب السيئة بوصْف هذه الزلَّة بكلمة « السوء » أما الشارد الموغل فى الشرود عن منهج **الله** ، فوصفه بأنه يفعل السيئات ، وليس سوءاً واحداً بل ارتكبوا السيئات .

فالذى ارتكب سوءاً واحداً فذلك يعنى أنه ضعيفٌ فى ناحية واحدة ويبالغ ويجهتد فى الزوايا والجوانب الأخرى من الطاعات التى لا ضعفَ له فيها ليحاول ستر ضَعْفه ، أما الذى يفعل السيئات فهو ليس صاحبَ نقطة ضعف واحدة لكنه يقترف سيئات متعددة ويُمعن فى الضلال ، ولا يقتصر الأمر على هذا بل يؤَجِّل التوبة إلى لحظة بلوغ الأجل .

﴿ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ (١٨) ﴾ [النساء] وتكفير السيئات على نوعين : أولاً أنْ يسترها عليك فى الدنيا ، أو يُذهب عنك عقوبة الآخرة .

فالذى يتوب توبةً نصُوحاً ويُكفر الله عنه سيئاته هو الرجل يعمل الذنب ثم يتوب أى يقلع عنه ، ولا تُحدِّثه نفسه بعمل الذنب ، ولا يعود فعلاً لعمل الذنوب .

فكأنَّ التوبة النصوح قد طهَّرتْ جارحتَه يداً ورجْلاً وسمعاً وبصراً ، وطهَّرتْ قلبه من إرادة السوء ، وطهَّرت عقله من التفكير فيه .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال فى قوله تعالى : ﴿ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا .. (٨) ﴾ [التحريم] ، قال : هو الرجل يعمل الذنب ثم يتوب ولا يريد أنْ يعمل به ولا يعود[١].

فرحمةُ الله سبحانه تسع كلَّ ذنوب خَلْقه ، وهو سبحانه يغفر الذنوب جميعاً ، وليست كلُّ الذنوب تسقط ، وإنما تسقط الذنوبُ المتعلقة بالله سبحانه وتعالى ، لأن الذنب المتعلِّق بالله أنت لم تظلم الله به ، لكن ظلمتَ نفسك ، ولكن الذنب المتعلِّق بالبشر فيه إساءةٌ لهم أو انتقاص من حقوقهم ، وبالتالى فإنَّ ظلم العباد لا يسقط إلا بردّ حقوق العباد .

والإسلام دين يُقدِّر الواقع البشرى ، فإنه سبحانه يعلم أنَّ العباد سيرتكبون الذنوب فيرسم لهم أيضاً طريق الاستغفار ، وإذا ما ارتكب العبادُ ذنوباً فإنَّ الحق يطلب منهم أنْ يتوبوا عنها .

الذنب الأكبر الذى لا يغفره الله هو الشرك به سبحانه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا

---

(١) أورده الفخر الرازى فى تفسيره (٣/٤٦٩) وعزاه لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنه هو الرجل يعمل الذنب ثم يتوب ولا يريد أن يعمل به ولا يعود . وقال ابن مسعود : هو أن يهجر الذنب ويعزم على أن لا يعود إليه أبداً .

يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾ [النساء]

فمَنْ أشرك بالله ولم يتُبْ من شركه ومات وهو مقيم على شركه لم يغفر له وأدخله ناراً وقودها الناس والحجارة ، فهؤلاء يُقال لهم : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧)﴾ [التحريم]

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ[1] لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)﴾ [التحريم]

الجنات متنوعة ، فهناك جنات الفردوس وجنات عدن وجنات نعيم ، وهناك دار الخلد ودار السلام وجنة المأوى ، وهناك علّيون الذى هو أعلى وأفضل الجنات ، وأعلى ما فيها التمتُّع برؤية الحق تبارك وتعالى ، وهو نعيم يعلو كثيراً عن أيِّ نعيم فى الطعام والشراب فى الدنيا .

والجنات جاهزة لا تتطلب من المؤمن حركة أو تعباً ، تجرى من تحتها الأنهار وفيها للإنسان المؤمن ما وعده الله به ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ (١٥)﴾ [آل عمران] إنه الخلود الذى لا يفنى ولا يترك الإنسان ، ولا يترك هو الإنسان .

والجنة مخلوقة لله باقية بإبقاء الله لها ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ[2] وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾ [التوبة]

---

(١) قال الطبرى فى تفسيره : يسألون ربهم أن يبقى لهم نورهم فلا يطفئه حتى يجوزوا الصراط . قال الزجاج فى معانى القرآن وإعرابه (٥/ ١٢٤) : أى بلّغنا به إلى جنتك . قال ابن عباس : ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نوراً يوم القيامة فأما المنافق فيُطفأ نوره ، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهم يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا . [زاد المسير لابن الجوزى ٤/ ٣١١] .

(٢) المعدن : مكان كل شيء أصله ومبتدؤه ومنه جنات عدن . عدن بالمكان : أقام أى جنات إقامة وخلود.

فهنـاك جنات والجنـات مساكن لأن الإنسـان يحب فى بعض الأوقات أنْ يجلس بمفرده وحوله المتعة التى تخصُّـه ، وفى أحيان أخرى يحب أنْ يجلس مـع الناس فى مكان جميل مثلما يحدث فى الأعياد والمناسبات عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين ونجلس معاً .

فكأنَّ الجنات هى للرفاهية الزائدة عندما تحب أنْ تجتمع مع الناس ، أتمتع بهـا أنا وأنت وغيرنا ، أما المساكن فهـى للخصوصية فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله .

إذن : فالجنـات صورة مـن البساتين ، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب بل هى من صناعة المسبِّب جلَّ وعلا .

ونحـن حينمـا نذهب إلى بيت إنسـان ثريٍّ قد نجد أن للبيت حديقة يشرف عليهـا بستانيّ متمكِّن من عمله ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك .

ويكـون إعجابنا فى هذه الحالة بالحديقـة إعجاباً كبيراً بحيث نجلس فيها ونكـره أنْ نغادرهـا ، فـإذا كان هذا هو مـا يحدث بقدرات البشر فكيف بهذه الحقائـق التـى صُنعـت بقدرة الله سبحانـه ؟ وكيف يكـون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها ؟

إنَّ الـذى وعدنا بهذه الجنات هو الحـق سبحانه ، وهو قادر على أنْ ينفذ ما وعدنـا بـه من جنات فيها من الكماليـات والرفاهية ممَّا لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .

وجعل سبحانه هذه الجنات واسعة شاسعة فيها زروع وأزهار وأشكال تسرُّ العين بجمالها وتمتع اللمس بنعومتها وتملأ الأنوف بروائحها الزكية .

ومـن ميـزات جمالهـا أن الأنهار تجرى مـن خلالها ، ولكنهـا لا تجرى من فوقها بل تجرى من تحتها ومنابعها من مكان آخر أو تحتها ومنابعها ذاتية ، أى تنبع من نفس المكان .

وكأنَّ كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به ، وإذا أردتَ أنْ تعرف جمال هذه الأنهار فهو جمال قد صنعه الحقُّ سبحانه .

وإذا كنَّا في حياتنا نرى أنَّ لكل نهر شاطئين فإن أنهار الجنة تجرى من غير شواطىء ، وتجد الأنهار قد تشترك فى المجرى نهر اللبن ونهر العسل ونهر الماء ونهر الخمر ، وكلها تجرى فى مجرى واحد ولكنها لا تختلط ببعضها البعض ، فكل منها منفصل لأن الحق سبحانه هو الصانع وتبارك مَنْ صنع .

فالجنات هى الحدائق وفيها مساكن ، ونحن فى حياتنا الدنيا نجد الفيلات فى وسط الحدائق ، فما بالنا بما يعد به الله من طيب المساكن وسط الجنات ؟

والجنة فى أصل اللغة هى الستر ، ومنها الجنون أى ستر العقل ، والجنة تستر مَنْ فيها بما فيها من أشجار كثيرة بحيث مَنْ يمشى فيها لا يظهر لأن أشجارها تستره ، أو أن مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد ، لأن كلَّ خير فيها لا يُلجئه أنْ يخرج منها .

وهى جنات عدن أى جنات إقامة دائمة ، لأن فيها كلَّ ما يحتاجه الإنسان فلا حاجةَ له إلى غيرها ، أما الجنة فهى جنة عدن تحب أنْ تقيم فيها إقامةً دائمة .

ويصف الحق سبحانه هذه الجنات ، فيقول : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ (٣١) ﴾ [النحل] ، وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ (١٠٠) ﴾ [التوبة] ومعنى ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا (١٠٠) ﴾ [التوبة] أى أنها تجرى تحتها وربما تأتى من مكان آخر .

وقد يقول هنا قائل : يمكن أنْ يُمنع عنك جريانُ هذه الأنهار ، لذلك جاءت الآية ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ (٣١) ﴾ [النحل] أى : ذاتية فى الجنة لا يمنعها عنك مانع ، فالماء ذاتيٌّ فيها لا يأتيها من مكان آخر ربما ينقطع عنها .

فـ ﴿ تَجْرِى تَحْتِهَا الأَنْهَارُ (١٠٠) ﴾ [التوبة] فنبْع الماء من مكانٍ بعيد وهو

يمرُّ تحتها . أما قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (٣١) ﴾ [النحل] فكأنَّ الأنهار تنبع من تحتها حتى لا يخاف إنسانٌ من أن الماء الذى يأتى من بعيد يُقطع عنه أو يجفّ ، وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أنَّ نعيم الجنة باقٍ وخالد .

والأنهار جمع نهر ، والنهر هو الشقّ الذى يسيل فيه الماء أى مجراه وليس هو الماء، والحق سبحانه يقول : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (٣١) ﴾ [النحل] فأين تجرى الأنهار؟ أتجرى الأنهار تحت زروعها أم تحت بنيانها ؟

والجنة هى البستان الذى به شجرة إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التى تُخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفاً للعين فقط ، أما الجنة ففيها أشجارٌ عالية كثيفة بحيث لو سار فيها أحدٌ يُستر ، ففيها الاقتيات وفيها كلُّ شيء .

فهى تسترك عن أنْ تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ؛ فالذى عنده حاجة لا تكفيه يتطلَّع إلى ما يكفيه ، لكن مَنْ عنده حاجة تكفيه فقد انستر عن بقية الوجود .

فالجنة تستر مَنْ فيها ، فأشجارها كبرتْ ونمتْ وترعرعْت بحيث يكون مَنْ يسير فيها مستوراً بأغصان الشجر وأوراقه فلا يراه أحد ، ويكون مستوراً فى كلِّ مطلوبات حياته فلا يحتاج أنْ يخرج منها لأن فيها كلَّ مطلوبات الحياة من الماء والطعام والمكان يجلس أو يتريض فيه وغيرها من النِّعم التى أنعم الله بها عليه .

والفارق بين أنهار الدنيا وأنهار الجنة أن أنهار الدنيا عبارة عن شقوق فى الأرض لها شواطيء تحتضنها ، أما أنهار الآخرة فهى تسير على الأرض دون شواطيء تحجزها .

ونجد أنهار الخمر تسير أيضاً فى الأرض ولا تتداخل مع أنهار الماء، وكذلك أنهار اللبن ، وكلُّ ذلك من صنعة ربٍّ حكيم قادر، فلا شيءَ يمنع أنهار الجنة، فظاهرةُ جريان الأنهار فى الدنيا وسيلة للخضرة والخصب والإيناع .

و ﴿ مِن تَحْتِهَا (٧٦) ﴾ [طه] أى أن الماء ذاتيٌّ فيها ونابعٌ منها ، ليس جارياً إليك من مكان آخر ربما يُمنع عنك أو تُحرم منه .

وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن أنهار الجنة ، فقال : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ (١٥) ﴾ [محمد]

فالحق سبحانه يعطينا اسماً موجوداً وهو النهر وكلُّنا نعرفه ، لكنه سبحانه يوضح : أنا سأنزع منه الأكدار التى نراها فى النهر الحادث فى الحياة الدنيا، وأيضاً فأنهار الدنيا تسير وتجرى فى شقٍّ بين شاطئين ، لكن أنهار الجنة سترى الماء فيها وليس لها شطوط تحجز الماء لأنها محجوزةٌ بقدرة الله .

وسنجد أيضاً أنهاراً من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهاراً من خمر ليست كخمر الدنيا ، فهو خمرٌ لذَّة للشاربين بعكس خمر الدنيا فالناس لا يشربونها بلذَّة ، فهو يسكبه فى فمه مرة واحدة ليُقلِّل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومُحمِّض .

وهناك أنهارٌ من عسل مُصفًّى مما يُعكره عليك فى الدنيا أو يُكدِّره لك ، فأنا أصفِّيه لك فى الآخرة كنهر يجرى على وجه الأرض ، فقد كان العرب يُخرجون العسل من الجبال يجدون فيه رملاً وحصى .

فالله يُصفِّى النعيم من كلِّ الشوائب ، فيُصفِّى الماء من أنْ يكونَ آسناً ، ويُصفِّى اللبن من أنْ يتغير طعمه ، ويُصفِّى الخمر من أنْ تغتال العقل وتذهب به ، ويُصفِّى العسل من الكدر والشوائب .

فقد خلّص المثل الذى ضربه من شوائبه التى نعرفها فى الدنيا ، فالمياه عندما تجرى تكون حُلْوةً ورائقةً وصافيةً ، وإنْ ركدتْ فهى تأسن وتكون عَطِنة، فخلَّص اللهُ الماءَ من هذا .

وكذا الخمر ، فخمرُ الآخرة تختلف عن خمر الدنيا ، فخمرُ الآخرة لا تؤثر على التكوين العضوى للعقل ، كما أنَّ خمرَ الدنيا ليس فيها لذة للشاربين لأنها من كحول يكوى الفم ويلسعه ، ولذلك تجد مَنْ يشربها وهو يسكبها فى فمه لتمرَّ بسرعة فلا يشعر بلسْعها فى فمه ، فتذهب إلى معدته مباشرة فتُلهبها .

ويختلف الحال لو كان المشروب هو شراب عصير المانجو أو البرتقال أو القصب حيث تستطيب النفس مذاقَ تلك الفواكه ، فنجد مَنْ يشربها بتمهُّل ليستبقى أثرها فى فمه .

ويقول الحقُّ سبحانه عن خمر أنهار الجنة ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ (٤٧) ﴾ [الصافات] أى أنه سبحانه ينفى عن خمر أنهار الجنة كلَّ المكدِّرات التى توجد فى خمر الدنيا ، فآفة خمر الدنيا أنها تغتال العقل وتذهب به وليس فى شربها لذة .

وعظمة هذا فى الآخرة فى الجنة أنه مهما بلغ بنا ترف الحياة ونعيمها ، ومهما عظُمت إمكاناتنا فى الدنيا فلن نرى فيها نهراً من الخمر أو من اللبن أو من العسل .

ثم إنَّ هذه الأنهار تجرى فى الجنة بلا شُطآن ، بل ويتداخل بعضها فى بعض دون أنْ يطغى أحدٌ منها على الآخر ، وهذه طلاقةُ القدرة التى لا حدودَ لها .

وهذا يتحقَّق ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (٨) ﴾ [التحريم] كلمة (خزى) ترد فى اللغة بمعنيين ، مرة بمعنى الفضيحة (خزى يخزى خزياً) أى: انفضح ، ومرة ثانية هى (خزى يخزَى خِزاية وخزًى) بمعنى : استحى .

والمعنيان يلتقيان ، فما دام قد افتُضح أمر عبد فهو يستحى مما فعل والخزى

هو الشيء القبيح الذى تكره أنْ يراك عليه الناس ، والخزى مرتبة أشدّ من عذاب النـار ، وقمة الخزى أنْ يأخذ أحدٌ مثلَ ما فى الدنيا معه ويريد أنْ يُقدِّمه افتداءً لنفسه من عذاب جهنم ، فيرفضه الحقُّ منه .

يقـول تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَـوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِـى الْأَرْضِ جَمِيعًـا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَـدُوا بِـهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَـةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) ﴾ [المائدة] وتلك هى قمة الخزى التى يجب أنْ يبتعد عنها الإنسان .

وكذلك الذين هـادوا يـأتيهم الخزى أى الافتضاح ﴿ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) ﴾ [المائدة] ، وليس الخزى هو الجزاء الوحيد لهم بل يلقوْنَ فى الآخرة عذاباً عظيماً .

والخـزى أقسـى على النفس مـن العذاب لأن معنـاه الفضيحـة ، كأنْ يكون هنـاك إنسـانٌ له مهابة فـى الحى الذى يسكـن فيه مثل فتوة الحـى ، ثم يأتى شـاب ويدخل معه فى مشاجـرة أمام النـاس ويلقيه علـى الأرض ، هذا الإلقاء لا يُعذِّبـه ولا يُؤلمه ، وإنمـا يُخزيه ويفضحه أمام النـاس ، بحيث لا يستطيع أنْ يرفع رأسه بين النـاس مرة أخرى ، والخزى هنـا أشدّ إيلامـاً لنفسه من العذاب .

وعذاب الخزى فى الحياة الدنيا يمكن أنْ تراه مُجسداً فيمن افترى وتكبَّر على النـاس ، ثم يراه النـاسُ فى هوان ومذلّة ، هذا هو عذاب الخزى فى الدنيـا ، ولا بدّ أنَّ عذاب الآخرة أخزى وأشدّ ، والذي يـأتيه الخزى يشعر بـاحتقـار نفسه وهوانهـا ويعانى من الفضيحة أمام الخَلْق .

فـالخـزى هـو الهوان والمذلَّـة ، وهو أقوى مـن الضرب والإيـذاء ، ولا يتجلَّد أمـامه أحد ، فـالخزى قشعريرة تغشَى البدن فلا يفلت منها مَنْ تصيبه وإنْ كان الإنسـانَ قـادراً على أنْ يكتم الإيلام فـالخزى معنـى نفسى ، والمعانى النفسية تنضـح علـى البشرة ولا يقدر أحـدٌ أنْ يكتم أثرهـا ، لأنه يقتـل حِمْيَةَ الاستكبـار التى عـاش بهـا .

فالله لا يُخزى النبى ولا يُخزى الذين آمنوا معه ، يقول تعالى : ﴿ **يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** (٨) ﴾ [التحريم] ، وهذا تعريضٌ بالذين لم يؤمنوا فسينالهم الخزى والصَّغار الذى يترك الإنسان حيرانَ خجلاً مهموماً بأنْ يرى نقصه وسُوء منزلته .

والله لا يُخزى المؤمنين ، وطالما هم مع النبى ﷺ لا يحصل لهم الإخزاء، ومعنى الذين آمنوا معه أى كانوا على منهجه وسُنّته ، أما إذا خرجوا على منهجه وسنته فقد يحدث لهم الإخزاء ، كأصحاب الكبائر مثلاً بدخولهم النار.

يقول تعالى : ﴿ **إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ** (١٩٢) ﴾ [آل عمران] وهم لا يذكرون عذاب مَنْ يدخل النار ، ولكنهم يذكرون خزى الله لمَنْ دخل النار .

وكلمة (الخزى) هذه لها معنا موقف طريف أيام كنا صغاراً نحفظ القرآن على يد سيدنا فضيلة الشيخ حسن زغلول عليه رحمة الله ، وكان رجلاً مكفوفَ البصر ، وكنا نَسْتَخِفُّ به ، فإذا وجدنا فرصة تفلتنا منه وهربنا من تصحيح اللوح الذى نحفظه ، فالذى يحفظ بمفرده هكذا من المصحف يكون عُرْضة للخطأ .

ومن ذلك ما حدث فعلاً من زميل لنا كان اسمه الشيخ محمد حسن عبدالبارى، وقد حضر مدير المدرسة فجأة وأراد أن يُسمِّع له ، وكان الشيخ عبدالبارى لم يُصحِّح لوحه الذى سيقرأ منه فقرأ ﴿ **إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ** (١٩٢) ﴾ [آل عمران]

فقرأها بالراء بدلاً من الزاي ، فضحك الشيخ طويلاً رحمه الله وقال : يا بنى المعنى صحيح ، لكن الرواية ليست هكذا ، فكُنَّا نأخذها على الشيخ عبدالبارى، فمَنْ أراد أنْ يغيظه قال : (إنك من تدخل النار ..) ويسكت .

ثم يقول تعالى ﴿ **نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ** (٨) ﴾ [التحريم] ومثل

قولـه تعالى : ﴿ يَوْمَ تَـرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ (١٢) ﴾ [الحديـد]

أي أن نورهـم يضـيء أمامهـم ، أمـا المنافقـون فيقولـون للذيـن آمنـوا : ﴿ انْظُرُونَـا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُـوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا (١٣) ﴾ [الحديد] أى أن هـذا ليس وقـت التماس النـور ، فالوقت لالتماس النـور كان فى الدنيا باتباع المنهج والقيام بالصالح من الأعمال .

إذن : فالحق سبحانه يهدى للمؤمنين نوراً فوق نورهم فى الآخرة ، فمَنْ أخذ هدايـة الله بالدلالـة وهى المنهج واتبع هذا المنهج ، فالحـق سبحانه يجعل له نوراً يسعى بين يديه .

﴿ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا أَتْمِـمْ لَنَا نُورَنَـا (٨) ﴾ [التحريـم] وذلـك إذا رأى المؤمنون نور المنافقـين يُطفأ سألوا الله تعـالى أنْ يُتمم لهم نورهم ويُبلغهم به الجنة . وقال ابن عباس : ليس أحدٌ من المسلمين إلا يُعطَى نوراً يوم القيامة[1] .

فأما المنافق فيُطفأ نوره ، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهم يقولـون ﴿ رَبَّنَـا أَتْمِـمْ لَنَـا نُورَنَـا (٨) ﴾ [التحريـم]

ولا ينال أهلَ النار شيءٌ من نعيم أهل الجنة ونورهم ، ويسمع أهل النار رداً على طمعهم فى أنْ ينالهم بعضٌ من نور أهل الجنة : إنكم تلتمسون الهدى فى غير موطن الهدى ، فزمن التكليف قد انتهى .

ومَنْ كان يرغب فى نور الآخرة كان عليه أنْ يعمل من أجله فى الدنيا ، فهذا النور ليس هبةً من خَلْق لخَلْق ، وإنما هو هبةٌ من خالق لمخلوق آمن به .

وأنتـم تقولـون : انظرونا نقتبسْ من نوركم ، وليس فى مقدور أهل الجنة أنْ

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير (٤/٣١١) وأورده ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٢) وعزاه لابن أبى حاتم فى تفسيره عن ابن عباس . وقد ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/٢٢٨) وعزاه للحاكم والبيهقى فى البعث .

يُعطوا شيئاً من نور أهل الجنة فالعطاء حينئذ لله .

أما المنافقون فيقول تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) ﴾ [البقرة]

فهم أوقدوا ناراً لتعطيهم نُوراً يُريهم طريق الإيمان ، وعندما جاء هذا النور بدلاً من أنْ يأخذوا نور الإيمان انصرفوا عنه ، وعندما حدث ذلك ذهب الله بنورهم فلم يَبْقَ فى قلوبهم شيءٌ من نور الإيمان .

فهم الذين طلبوا نُورَ الإيمان أولاً ، فلما استجاب الله لهم انصرفوا عنه .

﴿ وَاغْفِرْ لَنَا (٨) ﴾ [التحريم] فنحن ندعوه سبحانه ألاَّ يُدخلنا في الذنب الذى يؤدي إلى غضبه والعياذ بالله ، يقول تعالى فى آية أخرى ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا (١٤٧) ﴾ [آل عمران]

والاستغفار هو إقرارٌ بالتقصير وارتكاب الذنوب ، فنقول يارب اغفر لنا ، وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى فهذا إعلانٌ منك بالإيمان ، واعترافٌ بأنَّ تكليفَ الحق لك هو تكليفٌ حقّ .

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أنْ يغفر له الذى فات من ذنوب فعليه ألاَّ يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أنْ يحرص على تجنُّب المعاصى .

وهو سبحانه الذى يغفر الذنوب جميعاً ، وقد حدث أنْ كان الأصمعي[1] واقفاً عند الكعبة فَسَمع أعرابياً يدعو ويقول : يارب أنت تعلم أنِّى عاصيك وكان من حقك عليَّ ألاَّ أدعوك وأنا عاصٍ ، ولكنى أعلم أنه لا إله إلا أنت فلمَنْ

(١) الأصمعى : هو عبد الملك بن قريب أبو سعيد الأصمعى وُلد بالبصرة عام (١٢٢هـ) ، راوية العرب، كان كثير التطواف فى البوادى ، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها ، كان الرشيد يسميه (شيطان الشعر)، كان أعلمهم بالشعر وأتقنهم باللغة كان يحفظ عشرة آلاف أرجوزة . توفى عام (٢١٦ هـ) عن ٩٤ عاماً . [الأعلام - للزركلى ٤/١٦٢] .

أذهب . فقال الأصمعى : يا هذا إن الله يغفر لك لحُسْن مسألتك .

ويقول تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

وهو سبحانه قادر على كلِّ شيء ، لذلك يقول المؤمنون فى دعائهم ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾ [التحريم]

فهو القادر القدير الذى يعلم عنَّا الغفلة فيُنبِّهنا دائماً إلى كمال قدرته فهو القادر على كلِّ شيء ، فكلُّ شيء يدخل فى إرادة الله وقدرته سبحانه ، فالله له طلاقة القدرة فى مُلْكه ، ولا توجد قدرة فى هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه ، ولاقوة إلا قوته جلَّ جلاله ، ولا فعل إلاَّ ما أراد .

والله قدير حتى قبل أنْ يوجد مقدور عليه ، فلم يكُنْ قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسان ، والله يظلُّ قديراً وموجوداً فى كلِّ لحظة ، وهو كان ولا يزال .

فالله هو الذى خلق الجنات بما فيها من أنهار ، وهو القادر عليها يدخل فيها مَنْ يشاء بقدرته ، فمَنْ آمن أدخله فيها بقدرته ، وجعل للمؤمنين نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم بقدرته ، وحرم من كفر من هذا النور ، فكانت نارُهم ظلاماً لا يُنيرها إلا النار الموقدة عليهم .

وهم يستديمون التضرع والابتهال فى السؤال أنْ يُتم الله عليهم نورهم ، أما المنافقون فيقولون للذين آمنوا ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ (١٣) ﴾ [الحديد]

أى انظروا إلينا من أجل أنْ نقتبسَ من أنواركم . أو انظرونا بمعنى انتظروا حتى نلحق بكم ونمشى على نوركم ، فيُقال لهم : ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ (١٣) ﴾ [الحديد]

أى اذهبوا إلى الدنيا ، فالأنوار التى تريدونها فى الآخرة تأخذونها من الدنيا،

و ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ (١٣) ﴾ [الحديد] تُقال لهم على سبيل التهكم ، وإلا ليس هناك إمكانيةٌ للرجوع إلى الدنيا لتبحثُوا لكم عن نور ، فلا نورَ لمن لا نورَ له .

وليس أحدٌ من الموحِّدين إلا يكون له نورٌ يوم القيامة يهديه ويدلُّه على الصراط ، فأما المنافق فيطفيء اللهُ له نوره ، فيقطع الله وصلهم بالمؤمنين فالله جعل النور متاعاً للمؤمنين فى الآخرة ويحرم المنافقين منه لأنهم لم يتبعوا النور الذى أنزله الله لهم فى الدنيا .

ويقول ترجمان القرآن[1] في قول الله عزوجل: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (٨) ﴾ [التحريم]

قال : ليس أحدٌ من الموحدين إلا يُعطَى نوراً يوم القيامة ، فأما المنافق فيُطفأ نوره ، والمؤمن مشفقٌ مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (٨) ﴾ [التحريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ﴾

(جاهد) من فاعل مثل : شارك ، فأنت تشارك فلاناً ، ومثل (قاتل) فأنت تقاتل فلاناً . إذن : فهناك مُفاعلة ومجاهدة .

فـ (جاهد) و (قاتل) مبنية على المفاعلة ، بمعنى : إنْ قاتلك واحد من الكفار فلا بدَّ أنْ تبذل كلَّ جهدك فى قتاله . وجاهد مثل شارك . فهل تقول :

---

(١) ترجمان القرآن هو عبد الله بن عباس ، وهو حبر الأمة ، وقد كان عمر بن الخطاب يقول : « نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، جاء فتى الكهول وذو اللسان السئول والقلب العقول » . ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (١٢/٨٨) وكذا الطبرى فى تفسيره (١٠٤ - ١٠٦) .

شـارَك زيـد ثم تسكـت . أم تقول : شارك زيد عمـرواً ، وقـاتَل زيد عمـرواً . إذن : فهنـاك مفـاعلة .

فمعنـى (جاهِـد) أى اصمد أمامهـم فى المعركة ، والجهـاد يقتضى الصبر والمواجهـة ، والجهـاد بذْل الجهد فى إنفـاذ المراد ، ومنه اجتهـد فلانٌ فى كذا يعنـى عمـل أقصـى ما فى وُسْعـه من الجدِّ والاجتهـاد فـى أنْ يستنبط الحكم . وجاهـد مفـاعلة كأنَّ الشيء الذى تريده صعبٌ يحتـاج إلى جَهْد منك ومحـاولة ، والمفـاعلة تكون من الجانبين : منك ومن الشيء الذى يقـابلك .

فـ (جاهـد) فيها مفاعلةٌ مـع الغير ، تقول : جاهد فـلانٌ فلاناً مثل قـاتل ، فهـى تـدلُّ على المشاركة فى الفعل ، كما لو قلت : شارك عمرو زيداً فكلّ منهما فـاعل ، وكلّ منهما مفعول ، لكن تُغَلَّب الفاعلية فى واحد والمفعولية فى الآخر .

فالمجاهـدة تشمـل ميادين عديدة : مجاهدة الغرائـز والعواطف ، ومجاهدة مشقـة المنهج فى افعل ولا تفعل ، ومجاهدة شياطين الإنس والجن ، ومجاهدة خصوم الإسلام الذين يريدون أن يطفئوا نور **الله** .

والجهـاد يكـون بوسائل كثـيرة ، فمَنْ يملك القوة والمـال ، فعليه أنْ يجاهد بهمـا ، ومَـنْ يملك عنصراً من الاثنين القوة أو المـال فعليه أنْ يجاهد به ، فإنْ كان ضعيفـاً فعليـه أن يُعـين بماله القـويَّ القادر علـى القتال ، بـأنْ يوفر له الأسلحة والخيول والدروع وغير ذلك من وسائل القتال .

والـذى يجاهـد بمالـه ونفسه يكون قد اقتنـع بيقين أنه سـوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس .

وهنـا يطلـب الحق سبحـانه من رسول **الله** ﷺ أنْ يجاهد الكفار والمنافقين، والكفار منتفعون بـالفساد ، ولكى يستمر هذا الانتفـاع لا بدَّ أنْ يقف الكفار ضد حَمَلـة منهج الحـق ، وأنْ يقـاوموهم ليضمنـوا لأنفسهم استمـرار الميزات التى

يعطيها الباطل لهم .

وينبه الله سبحانه وتعالى رسوله إلى حقيقة هؤلاء الكفار المنتفعين بالفساد وأنهم سيحاربونه ، ولذلك قال الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ (٩)﴾ [التحريم]

ومجاهدة الكافرين غير المسلمين تكون لأمرين :

الأمر الأول : حين يعارض غير المسلمين الدعوة إلى الإيمان ، وأنْ يقفوا فى سبيل الداعى إليه ليُسكتوه عن الدعوة إلى الله .

والأمر الثانى : أنْ ينتشر المسلمون فى الأرض ليُعلوا كلمة الله ، ليس إكراهاً عليها فالدين لا إكراه فيه ، والسيف الذى حُمل فى الإسلام لم يُحمل ليفرض ديناً ، وإنما حُمل ليكفل حرية الاختيار للإنسان فى أنْ يختار الدين الذى يريد اعتناقه بلا إكراه .

وتحرير اختيار الإنسان إنما ينشأ بإزاحة العقبات التى تفرض عليه ديناً آخر ، ثم يستقبل الإنسان الأديان كلها فيختار بحرية الدينَ الذى يرتضيه .

وما دام الجهادُ فريضةً بهذا المعنى ، فكلُّ مسلم مكلَّف بأنْ يجاهد ، إما فرض عين إنْ غلب المؤمنون على أمر مكروه ، وإما فرض كفاية إنْ قام به البعض سقط عن الباقين .

وجهاد الكافرين غير جهاد المنافقين ، وقد عرَّفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم فى آيتين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة]

فالكافر صريح فى عداوته ، ولذلك نحن نتقيه ونحذره لأنه يعلن كفره والكافر هو الذى جحد الإيمان بقلبه وأعلن الكفر بلسانه ، أما المنافق فهو مَنْ

كفر فى باطنه ويعلن الإيمان فى ظاهره .

والمنافق هو الذى يجب أنْ نحذر منه أشدّ الحذر ، لأننا لا نعرفه فنتقى شرّه مثل الكافر ، فالمنافق قد يطعن من الخلف ونحن آمنون له مطمئنون ، فتكون طعنتُه أليمة .

فالعداوة التى يواجهها المؤمنون تأتى من صنفين ، من الكافر ومن المنافق، فالكافر يجاهر بعدم إيمانه ويعرف الجميع أنه كافر ، ويظهر هذا فى لسانه وفعله فهو كافر قلباً وقالباً .

أما المنافق فإنه يُظهر بلسانه الإيمان ولكنه يُضمر الكفر فى قلبه ، لذلك فهو عدوٌّ صعب لأنه يغشّنا فلا نأمنه ، وأنت قد تحسبه مؤمناً فتُطلعه على أسرارك فيتخذها سلاحاً لطعن الدين .

والمنافق يقول بلسانه ما لا يعتقد قلبه ، ويُظهر غير ما يبطن ويقول ما يخشى أنْ يكشفه الناس .

وإذا كان المنافقُ قد أظهر بلسانه ما ليس فى قلبه فإنَّ الله سبحانه يعامله بمثل فِعْله ، فإذا كان له ظاهر وباطن يعامله فى ظاهر الدنيا معاملة المسلمين، وفى الآخرة يوم تُبْلَى السرائر يجعله فى الدرْك الأسفل من النار ، ولا يسويه بالكافر لأن ذنب المنافق أشدّ .

والنفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع(١)، وهى إحدى جُحوره التى يستتر ويختفى فيها ، واليربوع حيوان صحراوى يخادع مَنْ يريد به شراً فيفتح لنفسه بابين ، يدخل أمام الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر ، فإن انتظره الرجلُ على باب فاليربوع يخرج من الآخر .

---

(١) اليربوع هو الفأرة الكبيرة تكون فى الصحراء ، تثقب الأرض إلى القعر ، ثم يصعد من ذلك القعر إلى وجه الأرض من جانب آخر [تفسير الفخر الرازى مفاتيح الغيب ١٢/ ٤٣١] . وهو حيوان له ذَنب طويل ينتهى بخصلة من الشعر وهو قصير اليدين طويل الرِّجلين ، لونه كلون الغزال .

فالكافر بكفره قد أعطانا مناعةً ، فإنه قد أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا منه ، فلا يُلحق بنا إلا ضرراً محدوداً ، أما المنافق فهو قد تظاهر بالإيمان فأمناه، ويستطيع أنْ يُلحق بنا شراً رهيباً ، لأنه بحكم ما أخذه من أمان منَّا يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فينا ، وقد تكون طعنته قاتلة .

فالكافر عدو ظاهر واضح صريح ، أما المنافق فإنه عدوٌّ خفيٌّ ، والعدو الخفى شرٌّ من العدو الظاهر ، لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفى ، وهو يعرف كلَّ تحركاتى ويستطيع أنْ يغدر بى فى أيِّ وقت دون أكون منتبهاً لهذا الغدر .

وأولى مراحل الجهاد هى الجهاد بالحجة ، فالمؤمنون كانوا فى أول الأمر قلَّةً ضعيفة لا يملكون قوة يواجهون بها هذا المدّ الكبير من الكفار .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾[التوبة] وهذا يعنى أن هناك قوماً قريبين منهم ما زالوا كافرين ، وهناك قوم أبعد منهم .

والحق سبحانه قد قال : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً (٣٦) ﴾ [التوبة] ، ويقول تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾ [البقرة]

ولا بدّ أنْ تكون نية القتال فى سبيل الله ، لا أنْ يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان ، فلا قتالَ من أجل الحياة أو المال أو لضمان سوق اقتصادى ، وإنما القتال لإعلاء كلمة الله ونُصْرة دين الله ، هذا هو غرض القتال فى الإسلام ، قتالٌ لردِّ العدوان لا بداية عدوان .

والسيف لم يأت ليفرض العقيدة ، إنما ليحمى الاختيار فى النفس الإيمانية .

ولم يأمر اللهُ بقتال قبل رسول الله ، فقد كان الرسول من السابقين على

محمـد ﷺ يُبلـغ قومه برسالته ، فإنْ آمنوا فبها ونعمتْ ، وإنْ لم يؤمنوا تتدخّل السماءُ بالعقاب ، بريح صرصر ، رجفة ، صيحة ، خسف الأرض بهم ، إغراق .

فالرسول قبل محمد ﷺ كان يُبلِّغ ، والله يعاقب مَنْ لم يؤمن ، وما وُجد قتال إلا إذا اقترحوا هم القتال مثل بنى إسرائيل ، قال الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

هم الذين اقترحوا ، لكن القتال الذى يثبِّت المبدأ أو ينشر المنهج لإعلاء كلمة الله وسيطرة الخلافة الإيمانية على الأرض لم يشرع إلا على يد رسول الله . فكأنَّ الله لم يأمن خَلْقاً على خَلْق إلا أمة محمد ﷺ ، فقد جعلها أمينة على البشر .

وقد يسأل سائل : ولماذا لا ينصر اللهُ المؤمنين والرسول مباشرة دون قتال لغيرهم من الكفار والمشركين ؟ نقول : لأن النصر لو جاء بسبب غيبيٍّ من الحق ربما قالوا ظاهرة طبيعية قد نشأت ، ولكن الحق يريد أنْ يُظهر أن القلّة المؤمنة هى التى غلبتْ .

وعندما يقول الحق سبحانه : (وقاتلوهم) نفهم أن هذا أمرٌ للمؤمنين ليقاتلوا الكفار ، ولا بدَّ أنْ يكون الكفار قد فعلوا شيئاً يستحق أنْ يقاتلوا عليه ، أو أنهم يُبيِّتون للمؤمنين القتال ، وعلى المؤمنين أنْ يواجهوهم ويقاتلوهم .

والكافرون سعوا لقتال المسلمين فى بدر وأُحد ، ثم زحفوا على المدينة وتحزَّبوا مع اليهود ، فكانت غزوة الخندق وذلك للقضاء على الدولة التى نشأت فى المدينة ، لذلك وجب الجهاد والقتال على المؤمنين دفاعاً عن الإسلام وعن بقائه .

وقد زيَّن الشيطانُ للكفّار قتالَ المؤمنين فجعله مُحبَّباً إلى نفوسهم ، وأنهم سيحققون النصر ويصبحون حديث الجزيرة العربية كلها ، وتخافهم الناس

وتهابهم ويصبحون هم الكبراء وأصحاب الكلمة .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ(١) عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) ﴾ [الأنفال]

فجهاد المؤمنين للكافرين هنا هو جهادٌ صريح ، قتالٌ في أرض المعركة، فيها غالبٌ ومغلوب ، ومنتصر ومهزوم ، أما جهاد المنافقين فهو جهاد من نوع آخر لأن المنافق لا يُظهر لك عداوته ، بل إنه يُظهر لك أنه منك ومعك .

فالجهاد معهم هو توقيع العقاب عليهم ، وقد كان المنافقون يرتكبون الإثم ويسألهم رسول الله فينكرونه فيصفح عنهم ، وقد كانوا يُكثرون الحلف أنهم ما فعلوا .

فيذكر الحق سبحانه : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ .. (٥٦) ﴾ [التوبة] ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا (٧٤) ﴾ [التوبة] ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ (٦٢) ﴾ [التوبة]

وقال تعالى ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

لقد كان المنافقون أسبقَ الناس إلى الصفوف الأولى في الصلاة لأن كلَّ منافق منهم أراد أنْ يحبُكَ مسألة نفاقه ويُواريه ، فيحرص على ما يندفع المؤمنون إليه .

والمنافقون أخطر على المؤمنين من الكافرين، لذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ

---

(١) نكص على عقبيه : ولَّى مدبراً . ومعنى نكص : رجع بخزى من حيث جاء . والنكوص أن يهرب ذليلاً خازياً . والنكوص : الإحجام عن الشيء .

الله قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ[1] عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١)﴾ [النساء]

وهم يتربصون بالمؤمنين ، فإنْ وجدوا خيراً قد أتى لهم فهم يريدون الاستفادة منه ، وإنْ جاء شرٌّ فالمنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم ، فظاهراً هم يُعلنون الإيمان وهم فى باطنهم كفار ، وهم يتربَّصون بالمؤمنين انتظاراً لما يحدث وليُرتِّبوا أمورهم على ما يجيء .

فإنْ فتح الله بنصره على المؤمنين فى معركة وأخذوا مغانم قال المنافقون: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ (١٤١)﴾[النساء] فلا بدَّ لنا من سهم فى هذه الغنيمة ، وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٤١)﴾ [النساء]

فقوْل الكافرين ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ (١٤١)﴾[النساء] يكشف موقفهم عندما تقوم معركة بين معسكرى الكفر والإيمان ، فيحاول المنافقون معرفة تفاصيل ما ينويه المؤمنون ، ولحظة أنْ يدخل المنافقون أرض المعركة فهم يُمثِّلون دورَ مَنْ يأسر الكافرين حماية لهم من سيوف المؤمنين ، ثم يقول للكافرين : نحن استحوذنا عليكم أى منعناكم أن يقتلكم المؤمنون ويطلبون منهم الثمن .

لذلك جمع الحق سبحانه بين الكافرين والمنافقين فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ (٩)﴾ [التحريم]

ومعنى ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ (٩)﴾ [التحريم] أى : أنذرهم بالعذاب الرهيب الذى

---

(١) ألم نستحوذ عليكم . أى : ألم نحط بكم من ورائكم ونمنعكم من المؤمنين ونجادل المؤمنين عنكم فنحبسهم عنكم ونخبرهم أنّا معكم . قال الطبرى فى تفسيره : أصل الاستحواذ فى كلام العرب فيما بلغنا الغلبة . وقال السمرقندى فى تفسيره (١/ ٣٥٠) : « ألم نخبركم بصورة المسلمين ونطلعكم على سرهم ونخبركم عن حالهم » .

ينتظرهم علَّهم يُفيقون ، والغلظة ليست صفةً دائمة ، بل تعني أنك إنْ تطلَّب الأمر فيجب أنْ تتوافر فيه .

لذلك قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً (١٢٣) ﴾ [التوبة]

والغِلْظة الشدة ، فحين تضرب عدوك اضربه بقوة وبجرأة وبشجاعة ، وحين يحاول عدوك أن يضربك استقبل الضربة بتحمُّل ، وهكذا نجد أنَّ الغلظة مطلوبة فى الحالتين .

فى حالة الإرسال منك وفى حالة الاستقبال منه فلا يكفى أنْ تضرب عدوك ضربةً قوية ، وحين يرد لك الضربة تخور وتضعف ، إنَّ الحق يطلب منك غلظةً تحمل على عدوك ، وغلظة تتحمل من عدوك .

فالغلظة تتطلب منك أنْ تهاجم ، وتتطلب منك أنْ تتحمّل ، والتحمُّل يقتضى صبراً ، والتحامل يقتضى شجاعة ، فإذا كان فى خَصْمك صبر وشجاعة فعليك أنْ تُصابره أى تصبر أكثر منه .

والغلظة والشدة إنما تكون فى ميدان المعركة وهى القوة فى القتال هجوماً ودفاعاً ، ويقول تعالى : ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ[1] .. (١٢) ﴾ [الأنفال]

والضرب لما هو فوق الأعناق هو ضَرْب الرأس فيفقد القدرة على التفكير أو تذهب حياته لينتهى ، وإنْ بقى على قيد الحياة فسوف يشاهد مصارع زملائهم وذِلّتهم .

والضرب منهم كلَّ بنان أى ضربهم بالسيوف فى أيديهم ، لأن الضرب فى

(١) البنان : أطراف الأصابع . ويقال : البنان الأصابع بعينها . [الزاهر فى معانى كلمات الناس – ابن الأنبارى ٢/١٤٩] .

الأيدى إنما يجرحها ويجعلها عاجزةً عن القتال .

والكافرون والمنافقون كلاهما ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ (٩)﴾ [التحريم] أى أن المرجع الذى يأوون إليه هو النار ، والمأوى الموضع الذى ترجع أنت إليه ، فالنار مأواهم ومثواهم الذى يرجعون إليه .

فكلمة (مأوى) معناها المكان الذى يُضطر الإنسان إلى أنْ يأوى إليه ، وأنت تقول : أويتُ إلى كذا ، إذا كان هذا هو المكان الذى يعصمك من شيء .

فإذا كانت النارُ مأواهم فلا بدّ أنَّ ما خارجها بالنسبة لهم أشدّ عذاباً ، فهم يأوون إلى النار ، فمأواهم مصيرهم ونهايتهم النار .

والحق سبحانه هنا قال : ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ (٩)﴾ [التحريم] وإذا كان المأوى الذى يفزعون إليه هو جهنم ، فمعنى ذلك أنهم بحثوا عن منفذ فلم يجدوا منفذاً إلا أنْ يدخلوا جهنم .

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾ [إبراهيم] ، ولجهنم أبواب ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾ [النحل]

وجهنم اسمٌ لنار الآخرة من الجهامة وهى كراهة المنظر ، وكذلك بُعْد قَعْرها ، والجحيم اسمٌ من أسماء جهنم .

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩)﴾ [التحريم] والمصير المرجع الأخير لأيِّ شيء . أى : ساءت نهايتكم ومرجعكم ، وهو لن يذهب إلى هذا المصير باختياره ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾ [البقرة]

فالله تعالى يحذر الكافرين أنَّ لهم النارَ والعذاب فى الآخرة ، ليس على اختيار منهم ولكن وهم مقهورون ، ولا بدّ أنْ يكون المصير المؤدى إلى جهنم غاية فى السوء .

ومن رحمة الحق سبحانه بخَلْقه أنْ أنزل للناس المنهجَ الذى يهديهم الحياة

الباقية بدلاً من أنْ يظلُّوا أسرى الحياة الفانية وحدها .

ومن رحمته أيضاً أنْ حذَّرهم من المصير السيء الذى ينتظر مَنْ يكفر به ، ومثل هذا التحذير لا يصدر إلا من مُحبٍّ ، فسبحانه يحب خَلْقه .

وما دام الحق سبحانه يحب خَلْقه فإنه لا يحب أنْ تكون نهايتهم سيئة ، أو أنْ يكون مصيرهم إلى النار ، ولكن يعلم الكافرون أنَّ مصيرهم جهنم ، وبئس الدار التى يدخلونها فى اليوم الآخر .

والمثوى الذى سيبقى خلوداً للظالمين هو النار وهو بئس المثوى ، وكلمة (بئس) تُستعمل لذمٍّ وتقبيح الشيء ، وحين تكون النار هى المأوى ، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟

ومما جاهد به رسول الله الكافرين والمنافقين ما حدث فى غزوة الأحزاب، ويقول عنها الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) ﴾ [الأحزاب]

وهذه المعركة كانت قاسية ، حرَّك الحقُّ فيها الريح وتفرَّق فيها أعداء الإسلام وصرفَ الحقُّ الأحزاب ورجع الرسول ﷺ إلى المدينة ، وقد كان من المفترض أنْ يرتاح المؤمنون المقاتلون .

ولكن قبل أنْ يخلعوا ملابس الحرب جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ وقال : أو قد وضعتَ السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم . فقال جبريل : فما وضعتْ الملائكة السلاح بعد ، وما رجعتُ الآن إلا من طلب القوم .

إنَّ الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم

فمزلزل بهم . فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذَّن فى الناس : لايصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى العصر حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى لم يُرد منا ذلك . فذُكر للنبى ﷺ فلم يُعنِّف أحداً منهم(١).

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ(٢) كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

الحق سبحانه يضرب لنا الأمثال بالأمور المُحسَّة كى ينقل المعانى إلى أذهاننا ، فالإنسان له إلْفٌ بالمُحسِّ ، وإدراكات حواسِّه تعطيه أموراً حِسية أولاً ثم تحقق له المعانى بعد ذلك .

وهو سبحانه القادر على ضَرْب الأمثال حتى بأقلّ المخلوقات وأتفهها فى نظرنا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ..(٢٦) ﴾ [البقرة]

فلا تستقلّ أمرَ هذه البعوضة ، ولا تستحقر أنْ يجعلها الله مثلاً ، لأنه سبحانه

(١) عن ابن عمر قال قال النبى ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب : « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة ». فأدرك بعضهم العصر فى الطريق . فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها . وقال بعضهم : بل نصلى لم يُرد منا ذلك ، فذُكر للنبى ﷺ ، فلم يُعنِّف واحداً منهم . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٤٦ ، ٤١١٩). وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٧٠) .

(٢) فخانتاهما : فخالفتاهما بالمعصية . وقال مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٢/ ١٠٩) : فخالفتاهما فى الدين ولم يكن فى الفرج . وقد رواه عبد الرزاق فى مصنفه (١٢٣٤) .

لا يستحيى أنْ يضرب بها المثَل ، لأن فى هذه البعوضة كل أجهزة تكوين الحياة التى فيك ، وفى أضخم الحيوانات مثل الفيل والجمل ، ولأن هذه البعوضة التى تستحقرها قد تكون أقوى منك وقد تُعجزك أنت على قوتك وحيلتك وجبروتك .

فالحق سبحانه جاء بهذا المثَل لهذا المخلوق الحقير فى نظرك ليوضح لك قضيةً غامضة يُنبِّهك إليها .

ولأهمية ضَرْب المثل فى توضيح الغامض يلجأ إليه الشعراء ليُقرِّبوا المعنى من الأفهام ، فقد يقف الشاعر أمام قضية معقدة لا يدركها إلا العقلاء ، ويريد الشاعر الوصولَ بها إلى أفهام العامة .

وذلك مِثْل قضية الحاسد الذى يظهر بحسده مزايا محسوده ومكارمه ، فقد يتهم البريء بتهمة ظلماً ، فتكون سبباً فى رفعته بين قومه .

أخذ الشاعر العربى[1] هذا المعنى وصاغه شعراً وضرب له مثلاً توضيحياً فقال :

إِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ ... أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلاَ اشْتِعَال النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ[2]

فقد يكون لديك فضيلة مكتومة مغمورة لا يعرفها أحد ، حتى تتعرض لحاسد لك يتهمك ويُشوِّه صورتك ، فإذا بالحقيقة تتكشَّف للجميع ويُظهر ما عندك من مواهب ، وما لديك من فضائل .

وما أشبه ذلك بالعُود طيِّب الرائحة الذى لا نشمُّ رائحته إلا إذا حرقناه .

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائى أبو تمام . ولد ١٨٨ هجرية . شاعر أديب أحد أمراء البيان ، وُلد فى قرية جاسم من قرى حوران بسورية ، نزل مصر وبغداد ، وتوفى ببغداد عام ٢٣١ هـ . كان أسمر طويلاً فصيحاً يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة . فى شعره قوة وجزالة . [الأعلام للزركلى ٢/١٦٥] .

(٢) البيت من بحر الكامل . وهو من قصيدة لأبى تمام فى ديوانه ٨٥ يمدح فيها أبا عبد الله أحمد بن أبى دؤاد ويعتذر إليه . وعرْف العود أى رائحة العود الذى يُتبخر به .

فالهدف من ضَرْب الأمثال أنْ يُوضِّح لك مجهولاً بمعلوم ، فإذا كنتَ مثلاً لا تعرف شخصاً نتحدث عنه فيمكن أنْ نقول لك : هو مثل فلان المعلوم لك في الطول ، ومثل فلان في اللون من الصور المعلومة لك ، وبعد أنْ تجمع هذه الصور تكوّن صورة كاملة لهذا الشخص الذى لا تعرفه .

ففى القرآن الكريم أمثالٌ كثيرة تُوضِّح لنا المجهول بمعلوم لنا ، وتوضح الأمر المعنوى بالأمر الحسيِّ الملموس لنا .

ومن ذلك ما ضربه اللهُ لنا مثلاً فى الإنفاق فى سبيل الله وأن الله يضاعف النفقة ، ويُخلف على صاحبها أضعافاً مضاعفة ، فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

وكلمة (ضرب) مأخوذة من ضَرْب العملة ، حيث كانت فى الماضى من الذهب أو الفضة ، فكان الناسُ قديماً يأتون بقطع من الفضة أو الذهب ويُشكِّلونهما بقدر وشكل مُحدَّد لتدلّ على قيمة ما ، وتصير بذلك عملة متداولة ويقال : ضُرب فى مصر .

أى : اعتُمد وصار أمراً واقعاً ، وكذلك المثَل حين ينتشر ويصبح أمراً واقعاً .

فضَرْب العملة كان فى الماضى من الذهب أو الفضة ، ولخوْف الغش فيها حيث كانوا يخلطون الذهب مثلاً بالنحاس ، فكان النُّقاد أى الخبراء فى تمييز العملة يضربونها أى يختمون عليها فتصير معتمدةً مَوْثوقاً بها ونافذة وصالحة للتداول .

كذلك إذا ضرب اللهُ مَثَلاً لشيء مجهول بشيء معلوم استقرّ فى الذهن واعتُمد .

فالضرب : إيقاع شيء من ضارب بآلة على مضروب ، ومنه ضَرْب العملة

أى سكَّها وخَتْمها ، فبعد أنْ كان قطعة معدن أصبح عملةً متداولةً .

ومنه ضَرْب موسى البحر بعصاه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ[1] بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) ﴾ [طـه]

فضربَ موسى البحر بعصاه فانفلق البحرُ وانحسر الماء عن طريق جاف صالح للمشى بالأقدام ، فالطريق المضروب أى المُعدّ والممهّد والصالح لهذه المهمة .

والضرْب هنا لايعنى إحداثَ أثرٍ ضارٍّ بالضربِ ، إنما إحداث أثر نافع إيجابى كما فى قوله تعالى : ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ (٢٠)﴾ [المزمل]

فكأنَّ الضرب يُحدِث فى المضروب أثراً باقياً ، ففى الأرض بإثارة دفائنها واستخراج كنوزها ، وفى العملة بترْك أثر بارز لا تمحوه الأيدى فى حركة التداول .

وكأنَّ ضرْب المثَل يُوضِّح الشيء الغامض توضيحاً بيِّناً كما تُسك العملة ويجعل الفكرة فى الذِّهْن قائمةً واضحةَ المعالم ، وللضرْب عناصرُ ثلاثة : الضارب ، والمضروب ، والمضروب به .

ومن الأمثلة التى ضربها اللهُ لنا ليُوضِّح لنا قضية التوحيد قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

فالذى يتخذ مع الله إلهاً آخر كالذى يخدم سيدين وليتهما متفقان ، إنما هما متشاكسان مختلفان ، فإنْ أرضى أحدهما أسخط الآخر ، فهو متعب بينهما ،

---

(١) أسر بعبادى : أى سر ببنى إسرائيل ليلاً من أرض مصر . [تفسير الطبرى ١٩ / ٣٥٠] أسرى : سار ليلاً . وقال الثعلبى (٦ / ٢٥٥) : أى سر بهم أول الليل من أرض مصر .

فهـل يستوى هذا العبد وعبد آخر يخدم سيداً واحداً ؟ كذلك فى عبادة الله وحده لا شريكَ لـه .

فبالمثـال اتضحت القضيةُ ورسختْ فى الأذهـان ، لذلك يقول سبحانه : أنا لا أستحيـى أنْ أضرب الأمثال ، لأننـى أريد أنْ أوضح لعبادى الحقائق ، وأُبيِّن لهم المعانى .

والحـق سبحانـه يقـول : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِـنْ كُلِّ مَثَلٍ (٥٨) ﴾ [الروم] يعنى : أتيناهم بأمثال ودلائل لا يمكن لأحد إلا أنْ يستقبلها كما يستقبل الضرب ، لأن الضرب آخر مرحلة من مراحل الإدراك .

ولكـن لمـاذا يضـرب اللهُ الأمثـالَ للنـاس ؟ قالـوا : لأن الإنسانَ لـه حواس متعـددة، فهو يرى ويسمـع ويشمّ ويتذوّق ويلمس ، ولو تأملتَ كلّ هذه الحواسّ لوجدتَ أنَّ ألصق شيء بالحس أنْ يضرب ، لذلك حين تريد أنْ تُوقِظ شخصاً من النوم فقد لا يسمع نداءك فتذهب إليه وتهزّه كأنك تضربه فيقوم .

إذن : فالضرب هو الأثر الذى لا يتخلَّف مدلوله أبداً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَآخَـرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ (٢٠) ﴾ [المزمل] أى : يُؤثرون فيها تأثيراً واضحاً كالحرْث مثلاً ، وهو أشبه ما يكون بالضرب .

فالحق سبحانه يضرب المثل ليُشعركم به وتُحسّوا به حِسَّ الألم من الضرب ، فإذا لم يحُسّ الإنسانُ بضرْب المثل فهو كالذى لا يحسُّ بالضرب الحقيقى المادى .

والحـق سبحانه يضرب هنا المثـل للذين كفروا بامرأتين من نساء الأنبياء، فيقـول تعـالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَـلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْـرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْـنِ مِـنْ عِبَادِنَـا صَالِحَـيْنِ فَخَانَتَاهُمَـا (١٠) ﴾ [التحريم]

فهـذان رسـولان ومع ذلك لم يستطيعـا إقنـاع زوجتيهمـا بالتوحيد ، وليس

المقصود بالخيانة هنا الخيانة الجنسية ، لكن لنستدلَّ على أن الرسول وإنْ كان رسولاً ليس له من القدرة على أنْ يقهر زوجه وامرأته على العقيدة .

فهى تملك حرية الاعتقاد ، فلا ولايةَ هنا للرجل على المرأة فى العقيدة، حتى إن ادَّعى الألوهية ، كفرعون مثلاً ، يقول الحق سبحانه عن امرأته : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ﴾ [التحريم]

فهذه اللقطات تدلُّنا على أنَّ قضية الإيمان لا ينفع فيها النسب أو الزواج ، والله سبحانه يوضح لنا أنَّ الرسول مع أنه رسولٌ من الله إلا أنه لا يستطيع أنْ يفرض إيماناً على امرأته ، فالمسألة هى حرية الاعتقاد .

وانظر إلى التعبير القرآنى ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ (١٠) ﴾ [التحريم]

إياك أنْ تظنّ أنَّ أيّاً منهما متكبِّرة على زوجها ، لأن الحق سبحانه يقول: ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا (١٠) ﴾ [التحريم] أى أن إمرة وقوامة الرجل مؤكَّدة عليهما ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا (١٠) ﴾ [التحريم]، لكن الإيمان هو مسألة اختيار، وهذا الاختيار متروك لكلِّ إنسان .

وحاول البعض أنْ يلصق تهمة الزنا بامرأة نوح وامرأة لوط ، وهم فى ذلك يُجانبون الصدق ، إنه محْضُ افتراء .

ولنفهم أنَّ الاختيار فى العقيدة هو الذى جعلهما من الكافرين ، وأنَّ الرسولين نوحاً ولوطاً لم يستطيعا إدخال الإيمان فى قلبيْ الزوجتين ، حتى يتأكَّد لدينا أنَّ العقيدة لا يقدر عليها إلا الإنسان نفسه .

والحق سبحانه لم يذكرهما باسميهما ولم يُشخِّصهما ، لأن التشخيص هنا لا يفيد ، فالمهم والمراد من الآية بيان أنَّ الهداية بيد الله وحده ، وأنَّ النبى

المرسَل من الله لم يستطع هداية زوجته وأقرب الناس إليه ، وأن للمرأة حرية عقيدةٍ مطلقة .

فالحق سبحانه هنا لم يُحدد اسم أيّ امرأة من هاتين المرأتين ، بل ذكر فقط الأمر المهم ، وهو أنَّ كلاً منهما كانت زوجة لرسول كريم ، ومع ذلك لم يستطع نوحٌ عليه السلام أنْ يستلب العقيدة الكافرة من زوجته .

ولم يستطع لوطٌ عليه السلام أنْ يستلب العقيدة الكافرة من زوجته ، بل كانت كلٌّ من المرأتين تتآمر ضد زوجها وهو الرسول مع قومها ، لذلك كان مصير كلٍّ منهما النار ، والعبرة من القصة أنَّ اختيار العقيدة هو أمر متروك للإنسان ، فحرية العقيدة أساسٌ واضح من أُسس المنهج .

إذن : فالقدر المشترك هو حرية الاعتقاد ، فلا سلطانَ لنوع على نوع ، فلا يوجد رجلٌ يرغم امرأةً على عقيدة ، أما الذين قالوا السوء فى امرأة نوح فعليهم أن يستغفروا الله ، فالحق سبحانه مُنزَّه عن التدليس على رسوله .

فخيانةُ امرأة نوح كانت عدم إيمانها بما جاء به نوح عليه السلام ، أما خيانةُ امرأة لوط فكانت بموالاتها للقوم المفسدين ، وإفشائها للأسرار ، وقد كانت تدلّ قومها على ضيوف لوط عليه السلام .

وتوصى الملائكة لوطاً عليه السلام ألاَّ يصحب امرأته معه لأنها خانته، وعليه أنْ يتركها مع الذين يصيبهم العذاب ، ولكنها لحظة الخروج ادعتْ أنها مخلصة للوط وقالت : سأخرج حيث تخرج ، ثم نظرتْ إلى القوم وقالت : واقوماه[1] . ورجعتْ لتمكثَ معهم ، ولينالها العذاب الذى نالهم فى الموعد الذى حدَّدته الملائكة وهو الصبح .

---

(١) ذكر ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٢/٥٥٨) أن امرأة لوط خرجت معهم ، وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت : واقوماه . فجاءها حجر من السماء فقتلها .

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود]

فلما أنْ أصابه السوء بمرآهم بدل أنْ يسعد بهم وخاف عليهم طمأنوه ﴿ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت]

لا تخفْ علينا من هؤلاء الأراذل فلسْنا بشراً، إنما نحن ملائكة ما جئنا إلاَّ لنريحك منهم ونقطع جذور هذه الفِعْلة الخبيثة، وسوف نُنجيك وأهلك من العذاب النازل بهم.

ثم يستثنون من أهله ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت]، فكثيراً ما ضايقتْه وأفشتْ أسراره ودلَّتْ القوم على أضيافه ﴿ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت] الباقين فى العذاب.

فامرأة لوط لم تدخل فى الإنجاء لأنها من الغابرين. و(غبر) تأتى لمعانٍ متعددة، فهى تعنى إقامةً ومُكْثاً بالمكان، أو تعنى أيَّ شيء مضى.

وما دام الحق يُنجيه من العذاب الذى نزل على قوم لوط فى القرية فنجد زوجته لم تخرج معه، بل بقيتْ فى المكان الذى نزل فيه العذاب وبقيت فى الماضى.

ونحن لا ندخل فى تفاصيل، لماذا كانت امرأتُه من الغابرين لأن البعض تكلَّم فى حقها بما لا يُقال، وكأنَّ الله يُدلِّس على نبى من أنبيائه، لا، نحن لا نأخذ إلا ما قاله الحق بأنها كانت مخالفةً لمنهجه وغير مؤمنة به.

وكلٌّ من امرأة نوح وامرأة لوط كانتا ﴿ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ

(١٠)﴾ [التحريم] والحق سبحانه يقول عن نوح ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) ﴾ [الإسراء]

فعملُه الصالح ينفع ذرية صاحبه ، لذلك سنلاحظ ذرية نوح بعنايتنا ، ولن نتركهم يتخبطون فى متاهات الحياة ، وسنرسل لهم الهدى الذى يرسم لهم الطريق القويم ويُجنِّبهم الزلل والانحراف .

ومعني ﴿ صَالِحَيْنِ (١٠)﴾ [التحريم] أى أنه توفر فى كلٍّ من الرسولين نوح ولوط شرط الصلاح ، فهما عبدان من عباد الله وليس صلاحُهما قهراً من الله لهما ، بل إنَّ الحق سبحانه ينسب الصلاح إليهما ، فهما صالحان فى ذاتيهما، لذلك اصطفاهما الله .

فمعنى (صالح) أنه صالح لأنْ يكون خليفةً فى الأرض ، وصالح لاستعمار الأرض أى أنْ يجعلها عامرةً فيترك الصالح فى ذاته أو يزيده صلاحاً ويحاول أنْ يصلح أيَّ أمر غير صالح ، فالرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أنْ يجعل عمله عن عُمْق علم ، فلا يُقدم على العمل الذى يعطى سطحيةَ نفعٍ ثم يسبِّب الضرر من بعد ذلك .

ولا شيءَ يُغنى من الله شيئاً ، لذلك قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠)﴾ [آل عمران]

فلا شيءَ سيُنقذ الكافر من النار ومما سيحدث فى ذلك اليوم ، كعزوة الأولاد أو كثرة مال يشترى نفسه به أو خُلّة أو شفاعة ، فالأموال والأولاد لا تُغنى أحداً يوم القيامة ، والمسألة ليستْ عزوةً فيها ، ولا أنساب بينهم يومئذ والجنة ليست للبيع ، فلا أحد يستطيع شراء مكان فى الجنة بمال يملكه .

وهنا فى الآية التى معنا ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا (١٠) ﴾ [التحريم] فلم يُغن نوح ولوط امرأتيهما شيئاً ولن ينقذاهما من النار ، حتى ولو كانا رسولين مُقرَّبين من الله .

بل سيُقال لهما ﴿ ادْخُلا النَّارَ .. (١٠) ﴾ [التحريم] وليس هذا فقط، بل ﴿ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾ [التحريم] مثلكم مثل الآخرين، فلن نميزكن بشيء أيّاً كان، ولن ينجيكما أنكما زَوْجا رسولين من رُسل الله.

ولذلك لفتَ بعضُ العلماء إلى مناسبة قوله تعالى هنا عن امرأة نوح وامرأة لوط، بعد قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ[1] قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا[2] عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم] في ذكر عائشة وحفصة رضي الله عنهما.

قالوا: ضرب الله مثلاً للذين كفروا يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة لرسول الله ﷺ حين تظاهرتا عليه.

وما أحسن مَنْ قال: فإنَّ ذِكْر امرأتي النبيين بعد ذِكْر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله ﷺ يلفت إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين وبيان أنهما وإنْ كانتا تحت عصمة خَيْر خَلْق الله وخاتم رسله، فإن ذلك لا يُغني عنهما من الله شيئاً، وقد عصمهما الله عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة.

فلم يُغْنِ نوحٌ عن ابنه ولا عن امرأته، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا لوط عن امرأته، وقد قال تعالى: ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ (٣) ﴾ [الممتحنة]

---

(١) فقد صغت قلوبكما: فقد زاغت قلوبكما. يعني مالت قلوبكما. [تفسير مقاتل بن سليمان ٤/٣٧٧] وذكره عبد الرزاق في مصنفه (٣٢٤٨) وعزاه لقتادة. ويقال: معناه إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما يعني مالت إلى الحق. ذكره السمرقندي في تفسيره (٣/٤٦٧).

(٢) تظاهرا عليه: يعني تعاونتما. قال الماوردي في تفسيره (زاد المسير ٦/٤٠): يعني تعاونا على معصية رسول الله. فهما توافقتا على فعل ما يشتد عليه ويؤذيه غيرةً عليه. قاله أبو المظفر السمعاني في تفسيره (٥/٤٧٤).

وقـال تعـالى : ﴿ مَعَ الدَّاخِلِينَ.. (١٠) ﴾ [التحريم] مع الداخلين النارَ ممنْ لا وُصْلة بينهم وبين الأنبياء ، أَو مع مَنْ دخلها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لـوط الذيـن ناصرتموهم على نوح ولوط ، وكفرتما معهـم بنوح ولوط عليهما السلام .

فالحـق سبحانـه يقطع أمل كلِّ مَنْ يرتكب المعصيـة أنْ ينفعه صلاحُ غيره، فـلا كرامـةَ ولا شفاعةَ فى أمْـر الكفر والإيمان، وقـد كان بوُسْعهمـا أنْ تؤمنا وتكونا من الداخلين الجنةَ لا النار .

ومـن عجائـب الرسم القرآنى لألفاظه هنا أن كلمة امرأة هنا لم تُكتب بـالتاء المربوطة إنما بـالتاء المفتوحة (امرأت نوح) (امرأت لوط) ، فـالرابطة الزوجية كانـت قـائمـةً بين كلِّ نبـيٍّ وزَوْجه ، فكلمـة امرأة إذا أضيفـتْ إلى زوجها فـهى بـالتـاء المفتوحة .

وقـد بُنـى الفعل للمجهــول أو لما لم يُسمَّ فـاعـلـه فى قولـه ﴿ وَقِيلَ ادْخُلا (١٠) ﴾ [التحريم] تجاهـلاً لهما وعـدم اعتداد بهما وذلك لكفرهما مع أنه كان الأليق بهما الإيمان ، فكُلٌّ منهما زوجٌ لنبى ورسول من رسل الله .

فهمـا كانـا ﴿ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا (١٠) ﴾ [التحريم] أى فـى عصمتهما وملازمتـان لهما ووحْى الله ينزل فـى وجودهما ، فلماذا يتنكبان الطريق وقد أتاح الله لهما وأنعم عليهما بأنْ تكون كلٌّ منهما فى بيت من بيوت النبوة ؟

فالاعتزاز يكونَ بـالإسلام والإيمان لا بحسبك ولا نسبك ولا أخوتك البشرية أو والديتـك ، وإذا تأملـتَ تاريخ المسلمين الأوائل لوجدتـهـم يعتزون بـالإسلام لا بـالأنسـاب ، فـالديـن والعقيدة همـا اللُّحْمة وهمـا الرابطـة القوية التى تربط الإنسانَ بغيره ، وإنْ كان أدنى منه فى مقاييس الحياة .

وعـن حذيفة رضـى الله عنه قال : جئتُ إلى النبـى ﷺ والعباسُ جالسٌ عن

يمينه ، وفاطمةُ رضى الله عنها عن يساره ، فقال : يا فاطمة بنت رسول الله اعملى لله خيراً إنِّى لا أغنى عنكِ من الله شيئاً يوم القيامة . ثلاثاً. يا عباس بن عبدالمطلب ، يا عم رسول الله اعمل لله خيراً إنِّى لا أغنى عنك يوم القيامة من الله شيئاً . ثلاثاً[1].

فالوزن فى القيامة للأعمال لا للأعيان ، لذلك قال النبى ﷺ لقرابته : " لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأحسابكم "[2] . وقال ﷺ : " يا فاطمة بنت محمد ، اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً "

فالأحساب والأنساب لا قيمةَ لها فى هذا الموقف ، وقد علّمنا الحق سبحانه فى قصة إبراهيم عليه السلام أنَّ الأنسابَ بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبارَ لها ، وإنما الأنساب المعترف بها بالنسبة للأنبياء هى أنسابُ القيم والدين .

فـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) ﴾ [المدثر] فالاعتبار إنما هو للعمل والإيمان ، لا لكونك ابنَ نبيٍّ أو ابنَ عالم أو زوجة نبى أو رسول ، وقد أوضح الحقُّ سبحانه هذا فى آيات كثيرة .

وقرأنا فى قصة بدر أن مصعب بن عمير[3] رضوان الله عليه ، وكان فتى

---

(١) عن أبى هريرة قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء] . قال : « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئاً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٥٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٥١) .

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أوليائى يوم القيامة المتقون وإن كان نسب أقرب من نسب فلا يأتينى الناس بالأعمال ، وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم فتقولون : يا محمد فأقول: هكذا وهكذا لا » . أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (٨٩٧) وكذا ابن أبى عاصم فى السنة (٢١٣) عن أبى هريرة .

(٣) هو مصعب بن عمير بن هاشم القرشي من بنى عبد الدار صحابى شجاع من السابقين إلى الإسلام أسلم فى مكة وكتم إسلامه ، شهد بدراً ، أسلم على يده أسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ ، وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد ، وكان فى الجاهلية فتى مكة شباباً وجمالاً ونعمة ، كان يُلقَب (مصعب الخير) توفى ٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٧/ ٢٤٨] .

قريش المدلَّل وأغنى أغنيائها يلبس أفخر الثياب ويعيش ألينَ عيشةٍ ، فلما أُشرب قلبه الإيمان زهد فى كلِّ هذا النعيم ، وحُرم من خير أهله ثم هاجر إلى المدينة ، وهناك رآه رسول الله ﷺ يلبس جلد شاة فقال : انظروا ماذا فعل الإيمان بأخيكم [١]؟

وفى المعركة رأى مصعبٌ أخاه أبا عزيز[٢] أسيراً فى يد واحد من الأنصار هو الصحابى أبو اليَسر[٣] فقال له مصعب : اشدُدْ على أسيرك. يعنى : إياك أنْ يفلتَ منك فإنَّ أمَّه غنية ، وستفديه بمال كثير ، فنظر أبو عزيز إلى مصعب وقال : هذا وصاتك بأخيك ؟ فقال : هذا أخى دونك يشير إلى أبى اليسر .

إذن : فلا أنسابَ بينهم حتى فى الدنيا قبل الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به، فقال النبى : « انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » . أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/١٠٨) والبيهقى فى شعب الإيمان (٥٧٧٩) وابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/٢٠٦) . قال العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/٢٩٥) : إسناده حسن .

(٢) أبو عزيز : هو زرارة بن عمير أخو مصعب بن عمير ، له صحبة وسماع من النبى ﷺ ، واتفق أهل المغازى على أنه أسر يوم بدر. انظر الإصابة لابن حجر [ترجمة ٧٥٣ الكنى] .

(٣) أبو اليسر هو كعب بن عمرو الأنصارى ، شهد العقبة وبدراً وله فيها آثار كثيرة وهو الذى أسر العباس بن عبدالمطلب ، كان قصيراً عظيم البطن ، مات بالمدينة عام ٥٥ هجرية . [الإصابة ترجمة ١٢٤٣]. وقد ضبط الحافظ ابن حجر كنيته (أبو اليَسَر) فقال (٥/٣٠٧) : « بفتح التحتانية باثنتين والمهملة». وقال (٧/٢١٨) : بفتحتين .

والحـق سبحانه لم يذكر اسم امرأت فرعـون ، لأن المهم فى المسألة هو أنها امرأة من ادعى الألوهية ، فقال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى (٣٨)﴾ [القصص]، ورغم أنه أدعى الألوهية فإنه لم يستطع أن يقنع امرأته بأنه إله .

ولم يستطع أنْ يرغم امرأته على أنْ تكفر ، وهذا دليلُ أنه لا ولايةَ للرجل على المـرأة فـى العقيدة حتى إنِ ادَّعَى الألوهية ، وهـو فرعون المتجبر لذلك لم يكُنْ مهماً ذكْر اسم امرأة فرعون لأنَّ تعيُّنها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر .

ففرعـون الـذى أضلَّ النـاسَ وادَّعى الألوهيـة زوجته مؤمنـة ، وكأنَّ الحق سبحانه يُلمح للناس جميعاً أنَّ رأيك فى الدين وفى العقائد رأيٌ ذاتيٌّ لا يتأثَّر بأحد أياً كان ، لا فى الهداية بنبيٍّ ، ولا فى الغواية بأضلِّ الضالين الذى ادَّعى الألوهية .

وهكـذا يحفظ الإسـلام للمـرأة دورها وطاقتهـا ويحترم رأيهـا ، إذن الحق سبحانـه وتعالى أتى بهـذه القصة غير مُشخّصة لتكون نموذجاً وأُسْوة يحتذى بها كلُّ أحد ، وإلاَّ لو شُخِّصت لارتبطتْ بهذا الشخص دون غيره .

فلماذا إبهامُ اسمها ؟ ذلك لنعلم أنه من الجائز جداً أنْ يحصل مثل هذا الأمر لأيِّ امـرأة ، فقـد تكون تحت جبار وكافـر ، وتكون هى مؤمنة ، وقد تكون تحت عبد مؤمن ولا يلمس الإيمانُ قلبها .

وقـد قـال تعالى : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّـن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَـوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِـمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣)﴾ [يونس]

وحـين أراد المفسـرون أنْ يُوضِّحـوا معنى (ذرية) قالـوا : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، ومَنْ آمن من قوم موسى عليه السلام وكتم إيمانه .

كلُّ هـؤلاء منعتْهم خشيـةُ عذاب فرعون من إعلان الإيمـان برسالة موسى،

لأن فرعونَ كان جباراً فى الأرض ، مُدعياً للألوهية ، وإذا ما رأى فرعونُ إنساناً يخدش ادعاءه للألوهية ، فلا بدَّ أنْ يبطش به بطشةً فاتكةً .

لذلك كانوا على خوْفٍ من هذا البطش ، فقد سبق وأنْ ذبح فرعون بواسطة زبانيته أبناءَ بنى إسرائيل واستحيا نساءهم ، وهم خافوا من هؤلاء الزبانية الذين نفَّذوا ما أراده فرعون .

لذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع فى قوله سبحانه (وملئهم) وجاء الضمير مفرداً مُعبِّراً عن فرعون الآمر فى قوله سبحانه : ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ (٨٣)﴾ [يونس] فهم خافوا أنْ يفتنهم فرعونُ بالتعذيب الذى يقوم به أعوانه .

وقد شاء الحقُّ سبحانه أنْ ينشرح صَدْر آسية امرأة فرعون لرؤية موسى وهو طفل فى المهد ، وقد قال تعالى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى (٣٩)﴾ [طه] أى : ليس بذاتك أنْ يُحبك مَنْ يراك إنما بمحبة الله ، لذلك ساعة رأتْه آسية أحبَّته وانشرح صدرُها برؤيته ، فتمسَّكتْ به رغم معارضة فرعون لذلك .

كما أن ابنة فرعون وكانت فتاةً مبروصة أصابها البرص[1] ، ورأت فى الرؤيا أن شفاءها سيكون بشيء يخرج من البحر ، فتأخذ من ريقه وتدهن موضع البرص فيشفى ، فلما رأتْ موسى تذكرتْ رؤياها ، فأخذت من ريقه ودهنتْ جلدها ، فشُفيَتْ فى الحال فتشبَّثتْ به هى أيضاً .

ورغم هذا آمنوا بموسى ، فلم يستطع فرعون المتجبر الذى قال : ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤)﴾ [النازعات] لم يقدر أنْ يمنع امرأته من أنْ تؤمن بالله ، فكان عاجزاً عن أنْ يجعل امرأته كافرة مثله .

وهذا يدلُّ على أن العقيدةَ أمر اختيارى محميٌّ بكلِّ أنواع الحماية ، حتى لا يختار الإنسانُ دينه إلاَّ على أساس من اقتناعه لا على أساس قهره .

---

(١) البرص : مرض جلدى يُحدث بُقعاً بيضاء فى الجلد تُشوِّهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة [القاموس القويم ١/ ٦٤] .

فزوجـة فرعون كانت مثالاً للإيمان الذى قام فى بيت الكفر وفى عُقر داره، وليقينهـا فـى الله سبحانـه وإيمانها به وباليـوم الآخر ووجـود الجنة قالت :

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ (١١) ﴾ [التحريم]

وكانت امرأةُ فرعون تُعذَّب بالشمس ، فكان يُقيدها بأوتاد أربعة من يديها ورجليهـا ويتركها تحت الشمس الحارقة، فـإذا انصرفوا عنها أظلَّتْها الملائكةُ بأجنحتها تقيها حرارة الشمس ، وكانت ترى بيتها فى الجنة[١] .

وقـد كان سببُ إيمان امـرأة فرعون أنهـا رأتْ عذاب فرعون لامـرأة خازن فرعـون وقـد كانـت ماشطة ابنة فرعون ، وقـد وقع منها المشـط يوماً فقالت : تعس مَـنْ كفر بالله ، فقالـت لها ابنة فرعون : ألكِ ربٌّ غـير أبى ؟ فقالت : ربِّى وربّ أبيك وربك ورب كل شيء الله .

فلطمتْهـا ابنةُ فرعـون وضربتها وأخبرت أباها ، فأرسل إليها فرعون فقال لها : أتعبدين رباً غيرى ؟ فقالت : ربى وربك ورب كل شيء الله ، وإياه أعبد .

فكذَّبهـا فرعون وأوتد لها أوتاداً فشدَّ يديْهـا ورِجْلَيْها وأرسل عليها الحيَّات فأتـى عليهـا يوماً فقال لها : أما أنت منتهيـة ؟ فقالت له : ربى وربك ورب كل شـيء الله ، فقـال لها : فإنى ذابح ابنك فى فيك إن لم ترجعى . فقالت له : اقْضِ ما أنت قاضٍ ، فذبح ابنها فى فيها ، وأن روح ابنها بشَّرها فقال لها : اصبرى يا أمه فإن لكِ عند الله من الثواب كذا وكذا ، فصبرت ثم أتى عليها فرعون يوماً آخر فقال لها مثل ذلك .

فقالـت له مثـل ذلك فذبح ابنها الأصغر فى فيها فبشَّرها روحه أيضاً وقال

---

(١) عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تُعذَّب بالشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها فى الجنة . أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٣/١١٤) وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٨/٢٢٩) وعزاه لابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان عن سلمان .

لها : اصبرى يا أمه فإنَّ لكِ عند الله من الثواب كذا وكذا[١] .

وذلك كله بعين امرأة فرعون ، وسمعت كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فآمنتْ امرأةُ فرعون ، وقبض روح امرأة خازن فرعون ، وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها فى الجنة لامرأة فرعون حتى رأتْه ، فازدادت إيماناً ويقيناً وتصديقاً .

واطلع فرعون على إيمان زوجته آسية ، فخرج إلى الملأ فقال لهم : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها فقال لهم : فإنها تعبد رباً غيرى. فقالوا له : اقتلها . فأوتد لها أوتاداً وشدَّ يديْها ورجْليها ، فدعَتْ آسيةُ ربَّها فقالت : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)﴾ [التحريم]

فكشف لها الغطاء فنظرتْ إلى بيتها مبنياً ، ووافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها مبنياً فى الجنة ؟ فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ؟ إنَّا نعذبها وهى تضحك فقبض روحها ، فأبصرت بيتها فى الجنة من دُرَّة بيضاء[٢] ، ولماذا طلبت أن يبنى لها الله بيتاً عنده فى الجنة ؟ هذا مؤذن بأن فرعون وقومهما كانوا يصدونها عن الإيمان بالله ويُزيِّنون لها أنها إنْ آمنت بفرعون تضيع مُلكاً عظيماً وقصراً مهيباً ، فإنْ آمنتْ بربِّ موسى فلن يكون مدفنها الهرم الذى بناه فرعون لنفسه لدفنه مع زوجه .

لذلك طلبتْ أنْ يكون ذلك البيت عند الله ، فقالت مخاطبة ربها ﴿عِنْدَكَ .. (١١)﴾ [التحريم] فهى اختارت جوار الله مالك الملك لا جوار فرعون ، أرادتْ بيتها قريباً من رحمة الله أو فى أعلى درجات المقربين ، وكأنها أرادت الدرجة العليا لأنه تعالى مُنزَّه عن المكان .

---

(١) أورده مجاهد فى تفسيره (٥٢٣/١) وكذا الثعلبى فى تفسيره (١٩٨/١٠) والبغوى فى تفسيره (٢٥٠/٥) عن ابن عباس .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٢٠٣/١٨) من قول أبى العالية . وكذلك من قول سلمان الفارسى فيما روى عنه عثمان النهدى .

و ﴿عِنْدَكَ (١١)﴾ [التحريم] بمعنى عند عرشك ومقرّ عزِّك ، حيث لا تصرف لفرعون ولا ملْكَ له .

وكلمة (البيت) مأخوذة من البيتوتة ، وهو المأوى الذى تأوى إليه وتسكن فيه وتستريح ، فكأنَّ امرأةَ فرعون تريد أنْ تستريح من عذاب فرعون لها .

ثم تقول ﴿وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ (١١)﴾ [التحريم] تطلب النجاة من فرعون وظلمه وشِرْكه وتجبُّره ، فأنقذنى من عذاب فرعون ومن أنْ أعملَ عمله ، وذلك كفره بالله .

فهى تسأل الثبات على الإيمان بالله ، فخلِّصنى من كفره فإنى أبرأ إليك من عمله ونفسه الخبيثة وسلطانه الغشُوم وتعذيبه لعباد الله بغير جُرْم .

﴿وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)﴾ [التحريم] الذين ارتكبوا الظلم الأصيل وهو الشرك بالله ، فأشركوا الفرعون مع الله وتبعوه فى ادعائه الألوهية والربوبية .

ونعرف أنَّ الظلم هو نَقْل حَقٍّ إلى غير صاحبه ، وأعلى مراتب الظلم هو الشرك بالله وهو الظلم العظيم ، فالحق سبحانه يقول ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] وهم أهل دين فرعون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

وليستْ امرأةُ فرعون فقط التى ضربها الله مثلاً للذين آمنوا من النساء ، بل ضرب الله مريمَ ابنة عمران مثلاً ، قال تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢)﴾ [التحريم]

وقد ذكر الحق سبحانه هنا مريم باسمها المشخِّص لها وذكر اسم والدها لأن الحدث الذى حدث لها لن يتكرر فى امرأة أخرى ، فهو حدث فريد وشيءٌ خاصٌّ بها لن يتكرر فى غيرها ، لذلك عيَّنها الله وعرَّفها .

أما الأمر العام الذى يتكرر فمن الحكمة أنْ يظلَّ مُبهماً غير مرتبط بشخص أو زمان أو مكان ، كما فى قصة أهل الكهف ، فقد أبهم الحق سبحانه شُخوصها لتكون مثالاً وقدوةً لكلِّ مؤمن فى كلِّ زمان ومكان .

لذلك جاءت شخصيات قصص القرآن مُجهَّلة إلا قصة واحدة هى قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران ، لماذا ؟ لأنها معجزة لن تتكرَّر ، ولذلك حدَّدها الله بالاسم .

وكلمة (عمران) هذه حين ترد فى الإسلام فلنَا أنْ نعرف أنَّ هناك اثنين لهما نفس الاسم ، هناك (عمران) والد موسى وهارون عليهما السلام ، وهناك عمران آخر .

إنَّ عمران والد موسى وهارون ، كان اسم أبيه يصهر وجدّه اسمه (قاهات) ومن بعده لاوى ومن بعده يعقوب ، ومن بعده إسحاق وبعده إبراهيم ، أما عمران الآخر فهو والد مريم عليها السلام .

وعمران والد مريم هو ابن ماثان ، وهو من نسل سليمان ، وسليمان من داود .

وقد قال الله عن مريم ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾ [آل عمران]

والاصطفاء اختيارٌ واجتباءٌ ، والشيء المصطفى هو الشيء الخالص من الكَدر، وقد اصطفاها الله اصطفاءيْن ، الاصطفاء الأول ورد دون أنْ تسبقه كلمة (على) ، أما الاصطفاء الثانى فتسبقه كلمة (على) .

والمقصود بالاصطفاء الأول هو إبلاغ مريم أنَّ الله ميَّزها بالإيمان والصلاح

والخُلُق الطيب ، وهذا الاصطفاء قد يشترك فيه أفراد متعددون فيهم الرجال والنساء .

أما الاصطفاء الثانى المسبوق بـ (على) فقال : ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾ [آل عمران] فهذا اصطفاء خاصّ على النساء وتمييز مريم بأمر لا تشترك فيه مع النساء ، فهى الوحيدة التى ستلد دون ذكَر، وستكون أماً لمولود بلا أب .

وهنا يَذكرها الحق سبحانه فيقول﴿ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا (١٢) ﴾ [التحريم] و (أحصنت فرجها) أى : أنها عفَّتْ ومنعتْ أيَّ إنسان أنْ يقتربَ منها ، التى أحكمتْ صيانة عِفتها فلم تُمكِّن منها أحداً .

وأصل الإحصان هو العفَّة تُوصف به الحرة ، لأنَّ الحرة عادة لا يقربها أحد ، وتُطلق المحصنات على الحرائر ، فالوضع العام للحرة هو الذى يجعل لها أهلاً ولا يجتريء عليها أحد .

والمحصنة لها إطلاقاتٌ ثلاث ، فهى المتزوِّجة لأن الإحصانَ الحفظ وكأنها حفظتْ نفسها بالزواج أو هى العفيفة وإنْ لم تتزوج ، فهى مُحصَنة فى ذاتها ، والمحصنة هى أيضاً الحرة لأن عملية البغاء والزنا كانت خاصةً بالإماء .

والإحصان هو الحفظ وهو من كلمة الحصن ، وهو الشيء المنيع الذى يحمى مَنْ بداخله ، وحصَّنت نفسها بالزواج أنْ تميل إلى الفاحشة ، فهى حفظتْ نفسها بالزواج أو هى العفيفة وإنْ لم تتزوج ، فهى مُحصنةٌ فى ذاتها ، ومريم عليها السلام لم تتزوَّج ولكنها عفيفة فى ذاتها .

ولكن إذا كانت ﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا (١٢) ﴾[التحريم] فمن أين جاء ابنها عيسى عليه السلام ، يقول تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا (١٢) ﴾ [التحريم]

والنفخ هنا فى الفرج وليس فى هيئة الشيء ، وقد كانت هذه خصيصةً

لعيسى بن مريم عليهما السلام ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فهذا نَفْخ فى طين مُشكَّل فى هيئة طيْر فتنفخ فيه الروح فيتحرك، أما النفخُ فى السيدة مريم فكان نفخاً فيها هى كما فى قوله تعالى: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾ [الأنبياء]

وكان أيضاً نَفْخاً فى فَرْجها، قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا (١٢) ﴾ [التحريم] والقولان متساويان، والنفخة التى نفخها الله فى آدم وهو مُنجدل[1] فى طينته جاءت منها روح واحدة.

ولم يكُن النفخ فى فَرْجها مباشرة إنما كان النفخ فى جَيْب درعها أى فتحة الرقبة من ثوبها حتى وصلتْ النفخةُ إلى الرحم فاشتملتْ على عيسى عليه السلام وحملتْ به.

وكلُّ خُرْق فى الثوب يُسمَّى جَيْباً وفَرْجاً، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) ﴾ [ق]

وقوله ﴿ مِن رُّوحِنَا (١٢) ﴾ [التحريم] وكلمة الروح فى القرآن الكريم لها إطلاقاتٌ متعددة، أولها الروح التى بها قوام حياتنا المادية، فإذا نفخ الله الروحَ فى المادة دبَّتْ فيها الحياةُ والحِسُّ والحركة، ودارتْ كلّ أجهزة الجسم.

والروح أيضاً جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا (١٧) ﴾ [مريم] أى جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) ﴾ [مريم] معنى (تمثَّل) أى ليستْ هذه حقيقته إنه تمثَّل بها، أما حقيقته فنُورانية ذاتُ صفاتٍ أخرى،

---

(١) منجدل فى طينته أى مطروح على وجه الأرض صورة من طين لم تجر فيه الروح بعد [غريب الحديث للخطابى ١٥٦/٢]، والمنجدل: الساقط. (لسان العرب – مادة: جدل). وقد أخرج الحاكم فى مستدركه (٣٥٦٦) عن عرباض بن سارية صاحب رسول الله، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنى عبد الله وخاتم النبيين وأبى منجدل فى طينته وسأخبركم عن ذلك، أنا دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمى آمنة التى رأت» وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأقره الذهبى.

وذاتُ أجنحة مثنى وثلاث ورباع[١] .

فجبريل عليه السلام جاءها فى صورة بشرية لأنهما سيلتقيان ، ولا يمكن أنْ يتمَّ هذا اللقاء خُفْية ، وكذلك يستحيل أنْ يلتقى الملَكُ بملكيته مع البشر ببشريته .

فلكُلٍّ منهما قانُونه الخاص الذى لا يناسب الآخر ، ولا بدَّ فى لقائهما أنْ يتصور الملَكُ فى صورة بشر ، أو يُرقِّى البشر إلى صفات الملائكة كما رقى محمد ﷺ إلى صفات الملائكة فى حادثة الإسراء والمعراج ، ولا يتم الالتقاء بين الجنسين إلا بهذا التقارب .

﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ (١٢) ﴾ [التحريم] ومعنى (وصدقت) أى : آمنت . والتصديق هو الإقرار والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل ، والمؤمن إنما يُعرف إيمانُه بالعمل ، فالدليل الصحيح على إيمان المؤمن هو عمله .

إذن : فالتصديق هو أمرٌ فوق الإيمان القلبى المجرد ، ولكن مدخل الإيمان هو التصديق بالقضية العقدية الجازمة ، فالصدق هو رأس الأمر كلِّه .

و (كلمات الله) هى كُنْ وكل مرادات الله فى كونه ، ما علمنا منه وما سنعلم، وما لم نعلم إلا حين تقوم الساعة ، وعيسى عليه السلام هو كلمة ﴿ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ (١٧١) ﴾ [النساء]

والمعنى أنه لم يُخلق بالطريق الطبيعى فى خَلْق البشر من أب وأم ، إنما خُلِق بهذه الكلمة (كن) لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد أنْ يُثبت لنفسه طلاقة

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ (١) ﴾ [فاطر] ذكر السيوطى فى كتابه (الحبائك فى أخبار الملائك ١/٢٠٢) أن لجبريل ستة أجنحة جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وجناحان على عينيه وجناحان منهم من يقول : على ظهره ومنهم من يقول : متسرولاً بهما . وعن قتادة قال : بعضهم له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة أجنحة ، وبعضهم له أربعة أجنحة . أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم (الدر المنثور ٧/٤) .

القدرة فى الإيجادات ، وأنه سبحانه يخلُق كما يشاء .

فمرَّة يخلق بلا أب وبلا أم كما خلق آدم عليه السلام ، ومرة يخلق بأم دون أب كما خلق عيسى عليه السلام ، ومرة يخلق بأب وأم ، ويخلق بأب دون أم كما خلق حواء .

فتصديقها ﴿ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا (١٢) ﴾ [التحريم] هو تصديقٌ بما قاله لها جبريل عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) ﴾ [مريم]

وهى أى مريم صدَّقتْ بكلمات ربِّها وكُتبه ، أى بما أنزله الله من كتب على رسله السابقين وكانت مؤمنة بتوراة موسى ، ولذلك كانت تتعبَّد الله فى محرابها ، وزوج أختها كان زكريا النبى عليه السلام ، وابن أختها كان النبى يحيى عليه السلام.

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾ [التحريم] والقانتون جمع قانت ، وهو العبد الذى يُؤدِّى عبادة ربه بخشوع وباطمئنان وباستدامة ، فالذى يُقبل على الطاعة ثم ينصرف عنها كأنه قد جرَّب وُدَّه لله ، فلم يجد الله أهلاً للود .

أما العبد الطائع القانت فهو لا ينصرف عن العبادة لأنه ذاقَ حلاوة استدامة العبادة لله ، وما دام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يُقبل عليها بخشوع واطمئنان واستدامةٍ ويدخل فى دائرة القانتين .

والمرأة الصالحة هى المرأة التى استقامت على المنهج الذى وضعه لها مَنْ خلقها فى نوعها ، فما دامتْ هى صالحةً تكون قانتة ، والقنوت هو دوامُ

الطاعة لله ، ومنه قنوت الفجر الذى نقنته وندعو ونقف مدةً أطولَ فى الصلاة التى فيها قنوت .

والمرأة القانتة خاضعة لله ، إذن فحين تكون خاضعةً لله تلتزم منهج الله وأمره .

فهى ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا (١٢) ﴾ [التحريم] وهى ﴿ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾ [التحريم] وقد وصفها الحق سبحانه بأنها صِدِّيقة ، فقال تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ..(٧٥) ﴾ [المائدة]

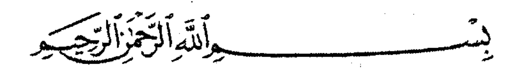
﴿صِدِّيقَةٌ.. (٧٥) ﴾ [المائدة] أى مُصدِّقة بما جاء به ، فالصِّديق والصِّديقة ليس هو الذى يَصدُق بل الذى يُصدِّق ، والصِّديقية صفةٌ ذاتية إشراقية من الله.

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾ [التحريم]


سُورَةُ المُلْكِ

سورة الملك (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

الملـك لله وحـده ليس لأحد غـيره ، وهو سبحانـه قدير على كل شـيء ، كُنَّا عدمـاً فأحيانـا الله فى كوْن هو سبحانه خالقه ، هـو سبحانه أعدَّه لنا قبل أنْ يخلقنا.

وسـورة تبارك تُقدِّم لنا تصوراً واسعاً شاملاً يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيِّـز الدنيا المحدود إلى عوالم فى السماوات لا يعتريها الخلل ، ففهْم الإنسان لطبيعـة تواجـده فى هذا الكـون المنضبط بأمـر الله وحده يجعلـه متوافقاً مع منظومة الكون الكبرى المسبِّحة لله .

(١) سورة الملك سورة مكية عدد آياتها ٣٠ ، نزلت بعد سورة الطور ، وتُسمَّى الواقية والمنجية والدافعة ، وعن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ « وددت أن تبارك الذى بيده الملك فى قلب كل مؤمن » . وعن أبى هريرة أن رسول الله قال : « إن سورة من كتاب الله ما هى إلا ثلاثون آية شفعت لرجل وأخرجته يوم القيامة من النار وأدخلته الجنة وهى سورة تبارك » . ذكرهما الثعلبى فى تفسيره (٩/٣٥٤) .

ويقـول الحق سبحانـه ﴿ تَبَارَكَ .. (١)﴾ [تبـارك] وتبارك أى تنزَّه الله تعالى . ولـو استعرضـتَ كلمة (تبارك) فى القرآن الكريم ستجـد فيها ألفاً بعد البـاء ، وتأتـى مـرة بغير ألف ، فالمسألة ليست لها رتابـةُ كتابة لأنها لو كانت رتابةَ كتابة لجاءتْ على نظام واحد .

وقـد شاء الحق سبحانه هـذا الأمر لتكون كتابةُ القـرآن معجزة ، كما كانت ألفاظُـه وتراكيبه معجزةً . وقد قـال البعض : إن العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يكونوا أهلَ إتقانٍ للكتابة .

ونقول : لو كانوا على غير دراية بالكتابة لما كتبوا (بسم) من غير ألف فى موقعهـا ، لقد علمـوا أنَّ القرآن يجب أنْ يُكتب كما نـزل به جبريل عليه السلام على رسول الله كتابةً توقيفية ، أى كما أمر الحق سبحانه .

وكلمـة ﴿ تَبَـارَكَ .. (١)﴾ [تبارك] مادة البـاء والـراء والكاف عادة تدل على البركة ، وهى أنْ يعطيك الشيءُ من الخير فوق ما تظن فيه ويزيد عن تقديرك ، كمـا لو رأيتَ طعام الثلاثة يكفى العشـرة فتقول : إنَّ هذا الطعام مبارك أو فيه بركة .

ومن معانـى تبارك : تعالى قدْره . وتبارك : تنزَّه عن شبه ما سواه ، وتبـارك: عظُمَ خيره وعطاؤه . وهذه الثلاثة مُكمِّلة لبعضها .

ومـن العجيـب أن هـذا اللفـظ ﴿ تَبَـارَكَ .. (١)﴾ [تبارك] مُعجز فـى رَسْمه ، ومُعجز فى اشتقاقه ، فلو تتبعتَ القرآن لوجدتَ أنَّ هذه الكلمة وردتْ فى القرآن تسع مرات ؛ سبع منها بالألف (تبارك) ، ومرتان بدون الألف .

فلمـاذا لم تُكتب بالألف فى الجميع أو بدونهـا فى الجميع ؟ ذلك ليدلّك على أنّ رسم القرآن رسمٌ توقيفيٌّ ، ليس أمراً (ميكانيكياً) ، كما فى قوله تعالى فى أول سورة العلق ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١)﴾ [العلق] ، فرسم كلمة اسم هنا

بالألف ، وفى باقى القرآن بدون الألف .

فالقرآن ليس عادياً فى رَسْمه وكتابته ، وليس عادياً فى قراءته ، فأنت تقرأ في أى كتاب آخر على أىّ حال كنت ، إلا فى القرآن لابدّ أنْ تكون على وضوء وتدخل عليه بطهر .

إذن فـ ﴿ **تَبَارَكَ** ..(١)﴾ [الفرقان] تدور حول معانٍ ثلاثة : تعالى قَدْره وتنزّه عن مشابهة ما سواه ، وعَظُم خَيْره وعطاؤه ، ومن تعاظم خيره سبحانه أنه لا مثيلَ له : فى قدره ، ولا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى فعله . وهذا كلُّه من مصلحتنا نحن ، فلا كبيرَ إلا الله ، ولا جبَّارَ إلا الله ، ولا غنيَّ إلا الله .

وعندما نقرأ كلمة ﴿ **بِيَدِهِ** ..(١)﴾ [تبارك] لابد أنْ نعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى أعلمُ بذاته فنقف عند الوصف ، نعم له يدٌ ، وله يدان ، وإياك أنْ تتصور أنَّ كلَّ ما يتعلق بالله مثل ما يتعلق بك .

فالأصل أنَّ لك وجوداً ، ولله سبحانه وجود ، لكن وجودك غير وجود الله ، وكذلك يده ليست كيدك ، حتى لا نُشبِّه ونقول : إنَّ له يداً مثل أيدينا ، فلنقُلْ إنَّ المراد باليد هو القدرة أو النعمة ، والهدف الراقى هو تنزيه الحق .

وهناك مَنْ يقول : إنَّ لله يداً ولكن ليست كأيدينا لأننا نأخذ كلَّ ما يأتى وَصْفاً لله على أنه ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** .. (١١)﴾ [الشورى] والتأويل ممكن .

ويقول الحق ﴿ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ** .. (٦٤)﴾ [المائدة] والحق سبحانه عندما يقول ﴿ **يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** .. (١٠)﴾ [الفتح] أى أن قدرة الله فوق قدرتهم ، وكما قال سبحانه عن قدرته فى الخلق : ﴿ **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ**[1]

(١) بأييد : أى بقوة وقدرة . وهى مكتوبة فى رسم المصحف بياءين بعد الألف (بأييد) ، فرقاً بين (الأيد) الذى هو القوة ، وبين (الأيدى) جمع (يد) ولا شك أن القوة التى بنى بها الله السماء هى أحق بالثبوت فى الوجود من (الأيدى) [الموسوعة القرآنية – الإبيارى ٣/١٠٤] .

وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)﴾ [الذاريات]

فإذا كان الملْك بيد الله فلا تقلق على رزق ، فاطمئن فما دام الله قد استدعاك فإنه ضمن لك رزقك ، ورزقُكَ ينزل من السماء على الأرض فينبت نباتٌ يأكل منه كل كائن على الأرض ، والإنسان أحد هذه الكائنات ، وقد يأكل بعض ما يأكل النبات كالأنعام والماشية .

ورزقك إنما هو مرتبط بكلِّ ظواهر الطبيعة على الأرض من رياح وهواء ودفء شمس أو مطر ينزل من السحاب ، وهذا كله فى مُلْك الله سبحانه ، هو بيده سبحانه لا بيد إله آخر لأنه لا يوجد إله آخر ، فَلِمَ تقلقُ على رزقك ؟

والحق سبحانه ﴿ بِيَدِهِ الْمُلْكُ .. (١)﴾ [تبارك] والملْك يقتضى مالكاً ويقتضى مملوكاً ، ويقتضى قدرةً على استمرار هذا الملْك وعدم زواله ، فكأنَّ الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يبين لنا أنه يقدر ويملك المقدرة .

والإنسان ليست له قدرة التملك ولا المقدرة على استبقاء ما يملكه ، وهناك كلمتان (ملْك) و (مُلْك) . وكلمة (مِلك) تعنى أن للإنسان ملكيةَ بعض الأشياء، كملكية إنسان لملابسه وكتبه وأشيائه .

لكنّ تملّكَ مالِكِ هذا الملِك فهذا نُسمِّيه (مُلْك) ؛ فإذا كانت هذه الملكية فى الأمر الظاهر لنا فإننا نُسمِّيه (عالم المُلك) ، وهو العالم المُشاهد ، وإذا كانت هذه المِلكية فى الأمر الخفى فإننا نسميه (عالم الملكوت) .

إذن نحن هنا أمام (مِلك) و (مُلك) و (ملكوت) . والملكية بالنسبة للإنسان تتلخص فى أنْ يملك الإنسانُ شيئاً فيصير مالكاً ، وإنسانٌ آخر يُولِّيه الله على جماعة من البشر فيصير ملكاً ، هذا فى المجال البشرى .

أمـا فى المجال الإلهى فإننا نصعد لـنرى مَنْ يملك كل مالكٍ وملك ، إنه **الله** سبحانـه وتعالى ، ولا يظن أحدٌ أن هناك إنساناً قد ملك شيئاً أو جاهاً فى هذه الدنيا بغير مراد **الله** فيه .

والحق سبحانـه يقول : ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (٢٦)﴾ [آل عمران]

فمَنْ كان لـه ملْك فإنه لا يدوم ، لأن **الله** ينزع الملْك ممنْ يشاء ويعطيه لمَنْ يشاء ، ف**الله** سبحانه هو الذى يعطى الملْك لمَنْ يشاء وهو سبحانه الذى ينزعه ممَّنْ يشاء ، إنها إرادةُ **الله** الخالق الأعلى ، فعندما يريد فلا رادّ لقضائه .

ف**الله** بمطلق قدرته وقوته على الملْك خلق الموت والحياة ، وخلق السماوات بكواكبها وشموسها ونجومها ، **الله** بقدرته ذلَّلَ الأرض والجبال والأنهار لخدمة الإنسان ، وطلب من الإنسان أنْ يسعى فى مناكب الأرض ونواحيها ابتغاءَ رزق **الله** .

ف**الله** سبحانـه هو القادر والقدير خلق إنساناً وأعطى له القدرة على تعمير الأرض وشقّ الطرق والجبال ، ولكن هذا بإقدار **الله** له لا لذاتية فى الإنسان .

والحق سبحانـه يقول : ﴿ **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**(١)﴾ [تبارك] ، فللحق سبحانه طلاقةُ القدرة فى مُلكه ، ولذلك إذا قال إنه سيأتى بأمر فسيتحقق هذا الأمر حتماً وسيتم ، ولا توجد قدرة فى هذا الكون إلا قدرة **الله** سبحانه ، ولا قوةَ إلا قوته جلَّ جلاله ، ولا فعْلَ إلا ما أراد .

و**الله** سبحانـه لا يُعجزه شيء ولا يخرج عن طاعته شيء ، إنه سبحانه على

كل شـيء قديـر ، فكلّ شيء يدخل فى إرادة الله وقدرتـه ، فـالله لـه ملك السمـاوات والأرض ، وهـو على كل شيء قدير .

وهـو سبحـانــه القادر الأعلـى ، القادر علـى كل شيء ، القـادر على الإيجاد وعلـى الإمداد ، وعلـى البداية والنهاية المحدودة ، وبدايـة الخلود إما إلى جنة وإما إلى نـار ، فهو القادر على كل شيء .

ومـا دامـت الأحداث تختلف بـاختلاف القدرات فقـدرة الله هـى القدرة العليا التى لا تحتـاج لزمنٍ لفعل الأحداث .

والحق سبحـانـه يقول : ﴿ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الـروم]

فـالحق سبحـانـه له صفـاتُ الكمـال والقدرة على كلّ شيء عِلْمـاً وقدرةً وحكمة وبسْطاً وقبضـاً ونفعـاً وضـراً.

والله قديـر حتـى قبل أنْ يُوجد مقدور عليه ، فلم يكُنْ قديراً فقط عندمـا خلق الإنسـان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسانَ ، لأن الله سبحـانـه وتعـالى ليس أغيـاراً، لذلك يظل قديراً وموجوداً فى كل لحظة ، وهو القدير أبداً .

وكلمـة (قديـر) بصيغـة (فعيل) التـى تـأتى بمعنى (فـاعـل) وتـأتى بمعنى (مفعول) مثلمـا تقول : الله رحيم . أى : أنـه راحم هو فـاعل ، ونقول : فلان قتيل: أى مقتول أى مفعول بـه .

ثم يقول الحق سبحـانـه :

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) ﴾

الله جعـل للإنسـان روحـاً يهبه بهـا الحياة ، ولذلك لنـا أنْ نتصوَّر أنَّ للموت حقيقة ، فـإذا مـا تسلل للإنسـان فـإنه يسلب الروحَ منـه .

وبذلك نستطيع أنْ نفهم قولَ الحق سبحانه ﴿ الَّذى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك] إذن : فالموت ليس عملية سلبية كما يتوهم بعض الناس ، بل هو عملية إيجابية ، وهو مخلوق بسرٍّ دقيق للغاية يناسب دقَّة الصانع .

والحق سبحانه هنا قدَّم الموت على الحياة ، مع أننا فى ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتى أولاً ثم يأتى الموت ، لا ، إن الموت يكون أولاً ، ومن بعده تكون الحياة .

فالحياة تعطى للإنسان ذاتيةً ليستقبل بها الأسباب المخلوقة ، فيحرث الأرض أو يتاجر فى الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ويمتع به السمع والبصر فيظن أن الحياة هى المخلوقة أولاً .

يُنبِّهنا ويُوضِّح لنا الحق : لا تستقبل الحياة إلا إذا استقبلتَ قبلها ما يناقض الحياة ، فيقول لنا عن نفسه : ﴿ الَّذى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك]

وهذا ما يسهِّل علينا فَهْم الحديث القدسى الشريف الذى يشرح لنا كيف يكون الحال بعد أنْ يوجد أهلُ الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، ويأتى الحق سبحانه بالموت فى صورة كبش ويذبحه .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « يُؤتَى بالموت يوم القيامة فيُوقف على الصراط . فيقال : يا أهل الجنة . فيطلعون خائفين وجلين أنْ يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم ربنا هذا الموت . ثم يُقال : يا أهل النار . فيطلعون فرحين مستبشرين أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيُقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هذا الموت ، فيأمر به فيُذبح على الصراط . ثم يُقال للفريقين كليهما : خلود فيما تجدون لا موتَ فيه أبداً »[١] .

وتجسيد الموت فى صورة كبش معناه أن للموت كينونة ، ويعلمنا الله أنه

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٣٠) والترمذى فى سننه (٣١٥٦) وقال : حسن صحيح . والآجرى فى كتابه الشريعة (٩٤٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

يقضى على الموت فنحيا فى خلود بلا موت .

والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الموت والحياة وهو الباقى أبداً ، وليس فى حاجة لاستبقاء حياته إلى أحد من البشر ؛ فهو سبحانه قادر على كل شيء ولا يخرج شيءٌ عن نطاق قدرته .

وهو سبحانه قبل أنْ يمتنَّ علينا بالحياة فهو يُحذِّرنا أنْ يأخذنا الغرور بهذه الحياة ، فالحق سبحانه ينبه الإنسان إلى أنْ يستقبل الحياة وهو يعرف أنه سبحانه أوجد ناقض الحياة وهو الموت .

فإياك أنْ تأخذ الحياة على أنها تعطيك قوة الحركة والإدراك والإرادة برتابة وأبدية ، لأن هناك ناقضاً للحياة وهو الموت .

والحق سبحانه لم يقل إنه خلق الحياة والموت ، بل قال : ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك] وذلك حتى يستقبل كلٌّ منّا الحياة ويسبقها فى الذِّهْن ما ينقض هذه الحياة وهو الموت .

وذلك حتى لا تتعالى ولا تغفل عن هذه النهاية ولتكُنْ على بالك ، فترُتِّب حركة حياتك على هذا الأساس .

وكأنَّ الحق سبحانه ينعى إلينا أنفسنا قبل أنْ يخلق فينا الحياة ، وقدَّم الموت على الحياة لتستقبل قبلها الموت الذى ينقضها فلا تغتر بالحياة وتعمل لما بعد الموت .

والذى يستعرض آيات القرآن يجد أن الحياة سبقتْ الموت فى كلِّ الآيات إلا فى آية واحدة فى سورة تبارك ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك]

وعِلَّة ذلك أن الله تعالى يعطى للإنسان بالحياة إرادة تنشيء الحركة فى كلِّ أجهزته ، والحياة قد تُورث الإنسان غروراً فى سيطرته وإرادته على جوارحه فيطغى ، فأراد ربُّه عز وجل أنْ يُنبِّهه : تذكَّرْ أننى أميت؛ ليستقبل الحياة ومعها

نقيضها فيستقيم فى حركة الحياة .

وصفة الخَلْق والإماتة صفاتٌ لله قديمة قبل أنْ يخلق شيئاً أو يُميت شيئاً ، لأنها صفاتٌ ثابتة لله قبل أنْ يباشر متعلقات هذه الصفات .

وكما أن الحياة مخلوقة ، فالموت كذلك مخلوق ، والموت أمر حِسِّى مُشَاهد، والموت والحياة بيد الله ، وأمرُ الموت مرهونٌ بمشيئة الله وطلاقة قدرته وتحديده لكلِّ أجل بوقت معلوم لا يتقدَّم ولا يتأخَّر ، وسيلقى كلّ إنسان نتيجة عمله .

فأمر الموت والحياة بيد واهب الحياة ، فلا يظن ظَانّ أن القتال هو الذى يُسبِّب الموت ، وها هو ذا قوْل خالد بن الوليد على فراش الموت باقياً ليعرفه كلُّ مؤمن بالله :

لقد شهدتُ مائة زحف أو زُهَاءها وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة برمح ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء[1] .

إذن : فأمر الحياة والموت ليس مرهوناً بقتال أو غيره ، إنما هو محدَّد بمشيئة الله ، والحق سبحانه يقول: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣)﴾ [الحجر]

وحين يتناول الحق سبحانه فى هذه الآية أمر الموت والحياة ، وعودة الكون فى النهاية إلى منشئه سبحانه ، فهو يُحدثنا عن أمرين يعتوران حياة كل موجود ، هما الحياة والموت ، وكلاهما يجرى على كل الكائنات ، فكلّ شيء له مدة يحياها وأجَل يقضيه .

وخلْق الموت والحياة له غايةٌ ذكرها الحق سبحانه فى قوله تعالى :

---

(١) ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب (١/ ٤٠٩) والذهبى فى سير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٢) والكاندهلوى فى حياة الصحابة (١/ ٥٦٥) . وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٧/ ١٢٩) وعزاه للواقدى عن ابن أبى الزناد .

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. (٢)﴾ [تبارك]

فالابتلاء غاية للحياة والموت ، فالحياة ليست رتابة ، بل هى ابتلاء واختبار للبشر ، والابتلاء ليس أمراً مذموماً فى ذاته ، هو مذموم باعتبار ما تئول إليه نهايته ، وما دام سبحانه يبتلينا فيما آتانا فيجب أنْ نكون حكماء، وأنْ نتسابق إلى الخير .

يقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)﴾ [المائدة]

والتسابق إلى الخيرات إنما يكون بهدف النجاح فى الابتلاء ، والنجاح يعطينا أكثر مما ننال بعدم الانصياع . إذن : فالابتلاء فى مصلحتنا يعطى الناجحين فيه نجاحاً أخلد .

فمعنى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ .. (٢)﴾ [تبارك] أى ليختبركم اختبارَ إقرارٍ على نفوسكم أى ليختبركم أيّكم أحسنُ عملاً ، ولكن مَنِ الذى يُحدِّد العمل ؟ إنه الله سبحانه وتعالى .

وهل الحق سبحانه فى حاجة إلى أنْ يختبر مخلوقاته ؟ لا ، فالله سبحانه يعلم أزلاً كلَّ ما يأتى من الخَلْق ، ولكنه سبحانه أراد بالاختبار أنْ يُطابقَ ما يأتى منهم علي ما عمله أزلاً حجة عليهم ، وهكذا فاختبار الحق سبحانه لنا اختبارُ الحجة علينا .

والابتلاء من الله نعمة وليس شراً كما يظن بعضُ الناس ، فالابتلاء هو امتحان إنْ نجحنا فيه فهو خير ، وإنْ رسبنا فيه فهو شرٌّ ، فالابتلاء ليس شراً ولكنه مقياسٌ لاختبار الخير والشر .

الذى ابتلى هو الله سبحانه ، هو الرب والربّ معناه المربِّى الذى يأخذ مَنْ يُربّيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه ، ومن أساس التربية أنْ يمتحن المربِّى مَنْ يربيه ليعلم هل نجح فى التربية أم لا ؟

ولا بدّ أنه سيأتينى من الابتلاء خير ، وقد يكون الابتلاء فتنة يتعرض

لهـا الإنســان ، فـالفتنة أيضـاً هـى الابتلاء والاختبـار ، ويُقال : فتنتُ الذهب أى وضعـتُ الذهب فــى بوتقة وحوَّلته بـالحرارة العالية مـن جسم صلب إلى سائل حتى تستخلصه من المواد العالقة الشائبة التى فيه ليصير نقياً .

والفتنة فى ذاتها ليست مذمومة ، ولكن المذموم منها هو النتيجة التى تصل إليهـا ، أينجح الإنسان فيها أم يرسـب ؟ لأن الاختبارات التى يمرُّ بها الإنسان كلها هى فتنة ، والذى ينجح تكون الفتنة بالنسبة إليه طيبة .

والـذى يرسب ويفشـل فالفتنة بالنسبـة إليه سيئة ، والحـق سبحانه أعطى للإنســان قدرة الاختيار ، وقد أراده الله مختــاراً وأن يُبتلى وأن يُختبر ، أينجح أم يرسب ؟ أيكون مؤمناً أم كافراً ؟

والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً وكان فى باله الله حين عمل ، والخاسرون هم الذين يعملون للناس ، لأن الناس لا يملكون لهم نفعاً ، فمَنْ أحسن عملاً لله أخذ أجره من الله فى الدنيا والآخرة .

وقـد قـال تعـالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠)﴾ [الكهف]

و (مَنْ) هنا عامة للمؤمن والكافر ، لذلك لم يقُلْ سبحانه : إنَّا لا نضيع أجر مَنْ أحسن الإيمان ، لأن العامل الذى يحسن العمل قد يكون كافراً ؟ ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حقّه ، بل يعطيه حظه من الجزاء فى الدنيا .

فالكافـر إن اجتهـد وأحسـن فـى علم أو زراعـة أو تجـارة لا يُحرم ثمـرة عمله واجتهاده ، لكنها تُعجَّل له فى الدنيا وتنتهى المسألة حيث لا حظَّ له فى الآخرة.

وهو سبحانه ﴿ الْعَزِيزُ .. (٢)﴾ [تبارك] العزيز الذى لا يُغلب لجبروته ولا يسأله أحد ، فهو سبحانه الغالب على أمره ، وهو القوى الشديد الذى لا ينال منه أحد .

فكلمة (العزيز) تفيد الغلبة والقهر والقدرة فلا يستطيع أحدٌ أنْ يعلو عليه، فالعزة هى القوة والغلبة ، وهو سبحانه العزيز المطلق لأنه لا إله إلا هو لا يُغلب ولا يُقهر .

وهو سبحانه (رب العزة) فى كل ألوانها ، إنْ كانت عزة حكمة فهو الحكيم،

وإنْ كانت عزة غضب وانتقام فهو المنتقم الجبار، وإنْ كانت عزة قبْض على الأمور فهو العزيز، وإنْ كانت عزة حلم فهو الحليم.

ولأنه سبحانه (العزيز) الذى لا يُغلب ولا يُقهر، فهو أيضاً ﴿الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)﴾ [تبارك]، فهو لعزته يغفر ولجبروته يصفح لأنه غنيٌّ عن العالمين.

ولكى نفهم هذا نقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة]

إلى أنْ يقول: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة]. وكان المنطق العقلى يقتضى أنْ نقول: فإنك أنت الغفور الرحيم، فالمقام مقام مغفرة.

لكن عيسى عليه السلام يأتى بها لا من ناحية الغفران والرحمة، وإنما من ناحية طلاقة القدرة والعزة التى لا يستدرك عليها أحد، لذلك قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة]

فلو قال الناسُ: لماذا غفرت لهم مع أنهم قالوا كذا وكذا؟ فالإجابة أننى أنا العزيز الذى أغلب ولا أغلب، ولا يستدرك أحدٌ على حكمى.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا(١) مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾

(١) طباقاً: بعضها فوق بعض بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عاماً وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام. قال الأخفش فى معانى القرآن (٢/٥٤٦): طباقاً واحدها الطبق. وقال الطبرى فى تفسيره (٢٣/٥٠٥): أى طبقاً فوق طبق بعضها فوق بعض.

تفاوت: اختلاف. فلا خلل فى خلق الله، ولا اختلاف ولا اضطراب ولا تشقّق فلا ترى فيها شقوقاً.

فطور: يعنى من فروج. وقال قتادة: من خلل. [تفسير عبد الرزاق ٣٢٦٢] والفطور: الصدوع.

الله هـو الإلـه الخالق للكـون ، وهو سبحانـه الخالق البديـع الحكيم الرحيم بعبـاده ، وهو الخالق لـكلٍّ ما فى السماوات والأرض ، ومنـزه سبحانه عن أنْ يكـون لـه شريـكٌ فيمـا خلق فهو ﴿ الَّذِى خَلَقَ .. (٣)﴾ [تبـارك]

والله خالـق ، والله رحمـن ، والله رحيم ، والله قهار ، وسبحانه رحمن ورحيم وقهـار ، وخالق حتى قبل أنْ يبرز ويظهـر ما يخلقه ، لأنه بصفة الخالقية فيه خلـق ، وهـو رازق قبل أنْ يخلـق المـرزوق ، فالصفة موجودة فيـه قائمة به ، وبوجود هذه الصفات فيه يقول للشيء : كُنْ فيكون .

وإذا جاء الرسول وأبلغنا أنَّ الله هو الذى خلق الشمس ، فإما أنْ يكون صادقاً فنُسلِّـم جميعـاً بأنَّ الله هو الخالق والموجد ، وإما أنه غير صادق فنقول : لماذا لم يخرج إذن أحد يدَّعى أنه هو الذى خلقها .

ولكـن دقـة وإعجـاز الخلق الذى لا يمكـن أنْ تصل إليه قـوة بشرية مفردة ، أو قـوى بشرية متعددة متعاونة ، جعـل القضية محسومة له سبحانه وتعالى، وإلى أنْ يأتـى مَنْ يدَّعى أنه خلق شيئاً من الكون – ولن يأتى – فقضية الخَلق محسومة لله سبحانه، ولا يوجد هنـاك منـازع .

ويأتى رسولٌ ليقول : إن خالق الأرض والشمس والسماوات والكون هو الحقّ سبحانه وتعالى ، فلم يأتِ أحدٌ يدَّعى أنه قد خلق شيئاً من هذا ، مما يؤكد صحة دعوى الرسول ، مما يؤكد أن مَنْ أوجد هذا الكون هو قوة بلا حدود ، وقدرة بلا قيود .

والحـق سبحانه يسـأل : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ [الطـور]

فـإذا كان الجـواب لا هـذا ولا هـذه ، فلا هم خُلقـوا هكذا من غـير شيء ولا هـم الخالقـون . إذن فلابدّ أنْ هنـاك خالقاً وموجداً لنا ، فـإذا جاء لنا الرسول وأبلغنا: إنَّ خالق هذا الكون وخالقنا هو الله فلابد أنْ نُصدِّقه ، لأنه لم يدَّعِ أحدٌ ولا يستطيع أنْ يدَّعى أنه خالق هذا الكون أو أنه خلق نفسه .

والله هـو الخالـق بتدبير دقيق ، ولله سبحانه آيات فى كونه ، فحينما تتأمل فـى كَـوْن الله من حولك تجـد آيات تـدلّ على إبـداع الخالق سبحانـه وعجيب صَنْعته، وتجد تنـاسقـاً وانسجاماً بين هذه الآيات الكونية .

يقـول تعالى عن هـذا النوع من الآيـات : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْـلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَـرُ.. (٣٧)﴾ [فصلت] ، ﴿وَمِـنْ آيَاتِـهِ الْجَـوَارِ فِـى الْبَحْـرِ كَالأَعْـلامِ (٣٢)﴾ [الشورى] ، وهذه الآيات تلفتنا إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

والخالـق جـلَّ وعلا خلق الكون بأرضه وسمائه ، وخلق الخَلْق ، وأنزل القرآن ليُنظـم حياتهم ، وبعـد أن استتبَّ له الأمر لم يترك الكون هكذا يعمل ميكانيكياً، ولم ينعزل عن كونه وعن خَلْقه ، لأنهم فى حاجة إلى قيوميته تعالى فى خَلْقه.

وقـد يشـترك الخَلْق مـع الخالق فى بعض الصفات ، كما فـى قوله تعالى : ﴿فَتَبَـارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون] ، وقـال تعـالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. (١٧)﴾ [العنكبـوت]

ومعنـى ذلـك أن هنـاك خالقين غيره سبحانـه ، ومعنى الخَلْـق الإيجاد من عـدم ، فالذى جـاء بالرمل وصنع منه كوباً فهو خالق للكوب صانع له ، فأنت أوجدتَ شيئاً لم يكُنْ موجوداً ، والله أوجد شيئاً ، ولكنك أوجدت من موجود الله قبل أنْ توجد أنت .

فهـو إذن أحسـن الخالقـين فـى حـين لم يضـنّ عليـك ربُّـك بـأنْ ينصفك ويُسمِّيك خالقاً ، وهذا يُوجِب عليك أنْ تنصفه سبحانه وتقول :﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنـون]

والله تعـالى احـترم إيجـادك لمعـدوم فسمَّـاك خالقاً لـه ، ولم يضـنّ عليك فأعطـاك صفةً مـن صفاته إنما أخبرك أنه أحسن الخالقـين ، فهو سبحانه هو أحسن الخالقين ، وهو خير الرازقين ، وهو خير الوارثين ، وهو خير الماكرين .